المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

أرنولد توينبي

مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الثاني

ترجمة: فؤاد محمد شبل

مراجعة: محمد شفيق غربال

تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1715

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1715
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثانى)
- أرنولد توينبى
- فؤاد محمد شبل
- محمد شفيق غربال
- عبادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:
A Study of History (Vol. II)
By: Arnold J. Toynbee

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الثانى)

تـــــــأليف : أرنولـــد تــوينبى

ترجمــــــة : فـــؤاد محمــد شـبل

مراجعــــــة : محمد شـفيق غربــال

تقديم هذه الطبعة : عبـــادة كحيلـــة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ ـ ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثانى) / تأليف: أرنولد توينبى، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال.
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٥١٢ ص، ٢٤ سم
١- التاريخ
(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)
(ب) غربال، محمد شفيق، ١٨٩٤-١٩٦١ (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٠٧,٢

رقم الإيداع ٤٩٦٩ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 978-977-704-485-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

للمترجم

١ تقرير غرفة الإسكندرية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧

٢ ـ النظام المالى الإسلامى

٣ ـ عصب الحرب

٤ ـ الدستور السوفيتى

٥ ـ المدينة الفاضلة

٦ ـ السياسات الاقتصادية الدولية

٧ ـ دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى (ترجمة)

تحت الطبع

اقتصاديات القارة الإفريقية



تقديم

انتهى المطاف بالأستاذ توينبي فى الجزء الأول من هذه الدراسة التاريخية ، إلى بحث أسباب انهيار الحضارة التى يُجملها فى إخفاق الطاقة الإبداعية فى الأقلية المبدعة .

ويتطور الحال بهذه الأقلية بعد إصابتها بالعقم والقصور ، إلى التحول إلى مجرد أقلية مسيطرة . وترد أغلبية المجتمع على تحكم أقليته ؛ بعدولها عن بذل الولاء لها والابتعاد عن السير ورائها ، ومحاكاتها فى أعمالها . ويتلو تضعضع العلاقة بين أقلية المجتمع وأغلبيته ، انهيار وحدة المجتمع الاجتماعية .

ويرى المؤلف أنه يجب — من الناحية المثالية — على كل طاقة اجتماعية جديدة تُطلقها الأقليات المبدعة ، أن تُوجد نُظماً جديدة تستطيع بوساطتها تأدية رسالتها فى المجتمع الذى تتولى قيادته . فإن فرض وعجزت الأقلية المسيطرة عن إنجاز رسالتها وأصرّت على استخدام النظم البالية القائمة على استخدام القوة الغاشمة التى أثبتت التجارب فسادها وضررها بالمجتمع ؛ لاستتبع ذلك تفكك النظم القائمة .

ثم يبحث الأستاذ المؤلف مسألة تحلل الحضارات . وعنده أن المجتمع ينقسم وقت تحلله إلى كسور ثلاثة :

أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

ولا يقتصر المؤلف على بحث العوامل المادية لتحلل الحضارات ، بل يبحث كذلك أسبابه الروحية .

ويمتاز هذا الجزء بالتحليل الرائع لأطماع اليهود ، وردّها إلى جذورها الأصلية فى صورة علمية جذابة . فإن الصهيونية لن تقنع بفلسطين وحدها ،

بل إن هدفها النهائى تكوين إمبراطورية مركزها القدس وتتحكم فى أقدار العالم الاقتصادية والسياسية . وقد أصبح تحقيق هذه الأطماع عملياً ، قوام العقيدة اليهودية منذ الأسر البابلى .

ويجد القارئ الكريم فى هوامش هذا الجزء طائفة من التفسيرات ، لعلها تساعده على الإلمام المنشود بآراء المؤلف وأفكاره .

والله تعالى أسأله التوفيق والرشاد .

١٤ يوليه سنة ١٩٦١ — فؤاد محمد شبل

الفصل السادس عشر

إخفاق تقرير المصير

(١) آلية المحاكاة

قادنا — حتى الآن — بحثنا عن علة انهيارات الحضارات ، إلى رتل من الاستنتاجات السلبية :

الأول : ليس الانهيار الحضارى من فعل القضاء والقدر ؛ بالمعنى الذى يعنيه رجال القانون .

الثانى : لا يعتبر الانهيار إعادات عابثة لقوانين الطبيعة الجامدة .

الثالث : لن يتيسر رد انهيارات الحضارات إلى فقدان السيطرة على البيئة ؛ طبيعية كانت أم بشرية .

الرابع : لا يرجع الانهيار إلى انحطاط فى الأساليب الصناعية أو التكنولوجية .

الخامس : لا يرد الانهيار إلى عدوان مهلك ، يشنه خصوم دخلاء .

وهكذا ، لما نصل بعد إلى هدف بحثنا ؛ بسبب صدوفنا عن قبول هذه التفسيرات ، الواحدة بعد الأخرى .

على أن البحث قد هيأ لنا بالفعل — بمحض الصدفة — دلالة فى شخص آخر المغالطات التى سردناها : تكشّفت لنا وقتما كنا نقيم الحجة على أن الحضارات المنهارة ، لم تواجه الموت على يد قاتل . إذ لم نجد سبباً لإثبات الزعم بأنها ضحايا العنف . وقادتنا عملية الاستنفاد المنطقى فى كل حالة تقريباً ، إلى العودة إلى الفكرة القائلة بأن « الانتحار » هو علة « الانهيار » .

وبالأحرى يتحوّل مناط غاياتنا إلى استخدام هذا الاستدلال فى تحقيق

شيء من التقدم الإيجابي في سياق بحثنا . وثمة بصيص من الأمل في أن يوفقنا هذا الرأي إلى غايتنا .

ولكن تكهّن شاعر غربي[1] في بهديهة وقّادة بالنتيجة التي توصلنا نحن إليها ، بعد نهاية بحث شاق بعض الشيء :

في مأساة الحياة ، أدرك الله
عدم ضرورة الشرير ، أن الانفعالات هي التي تحيك الأحبولة
إننا خدعنا بما هو مزيّف في داخلها .

على أن « وميض الفراسة » هذا ، لم يكن كشفا جديدا . إذ يمكننا العثور عليه في مراجع أسمى وأقدم . إنه يتبدّى في الخطوط الأخيرة من الملك جون لشكسبير :

إن إنجلترا هذه لم يسبق لها أبداً ، ولن تفعل في المستقبل
أن تنحني على قدم فاتح فخور
ولكن وقتما كادت في بدء الأمر أن تطعن نفسها
لا شيء مطلقاً يجعلنا نندم
إن استكانت إنجلترا لنفسها حقيقة .

كذلك تتبدى الفكرة في كلمات السيد المسيح[2] :

« ألا تفهمون بعد ، أن كل ما يدخل الفم ، يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج . وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر . وذاك يُنجسُ الإنسان . لأن من القلب تخرج أفكار شريرة : قتل ، زنى ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، تجديف . هذه هي التي تنجس الإنسان ،

هنا نتساءل عن نقطة الضعف التي تعرّض حضارة نامية إلى خطر العثرة والوقوع في منتصف حياتها الجارية ، وفقدان وثبتها البروميثية[3] .

---

(١) نقلا عن ديوان « عشق القبر » من نظم ميرمديث . (المؤلف)
(٢) انجيل متى الإصحاح ١٥ وآيات ١٧ – ٢٠) : الترجمة العربية . (المترجم)
(٣) نسبة إلى بروميثوس الذي كان يعتبر إله العلوم والمعرفة عند اليونانيين . (المترجم)

لا بد وأن الضعف كامن أصيل . لأنه وإن كانت كارثة الانهيار تُعتبر عرضاً وليست يقيناً إلا أنه ظاهر أن المخاطرة تُنذر بأوخم العواقب . فإننا نواجه حقيقة مدارها ؛ أن من بين الواحد والعشرين حضارة التي ولدت على قيد الحياة واستمرّت في نموّها ؛ ثمة ثلاث عشرة حضارة قد ماتت ووُوريت التراب ، وأن سبعاً من الثمانية في طريق الانحلال كما هو ظاهر . أما بالنسبة للثامنة — أي الحضارة الغربية — فلعلها — وفقاً لعلمنا — قد بلغت ذروتها .

ويُبدى الاستقصاء التجريبي ، أن خط سير الحضارة النامية مُفعم بالخطر . ويكمن هذا الخطر — باستخدامنا تحليل الارتقاء مرة أخرى — في نفس طبيعة السبيل الذى يُقيّض للحضارة النامية سلوكه .

وما الارتقاء إلا فعل صادر عن الشخصيات والأقليات المبدعة . لكنها ذاتها تقعد عن التحرك إلى الأمام ، إلا إن تحايلت على حمل رفاقها معها في طريق تقدّمها . ولن يتيسر لجمهرة البشرية الساحقة العاطلة عن الإبداع ، أن تتشكل جميعها وأن ترتفع إلى وضع زعمائها في لمح البصر[١] . وهذا يستحيل تحقيقه من الناحية العملية . لأن الفيض الروحانى الداخلى الذى يتخذه وميض القربان المقدس لإضرام نفس خامدة لترتفع إلى مرتبة القديسين ، يندر وجوده إلى أعظم حد ، ندرة المعجزة التي جادت بالقديسين إلى الوجود .

وبالأحرى ؛ ينصرف واجب الزعيم ، إلى تحويل زملائه إلى أتباع له . وفي وسع جمهرة البشرية التحرك صوب هدف أبعد عن متناولها ، باتخاذ وسيلة واحدة ؛ مدارها تجنيد صفة المحاكاة البدائية والعالمية لخدمة الهدف المنشود . فإن المحاكاة هى ضرب من التدريب الاجتماعى . فإذا كانت الآذان الكلية تصم عن سماع موسيقى قيثارة « أورفوس العلوية » ، فإنها تتجاوب مع الأمر الذى يصدره معلّم التدريب . ألم يحدث في عهد فردريك وليم ملك

---

(٣) يعنى الأستاذ المؤلف ، ارتفاع جمهرة الناس إلى مرتبة العبقرى الذى يوحى بالفكرة المبدعة في لحظة لا تطول عن لمح البصر . (المترجم)

بروسيا أن كانت أغلبية الحاضرين تقف فى بلاده وتتحرك حركة آلية أثناء إيقاع زمّار هاملين Hamelin ، إلى أن حاكى بمزماره صوت الملك ، فاندفع الناس جميعاً فى نشاط عارم ؟

ومن ثم فإن التطور الذى أحدثه الزمار بإيقاعه لم يفلح إلا فى تحريكهم حركة بليدة . أى أنهم عجزوا عن التجاوب معه وفشلوا فى اللحاق به ، إلا بعد أن سلك بهم طريقاً قصيراً يقود إلى غايته .

ولن يتأتى لهم مجال ؛ السير المنتظم ، إلا بالانتشار على الطريق الواسع الذى يقود إلى الدمار . وعندما يقتضى مطلب الحياة وطء طريق الدمار ، لا يستغرب إذاً ، أن ينتهى المطلب نفسه بكارثة .

وفضلا عن ذلك ؛ فإن ثمة ضعفاً فى مباشرة المحاكاة مباشرة واقعية ، مع صرف النظر تماماً عن الوسيلة التى قد تستغل بها ملكة المحاكاة . وذلك لأنه لما كانت المحاكاة نوعا من التدريب ، فإنها بالتالى ضرب من توجيه حياة البشر وحركتهم توجيهاً آلياً .

وإذ نتكلم عن « الميكانيكية المبتكرة » أو الميكانيكى الحاذق » ؛ توحى الكلمات بفكرة انتصار الحياة على المادة ، وانتصار المهارة البشرية على الصعوبات المادية . وتشير أمثلة معينة إلى نفس الفكرة : من الفونوجراف[1] أو الطيارة ، حتى نرجع القهقرى إلى أول عجلة أو تكون من خشب مقور : لأن هذه المخترعات قد وسّعت قدرة الإنسان على السيطرة على بيئته ، بفضل تمرّسها على أشياء جامدة إلى أن أصبحت تنفّذ الأغراض البشرية ، على غرار قيام المخلوقات البشرية المطبوعة على الفكر الآلى ، بتنفيذ أوامر الجندى المدرّب . فإن الجندى إذ يدرّب شرذمة ، يستطيع بوساطتها أن يغدو برباروس[2] ، الذى كانت أيديه وأرجله المائة تطيع إرادته بسرعة . والمثل

(١) آثرت استخدام الاصطلاح المألوف المستعمل للتعبير عوضاً عن كلمة (الحاكى) لأنها لا تمثل فى نظرى حقيقة الاصطلاح . (المترجم)

(٢) تذكر الأساطير اليونانية أنه كان جباراً ذا مائة ذراع . ويطلق على الإنسان ذى السلطان الواسع . (المترجم)

يقال عن التلسكوب ، فإنه امتداد لمجال البصر البشرى ، والبوق امتداد للصوت البشرى ، والركزة[١] امتداد للساق البشرية ، والسيف امتداد للذراع البشرى .

ويبدو كما لو أن الطبيعة قد أطرت الإنسان على فراهته ، بوساطة تنبؤها باستخدامه الأساليب الميكانيكية . لأن الطبيعة ذاتها قد استخدمتها على نطاق واسع فى أعظم مآثرها « الجسم البشرى » . ومصداقاً لذلك نجدها تشيّد فى القلب والرئتين آلتين منظمتين تنظيما ذاتياً تعتبران أنموذجين لنوعهما .

ولقد تيسر تخليص حدود طاقاتنا من إسار الواجبات الرتيبة المتكررة التى تؤديها أعضاء الجسم ؛ بفضل قيام الطبيعة بتنسيق وظائفها لتعمل فى صورة آلية ؛ فأمكن والحالة هذه إطلاق سراح هذه الطاقات لتتحرك وتتحدث . وبكلمة جامعة انطلاق واحدة وعشرين حضارة إلى الوجود .

إن الطبيعة قد نسقت حوالى التسعين فى المائة من وظائف الجسم ، بحيث تسير وحدها . أى بأقل جهد يبذل . وعندئذ يتيسر تركيز أقصى كمية ممكنة من الطاقة الباقية على العشرة فى المائة التى فيها تتلمس الطبيعة طريقها صوب تقدم غض . وحقاً يتكوّن الكيان الطبيعى – مثلما يتكون المجتمع البشرى – من أقلية مبدعة وأغلبية من « الأعضاء » غير المبدعين . ونجد فى الجسم النامى السليم ، مثلما نجد فى المجتمع السليم ؛ أن الأكثرية تدرّب لتتبع قيادة الأقلية ، بصفة آلية .

بيد أننا إذ نضل الطريق فى غمرة الإعجاب بهذه الانتصارات الميكانيكية الطبيعية والبشرية ، فإن ذهننا يتشوش عندما ننبه إلى وجود عبارات أخرى تتصل بالسلع التى تصنعها الآلات ، السلوك الآلى . فإن مفهوم كلمة « آلة » فى هذه العبارات ، نقيض ما قدمناه . فإنها لا توحى

---

(١) إحدى خشبتين بهما نتوءان للمشى بهما . (المترجم)

بانتصار الحياة ، على المادة ولكن بانتصار المادة على الحياة . وذلك لأنه على الرغم من أن الآلة قد صممت لتكون عبداً للإنسان ، يحتمل كذلك أن يغدو الإنسان عبداً للآلة . وبالحرى يصبح للجسم الحى الذى يكوّن الطابع الآلى منه تسعين فى المائة من كيانه ؛ فرصة أو قدرة متاحة للإبداع ، أعظم مما يتاح لجسم يكوّن طابعه الآلى ، نسبة خمسين فى المائة من كيانه فقط . فلو لم يضطر سقراط إلى تجهيز طعامه بنفسه ، لتوافر له وقت أطول وفرصة أعظم لكشف سر الكون . على أن الجسم الذى تكوّن نسبة الآلية فيه تسعين فى المائة ، إن هو إلا مجرد « إنسان ميكانيكى » .

وهكذا فإن مخاطرة النكبة ، سليقة فى استعمال ملكة المحاكاة التى هى عجلة التحول الآلى فى علاقات البشر الاجتماعية . وتغدو هذه المخاطرة – كما هو ظاهر – أشد وقعاً ، وقتما تُوضع المحاكاة موضع التنفيذ ، فى مجتمع فى حركة ديناميكية ؛ عنها لو وضعت فى مجتمع فى حالة هجوع .

ويكمُن ضعف المحاكاة ، فى كونها عملية استجابة لإيعاز يفد من الخارج . ومن ثم ؛ ما كان لينجز الفعل المنجز لو ترك أمر انجازه إلى رغبة الشخص الذى تولى أمر الفعل .

وبالتالى ؛ فإن فعل المحاكاة ، فعل غير مستقل بخططه . ويلزم لضمان إنجازه ، وجوب بلورة ملكة المحاكاة فى العادة أو العرف – كما هو حادث بالفعل فى المجتمعات البدائية التى لا تريم عن حالة الين(١) . بيد أنه عندما تُقطع « قرصة العادة » ، يعاد توجيه ملكة المحاكاة – التى ظلت توجه حتى هذا الوقت إلى الخلف ، صوب المسنين أو الأجداد ، باعتبارهم تجسيدا للتقليد الاجتماعى الغير المتغير – صوب الشخصيات المبدعة التى تهوى قيادة رفاقها معها صوب أرض الميعاد(٢) . ويلتزم المجتمع الآخذ فى الارتقاء من الآن فصاعداً ، بأن يعيش حياة تحمل طابع المجازفة .

---

(١) حالة السكون . (المترجم)

(٢) أى صوب الارتقاء إلى حالة أفضل . (المترجم)

وفضلا عن ذلك ؛ فإن المخاطرة وشبكة الوقوع دواماً . ما دام الشرط المطلوب للاحتفاظ بالارتقاء ، يتسم دواماً بالمرونة والتلقائية . فى حين يتمثل الشرط المطلوب لتحقيق المحاكاة الفعالة — التى هى ذاتها ضرورة لازمة للارتقاء — فى توافر درجة جوهرية من ذاتية الحركة الشبيهة بالآلة . ولقد كان ثانى هذين الأمرين فى ذهن والتر باجهوت ؛ وقتما أنبأ قراءه الإنجليز بطريقته التهكمية ، بأن قدراً كبيراً من نجاحهم النسبى كأمة « يرجع إلى غبائهم » . أما إن الزعماء أخيار فنعم ، إلا أن الزعماء الصالحين لن يتوافر لهم أتباع صالحون ، إن اعتزمت جمهرة هؤلاء الأتباع أن تفكر لنفسها . على أنهم لو كانوا جميعاً أغبياء ، فأين موضع الزعامة ؟

وحقاً تُعرض الشخصيات المبدعة التى تتصدر الحضارة والتى استنجدت بالمحاكاة الآلية ، تعرّض نفسها لخطورة العجز فى ناحيتين :

الأولى : سلبية ؛ ويتمثل احتمال عجزها فى أن الزعماء قد يصيبون أنفسهم بأنفسهم ، بعدوى النوم المغناطيسى الذى بثوه هم فى أتباعهم . وعندئذ يحصل الأفراد على صفة القراهة بثمن جائح مداره فقدان القادة عنصر الإقدام . وهذا مصداق لما حدث للحضارات المتعطلة ، وما حدث فى كافة فترات تواريخ الحضارات الأخرى التى تعتبر فترات ركود . ومع ذلك لا يعدّ هذا العجز السلبى عادة نهاية القصة . فإنه عندما يتوقّف القادة عن القيادة ، يتحول سند قوتهم إلى تعسّف . هنا يتحوّل أفراد الناس فيسعى القادة إلى استعادة النظام باستخدام إجراء صارم . والآن يناضل أورفوس — الذى فقد قيثارته أو نسى طريقة العزف بها — نضال الأبطال ، ومعه كرباج أجزركسيس .

الثانى : إيجابية ، تنتج عن استخدام القادة العنف للاحتفاظ بقيادتهم . إذ يُحدث ذلك صخباً ، يستحيل التكوين العسكرى معه إلى فوضى . ولقد سبق لنا المرة بعد المرة ، استخدام اسم آخر للعجز الإيجابى هو « تحلل الحضارة » المنهارة الذى يعلن عن نفسه فى « انشقاق البروليتاريا » عن عصبة من الزعماء الذين الذين تحللوا إلى « أقلية مسيطرة » .

ولقد يُعتبر انفصال جمهرة الناس عن الزعماء ، بمثابة انتفاء التناسق بين الأجزاء التى تؤلف مجموع المجتمع بأسره . وأن انتفاء التجانس بين الأجزاء فى أى مجموع يتألف من أجزاء ، يقتضى من المجموع بأسره ثمناً يتجلّى فى صورة خسارة مطابقة لتقرير المصير . وأن خسارة تقرير المصير هذه ، هى القاعدة النهائية لتقرير المصير . وأن فقدان تقرير المصير هذا ، هو قاعدة انهيار الحضارة بصفة نهائية .

وأخيراً انتهى بنا النقاش فى قسم سابق من هذه الدراسة ؛ إلى نتيجة مؤداها أن ارتقاء صوب تقرير المصير هو قاعدة الارتقاء .

وعلينا الآن أن نفحص طائفة من النماذج التى يتبدّى فيها فقدان تقرير المصير بسبب انتفاء التجانس .

(٢) خمر جديدة فى زِقاق عتيقة

١ – تعديلات وثورات وانحرافات:

ينبنى على إقحام القوى الاجتماعية الجديدة فى مجتمع من المجتمعات ، إحداث تنافر فى النظم التى يتألف منها هذا المجتمع : سواء تألفت تلك القوى من ميول أو انفعالات أو آراء ؛ لم تكن النظم القائمة قد هيئت فى الأصل لتقبلها . ويشير قول من أشهر الأقوال التى تُعزى إلى السيد المسيح إلى النتيجة المدمّرة لهذه المقارنة القاصرة للأشياء ؛ جديدها وقديمها :

« ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق . لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ . ولا يجعلون خمراً جديدة فى زقاق عتيقة ؛ لئلا تنشق الزقاق ، فالخمر تنصب والزقاق تتلف . بل يجعلون خمراً جديدة فى زقاق جديدة فتحفظ جميعا[١] » .

ويتأتى – بلا ريب – تنفيذ الشىء المحسوس حرفياً فى الاقتصاد المنزلى الذى اقتبس منه هذا التشبيه . بيد أنه تتقلّص كثيراً قوة الرجال على تنظيم

(١) الإصحاح التاسع آيتا ١٦ و ١٧ من الترجمة العربية من إنجيل متى . (المترجم)

شؤونهم وفقاً لإرادتهم ، على أساس خطة مطابقـــة للعقل فى اقتصاد الحياة الاجتماعية . طالما أن المجتمع ليس ملكا لمالك واحد ، مثل زق الخمر أو الثوب . فإن المجتمع هو الميدان الذى يضم الكثير من ميادين الفعل الإنسانى . ولهذا السبب يعتبر المحسوس – الذى يتفق عقلا مع الاقتصاد المنزلى ومع الحكمة العملية فى الحياة الروحية – أسمى مراتب العدالة القُدسية فى الشؤون الاجتماعية .

ولا ريب أن المثالية تتطلب أن يصحب القوى الديناميكية الجديدة ، إعادة تشييد مجموعة النظم القائمة بأسرها : وأن يُعاد فى أى مجتمع فى حالة نمو فعلى تنظيم المفارقات التى تتسم بالنشوز أكثر من غيرها ؛ تنظيما مستمرا .

لكن قوة القصور الذاتى(١) تنحو فى جميع الأوقات إلى الاحتفاظ بمعظم جوانب الكيان الاجتماعى كما هى . وذلك على الرغم من عدم مجانستها – بصورة متزايدة – مع القوى الاجتماعية الجديدة التى تفد إلى الفعل على الدوام .

وتستطيع القوى الجديدة فى ظل هذا الموقف أن تنجز عملها بطريقتين متضادين ، متعارضين من ناحية تزامنهما(٢) .

الأولى : تحقق عملها الخلاق بوساطة النظم القديمة التى واءمتها مع غايتها . وتحقيقاً للصالح العام للمجتمع ، تتجه تلك النظم إلى إسالة نفسها فى هذه القنوات المنسّقة .

الثانية : تنضوى هذه القوى كذلك فى نفس الوقت – بغير تمييز – تحت أية نظم يتصادف وقوعها فى طريقها . مثلها مثل نوع من هامة بخار قوية شقّت طريقها إلى موضع المحرّك ؛ فإنها قد تندفع صوب بناء أى محرك قديم يتصادف إقامته هناك .

وفى مثل هـــذه الحالة ، تتجه أى من هاتين النكبتين المتعاقبتين نحو أحد سبيلين :

الأول : ينسف ضغط هامة البخار الجديدة المحرّك القديم إربا .

---

(١) Vis intertiae

(٢) التزامن : الحدوث فى نفس الزمن . (المترجم)

الثانى : يتجه المحرك القديم بطريقة ما إلى تماسك أجزائه ويشرع فى العمل بأسلوب جديد يُحتمل أن يدلل على أنه مدمّر ومخيف معاً .

فإن ترجمنا هذه الرموز إلى مصطلحات الحياة الاجتماعية ، تبين لنا :

أولا : ترمز انفجارات المحركات القديمة التى تعجز عن الصمود للضغوط الجديدة ، أما انفجارات القنينة التى لا تصمد لتخمّر النبيذ القديم ، فإنها ترمز إلى الثورات التى تباغت النظم المتناقضة ، فى بعض الأوقات .

ثانيا : ترمز الأفعال الضارة التى تُحدثها المحركات التى صمدت لمجاهدة أعمال أُلزمت بالقيام بها ، إلى الانحرافات الاجتماعية التى يولّدها فى بعض الأحيان تناقض النظم المحافظة .

وقد توصم الثورات بأنها معوّقة ، وأنها أفعال محاكاة عنيفة فى تطابقها . ويعتبر عنصر المحاكاة من جوهر ذاتها . لأن لكل ثورة ، إسنادا إلى شىء حدث فعلا فى مكان آخر .

ومن المعروف دائماً — عند ما ندرس ثورة من الثورات فى وضعها التاريخى — أن نشوبها لا يحدث بنفسه ، ولكن يستثيره دور سابق لقوى غريبة . ويطالعنا فى هذا الشأن مثال واضح هو ثورة ١٧٨٩ الفرنسية التى استمدت إلهامها — من ناحية — من الأحداث التى جرت قبيل ذلك الوقت فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية[1] . وهى أحداث ساعد على إيجادها ، النظام الفرنسى القديم ، فكأنه بهذا كان يقدم على الانتحار . كما استمدته — من ناحية أخرى — مما حققته إنجلترا ، أو أشاعه فى فرنسا جيلان من الفلاسفة : من مونتسكيو وما بعده .

وبالمثل ، نجد عنصر التقصير من جوهر الثورات . وهو المسئول عن العنف الذى يعتبر أظهر سمات الثورات . وترجع روح العنف فى الثورات

---

(١) هى الولايات الثلاث عشرة التى أصبحت بعد ذلك نواة الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم)

إلى أنها الانتصارات المخلّفة لقوى اجتماعية قوية جديدة على نظم قديمة متزمّتة ، تعارض بحكم طبيعتها تعبيرات الحياة هذه ، وتعوّق سيرها فترة من الزمن . وكلما طال أمد الإعاقة ، كلما عظم ضغط القوة بفعل سدّ منفذ انطلاقها .وكلما عظم الضغط ، كلما اشتد عنف الانفجار الذى ينطلق فى نهاية الأمر من خلال القوة المتحجرة .

أما بالنسبة للأفعال الاجتماعية الشاذة التى تعتبر بديلا للثورات ؛ فما هى إلا الجزاءات التى ينبغى على المجتمع أداؤها ، حين لا يقتصر الأمر على تعويق فعل المحاكاة بل يُبطل كلية . وهذا الفعل أجدر به أن يجعل النظام القديم متجانساً مع القوة الاجتماعية الجديدة :

فواضح – من ثم – وجود ثلاث نتائج تنتصب أمام المجتمع القائم ، ليختار إحداها ، إن تعرّض نظامه لتجدّ قوة اجتماعية جديدة :

الأولى : إجراء تعديل فى كيان المجتمع ليتّسق مع القوة الاجتماعية الجديدة .

الثانى : نشوب ثورة تعتبر بمثابة تعديل مؤجّل ، يتسم بتنافر أوضاعه :

الثالث : إتيان أفعال اجتماعية تتسم بالشذوذ .

وظاهر كذلك احتمال تحقق أى من هذه الاختيارات فى أقسام مختلفة من نفس المجتمع – فى دول قومية مختلفة مثلا – إن كان ذلك هو النمط الذى يترابط بوساطته المجتمع . فإذا سادت التعديلات المتجانسة ، يستمر المجتمع فى الارتقاء . فإن تغلّبت الثورات ، يتعرض ارتقاء المجتمع لخطر متزايد . فإن سادت الاتجاهات الاجتماعية الانحرافية ؛ نستطيع أن نستشف من ذلك إمارات انهيار المجتمع .

وسنسوق طائفة من الأمثلة تفسر القاعدة التى أوردناها :

٢ ــ ضغط الصناعية[١] على الرق :

انطلقت قوتان اجتماعيتان ديناميكيتان جديدتان من عقالها فى غضون القرنين الأخيرين :

الصناعية ، والديمقراطية . ولقد كان الرق أحد النظم القديمة التى اصطدمت بها هاتان القوتان .

والرق نظام خبيث ، ساهم إلى أبعد مدى فى انحدار المجتمع الهلينى وسقوطه . على أنه فشل تماماً فى أن يحقق لنفسه مركزاً ثابتاً فى المواطن الأساسية للمجتمع الغربى ؛ وإن كان قد شيّد لنفسه مراكز فى طائفة من المناطق الجديدة فيما وراء البحار منذ القرن السادس عشر وما تلاه . بيد أن الرق لم يستفحل أمره كثيراً وتشتد وطأته ، إلا بعد انقضاء وقت طويل .

ولما أخذت القوى الجديدة للديمقراطية والصناعية تشعّ من بريطانيا العظمى إلى بقية العالم الغربى منذ نهاية القرن الثامن عشر ، كان الرق ما يزال محصوراً من الوجهة العملية فى المستعمرات النائية . بل إنه حتى هناك ، كان ظلّه فى المساحة التى يشيع فى أرجائها فى انحسار متصل . ولم يقتصر ساسة مثل واشنجتون وجفرسون ممن كانوا أنفسهم مالكى أرقاء على التوجّع لبقاء النظام ، بل إنهم نزعوا إلى التفاؤل باحتمال القضاء على النظام سلمياً خلال القرن التالى .

على أن سَوْرة الثورة الصناعية فى بريطانيا العظمى قد كبحت جماح هذه النظرة المتفائلة ؛ باستثارتها إلى مدى هائل ، الطلب على المواد الأولية التى كان العمل المسترق يقوم على إنتاجها . وبالأحرى هيأ ضغط الصناعية ، فترة حياة جديدة لنظام الرق الذابل الذى تسوده روح التناقض . فأصبح على المجتمع الغربى بالتالى ؛ أن يختار بين اتخاذ أنجع السبل للقضاء على الرق فوراً ،

---

(١) الصناعية : اصطلاح وضع ليعبر عن اتجاه المجتمع صوب استخدام الأساليب الآلية فى الإنتاج . ويقابله بالإنجليزية كلمة Industrialism . (المترجم)

أو ترك خطر هذه الآفة الاجتماعية العتيقة يستشرى إلى أن تستحيل بفعل قوة الصناعية الدافعة ، إلى خطر يهدد حياة المجتمع .

إزاء ذلك انبعثت فى كثير من مختلف دول العالم الغربى القومية ؛ حركة تناهض الرق ، ظفرت ببضعة مكاسب سلمية . بيد أن ثمة منطقة هامة عجزت الحركة المناهضة للرق أن تشق طريقها فيها سلمياً ؛ تلك هى « المنطقة القطنية » فى الولايات الجنوبية من الاتحاد الأمريكى الشمالى . إذ لبث دعاة الرق يتسنمون زمام الحكم طوال جيل بأسره . فى حين استفحل أمر نظام الرق الشاذ فى الولايات الجنوبية واتسع نطاقه اتساعاً مريعاً خلال هذه الفترة القصيرة بين عامى ١٨٣٣ (عام تحريم الرق فى الإمبراطورية البريطانية) وعام ١٨٦٣ (عام إلغاء الولايات المتحدة الرق فيها) . بيد أنه أمكن الحد من قوة هذا المسخ وتدميره فى النهاية ، وأن تطلب القضاء عليه ثمناً ، تمثل فى ثورة عارمة ، ما تزال نتائجها ماثلة للعيان فى الوقت الحاضر . وهذا لعمرى هو ثمن التقصير الذى صاب ملكة المحاكاة :

ولعله ما يزال على المجتمع الغربى أن يهنئ نفسه ، فإنه رغماً عن اقتضاء هذا الثمن ، أزيلت آفة الرق الاجتماعية من آخر حصونها الغربية ؛ وعلينا واجب إزجاء الشكر لقوة الديمقراطية الحرة التى وفدت إلى العالم الغربى لتحقق هذه المرحمة قبل انبعاث النزعة الصناعية بقليل : وأن الشهرة التى أسبغت على لينكولن المنشئ الأساسى لفكرة القضاء على الرق واعتباره بحق أعظم الساسة الديمقراطيين ، أمر ليس من قبيل المصادفة ؛

وإذا كانت الديمقراطيـــة هى التعبير الأساسى عن مذهب تقديس « الطبيعة البشرية » ، وإذا كان هذا المذهب هو والرق عدوين لدودين كما هو ظاهر ؛ فإن الروح الديمقراطية الجديدة ، قد بثت فى الحركة المناهضة للرق ، قوة دافعة ؛ فى نفس الوقت الذى كانت الصناعية الجديدة تبث فى الرق قوة دافعة كذلك .

ولو لم تكبح دفعة الديمقراطية إلى حد كبير ، دفعة الصناعية ، إبان الصراع ضد الرق ، لما تيسر للعالم الغربي أن يتخلص من الرق بسهولة .

٣ – ضغط الديمقراطية والصناعية على الحرب :

من تحصيل الحاصل القول بأن صدمة الصناعية قد ضاعفت من أهوال الحرب ، مثلما ضاعفت من أهوال الرق .

والحرب نظام قديم آخر يتسم بتناقضه . وتُستنكر الحرب لأسباب معنوية ، على نطاق يكاد أن يتماثل مع ما هو حادث بالنسبة للرق . وثمة كذلك مدرسة فكرية واسعة النفوذ تستخدم حججاً عقلية بحتة للدلالة على أن الحرب – مثل الرق – لا تُكسب شيئاً ، حتى لهؤلاء الذين يعتقدون بأنهم يستفيدون من ورائها . ويؤيد ذلك ما كتبه أحد الجنوبيين عشية نشوب الحرب الأهلية الأمريكية ويدعى هـ . و . هلبر في كتاب عنوانه « أزمة الجنوب الوشيكة[1] » ليبرهن على أن مالكي الأرقاء لا يفيدون شيئاً من أرقائهم . بيد أن الطبقة التي سعى إلى تبصيرها بمصالحها الحقيقية قد تحاملت عليه لأسباب لا يصعب تفسيرها .

وكذلك كتب نورمان أنجل Norman Angel عشية نشوب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ كتاباً عنوانه « وَهْم نظرة أوروبا » ؛ برهن فيه على أن الحرب تجلب خسارة قاتلة للمنتصرين والمنهزمين على السواء . لكن الكتاب لم يكن له من تأثير سوى استنكار قسم كبير من الرأي العام ، لما ورد به من آراء . رغماً عن أن رغبة الجميع في السلام ، لم تكن تقل عن رغبة المؤلف الذي اعتبروه مارقاً .

ما هو إذن سبب إخفاق مجتمعنا حتى الوقت الحاضر في التخلص من الحرب ، مثلما وُفّق في التخلص من الرق ؟

الرد واضح : فإن قوتي الصناعية والديموقراطية الدافعتين ، قد وجهتا في وقت واحد ، ضغطهما ضد الرق ، عكس الأمر بالنسبة للحرب .

(١) H.R. Helper : The Impending Crisis of the south.

وإذا أرجعنا فكرنا القهقرى إلى حالة العالم الأوربى عشية انبعاث الصناعية والديمقراطية ؛ سنلاحظ أن الحرب كانت فى منتصف القرن الثامن عشر ، فى نفس وضع الرق . بمعنى أنها كانت فى أفول ، لا لأن الحروب كانت أقل شيوعاً – وإن تيسر التدليل على تلك الحقيقة نفسها من الوجهة الإحصائية(١) ، ولكن لأنها كانت تُدار بروح أكثر اعتدالا . ولقد كان مفكرونا الأحرار خلال القرن الثامن عشر ينظرون بازدراء إلى الماضى القريب ، وقلّما كانت الحروب تُثار فى إفراط مخيف بسبب حملة تحريض التعصب الدينى . وما إن طُرح هذا الشيطان جانباً خلال القسم الآخر من القرن السابع عشر ؛ حتى كانت النتيجة العاجلة ، الحد من شر الحرب إلى حد أدنى لم تبلغه قط فى أى فصل من فصول التاريخ الغربى ، سواء قبل هذا التاريخ أو بعده .

وانتهى فى ختام الثامن عشر عصر هذه الحروب المتحضرة نسبياً ، عند ما أخذت الحروب تُستثار بفعل حملة الديمقراطية والصناعية . وإن ساءلنا أنفسنا عن أى من هاتين القوتين قد قامت بالدور الأكبر فى اشتداد الحرب خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة ؛ ربما يخطر على بالنا للوهلة الأولى أن أعظم الأدوار شأناً تعزى إلى الصناعية . لكننا فى ذلك مخطئين .

إذ تجلّت أول الحروب الحديثة بهذا المعنى ؛ فى دوره الحروب التى افتتحتها الثورة الفرنسية ؛ ولقد كان ضغط الصناعية على هذه الحروب ، لا يؤبه له . ويُعتبر من الناحية الأخرى ضغط الديمقراطية – أى الديمقراطية الفرنسية – من الأهمية فى أعلى مكان . فإن نجاح الجيوش الفرنسية فى النفوذ – نفوذ السكين فى الزبدة – فى أساليب الدفاع القديمة التى كانت تملكها

---

(١) رغما عن أن ب . ا . سوروكين P.A. Sorokin – من ناحية الدليل الإحصائى الذى صنفه – يجد أن حدوث الحرب فى العالم الغربى كان أخف فى مجموعه أثناء القرن التاسع عشر منه فى القرن الثامن عشر . (المؤلف)

دول القارة الأوربية التى لم تتأثر بالثورة والتى ظلت محتفظة بأسلوب القرن الثامن عشر ، لا يرد إلى عبقرية نابليون الحربية وحدها ولا إلى حماس الجيوش الفرنسية الجديدة وحده ؛ بل إن مرده قبل أى شيء آخر ، مبادئ الثورة الفرنسية التى حملتها معها الجيوش الفرنسية إلى جميع جهات أوربا . فإذا احتاج هذا القول إلى دليل ، فإنه يكمن فى حقيقة مدارها أن جموع الجيوش الفرنسية الفجة قد حققت قبل ظهور نابليون فى الميدان ، أعمالا أصعب كثيراً من الأعمال التى حققتها جيوش لويس الرابع عشر المحترفة .

وعسانا أن نذكر أنفسنا كذلك بأن الرومانيين والآشوريين وغيرهم من الدول ذات الطابع الحربى العنيف فى العصور الماضيات ، قد حطمت الحضارات من غير مساعدة أى جهاز صناعى . ولكن فى الواقع باستخدام أسلحة تبدو أثرية ، لحامل البندقية ذات الزناد خلال القرن السادس عشر .

ويكمن السبب فى أن حروب القرن الثامن عشر كانت أقل شناعة عما كانت عليه قبل ذلك العهد ، إلى انتفاء استخدامها سلاحاً للتعصب الدينى . كما لم تكن قد أصبحت بعد ، أداة للتعصب القومى . إذ اعتبرت وقتذاك مجرد « لهو الملوك » . ولقد يكون استخدام الحرب لهذه الغاية السخيفة ، مما يزيد من النفور منها ، بيد أنه لا يمكن نكران تأثير ذلك فى التخفيف من حدة أهوال الحرب . إذ كان « اللاهوت الملكيون » يعلمون جيداً مقدار الترخيص الذى يسمح لهم به رعاياهم . فكانوا — من ثم — يحصرون أوجه نشاطهم فى نطاق تلك الحدود . ولم تكن جيوشهم تعبأ بطريق الخدمة العسكرية الإجبارية ولم تكن هذه الجيوش تعيش بعيداً عن البلد الذى يحتلونه مثل الجيوش المستخدمة فى الحروب الدينية . كما لم تكن تزيل من الوجود أعمال السلم ، مثلما تفعل جيوش القرن العشرين . وكان الملوك يراعون قواعد ملهاتهم الحربية ويضعون لأنفسهم أهدافاً متواضعة ويتعففون عن فرض شروط

ساحقة على خصومهم المنهزمين . وإن حدث – فى حالات نادرة – أن انتهكت حرمة هذه العهود ، كما حدث وقتما اجتاح لويس الرابع عشر الإمارة البلاتينية(١) خلال عامى ١٦٧٤ ، ١٦٨٩ ميلادية ، فإنها تصبح موضع استنكار الرأى العام الأوربى – سواء ضحايا العدوان أو المحايدون – مثلما حدث منه استنكار فظائع الجيش الفرنسى استنكاراً عاماً .

ويعتبر ماكتبه جيبون ، الوصف التقليدى لهذه الحالة :

« تقوم الجيوش الأوربية خلال الحرب بمخاصمات غير حاسمة تتسم بالاعتدال . ويستمر ميزان القوى يتأرجح . وقد تروج رفاهية مملكتنا أو الممالك المجاورة أو تكسد من الجهة الأخرى . بيد أن هذه الأحداث الجزئية لن تضير من ناحية الجوهر حالة هناءتنا العامة ، ولا نظام الفنون والقوانين والعادات التى تمنحنا ميزة على بقية العالم : أى على الأوربين ومستعمراتهم(٢) » .

ولقد امتد العمر بمؤلف هذه العبارة التى تفيض رضا مؤلما لتهز كيانه بداية دورة حروب جديدة ، جعلت رأيه لا محل له .

وكما قاد استفحال الرق إلى شن حملة ضده ترجع أصولها إلى ضغط الصناعية ، ترتب كذلك على استفحال الحرب بفعل ضغط الديمقراطية وما تبعه بعد ذلك بالطبع من ضغط الصناعية – إلى ظهور حركة تناهض الحرب .

إلا أن تجسد الحركة لأول مرة فى عصبة الأمم بعد نهاية الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ ، لم يُنقذ العالم من حرب عامة أخرى إبان ١٩٣٩ – ١٩٤٥ .

---

(١) إمارة كانت تقع أصلا جنوب شرق ألمانيا وتكوّن فى الوقت الحاضر جزءا من إقليمى الراين وبافاريا . (المترجم)

(٢) Oilbbon E. : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire Ch. XXXVIII ad finem.

ولقد حصلنا بثمن هذا المحنة الجديدة ، على فرصة أخرى لمحاولة تحقيق المشروع الصعب المنال المتصل بإلغاء الحرب ، بفضل إنشاء نظام تعاونى لحكم العالم ، عوضاً عن ترك دورة الحرب تسير فى طريقها حتى تنتهى فى زمن متأخر ومع الأسف الشديد ، بأن تقيم نوعاً من دولة تظل بعد الكارثة ، دولة عالمية . أما عن مدى توفيقنا فى عالمنا فى تحقيق ما لم توفق فيه حضارة أخرى حتى الآن فإنه موضوع رهن بإرادة الله .

٤ – ضغط الديمقراطية والصناعية على السيادة الإقليمية :

لماذا كان للديمقراطية التى يجهر المعجبون بها بأنها نتيجة الدين المسيحى والتى أظهر موقفها فى الرق أنها جديرة بتلك التسمية ، تأثيراً ضاراً ؟

مناط الرد على هـــذا السؤال حقيقة مبناها أن الديمقراطية قد اصطدمت بنظام السيادة الإقليمية قبل أن تصطدم بشرعية الحرب . وقد تولّد عن استجلاب القوتين الدافعتين الجديدتين للديمقراطية والصناعية ، إلى نظام الدولة الإقليمية القديم ، نظامان توأمان قبيحان : العصبية القومية السياسية والعصبية القومية الاقتصادية . فكان أن بثّت الديمقراطية قوتها الدافعة فى الحرب – بدلا من أن تعمل ضدها – فى هذا الشكل الاشتقاقى الفظ الذى انبعثت فيه روح الديمقراطية الأثيرية ، من انتقالها عبر وساطة دخيلة .

كان المجتمع الغربى فى وضع سعيد إبان القرن الثامن عشر ، وهى الفترة التى سبقت عصر ظهور القومية . إذ لم تكن الدول ذات السيادة الإقليمية فى العالم الغربى – خلا استثناء أو اثنين هامين – قد تطورت إلى أدوات لتنفيذ الإرادة العامة لمواطنيها . فلقد كانت تلك الدول تعتبر – افتراضياً – أملاكاً خاصة للأسرات المالكة . وبالأحرى كان يتم عن طريق الحروب الملكية والزيجات الملكية ، انتقال ملكية هذه الأملاك أو أجزاء منها ، من أسرة مالكة إلى أخرى . وظاهر أن طريقة الزيجات الملكية ، كانت تفضُل الحروب . ومصداقا لذلك ، قامت سياسة بيت هابسبرج على العبارة

المشهورة « دع الآخرين يشنون الحروب ، أما أنت أيتها النمسا السعيدة ، فتزوجي »(١) . وتوحي نفس أسماء الحروب الثلاث الرئيسية التي نشبت النصف الأول من القرن الثامن عشر : حروب الوراثة الأسبانية والبولونية والنمسوية ؛ بنشوب الحروب في حالة تردّي ترتيبات الزواج الملكي في مأزق معقّد .

ولا شك في وجود شيء من التفاهة والدناءة — إلى حد ما — بالنسبة لهذه الديبلوماسية القائمة على الزيجات الملكية . فإن عهداً ملكياً تنتقل بمقتضاه المقاطعات وسكانها ، مثلها مثل الضياع بما عليها من مواش ؛ فكرة تثير مشاعر عصرنا الديمقراطية .

بيد أنه كان للقرن الثامن عشر معاوضاته التي تتمثل في أنه إذا كان ذلك القرن قد انتزع ضياء الوطنية ، إلا أنه قد أخـــذ منها لسعتها في نفس الوقت . وهذا ما تُنبئنا به عبارة مشهورة تماما وردت في كتاب ألفه « ستّرن » تحت عنوان « رحلة عاطفية » ذكر فيها المؤلف أنه سافر إلى فرنسا آمناً ناسياً أن بريطانيا العظمى وفرنسا كانتا مشتبكتين في حرب السنوات السبع ؛ وبعد شيء من المضايقة مع البوليس الفرنسي ، مكّنه صنيع نبيل فرنسي — لم يكن يعرفه قبل ذلك — من متابعة رحلته دون حدوث مكدّر آخر . ولما أصدر نابليون أوامره بعد ذلك بأربعين سنة — عقب نقض معاهدة آمين Amiens بضرورة اعتقال كافة المدنيين البريطانيين الذين تتراوح أسنانهم بين الثامنة عشر والستين والذين يتصادف وجودهم بفرنسا وقت صدور تلك الأوامر ؛ اعتبر ذلك مثالا للوحشية الكورسيكية ، وصف بمقتضاه ولنجتون نابليون بعبارته المأثورة « أنه ليس سيداً مهذباً » . على أن نابليون التمس لمسلكه المعاذير . بيد أن ما فعله وقتئذ يعتبر أقل ما تلجأ إليه أكثر الحكومات الحديثة إنسانية وأوسعها حرية ،

---

(١) Bella gerant alii, tu, felix Austria, nube

باعتباره عملا مشروعاً منطقياً فى ظل تلك الظروف . فإن الحرب الآن « حرب شاملة » ، بسبب صيرورة الدول ذوات السيادة الإقليمية ، ديمقراطيات قومية .

ونعنى بالحرب الشاملة ، حرباً لا يعتبر فيها المتحاربون مجرد « بيادق الشطرنج » المختارة التى تدعى جنوداً وبحارة ، ولكنها تشمل كافة سكان البلاد المتحاربة .

فأين نجد بدايات هذا المنظر الجديد ؟

لعلنا نعثر عليه فى المعاملة التى حددها أهالى المستعمرات البريطانية فى أميركا الشمالية ، لمن آثر منهم الإخلاص لوطنهم الأم إبان الثورة الحربية التى اندلعت فى تلك المستعمرات . فما إن وضعت الحرب أوزارها ، حتى طُرد هؤلاء المخلصون لقضية الإمبراطورية المتحدة بقضهم وقضيضهم — رجالا ونساءاً وأطفالا — من دورهم[١] . وتتباين هذه المعاملة مع ما اتسمت به معاملة بريطانيا للفرنسيين الكنديين ، وقتما غزت كندا قبل الثورة الأمريكية بعشرين سنة . إذ لم تكتف بالسماح لهم بالاحتفاظ بدورهم ، بل إنها سمحت لهم كذلك باستبقاء نظامهم القضائى ومنظماتهم الدينية . ولهذا المثال الأول « للنظم الجماعية » مغزاه ؛ لأن المستعمرين الأمريكيين قد أضحوا أول أمة ديمقراطية للعالم الغربى .

أما بالنسبة للروح العصبية الاقتصادية التى تطورت إلى آفة ضخمة ، فإن مثلها مثل العصبية السياسية التى تولدت عن شذوذ طرأ على الصناعية ، يعمل فى نطاق نفس الروابط القابضة للدولة الإقليمية .

---

(١) ثمة بالفعل مثال حدث قبل ذلك : قيام السلطات البريطانية بطرد سكان نوفاسكوشيا (كندا) من الفرنسيين فى مطلع السنوات السبع . لكن كانت هذه المسألة محصورة النطاق . وإن اعتبرت فظة وفقاً لمقاييس القرن الثامن عشر . وتوجد أسباب عسكرية لهذا الإجراء . (المؤلف)

ولم تكن المطامح الاقتصادية والمنافسات ، مجهولة فى السياسات الدولية خلال الفترة السابقة للعصر الصناعى . حقيقة تلقت القومية الاقتصادية تعبيرها التقليدى فى مبادئ التجاريين التى شاعت إبان القرن الثامن عشر . وتضمنت جوائز حروب القرن الثامن عشر أسواقاً واحتكارات ، وهذا ما أظهره القسم المشهور من معاهدة أوترخت Utrecht التى عينت لبريطانيا العظمى احتكار تجارة العبيد فى المستعمرات الإسبانية فى أمريكا . بيد أن المنازعات الاقتصادية خلال القرن الثامن عشر ، لم تؤثر إلا فى طبقات صغيرة ومصالح محدودة النطاق . ذلك لأنه فى عصر يغلب عليه طابع الزراعة — وقلما كانت كل دولة بل كل قرية تنتج تقريباً كافة ضروريات الحياة — يمكن أن تدعى الحروب الانجليزية فى سبيل السيطرة على الأسواق « رياضة التجار » ، كما كانت تدعى حروب القارة بحق « رياضة الملوك » .

ولقد ترتب عن تقدم الصناعية ، الإخلال الشديد بهذا الوضع العام للتوازن الاقتصادى القائم على بذل جهد قليل وعلى نطاق قليل الأهمية . لأن الصناعية — كالديمقراطية — هى فى جوهرها عالمية فى تأثيرها . فإذا كان جوهر الديمقراطية — وفقاً لما تخيلتها الثورة الفرنسية — روح إخاء ؛ فإن حاجة الصناعية الجوهرية — إن كان لها أن تحقق كافة جهدها كاملا — تتمثل فى تعاون دولى على نطاق عالمى .

ولقــد سبق لرواد التكنولوجية الحديثة الذين ظهروا فى القرن الثامن عشر ، المناداة صادقين بالتوزيع الاجتماعى — الذى تتطلبه الصناعية — فى كلمة سرهم المشهورة « دعه يعمل ودعه يمر »[1] ، أى حرية الصناعة وحرية التبادل . ولما وجدت الصناعية العالم منقسما إلى وحدات اقتصادية صغيرة ، أخــذت منذ مائة وخمسين عاماً مضت ،

---

(1) Zaissez Faire, Laisses Passer

تعمل على إعادة تشييد كيان العالم الاقتصادى بوسيلتين تعملان كلاهما فى طريق يقود إلى وحدة العالم .

الأولى — تسعى إلى الإقلال من عدد الوحـــدات الاقتصادية مع تكبير حجمها .

الثانية — ترنو إلى خفض العوائق بين تلك الوحدات .

وإذا ما ألقينا نظرة على تاريخ هذه الجهود ، سنجد أن ثمة نقطة تحوّل فيها حدثت حوالى عام ١٨٦٠ وعام ١٨٧٠ . فكانت الديمقراطية وقتذاك تعاون الصناعية حتى التاريخ الأخير فى جهودها للإقلال من عدد الوحدات الاقتصادية ، ولخفض العوائق القائمة بينها . بيد أن الصناعية والديمقراطية ، قد قلبتا سياستيهما بعد ذلك التاريخ ، فوجهتاها وجهةً عكسياً .

وإذا وازنا فى البداية ، حجم الوحـــدات الاقتصادية ؛ نجد أن بريطانيا فى نهاية القرن الثامن عشر ، أضخم منطقة للتجارة الحرة فى العالم الغربى . وتلك حقيقة تذهب بعيداً فى تفسير سبب بدء الثورة الصناعية فى بريطانيا العظمى دون غيرها . بيد أن المستعمرات البريطانية السابقة فى أمريكا الشمالية ، أمكنها بفضل تطبيقها دستور فيلادلفيا عام ١٧٨٨ ، أن تلغى من غير رجعة ، كافة الحواجز التجارية التى كانت قائمة بين ولايات الاتحاد . فأنشأت من ثم ما أصبح بعد ذلك بفضل التوسع الطبيعى ، أوسع منطقة للتجارة الحرة ؛ ترتب عليها مباشرة ، انبعاث أقوى جماعة صناعية فى العالم فى الوقت الحاضر .

ثم ألغت الثورة الفرنسية بعد ذلك ببضعة سنوات ، كافة تعريفات الحدود بين الأقاليم الفرنسية وبعضها بعضاً ؛ وهى التى كانت إلى ذلك الوقت تدمّر وحدة فرنسا الاقتصادية . وحقق الألمان فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، الاتحاد الاقتصادى[1] الذى أثبت أنه بشير الوحدة السياسية .

---

(١) أى الزلفرين Zolverein

وضمن الإيطاليون فى الربع الثالث ، الوحدة الاقتصادية فى نفس الوقت الذى حققوا فيه وحدتهم السياسية .

فإن استشهدنا بنصف البرنامج الثانى — أى خفض التعريفات وغيرها من العقبات الإقليمية فى طريق التجارة الدولية — نجد أن بت Pitt [١] — الذى نادى بنفسه مريداً لآدم سميث[٢] — تزعم حركة حرية الاستيراد ، ثم سار بها فى طريق الكمال فى السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر : بيل وكوبدين وجلادستون . وسلكت الولايات المتحدة طريق التجارة الحرة من ١٨٣٢ إلى ١٨٦٠ عقب تجربتها تطبيق التعريفات العالية . كما سلكته فرنسا إبان حكم لويس فيليب ونابليون الثالث . واتبعت ألمانيا نفس الاتجاه قبل عصر بسمارك .

ثم تحول التيار . فإن الدمقراطية القومية التى وحدت الدول الألمانية والإيطالية ، فى دولتى ألمانيا وإيطاليا ؛ نصبت نفسها لتفكيك وحدة الدول المتعددة القوميات مثل إمبراطورية هابسبرج ، والإمبراطوريتان العثمانية والروسية . فكان أن انقسمت فى نهاية الحرب العالمية ١٩١٤/١٩١٨ وحدة التجارة الحرة للمملكة الدانوبية[٣] إلى عدد من الدول التى خلفتها ؛ يستميت كل منها فى تحقيق الاستكفاء الاقتصادى الذاتى . كما أقام عدد عديد من الدول الجديدة نفسه بين ألمانيا وروسيا المبتورتين . بما تضمنه ذلك من إقامة أقسام اقتصادية جديدة .

وجدير بالذكر اشتداد ساعد الحركة المناهضة للتجارة الحرة شيئاً فشيئاً ، قبل ذلك بحوالى جيل فى البلد تلو الآخر . حتى بلغت موجة « مذهب التجاريين »[٤] العارمة بريطانيا العظمى نفسها .

---

(١) وليم بت (١٧٥٩ — ١٨٠٦) كان من خيرة ساسة انجلترا . (المترجم)

(٢) الاقتصادى البريطانى المشهور وطليعة الاقتصاديين أصحاب المذهب الحر . (المترجم)

(٣) أى إمبراطورية النمسا والمجر . (المترجم)

(٤) Mercentilism مبادئ قوامها الحد من حرية التبادل بغية حصول الدولة على المعادن الثمينة التى كان أصحاب هذا المذهب يعتبرونها جماع قوة البلد الاقتصادية . (المترجم)

ومن اليسير إدراك أسباب التخلى عن التجارة الحرة . فإنها قد وافقت مصلحة بريطانيا وقتما كانت « مصنع العالم » . كما أنها وجدت هوى فى نفوس الولايات المنتجة للقطن التى كانت تهيمن إلى حـد كبير على حكومة الولايات المتحدة خلال الفترة ١٧٢٠ — ١٨٦٠ . ويبدو كذلك أنها وافقت مصالح فرنسا وألمانيا لنفس الأسباب ، خلال الفترة السالفة الذكر . ولكن ما إن تقدمت الصناعة فى الأمم الواحدة بعد الأخرى ، حتى أصبحت مصالحها الإقليمية القصيرة النظر ، تفرض عليها اتباع سياسة المنافسة الصناعية القاتلة مع جيرانها جميعاً . ومن ذا كان يستطيع الاعتراض على تلك السياسة فى ظل نظام الدولة الإقليمية ؟

لقد أساء كوبدن[١] ومريدوه التقدير إساءة كبيرة . إذ تطلعوا ليشاهدوا شعوب العالم ودوله ، يسوقهم إلى وحدة اجتماعية ؛ نسيج من العلاقات الاقتصادية العالمية الواسعة النطاق محبوك الأطراف لم يسبق له مثيل ؛ قامت على نسجه بلا تبصر ، الطاقات الصناعية الفنية المنبعثة من عُقدة بريطانية . بيد أنه من الإجحاف لأصحاب كوبدن أن تُلفظ حركة التجارة الحرة البريطانية التى سادت فى عصر الملكة فيكتوريا ، لمجرد أنها إحدى إمارات مبدأ المنفعة الذاتية المستنيرة : فلقد كانت التجارة الحرة تعبيراً عن فكرة معنوية ، وعن سياسة إنشائية دولية الطابع . ولقد رنا أقطاب المدافعين عنها إلى أن تصبح بريطانيا العظمى المسيطرة على السوق الدولية . كما أملوا تعزيز التطور التدريجى لنظام سياسى عالمى يشتد فيه ساعد النظام الاقتصادى الجديد ؛ وإيجاد جو سياسى يتم فى رحابه تبادل السلع والخدمات على نطاق دولى فى ظل السلام والأمن . ويتضاعف بسبب الأمن ويجلب معه فى كل مرحلة ، ارتفاعا فى مستوى المعيشة للعالم بأسره :

---

(١) ريتشارد كوبدن (١٨٠٤ — ١٨٦٥) عالم سياسى نادى بحرية التجارة وامتناع الحكومة عن التدخل فى شئون الأفراد . (المترجم)

وتكمن إساءة كوبدن التقدير ، فى حقيقة مبناها أنه فشل فى التنبؤ بنتيجة ضغط الديموقراطية والصناعية على منازعات الدول المحدودة . فإنه افترض بقاء هذين الماردين ساكنين خلال القرن التاسع عشر – مثلما كانا إبان القرن الثامن عشر – إلى أن يتاح الوقت للعناكب البشرية التى كانت تنسج فى عصره نسيجاً صناعياً ذا نطاق عالمى ، من اصطيادهما كليهما فى قيودهما المصنوعة من الشاش . فإنه قد اتكل على التأثيرات الموحدة والملطفة الكامنة فى طبيعة الديمراطية والصناعية ، لتثمر فى محيطها وفى مظاهرها الطليقة . حيث تقوم الديمقراطية مقام الإخاء ، والصناعية مقام التعاون .

ولم يحسب كوبدن حسابا لاحتمال مبناه أن نفس هذه القوى إذ تدفع « قوتها البخارية » إلى المحركات القديمة للدول الإقليمية ، تمهد طريق التصدع والفوضى العالمية . ولم يدر فى خلده أن يُفضى مبدأ الإخاء الذى بشر به الناطقون بلسان الثورة الفرنسية ، إلى أول حرب من الحروب القومية الحديثة الكبرى . ولعل كوبدن قد افترض أن هذه الحرب لن تكون الأولى ، بل الأخيرة من نوعها كذلك . ولم يدرك أن المظاهر الأوليجاركية[١] فى مبادئ التجاريين إبان القرن الثامن عشر ، إذ كانت قد أججت الحروب بغية تعزيز تجارات السلع الترفية ذات الأهمية المحدودة ، التى كانت قوام التجارة الدولية لعهدهم . فإن الأمم التى اعتنقت الديمقراطية سيقاتل بعضها بعضا من باب أولى وإلى أقصى حد فى سبيل تحقيق غايات اقتصادية إبان عصر حولت فيه الثورة الصناعية ، التجارة الدولية من تبادل السلع الترفية إلى تبادل ضروريات الحياة .

وصفوة القول أساءت مدرسة مانشستر[٢] فهم الطبيعة البشرية ،

---

(١) الاوليجاركية ، أصطلاح يعنى حكم القلة أو الخيرة لهذا الضرب من الحكم . (المترجم)

(٢) أصحاب المذهب الإقتصادى ومنهم كوبدن هذا . (المترجم)

وعجز أصحابها عن إدراك استحالة تشييد النظام الاقتصادى العالمى نفسه على قواعد اقتصادية بحتة . ولم يتبينوا – رغما عن مثاليتهم الأصلية – أن « الإنسان يعجز عن العيش بالخبز وحده » . ولم يرتكب هذا الخطأ المميت ، جريجورى الكبير وغيره من مؤسسى المسيحية الغربية الذين استنبطت منهم فى النهاية مثالية إنجلترا فى العصر الفيكتورى . فإن أصحاب مدرسة ما نشستر قد نذروا أنفسهم عن إخلاص لتحقيق هدف قدسى ، فانحصرت غايتهم الدنيوية فى تحقيق مطمح مادى ، قوامه الإبقاء على حياة الناجين من سفينة المجتمع الغارقة .

وإذا كان صرح الحياة الاقتصادية الذى أقيم ، ضرورةً محضة انبعثت من روح الكفر ؛ فإن جريجورى الكبير ورفاقه ، اعتبروه بكل صراحة وسيلة موقوتة . وعنوا فى إقامتهم له ، بتشييده على صخرة دينية ، لا على قواعد اقتصادية واهية . فأمكن بفضل أعمالهم ، إرساء كيان المجتمع الغربى على أسس دينية صلدة . وهكذا انفسح مجال هذا المجتمع الذى بدا بداية متواضعة فى ركن من الأرض قصى ، ليصبح مجتمعاً كبيراً ينتشر فى عصرنا فى كل ركن من أركان المعمورة .

فإن كان بناء جريجورى الأصيل قد تطلب إرساؤه على دعائم دينية راسخة ، لا يتوقع فى هذا العرض أن يكفل إقامة النظام العالمى – الذى يقع علينا اليوم عبء تشييده – دوماً على قواعد واهية تتمثل فى المصالح الاقتصادية المجردة .

٥ – ضغط الصناعية على الملكية الخاصة :

تتوطد الملكية الخاصة فى المجتمعات التى تكون فيها العائلة أو الأسرة ، وحدة النشاط الاقتصادى المألوفة . ولعلها فى مثل هذا المجتمع ، هى أكثر النظم ملاءمة لتنظيم توزيع الثروة المادية .

بيد أن العائلة الواحدة أو القرية الواحدة أو الدولة القومية بمفردها ؛ لم تعد

وحدة النشاط الاقتصادى الطبيعية ؛ إذ اتسعت حتى غدت تشمل جيل البشرية الحى بأسره . ولما كان الاتجاه الصناعى فى الاقتصاد الغربى الحديث قد سما عن نطاق العائلة ، فإنه بالتبعية المنطقية ، يسمو على مجال الملكية الخاصة ، وهى نظام عائلى ، كما تقدم ؛ وإن كان النظام القديم قد ظل سارى المفعول من الوجهة العملية . وبالأحرى استودع الاتجاه الصناعى فى الملكية الخاصة « طاقته الاندفاعية » الهائلة . فكان ذلك إيذاناً برفع قدرة القوة الاجتماعية الملكية الشخصية . وسيظل الأمر على ما هو عليه إلى أن يتمكن نظام من تلك الأنظمة التى تتسم بحيويتها والتى سبقت العصر الصناعى ، من استيعاب الكثير من مظاهر الملكية الخاصة ، تلك الآفة الاجتماعية .

وبالأحرى ؛ يجابه مجتمعنا الحاضر فى ظل هذه الظروف ، مشقة تعديل نظام الملكية الخاصة القديم ليوائم علاقة تنسق مع قوة الاتجاه الصناعى الجديد . ويتم التوفيق المنشود بطريقة سلمية عن طريق مناهضة سوء توزيع الملكية الخاصة الذى أبرزته الصناعية عمداً بإتاحتها سبيل السيطرة لطبقة .

ويتأتى مناهضة سوء توزيع الملكية الخاصة بإعادة توزيعها بوساطة إدارات الدولة التى تستطيع بفضل هيمنتها على الصناعات الرئيسية ، أن تحدّ من استفحال سيطرة طبقة الملاك على مقادير غيرها من الناس . سيطرة تظل تقوم ما تركت تلك الصناعات ملكاً خاصاً لها . ويتيسر التلطيف من آثار الفقر الوخيمة ، بفضل بذل الخدمات الاجتماعية التى تموّلها الضرائب الضخمة المفروضة على الثروات الخاصة . ولهذه الطريقة منفعة اجتماعية عرضية مبناها أنها تنزع إلى تحويل الدولة من جهاز لشن الحرب — وكان هذا أكثر أعمالها شيوعاً فى الماضى ، إلى إدارة للخدمة الاجتماعية العامة .

فإن فرض وأثبتت هذه السياسة عدم كفايتها ، فلا شبهة فى مباغتة الوسيلة الثورية لنا فى شكل نوع من الشيوعية يختزل الملكية الخاصة إلى نقطة العدم .

ولقد يبدو هذا الإجراء هو الحل العملى الوحيد لتسوية الموقف . لأن سوء توزيع الملكية الخاصة بوساطة ضغط الصناعية ، ينقلب إلى شذوذ لا يطاق ، إن لم تلطّف حدته الخدمات الاجتماعية والضريبة العالية .

بيد أن علاج الشيوعية الثورى - كما تشهد بذلك التجربة الروسية - قد يُثبت أنه أقل قليلا من المرض نفسه فى خطورته القتالة . لأن نظام الملكية الخاصة ، قد بلغ من شدة ارتباطه بكل ما هو حسن فى الميراث الاجتماعى السائد قبل حركة التصنيع ؛ بحيث يترتب على مجرد إلغائه ، تصدع تقاليد المجتمع الغربى الاجتماعية تصدعاً خطيراً .

٦ - ضغط الديمقراطية على التعليم :

يعتبر نشر التعليم ، من أجلّ التغيرات الاجتماعيـــة التى قيضتها الديمقراطية . إذ أتاح نظام التثقيف الإجبارى العام المجانى فى البلاد المتقدمة ، التعليم حقاً مشاعاً لكل طفل من وقت ولادته . وهذا نقيض دور التعليم فى العصر السابق للديمقراطية وقتما كان احتكاراً للأقلية الممتازة . ولقد غدا هذا النظام التعليمى الجديد أحد المثُل الاجتماعية الأساسية لكل دولة تهفو إلى تبوّ مركز مشرّف فى جماعة أمم العالم الحديث .

ولقد رحّب الرأى العام الحر بتطبيق نظام التعليم العام لأول مرة ، وعدّه الأحرار نصراً للعدالة والاستنارة ، وتوقعوا أن يصاحبه عهد جديد من السعادة والرفاهية للبشرية . بيد أنه تمكن الآن تبيان حقيقة مدارها تخلّف عديد من العقبات لم تكن فى الحسبان على هذا الطريق العريض الذى ظن أنه يقود إلى عصر طويل مزدهر[١] . فلقد ثبت فى هذه المسألة - كما يحدث فى غالب الأحيان - أن العوامل الغير المنظورة هى أعظم العوامل أهمية .

ويطالعنا من تلك العقبات ما يلى :

---

(١) فى الأصل : العصر الألفى ، ويعنى عصرا حكم المسيح ألف سنة على الأرض ، يقيد خلالها الشيطان . (المترجم)

الأولى — الإفقار الحتمى فى نتائج التعليم وقتما أصبح متاحاً للجماهير على حساب فصله عن أساسها الثقافى التقليدى. إذ لا يتوافر لنوايا الديمقراطية الطيبة، القوة السحرية لإنجاز معجزة الأرغفة والأسماك. بمعنى افتقار الغذاء الثقافى المنتج على نطاق واسع، إلى المذاق وإلى الفيتامينات.

الثانية — سريان روح النفعية وقتما يصبح التعليم فى متناول كل أمرىء. وتفسير ذلك أنه فى ظل النظام الاجتماعى الذى يضيق فيه نطاق التعليم، نجد التعليم منحصراً، إما فى هؤلاء الذين ورثوا الحق فيه باعتباره ميزة اجتماعية، وإما فيمن برهنوا على أحقيتهم فيه بفضل مواهبهم الاستثنائية بالنسبة للذكاء والانكباب على العمل. وبالأحرى يغدو التعليم إما كلؤلؤة طرحت أمام الخنازير وإما لؤلؤة غالية الثمن يبذل المستكشف للحصول عليها جميع ما فى حوزته. وليس التعليم فى كلتا الحالتين إلا وسيلة تقود إلى غاية مدارها تحقيق الطموح الدنيوى أو ملهاة طائشة.

وحقاً، لم تبرز إلى الوجود إمكانية تحويل التعليم ليغدو وسيلة لتسلية الجماهير — وربحاً للأشخاص العاملين فيه الذين يتم عن طريقهم سير الملهاة — إلا بعد تقرير التعليم الابتدائى العام.

الثالثة — ترتبت على العقبة السابقة، عقبة تعتبر أخطر العقبات جميعها، ومبناها أن خبز التعليم ما إن يطرح فى الماء حتى يطفو من الأعماق سرب من سمك القرش يلتهم خبز الأطفال تحت بصر المعلم نفسه.

ومصداقاً لذلك نجد الحقائق تتكلم بنفسها فى تاريخ التعليم الإنجليزى. فلقــد استكمل قانون فورستر Forster الصادر عام ١٨٨٠ بناء صرح التعليم الابتدائى تقريباً. فكان أن استحوذت الصحافة الصفراء بعد ذلك بعشرين سنة — أى بعد ما حصل الجيل الأول من الأطفال المتخرجين من المدارس الأهلية على قوة شرائية، كافية بضربة عبقرية غير مسئولة دفعتها

إلى التكهن بأن التعليم القائم على عطف المحسن على العمل قد يصبح مصدر ربح عظيم لصاحب الجريدة .

ولقد اجتذبت ردود الفعل المشوشة هذه على ضغط الديمقراطية على التعليم ، أنظار حكام الدول القومية التي تعتنق نظماً إجماعية . فإذا كان في وسع أصحاب الصحف أن يجنوا الملايين بفضل تزويدهم أنصاف المتعلمين بالتسلية الفارغة ، فإن في مكنة عتاة السياسة استخلاص القوة لا الثروة ، من نفس المصدر . وفي الواقع نزع الطغاة الحديثون أصحاب الصحف عن سلطانهم وأحلوا مكان التسلية الخاصة الفجة المنحطة ، نظاماً للدعاية تهيمن عليه الدولة ، لا يقل سخافة وانحطاطاً عن تلك التسلية .

وهكذا غدا حكام الدول التي باتت تستخدم هذه المناحي الذهنية التي تعززها السينما والإذاعة ، يهيمنون على الجهاز المحكم المفنّ الذي ابتكره مبدأ المنفعة الخاصة ، في ظل النظامين البريطاني والأمريكي القائمين على مبدأ حرية التبادل والعمل . ويستخدمونه لاستبعاد جمهرة عقول أشباه المتعلمين . ومصداقاً لذلك ، خلف هتلر نورثكليف[1] ؛ وإن لم يكن هتلر الأول من نوعه .

وبالأحرى ؛ نجد الناس في البلاد التي طُبق فيها النظام الديمقراطي ، في خطر الوقوع تحت ربقة طغيان ثقافي . دبّره : إما الاستغلال الخاص ، وإما السلطة العامة . فإن كان سيقدّر لنفوس الناس الخلاص ، فإن سبيله الوحيد رفع مستوى التعليم العام إلى درجة يغدو الذين يتلقونه محصنين — بصفة عامة — ضد مختلف أشكال الاستغلال والدعاية البليدتين . ومن تحصيل الحاصل القول بصعوبة إنجاز هذه المهمة . على أنه يوجد لحسن الحظ بضعة هيئات تعليمية هامة محررة من الغرض ، تصارع اليوم في العالم

(١) كان نورثكليف من أصحاب الصحف البريطانيين . (المترجم)

الغربي لتحقيق هذا الهدف . ومن قبيل هذه الهيئات : اتحاد التعليم للعمال ، وهيئة الإذاعة البريطانية . بالإضافة إلى الجهود الغير العادية التي تبذلها الجامعات في كثير من البلاد .

٧ – ضغط الفاعلية الإيطالية على حكومات ما وراء الألب :

كانت جميع أمثلتنا حتى الآن ، مستخلصة من المرحلة الأخيرة للتاريخ الغربي . ولن يحتاج الأمر منا إلى تذكير القارئ بالمشكلة التي أبرزها ضغط قوة جديدة على نظام جديد ، في فصل مبكر من نفس ذلك التاريخ :

ذلك لأننا قد اختبرنا قبل الآن ، ذلك المثال في موضع آخر . وكان جماع المشكلة ، كيفية إجراء تسوية متناسقة لموضوع ضغط الفاعلية السياسية التي تولدت في المدن الإيطالية إبان عصر النهضة ، على الملكيات الإقطاعية في بلاد ما وراء الألب . ويمثل أبسط الحلول ، في دفع الملكيات نفسها لتتحول إلى نظم استبدادية أو تحكم حكما مطلقا على غرار المدن الإيطالية التي حكمت بنفس الأسلوب ، فتهاوت بالفعل . أما أصعب وسيلة وأحسنها ، فكان مدارها تطوير مجالس الطبقات التي كانت شائعة إبان القرون الوسطى في الممالك الواقعة وراء الألب ، إلى هيئات للحكومة النيابية ، يتوافر لها من الفاعلية مثلما توافر للحكومات الاستبدادية في المدن الإيطالية . وأن تتيح للحكم في نفس الوقت – على نطاق قومي – وسيلة للحكم الذاتي تتسم بالحرية مثل تلك التي اتسمت بها نظم الحكم في نظم المدن الإيطالية ، إبان ما كان أزهى عصورها ، من الوجهة السياسية على الأقل .

ولقد أمكن إنجلترا إيجاد حل يتسم بحسن تناسقه إلى أبعد حد ، لأسباب ذكرناها في موضع سابق . فأصبحت تبعا لذلك الرائد – أو الأقلية المبدعة – خلال الفصل التالي من التاريخ الغربي ، كما كانت إيطاليا في فصله السابق :

وإنه وإن تطورت الملكية الإنجليزية في ظل حكم آل تيودور الوطني

المتسم بالخرق ، إلى نظام استبدادى ، إلا أن البرلمان فى عهد آل ستيورات السيئ الحظ ، قد حقق مساواته بالتاج ، ثم أصبحت له السيادة أخيرا . بيد أن ذلك الأمر لم يأخذ سبيله إلا بعد نشوب ثورتين وجّهتا — إن قورنتا بمعظم الثورات — توجيها معتدلا رصينا .

وظلت النزعة الاستبدادية فى فرنسا زمنا أطول كثيراً ، وسارت فى طريقها شوطا بعيداً . فكان أن تولّدت عنها ثورة أشد من الثورتين الإنجليزيتين عنفا . وصاحبتها فترة تقلقل سياسى ، ما برحت نهايته لا تلوح للنظر حتى الآن .

واستمر الاندفاع صوب الطغيان فى اسبانيا وألمانيا إلى وقتنا الحاضر . ووجدت نفسها الحركات الديمقراطية المناهضة للديكتاتورية فى البلدين — وهى حركات تأخرت تأخرا يتسم بالتشوش تتورط فى جميع التعقيدات التى رسمنا خطوطها فى الأقسام السابقة من هذا الفصل .

٨ — ضغط الثورة الصولونية[1] على المدن الهلينية :

نجد للفاعليّة السياسية الإيطالية التى مارست ضغطها على بلاد العالم الغربى الواقعة وراء جبال الألب ، إبان الفترة الواقعة بين الفصل الثانى والثالث من التاريخ الغربى ، ما يشبهها فى التاريخ الهلينى : نجده فى الفاعليّة الاقتصادية التى بدت ثمارها فى طائفة من مدن العالم الهلينى خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، بفعل ضغط المشكلة المالتوسية . ولم تنحصر هذه الكفاية الاقتصادية الجديدة فى أثينا وغيرها من المدن التى انبعثت فيها . إذ انطلقت إشعاعاتها خارجها ، فانبنت عليها فى عالم من المدن الهلينية ضغوط على المناحى السياسية المحلية والدولية على السواء .

ولقد سبق لنا وصف هذا التحوّل الاقتصادى الجديد الذى يمكن أن

---

(١) نسبة إلى صولون المشرع الأثينى . (المترجم)

يطلق عليه اسم الثورة الصولونية . وجوهر هذه الثورة ، تحول من الزراعة لسد احتياجات الطعام ، إلى زراعة المحاصيل النقدية[1] التي صاحبها ارتقاء التجارة والصناعة .

وتطلب هذا الحل للمشكلة الاقتصادية التي ترتبت على ضغط السكان على مساحة محدودة من الأرض ؛ بروز مشكلتين إلى العيان :

الأولى : مشكلة الطبقات الاجتماعية الجديدة . إذ أبرزت الثورة الاقتصادية طبقات ؛ العمال التجاريين والصناعيين في المدن وأصحاب الحرف والبحارة . واقتضى الأمر إيجاد مكان لهم في النظام السياسي .

الثانية : نهاية عزلة المدينة سياسياً . إذ أفسحت فكرة « عزلة المدينة عن غيرها » ، مكانها لفكرة التكافل الاقتصادي . وما إن غدا عدد من المدن يعتمد اقتصادياً بعضه على البعض الآخر ، حتى أصبح يستحيل عليها بعد ذلك أن تظل سياسية في عزلتها الساذجة ، وإلا أصابتها كارثة .

وتشابه المشكلة الأولى ، المشكلة التي تولت إنجلترا في العصر الفيكتوري حلها بفضل إصدار البرلمان سلسلة من التشريعات الإصلاحية . أما المشكلة الأخرى ، فإن إنجلترا وفقت إلى حلها بوساطة حركة حرية التجارة .

وسنعرض لهاتين المشكلتين كل على حدة ، وبالنظام الذي اتبعناه فيما سبق :

تضمن منح حق الانتخاب للطبقات الجديدة في الحياة السياسية الداخلية للمدن الهلينية ، تغيراً أساسياً في أسس الارتباط السياسي . إذ تطلب الحال إحلال الحقوق السياسية القائمة على الملكية ، مكان قاعدة القرابة الطبقية . ولقد أجرى هذا التعديل في أثينا في يسر في معظم الأحوال وبصورة فعالة ،

---

(١) المحاصيل النقدية هي المحاصيل التي يبيعها الفلاح ولا يستهلكها في الغالب . ومثل المحاصيل النقدية المشهورة ، القطن والكتان . ومثال المحاصيل الاستهلاكية الخضروات .
(المترجم)

فى سلسلة من التحسينات الدستورية إبان الفترة الواقعة بين عصرى صولون وبزكليس . ويُستدل على سهولة الانتقال وقوة تأثيره — نسبياً — من ضآلة الدور الذى قام به « الطغاة » فى التاريخ الاثينى . فلقد كانت القاعدة العامة فى التاريخ الدستورى للمدن الهلينية ، أنه عندما تتلكأ بدون مبرر عملية ملاحظة خطوات الرواد ، ينبنى على ذلك نشوب « حرب طبقات » . وهى حالة لن يتأتى علاجها إلا بوساطة انبعاث « طاغية » أو ما يسمى فى الاستعمال الحديث المقتبس من روما « ديكتاتور » .

ولقد برهن النظام الديكتاتورى فى أثينا كما برهن فى غيرها ، على أنه مرحلة لازمة فى عمليــة المواءمة . بيد أن طغيان « بسيسترانوس Peisistratus[١] » وأولاده ، لم يكن هنا أكثر من فصل إضافى يقع بين إصلاح صولون وكليسيران Cleistherean[٢]

أما عن المدن اليونانية الأخرى ، فإنها أنجزت التعديلات اللازمة فى أنظمتها ، بشكل أقل انسجاماً مما قامت به أثينا . فنجد كورنث تخضع لديكتاتورية طويلة الأجل ، وتعانى سيراكوز ديكتاتورية مرددة .

ولقد خلدت صفحات توكيديدس فظاعة « حالة الحرب » .

وعسانا أخيــراً أن نبحث حالة روما . وهى جماعة اجتذبت إلى حظيرة العالم الهلينى نتيجة توسع الحضارة الهلينية الجغرافى إبان فترة ٧٢٥- ٥٢٥ ق . م . ولم يسبق لروما حتى هذا التحول ، أن سلكت سبيل التقدم الاقتصادى والسياسى الذى كان خطة السير المألوفة للدولة الهلينية أو التى

---

(١) كان سياسياً أثينيا مشهوراً (٦١٢ — ٥٢٧ ق . م) . وعين طاغية Tyrant لأثينا ثلاث مرات بين عامى ٥٦٠ و ٥٢٧ ق . م واشتهر حكمه المطلق بالاعتدال وفائدته للدولة . على أنه عمل على ضمان تعيين أفراد عائلته فى مناصب الدولة العالية . (المترجم)

(٢) مصلح أثينى ترأس الحزب الديمقراطى . ولقد عارضه النبلاء معارضة شديدة . وفى طليعة إصلاحاته ، إلغاء نظام القبائل الأربعة القديم وإعادة تطبيق نظام الانتخاب بالقائمة . (المترجم)

تأثرت بالهلينية . فكانت روما تبعاً لذلك تمر فى هذا الفصل عبر كل مرحلة ، وهى متأخرة فى الزمن بحوالى المائة والخمسين سنة ، عن الزمن المقابل فى تاريخ أثينا . ولقد اقتضى روما هذا التأخر الزمنى اقتصاصاً تجلّى فى مرورها بفترة اضطراب مرّة وشديدة الوطأة نشب خلالها صراع بين طبقة النبلاء المحتكرة للسلطان والقوة على أساس النسب ، وبين المطالبين بالسلطان من العامة ، سلطان يستند على الثروة والعدد .

ولقد استطال هذا « التأزم » الرومانى ، فلقد لبث من القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الثالث وقاد إلى انسحاب طبقة العامة من المدينة انسحاباً جغرافياً يتمثل فى إقامتها دولة منفصلة مستكملة نظمها الخاصة وجمعياتها وموظفيها داخل نطاق الدولة الأصلية .

ولم تنجح سياسة روما عام ٢٨٧ ق . م فى معالجة هذا الشذوذ الدستورى الجسيم إلا تحت الضغط الخارجي . إذ دفعها إلى الجمع بين المناصرين للدولة ومناهضيها ، فى وحدة سياسية عاملة . ثم تكشف للعيان سريعاً ، طابع المخرج المؤقت لتسوية عام ٢٨٧ ق . م ، بعد انقضاء قرن ونصف قرن من الاتجاه الاستعمارى الظافر الذى تلا تلك التسوية . فإن النظم التى تقبلها الرومانيون لدستورهم المفكك ، جمعت بين النقائض : فهى هشة وصلبة ، ونبيلة وسوقية . وقد تبين أنها أداة سياسية تتسم بالبلادة لعجزها عن تحقيق التعديلات الاجتماعية الجديدة . فكان أن فتحت بسببها أعمال جراكس القاسية ، دورة أخرى من الأزمات (١٣١ — ١٣ ق . م) شراً من الأولى .

وانهارت دعائم الكيان السياسى الرومانى هذه المرة بعد انقضاء قرن من التمزق الذاتى لديكتاتورية مستديمة . وكانت الجيوش الرومانية قد استكملت وقتذاك غزوها العالم الهلينى . وهكذا أتاحت — عرضاً — ديكتاتورية أغسطس وخلافائه للمجتمع الهلينى دولته العالمية .

إن قصور الرومانيين المستمر ، يتجلى فى ترددهم إزاء مشكلاتهم

المحلية . وهى صورة تناقض تماماً كفايتهم التى لا تبارى فى إنجاز فتوحاتهم الأجنبية وتنظيمها والمحافظة عليها . ومن الملاحظ أن الأثينيين الذين لم يكن ليبزّهم أحد فى توفيقهم فى تجنيب سياستهم الداخلية « حالة التأزم » ، قد فشلوا خلال القرن الخامس قبل الميلاد فشلا واضحاً فى إيجاد التنظيم الدولى الذى كانت الحاجة تمس إليه فعلا . وهذا ما نجحت روما فى إقامته – بصورة ما – بعد ذلك بأربعمائة سنة .

كان هذا الهدف الدولى الذى فشلت أثينا فى القيام به ، ثانى مشكلتين جابهتا التسوية التى أقامتها الثورة الصولونية . فلقد كان نظام سيادة المدينة المتوارث ، هو العقبة القائمة فى سبيل توفير الأمن السياسى الدولى الذى اقتضى رواج التجارة الهلينية الدولية وجوده . ويمكن تكييف حلقة بقية التاريخ الهلينى منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد وما تلاه ، فى نطاق السعى للحد من سيادة المدينة ، وفى المقاومة التى يثيرها هذا المسعى . وإلى التغالى فى مقاومة هذا المسعى قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، يُعزى انهيار الحضارة الهلينية . وإذا كانت روما قد حلّت المشكلة بصورة ما ، لكنها لم تحلها فى الوقت المناسب بحيث تتيسر الحيلولة دون تفكك المجتمع الهلينى ، وسلوكه سبيله إلى الانهيار النهائى .

وتمثل الحل التالى للمشكلة ، فى الاهتداء إلى تحديد دائم لسيادة المدينة بوساطة إقامة التعاهد الاختيارى بين المدن نفسها . بيد أنه تعطلت لسوء الحظ أعظم تلك المحاولات ذيوعاً : حلف ديلى Delian League . وهو حلف أقامته أثينا وحلفاؤها فى بحر إيجه فى غضون هجومهم المضاد الموفق ضد فارس . ويرد فشل الحلف : إلى التشبث بالتقليد الهلينى القديم عن « الزعامة » ، بما تعنى من استغلال العضو الزعيم للتحالف الاضطرارى . ولقد تطور حلف دالى إلى إمبراطورية أثينية استثارت الحرب البلوبنية . ثم وفقت روما بعد انقضاء أربعة قرون على هذا الحدث ، فيما فشلت فيه أثينا . لكن العقاب باستخدام

السياط[1] التي أوقعها الاستعمار الأثيني على عالمه الصغير ، لا يعتبر شيئاً إلى جانب العقاب باستخدام العقارب التي أوقعها الاستعمار الروماني على مجتمع هليني أوسع رقعة أو متأثر بالهلينية ، إبان القرنين اللذين أعقبا حرب هانيبال وسبقا فترة السلام الذي فرضته إمبراطورية أوغسطس .

٩ - ضغط الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية :

بينما كان المجتمع الهليني ينهار بسبب إخفاقه في التسامي - في الوقت المناسب - على نزعته الإقليمية العارمة ، أخفق المجتمع الغربي - بما يحمل ذلك بين ثناياه من نتائج ما تزال في طيات المستقبل - في الاحتفاظ بتضامن اجتماعي ، ربما يكون أكثر جوانب ذخيرته الأصيلة نفاسة .

إذ يعتبر انبعاث النزعة الإقليمية خلال فترة الانتقال من فصل العصور الوسطى إلى الفصل الحديث من التاريخ الغربي ، من أبرز السمات الخطيرة للتغير الاجتماعي السائر . ولا يتيسر لنا إهمال إصدار حكم نزيه على هذا التغير ، نظراً للرزايا الجسيمة التي جلبها علينا في عصرنا نفسه ، وقلما تطور إلى مفارقة باقية . بيد أن في وسعنا مشاهدة الكثير مما يقال في صالح نبذنا مجامع القرون الوسطى الكنسية منذ خمسة قرون . فإنه رغماً عن جلالها المعنوي ، تعتبر شبحاً من الماضي ، تراثاً للدولة العالمية للمجتمع الهليني . وكان ثمة تنافر فظ بين سمو الفكرة النظرية لعقد المجمع الديني ، وبين فوضى تطبيقها عملياً إبان القرون الوسطى .

على أية حال نجحت الإقليمية في أن تعمل وفقاً لأقل مطالبها طموحاً . ومهما يكن من أمر ذلك ، انتصرت القوة الجديدة انتصاراً كانت مظاهره :

أولا : في النواحي السياسية ، في صورة تعدد الدول ذات السيادة .

---

(١) أي استخدام أثينا القوة في سبيل توحيد العالم الهليني وإقامة الدولة العالمية الهلينية المنشودة . (المترجم)

ثانياً : في الآداب ، على شكل أعمال أدبية تستخدم اللغة الوطنية .

ثالثاً : في ميدان الدين ، في شكل تصادم بكنيسة القرون الوسطى الغربية .

ويعزى عنف هذا الاصطدام الأخير إلى حقيقة مبناها أن الكنيسة — وقد نُظّمت تنظيماً محكماً في ظل السلطة الدينية البابوية — قد اعتُبرت النظام الرئيسي في ناموس القرون الوسطى . ولقد تساهلت الكنيسة وقتما كانت البابوية في عنفوان قوتها ، في موضوع تسوية علاقاتها الخارجية . مثال ذلك أن كنيسة روما واجهت الاندفاع في استخدام اللغات الدارجة للأغراض الكنسية عوضاً عن اللاتينية ، بمنح الكرواتيين الإذن بترجمة الطقوس الدينية إلى لغتهم الوطنية . ولعلها سلّمت بذلك لأن روما ألفت نفسها في هذه المقاطعة الواقعة على الحدود ، تواجه منافسة خصمها الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي كانت لا تصرّ بحال من الأحوال على ضرورة استخدام معتنقي مذهبها الديني من غير اليونانيين ، اللغة اليونانية في الطقوس الدينية ، فأظهرت سياسة مرنة تجاه ترجمة طقوسها الدينية إلى كثير من اللغات .

ويضاف إلى موضوع استعداد كنيسة روما للتساهل ، ظهور مطالب ملوك انجلترا وفرنسا وكاستيل وغيرهم من ملوك الدول المحلية ، للإشراف على النظام الكنسي في نطاق حدود ، بلادهم . بيد أنه يلاحظ أن البابوات قبلوا ذلك أثناء خوضهم معركة الحياة أو الموت ضد مطالب أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في المجامع المقدسة .

وبالحرى ؛ لم يكن الكرسي البابوي ساذجاً ، وقتما أعطى « ما لقيصر لقيصر » . إذ تطورت الأحوال تطوراً دفع كل من الدول الإقليمية صاحبات السيادة الإقليمية إلى العمل على استكمال ذاتيتها الخاصة . ولقد سارت البابوية — خلال القرن الذي سبق ما يدعى بعصر الإصلاح — شوطاً بعيداً في طريق مباحثة الحكام السياسيين لعقد اتفاقيات معهم بشأن الإشراف على السلطة الدينية في بلادهم . وهي المسألة التي كانت تفرق بين روما وحكام

الدول . ويعتبر نظام الاتفاقيات البابوية هذا ، النتيجة الغير المقصودة لمجالس المجامع الدينية المقدسة الفاشلة التي عقدت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر في كونستنزا (١٤١٤ — ١٤١٨ ميلادية) وفي بازل (١٤٣١ — ١٤٤٩) .

وتعتبر حركة عقد المجالس ، محاولة مثمرة لتحديد تلك السلطة غير المسئولة التي كان يسيء استعمالها « نائب المسيح[1] » ، الذي كيف سلطانه نفسه بنفسه . وتمثلت تلك المحاولة في إدخال نظام على غرار المجامع الدينية على نطاق محدود هو النظام البرلماني الكنسي . وهو نظام ثبتت فائدته خلال العصر الإقطاعي ، إذ كان وسيلة للإشراف على مناحي نشاط ملوك القرون الوسطى . لكن البابوات الذين واجهوا حركة عقد المجالس قد ثبتوا قلوبهم ، فدلل العناد البابوي على نجاحه المخرب ، بنجاحه في القضاء على حركة عقد المجالس ، فأعرض بذلك عن الفرصة الأخيرة للتسوية . وكان أن قضى على المسيحية الغربية أن يمزقها الخلاف الداخلي : بين التراث القديم لمجامعها المقدسة ، وبين نزعاتها الإقليمية .

ونتج عن ذلك الخلاف نشوب الثورات وحدوث الانحرافات . ولن نحتاج هنا للتدليل على قولنا ، إلى ذكر انقسام الكنيسة العنيف ، إلى عدد من الكنائس المتنابذة يتهم كل منها الآخر بأنها عصابة المسيخ الدجال . ودفعت تلك الكنائس إلى الحركة ، دورة بأكملها من الحروب والاضطهادات . ويطالعنا من قبيل الانحرافات ، إغتصاب الحكام العلمانيين الحق « الإلهي » الذي كان يفترض وراثة البابوية له . وما يزال هذا « الحق الإلهي » يقوم بعمل تخريبي في العالم الغربي في شكل عبادة وثنية متجهة لنظام الدولة القومية ذات السيادة . فإن الوطنية التي وصفتها الدكتورة جونسون وصفاً شاذاً نوعاً ما بقولها إنها « الملجأ الأخير للآفاق » — وإن

---

(١) أي البابا . (المترجم)

كانت تورس كافيل قد اعتبرت فى نظرة أعمق إدراكاً ، هذا الوصف كافياً ـ قد حلت محل المسيحية ، عقيدة للعالم الغربى .

ومهما يكن من الأمر ، يصعب تصور تناقض أشد حدة سواء بالنسبة للتعالم الأساسية للمسيحية أو بالنسبة لجميع الأديان الكبرى كذلك ؛ مما يضمه بين طياته ، هذا الناتج المريع المتمثل فى ضغط الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية .

١٠ـ ضغط الإيمان بالوحدانية على الدين :

لم تفد « الأديان العليا » ذات الرسالة إلى كافة البشر ، إلى مسرح التاريخ البشرى إلا فى زمن حديث نسبياً . ولم يقتصر الأمر على جهل المجتمعات البدائية وحدها بها ، بل إنها كذلك لم تنبعث بين المجتمعات التى تسير فى طريق الحضارة ، إلا بعدما انهار عدد من الحضارات وسار فى طريق التحلل شوطاً بعيداً .

ويرد انبعاث هذه الأديان الكبرى ، إلى الاستجابة للتحدى الذى أبرزه انحلال الحضارات . إذ تتقيد نظم حضارات الطبقة غير الملحقة بأخرى ـ مثل تلك المجتمعات البدائية ـ بالنظم الغير الدينية لتلك المجتمعات ، ولا تتطلع إلى أبعد منها . ويبدو قصور مثل هذه الأديان واضحاً للعيان إن نظر إليها من خلال وجهة نظر روحية أسمى . لكنها تستحوذ على ميزة سلبية الطابع ، تتجلى فى اعتناقها مبدأ « عش ودع الغير يعيش » بين دين وآخر . وبالحرى وجد العالم تعدد الآلهة والعقائد فى ظل تلك الظروف ، شيئاً ملازماً لتعدد الدول والحضارات .

وتجهل النفوس البشرية فى هذا الوضع البدائى ، مبدأ كلية وجود الله واقتداره تعالى . إلا أنها ـ من الناحية الأخرى ـ فى حصن من إغراء التردى فى خطيئة التعصب فى علاقاتها مع غيرها من أفراد البشر الذين يعبدون الله تعالى تحت أشكال وأسماء مختلفة : وإن من سخريات التاريخ

البشري ، أن ينبعث التعصب والاضطهاد ، عن الاستنارة التي بثت في الدين إدراكاً حسيّا بوجود الله وأخوة الجنس البشري .

ومناط التفسير ، وما تبثه فكرة التوحيد — إذ تطبق على الدين — في معتنقيها من الرواد الروحيين ، من روح بلغت درجة رفيعة من السمو تستأهل المجازفة في سبيل سلوك طريق قصير يكفل سرعة نقل فكرتهم إلى عالم الحقيقة . وأيا ما تكون الحال ، فإنه حينًا ووقتا بُشّر بأي دين ذي سمو روحاني ، تبدت حتما رذيلة التعصب والاضطهاد هذه عن خلقتها البغيضة .

ومصداقاً لذلك ، استطار هذا المزاج التعصبي إبان محاولة أخناتون العقيمة لفرض إلهامه بالوحدانية على الدنيا المصرية ، خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد .

كذلك اتسم ظهور اليهودية وتطورها باتجاه تعصبي مكفهر . فإن الروحانية التي أضفيت على ياهوى الإله المحلي لليهود فجعلت من عبادته عقيدة توحيد — وتعتبر المأثرة الروحية المجيدة للأنبياء العبرانيين — هي نقيض ذلك الاتجاه التعصبي .

وتنفجر نفس روح التعصب المرة بعد الأخرى في تاريخ المسيحية في انقساماتها الداخلية ، وفي تصادمها مع العقائد الغريبة عنها على السواء .

وينزع ضغط الإيمان بالوحدانية على الدين — وفقاً لهذا الغرض — إلى اتخاذ انحراف روحاني ، في مكنة فضيلة التسامح مجابهته عن طريق إجرائها تسوية معينة . وجماع التسامح ، الاعتراف بأن جميع الأديان هي استطلاعات تهدف إلى إدراك غاية روحية مشتركة . بل لعل بعض هذه « الاستطلاعات » في بعض الأديان أكثر تقـــدماً وتقوم على قواعد أسلم من غيرها . وبالحرى ، فإن قيام دين يقال عنه إنه دين حق باضطهاد دين يدعى بأنه باطل ، أمر يناقض في صميمه طبيعة العقيدة الدينية . لأن الدين « الحق »

إذ يلجأ إلى سلاح الاضطهاد ، يضع نفسه فى المكان الباطل ، ويتخلى عن مقوماته .

وثمة حالة على الأقل نابهة الذكر لهذا التسامح المنشود ، يفرضها نبى على أتباعه، وهو فى موضعه الجليل . فإن محمداً قد أمر أتباعه بالتسامح الدينى تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامى . فقدّم محمد بذلك لقاعدة التسامح ، تفسيراً قوامه إن أفراد هاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمتين ، هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم . وليس أدلّ على روح التسامح التى بعثت الحياة فى الإسلام منذ بدايته ، من أن المسلمين قد طبّقوا مبدأ التسامح الدينى على أتباع زرادشت الذين خضعوا للحكم الإسلامى ، وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه .

أما عن فترة التسامح الدينى التى ولجتها المسيحية الغربية إبان النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فإنها تستمد أصولها من مزاج يتسم بشراسته . إنها فترة يمكن إطلاق لقب « التسامح الدينى » عليها ، من ناحية تسامحها تجاه الأديان . إذ لو تأملنا بواعث التسامح لكان أحرى أن يوصف التسامح إلى حد ما ، بأنه تسامح لا دينى . ذلك لأن قسمى المسيحية (الكاثوليكية والبروتستانية) قد نبذا فجأة — نوعا ما — منازعاتهما ، لا بسبب اقتناعهما بخطيئة التعصّب ، ولكن لإيمانهما بعجز أحدهما عن الإيقاع بالآخر . ولعلهما فى نفس الوقت لم يعودا يهتمان الاهتمام الكافى بالنزاع على الموضوعات اللاهوتية الناشبة بينهما ، ولا يستمرئان بذل مزيد من التضحيات فى سبيلها .

وبالأحرى ، جحد أتباع الكاثوليكية والبروتستانتيه فضيلة الحميّة الدينية (التى تعنى بروح الاشتقاق أن يفعم المرء بروح الله) ، واعتبروها من ذلك الحين رذيلة . وبهذه الروح وصف أسقف إنجليزى فى القرن الثامن عشر أحد المرسلين الإنجليز فى ذات الوقت والعصر بأنه « مجذوب حقير » .

ومع ذلك فإنه ، مهما يكن من أمر الباعث على التسامح ؛ فإنه ترياق فعّال ضد التعصب الذى ينزع إلى استيلاده ، ضغط الإيمان بالتوحيد على الدين . وتعتبر نقمة غيابها ، بمثابة الاختيار بين شذوذ الاضطهاد ، وبين التغير الفجائى الثورى ضد الدين ذاته . ولقد عبّر عن مثل هذا التغير الفجائى فى عبارة مشهورة للوكريتيوس Lucretius هى « فظاعة الشر هذه ، هل الدين يحرض على إتيانها[1] » . كما نجدها فى عبارة لفولتير . « حطموا المرذول » . وفى عبارة جامبتا « نفوذ الكهنة ، ذلك هو العدو » .

١١ – ضغط الدين على الطبقيـة :

لعل فى حوليات[2] التاريخ السندى ما يعزز وجهة نظر لوكريتيوس وفولتير القائلة بأن الدين هو شر بذاته ، ولعله الشر الأساسى فى الحياة البشرية[3] . إذ نجد للدين فى هاتين الحضارتين تأثيراً مشئوما يتمثل فى الطبقة التى ما تزال قائمة لا تريم .

ومدار النظام الطبقى ، تحقيق الفصل الاجتماعى بين فريقين (أو أكثر) من البشر يشتركان فى الوطن . وينزع ذلك النظام من الناحية الأخرى ، إلى ترسيخ نفسه بوساطة السماح لجماعة بشرية بأن تنصب نفسها سيدة على جماعة أخرى ، وهى لا تستطيع فى نفس الوقت أو لا تريد إبادة الجماعة الخاضعة ، أو استيعابها فى الكيان الاجتماعى للجماعة صاحبة السيادة .

مثال ذلك : التقسيم الطائفى فى الولايات المتحدة الأمريكية بين الأغلبية المسيطرة البيضاء والأقلية الزنجية ، والتقسيم الحاصل فى إفريقيا الجنوبية بين الأقلية البيضاء المسيطرة والأغلبية الزنجية . ولعل النظام الطبقى الهندى قد

---

(١) Tantum religio potuit suadere malorum

(٢) مدونات تاريخية تكتب حوليا . . (المترجم)

(٣) لا يعترف الإسلام أبداً بالطائفية الدينية ، والمؤمنون لديه سواسية . وهذا ما أشاد به الأستاذ المؤلف فى موضع آخر . (المترجم)

نشأ فى شبه القارة الهندية من خلال إغارة الرحّل الآريين الأوراسيين على المجال السابق لما يدعى بالثقافة الهندية ، فى سياق النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد .

ويتبين من ثم ، عدم وجود علاقة جوهرية بين الطبقية والدين . ومصداقاً لذلك ، ينعكس الانقسام العنصرى فى الولايات المتحدة وفى إفريقيا الجنوبية — حيث نبذ الزنوج عقائدهم الدينية المتوارثة واعتنقوا مسيحية الأوربيين المتسلطين — على الكنائس ، فيعزل الأعضاء البيض عن السود فى صلواتهم الدينية ، على غرار ما يتبع فى غير ذلك من ضروب النشاط الاجتماعى . ويختلف الحال تماماً فى النظام الطبقى الهندى ، فلقد تميزت الطبقات بعضها عن البعض الآخر منذ بدء الأمر عن طريق الاختلافات الدينية . على أنه يبدو أن هذا التمايز الدينى ، قد اتخذ شكله المألوف بالفعل ، وقتما حسرت الحضارة السندية عن مقصدها الدينى الذى أورثته خلفها .

وظاهر بالإضافة إلى ما تقدم ، أن ضغط الإحساس الدينى على النظام الطائفى ، لابد وأنه قد ضاعف من حدة سوء طوية النظام . إذ توشك الطائفية أن تنقلب إلى شذوذ اجتماعى ، يتضخم تضخماً مروعاً ، أن استثيرت بإضفاء التأويل والعقاب الدينيين عليها .

وحقيقة الأمر ، جلب اصطدام الدين بالطبقة معه إلى الهند ، ظلماً اجتماعياً لا نظير له ، يتجلى فى طائفة المنبوذين . ولا توجد ثمة أية حركة فعّالة تقوم بها طائفة البراهمة للقضاء على نظام المنبوذين أو حتى التخفيف من حدته . والبراهمة هم الطائفة المقدسة القائمة على الطقوس الدينية للنظام الطبقى الهندى بأسره . وما يزال الشذوذ الاجتماعى قائماً ، إلا حيث تولت الثورة تغييره[1] .

---

(١) يتطور النظام الطائفى الهندى تدريجياً بفضل حكمة القائمين على شئونها الذين أدركوا أنه يخالف روح العصر ، ولا يتفق مع ما يرجون للهند من قوة وعزة فى المجال الدولى .
(المترجم)

وأول الثورات المعروفة على الطائفية ؛ تلك التي قادها ماهافيرا مؤسس الجانية ، ثم ثورة البوذا : فقد اندلعت كلتاهما عام ٥٠٠ ق . م . ولو كان التوفيق قد حالف البوذية أو الجانية في استهواء العالم السندى ؛ لتم القضاء على الطبقية . على أنه لما أقصيت هاتان الديانتان ، قامت الهندوكية بدور العقيدة العالمية إبان الفصل الأخير من انحلال المجتمع السندى وسقوطه .

وتضم الهندوكية أشتاتاً من أشد آراء التسمح الديني المحدثة المهجورة ؛ منها القديم والجديد . فلقد كانت الطبقية هي أحد الأشياء القديمة التي بثت فيها الهندوكية روحاً جديدة . ولم تكتف بالمحافظة على هذا الظلم القديم ، بل قد أحكمت مظاهره كذلك . وبذلك وقع على الحضارة الهندوكية منذ بدايتها ، عبء الطبقية ، على صورة أشد ثقلا بكثير مما وقع على الحضارة التي سبقتها[1] .

ولقد أعلنت الثورات ضد الطائفية عن نفسها في تاريخ الحضارة الهندوكية ، في انشقاقات عن الهندوسية بفعل إغراء بعض النظم الدينية الغريبة عن الهند . وتزعم بعض هذه الانشقاقات المصلحون المناذكة الذين شيدوا عقائد دينية جديدة تجمع بين صيغ مهذبة من الهندوكية وعناصر أجنبية . ويطالعنا كمثال : استعارة ناناك (١٤٦٩ — ١٥٣٨ ميلادية)[2] عناصر من الإسلام ؛ وأقام رام موهان روس (١٧٧٢ — ١٨٣٣) عقيدة براهموساماج من امتزاج الهندوكية والمسيحية . وتتسم كلتا العقيدتين باستبعاد الطبقية من قواعدهما .

وفي حالات أخرى تخلص المنشقون من الهندوكية من عقيدتهم تخلصاً تاماً . فاعتنقوا الإسلام أو المسيحية . واتخذت مثل هذه الهدايات سبيلها على أوسع نطاق في المناطق التي تضم نسبة عالية من أعضاء الطوائف الدنيا والطبقات المحزونة

---

(١) الحضارة السندية . (المترجم)
(٢) مؤسس عقيدة السيخ . (المترجم)

هذه هي المناقضة الثورية للشذوذ الاجتماعي المتصل بنظام المنبوذين الذي استثاره ضغط الدين على الطبقية . وإذ كانت التأثيرات الغربية : من اقتصادية وثقافية ومعنوية من شأنها استفزاز جماهير الهند استفزازاً متصلا ، يبدو أن مجرى التحول الديني يوشك أن يتحول إلى طوفان ، اللهم إلا أن تعدل نظام البلاد الديني الاجتماعي تعديلا يتسم بانسجامه ، ويتولاه – في وجه معارضة البراهمة – أولئك الأعضاء من المجتمع الهندوكي الذين يمجدون المثل الدينية والسياسية للبانيا Banya مهاتما غاندي .

١٢ – ضغط الحضارة على تقسيم العمل :

لاحظنا قبل الآن أن تقسيم العمل لم يكن مجهولا برمته في المجتمعات البدائية . إذ يوضحه تخصص الحدادين والمنشدين والكهنة ورجال الطب . . ومن في حكمهم . بيد أن ضغط الحضارة على تقسيم العمل ، ينزع – بصورة عامة – إلى توكيد تقسيم العمل إلى درجة يهدد معها ، لا بتقليل الفوائد المرجوة منه فحسب ، ولكن ليصبح – في حقيقة الأمر – مناهضاً للمجتمع في سياق تأديته وظيفته . وتتولد هذه النتيجة في حياتي الأقلية المبدعة ، والأكثرية العاطلة عن الإبداع على السواء . إذ يدفع المبدعون إلى الباطنية ، ويساق شراذم الناس إلى « الاعوجاج » .

والباطنية ظاهرة للإخفاق في أعمال الأفراد المبدعين . ولعلها توصف بأنها توكيد للحركة التمهيدية في إيقاع الانسحاب والرجع ، ناتجة عن فشل في استكمال الحول . ولقد ذم اليونانيون أولئك الذين يفشلون في هذا الطريق بنعتهم بكلمة « المعتوه » . وكان يقصد بالاستعمال اليوناني لكلمة « معتوه » خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، الشخصية المتعالية التي ترتكب المعصية الاجتماعية بأن تقوم على حياتها بنفسها ولنفسها ، عوضا عن أن تضع مواهبها في خدمة خير الجماعة . وتتبدى النظرة إلى مثل هذا التصرف

فى أثينا فى عصر بروكليس من حقيقة مدارها أن اشتقاق الكلمة اليونانية ، قد أصبح يعنى فى لغاتنا الدارجة الحديثة « الأبله » .

بيد أنه لا يعثر على المتوهين الحقيقيين فى مجتمعنا الغربى الحديث فى المصحات . فإن فريقاً منهم — من فصيلة الإنسان العاقل — قد تحوّل إلى فصيلة الإنسان الاقتصادى ، فأصبح مدداً لديكنز[١] يزوّده بشخصات مثل : جرادجراند Gradgrind وباوندربى Bounderby يسخر منها فى رواياته . وتؤمن جماعة أخرى بأنها فى واد آخر ، وتعد نفسها من بين أبناء المعرفة ، فى حين أنها تقع فى الحقيقة تحت نفس الحكم . وهؤلاء هم المترفعون[٢] المثقفون وأصحاب الإحساس بالجمال ، وذوو الجباه العالية الذين يعتقدون بأن فنهم هو « فى سبيل الفن وحده » ، وهم ما سخر جيلبرت[٣] بهم فى رواياته . ولربما يصوّر الاختلاف فى الزمن بين ديكنز وجيلبرت ، حقيقة أن الجماعة الأولى هى أكثر الجماعتين ذيوعاً فى إنجلترا فى أوائل العصر الفيكتورى ، بينما انتشرت الثانية فى آخر هذا العصر . وتقع الجماعتان فى طرفى نقيض . بيد أنه يلاحظ بالنسبة للقطب الشمالى والقطب الجنوبى من كوكبنا ، أنهما رغماً عن تباعدهما العظيم ؛ فإنهما يعانيان نفس العيوب المناخية .

يتبقى أن نناقش ما أسميناه : بـ « الاعوجاج » وهو نتيجة ضغط الحضارة على تقسيم العمل فى حياة الأكثرية العاطلة عن الابداع .

إن قوام المشكلة الاجتماعية التى تنتظر المبدع مع رفاقه عندما يؤوب

---

(١) الروائى الإنجليزى المشهور . (المترجم)

(٢) المترفع : من يأنف الاتصال بمن يعتبرهم أقل منه مدنية . (المترجم)

(٣) هو السير وليم جيلبرت (١٨٣٩ — ١٩١٨) — قصصى مسرحى وناقد بريطانى ، تنحو كتاباته إلى الفكاهة والدعابة . وفى طليعة مسرحياته : قصر الحقيقة — بيجماليون وجلاتيا — المشاق . وقد اشترك مع آرثر سوليفت فى وضع عدة أوبرات منها : قرصان بنزانس — الميكادو . (المترجم)

من مجتمع جديد ، تتجلى فى مشكلة النهوض بالمستوى المتوسط لعدد من النفوس البشرية المعادية ، إلى مستوى أرفع ؛ أى إلى المستوى الذى بلغه المبدع نفسه ، وما إن ينشبث برسالته ، حتى تواجهه حقيقة أساسها أن معظم أفراد العامة ، عاجزون عن الحياة بقلوبهم وإرادتهم ونفوسهم وقوتهم كلها ، فى هذا المستوى العالى .

ولعل هذا الوضع يُغرى المبدع بمحاولة سلوك طريق قصير ، باللجوء إلى تدبير يقود إلى النهوض بأحد المواهب المفردة ، إلى مستوى أعلى دون أن يُلقِى بالا إلى الشخصية بأكملها . ومعنى هذا — وفقاً للغرض — إرغام البشرية على تقبّل ارتقاء غير متجانس . وتدرك مثل هذه النتائج بكيفية أكثر سهولة على سطح الأسلوب التكنولوجى الميكانيكى ؛ طالما تعتبر الميول الطبيعية تجاه الأساليب التكنولوجية الميكانيكية ، أسهل عناصر الثقافة قابلية للعزل . فإنه لا يصعب تكوين ميكانيكى كفء من شخص تظل كافة مناحى تفكيره بدائية همجية . بيد أنه يتأتى — بنفس الطريقة — توجيه الملكات الأخرى نحو التخصص والنماء المفرط . ولقد انصبّ نقد ماثيو آرنولد[١] على أنه قد تخصص فيما أعتقد خطأ بأنه الدين المسيحى ، فى حين أهمل الفضائل الأخرى — الهلينيـة — التى تعمل على تكوين شخصية تتسم كثيرا بتوازنها .

ولقد صادفنا هذا « الاعوجاج » قبل الآن عند استقصائنا الاستجابة

(١) آرنولد ماثيو Arnold Matthew (١٨٢٢ — ٨٨) يعتبر أشهر شعراء جيله فى بريطانيا (بعد تنيسون) وقد شغل فترة عشرة أعوام كرسى الشعر بجامعة أكسفورد . وتمتاز مؤلفاته بروحها الفلسفية والدينية . وقد نشر ما أسماه مذهب « الوادى والضياء » وكان ينادى بضرورة قراءة الكتب المقدسة بروح الأدب والفلسفة لاعلى هوى الروح العلمية . (المترجم)

لتحدى النقمة الذى يتولد عن الأقليات التى حلت النقمة بها . فلاحظنا أن حرمان هذه الأقليات من حقوق المواطن ذى الرعوية الكاملة — حرمانا تعسفيا — قد حفزها إلى البروز والتفوق فى مناحى النشاط التى سمح لهم بها . كما أننا قد دهشنا وأبدينا إعجابنا بطائفة كاملة من المآثر التى لبثت فيها هذه الأقليات صامدة ، صموداً تجلت فيه مناعة الجنس البشرى .

على أنه لا يمكننا — فى نفس الوقت — تجاهل حقيقة مدارها أن بعض هذه الأقليات — سكان الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط[1] والفناريون والأرمن واليهود — تشتهر بأنها « ليست كبقية الناس » للشر والخير على السواء . ويطالعنا فى هذا الصدد ، المثال التقليدى على العلاقات بين اليهود والأمميين . فإن الأممى الذى يتقزز ويخجل من سلوك زميله من الجوييم[2] ، تصيبه الحيرة إذ يجد نفسه ملزما بالتسليم بأن ثمة شيئا من عنصر الحقيقة فى الكاريكاتير الذى يرسمه من يتصدى لمهاجمة اليهود : ويعدّ ذلك مبرراً لوحشيته . والواقع يكمن لب المأساة فى الحقيقة القائمة على أن النقمة التى تدفع أقلية أصابتها إلى الاستجابة الباسلة ، تنزع إلى الانحراف عن طبيعتها البشرية .

وكما يصدق ذلك هذه الأقليات التى أصابها الاقتصاص الاجتماعى ، ينطبق كذلك بوضوح على تلك الأقليات المتخصصة تخصصاً فنياً ، والتى نُعنى ببحثها فى الوقت الحاضر . وهذه نقطة ترد إلى الخاطر بملاحظة تواصل تغلغل الدراسات الفنية فى المنهاج الدراسى الذى ظلت تسوده حرية البحث ؛ وإن كان غير عملى .

ولقد صك يونانيو القرن الخامس قبل الميلاد لصفة عدم الانتظام هذه ،

---

(١) Leventines : عرفوا فى الكتب العربية فى القرن الثامن عشر باسم اللاوندية وهى تحريف Leventine . (المترجم)

(٢) الجوييم لفظ يطلقه اليهود على ما عداهم . (المترجم)

كلمة « الحيوان الاجتماعي » ؛ « ينعت بها الشخص الذى يتسم نشاطه بالتخصص القائم على تركيز الجهد وفقاً لأسلوب معين ، على حساب تقاعسه فى النواحي الأخرى . وكان نوع الأسلوب التكنولوجي الذى ساور أذهان الناس وقلما استخدموا هذا الاصطلاح ؛ هو فى الغالب ضرباً من المهنة اليدوية أو الميكانيكية ، غايتها تحقيق الربح الخاص . على أن الازدراء الهليني لهذا المنوال من التخصص ، قد ذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فغرست فى العقول الهلينية ازدراء نزعة الاحتراف بكافة مناحيه . وتصدُق هذه النظرة على تركيز أسبرطة جهودها ناحية الحرب . بل إن سياسياً كبيراً ومنقذاً لبلاده ، لا يسلم من اللوم إن افتقر إلى معرفة شاملة بفن الحياة :

« دأب ثيمستوكليس فى المجتمع المهذب الراقى على أن يُحاط بأناس معروفين بتعليمهم الحر (نظراً لافتقاره إلى المواهب) وطفق يُدفع لإبداء دفاع رخيص نوعاً ما قوامه عجزه بالتأكيد عن استخدام آلة موسيقية . إلا أنه لو وضعت بيديه مصائر بلد صغير مغمور ، فإنه العليم بكيفية تحويله إلى بلد كبير مشهور »[1] .

وفى وسعنا أن نعرض — نقيضاً لذلك المثال المعتدل عن التخصص — صورة لفيينا فى عصرها الذهبي الذى ظهر فيه هايدن وموزارت وبيتهوفن ، وقلما كان من عادة إمبراطور من عائلة هابسبرج ومستشاره ، أن يشتركا فى ساعات راحتهما مع الموسيقيين فى عزف الرباعيات الوترية .

ويطالعنا مثالان لهذه الحساسية الهلينية تجاه التخصص المهنى فى نظام المجتمعات الأخرى :

الأول : الوظيفة الاجتماعية . ليوم السبت اليهودى ويوم الأحد المسيحى . فإنها ترمى إلى توكيد أن المخلوق وقد ضيّق عليه التخصص المهنى الخناق

---

(١) الفصل الثانى من Plutarch : Life of Themistocles

وأوثقه إليه طوال ستة أيام من الأسبوع فى سبيل حصوله على معاشه ، يفكر فى اليوم السابع مع خالقه ويعيش حياة النفس البشرية الكاملة .

الثانى : تنظيم إنجلترا للألعاب وغيرها من أنواع الرياضة . إذ لم يكن من قبيل المصادفة أن تشيع الألعاب الرياضية بين الشعب فى غمار الحركة الصناعية . لأن الرياضة هى محاولة شعورية لمواجهة أثر التخصص المهنى القاتل للنفس على نفوس الناس ، وهو الأثر الذى يتضمنه تقسيم العمل فى ظل الصناعة الحديثة . بيد أن هذه المحاولة لتكييف الحياة للاتجاه الصناعى بوساطة الرياضة ، لم يقيّض لها النجاح لسوء الحظ ، لأن شيمة الإيقاع الذى تتسم به الصناعة قد اجتاح الرياضة نفسها وأفسدها ، فأصبح الاحتراف الرياضى فى العالم الغربى يمتاز بالتخصص فى أضيق نطاق . ويدرّ على أصحابه أموالا طائلة أكثر مما يدرّه التخصص على الفنيين فى الصناعة .

وبالأحرى يزوّدنا التخصص الرياضى بأمثلة مروعة للتخصص المهنى فى ذروته . ويذكر كاتب هذه الدراسة أنه زار ملعبين لكرة القدم فى حرم كليتين فى الولايات المتحدة . وكان أحدهما حافلا بالضياء ليتسنى إخراج لاعبين يلعبون بالليل كما فى النهار فى نوبات متواصلة ، وكان الآخر مسقفا ليستمر اللعب فى أى جو . وقد قيل بأنه أضخم سطح فى العالم وأن إقامته قد تكلفت مبلغاً خيالياً . وصُفّت الأسرّة حول الجوانب لاستقبال الأبطال المنهكين أو الجرحى . ولقد ألفيت اللاعبين فى كلا هذين الملعبين الأمريكيين جانباً لا يؤبه له من مجموع الطلبة ، وقيل لى كذلك إن هؤلاء الطلبة ينتظرون محنة المباراة بنفس الرهبة التى شعر بها إخوتهم الأسن منهم وقتما توجهوا إلى الخنادق عام ١٩١٨ . وحقاً لم تعد كرة القدم الانجلوسكسونية هذه ، لعبة بأية حال من الأحوال .

ويتسنى بالنسبة للعالم الهلينى ، تمييز بداية مطابقة . حيث حل مكان الهواة الأرستقراطيين الذين كان يحتفل بانتصاراتهم الرياضية فى أغانى

بندار ، فرق من المحترفين . على حين اختلفت الاستعراضات التى كانت تقيمها جمعية الفنانين المتحدين من بارثيا إلى أسبانيا إبان العصر التالى للإسكندر ، عن تمثيلات مسرح ديونيسوس نفسه فى أثينا ، اختلاف استعراض يتم فى صالة موسيقى عن التمثيليات الدينية الشائعة فى القرون الوسطى .

فلا بدع والحالة هذه ، أن يحلم الفلاسفة بتطبيق البرامج الثورية للقضاء على الرذائل الاجتماعية وقتما تتحدى تلك الرذائل بهذا الأسلوب المشوه ، توافق المجتمع وانسجامه .

وهكذا نجد أفلاطون يكتب خلال الجيل الأول بعد الانهيار الهلينى ، باحثاً عن وسيلة لقطع جذور التخصص المهنى عن طريق غرس مدينته الفاضلة فى منطقة داخلية ، لا تتيسر لها الوسائل لممارسة التجارة البحرية وليس فيها ما يُغرى بالقيام بأى نشاط اقتصادى عدا الفلاحة لسد الاحتياجات الأساسية .

ونجد توماس جيفرسون مصور المثالية الأمريكية التى ضلت طريقها بشكل محزن ، وتخيل نفس الحلم فى مستهل القرن التاسع عشر وقتما كتب : « إذا كان على أن أتوغل فى نظريتى . . فإنى أتمنى أن لا تمارس الولايات التجارة والملاحة ، ولكن أن تقف تجاه أوربا نفس ماتفعله إزاء الصين(١) .

كذلك تخيل صمويل بتلر أصحاب مدينته الفاضلة يدمرون معتمدين وبانتظام آلاتهم ، لتلافى استعبادها لهم :

٣ ــ ضغط الحضارة على نزعة المحاكاة :

يعنى إعادة تنسيق ملكة المحاكاة بمنأى عن المسنين وصوب الرواد ــ كما رأينا ــ إحداث تغيير فى اتجاه هذه المحاكاة التى تصاحب انتقال مجتمع بدائى إلى طور حضارى . ومناط الهدف المرتقب ، الارتفاع بالجمهرة العاطلة عن الإبداع إلى المستوى الجديد الذى بلغه الرواد . بيد أنه لما كان

---

(١) لاحظها وودور فى كتابه عن « التاريخ الأمريكى الحديث . (المؤلف)

اقفلت الصين أبوابها فى وجه التجارة الأوربية حتى أضطرت أن تفتحها تحت ضغط الجيوش البريطانية عام ١٨٤٠ . (المترجم)

هذا الالتجاء إلى المحاكاة ، يعتبر بمثابة طريق مختصر أى بديل رخيص للشيء الحقيقى ، فإن إدراك هذه الغاية يتجه إلى بطلان .

وفى الحقيقة لا تؤهل الجمهرة العاطلة عن الإبداع للدخول إلى « مجمع القديسين[١] » . فإن الإنسان البدائى الطبيعى[٢] ، غالباً جداً ما ينسلخ إلى إنسان عامى مقلد[٣] . وفى مثل تلك الحالة يتولد عن ضغط الحضارة على المحاكاة حشد حضرى يتسم بالسفسطة الكاذبة ويمتاز عن أجداده البدائيين بانحطاطه فى كثير من النواحى .

إن أريستوفانيس[٤] قد حارب كليون[٥] مستخدماً سلاح السخرية على مسرح آتيكا ، لكن كليون انتصر بعيداً عن المسرح . وبالحرى فإن رجل الشارع « الكلونى » الطابع الذى يُعتبر اعتلاؤه التاريخ الهلينى قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، إحدى الدلالات التى لا تُخطئ عن الانحلال الاجتماعى ، والذى فلت فى نهاية الأمر إسار نفسه بفضل إنكاره التام ثقافة

---

(١) مجمع القديسيين : يعنى أصلا أولئك الذين اشتركوا فى العشاء الربانى الذى حضره السيد المسيح . (المترجم)

(٢) Homointeger antiqual virtutis

(٣) Homo vuigaris north chiffii

(٤) آريستو فانيس Aristo Phanes (٤٥٠ - ٣٨٥ ق . م) هو أشهر كتاب المسرح اليونانى على الإطلاق . ولد فى اثينا حيث أمضى حياته . وينسب إليه تأليف أربع وخمسين مسرحية كوميدية لم يتبق منها سوى إحدى عشرة . وتبدى مسرحياته الأولى روحاً سياسية ساخرة . بينما تميل مسرحيات الطور الثانى من حياته إلى التحفظ . وتنزع المسرحيات التى ألفها فى آخريات أيامه إلى النقد الاجتماعى . (المترجم)

(٥) كليون Cleon (توفى عام ٤٢٢ ق . م) ديموقراطى أثينى كانت الدباغة صناعته الأصلية ثم ذاع صيته فى الحياة العامة كمارض لبركليس . ولقد نصب نفسه خلال الحرب البلوبنيزية مدافعاً عن حقوق الشعب وزعيماً للسلام . ونال مجداً عظيماً عام ٢٤ ق . م بفضل القائه القبض على الاسبرطيين فى جزيرة سفاكتيريا . ومن ثم قلده الاثينيون قيادة جيشهم لمحاربة تراسيداس فى مقدونية وتراقية . لكنه فشل وقتل تحت أسوار مدينة آمفيوبوليس ويصوره آريستوفانيس فى كوميدياته بأنه إنسان مضلل الجماهير من أحط نوع ، وإنه سافل جاهل جبان نفعى . (المترجم)

أخفقت فى إشباع جوعه الروحى ؛ لم يوفق إلا فى حشو جوفها بالقشور . ونظراً لأنه يمت إلى بروليتاريا مخالفة ، نجده يتنبه من غفوته الروحية ويسعى أخيراً إلى استكمال خلاصه بالتماس عقيدة أسمى من عقيدته .

ولعل هذه الأمثلة كافية لإيضاح الدور الذى أدته فى انهيار الحضارات ، عناد النظم القديمة تجاه الاقتراب من القوى الاجتماعية الجديدة . أو باستخدام لغة الإنجيـــل الدور الذى قام به فشل الزجاجات القديمة فى استيعاب النبيذ الجديد .

(٣) آفة الإبداع — عبادة ذات فانية

١ — عكس الأدوار :

أنجزنا الآن بعضاً من دراسة مظهرين لذلك الإخفاق فى تقرير المصير الذى يبدو أنه علة انهيار الحضارات . وهذا ما دفعنا إلى موازنة فكرة آلية المحاكاة وعناد النظم القديمة . وفى وسعنا أن نختتم هذا الجزء من بحثنا بالتفكر فى آفة الإبداع الواضحة .

يبدو كما لو أن قيام أقلية بمفردها باستجابات إبداعية لتحديين متعاقبين أو أكثر فى تاريخ حضارة من الحضارات ، ليس من الأمور العادية . وفى الحقيقة ينزع الفريق الذى تميز بمعالجة تحد واحد ، إلى الإخفاق بشكل واضح فى معالجة التحدّى التالى . ويعتبر هذا التحول المشوش لأقدار البشر — وإن كان انتظامه واضحاً — أحد تصميات الدراما فى آتيكا ، التى ناقشها أرسطو فى مؤلفه عن « الشعراء » تحت اسم « عكس الأدوار » . كما أن هذا التحول هو بالمثل أحد الموضوعات الرئيسية فى العهد الجديد .

فإن المسيح تنبذه — فى دراما العهد الجديد — « مدرسة النساخ والفريسيين » وهم الذين هرعوا إلى المقدمة قبل ذلك ببضعة أجيال ، ليتزعموا ثورة اليهود

الجريئة ضد زحف الهلينية الظافر . ولقد كانت بشارة المسيح على الأرض هى المطابقة الحقيقية للأمنية اليهودية عن ظهور المسيح .

إن الفراسة والاستقامة اللتين دفعتا النساخين والفريسيين إلى المقدمة إبان تلك الأزمة السابقة ، قد تخلتا عنهم الآن فى أزمة أعظم شأناً . فكان قوام اليهود الذين استجابوا للدعوة هم من أصحاب المواخير والمومسات : بل وفد السيد المسيح نفسه من « جليل الأميين » كما كان أعظم أوصيائه يهودى من طرسوس[١] ، وهى مدينة وثنية تأثرت بالهلينية فيما وراء الأفق التقليدى لأرض الميعاد[٢] . فإذا نظر إلى الدراما من زاوية مختلفة قليلا وعلى مسرح أوسع نوعاً ما ، يتيسر تخصيص دور الفريسيين كما ورد فى الإنجيل الرابع لليهودية فى مجموعها وإلى أصحاب المومسات وإلى الأميين الذين تقبلوا تعاليم سانت بولص وقتما نبذها اليهود .

وبالمثل فإن نفس « خطة عكس الأدوار » هى منهاج عدد من الأمثال المضروبة والأحداث الفرعية فى قصة الإنجيل نجدها فى موضع الأمثال المضروبة عن دافيس[٣] وعازر ، وفى الفريسى وصاحب الماخورة والسامرى الطيب ؛ نقيض الكاهن واللاوى ، وفى الإبن المبذر نقيض أخيه الأكبر المحترم : ويتبدى نفس المنهاج فى مصادمات السيد المسيح مع قائد المائة الرومانى ومع المرأة السيروفينيقية[٤] .

وإذا جمعنا العهدين القديم والجديد فى مضمون واحد ، نجد أن مأساة العهد

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف .. القديس بولص . (المترجم)

(٢) أرض الميعاد هى فلسطين . (المترجم)

(٣) دايفس Dives اسم الرجل الغنى الذى نطق به السيد المسيح فى مثاله الذى ضربه عن الرجل الغنى ، وعازر هو لازاريوس الذى مات وأمره السيد المسيح بالقيام من قبره فقام . (المترجم)

(٤) نسبة إلى Syraphoenicia وكانت مقاطعة رومانية فى غرب آسيا شملت فينيقية ودمشق وتدمر . (المترجم)

القديم عن عيساو الذى فرط فى حقه بالوراثة(١) ليعقوب ، قد فسرته فى الإنجيل فكرة « عكس الأدوار » ؛ وقتما فرطت ذرية يعقوب فى حقه بالوراثة بدورهم بإنكارهم السيد المسيح .

وتتكرر الفكرة بانتظام فى أقوال السيد المسيح :

كل من سيعلى من قدر نفسه سيذل

الآخر سيصبح الأول ، وسيغدو الأول الأخير

إن لم تتحول وتصبح طفلا صغيراً ، لن تدخل مملكة السماء .

وطبق السيد المسيح الناحية الخلقية على رسالته باقتباس آية من المثل المائة والثامن عشر « إن الحجر الذى ينبذه البناؤون يصبح نفسه رأس الزاوية » .

وتمتد نفس الفكرة بين ثنايا كافة الأعمال الأدبية الهلينيــة الكبرى ، ويعبر عنها باختصار فى الصيغة « الكبرياء يسبق السقوط » . ولقد أوضح هيرودوتس الدروس المستخلصة من ســـير اجزركسيس وكرويسوس وبوليكراتس . وفى الواقع يتيسر بحث موضوع تاريخ هيرودوتس بأسره على أنه « ارتفاع الإمبراطورية الأخيمانية وسقوطها » . وكتب توكيديديس بعد ذلك بجيل ، مصوراً بطريقة أكثر إثارة وبروح إيجابية علمية أكثر وضوحاً ، منكراً نزعة أ التاريخ المتعمدة الصريحة عن ارتفاع أثينـــا وسقوطها . ونادراً ما نحتاج الآن إلى ذكر المباحث الأثيرة فى المأساة الأتيكية التى تمثلت فى أجاممنون لأخيل ، وأوديبوس وأجاكس لسوفوكلس وبنثيوس لأوريبيديس .

ويعبر شاعر ظهر إبان الانحلال الصينى عن نفس الفكرة فى قوله :

هذا الذى يقف على طرف أصبع قدمه لايقف ثابتاً

هذا الذى يستخدم أطول الخطوات لايسير الأسرع

---

(١) باعتباره الابن الأكبر . (المترجم)

هذا الذى يفخر بما سيعمله ، لاينجح فى شىء .
هذا الذى يعجب بعمله ، لا ينجز شيئاً يدوم[١] .

وبعد ، تلك هى نقمة ، الإبداع . وإذا كانت حبكة هذه المأساة مما يتصادف حدوثه عادة ؛ وإن كان المبدع الموفق يجد فى الواقع أن مناط توفيقه بالذات فى أحد فصول المأساة ، يشكل عائقاً جدياً فى سعيه لمواصلة دور الإبداع فى الفصل الثانى ، بحيث تصبح الفرص — فى حقيقتها — ضد « المجلى[٢] » دائماً وتوافق مصلحة « الحصان السبّاق »[١] . فواضح — من ثم — أننا قد دفعنا هنا إلى الأرض بعامل ذى تأثير قوى للغاية فى انهيار الحضارات . وفى وسعنا أن نشاهد أن هذه الآفة لابد وأن تطرأ على الانهيارات الاجتماعية بطريقين مميزين :

الأول : يختزل عدد المرشحين المحتملين لتأدية دور المبدع فى وجه أى تحد محتمل ، ما دام يترتب على الآفة ، استبعاد أولئك الذين استجابوا بنجاح إلى التحدى الأخير .

الثانى : يترتب على عجز هؤلاء الذين قاموا بدور المبدع فى الجيل السالف ، تبويب هؤلاء المبدعين السابقين ، تبويباً يجعلهم فى طليعة المعارضين لكل من يحتمل قيامه باستجابة ناجحة للتحدى الجديد . وهؤلاء المبدعون السابقون يشغلون ، فى الوقت الحاضر مراكز السلطة والنفوذ الرئيسية فى المجتمع الذى ينتسبون إليه وينتسب إليه كذلك المبدعون المحدثون الاحتماليون . ولن يتمكن المبدعون السابقون من معاونة المجتمع فى سيره نحو الأمام ، بل إنهم يصبحون كصاحب المجذاف الذى اتكأ على مجذافه .

---

(١) The Tao-te King. CH. 24 (translation Waley, A, In the Way and its Power.

(٢) المجلى : أى الأثير من خيل السباق . (المترجم)

(٣) الحصان السباق Dark Horse هو السابق المجهول ، أى حصان يربح شوط السباق على غير انتظار من غير أن يتوقع فوزه . (المترجم)

ولعل أصدق وصف لسلوك « المسترجين » اعتباره طريقة سلبية للاستسلام لآفة الابتداع . ولا تقوم سلبية هذا الوضع قرينة على انتفاء النقص المعنوى . فإن السلبية البلهاء إزاء الحاضر ، تنبعث عن الافتتان بالماضى . وهذا الافتتان هو خطيئة عبادة الأوثان التى قد تعرّف بأنها تكريس العبادة من ناحيتها الثقافية والمعنوية للمخلوق عوضاً من تكريسها للخالق . وقد تأخذ شكل عبادة عابد الوثن ذاته ، أو عبادة مجتمع فى مرحلة فانية يجتازها إبان تحركه الدائم القائم على التحدى والاستجابة صوب تجد جديد . وهذه الحركة هى جوهر البقاء على قيد الحياة . وقد تأخذ العبادة الشكل المحدود للافتتان بنوع معين من نظام أو أسلوب تكنولوجى ، هيأ للعابد ذات مرة مركزاً مرموقاً .

وسيكون من المناسب فحص أشكال العبادة الوثنية هذه ، كل على حدة . وسنبدأ بعبادة الذات ، لأنها ستهيئ لنا أوضح الصور عن الخطيئة التى نشرع الآن فى دراستها ، إن كانت هى الحقيقة بالفعل :

أولئك الرجال قد ينهضون على معابر[١]

من شخصياتهم الميتة إلى أشياء أعظم[٢]

وبالحرى فإن العابد الذى يرتكب جريمة معاملة نفس ميتة — لا كمعبر — ولكن كمنصة شرف ، يبعد نفسه بذلك عن الحياة بشكل واضح . ويصبح مثله مثل الناسك العمودى[٣] الذى يستنبذ نفسه على عمود بعيداً عن حياة رفاقه .

وعسانا الآن قد مهدنا السبيل بشكل واف لبضعة أمثلة تاريخية تتصل بموضوعنا الحالى :

---

(١) Stepping-stones حجارة توضع للخطو فوقها حيث يكون الوحل أو الماء . (المترجم)

(٢) من شعر تنيسون الشاعر الإنجليزى فى ديوانه « الذكرى » . (المؤلف)

(٣) العمودى Stylite فئة نصرانية من النساك ، عاش نساكها فوق العمدان اتباعا لسمعان العمودى . (المترجم)

٢ – اليهودية :

إن أقبح أمثلة عبادة الذات الفانية صيتاً ، يتمثل فى خطيئة اليهود التى تتبدى فى العهد الجديد . فإن شعب مملكتى إسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه مكانا ساميا إبان فترة من تاريخه الذى بدا فى طفولة الحضارة السورية ، وبلغ الأوج فى عصر الأنبياء . وأدرك موضع الرأس والمنكبين فوق الشعوب السورية المحيطة به ، بفضل اعتناقه فكرة وحدانية الدين .

سمح هذا الشعب الذى كان مدركاً لكنزه الروحى وفخوراً به بحق ، لنفسه بأن تفتنه هذه المرحلة الفذة ؛ وإن كانت انتقالية فى ارتقائه الروحانى . وحقاً قد أوتى فراسة روحانية لا تبارى . لكن اليهود بعد أن تنبأوا بالحقيقة المطلقة الخالدة ، تركوا لأنفسهم العنان لتشويههم حقيقة ناقصة ، نسبية وموقوتة . ومدار تلك الحقيقة اعتبارهم السمو الروحى الذى بلغوه بالعمل والكدّ امتيازاً خلعه الرب عليهم وحدهم بموجب عهد أبدى يجعل منهم شعب الله المختار .

وهكذا أضلتهم الحقيقة الناقصة فأردتهم فى خطأ مميت .

وإن احتضان اليهود لصفة شعب الله المختار ، قد انحرفت بهم إلى العقم الفكرى وقادتهم إلى نبذ كنز أعظم قدراً ، هيأه لهم الله بمقدم عيسى الناصرى .

٣ – أثينا :

إن كانت إسرائيل قد استكانت لآفة الإبداع بعبادتها نفسها على أنها « شعب الله المختار » ، فإن أثينا قد استكانت إلى نفس الآفة بعبادة نفسها بحسبانها « معلمة هيلاس » .

إننا قد شاهدنا قبل الآن كيف أن أثينا قد نالت على هذا اللقب المجيد حقاً عابراً ، بفضل ما حققته من مآثر خلال الفترة الواقعة بين عصرى صولون وبركليس . بيد أنه بدا ظاهراً للعيان ، نقص ما أنجزته أثينا – أوكان لامناص

من ظهوره – ويرد ذلك إلى ذات الباعث الذى جعل ابنها الألمعى يُضفى عليها هذا اللقب . إن بركليس قد صك العبارة فى خطاب رثاء جنازى ألقاه –كما يقول توكيديديس – سبح فيه بحمد الموتى الأثينيين فى السنة الأولى للحرب . وهى الحرب التى كانت العلامة المرئية والظاهرة لانهيار داخلى وروحانى فى حياة المجتمع الهلينى ، وفى حياة أثينا بصفة خاصة .

ولقد تفجرت هذه الحرب المهلكة . إذ ثبت عجز طاقة الأثينيين المعنوية إبان القرن الخامس قبل الميلاد عن علاج إحدى المشكلات التى تخلفت عن ثورة صولون الاقتصادية ، ألا وهى مشكلة إيجاد نظام عالمى سياسى هلينى .

فإن هزيمة أثينا الحربية عام ٤٠٤ ق . م ، وانكسارها المعنوى الذى ابتلت به الديموقراطية الأثينية المستعادة نفسها بعد ذلك بخمس سنوات بحكمها على على سقراط بالموت ؛ قد استثار أفلاطون فى الجيل التالى استثارة جعلته يُنكر فضل أثينا فى عصر بركليس ، بل وجميع أعمالها تقريباً . بيد أن إشارة أفلاطون المتجنية فى جانب والمتصنعة فى جانب آخر ، لم تنطبع فى ذهن زملائه المواطنين . فكان على الجيل الأقل كفاية ، الذى خلف الرواد الأثينيين الذين جعلوا مدينتهم « معلمة هيلاس » أن يسعى إلى الذود عن مطالبتهم بلقب ضائع . فاستخدموا طريقة ملتوية دللت على عدم قابليتهم للتعليم مصداقاً لما أظهرته سياساتهم المتقلبة والعقيمة إبان ازدهار عصر السيادة المقدونية ؛ إلى أن حلت النهاية المرة للتاريخ الهلينى ، وقتما هبطت أثينا إلى غمرة الخمول بصيرورتها مدينة إقليمية فى الإمبراطورية الرومانية .

ومن ثمت ؛ فإنه عندما بزغت ثقافة جديدة فى ماكان وقت ما دول العالم الهلينى الحرة ، لم تكن أرض أثينا هى الأرض الصالحة لتقبل البذرة . وتوحى القصة الواردة فى أعمال الرسل عن التقاء الأثينيين بالقديس بولص ، إن الرسول الموفد إلى الأميين لم يكن جاهلا بالمحيط الأكاديمى لمدينة أصبحت فى عصره ، أوكسفورد العالم الهلينى ، وأنه عندما خاطب « أعضاء

الجامعة » على « ربوة المريخ » قد بذل غاية جهده لمناقشة الموضوع من زاوية تُرضي هؤلاء النظارة بالذات. بيد أنه يبدو من سياق القصة أن تبشيره في أثينا قد ثبت فشله وأنه وإن وجد نتيجة لذلك فرصة لتوجيه الرسالات إلى عدد من الكنائس التي أنشأها في المدن اليونانية ، إلا أنه لم يحاول قط – وفقاً لعلمنا – أن يهدي بطريق القلم ، هؤلاء الأثينيين الذين وجدهم يستعصون على الكلمة الملفوظة.

٤ – إيطاليا :

إن كان لأثينا القرن الخامس قبل الميلاد أن تخلع على نفسها حقاً لقب « معلمة هيلاس » ؟ فإن للعالم الغربي الحديث أن يخلع على دول إيطاليا لقباً مطابقاً تستأهله بفضل ما حققته في عصر النهضة.

فإننا إذ نستقرئ تاريخ المجتمع الغربي إبان الأربعمائة سنة من الفترة التي تبدأ من الجزء الأخير من القرن الخامس عشر وتنتهي في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نجد أن كفايته الاقتصادية والسياسية الحديثة ، وكذلك ثقافته الذهنية وإحساسه بالجمال ، ترجع بشكل واضح إلى أصول إيطالية.

فإن الباعث الذي أبرزته إيطاليا ، هو الذي دفع هذه الحركة الحديثة في التاريخ الغربي. وتجلى هذا الباعث في إشعاع الثقافة إبان العصر السالف.

وفي الواقع قد يُرى من الملائم إطلاق اسم « العصر الإيطالي » على هذا الفصل من التاريخ الغربي ، تشبها بما دعي بالعصر الهليني من التاريخ الهليني ؛ وقتما استطارت ثقافة القرن الخامس قبل الميلاد الأثينية إثر جيوش الإسكندر من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى الحد البري القصي للإمبراطورية الاخيمانية المغمورة[1].

---

(١) قد تكون كلمة أتيكي علامة مميزة أكثر دقة من الاصطلاح المألوف مليتيسي ، يطلق على الثلاثة القرون التي تتخلل تغلب الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الاخيمانية وتأسيس أوغسطس الإمبراطورية الرومانية. وكما أشار ادوين بيفان من أن التطبيق المناسب تماماً –

على أننا نجد أنفسنا محاطين مرة أخرى بنفس النقيض . لأنه كما أن أثينا قد قامت بدور يتسم بالتفاهة المتزايدة فى العصر الهلينى ، تعتبر مشاركة إيطاليا فى الحياة العامة للمجتمع الغربى إبان العصر الحديث – كما هو ظاهر – أقل مما ساهم به مريدوها من البلاد الواقعة وراء الألب .

ولقد تبدّى عقم إيطاليا النسبي فى جميع دور الثقافة الإيطالية ومنازلها فى غضون هذا العصر الحديث ، فى فلورنسا وفى البندقية وفى سينا وفى بولونيا وفى بادوا . ولعل العُقْم فى نهاية هذه الفترة الحديثة ، أكثر من ذلك لفتاً للنظر . إذ غدت الأمم الواقعة خلف الألب قادرة حوالى نهاية هذا الفصل ، على سداد الدين الذى تدينها به إيطاليا القرون الوسطى : ومصداقاً لذلك شاهد دوران القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بداية إشعاع ثقافى جديد عبر جبال الألب ، لكنه هذه المرة عكس الاتجاه . إذ كان تدفق تأثيرات بلاد ما وراء الألب على إيطاليا ، هى العامل الأول فى حركة البعث الإيطالية(١) .

وكان اندماج إيطاليا المؤقت فى إمبراطورية نابليون بمثابة الاستثارة القوية الأولى التى تلقتها إيطاليا من الجانب الآخر من الألب . كما تمثلت الاستثارة القوية الثانية ، فى إعادة فتح طريق التجارة إلى الهند عبر البحر الأبيض المتوسط ، ذلك الطريق الذى شق قناة السويس والذى برز عن طريق غير مباشر منذ حملة نابليون على مصر . وطبيعى أن لا يترتب عن هاتين الاستثارتين اللتين أبرزتهما بلاد ما وراء الألب ، تأثيرها الكامل إلا بعد اتصالها بالمندوبين الإيطاليين . بيد أن القوى الإبداعية الإيطالية التى عن

– الوصف المراد به « هلينيتى » لن يكون أى فصل من تاريخ الحضارة الهلينية نفسها ، وما يراد به المظهر العام للحضارتين اللتين تفرعتا عن المجتمع الهلينى . وهما وفقاً للاصطلاح المستخدم فى هذه الدراسة يطلق عليهما اسم الحضارة القديمة والحضارة الأرذوكسية المسيحية . (المؤلف)

(١) يطلق على حركة البعث الإيطالية أصطلاح Risorgimento وتعنى أساساً قيام الشعوب الإيطالية ضد السيطرة النمسوية وأسفر ذلك عن كل توحيد ايطاليا عام ١٨٧٠ . (المترجم)

طريقها تضمنت حركة البعث الإيطالية ، لم تنهض على أساس إيطالى سبق له فى القرون الوسطى أن استولد محصولا للثقافة الإيطالية .

ففى الميدان الاقتصادى مثلا : لم تكن البندقية أو جنوا أو بيزا ، الميناء الإيطالية الأولى التى فازت لنفسها بحصة من التجارة البحرية الغربية الحديثة ، بل كانت ليفورنو التى خلقها غراندوق توسكانيا بعد عصر النهضة ، وأقام هناك مستعمرة ضمت أخلاطاً من اليهود المهاجرين من اسبانيا والبرتغال . ورغماً عن نشوء ليفورنو فى نطاق بضعة أميال من بيزا فكان أولئك المهاجرون الأقوياء من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، هم الذين كونوا ثروات ليفورنو ؛ لا الخلف المسترخين لبحارة بيزا المعروفين إبان القرون الوسطى .

وبالنسبة للميدان السياسى : يعتبر توحيـــد إيطاليا مأثرة لولاية أصلها من وراء الألب ، لم يكن لها قبل القرن الحادى عشر مركز ثابت على الجانب الإيطالى من الألب وراء منطقة « فال داوستا Val d'Aosta التى تتكلم بالفرنسية . ولم يهدأ بال لمركز ثقل بيت سافوى على الجانب الآخر من الألب ~~فى نهاية الأمر~~ ، إلا بعد ما زالت على التتابع حرية دول المدن الإيطالية وعبقرية النهضة الإيطالية . ولم يقيض لأية مدينة إيطالية ممن كانت من الطبقة الأولى إبان العصر الكبير ، أن تصبح ضمن أملاك ملك سردينيا ، باعتباره حاكم أملاك بيت سافوى — كما كان يلقب — حتى وقت الاستحواذ على جنوا بعد نهاية الحروب النابليونية . وكان طابع بيت سافوى ما يزال فى ذلك العهد غريباً على تقاليد المدينة ، حتى دأب أهالى جنوا على السخرية منه وهم فى ظل حكم صاحب الجلالة ملك سردينيا . وظل الحال كذلك حتى جاء عام ١٨٤٨ ، ففازت الأسرة المالكة بأتباع لها فى جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيطالية بفضل وضعها نفسها على رأس الحركة الوطنية .

فى سنة ١٨٤٨ تهدد الحكم النمسوى فى لومباردى والبندقية على التوالى بغزوة قسمين من بيدمونت وبثورات فى البندقية وميلان والمدن الإيطالية

الأخرى الداخلة فى نطاق الأقاليم الإيطالية . ومن اللطيف أن نتأمل فى اختلاف الأهمية التاريخية لهاتين الحركتين المناهضتين للنمسا اللتين حدثتا فى نفس الوقت ، واللتين يصوّران كلاهما على اعتبار أنهما ضربتان سددتا فى سبيل قضية التحرير الإيطالى المشتركة .

ولا ريب أن انتفاضتى البندقية وميلان بمثابة ضربات سُدّدت فى سبيل الحرية ، لكن تمثل وحى الحرية الذى ألهم المدينتين ، فى استعادة ماضى القرون الوسطى. فكانت هاتان المدنيتان — من ناحية الجوهر — تستأنفان صراعهما ضد الهوهنستاوفن Hohenstanstanfen[1] إبان القرون الوسطى . فإن قورن إخفاقهما الذى يتسم بالبسالة بلا جدال ، بالعمل الجرىء الذى أنجزه أهالى بيدموند إبان ٤٩/١٨٤٨ ، فإن نجاح بيدمونت لا يعتبر مجلبة للفخر . فلقد عوقب البيدمونتيون على استهتارهم فى انتهاك هدنة قامت على أساس من التبصر ، بهزيمة نوفارا الفاضحة .

بيد أن العار الذى بيدمونت بسبب هزيمتها ، كان على إيطاليا ، نقمة أعظم من دفاع البندقية وميلان الرائع ، إذ قد عاش جيش بيدمونت ليكفل انتقامه (بمساعدة خطيرة جداً أسداها الفرنسيون) فى موقعة ماجينتا Magenta بعد هزيمتها تلك بعشر سنوات . فكان أن أصبح الدستور البرلمانى ذو المظهر الإنجليزى الطريف والذى أصدره الملك شارل البرت عام ١٨٤٨ ، دستور إيطاليا الموحدة عام ١٨٦٠ .

ومن الناحية الأخرى لم تكرر ميلان والبندقية بعد ذلك ، تلك الأعمال الباهرة المجيدة التى أنجزتاها عام ١٨٤٨ . ومن ثمت بقيت هاتان المدينتان

(١) بيت من الأمراء الألمان ، كان أفراده أباطرة أو ملوكا لألمانيا خلال الفترة ١١٣٨ — ١٢٥٤ وكان أول عداه هذا البيت فردريك فون بورين الذى مات فى نهاية القرن الحادى عشر ، وابتنى ابنه فردريك قلعة بمدينة Hohenstanfen وكان أن أطلق على نفسه هذا اللقب الذى توراثه عائلته . وأشهر أباطرة هذا البيت « الإمبراطور فردريك باربارومسا » . (المترجم)

القديمتان فى وضع سلبي فى ظل الحكم النمسوى الذى أعيد فرضه عليهما ولم يتيسر كفالة حريتّها ، إلا بفضل جيوش بيدمونت ودبلوماسيتّها .

ولعل مناط تفسير هذه الأوجه المتعارضة ، فشل مآثر البندقية وميلان : فإن القومية الحديثة لم تكن هى روح القوة الدافعة ، بل تجلّى الدافع فى افتتان المدينتين بذاتيتهما الفانية . وأساسها مجدهما لما كانتا دولتين ، إبان القرون الوسطى : ومصداقاً لذلك كان أهالى البندقية يقاتلون فى سبيل استعادة جمهورية البندقية المطلقة ، وقلّما استجابوا لنداء مانين Manin عام ١٨٤٨ لا ليشاركوا فى خلق إيطاليا المتحدة . أما أهالى بيدمونت – من الناحية الأخرى – فلم يكن ثمة ما يغريهم بالافتتان بذاتيتّهم الفانية ، إذ لم يزوّدهم ماضيهم بالذاتية ، التى تجعلها موضع افتتان .

ويتبلور الاختلاف بين البندقية وبيد مونت ، فى تباين شخصيتى مانين[1] وكافور . فإن مانين بندقى بلا جدال ، لن يجد نفسه غريباً لو ظهر إبان القرن الرابع عشر . فى حين لو قيض لكافور بلغتـــه الفرنسية الأصيلة وطابعه الفيكتورى ، الظهور فى دولة من الدول الإيطالية فى القرن الخامس عشر ، ليبدأ فى هذا الوسط غريباً غاية الغرابة . ومثله فى ذلك الشأن مثل معاصريه فى البلاد الواقعة وراء الآلب : بيل[2] وتيير[3] . وكان يحتمل أن تتجه مواهب كافور إلى الاشتغال بالسياسات البرلمانية والدبلوماسية ، وينصرف اهتمامه إلى الزراعة وبناء السكك الحديدية ، لو كان القدر قد جعل منه مالكاً فى إنجلترا أو فرنسا إبان القرن التاسع عشر ؛ عوضاً عن إيطاليا فى نفس العصر .

---

(١) كان دانيل مانين (١٨٠٤ – ١٨٥٧) وقت نشوب ثورة ١٨٤٨ رئيساً لجمهورية البندقية ولقد أصبح منذ عام ١٨٣١ زعيماً معترفاً به فى الرأى العام الحر فى البندقية . وكان الروح المشجعة لجميع سكان البندقية إبان دفاعهم الباسل عن المدينة طوال أربعة شهور تجاه حصار جيش النمسا ولما نجح النمسويون فى الاستيلاء على المدينة طردوه منها فذهب إلى باريس حيث توفى عام ١٨٥٧ . (المترجم)

(٢) السير روبرت بيل سياسى انجليزى (١٧٨٨ – ١٨٥٠) . (المترجم)

(٣) لويس تيير (١٧٩٧ – ١٨٧٧) سياسى فرنسى ومؤرخ . (المترجم)

ويتبين من هذا العرض ، أن دور نهضة ١٨٤٨/٩ فى خدمة البعث الإيطالى ، كان سلبيا فى جوهره . ويعتبر إخفاق هذا الدور ، شيئاً ثميناً وتقدمة ضرورية فى الواقع ، لكفالة أسباب النجاح إبان الفترة ١٨٥٩ / ١٨٧٠ .

ولقد دُكت فى عام ١٨٤٨ قواعد الأوثان القديمة التى كانت شائعة فى ميلان والبندقية إبان العصور الوسطى . وامّحت ،إلى درجة فقدت معها فى نهاية الأمر سيطرتها القاتلة على نفوس عبادها[1] . وترتب عن إزالة الماضى الذى كان يعرقل التقدم ، أن مُهّدت الأرض لتشييد قيادة دولة إيطالية واحدة؛ لم تكن لتعرقل جهودها ذكريات القرون الوسطى .

٥ ـ كارولينا الجنوبية :

سنجد فى تاريخ الولايات المتحدة إن وسّعنا مدى استعراضنا من العالم القديم إلى الجديد ، تفسيراً مماثلا لآفة الإبداع .

فإذا عقدنا دراسة مقارنة لتواريخ الولايات المختلفة « للجنوب القديم » خلال فترة ما بعد الحرب ؛ تلك الولايات التى كانت أعضاء فى « التحالف » خلال الحرب الأهلية (١٨٦١/١٨٦٥) وشاركت التحالف هزيمته ؛ نلاحظ اختلافاً مميزاً يدور حول مدى انتعاشها من النكبة المشتركة منذ ذلك الحين . وسنلاحظ أن الاختلاف ـ وهو على خط مستقيم اختلاف مماثل وذو طابع خاص بحت ـ قد ميز نفس الولايات إبان الفترة التى سبقت الحرب الأهلية : فى وسع المراقب الأجنبى الذى تُقيّض له زيارة الجنوب القديم فى العقد الخامس من القرن العشرين ، أن يتخير فرجينيا وكارولينا الجنوبية . هنا يتبين أنهما لا تحتويان على أضعف علامة الانتعاش أو بشائره . وسيدهشه أن يجد آثار هذه الكارثة الاجتماعية قد امتدت الزمن الطويل الذى امتدت؛ حتى مع تسليمه بفداحتها .

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بالأوثان فى هذه العبارة ، تشبث الايطاليين بالسيادة الإقليمية للمدن التى ينتمون إليها مثل ميلان وجنوا والبندقية . (المترجم)

وما تزال نكبة الحرب الأهلية حيّة فى أذهان الجيل الحاضر فى تلك الولايات ، كما لو كانت الضربة قد حلت بهم بالأمس القريب . فلا بدع أن تعنى كلمة الحرب على شفاه الكثيرين من أهالى فرجينيـا وكارولينا الجنوبية .. الحرب الأهلية ؛ رغماً عن نشوب حربين رهيبتين منذ ذلك الحين . وفى الواقع تعرض فرجينيا أو كارولينا الجنوبية فى غضون القرن العشرين ، صورة ذهنية مؤلمة عن بلد وقفت فيه حركة الزمن بفعل ساحر .

وتعظم هذه الصورة فى أذهاننا بزيارة الولاية الواقعة بين الولايتين ، إذ تغايرهما تماماً . إذ سيجد الزائر فى كارولينا الشمالية صناعات على أحدث طراز ، وجامعات فى كل مكان ونسمة اندفاع وروحا دافعة تذكّر الإنسان عادة بأمريكى الشمال . وسيجد الزائر بالإضافة إلى رجال صناعاتها النشطين الموفقين ، أن كارولينا الشمالية قد أنجبت خلال القرن العشرين سياسياً من طراز والتر بيج Walter Pege وودورس .

فما الذى يفسر رذاذ الربيع الذى يُزهر الحياة فى كارولينا الشمالية ، فى حين أن حياة جارتيها ما تزال تذبل فى « شتاء » من السخط يبـدو أن لا نهاية له ! ؟

إذ ما ولينا وجهنا فى سبيل الاستنارة شطر الماضى ، فإن حيرتنا تزداد إلى حين . إذ نلاحظ أن كارولينا الشمالية كانت حتى اندلاع الحرب الأهلية ، بلداً كالحا من الوجهة الاجتماعية . فى حين كانت فرجينيا وكارولينا الجنوبية تنعمان بفترات من الحيوية الاستثنائية . فلقد كانت فرجينيا فى غضون الأربعين سنة الأولى من تاريخ الاتحاد الأمريكى ، قائدة الاتحاد بلاجدال ، بفضل إنجابها رؤساء الجمهورية الخمسة الأولين ، وإنجابها كذلك جون مارشال الذى واءم أكثر من أى فرد آخر ؛ بين غوامض الميثاق الذى أقامه « عهد فيلادلفيا » وبين حقائق الحياة الأمريكية . ولولاه لبقى الميثاق قصاصة ورق . وإذا كانت فرجينيا قد تخلفت بعد عام ١٨٢٥ ، فإن

كارولينا الجنوبية تحت زعامة كالهون Calhun قد وجّهت الولايات الجنوبية إلى المجرى الذى عانت فيه الهلاك إبان الحرب الأهلية .

وقلما كان يُسمع عن كارولينا الشمالية فى غضون هذا الوقت كله : فإن أرضها فقيرة وليست بها موانى . وقد انحدرت غالبية مزارعيها الصغار المعدمين من خشاش المهاجرين الذين فشلوا فى اكتساب شىء ، سواء فى فرجينيا أو فى كارولينا الجنوبية ؛ ولا تمكن مقارنتهم بالسادة من فرجينيا أو مزارعى القطن فى كارولينا الجنوبية .

ويتيسر تفسير إخفاق كارولينا الشمالية فى بداية الأمر ، بالمقارنة بجارتيها على كلا الجانبين . لكن ماذا يقال عن إخفاقها التالى ثم نجاحها الذى تلا ذلك ؟

التفسير أن كارولينا الشمالية مثل بيدمونت ، لم يحتجزها هيامها بماض عريق سابق . ولم تفقد سوى القليل نسبيا بهزيمتها فى الحرب الشمالية ، إذ لم يكن لديها سوى القليل نسبياً لتخسره . ولما كان انحدارها أقل مدى ، عظمت عندها فرص الانتعاش من الصدمة .

٦ ــ ضوء جديد على المشكلات القديمة :

تُبدى هذه الأمثلة عن آفة الإبداع ــ فى ضوء جديد ــ ظاهرة استلفتت نظرنا خلال جزء سابق من هذه الدراسة ، أطلقنا عليه « استثارة الأرض الجديدة » . فلقد عادت هذه الأمثلة إلى الظهور فى الأمثلة الآنفة الذكر :

١ ــ الجليليون والأدميون بالمقارنة بأهالى يهوذا .

٢ ــ بيدمونت بالمقارنة بميلان والبندقية .

٣ ــ كارولينا الشمالية بالمقارنة بجارتيها فى الشمال والجنوب .

ولو تابعنا نفس الاستقصاء فى حالة أثينا لأتيح لنا التدليل على أن يونانيي القرن الثالث والثانى قبل الميلاد ، قد بلغوا فى آشايا Achaia ــ لا فى آتيكا ــ

أقرب نقطة لحل مشكلتهم المزمنة عن توحيد مدنهم : فبذلوا محاولة عقيمة دفعتهم إليها رغبتهم فى المحافظة على استقلالهم ضد الدول الكبرى المحدثة ، التى ظهرت على مشارف العالم الهليني المترامى الأطراف .

وفى استطاعتنا الآن أن ندرك أن الخصوبة الرفيعة للأرض الجديدة ، لا ترجع بشكل راسخ أو بكليتها ، إلى استثارة محنة تحطيم الأرض البكر . ونستدل على نزوع الأرض الجديدة ، إلى الاثمار بسبب سلبي وإيجابي معا مبناه التحرر من كابوس التقاليد والذكريات التى يتعذر إبادتها ، وإن لم تعدبذات نفع .

ويمكن أن ندرك كذلك سبب ظاهرة اجتماعية أخرى — نزوع الأقلية المبدعة إلى التحول إلى أقلية مسيطرة — التى عرضنا لها فى مستهل هذه الدراسة . باعتبارها ظاهرة بارزة للانهيار والانحلال الاجتماعيين : وعلى حين لا يقدر للأقلية المبدعة إطلاقا أن تجتاز هذا التغير متجهة إلى حالة أسوأ ، فإن المبدع يميل بفطرته بكل تأكيد فى هذا الاتجاه من النزعة الابتداعية . فإن محنة الإبداع التى — عند ما تبرز — إلى الحركة منذ البداية ، تثمر ثمرة ناجحة لتخلد ، يصبح بدوره تحديا فذا هائلا للمتقبل ، الذى حول هذه الموهبة إلى أحسن شأن .

(٤) آفة الإبداع

عبـادة نظام فان

١ — المدينة الهلينية :

لكى ندرس الدور الذى قامت به عبادة هذا النظام فى انهيار المجتمع الهليني وانحلاله — وهو مجتمع اتسم بنجاحه الساطع فى نطاق حدوده الأصيلة ، لكنه لم يتعد فى نفس الوقت كونه شيئاً فانيا كجميع المخلوقات البشرية — علينا أن نميز بين موقفين مختلفين حيث يقف الوثن المعبود عقبة فى سبيل حل مشكلة اجتماعية .

الأول : ويمثل أولى المشكلتين وأخطرها . وقد فحصنا هذا الموقف

قبل الآن فى موضع آخر فيصبح فى وسعنا الآن من ثم أن نرفضه باختصار . فإن ما دعوناه بالثورة الاقتصادية الصولونية تطلب - كفرع ملحق به - شيئاً من التوحيد السياسى للعالم الهلينى . ولقد باءت محاولة أثينا لتحقيق ذلك الاتحاد بالفشل ، وترتب عنها ما شخّصناه على أنه انهيار المجتمع الأثينى . وواضح أن علة هذا الفشل تتمثل فى العجز الذى أبداه المعنيون بالأمر حيال التغلب على عقبة مبدأ سيادة المدينة .

الثانى : ويمثل المشكلة الثانوية ، عكس الأولى التى تعتبر مركزية لا فكاك منها . وتنجم عن سعى الأقلية الهلينية المسيطرة . وبينما تُركت المشكلة الأولى بدون حل أقبلت الثانية تسير على عقبيها ، وقتما اجتاز التاريخ الهلينى فصله الثانى إلى الثالث فى دوران القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد .

ولقد كانت علامة هذا التحوّل الرئيسية الظاهرة ، زيادة مفاجئة فى ميزان الحياة الهلينية المادى . وذلك أنه امتد صوب البر ، عالم يجرى انحصر حتى هذا الوقت فى شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط ، من المضيقين[1] إلى الهند ، ومن جبال أوليمب والابينين إلى نهرى الدانوب والراين . وتعتبر سيادة المدينة شيئاً هزيلا فى مجتمع تضخم إلى هذه الأبعاد دون أن يحل المشكلة الروحية المتصلة بإيجاد القانون والنظام بين الدول التى يترابط بها ، بحيث لم تعد هذه السيادة وحدة عملية للحياة السياسية .

وكان هذا فى حد ذاته سوء حظ مطلق . وحقاً فإن عبور هذا التقليد الهلينى من السيادة الإقليمية ، قد كان يؤخذ على أنه فرصة أرسلتها السماء للتخلص من كابوس السيادة الإقليمية ، جملة . ولو كان الإسكندر قد عاش حتى يتحد بتعاليمه مع زنو Zeno وأبيقور Epicurus[2] ، لأمكن تصور احتمال نجاح الهلينين فى الخروج توّاً من المدينة إلى النظام الأممى . فإن

---

(١) أى مضيقا الدردنيل والبسفور . (المترجم)

(٢) ذلك لأن الفلسفة الرواقية عالمية الطابع ، وتتفق مع دولة الإسكندر العالمية . (المترجم)

كان قد تم ذلك ، لاتخذ المجتمع الهلينى فترة جديدة من الحياة المبدعة . لكن موت الإسكندر قبل الأوان ، قد خلف العالم تحت رحمة خلفائه : فبقى نظام السيادة الإقليمية فى غضون ذلك العصر الجديد الذى افتتحه الإسكندر . بقيت يفعل المنافسات المشبوبة الأوار لسادة الحرب المقدونيين . بيد أنه كان فى الوسع إنقاذ السيادة الإقليمية — فى ظل المرتبة المادية الجديدة التى بلغتها الحياة الهلينية — بتوافر شرط واحد فقط ، مداره ضرورة أن تفسح المدينة صاحبة السيادة ، الطريق لدول جديدة من عيار أعلى .

ولقد ذاع أمر هذه الدول الجديدة . بيد أن عددها هبط بغتة من الجمع إلى المفرد ، نتيجة لسلسلة من الضربات القاضية التى كالتها روما إلى جميع منافسيها بين عامى ٢١٠ و ١٦٨ ق . م ، وبالحرى ألفى المجتمع الهلينى الذى فاتته فرصة التوحيد الاختيارى لنفسه بنفسه ، مثبتة أجزاؤه بعضها إلى البعض الآخر بروابط دولة عالمية .

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام لتحقيق غايتنا الحالية ، مبناها أن الاستجابة الرومانية للتحدى الذى دحر أثينا البركلية[1] وكافة الإمدادات التمهيدية التى قدمتها الأيدى الأخرى فى سبيل تكوين أثينا فى هذا العصر ، كانت من صنع أعضاء فى المجتمع الهلينى لم يكونوا قد فتنتهم تماماً ، عبادة المدينة ذات السيادة :

وكان تركيب الدولة الرومانية ، شيئاً يناقض مثل هذه العبادة من أساسه . إذ كانت « ثنائية الرعوية » هى مدار هذا الأساس التركيبى الذى يوزع ولاء المواطن بين دولة المدينة المحلية التى ولد فيها ، وبين نظام الدولة الواسعة النطاق ، كما أقامته روما .

ولقد تأتى تحقيق الحل الوسط الإبداعى من الناحية النفسانية وحدها ؛ فى المجتمعات التى يبلغ بها الافتتان بنظام المدينة ، درجة تصبح معها بمثابة المسكة الخانقة على قلوب المواطنين وعقولهم :

---

(١) نسبة إلى بركليس ، ويعتبر عصره أزهى عصور أثينا . (المترجم)

ولا تحتاج المطابقة هنا بين مشكلة السيادة الإقليمية فى العالم الهليني والمشكلة التي تقابلها فى عالمنا الحاضر ، إلى توكيد . بيد أن هذا الكثير يمكن قوله:

ولعلنا نتوقع من خلال استعراض التاريخ الهليني ، أن تتلقى المشكلة الغربية الحاضرة حلها – من ناحية تلقيها حلا على أية حال – فى ناحية من النواحي التي لم يشهد فيها نظام الدولة القومية ، لتصبح هدفا للعبادة الوثنية : ولن نتوقع أن يطالعنا الخلاص من دول أوربا الغربية القومية ؛ حيث ترتبط كل فكرة وشعور سياسيين بالسيادة الإقليمية التي تحدث رمزاً معترفا به لماض مجيد : ولا يستطيع المجتمع الغربي فى هذه البيئة ذات النفسية « اللاحقة »[1] ، أن يتطلع إلى الأمام لتهيئة الكشف الأساسي لنوع من شكل جديد من المشاركة الدولية التي سوف تُخضع السيادة الإقليمية لنظام من قانون أسمى:

وعندئذ يتأتى لها أن تصور بطريقة أخرى ، الكارثة التي لا مفر من وقوعها والتي ينجم عنها زوال ذلك الضرب من السيادة ، بضربة قاضية :

فإذا قيّض إنجاز هذا الكشف ، يتسم معمل الاختبار السياسي – حيث قد نتوقع أن نراه فى صورة مادية قوامها هيئة سياسية تشابه مجموعة الأمم البريطانية التي جمعت تجربة الدولة القومية الأوروبية التقليدية – بالمرونة التي تتصف بها عدة من البلاد الجديدة فيما وراء البحار . أو قد تتطور إلى نظام يشابه الاتحاد السوفيتي الذي يعمل على تنظيم عدد من الشعوب الغير الأوروبية فى ضرب من الجماعة ، جديد كل الجدة ، يقوم على فكرة ثورية غربية . ولقد نعثر فى الاتحاد السوفيتي على مطابقة للإمبراطورية السلوقية ، كما نعثر فى الامبراطورية البريطانية على مجانسة للكومنولث الروماني .

---

(١) فى الأصل « اللابيميثية » نسبة إلى Epimetheus . وتنعته الأساطير اليونانية بأن « رجل بعد ضياع الفرصة » وتذكر أنه كان أخو برووميثيوس Promitheus (رجل التبصر) ولقد عهد إليه زيوس كبير الأرباب اليونانيين بالإشراف على « باندورا » التي تعتبر سبب جميع الأمراض والآلام التي تحل بالبشر ، لكنه أخفق فى مهمته . (المترجم)

فهل سيقيض لهذه النظم السياسية وما يشابهها التى تقع على أطراف العالم الغربى الجديد ، أن تُبرز فى النهاية شكلا ما من التنظيم السياسى يساعد الغربيين على بذل مزيد من القوة – قبل أن يفلت الزمام – إلى تنظيمهم الدولى الناقص الذى يرنون مرة أخرى إلى بنائه مكان محاولتهم الأولى بين الحربين والتى تمثلت فى عصبة الأمم ؟

لا نستطيع أن نقرر شيئاً . على أننا نشعر شعوراً قريباً من التأكيد ، أنه لو أخفق هؤلاء الرواد ، فلن يتولى إنجازه هذا العمل بأية حال ، المغالون فى التعصب لوثن السيادة القومية .

٢ – الإمبراطورية الرومانية الشرقية :

يعتبر افتتان المسيحية الأرثوذكسية القتّال بشبح الإمبراطورية الرومانية ، حالة تقليدية للكَلّف بنظام يدفع أحد المجتمعات إلى كارثة . فإن هذا النظام قد أنجز وظيفته التاريخية واستكمل دورة حياته الطبيعية ، بتأديته وظيفة الدولة العالمية لمجتمع خَلّفَ المجتمع الهلينى .

وتتيح الإمبراطورية الرومانية الشرقية من الناحية السطحية ؛ مظهر الدوام المتصل ، لنظام واحد فرد ، منذ إنشاء قسطنطين للقسطنطينية ، حتى غزو الأتراك العثمانيين المدينة الإمبراطورية عام ١٤٥٣ ميلادية : أى طوال نيف وأحد عشر قرنا ، أو على الأقل حتى طرد الصليبين اللاتين الحكومة الرومانية الشرقية الإمبراطورية طرداً مؤقتا واستيلائهم على القسطنطينية عام ١٢٠٤ .

ولكى يتفق هذا القول مع الحقائق ، يجب التمييز بين نظامين مختلفين ، يعزل أحدهما عن الآخر فراغ يتخللهما .

النظام الأول – الإمبراطورية الرومانية الغربية الأصلية التى قامت بدور الدولة العالمية الهلينية التى انقضى أجلها بصفة فعلية دون نزاع ، خلال العصور المظلمة ، عند دوران – القرنين الرابع والخامس قبل

الميلاد ، وبصفة رسمية عام ٤٧٦ ميلادية ، وقتما خلع أحد سادة الحرب من البرابرة الإمبراطورية ، الإمبراطور الألعوبة من على عرشه ، وأخذ السيد الجديد يمارس سلطانه تحت اسم إمبراطور القسطنطينية .

النظام الثانى ــ الإمبراطورية الرومانية الشرقية الأصلية ، وقد لا يتيسر الاعتراف توا بمداهمتها نفس المصير الذى داهم الإمبراطورية الغربية قبل أن تنقضى العصور المظلمة . وقد يتوازى اضمحلالها ، مع نهاية حكم جوستنيان فى النشيط المخرب فى عام ٥٦٥ ميلادية . ولقد تلاه فى الشرق ، قرن ونصف قرن من الفراغ . ولا نعنى بذلك انتفاء وجود أشخاص يلعبون بالأباطرة الرومانيين ، يحكمون أو يحاولون الحكم من القسطنطينية إبان تلك الفترة . ولكننا نشير إلى عصر من الانحلال وتفريخ الجرائم ، فيه أزيلت بقايا مجتمع ميت ووضعت أسس مجتمع وريث له . وعلى أساس هذه القراءة للفصل الأول من تاريخ المسيحية الشرقية ؛ يعتبر ليوسيروس بمثابة شارلمان ناجح نجاحا محزنا ، أو أن شارلمان ــ على العكس ــ كان ليو سيروس خاسراً وذلك « بتوفيق من الله » ! !

وعلى أية حال فقد تم فى النصف الأول من القرن الثامن ، استحضار شبح الإمبراطورية الرومانية الميتة بفضل عبقرية ليوسيروس .

ولقد هيأ إخفاق شارلمان ، متسعا للكنيسة المسيحية الغربية ولحشد من الدول الغربية الإقليمية ، لتتطور فى غضون القرون الوسطى وفقاً للمنهاج المألوف لنا . فى حين أتاح نجاح ليو ، التضاق الصورة الضيقة لدولة عالمية معادة إلى الحياة فوق الكيان الاجتماعى للمسيحية الأرثوذكسة ، قبل أن يتعلم هذا المجتمع الوليد كيفية استخدامه أطرافه بصورة أولية .

بيد أن هذا التباين فى النتيجة ، لا يعكس أى اختلاف فى الغرض . لأن شارلمان وليو كليهما كانا ، من التابعين الرواقيين عباد ذات النظام الفاتى المطلق .

فكيف نفسر تفوّق المسيحية الأرثوذكسية على الغرب فى النظم السياسية تفوقاً ضاراً ، بسبب تبكيره ؟

لاشك أن أحد الأسباب الهامة ، كان الضغط الشديد الذى تعرضت له فى وقت واحد كلتا المسيحيتين ، متمثلا فى عدوان المسلمين . فإن العرب فى هجومهم على الغرب البعيد ، قد رشقوا سهامهم فاستردوا للمجتمع السورى أملاكه الاستعمارية المفقودة فى شمال أفريقيا وأسبانيا . فلما استكملوا ذلك ، عبروا جبال البرانس وطفقوا يكيلون الضربات للمجتمع الغربى الوليد . بيد أن قوة هجومهم استنفذت ، ومن ثم فإنه عندما حملتهم خيولهم حول أطراف الأبيض المتوسط إلى مدينة تور فى مواجهة سياج من الدروع أقامته أوستراشيا ، انحرفت طعنتهم عن هدفها الصلد دون أن تحدث ضرراً .

ولقد كان هذا النصر السلبى على مغير مُنهك ، كافياً لتقرير مقادير الأسرة الاستراشية الملكية . إذ أضفى انتصار تور عام ٧٣٢ ميلادية ، اعتباراً على استراشيا[١] ميزها كزعيمة بين الدول الأصيلة فى المسيحية الغربية . وإذا كان ضغط الصلب العربى الضعيف نسبياً الذى لم يزد عن وميض برقٍ وزال ، قد أتاح للكارولنجيين ما أتاح ؛ فلايستغرب أن يظهر إلى الوجود كيان الإمبراطورية الرومانية الراسخ ، فى المسيحية الأرثوذكسية ، ليقاوم الهجوم الأشد عنفاً والأطول مكابدة ، الذى شنه نفس المهاجم على المسيحية الأرثوذكسية .

ولهذا السبب ولأسباب أخرى[٢] نجح ليوسيدوس وخلفاؤه فى بلوغ

---

(١) استراشيا : هى القسم الشرقى من مملكة الفرنجة . وكانت تتضمن بلجيكا واللورين وقسما من الراين . وكانت عاصمتها مدينة متز . وقد تأسست استراشيا عام ٥٦١ ميلادية وحكمها حتى القرن الثامن ملوك الميروفنجيين . ثم اندمجت فى ألمانيا بعد موت شارلمان .
(المترجم)

(٢) عالج المستر توينبى فى مؤلفه الأصل موضوع الإمبراطورية الرومانية الشرقية بإسهاب أكثر وبإحكام أعظم مما كتبه فى أية دراسة تاريخية سابقة . انظر الجزء الرابع صفحات ٣٢٠ – ٤٠٨ . (المختصر)

هدف لم يقترب شارلمان أو أوتو أوهنرى الثالث ، منه أبدا ؛ حتى مع موافقة البابا .

ولم يوفق فى إدراك هذا الهدف — من باب أولى — الأباطرة اللاحقون الذين عارضوا ليوسيدوس . فلقد أحال الأباطرة الشرقيون فى البلاد الخاضعة لسلطانهم ، الكنيسة إلى إدارة من إدارات الدولة ، وحوّلوا البطريرك المسكونى إلى نوع من وكيل وزارة للشئون الدينية . وهكذا استعادوا العلاقة بين الكنيسة والدولة ؛ تلك العلاقة التى سبقت لقسطنطين إقامتها ، وحافظ خلفاؤه حتى جوستنيان عليها .

واتخذ تأثير استعادة العلاقة بين الكنيسة ودولة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، سبيلين ؛ الأول عام والآخر خاص :

السبيل العام : تجلت فيه النتيجة العامة ومدارها الحدّ من النزعات صوب ؛ النوع ، والمرونة ، والتجريب ، والإبداع . ووفيه أصيبت إصابة حياة المسيحية الأرثوذكسية بالعقم . ويمكننا — بصفة عامة — بيان ما حل بالمسيحية الأرثوذكسية من أضرار بملاحظة بعض الأعمال المشهورة التى أنجزتها الحضارة الغربية ولا نظير لها فى شقيقتها الحضارة الأرثوذكسية . إذ لا يقتصر الأمر فى تاريخ المسيحية الأرثوذكسية على انتفاء ما يطابق بابوية هيلدبراند ، بل إننا نفتقد فى هذا التاريخ ، ظهور وانتشار الجامعات التى تدير شئونها ذاتياً ، والمدن التى تستقل بحكم نفسها .

السبيل الخاص : تجلت فيه النتيجة الخاصة ؛ ومدارها إصرار الحكومة الأمبراطورية التى أعيد تشييدها ؛ على أساس من عدم الرضا بقيام الدول « البربرية » المستقلة ، فى نطاق المساحة التى شملت الحضارة التى تمثلها تلك الحكومة . فكان أن قاد هذا التعنت السياسى إلى نشوب الحروب الرومانية البلغارية إبان القرن العاشر . ورغمـا عن انتصار الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى الظاهر ، إلا أنها كابدت ضررا لا يداوى . إذ انبنى على تلك

الحروب – كما سبق أن أشرنا فى موضع آخر – انهيار المجتمع المسيحى الأرثوذكسى .

٣ – الملوك والمجالس البرلمانية والبيروقراطيات[١]

مهما يكن من أمر نوع الدول : دول مدن أو إمبراطوريات ، فإنها ليست النوع الوحيد للتنظيم السياسى الذى افتتن به عبّاد الأوثان . فلقد انبثق عن المغالاة فى تكريم التنظيم السياسى ؛ قوة حاكمة قوامها إما ملك مؤلّه أو برلمان قادر على كل شىء . والمثل يقال عن ظهور نوع من الطائفة أو الطبقة أو المهنة التى قدّر أن يتوقف مصير الدولة على مهارتها وإقدامها .

ويطالعنا فى هذا المجال المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة ، فى إنسان بشرى[٢] . ولقد لاحظنا قبل الآن فى موضع آخر ، أن تقبّل حكام المملكة المصرية المتحدة مراتب الشرف الإلهية – واغتصابها – يعتبر عرضا من أعراض « إنكار جسيم » لنداء رسالة أسمى[٣] . وهذا معناه فشل المجتمع المصرى للتحدى الثانى فى التاريخ المصرى . وهو فشل قاد إلى انهيار الحضارة المصرية مبكرا ، وإلى التعجيل بنهاية شبابها المبادر بالنضوج : ويتمثل العبء الساحق الذى فرضته هذه السلسلة من الأوثان البشرية[٤] على الحياة المصرية ، فى الأهرامات التى أقيمت بفضل تسخير عمل رعاياها بغية منح الخلود والمجد على بناة الأهرام .

وهكذا وجّهت المهارة الفنية والعمل ورأس المال توجيها سيئاً صوب هذا المجرى الوثنى ؛ عوضا عن تكريسها نحو مزيد من السيطرة على البيئة الطبيعية فى سبيل مصالح المجتمع بأسره .

---

(١) يقصد بالبيرقراطية : تركيز السلطات فى الهيئة الإدارية . (المترجم)
(٢) هو الفرعون . (المترجم)
(٣) هى رسالة أخناتون (الأسرة الثامنة عشرة) . (المترجم)
(٤) يقصد المؤلف « الفراعنة » وكان المصريون القدماء يؤلهونهم . (المترجم)

وتعتبر وثنية السيادة السياسية هذه ، التي تتجسد في شخص أحد البشر ؛ ضلالا يتيسر تصويره كذلك في مكان آخر . فاننا إن بحثنا عن حالة مماثلة في التاريخ الغربي الحديث ، لأمكننا العثور على صيغة « الابن الملكي لرع[١] » في صيغة فرنسية مبتذلة هي « الملك الشمس لويس الرابع عشر » . ولقد أناخ بناء قصر هذا الملك الشمس الغربي في فرساي بكلكله على أرض فرنسا ؛ بثلما أناخت أهرامات الجيزة بكلكلها على أرض مصر . ولعل خوفو قد تفوّه بعبارة « الدولة أنا » ، كما قد يكون بيبي الثاني قد تفوه بعبارة « بعدي الطوفان »[٢] .

ولكن لعل أطرف مثال لوثنية سلطان السيادة يتيحه العالم الغربي ؛ مو ما يعجز الحكم التاريخي — مع ذلك — عن الإعلان عنه . هذا المثال بو تأليه « أم البرلمانات » في وستمنستر[٣] : فإن هدف الوثنية السياسية بس رجلا ، بل إنه هيئة . بيد أنه أمكن حصر الوثنية البرلمانية هذه في حدود معقولة بفضل تعاون ما هو مأثور عن اللجان من ملل عضال ؛ ع مبدأ الأمر الواقع المأثور عن التقاليد الإنجليزية الحديثة . والواقع يحق رجل الإنجليزي الذي كان يتطلع إلى العالم عام ١٩٣٨ ، أن يدّعي بأن هذا إخلاص المعتدل لربوبيته السياسية الخاصة به ، قد أجدى عليه بشكل ز . ألم يكن بلده الذي احتفظ بولائه « لأم البرلمانات » أسعد حالا ن جيرانه من البلاد الأخرى التي تبعت أربابا أخرى ؟ هل وجدت قبائل

---

(١) من ألقاب فرعون مصر . (المترجم)

(٢) العبارة الأولى مأثورة عن لويس الرابع عشر ؛ والثانية عن لويس الخامس عشر . شبه المؤلف هنا عصر خوفو (الأسرة الرابعة) بعصر لويس الخامس عشر . والواقع أنه لمت بعد عصر بيبي الثاني (الأسرة السادسة) ثورة اجتماعية عارمة ، مثلما حدثت الثورة نسية بعد لويس الخامس عشر . (المترجم)

(٣) أي البرلمان البريطاني . (المترجم)

القارة العشر الراحية[1] أو الهناء فى ظل تأليهها البارزين من أمثال الدوتشى أو الفوهور أو القوميسر[2] . ورغما عن ذلك فإن على الفرد الإنجليزى أن يسلّم بأن ما انبثق حديثاً فى القارة الأوربية من وثنية سيادة الفرد التى كانت شائعة قديماً ، قد أثبت أنه ذرية مريضة ، غير كفء لتهيئة الخلاص السياسى للأكثرية غير البريطانية فى جيل البشرية المعاصر ، وعاجزة عن المحافظة على كيانها فى وجـــه طاعون الديكتاتوريات التى خلفتها الحرب الأولى .

ولعل مناط الحقيقة ، أن سمات برلمان وستمنستر — وهى سر استحواذه على احترام الفرد الإنجليزى وعطفه — هى نفسها عوائق فى طريق تحويل هذا الإنجليزى « الموقّر » إلى ترياق للعالم . وقد يجعل نجاح برلمان وستمنستر الفذ فى الصمود لإحداث القرون الوسطى بفضل تكييف نفسه — وفقا للقانون الذى لاحظناه فيما سبق[3] — أقل قابلية لانجاز الانسلاخ الإبداعى الذى يؤهله لمواجهة مشكلات عصر ما بعد الحديث التى تجابهنا الآن .

ويبدو لنا من فحص أسس برلمان وستمنستر ، أنه فى جوهره جمعية مندوبى المقاطعات المحلية . وهذا هو بالضبط ما نتوقعه من تاريخ أصله ومكانه . إذ تألفت كل ملكية من ملكيات العالم الغربى خلال القرون الوسطى ، من مجموعة من الجماعات القروية مبعثرة ومجموعة من المدن الصغيرة . وفى مثل نظام الدولة هذا ، تكمن فى الجوار ؛ أهمية التجمع للأغراض

---

(١) القبائل العشر المفقودة هي فى الأصل ذرية أبناء يعقوب العشرة (أي ما خلا ذرية يهوذا وبنيامين) . وقد ضاع أثرها خلال نفى اليهود فى بابل . ومن ثم لم يبق من القبائل اليهودية الاثنتى عشرة سوى قبيلتا بنيامين ويهوذا . (المترجم)

(٢) الدوتشى هو موسولينى والفوهرر هو هتلر ، والقوميسير هو ستالين . (المترجم)

(٣) مداره أن هؤلاء الذين يستجيبون بنجاح إلى أحد التحديات يصبحون فى مكان غير صالح لاستجابة ناجحة لتلك تحد تال . (المؤلف)

الاجتماعية والاقتصادية . كذلك تعتبر الجماعة الجغرافية فى مجتمع منظم على هذا القياس ، هى وحدة التنظيم السياسى الطبيعية .

بيد أن ضغط الصناعية ، قد حجب هذه الأسس للتمثيل البرلمانى التى شاعت إبان القرون الوسطى : فلقد فقدت صلة المكان أهميتها فى الأغراض السياسية . كما فقدته بالنسبة لمعظم الأغراض الأخرى . ولعل الناخب الإنجليزى يجيب على سؤالنا عن شخصية جاره بقوله « زميلى عامل السكة الحديدية أو زميلى عامل المنجم » فى أى مكان يعيش فيه من الجزيرة من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها . والواقع لم تعد الدائرة الانتخابية الحقيقية مكانا محليا ، بل أصبحت الحرفة قوامها . بيد أن أساس التمثيل النيابى الحرفى يعتبر أرضاً دستورية مجهولة . ولم تشعر « أم البرلمانات » وهى فى عمرها العجوز المريح ، بأى ميل لارتيادها .

ولقد يسلم فى القرن العشرين الفرد الإنجليزى — المعجب بالبرلمان — بأن نظام التمثيل النيابى الشائع فى القرن الثالث عشر لايصلح من الناحية المجردة لجماعة فى القرن العشرين . إلا أنه إلى جانب هذا ، كان فى وسعه أن يجيب بحق وفى حوزته الدليل أينما ذهب[1] ، بالإشارة إلى ما يبدو عملياً من حسن سير « سوء التوافق النظرى » . وسيفسر ذلك بقوله إننا نحن الإنجليز قد بلغنا من كمال النظم التى شيدناها داخل ديارنا وبين أنفسنا ، بحيث أن فى مكنتنا أن نجعلها صالحة فى ظل أية ظروف . إن هؤلاء الأجانب بالطبع . . . ثم يهز كتفه .

ولعل ثقته فى تراثه السياسى يواصل تبرير نفسه ، تصاحبها دهشة السلالات الأجنبية التى لا تخضع لقانون . تلك السلالات التى استوعبت متلهفة ذات مرة ، ماكانت تعتقده ترياقا إنجليزياً ، ثم لفظته فى عنف ، بعدما قاست من عسر الهضم الحاد .

---

(١) Sovitur ambulando

بيد أنه يبدو من المرجح – باستخدام نفس الإثبات – أن إنجلترا لن تتوج مآثرها الفذة إبان القرن السابع عشر ؛ بأن تصبح كرة أخرى ، مبدعة تلك النظم السياسية التي يتطلبها عصر جديد ؛ فإنه عندما يقتضى الحال ؛ البحث عن شيء جديد ، فإنه ثمة سبيلين فحسب للعثور عليه هما : الخلق أو المحاكاة .

ولن يتأتى للمحاكاة أن تقوم بدورها ، حتى ينجز فرد ما فعلا خلاقاً يحاكيه زملاؤه .

فمن هو المُبدع السياسي الجديد في الفصل الرابع من التاريخ الغربي الذي فتحت صفحاته في عصرنا ؟

لن نستطيع في الوقت الحاضر ، تمييز أية دلالة تقف إلى جانب أي مرشح معين لهذه الجائزة ؛ لكن نستطيع أن نتنبأ بشيء من الثقة ، أن المبدع السياسي الجديد لن يكون من متعبدي « أم البرلمانات »

ولعلنا نختتم هذا العرض للوثنية المتصلة بالنظم السياسية ؟ بالقاء نظرة على عباد أوثان الطبقات ونظم الطوائف والمهن . ولدينا هنا في الواقع شيء نستند عليه . فلقد صادفنا أثناء دراستنا الحضارات المتعطلة ؛ مجتمعين من هذا القبيل – الاسبرطيين والعثمانيين – كان قطب الرحى فيهما ، طبقة هي في جوهرها وثن مشترك أو هولة مؤلهة . فإذا كان في وسع الانحراف القائم على وثنية الطبقة ، أن يعطل ارتقاء حضارة من الحضارات ؛ يغدو في وسعه كذلك ، أن يصبح المتسبب في انهيارها .

ومصداقاً لذلك ؛ إذا استعدنا فحص مسألة انهيار المجتمع المصري – وفي حوزتنا هذا الدليل – سيتبين لنا أن الملكية المؤلهة لم تكن الكابوس الوثني الذي أناخ بكلكله على ظهر الفلاحين المصريين في عصر « الدولة القديمة » ؛ إذ كان عليهم كذلك أن يحملوا عبء طبقة بيروقراطية مثقفة .

والحقيقة أن الملكية المؤلهة ، تفترض سلفا وجود طبقة مثقفة . ولولا تأييدها ؛ لصعب على تلك الملكية ، الاحتفاظ بهدوء مكانها على منصة

الشرف ؟ وبالحرى كانت الطبقة المثقفة المصرية ، القوة وراء العرش ؟ بل قد أصبحت لها كذلك – فى واقع الأمر – الأسبقية عليها . كان أفراد هذه الطبقة لاغناء عنهم ، وكانوا يعلمون ذلك . واستفادوا من هذه المعرفة فى « إلقاء أحمال ثقيلة » مفجعة لا تحتمل ، وألقوها على « أكتاف الناس » . بينما لم يكن الكتاب المصريون يبذلون لتحريك هذه الأحمال ، أصبعا من أصابعهم .

ويُعتبر امتياز إعفاء الطبقة المثقفة من مشاركة العاملين فى الأرض ، سمة تمجيد البيرقراطية المصرية لنظامها الذاتى فى كل عصر من عصور التاريخ المصرى . وتصك هذه الملاحظة الأسماع صكا صاخبا فى تعاليم « ديواوف » التى تضمنها مصنف ألف خلال عصر الاضطرابات المصرى . وقد حُفظ لنا فى نسخ كُتبت بعد ذلك بألف سنة كتمرين على الكتابة لتلامذة « الإمبراطورية الجديدة » . ويتبين فى هذه التعاليم التى أنشأها رجل يدعى « ديواوف وَلَد خيتى لولده المدعو بيبى وقتما رحل إلى الدار »[1] ليضعه فى مدرسة الكتب » بين أطفال الحكام ، والباعث الذى دفع الوالد الطموح الراحل ، إلى ترغيب ابنه الطُلَعة :

« لقد رأيت ذلك الذى يضرب ، هو الذى يضرب . عليك أن تضع قلبك على الكتب . قد شاهدت ذلك الذى تحرر من عمل السخرة . انتبه لا يوجد شىء يعلو على الكتب . . إن كل صانع يستخدم منقاشه ، يصيبه تعب أقسى مما يصيب ذلك الذى يبحث وراء فكرة . . إن بنّاء الأحجار يسعى إلى العمل فى كافة أنواع الحجر الصلد ، فإذا ما أنجزه تكلّ يداه ويغدو متعبا . . أما العامل الزراعى فإن حسابه يستمر على

---

(١) أى قصر الفرعون وكلمة فرعون تتألف فى اللغة المصرية القديمة من كلمتين « بر » وتعنى « الدار » و « عو » وتعنى « الكبيرة » وبالتالى تعنى فرعون أصلا « الدار الكبيرة » ثم عنى بها الملك . كما كان يطلق على السلطان التركي لقب « الباب العالى . (المترجم)

النوام ؛ فإن إرهاقه أشد كذلك من أن يوصف . . أما النساج فى المشغل فإنه يُضنى أشد مرضاً من المرأة ، فإن فخذيه على بطنه ولا يستنشق أى هواء . . . دعنى أقول لك فضلا عن ذلك . . حيث يمسى صياد السمك ، أليس عمله على النهر حيث يمتزج بالتماسيح ؟ . . انتبه ليست هناك أية مهنة من غير موجّه عدا مهنة الكاتب ، فإنه هو الموجه . . . » .

وثمة فى عالم الشرق الأقصى مطابقة شائعة للطبقة المثقفة البيرقراطية المصرية ، نجدها فى كابوس الموظف العالم[1] الذى ورثه مجتمع الشرق الأقصى عن آخر عصر للمجتمع الذى سبقه . فلقد دأبت الطبقة المثقفة الكنفوشيوسية[2] على التباهى بصدوفها الفظ عن بذل أية مساعدة لتخفيف عبء ملايين الكادحين ، وذلك بتركها أظافر أفرادها تنمو إلى أطوال لا تسمح باستخدام أيديها إلا فى ممارسة فرشاة الكتابة . وكانت الطبقة المثقفة الصينية فى سياق جميع التغيرات والمصادفات التى مر بها تاريخ الشرق الأقصى ، تجارى إصرار رصيفتها المصرية فى المحافظة على مكانتها الجائرة . بل إن ضغط الثقافة الغربية لم يزحها عن مكانتها ، وإن انتهى عهد الاختبارات فى أعمال كنفوشيوس الأدبية . وما برح تأثير الطبقة المثقفة على الفلاحين على حاله ، لكنها عوضاً عن استيعابها الأعمال الثقافية الصينية العتيقة ، غدت تتسلح بشهادات من جامعة شيكاغو أو مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية .

وإذا كان الشعب المكابد قد استطاع فى سياق التاريخ المصرى تخيف آلامه — ولو أن ذلك قد جاء متأخراً عن طريق تحويل قوة السيادة تدريجياً من الألهية إلى بشرية — فإن الإضافات المتعاقبة التى أُلحقت بالكابوس الطبقى ، قد حدّت

---

(١) أى الماندارين Mandrin وهو الموظف العام فى الإمبراطورية الصينية قديما . (المترجم)

(٢) نسبة إلى كنفوشيوس الحكيم الصينى . ويعنى المؤلف تلك الطبقة التى تثقفت بآداب كنفوشيوس وتعاليمه . (المترجم)

من هذا الاتجاه . وزاد الطين بلة إضافة عبء طائفة الكهنة ، كما لو أن حمل البيروقراطية لم يكن كافياً . وطائفة الكهنة ، هى التى نظمها الإمبراطور تحتمس الثالث (١٤٩٠ – ١٤٣٦ ق . م) تنظيما أحالها إلى اتحاد قوى ينتشر فى أنحاء الإمبراطورية المصرية تحت رئاسة الكاهن الأكبر لآمون فى طيبة .

فأصبح ثم للموظف العام المصرى ، شريك – فى شكل براهما مصرى – فى امتطاء الجواد[1] . فكان أن اضطرت الحال بجواد السيرك المصرى المكسور الظهر ، أن يكبو فى دورته الأخيرة . بعدما ازداد راكبوه من اثنين إلى ثلاثة ، بسبب صعود رتل من المتفاخرين على السرج : وراء الكاتب والمتظاهر بالدين .

إن المجتمع المصرى الذى كان متحرراً من الروح الحربية طوال فترة حياته الطبيعة[2] فقد وخزه قتاله مع الهكسوس[3] إلى منســالك الفتح العسكرى . إذ لم يكتف أباطرة الأسرة الثامنة عشر بدفع الهكسوس وراء حد العالم المصرى ؛ بل إنهم استسلموا إلى إغراء الانتقال من الدفاع عن النفس إلى العدوان المتمثل فى إقامة إمبراطورية مصرية فى آسيا . وكان الإقلاع عن هذه الملهاة الخطيرة ، أيسر من الانسحاب منها . فلما تحول التيار ضد أباطرة الأسرة التاسعة عشرة ، ألفوا أنفسهم مرغمين على تعبئة طاقة الكيان الاجتماعى المصرى الآخذة فى الذبول سريعاً ؛ بغية المحافظة على تماسك مصر نفسها . ففى ظل الأسرة العشرين ، تحطم الهيكل القديم الواهى بضربة أصابته بالشلل . وهذا ثمن اقتضاه آخر أعمالها الفريدة المتصل بصراعها لصد الهجمات المشتركة للبرابرة الأوربيين والإفريقيين والآسيويين ، الذين تألبوا عليها بدافع هجرات الشعوب التى أعقبت سقوط الدولة المينووية .

وعندما سقط الجسم فى نهاية الأمر منطرحاً على الأرض ، اشترك حفيد

---

(١) يقصد بالجواد جمهرة الشعب .

(٢) مثله فى ذلك مثل المجتمع المسيحى الأرثوذكسى خلال فترة نموه . (المؤلف)

(٣) مثلما وخز الإمبراطورية الرومانية الشرقية قتالها مع بلغاريا . (المؤلف)

الغازى الليبى مع المتعلم الوطنى والكاهن اللذين بقيا ملتصقين بالسرج ، ولم تكسر السقطة عظامهما . فلقد أصبح الليبى يفد كجندى مأجور إلى العالم المصرى حيث كانت الحراب المصرية الوطنية تدفع شرّه ، عن حدود ذلك العالم ، إبان آخر عمل فريد قام به .

ولقد استمرت الطبقة الحربية القائمة على هذه الجنود الليبية المرتزقة إبان القرن الحادى عشر ، تنافح عن المجتمع المصرى فترة ألف سنة . وقد تكون تلك الطبقة أقل هولا تجاه مخالفيها فى الميدان ، من الانكشارية أو الاسبرطيين ؛ إلا أنها كانت بلا شك تماثل هاتين الطبقتين من ناحية ثقل عبئها فى الداخل على الفلاحين تحت أقدامها .

(٥) آفة الإبداع – عبادة أسلوب تكنولوجى فانٍ

١ – أسماك وزواحف وثدييات :

إذا ما تحولنا الآن إلى النظر فى وثنية الأساليب التكنولوجية ، قد يكون فى وسعنا البدء باستعادة أمثلة سبق أن برزت إلى فكرنا ، وفيها بلغت نقمة الإبداع أقصى مراتبها . ففى النظامين الاجتماعيين العثمانى والاسبرطى ؛ تحول مفتاح الأسلوب التكنولوجى المتصل برعى القطيع البشرى أو اقتناص الصيد البشرى ، إلى وثنية تقف جنباً إلى جنب مع النظم التى تنفذ من خلال أوجه النشاط هذه .

وإذا ما انتقلنا من الحضارات المتعطلة التى استثارتها التحديات البشرية ، إلى تلك التى استثارتها الطبيعة البشرية ؛ نجد أن العبادة الوثنية لأسلوب تكنولوجى ، تضم بين ظهرانيها مأساتها بأسرها . فإن البدو والأسكيمو قد هبطوا إلى مرتبة التعطل الحضارى ، بسبب تخاليهم فى تركيز جمع ملكاتهم فى الأساليب التكنولوجية المتصلة بالرعى وبالصيد . فانتهى بهم هذا السبيل الوحيد إلى الرجوع صوب الحالة الحيوانية التى تعتبر نقيضاً لتعدد المزايا البشرية ،

وإذا ما رجعنا القهقرى إلى الفصول السابقة للحياة البشرية من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ، سنجد أنفسنا محاطين بأمثلة أخرى لنفس القانون .

« تبدأ الحياة فى البحر . وتبلغ هناك درجة استثنائية من الكفاية ؛ لأن الأسماك تهيئ الفرصة لنشوء أنواع ناجحة (مثل سمك القرش مثلا) . نجاحاً جعلها تظل بلا تغيير حتى الوقت الحاضر . على أن سبيل التطور الارتقائى ، لم يمكث فى هذا الاتجاه . فى التطور ، لعل القول المأثور عن الدكتور إنج[1] صحيحاً باستمرار وهو (لا شيء ينقضى مثل النجاح) . فإن المخلوق الذى يتكيف مع وسطه تماماً ، تتركز طاقته بأسرها هى وقدرته الحيوية ، وتُبذلان فى سبيل النجاح . والآن ، لا يتبقى لديه شيء يستخدمه فى الاستجابة لأى تغير أساسى ؛ ويصبح بمرور الأجيال ذا طابع اقتصادى كامل يتسم بسيره فى طريق تتلاقى فيه تماماً كافة موارده مع فرصه الجارية المألوفة . وفى وسعه فى النهاية أن يُنجز كافة ما هو ضرورى للعيش ، بلا ضمير يكدح أو حركة لا تتلاءم . فيمكنه من ثم التغلب على كافة المنافسين فى الميدان الخاص . بيد أنه بالمثل – من الناحية الأخرى – لو تغير الميدان ، فإنه لامناص من أن ينقرض . ويبدو أن نجاح الكفاية هذا ، هو العامل الأساسى فى انقراض عدد هائل من الأنواع . ولما كانت الأحوال المناخية فى تغيّر ، استخدمت تلك الأنواع كافة مواردها من الطاقة الحيوية لتكييف نفسها وفقاً للظروف المحيطة بها . على أنها – مثل العذارى سيئات التدبير – لم يعد لديها دهن لإجراء مزيد من المهايأة . إن تلك الأنواع قد انتحرت لعجزها عن التكيف ، فكان أن اختفت[2] .

ويستطرد نفس المؤلف فى نفس الكتاب من بحثه عن نجاح الأسماك

---

(١) الدكتور إنج Dr. Inge هو العميد السابق لكلية القديس بولس . (المترجم)

(١) Heard, Gerald The source of Civilization ٧ – ٦٦ صفحة

نجاحاً فنياً كاملا قائلا بالنسبة تكييف نفسها وفقاً لبيئة الحياة الطبيعية فى مستهل الحياة البحرية ، إلى تاريخها على الأرض ، مايلى :

« على المستوى – وقتما كانت الحياة منحصرة فى البحر وكانت الأسماك فى طريق الارتقاء – تطورت من الأسماك نماذج خرج منها فقار[١] وخرجت من الفقار من كل جانب – لمساعدة هذا الرأس – مروحة المجسات التى غدت زعنفة أمامية . وتخصصت هذه المجسات فى سمك القرش – وفى غالبية الأسماك بأسرها – حتى فقدت صفة المجسات وأصبحت بدالات[٢] : أصناف من السمك المفلطح[٣] ذات كفاية عجيبة لتحمل المخلوق إلى الأمام توا صوب الفريسة . كان رد الفعل السريع هذا هو كل شىء ، والتباحث المتأنى هو لا شىء . ولم يقتصر الحال على انقطاع تلك الأسماك المفلطحة عن أن تستمر مختبراً ورائداً وممتحناً . فلقد ازدادت كفايتها للحركة المائية ولا شىء غير ذلك . ويبدا كما لو أن الحياة السابقة لعصر الأسماك والفقاريات لا بد وأنها قد عاشت فى برك ضحلة دافئة ، ولعلها كانت دائماً على اتصال بالأرضية ، كما يحدث فى الوقت الحاضر من أن سمك الغرنار[٤] يحافظ على الاتصال بمجرى النهر الصلد بفضل مجساته . على أنه لما حدث أن أصبحت الحركة الخفيفة غير المبينة هى كل شىء ، دفع التخصص الأسماك بعيداً نحو الماء حيث فقدت الاتصال بالقاع وكل ما هو صلد : فأصبح الماء عنصرها الوحيد . ويعنى هذا صيرورة طاقتها على الاستجابة للاستثارة الناشئة عن ظروف جديدة ، محدودة .

« ومن ثم فإن ذلك النوع من السمك الذى تسبب فى انبعاث النظام

---

(١) الفقار سلسلة الظهر . (المترجم)

(٢) جمع بدال . (المترجم)

(٣) Flukes مثل سمك موسى . (المترجم)

(٤) Gurnet

الجديد التالى لارتقاء الحيوانات ، لا بد وأنه كان مخلوقاً لم يتطرف فى تبنى تخصص الزعنفة هذا . ذلك : أولا – لا لأنه كان مخلوقاً احتفظ بالاتصال بالأرضية ، فظل بالتالى أشد حساسية للاستجابة من الأسماك التى فقدت الإتصال بوسط صلد . وثانياً – لا بد وأنه كان مخلوقاً حافظاً – لنفس السبب – الاتصال بالمياه الضحلة ، واحتفظ بهذا الاتصال بفضل الأطراف الأمامية : فكانت من ثم عاجزة عن التخصص مثل الأسماك المفلطحة المتحركة فى الماء ، فاستبقت طابعاً تجريبيا استقصائيا عاما غير ذى كفاية . لقد كشف الهيكل العظمى لمثل هذا المخلوق عن مخلوق ذى أطراف أمامية ؛ عبارة عن أيدى ثقيلة ، فجعلت منه نوعا من أكثر أنواع الزعانف الأصيلة . ويبدو كما لو أن الانتقال من البركة الضحلة إلى الشاطئ قد اتخذ سبيله بوساطة هذه الأعضاء ، مخلفاً البحر وراءه .

وهكذا غُزيت الأرض ، وجاء البرمائى[1] إلى الوجود »[2] .

وفى غمار انتصار تلك الأحياء البرمائية التى تسير على غير هُدى ، فى منافستها مع الأسماك الماهرة القاطعة ، نشهد عرضاً تمثيليا مبكراً لمأساة ما انفك تمثيلها يعاد عديداً من المرات منذ ذلك الحين مع تغييرات مختلفة فى القائمين بالأدوار . وسنجد فى عرض المأساة التالى الذى يجتذب أنظارنا ، أن دور الأسماك قد أخذته الذرية المائلة للبرمائيات من فصيلة الزواحف ؛ فى حين هبط الدور الخاص بالبرمائيات فى العرض السالف دور أسلاف تلك الحيوانات الثديية[3] التى أصبحت حديثاً ، روح الإنسان .

كانت الثدييات البدائية مخلوقات ضعيفة حقيرة ، وورثت الأرض عن غير انتظار ، لأن الأرض قد هجرتها الزواحف الجليلة التى كانت سادة

---

(١) البرمائيات : أحياء برية مائية . مفرده – البرمائى . (المترجم)

(٢) صفحات ٦٧ – ٦٩ Herald, Gerald, The Source of Civilization

(٣) الثدييات أى الحيوانات ذوات الأثداء . (المترجم)

الخلق السابقين . وكانت زواحف العصر الحيوانى الأوسط(١) غزاة فرطوا فى فتوحاتهم بسبب تيههم فى طريق لا منفذ له يتمثل فى الإفراط فى التخصص، مثلما أفرط الاسكيمو والبدو فيه .

« إن النهاية المفاجئة الواضحة للزواحف هى بلا جدال ، أعظم الثورات إثارة للعجب فى تاريخ الأرض بأسره قبل مجيء البشر . ولعله يرتبط بنهاية فترة متسعة من الأحوال الاستوائية الدافئة ، وببداية عصر جديد عبوس أصبحت فصول الشتاء خلاله أقسى مرارة ، وفصول الصيف أقصر ولكنها أشد حرارة . وفى العصر الحيوانى المتوسط ، وأم الحيوان والنبات كلاهما بين نفسه وبين الحالات الدافئة ، وضعفت قوة مقاومته للبرد . وكانت الحياة الجديدة من الناحية الأخرى جديرة قبل كل شيء على مقاومة التغيرات الشديدة فى درجة الحرارة » .

« أما بالنسبة للثدييات التى كانت تنافس الزواحف الأقل أهلية وتطردها . . فإنه ليس ثمة أقل دليل على مثل هذه المنافسة . ويوجد فى الفترة الأكثر حداثة من العصر الحيوانى المتوسط ، عدد من عظام الفك ذات طابع ثديى(٢) تام . بيد أن ليس ثمة فضلة أو عظمة توحى بوجود أى من الثدييات إبان العصر الحيوانى المتوسط يمكن أن تظهر لنا صورا من أشكالها . وعليه يظهر أن ثدييات ذلك العصر دواب صغيرة غامضة من حجم الفئران والجرذان(٣) .

ويبدو أن القضايا التى أوردها المستر ويلز حتى هذه النقطة مقبولة بصفة عامة . فإن الثدييات قد حلت مكان الزواحف ، بفعل فقدان هذه الغولات(٤) الضخمة القدرة على تكييف نفسها وفقاً للأحوال الجديدة . لكنه

---

(١) Mesozoic Reptiles

(٢) أى ينتسب إلى فصر الثدييات . (المترجم)

(٣) Wells, H.G. : The centline of history

(٤) جمع غولة . (المترجم)

بالنسبة للمحنة التي تهاوت عندها الزواحف ، ما هو بالضبط الشيء الذي عاون الثدييات على البقاء ؟

يختلف الكاتبان اللذان اقتبسنا منهما فيما مضى ما هو خاص بهذا السؤال ذى الأهمية العليا :

فيرى المستر ويلز أن الثدييات البدائية ، قيض لها العيش بفضل حيازتها شعراً كان يقيها البرد المقترب .

فإن كان هذا هو كل ما يقال ، تقتصر معرفتنا عندئذ على أن الفراء درع أعظم أثراً من الحراشف فى بعض الأحوال .

أما مستر هيرد ، فعنده أن الدرع الذى حفظ حيوان الثدييات لم يكن مادياً ، لكنه نفسى ؛ وأن قوة هذا الدفاع تُدّخر لحالة عدم الحماية الروحانية ؛ وحقا لدينا مثل سابق لظهور البشرية ، نجده فى مبدأ الارتقاء الذى دعوناه بالتحول الأثيرى ، وفى هذا يقول المستر هيرد :

« كانت الزواحف المارده ذاتها مضمحلة ، قبل انبعاث الثدييات . لقد بدأت مخلوقات صغيرة متحركة ، نشطت ونمت نمواً هائلا . حتى إن هذه المدرعات الأرضية قلما كانت تتحرك وظلت أدمغتها غير موجودة عمليا ؛ ولم تكن رؤوسها أكثر من مِنظاق[1] ، أنابيب للتنفس . . . » .

« وفى غضون ذلك عندما كانت تتضخم ببطء وتتعود المشاق . . . كان هناك ذلك المخلوق الذى تشكّل فعلا والذى كان عليه أن يقفز الحد والأبعاد التى وضعت فى سبيل الحياة . ويشرع فى مرحلة جديدة من القدرة والوعى . ولا شيء فى مكنته أن يصور بجلاء المبدأ القائل بأن الحياة تُبعث بفضل رقة الإحساس والإدراك ، بفضل تعريض النفس ، لا حمايتها ، بفضل الوضوح للعيان لا بالقوة ، بفضل الصغر لا الحجم . ولهذا بعث إلى الحياة خيرة طلائع الثدييات التى كانت مخلوقات تافهة شبيهة بالفأر . وفى عالم

---

(١) المنظاق : كشاف الأفق أو منظار الأفق . (المترجم)

تسوده المولات ، منح المستقبل لمخلوق أصبح عليه أن يصرف وقته فى ملاحظة الآخرين ويرضخ لهم . هو مخلوق حرم الحماية ، وهب القراء عوضاً عن الحراشف ، إنه غير مخصص . إنه قد أعطى مرة أخرى تلك الأطراف الأمامية ذات الشعور الحساس . وما من شك فى أن هذه المجسات — الشعور الطويلة على الوجه والرأس — قد أضفت عليه فى جميع الأوقات حافزاً دافعاً . فكان أن ارتقت الآذان والأعين ارتقاء عالياً . وأصبح ذلك المخلوق ذى دم حار ، يستمر إحساسه طوال أوقات البرد ، وقلما تهبط الزاحفة إلى الركود التخديرى . وهكذا يتفجر شعوره ويرتقى . ويلاقى الحافز المستمر المتنوع استجابة متنوعة . لأن المخلوق — ولم يسبق له سابق — قادر على الاستجابة ، لا مرة واحدة ، ولكن عدة مرات . لا تقدر واحد منها على حل المشكلة له[١] .

إذا كانت هذه صورة صادقة لسلفنا ، فإننا قد نتفق على أنه أحرى بنا أن نكون به فخورين . مع أننا لا نبدى دائماً جدارتنا بالانتساب إليه ! ! .

٢ — آفة الإبداع — فى الصناعة :

لم يكن قول بريطانيا العظمى منذ مائة عام إنها « مصنع العالم » مجرد ادعاء . بل إنها كانت الحقيقة الواقعة . أما اليوم فإنها واحد من تلك المصانع المتنافسة المتعددة فى العالم . إذ يتواصل منذ زمن طويل مضى ، هبوط حصتها النسبية من التجارة الدولية . ولقد كانت نظرية « هل انتهت بريطانيا ؟ موضع أبحاث عديدة ، وتلقت إجابات متفرقة .

ولعله لو أخذت جميع العوامل فى الاعتبار ، نكون بصفة عامة ، قد أحسنا صنعا ، عما كان يتوقع حدوثه فى السبعين سنة الأخيرة . ويتيح الموضوع لنا — كما هو ظاهر — متسعا لنظرة التشاؤم والمتنبئين اللائمين من النوع الذى جاء وصفه فى اقتباس مع ألمع اقتباسات صامويل

(١) Heard. Gerald : The source of Civilization ص ٧١ — ٢

بطر المنكوسة(١) ؛ على أنه لو كان على أحد أن يعزل النقطة التي وقعنا في الغالب عندها في الخطأ ، فإن في وسع المرء أن يضع أصبعه على الداء ، ويتمثل في الروح المحافظة للقائمين على الصناعة البريطانية فإنهم قد وضعوا الأساليب التكنولوجية المهجورة موضع الأوثان ، تلك الأساليب التي كونت ثروات أجدادهم .

وعسى أن يتأتى العثور في الولايات المتحدة على مثال أكثر تثقيفاً ، وإن كان أقل شمولاً . فلا ريب أن الأمريكيين قد فاقوا في السنوات المتوسطة من القرن التاسع عشر ، جميع الشعوب الأخرى بالنسبة لتنوع مخترعاتهم الصناعية وافتنانها ، وفي قدرتهم على استغلال مثل هذه المخترعات للأغراض العملية . إن ماكينة الخياطة والآلة الكاتبة ، وتطبيق الآلة في صناعة الأحذية وآلة ماكورميك للحصاد ؛ من بين الأفكار الأمريكية الأولى التي ترد إلى الذهن . بيد أن ثمة اختراعاً أظهر الأمريكيون في استغلاله تخلفهم بكل تأكيد ، إن قورنوا بالبريطانيين . ويبعث تأخر الأمريكيين هذا على العجب ، لأن هذا اختراع المهمل هو تحسين آلة اخترعها الأمريكيون أنفسهم في بداية مطلع القرن ، هذا الاختراع هو السفينة البخارية . إذ أثبتت السفينة البخارية الأمريكية التي تسير بالدولاب البدالي ، أهميتها الإضافية الفائقة لتسهيل المواصلات بالنسبة للجمهورية الأمريكية الآخذة في النمو السريع ، عبر آلاف أميال الطرق المائية الداخلية الصالحة للملاحة التي تزخر بها أمريكا الشمالية . ولم يكن من شك في أن الأمريكيين — نتيجة مباشرة لهذا النجاح — قد أصبحوا أكثر بطأ من البريطانيين في استغلال الاختراع التالي الأعظم شأناً — وهو المرواح اللولبي — لأغراض الملاحة في المحيطات .

فكان الأمريكيون في هذا الأمر مسيرين بقوة عارمة صوب عبادة أسلوب تكنولوجي فان .

---

(١) إن بلداً ليس بلا شرف إلا في أنبيائه .

٣ – آفة الحرب :

يتطابق مثال المنافسة البيولوجية بين الثديّ الضئيل ذى الفراء الناعم ، والزاحفة الجسيمة المدرعة ؛ على أسطورة صراع البطولة بين داوود وجالوت(١) .

فإن جالوت كان قبل اليوم المقدّر الذى تحدى فيه الجنود العبرانيين ؛ قد فاز بمثل تلك الانتصارات الظافرة . بفضل حربته التي تشبه مادتها رافدة(٢) النسّاج والتي تزن رأسها ستمائة شاقل(٣) من الحديد . وقد ألفي جالوت نفسه فى زرده الكامل المكوّن من الخوذة والدرع الخفيف والدرع الصغير ودروع الساق ؛ بحيث أنه لم يتخيل جدوى أى سلاح آخر ؛ ألفى نفسه فى أمان تام من الأسلحة المعادية . إذ آمن بأنه لن يقهر ، وهو فى هذا السلاح . وكان متأكداً من أن أى عبرانى له من البسالة قدر يؤهله لقبول تحديه ، سيكون بالمثـــل من حاملى الحراب على غراره ، وأن أىّ مناقس له فى زرده الكامل ، مقدر له أن يكون أقل منه .

وبلغ من قوة سيطرة هاتين الفكرتين على ذهن جالوت ، أنه حين شاهد داوود يجرى إلى الأمام للقائه دون درع على بدنه ولا شيء فى يده يستلفت النظر عدا عصاه ، أخذ الريب جالوت كل مأخذ عوضاً عن إصابته بالذعر ، وصاح « هل أنا كلب حتى تأتى إلىّ بهراوة ؟ » . ولم يداخل الشك جالوت فى أن تكون استهانة الشاب هذه خطة محكمة التدبير . ولم يعلم أن داوود إذ تحقق بكل جلاء مثل جالوت نفسه ، من عجزه عن الأمل فى مجاراة جالوت وهو فى عدته الحربية ، قد تعمد نبذ الزرد الكامل الذى ألقاه شاؤول إليه ، كما لم يلحظ

---

(١) Goliath

(٢) الرافدة هى الكمر . (المترجم)

(٣) الشاقل وزن عبرى قديم . (المترجم)

جالوت المقلاع ، ولم يردع للأذى الذى قد يكون كامناً في كيس الراعى .
وهكذا خطا الفلسطيني إلى الأمام في جلال ، صوب قضائه .

بيد أن الحقيقة التاريخية ، تنبئ بأن الجندى المدرع الآتى إلى فلسطين بفعل الهجرة التى أعقبت سقوط العالم المينووى – جالوت الجاتى(١) أو هكتور الطروادى(٢) – لم يستسلم لقلاع داوود أو قوسه الفيلوكتيتى(٣) Pohilcetes لكنه استسلم إلى الفيلق الميرميدونى(٤) وكان شيئاً مخيفاً اجتمع فيه حشد من الجنود المثقلين بالسلاح ، الكتف إلى الكتف ، والترس إلى الترس(٥). وبينما كان كل جندى فى الفيلق ، صورة منقولة عن هكتور أو جالوت فى عدته الحربية ، كان يكمن فى روحه صورة من الجندى اليونانى المثقل بالسلاح . فإن جماع جوهر الفيلق هو فى النظام العسكرى الذى قد حول فرقة من المحاربين الأفراد ، إلى تشكيل عسكرى استطاعت حركاته المنظمة أن تُنجز من الأعمال عشرة أمثال ما تُنجزه جهود غير متناسقة ، بينما عدد مساو من أبطال أفراد يتساوون معاً فى العتاد .

اتخذ هذا الأسلوب الحربى الجديد . (وقد سبق لنا إلقاء لمحات عابرة عن الإلياذة) سبيله الوطيد على مسرح التاريخ فى شكل الفيلق الاسبرطى الذى زحف بين تضاعيف إيقاع أشعار تيرتاوس Tyrtaeus(٦) إلى انتصاره

---

(١) مدينة جات Gath تنتسب إلى جالوت ، هى إحدى المدن الملكية للفلسطينيين القدماء وكانت تقع على حدود مملكة يهوذا . وتقوم مقامها فى فلسطين الحالية تل الصافى . (المترجم)

(٢) نسبة إلى مدينة طرواده على ساحل الأناضول ، وكانت قصتها موضوع ملحمة هوميروس الخالدة .

(٣) كان Philictetes فى الأساطير اليونانية حامل عدة حرب هرقل . وقد ورث عن هرقل قوسه . (المترجم)

(٤) المرميدون – وفقاً للأساطير اليونانية – جنس آخى كان يقطن تساليا . وينحدر من فريوس من زوجته Eurmedusa . (المترجم)

(٥) الإلياذة . الفصل السادس عشر .

(٦) شاعر يونانى ظهر فى القرن السابع قبل الميلاد . وتذكر الأساطير اليونانية أن أثينا أعارته لإسبرطه ليساعدها فى حربها ضد ميسينيا ، وإلى أشعاره وأغانيه يعزى فضل الانتصار الأسبرطى . (المترجم)

الاجتماعى المدمّر فى الحرب الإسبرطية الميسينية الثانية . بيد أن هذا النصر لم يكن نهاية القصة : فإن الفيلق الإسبرطى بعد أن وحّد كافة القوى المناهضة له فى الميدان ، ارتاح على مجاذيفه(١) وألفى نفسه فى سياق القرن الرابع قبل الميلاد يهزم هزيمة شائنة :

أولا : هزمته زمرة أثينية مدرعة بالترس الجلدى(٢) .

ثانياً : هزمه تاكتيك الطابور الذى ابتكرته طيبة .

على أن الأسلوبين التكنولوجيين الأثينى والطيبى ، أصبحا قديمين وغير صالحين ؛ بسبب ضربة واحدة وجهها إليهما عام ٣٣٨ قبل الميلاد تشكيل مقدونى . بمقتضاه يتكامل المناوش وجندى الفيلق المدرب تدريباً عالياً فى وضع يتسم بالحذق مع الفارس المسلح تسليحاً ثقيلا ، فى وحدة مقاتلة مفردة ؛

ويعتبر غزو الإسكندر للإمبراطورية الأخيمينية ، الدليل على الكفاية الأصيلة لنظام المعركة المقدونى . ولقد ظلت صيغة الفيلق المقدونى ، القول الفصل فى الأسلوب التكنولوجى الحربى طوال فترة مائة وسبعين سنة أى من معركة تشايرونيا chaironea التى وضعت حداً للمواطن الحربى لدول اليونان — إلى معركة بيدنا Pydna ، وفيها تكسر بدوره الفيلق المقدونى أمام الكتيبة الرومانية .

وتكمُن علة هذا الانقلاب المثير فى المقادر المقدونية الحربية ، فى افتتان الجيل القديم بالأسلوب التكنولوجى الفانى . لأنه بينما كان المقدونيون يسترخون على مجاذيفهم — باعتبارهم سادة الجميع غير منازع عدا الأطراف الغربية من العالم الهلينى — أحدث الرومان ثورة فى فن الحرب ؛ فى ضوء التجربة التى اكتسبوها إبان مكابدتهم الصراع المرير مع هانيبال .

---

(١) أى استكان . (المترجم)

(٢) حشد من أشباه داوود . وجد الفيلق الاسبرطى من أمثال جالوت نفسه عاجزاً تماما عن مجاراته . (المؤلف)

فازت الكتيبة الرومانية على الفيلق المقدوني . لأنها ساوت بمسألة تكامل جندي المشاة مع جندي الفيلق المدرع مرحلة أطول مدى . فالواقع أن الرومانيين قد اخترعوا خطا جديداً من التشكيل ، واستخدموا ضرباً من العتاد ؛ جعل من الميسور لأي جندي ؛ ولأية وحدة ، أن تؤدي – وفقا لرغبتها – إما دور جندي المشاة وإما دور الجندي المدرع ، وأن تعدل عن أسلوب إلى أسلوب الآخر ؛ في أية لحظة ، إبان مجابهتها العدو .

ولم تتعد هذه الكفاية الرومانية وقت معركة بيدنا ، الجيل عمرا . لأنه قد شوهد في الميدان في شبه القلل الإيطالي هذا للعالم الهليني ؛ فيلق سابق للنمط المقدوني في وقت حديث كمعركة كاناي cannae (٢١٤ ق . م) . وذلك وقتما انكفأت قوة المشاة الرومانية إلى نظام للمعركة يرتد إلى تشكيل الفيلق الاسبرطي العتيق . فكان أن أحاطت بها من الخلف فرقة كثيفة من فرسان هانيبال الاسبانيين والغاليين ؛ ثم تولت فرقة المشاة الإفريقية ذبح المشاة الرومانية في كلا الجناحين ذبح الماشية .

ولقد داهمت هذه النكبة القيادة الرومانية العليا التي كانت قد عزمت على اجتناب التجاوب وإيثار السلامة (كما افترضت ذلك مخطئة) . وجاء هذا العزم نتيجة لصدمة سابقة أصابتها على بحيرة تراسيمين . فاعتنق الرومانيون بكل قلوبهم في النهاية – في غمار درس هزيمتهم النكراء في كاناي – ضربا من تحسين الأسلوب التكنولوجي لنظام الجيش ، أحال الجيش الروماني بغتة إلى أكفأ قوة مقاتلة في العالم الهليني . فكان أن تلا ذلك التحسين انتصارات : زاما سينوسيفالى Cynoscephalae وبيدنا Pydna ؛ ثم سلسلة من الحروب شنها الرومان على البرابرة ، والرومان بعضهم ضد البعض الآخر ، بلغت خلالها الفرقة الرومانية تحت قياده سلسلة من القواد العظام من ماريوس إلى قيصر ، أقصى كفاية ، تسنى لجندى المشاة بلوغها ، قبل اختراع الأسلحة النارية .

بيد أنه فى ذلك الوقت بالذات ـ أى وقتما أصبح جندى الفرقة كاملا من حيث نوعه ـ أصيب بأول هزيمة من سلسلة الهزائم الطويلة على يد زوج من الرجال السوارى المسلحين بأساليب فنية تختلف عن أسلوبه اختلافاً تاماً ، فكانا أن دفعا جندى الفرقة فى النهاية عن الميدان . ولقد عجل انتصار الفارس رامى القوس على جندى الفرقة فى معركة كارّهاى Carrhae عام ٥٣ قبل الميلاد ، بنهاية قتال جندى الفرقة ، ضد جندى الفرقة المعادية فى معركة فارسالوس Pharsalus بعد ذلك بخمس سنوات . وهى معركة ربما كان الأسلوب الفنى لجندى المشاه خلالها ، فى أعلى درجاته . ...

وتأيّد نذير معركة كارهاى Carrhae بمعركة أدرنة Adrianaple بعد ذلك بأكثر من أربعمائة سنة ،وقتما وجّه الدرع الزردى[١] إلى جندى الفرقة ، ضربته القاضية . ولقد قرر مؤرخ رومانى يدعى آميانوس Ammianus عاصر هذه المعركة وكان نفسه ضابطاً عسكرياً ، حقيقة مؤداها أن الخسائر الرومانية قد بلغت ثلثى الفرق المشتركة فى المعركة . وصرّح بأن الجيوش الرومانية لم تُصب بنكبة على هذا المدى منذ معركة كاناى Cannae .

فإن الرومانيين قد أخلدوا للراحة ، طوال الأربعة قرون الأخيرة الواقعة بين هاتين المعركتين ، رغماً عن الإنذار الذى تلقوه فى معركة كارهاى Carrhae والذى تكرر فى معركتى فاليريان Valerian عام ٢٦٠ ميلادية وجوليان عام ٣٦٣ ميلادية ، إنذار وجّهته إليهم الأساليب العسكرية الفارسية التى طبّقت طريقة الدرع الزردى القوطية والتى قادت إلى مصرع فالينز وجنوده عام ٣٧٨ ميلادية .

وكافأ الإمبراطور ثيودوسيوس Theodasius الخيالة البرابرة لاستصفائهم المشاة الرومان بعد كارثة أدرنة Adrianaple ، باستخدامهم لملء الثغرة الفاغرة فاها والتى فتحوها بأنفسهم فى الصفوف الرومانية . بيد أنه رغما

---

(١) فارس مدرع مسلح بحربة . (المؤلف)

عن الثمن المحتوم الذى دفعته الحكومة الإمبراطورية لقاء هذه السياسة القصيرة النظر ، ثمن تمثّل فى رؤيتها تلك الفرق البربرية المرتزقة تقسّم مقاطعاتها الغربية إلى دول بربرية مستخلفة ؛ فإن الجيش الوطنى الذى أنقذ فى الساعة الحاسمة ، المقاطعات الشرقية من التردّى إلى نفس المصير ، قد سلّح وزوّد على النمط البربرى .

ولقد لبث تفوق هذه الحربة الثقيلة السلاح أكثر من ألف سنة ، ويعتبر انتشارها المكانى أكثر لفتاً للنظر . فإن ذاتيتها غير قابلة للخطأ سواء عرضت علينا صورتها فى شيء من التصوير الجصّى فى قبر بالقرم يرجع إلى القرن الأول المسيحى ، أو النقش المحفور الذى قطعه على سفح صخر فى فارس خلال القرن الثالث أو الرابع أو الخامس أو السادس ، أحد الملوك الساسانيين ؛ أو فى التماثيل الطينية الصغيرة ينقش عليها رسوم رجال مسلّحين من الشرق الأقصى ؛ أولئك الذين كانوا القوة المقاتلة لأسرة تانج الملكية (٦١٨ — ٩٠٧ ميلادية) ؛ أو فى طُنفسه من بايو Bayeeux ترجع إلى القرن الحادى عشر وتصور هزيمة الجنود المشاة الإنجليز القدماء على أيدى فرسان وليم الفاتح النورمنديين .

إذا كان طول عمر الدرع الزردى أو وجوده فى كل مكان شيئاً مذهلا ، فإنه مما يستحق الملاحظة كذلك شيوعه فى جميع الأزمنة فى صورة متحللة . ويقرر شاهد عيان قصة هزيمته : « حدثنى فلك الدين محمد ابن أيدمر قال : كنت فى عسكر الدويدار الصغير ، لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربى من مدينة السلام[١] فى واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة[٢] ، قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل . فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربى وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم . ثم يخرج إليه من المغول فارس ،

(١) أى بغداد .

(٢) أى عام ١٢٥٨ ميلادية .

تحته فرس كأنه حمار ، وفى يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح — فيضحك منه كل من رآه . ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة ، كانت مفتاح الشر . ثم كان من الأمر ما كان »[١] .

وهكذا كرر نفسه فى مغيب التاريخ السورى — بعد انقضاء فترة لعلها ثلاثة وعشرون قرناً — قصة الاصطدام الأسطورى بين جالوت وداود التى جرت فى مطلع ذلك التاريخ . وعلى الرغم من أن المارد والقزم كانا فى المناسبة الأخيرة يمتطيان الخيل كلاهما ، تماثلت النتيجة فى الحالتين .

وكان تترى قازاق الذى هزم الدرع الزردى العراق وخرب بغداد وأمات خليفة بغداد جوعاً ؛ من خفاف رماة الفرسان من النوع البدوى العنيد ، الذى أذاعت الغزوات السيمرية والاسقوذية صيته والخوف منه فى جنوب غرب آسيا ، إبان مطلعى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد[٢] .

ولكن إذا كان داود الممتطى حصاناً ، قد قهر فى الوقت المناسب (فى بداية الغزو التترى الوافد من السهب الأوراسى) ؛ جالوت الممتطى حصاناً فإن عُقبى مناوشتهما فى تكرار القصة هذا ، تتمشى كذلك مع أصلها . فلقد شاهدنا أن ذلك البطل المدرّع الواقف على قدميه والذى تغلب عليه مقلاع داود ، قد أخذ مكانه — لا داود نفسه — ولكن فيلق منظم قوامه أشباه جالوت . فإن خيول هولاكو خان المغول الخفيفة التى تغلبت على فرسان الخليفة العباسى تحت أسوار بغداد ، قد قهرها المرة بعد الأخرى المماليك

---

(١) رجعت إلى الأصل العربى الوارد فى الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية تأليف ابن الطقطق — صفحة ٥٥ . (المترجم)

(٢) يشبه الأستاذ المؤلف هنا التخريب الذى تحدثه غزوات التتر ، بما حدث السيمريين وقد ذكر هيرودوتس أنهم كانوا سكان أسقوذيا (جنوب روسيا قديما) حتى اضطروا إلى الهروب أمام الأسقوذيين إلى آسيا الصغرى حيث عاشوا هناك فى الظلام والضباب مدة مائة عام . (المترجم)

أصحاب مصر . ولم يكن المماليك فى عدتهم الحربية أحسن أو أسوأ حالا من إخوانهم من فرسان المسلمين الذين هُزموا خارج بغداد ، لكنهم اتبعوا فى أساليبهم العسكرية نظاماً منحهم التفوق على رُماة المغول الصارمين وعلى الصليبيين من الفرنجة . فلقد لاقى فرسان سان لويس هزيمتهم أمام المنصورة قبل أن يتلقى المغول بعد ذلك بعشر سنوات أول درس من نفس المعلم.

شيّد المماليك تفوقهم على الفرنسيين والمغول على السواء ، حوالى ختام القرن الثالث عشر . إلا أنهم استطابوا القعود فى مركز السيادة الحربية ، على غرار ما فعلته الفرق الرومانية بعد معركة بيدنا . وفى ظل هذا الموضع السامى - الواهى فى نفس الوقت - خلد المملوك للراحة على مجذافيه مثلما فعل جندى الفرقة الرومانية . ومن المصادفة العجيبة تماثل فترة طول الاستكانة فى الحالتين ؛ قبل أن يؤخذ الجندى المستكين على غرة ، بيد عدو قديم مسلّح بأسلوب حربى جديد . إذ تفصل موقعة « بيدنا » عن موقعة « أدرنة » فى حالة الجندى الرومانى ، فترة ٥٤٦ سنة ؛ بينما أن ثمة ٥٤٨ سنة تفصل انتصار المملوك على سان لويس ، عن هزيمته على أيدى خليفته نابليون .

وفى خلال فترة الخمسة قرون ونصف هذه ، برزت إلى العيان أهمية سلاح المشاه مرة أخرى . فإن القوس الإنجليزى الطويل قد عاون - قبل انقضاء أول قرن من تلك القرون - جيشاً من المشاة على غرار داوود فى هزيمة جيش من الفرسان على غرار جالوت فى معركة كريسى Crecy ؛ وبهذا الانتصار تبدّى تفوق المشاة ، ورسخ رسوخاً تاماً . وعزز تفوقه بعد ذلك اختراع الأسلحة النارية ، وتطبيق نظام عسكرى مقتبس عن الانكشارية .

أما عن نهاية المماليك الأخيرة ، فقد انسحبت إلى النيل الأعلى ، بقاياهم التى لم تصبها هجمة نابليون ولا تدمير محمد على لكتائبهم نهائياً . وأورثوا سلاحهم وأسلوبهم الحربى ، أولئك الفرسان المدرعين أتباع الخليفة

عبد الله خليفة مهدى السودان ، أولئك الفرسان الذين هزمتهم المشاة البريطانيون فى أم درمان عام ١٨٩٨[١] .

ولقد كان الجيش الفرنسي الذى قهر المماليك ، شيئاً يختلف فعلا عن الأسلوب المبكّر للمحاكاة الغربية للانكشارية . إذ كان ناتجاً حديثاً لفكرة استخدام الجنود جملة ، الذى نجح — بفضل إضعافه — فى الحلول محل الطراز الجديد للجيش الغربى الصغير ، ولكن المدرب تدريباً عالياً ، والذى بلغ درجة الكمال فى عهد فردريك الأكبر . بيد أن نجاح جيش نابليون الجديد فى قهر الجيش البروسى القديم فى يينا Jena كان سبباً فى استثارة عبقرية نجوم الحرب والسياسة البروسيين للتفوق على الفرنسيين فى عمل فذ يجمع بين الأعداد الجديدة والتنظيم القديم ، ولاحت بشائر النتيجة عام ١٨١٣ وأسفرت عن نفسها عام ١٨٧٠ .

على أن آلة الحرب البروسية قد تسببت فى الجولة التالية ؛ فى تردّى ألمانيا وحلفاءها فى هزيمة ترجع إلى استثارتها استجابة غير منظورة . فإن أساليب عام ١٨٧٠ قد انهزمت عام ١٩١٨ أمام الأساليب الجديدة لحرب الخنادق والحصار الاقتصادى . وبدا للعيان عام ١٩٤٥ ، أن الأسلوب الفنى الحربى الذى فاز بحرب ١٩١٤/١٨ لم يكن الحلقة الأخيرة فى هذه السلسلة الطويلة اللانهائية . إذ تألفت كل حلقة من دورة من : الاختراع ، والانتصار ، والنوم المستغرق ، والنكبة .

ولعلنا نتوقع — والحالة هذه — على أساس السوابق التى تعرضها ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الحربى — من ملاقاة داوود لجالوت إلى اختراع الإنسان خط ماجينو والحائط الغربى ، والتى تعرضها دفعة واحدة المدرعات الميكانيكية ورأس وتد تصويب الرماة على الخيول الأصيلة المجنحة — نعم لعلنا نتوقع تفسيرات طريفة لمبحثنا : تعززه المقارنات المملة . ما دامت البشرية على هذا الضلال الذى يجعلها تمعن فى استنبات فن الحرب .

---

(١) كانت كثرة الجيش العظمى الذى استخدم فى معارك السودان من المصريين .
(المترجم)

(٦) امتحارية الروح الحربية

١ – البطر ، الحمق ، الجائحـــة :

أما وقد استكملنا عرضنا – موضوع « استناد الإنسان على مجاذيفه » التى تعتبر وسيلة سلبية بمقتضاها يتردّى الإنسان فى آفة الابتداع ؛ فعسانا أن نمضى الآن قدما لفحص الزيغ الإيجابى ، والذى يوصف فى كلمات يونانية ثلاث[١] .

صورت هذه الكارثة النفسية القوية التأثير والمبينة فى ثلاثة فصول – فى موضوع يعتبر أكثر الموضوعات ذيوعا – فى الدراما الاثينية الجديثة فى القرن الخامس . وذلك إن حكمنا على ذلك بالطرائف القليلة الباقية مثل : قصة أغاممنون فى مسرحية اسخيلوس بهذا الاسم وقصته عن اجزرجسيس فى فارسياته ، وقصة أجاكس فى مسرحية سوفوكليس بهذا الاسم ، وقصة اوديبوس Eudipus فى اوديبوس وتيرانوس Eudipus Tyrannus ، وفى قصة كريون فى أنتيجون وهى قصة بنثيوس Pentheus فى مسرحية اوربيدس المعروفه باسم Bacchae

---

(١) لهذه الكلمات مفهوم ظاهرى ، كما أن لها فى نفس الوقت مفهوما إيجابيا :

أولا : تعنى الكلمات فى المفهوم الظاهرى : التخمة ، السلوك المشين ، الكارثة . ولقد عبر شاعر يهودى تعبيرا صافيا عن العلاقة المرضية بين التخمة والسلوك المشين فى التعبير « جيشيرون سمن وهناركل (Dent XXXII) . فإنه قد ركل (أى سلك سلوكا شائنا) لأنه أصيب بالتخمة . وتشير الأبيات التالية إلى أن الكارثة مدخرة له . ويقصد الشاعر اليهودى « جيشيرون فى هذه العبارة إسرائيل . وقتما نبذ « ياهوى » إبان أيام الرخاء فى عهد جيروبوم الثانى Oeroboam ولم يكن الأسر البابلى الذى قاد إلى انقراض تلك القبائل العشر إلا سابقا ذلك الوقت بقرابة نصف قرن .

ثانيا : تعنى الكلمات فى المفهوم الإيجابى ، الحالة النفسية لفساد الشخص بفعل النجاح ، الفقدان اللاحق للتوازن العقلى والمعنوى ، الاندفاع الصعب المراس الأعمى الجموح الذى يحرف نفسا غير متوازنة إلى محاولة إتيان المستحيل . (المؤلف)

ويصور أفلاطون هذه الكارثة النفسية كما يلى :

« إذ ارتكب أحد إثما ضد قوانين التناسب ، فأعطى شيئاً كبيراً للغاية إلى شىء صغير للغاية ليتولى حمله ، مثل : تزويد سفينة صغيرة للغاية بشراع كبير للغاية ، وإعطاء وجبات ضخمة للغاية لجسم صغير للغاية ، وإضفاء سلطات واسعة للغاية على نفس صغيرة للغاية ؛ لو تم ذلك لكانت النتيجة وبالا تاما . ففى صورة الحمق ؛ يسرع الجسم البطن صوب المرض ، فى حين يندفع المتغطرس صوب الفجور الذى يغذيه الحمق »[1] .

ولكى يتبدى الفارق بين الطرائق السلبية والإيجابية للتدمير الساكن ، لنبدأ عرضنا للكليات الثلاث : البطر ، الحمق ، الجائحة فى الميدان الحربى الذى دنونا منه فى عرضنا لعبارة « الاستكانة على مجاذيفه »

من قبيل المصادفة أن يكون سلوك جالوت مثالا فى كلا الحالين . فلقد شاهدنا من جهة ، كيف أنه عرض مصيره للهلاك بسبب حياته حياة بليدة داخل الأسلوب الفنى الذى كان منيعا وقتا ما للجندى الثقيل السلاح ، وعجز جالوت عن التنبؤ بالأسلوب الفنى الذى أثبت داوود أفضليته على أسلوبه فى ميدان العمل ضده ، كما أنه عجز عن مقاومته .

وفى مكنتنا — فى نفس الوقت — ملاحظة إمكان تلافى تدمير داوود لجالوت ، لوكان خور جالوت — بالنسبة للأسلوب الفنى — قد صاحبته سلبية مطابقة فى نفسيته المميزة . فإنه لسوء حظ جالوت ، لم تجابه نظرته التمجيدية المحافظة إلى الأسلوب الفنى ، أية سياسة تتسم بالاعتدال . فإنه عوضا عن التزامه الاعتدال ، مضى إلى حال سبيله ينشد المتاعب عن طريق إبرازه التحدى :

ويعتبر جالوت فى هذا ، رمزا للروح الحربية المعتدية والقاصرة — من ناحية أخرى — فى استعدادها للنزال . ويتسم صاحب الروح العسكرية من طراز

---

(١) أفلاطون . كتاب القوانين صفحة ٦٩١

جالوت ، بثقته فى قدرته على رعاية شئونه سواء ، بالنسبة للنظام الاجتماعى القائم ، أو النظام المناهض للمجتمع . حيث تتم فى نطاقه تسوية كافة المنازعات باستخدام السيف إلى درجة تجعله يقذف به إلى كفتى الميزان . ويرجح ثقل السيف كفة الميزان لصالحه ، فيشير إلى انتصاره . ويتخذ من هذا دليلا قاطعا على قدرة السيف على حسم الأمور .

على أن الأمر يتحول فى فصل القصة التالى ، فنجده يفشل فى التدليل للشخص المحايد(١) على صحة وجهة نظره تجاه القضية التى يُعنى بها عناية مطلقة . لأن مدار الحدث التالى هو تغلب عسكرى آخر أقوى منه ، مما يبرهن على صحة نظرية لم يسبق حدوثها له ، تلك هى « أولئك الذين يأخذون بالسيف سوف يُبادون »

بهذه المقدمة فى وسعنا أن ننتقل من المبارزة الأسطورية للقصة السورية لنتأمل فى طائفة من الأمثال التى يقدمها التاريخ .

٢ – آشور :

كانت الكارثة التى أودت بالقوة الحربيـــة الآشورية عام ٦١٤ – ٦١٠ ق . م ، إحدى الكوارث العارمة المعروفة فى التاريخ . فإنها لم تتضمن فحسب دمار أداة الحرب الآشورية ، ولكنها تضمنت كذلك محو الدولة الآشورية من الوجود واستئصال الشعب الأشورى .

والشعب الآشورى جماعة لبثت قائمة أكثر من ألفى سنة ، وقامت بدور رئيسى فى جنوب غرب آسيا طوال فترة تقرب من القرنين ونصف قرن ، ثم محيت محوا يكاد أن يكون تاما . ومصداقا لذلك ؛ فإنه بعد انقضاء مائتين وعشر سنوات ، تعاقب عشرة آلاف جندى يونانى من جنود قورش الصغير المرتزقة على مكانى كالاه Calah ونينوى ، أثناء اتجاههم

(١) ad hominem

عبر وادى الدجلة من ميدان معركة كوناكسا Cunaxa إلى ساحل البحر الأسود ، فأصابهم ذهول بسبب عدم عثورهم على شيء يعتد به يقارن بفخامة التحصينات ، وبمدى المنطقة التى كانت تضمها بين ظهرانيها . إذ يخلو مشهد تلك الأعمال البشرية الشاسعة من السكان . ويشير التراث الأدبى الذى خلفه أحد أعضاء التجريدة العسكرية اليونانية ، إشارة ضمنية واضحة إلى سحر هــذه الهياكل الفارغة التى تشهد طاقتها الجامدة على حيوية حياة زالت .

ويزداد القارئ الحديث تعجباً من وصف اكسنوفون Xnophon لما شاهده . والقارئ على علم بمصائر آشور عن طريق استكشافات علماء الآثار المحدثين لحقيقة مدارها أن أكسنوفون كان يجهل كل شيء يتصل بحصون المدن المهجورة هذه . وعلى الرغم من أن جنوب غرب آسيا بأسرها من أورشليم إلى أرارات ومن عيلام إلى ليديا ، قد خضع لسادة هذه المدن ، وكان يرهبهم ، قبلما يمر أكسنوفون بهذا الطريق بمدة تقل عن القرنين ؛ فلقد كان خير ما ذكره عنها لا يتصل بتاريخها الحقيقى ، ولم يكن اسم آشور نفسه معروفاً لديه .

وتبدو للوهلة الأولى ، صعوبة فهم مآل آشور . إذ لا يمكن إتهام العسكريين فيها بأنهم كالمقدونيين والرومان والمماليك قد « استكانوا على مجاديفهم[1] » . لأنه عندما واجهت الآلة الحربية لكل من هؤلاء الأقوام أحداثها القتالة ، كانت قد باتت مهجورة وأعصى عن الاستصلاح . فى حين كانت الآلة الحربية الآشورية من الناحية الأخرى تُفحص دائماً بدقة وإمعان ، وتجدد وتعزز حتى يوم دمارها . كما كانت ذخيرة العبقرية الحربية التى أنتجت الجندى المدرع فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فى أول عهد آشور بالسيادة على جنوب غرب آسيا ، وجنين الفارس المدرّع رامى القوس

(١) أى أخلدوا للراحة والكسل . (المترجم)

فى القرن السابع قبل الميلاد ، أى عشية زوال آشور بالذات ، كانت تلك الذخيرة تتسم كذلك بالابتداع ، على مدار القرون السبعة التى تخللت الفترة السابقة الذكر .

ونجد فى النقوش التى كُشفت فى موضعها الأصلى فى القصور الملكية ؛ تسجيلا مصوّراً مفصّلا دقيقاً للمراحل المتعاقبة التى اجتازها الحربى والأسلوب الفنى الآشوريين طوال القرون الثلاثة الأخيرة للتاريخ الآشورى . وتشهد سلسلة النقوش هذه ، بتلك الروح الابتكارية والحمية المتوثبة لإدخال التحسينات التى كانت بدورها علامات اليوم الأخير للمزاج الآشورى ذى النزعة الحربية . إذ نجد هنا سجل التجربة والتحسين متواصلين بالنسبة لمادة عدة الحرب وتصميم العربات الحربية ، وفى أسلحة الهجوم وفى اختلاف الكتائب المخصصة لأغراض معينة .

فما هو علة تدمير آشور ؟

يطالعنا فى المحل الأول : سياسة الهجوم المتصل . إذ كان استحواز آشور على أداة بطّاشة ما أغراها بوضع هذه السياسة موضع التنفيذ . ودفعت هذه السياسة سادة الحرب الآشوريين إبان دورة نزعتهم الحربية الرابعة والأخيرة ، إلى توسعة نطاق مشروعاتهم واضطلاعهم بأعمال أبعد كثيراً من التخوم التى احتفظ بها أسلافهم . فكان أن تعرضت آشور باستمرار إلى الاستنجاد بمواردها الحربية قبل أى شىء فى سبيل الوفاء بواجبها ؛ باعتبارها الحافظ على تخوم العالم البابلى ضد سكان الجبال الهمج فى زاجروس Zagros وطوروس Taurus فى جانب ؛ وضد روّاد الحضارة السورية من الآراميين ، فى الجانب الآخر . ولقد رضيت آشور إبان الدورات الثلاث المبكرة لنزعتها الحربية ، بالانتقال من الدفاع إلى الهجوم على هاتين الجبهتين ، دون أن تلح فى دفع هذا الهجوم إلى الحد الأقصى ، ومن غير أن تشتت قواها فى اتجاهات أخرى . ورغماً عن ذلك فإن الدورة

الثالثة التى شغلت الربعين الأوسطين من القرن التاسع قبل الميلاد ، قد استثارت فى سوريا حلفاً موقوتاً من الدول السورية استطاع صد الزحف الآشورى عند قرقر Quarqar عام ٨٥٣ ق . م . كما واجهته أرمينيا بإجابة بدهية ، مدارها تأسيس مملكة أوراتو Auratu .

ورغماً عن هذه النُذُر ، فإنه عندما شرع تيجلات بيليسر Tiglath-Pileser (٧٤٧ – ٧٢٧ ق . م) فى شن آخر الهجمات الآشورية وأضخمها ، أضمر فى نفسه أطماحاً سياسية ترنو إلى تحقيق أهـــداف حربية جعلت آشور تواجه حلفاً من ثلاثة خصوم جدد – بابل وعيلام ومصر – كان كل منها قوة حربية مرتقبة توازى قوة آشور نفسها .

وأثار تيجلات بيليسر نزاعاً مع مصر – استخدمه خلفاؤه – وذلك وقتما نصب نفسه لاستكمال إخضاع الدويلات السورية . لأن مصر ما كانت لتقبل أن تظل ساكنة على امتداد الإمبراطورية الآشورية حتى حدودها ذاتها . وكانت مصر فى وضع يمكنها من إحباط عمل بناة الإمبراطورية الآشورية أو إبطاله ؛ إلا إن قرروا شل حركتها تنفيذ مشروع أشد هولا ، ينتهى إلى إخضاع مصر نفسها . وقد يكون احتلال تيجلات بيليسر الجرىء لفلسطين عام ٧٣٤ ق . م دمية مُصمية[1] من الناحية الاستراتيجية أثمرت بصفة مؤقتة إخضاع السامرة عام ٧٣٣ ق . م وسقوط دمشق عام ٧٣٢ ق . م ، هذا قاد إلى احتكاك ساراجون Saragon عام ٧٢٠ ق . م بمصر واحتكاك سنحريب Sennacherib بها عام ٧٠٠ ق . م . وقادت هذه الاصطدامات غير الحاسمة بدورها إلى غزو أسارهادون Esarhaddon مصر واحتلاله إياها ، إبان خلات ٦٧٥ و ٦٧٤ و ٦٧١ ق . م

وما لبث أن بدا للعيان أنه إذا كانت الجيوش الآشورية من القوة لتدمر الجيوش المصرية ، وتحتل أرض مصر ، وتُعيد إتيان هذا العمل الفذ ؛

---

(١) أى ضربة معلم . (المترجم)

إلا أنها لم تكن بالقوة الكافية لاستبقاء خضوع مصر . وهذا ما جعل أسارها دون نفسيه يزمع التوجه إلى مصر مرة أخرى لكن الموت اختطفه عام ٦٦٩ ق . م وإذا كان آشور بانيبال Aechurbanipal قد أخمد الثورة المصرية عام . ٦٦٧ ق . م ، فقد اقتضاه الأمر أن يعيد فتح مصر عام ٦٦٣ ق . م . ولا شك أن الحكومة الآشورية قد أدركت وقتذاك أنها تخوض فى مصر معركة نفسانية الطابع . وهذا ما حدا بآشور بانيبال أن يغض الطرف عما كان يجرى بمصر وقتما تولى بسماتيك طرد الحاميات الآشورية .

ولا شبهة فى حكمة ملك آشور وقتما ارتضى ضياع مصر من بين يديه . بيد أن هذه الحكمة اعتبرت بعد وقوع الحدث تسليما بأن الحملات الخمس على مصر قد ضاعت هباء . يضاف إلى ذلك أن ضياع مصر كان مقدمة لضياع سوريا فى الجيل التالى .

وكانت العواقب النهائية لتدخل تيجلات — بيليسر فى بابل ، أفدح خطراً من عواقب سياسته المبكرة فى سوريا . فإنها قد أدت بفضل سلسلة من السبب والنتيجة ، إلى نكبة ٦١٤ — ٦١٠ ق . م .

وثمة إمارة على توافر قسط من الاعتدال السياسى إبان المراحل المبكرة للاعتداء الحربى الآشورى على بابل . إذ آثرت الدولة الغازية وقتذاك إقامة محميات يدير شئونها أمراء محليون يخضعون لآشور ، عن إلحاقها بها تماماً . لكن ثورة خليدونية الكبرى خلال ٦٩٤ — ٦٨٩ ق . م قد دفعت سنحريب أن يضع رسمياً حداً لاستقلال بابل ، بتنصيبه ابنه وولى عهده اسارها دون حاكماً على بابل . إلا أن هـــذه السياسة المعتدلة قد أخفقت فى إستمالة سكان خليدونية ، ولم يتعد أثرها تشجيعهم على مجابهة التحدى الحربى الآشورى بقوة متزايدة . وعمل أهالى خليدونية تحت ضغط ضربات مطرقة العسكرية الآشورية على تنظيم شئونهم الداخلية المضطربة ، وكفلوا تحالفاً مع مملكة عيلام المجاورة .

ولما نبذت آشور سياسة الاعتدال السياسى فى المرحلة التالية ، وعمدت إلى نهب بابل عام ٦٨٩ ق . م ، كان ذلك درساً أتى بعكس المقصود منه . إذ جعل سكان المدن القديمة هم وقبائل البدو الخليدونيين المتطفلين ، يتناسون – بدافع من كراهيتهم العمياء التى استثارها هـذا العدوان الآشورى المريع – تفورهم المتبادل ، فانصهروا جميعاً فى أمة بابلية جديدة لا تستطيع أن تنسى أو تصفح ، والتى لا تقدر أن تستكين إلا بعد أن تطرح بخصمها أرضاً .

على أن ضربة « الجائحة » المحتومة قد تأجلت طوال معظم قرن من الزمان ، بفضل الكفاية التقدمية للجهاز الحربى الآشورى . ففى عام ٦٣٩ ق . م مثلا ، تلقت عيلام ضربة قاضية انتقلت بها أرضها المهجورة إلى حوزة الفرس الجبليين من حدّها الشرقى . وكان أن اتخذها الاخيمينيون نقطة وثوب سيطروا منها بعد هذا التاريخ بقرن على جميع جنوب غرب آسيا . على أن بابل قد ثارت مرة أخرى عقب وفاة آشور بانيبال مباشرة عام ٦٢٦ ق . م تحت زعامة نابوبولاصار Nabopolassar الذى وجد فى ميديا حليفاً ذا بأس ، فكان أن امّحت آشور من وجه الخارطة فى غضون ستة عشر عاماً .

وإذا تطلعنا إلى الوراء عبر فترة القرن ونصفه التى اتسمت باشتداد حدة الحرب والتى بدأت بتسلم تيجلات بيليسر العرش عام ٧٤٥ ق . م وانتهت بانتصار نبوخذ نصر Nobuchadnezzer على الفرعون نخاو Nechu فى موقعة قرقميش Carchemish عام ٦٠٥ ق . م ، نجد أن الأحداث التاريخية التى تبرز لدى النظرة الأولى ، هى الضربات القاضية المتتابعة التى دمّرت بها آشور جماعات بأسرها وساوت مدنا بالأرض وحملت إلى الأسر سكاناً بأجمعهم : دمشق عام ٧٣٢ ق . م وسامروا عام ٨٢٢ ، وموساسير Musasir عام ٧١٤ ق . م وبابل عام ٦٨٩ ق . م وصيدا عام ٦٧٧ ق . م وممفيس عام ٦٧١ ق . م وطيبة عام ٦٦٣ ق . م وسوسا Susa حوالى عام

٦٣٩ ق . م . ولم يسلم من عدوان الأشوريين — إلى أن خُرّبت نينوى نفسها عام ٦١٢ ق . م — سوى صور والقدس ، من جميع كبرى مدن الدول التي بلغتها جميعها الذراع الأشورية .

وإن البؤس والدمار اللذين ابتلت بهما آشور جيرانها ، لها فوق مايتصور . وتذكرنا الأقاصيص الوقحة الشرسة التي يعرض فيها سادة الحرب الأشوريون سجلات أعمالهم بشكل ساذج ، بذلك القول المأثور عن المدرس المنافق الذى يذكر للصبي الذى يجلده ، بأن الجلد يؤلمه (أى المدرس) أكثر مما يؤلم التلميذ . وإذا كان جميع ضحايا آشور الذين ذكرتهم هذه السجلات قد كافحوا ليعودوا إلى الحياة ، وينتظر بعضهم مستقبل عظيم ؛ إلا أن نينوى قد سقطت ميتة ولم تبعث قط .

وليس مبعث هذا التعارض فى مصيرى آشور وضحاياها ، مما يصعب الاهتداء إليه . فإن آشور كانت وهى خلف واجهة انتصاراتها العسكرية ، تُقدم على ارتكاب انتحار بطيء . وإن كل مانعلمه عن تاريخها الداخلى طوال الفترة التي نستعرضها ،ليهيء لنا دليلا قاطعاً عن الاضطراب السياسى والخراب الاقتصادى والثقافة المتدهورة وتفشى نقص السكان : ويبدى الانتشار الثابت الواضح للغة الآرامية على حساب اللغة الأكادية المحلية فى الموطن الآشورى إبان فترة القرن ونصف القرن الأخيرة من وجود آشور ، على أن أسرى القوس والحربة الآشوريين كانوا يُحلّون سلميا محل الشعب الآشورى ، فى عصر كانت فيه القوة الحربية الآشورية ما تزال فى أوجها . فإن المحارب الذى لا يقهر الذى وقف متحفزاً فى نينوى عام ٦١٢ ق . م ، كان فى الواقع جثة فى سلاحها ، أمكن المحافظة على انتصابها ، بفضل جسامة العتاد الحربى الذى ضيّق الخناق على به هذا المنتحر فمات به .

ولما بلغت عاصفة الجانب الميدى والبابلى مظهر التوتر والوعيد ،

وانطلقت تفعقع تقذف بركام بناء القرميد صوب أسفل الخندق ؛ لم يكن الميديون والبابليون يشكّون فى أن خصمهم المرعب لم يعد إنسانا على قيد الحياة . فكان أن وجهوا إليه ضربتهم الجريئة والقاضية .

إن مصير آشور طراز وحده ، فإن لوحة « الجثة فى سلاحها » تعيد إلى الذهن رؤيا الفيلق الاسبرطى فى ميدان معركة لوكترا Leuctra عام ٣٧١ ق . م والانكشاريين فى الخنادق أمام فيينا عام ١٦٨٣ ميلادية .

ويذكرنا المآل الساخر لصاحب النزعة العسكرية ، الذى تصل درجة انخراطه فى شن حروب الإبادة ضد جيرانه إلى حد إلحاقه — عن غير قصد — التدمير بنفسه ؛ يذكرنا بما جرّه الكارولينيون والتيموريون على أنفسهم : فإنهم قد شيدوا إمبراطوريات ضخمة على أسس من أوجاع ضحاياهم السكسونيين والفرس على التوالى ، ليقدموها غنائم للأفاقين السكندنافيين والأزبك الذين عاشوا ليشاهدوا فرصتهم ويقتنصوها . وذلك وقتما نال مشيدو الإمبراطوريات جزاء اتجاههم الاستعمارى بترديهم فى هاوية القصور الذاتى ، فى غضون عمر واحد .

وثمة مظهر آخر للانتحار ، يعيده إلى أذهاننا المثال الأشورى . ويتمثل فيما يلحقه بأنفسهم من دمار ، أولئك العسكريون سواء أكانوا برابرة أو ينتسبون إلى شعوب ذات ثقافة عالية . فإنهم قد اقتحموا وخربوا طائفة من الدول العالية ، أو الإمبراطوريات الكبرى التى كانت تمنح فترة سلام للشعوب والأراضى التى كانت تبسط عليهم سلطانها . ومن ثم عرض الغزاة — بتمزيقهم جورا الستار الإمبراطورى — الملايين إلى مخاوف الظلام وظل الموت ، وكان هذا الستار الإمبراطورى يحميهم منها . لكن ظل الموت قد هبط جامدا على الجناة كما هبط على ضحاياهم . فإن هؤلاء السادة الجدد لعالم اغتصبوه — وقد أصابهم الانحلال الخلقى بفعل تهور

أسلوبهم – فى وسعهم مثل قطط كيلكنى Kilkenny[1] التى كانت الواحدة منها تقدم لأخواتها ضربة تخلصها من الحياة بأكلها ، فلم يبق منها فى النهاية قطة تنعم بالأسلاب .

وفى وسعنا أن نراقب المقدونيين وقتما اجتاحوا الإمبراطورية الأخيمانية واندفعوا وراء أقصى حدودها صوب الهند ، ثم حولوا جيوشهم بنفس الشراسة لقتال بعضهم بعضا طوال فترة الاثنتين والأربعين سنة الواقعة بين وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق . م وخلع ليسياخوس Lusimachus[2] فى كورابيديوم Corupuedim عام ٢٨١ ق . م .

وتكرر الفعل الكالح بعد ذلك بألف سنة وقتما حذا المسلمون الأولون حذو المقدونيين – وبذلك نسخوه – باجتياحهم فى غضون اثنتى عشرة سنة ، الأملاك الرومانية والساسانية فى جنوب غرب آسيا التى تبلغ مساحتها تقريبا نفس المساحة التى فتحها الإسكندر قبل ذلك فى غضون أحد عشر عاما . فإن فترة الفتح العربى التى استغرقت اثنتى عشرة سنة ، قد تلاها أربعة وعشرون عاما من صراع العربى لأخيه . وهكذا وقع الغزاة ضحايا – سيوف بعضهم بعضا . وكان أن وقع مجد إعادة تشييد الدولة العالمية السورية وغنائمها فى أيدى الأمويين المغتصبين ، والعباسيين المتطفلين ، عوضا عن احتفاظ صحابة الرسول وذريته به ، وهم الذين مهدت غزواتهم المتألقة سبيل هذا المجد .

---

(١) مقاطعة فى ايرلنده . (المترجم)

(٢) قائد مقدونى (٣٦٠ – ٢٨١ ق . م) من قواد الإسكندر استولى على تراقية والأقطار المجاورة لها حتى نهر الدانوب واستطاع بفضل تحالفه مع سلوقوس أن يهزم جيوش قائدين من قواد الإسكندر الآخرين هما انتيجنوس وديمتريوس فى موقعة ايبسوس عام ٣٩١ ق . م واستولى على مقدونيا نفسها عام ٢٨٦ ق . م ثم مات بعد هزيمة سلوقوس له فى سهل كورروس . (المترجم)

كذلك أبدى البرابرة الذين اجتاحوا المقاطعات المهجورة للإمبراطورية الرومانية المتداعية ، نفس الروح العسكرية الانتحارية الذاتية الآشورية ، على غرار ما سبق أن بيناه فى موضع سابق من هذه الدراسة .

على أن ثمة ضربا من الضلال العسكرى سنجد طرازا منه كذلك فى النزعة الحربية الآشورية ، عند ما نلتقى بآشور فى وضعها اللائق ؛ بحسبانها جزءاً لا يتجزأ من الكيان الاجتماعى الأكبر الذى دعوناه بالمجتمع البابلى . فلقد كانت آشور فى هذا المجتمع حدا لا يقتصر دفاعه على كيانه فحسب ، لكنه يمتد إلى بقية العالم الذى هو جزء منه ، ضد سكان الجبال فى الشمال والشرق ، وضد رواد المجتمع السورى المعتدين فى الجنوب والغرب . وإن مجتمعا يرتبط بحد من هذا النوع ينبثق عن نسيج اجتماعى سابق غير مميز ، من شأنه إفادة جميع أعضائه . ذلك لأنه وإن كان الحد يُستثار إلى المدى الذى يستجيب عنده بنجاح إلى التحدى المناسب المتصل بمقاومة الضغوط الخارجية ، فإنه يعفى داخل البلاد من الضغط ، ويترك طليقا لمجابهة تحديات أخرى وينجز مهام أخرى .

بيد أن تقسيم العمل هذا ينهار ؛ إن اتخذ جنود الحدود من الأسلحة التى تعلموا كيفية استعمالها لمواجهة الأجنبى ، أداة لتحقيق أطماعهم على حساب أعضاء مجتمعهم الداخليين . إذ يستتبع تحولهم ، نشوب حرب أهلية . وتفسر هذه الفكرة ، العواقب التى انبثت فى نهاية الأمر عن فعل تيجلات ــ بيليسر Tiglath-Pileser الثالث عام ٧٤٥ ق . م وقتما حول أسلحته الآشورية ضد بابل . إذ يعتبر انحراف الحد الذى تحوّل ضد نفسه المجتمع ، خطرا بطبيعته ذاتها على المجتمع فى مجموعه ، كما أنه يعتبر من الناحية الأخرى ــ فعلا انتحاريا يرتكبه رجل الحد فى حق نفسه . إذ يشابه فعله ، ذراع سيف تغمــد السلاح ، فى الجسم الذى هى عضو فيه ؛ مثله

مثل قاطع الأشجار الذى ينشر الفرع الذى يجلس عليه ، فيهوى معه إلى الأرض محطما ، بينما يظل بدن الشجرة المبتورة على حاله .

٣ — شارلمان :

لعل تحرك الفرنجة الأوستراسيين عام ٧٢٤ ميلادية للاحتجاج بشدة ضد قرار قائدهم ببين Pepin بحمل السلاح ضد إخوانهم اللومبارديين ؛ يُعزى إلى ريبة بديهية فى سوء توجيه نواحى النشاط التى ناقشناها فى الفقرة السابقة . فإن البابوية وجهت أنظارها صوب هذه الدولة الواقعة وراء الألب ، وأهاجت مطمح ببين عام ٧٤٩ بتتويجه ملكاً فأضفت بذلك شرعية على حكمه الواقعى . لأن أوستراشيا كانت قد ميزت نفسها إبان جيل ببين . عن طريق خدماتها كحد على جبهتين :

الأولى : ضد الساكسونيين الوثنيين وراء الراين .

الثانية : ضد غزاة العرب المسلمين فى شبه جزيرة أيبريا ، الذين كانوا يضغطون عبر جبال البرانس .

فكان أن دُعى الاوستراسيون عام ٧٥٤ ميلادية إلى صرف النظر عن توجيه نشاطهم إلى الميدانين السالفى الذكر حيث كانوا يجدون فيهما وفاء برسالتهم الحقيقية . وعوضا عن ذلك تكريس هذا النشاط صوب تدمير اللومبارديين الذين كانوا يقفون عقبة فى طريق مطامح البابوية السياسية . ولقد بررت الأحداث صدق شكوك جمهرة الاوستراسيين فى هذا المشروع ، تبريراً يفوق فى درجته ، اشتهاء زعيمهم له . ذلك لأن ببين قد صهر — بعدم مبالاته باعتراضات تابعية الأمناء — أول حلقة فى سلسلة الارتباطات الحربية والسياسية التى ربطت استراشيا بإيطاليا ؛ ارتباطاً أخذ يشتد بتوالى الأيام . فإن حملته الإيطالية عام ٧٥٥ — ٦ جرّت وراءها حملة شارلمان خلال ٧٧٣ — ٤ ، وهى الحملة التى عرقلت غزو سكسونيا ، وكان بالكاد قد شرع فيه .

ومن ثم فإن عمليات شارلمان الحربية الشاقة فى سكسونيا فى سياق الثلاثين عاماً التالية ، قد أوقف سيرها بما لا يقل عن أربع مرات ، بنشوء أزمات المدن الإيطالية . تلك الأزمات التى تطلبت وجوده فى أماكن حدوثها ، فترات تختلف باختلافها .

وبالحرى ، ترتب عن مطامع شارلمان غير المحددة والمتناقضة ، زيادة وطأة الأعباء المفروضة على رعاياه ، إلى حد أن تسبب الحمل الملقى على أوستراسيا فى تحطيم ظهرها .

٤ - تيمور لنك :

قصم تيمور بنفس الكيفية ظهر وطنه بلاد ما وراء النهر[1] . بتبديده على الغزوات الضالة صوب إيران والعراق والهند والأناضول وسوريا ، الذخيرة الزهيدة لقوة بلاد ما وراء النهر . وما كان أجدره بأن يركزها على تحقيق رسالته الأصيلة ، أكثر من أن يفرض دولته على البدو الأوراسيين .

كانت بلاد ما وراء النهر هى حد المجتمع الإيرانى الحضرى ، تجاه عالم البدو الاوراسيين . وكان تيمور طوال التسعة عشر عاماً الأولى من حكمه (١٣٦٢ - ٨٠ قد عُنى بمهمته الأصلية ، مهمة حافظ الحدود . وإذا كان قد صُدّ فى بداية الأمر ، إلا أنه عاود الهجوم بعد ذلك ضد بدو القطا Chagatay موسعاً نطاق أملاكه بتحريره واحة خوارزم على نهر جيجون من بدو جوجى .

وأنجز تيمور هذه المهمة الضخمة عام ١٣٨٠ . وكان بإمكانه الاستحواذ على جائزة أعظم ، باتت فى متناوله ، جائزة ما كانت لتقل عن ضم إمبراطورية جنكيزخان الأوراسية الكبرى إلى أملاكه . وتفسير ذلك

(١) Transoxania وتشمل الآن جمهورية أوزبكستان السوفيتية وتضم مدن طشقند وبخارى وسمرقند وخيوه . (المترجم)

أن البدو كانوا خلال جيل تيمور ، يرتدّون على جميع قطاعات الحد الطويل بين الصحراء ونهر سيحون . وقدّر للفصل التالى فى تاريخ أوراسيا ، أن يُصبح سباقاً على الاستيلاء على تراث جنكيزخان، بين الشعوب الحضرية التى تجددت فيها الحياة : وكان المولدافيون والليتوانيون فى هذه المنافسة ، فى مكان قصى يحول بينهم وبين الاشتراك فيها ؛ وكان المسكوف عاكفين فى غاباتهم ، والصينيون على حقولهم . فأصبح القوزاق وأهالى بلاد ما وراء النهر بذلك، هم المتنافسين الوحيدين . ويرجع ذلك إلى أنهم جنود مرتزقة نجحوا فى استيطان السهب دون أن ينبذوا الأسس الحضرية ، وهى أسلوب حياتهم : وبدا كما لو أن لساكن بلاد ما وراء النهر حظاً أوفر من منافسه القوزاقى : ففضلا عن كونه أقوى ذاتيا وأقرب إلى قلب السهب ، فقد ظهر فى الميدان أولا كما أنه كان يجد فى الجماعات الحضارية المسلمة التى كانت نقط حدود الإسلام على سواحل السهب الموجهة ، حلفاء يساعدونه بسبب دفاعه عن السُنة .

وبدأ تيمور لحظة أنه يقدّر فرصته ، وأنه يتشبث بها فى إصرار . لكنه انحرف عن هذا القصد بتوجيه أسلحته ضد داخلية العالم الإيرانى ، وتكريس الأربعة والعشرين عاما الأخيرة من حياته تقريبا ، لشن سلسلة من الحملات العقيمة والمدمرة صوب هذه الناحية . فكان مدى انتصاراته مثيرا بقدر ما كانت نتائجها انتحارية الطابع .

وتعتبر إساءة تيمور إلى نفسه ، مثالا واضحا غاية الوضوح لاتجاه الروح العسكرية صوب الانتحار . فلم يقيّض لإمبراطوريته أن تعيش . بل إن كافة ما خلفته تلك الامبراطورية ، جاء خلوا من التأثيرات الإيجابية ، فكان أن اقتصر ما خلفته على الناحية السابية المحضة . ذلك لأن نزعة تيمور الاستبدادية، قد خلفت باكتساحها كل شىء وجدته فى طريقها فى اندفاعها الأرعن نحو

دمارها نفسها ، قد أوجدت فراغاً جرّ العثمانيين والصفويين[١] فى النهاية صوب ارتطام ، كانت فيه الضربة القاضية على المجتمع الإيرانى .

وبدا تقصير المجتمع الإيرانى أول ما بدا بفعل رعونة تيمورلنك ، فى عجزه عن أن يرث العالم البدوى فى المجال الدينى .

وتفسير ذلك ، أن تقدّم الإسلام ظل مطردا طوال القرون الأربعة التى انتهت بعصر تيمور ، فاستقام له الأمر على الشعوب الحضرية حول شواطئ السهب الأوراسى . إذ طفق يسعى إلى بسط سيطرته على البدو أنفسهم عند ما يغادرون السهب قاصدين الأرض المزروعة . حتى لقد بدا إبان القرن الرابع عشر كما لو أنه ليس ثمة ما يحول بين الإسلام وصيرورته دين أوراسيا . ولكن بعد ما اتخذت أفعال تيمور سبيلها على النسق التدميرى المتقدم ، وقف تقدم الإسلام فى أوراسيا إلى الأبد . بل تحول المغول والكالموك بعد ذلك بقرنين إلى اللامى[٢] من بوذية ماهايانا . ويزودنا هذا الانتصار العجيب لهذه البقية المتحجرة من الحياة الدينية للحضارة السندية البائدة منذ زمن طويل ، بنوع من المقياس نستخدمه لمعرفة مدى درجة تدهور مكانة الإسلام عند البدو الأوراسيين فى غضون القرنين اللذين انقضيا منذ أيام تيمور .

والمثل يقال عن الثقافة . فقد ثبت إفلاس الثقافة الإيرانية التى ذاد عنها تيمور فى بداية الأمر ، ثم خانها بعد ذلك : فإن المجتمعات الحضرية التى حققت أخيراً مأثرة ترويض البداوة الأوراسية سياسيا ، كانت مجتمعات روسية وصينية .

---

(١) أى الأتراك العثمانيون والإيرانيون فى عهد الأسرة الصفوية التى كان ألمع ملوكها الشاه إسماعيل الصفوى الذى عاصر السلطان سليم الأول العثمانى وقاتله ، كما عاصر السلطان الغورى بمصر . (المترجم)

(٢) اللامى نسبة إلى اللاما ، وفيه يتجسد البوذا ، وكان مركزه التبت قبل استيلاء الشيوعيين الصينيين عليها . (المترجم)

ولقد أصبح التنبؤ بهذه النتيجة النهائية المتصلة بالمأساة الرتيبة المتكررة فى التاريخ البدوى ، أمرا ميسورا . وذلك قبلما اتجه القوازق خدام موسكو ، والمانشو سادة الصين ، كل صوب الآخر . وكانوا يتحسسون طريقهم فى اتجاهين متعارضين حول الطرف الشمالى من السهب ، فخاضوا أولى معاركهم للسيطرة على أوراسيا على مقربة من مراعى أجداد جنكيز خان فى الحوض الأعلى من نهر آمور . ولقد استكمل تقسيم أوراسيا بين هذين المتنافسين بعد ذلك بقرن .

ومما يبعث على العجب ، فكرة مؤداها : أنه لو لم يول تيمور ظهره إلى أوراسيا ويصوب أسلحته تجاه إيران عام ١٣٨١ ، لكانت العلاقات بين بلاد ما وراء النهر وروسيا ، عكس ما هى عليه بالفعل فى الوقت الحاضر . فنى ظل هذه الظروف الافتراضية ، ربما تجد روسيا نفسها اليوم داخل نطاق إمبراطورية تضم نفس مساحة الاتحاد السوفيتى الحالية ، ولكن مع اختلاف الأهمية ؛ إمبراطورية إيرانية تحكم فيها سمرقند موسكو عوضا عن أن تحكم موسكو سمرقند .

وقد تبدو هذه الصورة الخيالية شاذة . لأن حقيقة الأحداث السيئة طوال خمسة قرون ونصف قرن ، ناقضت ذلك تماما . لكن تتضح لنا حقيقتها ، إن رسمنا خط سير أحداث التاريخ الغربى بافتراض اتجاه شارلمان – الذى تمتاز أعماله الحربية بأنها أقل عنفا وانحرافا – إلى تدمير الحضارة الغربية على غرار ما فعله تيمور فى الحضارة الإيرانية . هنا يصبح علينا وفقا لهذا القياس ، أن نصور أوستراسيا خاضعة للمجريين ، ونوستريا خاضعة للفايكنج إبان ظلام القرن العاشر . ويظل قلب إمبراطورية شارلمان – من ثم – تحت سيطرة البرابرة ؛ إلى أن يفرض الأتراك فى القرن الرابع عشر سيطرتهم الأجنبية ، وهى سيطرة تبدو أقل ضررا على هذه الحدود المسيحية الغربية المهجورة .

بيد أن أفظع ما ارتكبه تيمور من أفعال التدمير ، كان ضد شخصية ذاته . فلقد جعل اسمه خالدا بأفعال التدمير التي محت من ذهن الأخلاف ، كل ذكرى للأفعال التي كان يمكن أن يذكر بها ذكرى حسنة .

فكم من الناس فى المسيحية أو دار الإسلام بذكرهم اسم تيمور ، يتصورونه نصير الحضارة ضد البربرية . وأنه هو الذى قاد رجال الدين وشعب بلاده فى معركة كان النصر فيها عسيراً فى نهاية تسعة عشر عاما طويلة من الصراع فى سبيل الاستقلال ؟

فإن اسم تيمورلنك يعنى عند أكثرية الناس الساحقة ، شخصية عسكرية اقترفت قدراً من الفظائع طوال فترة الأربعة والعشرين عاما من حكمه ؛ مثلما اقترفه الملوك الآشوريون الأخيرون خلال مائة وعشرين سنة : إننا نتخيل المجرم الذى ساوى مدينة اسفراين بالأرض عام ١٣٨١ ، واستخدم عام ١٣٨٣ ألفى أسير فى بناء سلبزاوان ، وكدس خمسة آلاف رأس بشرية فى المآذن فى زيرى فى نفس السنة ، وطرح أسراه من لوريستان أحياء من أعلى المنحدرات عام ١٣٨٦ . وذبح سبعين ألف شخص وجمع رؤوس القتلى فى هيئة مآذن فى أصفهان عام ١٣٨٧ وذبح مائة ألف أسير فى دلهى عام ١٣٩٨ ، ودفن أحياء أربعة آلاف جندى مسيحى من حامية سيواس عقب القبض عليهم عام ١٤٠٠ . وابتنى عشرين برجا من جماجم القتلى فى سوريا عامى ١٤٠٠ — ١٤٠١ .

إن تيمور قد جعل ذكراه تختلط فى أذهان أولئك الذين يعرفونه بمثل هذه الأفعال ، بذكرى غيلان السهب مثل جنكيزخان واتيلا وأترابهما — الذين أمضى تيمور النصف الأول من حياته وأحسنه ، فى شن حرب جهاد ضدهم .

وإن جنون العظمة التى جعلت تيمور يصاب بجنون التدمير ، قد تحكمت فيه فكرة واحدة مدارها الإيحاء إلى مخيلة الإنسانية بإدراك قوته الحربية عن طريق

الإساءة إلى البشر إساءة منكرة . ولقد أشير إلى تلك النزعة، ضمنا فى صورة لامعة ، فى المبالغات التى وضعها الشاعر الإنجليزى مارلو Marlowe على لسان شخصية تامبولين Tambulaline أى تيمورلنك :

تنازل رب الحرب عن سلطانه إلىّ

رامياً إلى تعيينى قائداً للعالم

إن جوبيتر وقد رآنى فى السلاح ، قد بدا ممتقعاً وكئيباً

خشية أن تنزعه قوتى عن عرشه

من أية جهة أقد منها ، ترهق الأخوات المشئومات

والموت الزؤام بالجرى هنا وهناك

ولترفع آيات الولاء إلى سيفى

تجلس ملايين النفوس على شواطئ العالم السفلى

ترقب رجعة قارب شارون

إن جهنم ودار النعيم تزخران بأشباح الناس

الذين أرسلتهم من ميادين القتال المختلفة

لينشروا شهرتى عبر جهنم وحتى السماء(١)

٥ — حارس التخوم يتحول إلى قاطع طريق :

لاحظنا فى تحليل أعمال تيمور وشارلمان والملوك الآشوريين الأخيرين ، نفس الظاهرة فى جميع الحالات الثلاث ، ظاهره أن الجسارة العسكرية التى ينميها مجتمع فى سكان حدود بلاده بغية الدفاع عن هذا المجتمع ضد أعدائه الخارجين ، تتعرض إلى تحول — ينذر بالشؤم — قوامه تمكن النزعة الحربية فى هؤلاء السكان . ويتم ذلك وقتما توجه تلك الجسارة العسكرية من

---

(1) Marlowe, Christopher : Tamburlaine, the greet, 11. 2239-8, 2245-9

ميدانها الأصلى نحو المنطقة غير المملوكة لأحد خلف الحد ، وتوجه صوب الداخل ضد المجتمع نفسه . وسيتهيأ لأذهاننا عدد من أمثلة هـذه الرذيلة الاجتماعية الأخرى .

وستطوف بأذهاننا حالة مرسيا Mercia لما تحولت ضد الدول الإنجليزية الأخرى التى خلفت الإمبراطورية الرومانية فى بريطانيا ، والتى شحذت أسلحتها لتولّى وظيفتها الأصلية كحد إنجليزى ضد ويلز . كما سنفكر فى المملكة البلانتاجينية Plantagent[1] فى محاولتها خلال حرب المائة سنة غزو فرنسا المملكة الشقيقة ، عوضاً عن أن تستمر فى إنجاز عملها الأصيل من توسيع نطاق أمهما المشتركة – المسيحية اللاتينية – على حساب الهُدب السلتى . وسنفكر كذلك فى روجر ملك صقلية النورمندى موجهاً طاقاته الحربية لتوسيع حدود أملاكه فى إيطاليا ، عوضاً عن إنجاز عمل أسلافه لتوسيع حدود المسيحية الغربية فى البحر الأبيض المتوسط على حساب المسيحية الأرثوذكسة ودار الإسلام .

والمثل يقال عن نقط الحدود الميسينية للحضارة المينووية على الأرض الأوربية الأصلية ، التى أساءت استخدام الجسارة التى اكتسبتها بالمحافظة على نفسها ضد برابرة القارة ، باتجاهها نحو تمزيق أمها كريت .

ويتمثل الحد الجنوبى التقليدى للدنيا المصرية ، فى القسم من وادى النيل الذى يقع وراء الشلال الأول مباشرة . ولم تكن الغاية من تدريبه أن يوجه ضد الجماعات الداخلية لينشئ – باستخدام القوة الغاشمة – المملكة المتحدة التاجين[2] بل انحصرت الغاية من إيجاده فى حمل السلاح لتنفيذ واجبه فى احتجاز همج النوبيين[3] فوق النهر . ولقد صور مقترف هذا الفعل ذا الطابع

---

(١) لقب يطلق على بيت انجوين الذى حكم انجلترا عام ١١٥٤ ميلادية وأول ملوكه هنرى الثانى وقد ظل يحكم انجلترا إلى أن خلع ريتشارد الثانى عام ١٣٩٩ . (المترجم)

(٢) أى تاج الوجه البحرى الأحمر وتاج الوجه القبلى الأبيض . (المترجم)

(٣) كما كانوا فى تلك الأزمان السحيقة جدا . (المترجم)

العسكرى في سجل من سجلات الحضارة المصرية اكتشف مبكراً ، تصويراً ينم عن رضاه عن نفسه رضاء تاماً. ذلك السجل هو لوحة نعرمر[1] التى تبين العودة المنتصرة لسيد حرب فى مصر العليا من غزو مصر السفلى . وفيها رسم الفاتح الملكى فى حجم يفوق أحجام البشر بشكل غير مألوف ، يسير متبختراً خلف صف من حاملى الأعلام صوب صف مزدوج من جثث العدو المقطوعى الرؤوس ؛ بينما نجد نعرمر أسفل اللوحة فى هيئة ثور يطأ بأقدامه خصما ساقطاً ؛ ويدك حيطان مدينة محصنة . ويُعتقد أن الكتلة المصاحبة للصورة تعدد أسلاباً عبارة عن ١٢٠ ألف أسير بشرى و ٤٠ ألف ثور و ١٫٤٢٢٫٠٠٠ رأس من الغنم والماعز .

ويوضح لنا هذا العمل البشع من الفن المصرى العتيق ، مأساة النزعة الحربية بأسرها ، كما مُثلت المرة بعد الأخرى منذ عصر نعرمر حتى الآن .

ولعل أشد عرض للمأساة إيلاماً ، يتمثل فيما ارتكبته أثينا وقتما حولت نفسها من محررة هيلاس إلى « مدينة طاغية » . فإن هذا الانحراف الأثينى قد جلب على هيلاس بأسرها ، كما جلب على أثينا نفسها ، الكارثة التى لم يُصلح فسادها قط : كارثة الحرب الأثينية البلوبونيزية .

ويُنير الميدان الحربى ـ الذى دأبنا على استعراضه فى هذا الفصل ـ السبيل لدراسة السلسلة القتّالة : البطر ، الحمق ، الجائحة . فإن الحذق والإقدام الحربيين . هما أداتان ذاتا حدّين ، قديرتان على إلحاق أضرار قاتلة بهؤلاء الذين يُسيئون استعمالها . بيد أن ما يصدق بوضوح على الفعل الحربى ، يصدق كذلك على أوجه النشاط البشرى الأخرى فى ميادين أقل خطورة ، حيث تكون المادة المفجّرة التى تُفضى من البطر إلى الجائحة عبر الحمق ، أقل قدرة على التفجير .

ومهما يكن من أمر الموهبة البشرية أو محيط عملها ؛ فإن الزعم بأن

---

(١) هو مينا أول فراعنة مصر المتحدة على أرجح الأقوال . (المترجم)

الموهبة التى تبرهن على قدرتها - فى ميدانها الأصيل - على إنجاز فعل محدد ، يمكن الركون إليها بالتالى لتحقيق نتائج غير محدودة فى ظل مجموعة من الظروف ، مثل هذا القول يعتبر مجرد انحراف ثقافى أو معنوى يترتب على أتباعه التردى فى كارثة محققة .

وعلينا الآن أن نسرع فى الخطى فى الطريق الذى يقودنا إلى معرفة دافع السبب والنتيجة ، فى مجال فعل غير حربى .

(٧) نشـــوة النصر

البابوية

تعتبر نشوة النصر ، أكثر الأشكال شيوعاً التى تعرض فيها نفسها مأساة : البطر ، الحمق ، الجائحة . وذلك سواء اتخذ الصراع فى سبيل الفوز ؛ صورة معركة بأسلحة مادية ، أو نشب بين قوى روحية .

ويتأتى تفسير كلا النوعين باستعراض تاريخ روما الذى يبدى :

— أولا : نتيجة نشوة الانتصار الحربى — من انهيار الجمهورية خلال القرن الثانى قبل الميلاد .

ثانياً : نشوة الانتصار الروحى — من انهيار البابوية ، أثناء القرن الثالث عشر الميلادى .

لكننا سنقتصر هنا على بحث الموضوع الأخير . إذ قد سبقت لنا معالجة موضوع انهيار الجمهورية الرومانية فى سياق آخر .

ويبدأ ذلك الفصل من تاريخ البابوية الرومانية — وهو أعظم النظم الغربية بأسرها الذى يعنينا بحثه — من ٢٠ ديسمبر سنة ١٠٤٦ ميلادية ، بافتتاح الإمبراطور هنرى الثالث مجمع سوترى المقدس . وينتهى فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٠ ميلادية باحتلال جنود الملك فيكتور إمانويل روما .

وتعتبر الجمهورية المسيحية[١] شيئاً فذاً بين النظم البشرية . وتسفر

(١) Respublica Christana

المحاولات التى بذلت لتعيين طابعها بمقارنتها بالنظم المنتشرة فى المجتمعات الأخرى ، عن اختلافات جوهرية ؛ حتى أن المطابقات المفروضة ، تبدو غير مجدية . ويمكن وصف تلك الجمهورية – باستخدام مصطلحات سلبية – بأنها عكس تام للنظام البابوى القيصرى (الذى تعتبر الجمهورية المسيحية رد فعل اجتماعى له) وبمثابة احتجاج روحانى عليه .

ويتيح هذا التعريف تقدير مأثرة هيلدبراند[١] :

فلقد ألقى هيلدبراند التوسكانى نفسه بعد ما اعتلى منصب البابوية إبان الربع الثانى من القرن الحادى عشر ، فى نقطة حدود مهجورة من نقط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، كان يشغلها فرع للمجتمع البيزنطى أصيب بالانحلال . وكان رومانيو هذا العصر موضع ازدراء من الناحية الحربية ، ومشاغبين اجتماعياً ،ومفلسين مالياً وروحانياً . وكانوا عاجزين عن أن يصبحوا أنداداً لجيرانهم اللومبارديين . وكانوا قد فقدوا الأملاك البابوية سواء فى إيطاليا أو فى خارجها . ولما أصبح الأمر ، أمر رفع مستوى حياة الرهبنة ، ولوا وجوههم شطر كلونى[٢] Cluny وراء الألب .

ونجح هيلدبراند وخلفاؤه فى ظل روما الممتهنة الغربية ، فى خلق نظام رائع للمسيحية الغربية . وذلك بظفرهم لروما البابوية بملك كاف لها على القلوب ؛ يمثل سيطرة أعظم من سيطرة الأنطونيين . واشتملت من حيث

---

(١) هيلدبراند Hildebrand هو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ – ٨٥) ولد فى سوانا Soana فى توسكانى حوالى ١٠٢١ ، وقد حاول علاج الآثام التى تردت فيها الكنيسة قبل عهده . واختلف مع الإمبراطور هنرى الرابع ، فخلعه عن البابوية ، فقابل البابا ذلك بإصدار قرار الحرمان ضده . وقد تغلب البابا فى النهاية ، وأتى إليه الإمبراطور طالبا الصفح والغفران . لكن الإمبراطور ما لبث عام ١٠٨٠ أن خلع البابا من جديد وعين بدله آخر ، وحاصر روما (١٠٨١ – ٨٤) وعندئذ انسحب جريجورى السابع إلى دير ساليرنو حيث مات .
(المترجم)

(٢) مدينة فى فرنسا الوسطى ، وكان يوجد بها دير صاغ رؤساؤه تعاليم البندكتيين التى بثت روحا إصلاحية فى تعاليم الكاثوليكية . (المترجم)

الإشعاع المادى المجرّد ؛ على بقاع واسعة من المسيحية الغربية وراء الراين والدانوب ، لم تطأها أقدام كتائب أغسطس وماركوس أوريليوس .

وترد هذه الفتوحات البابوية ـ أكثر ما ترد ـ إلى دستور الجمهورية المسيحية التى طفق البابوات يوسّعون نطاقها . إذ كان من شيمة هذا الدستور ، الإيحاء بالثقة عوضا عن إثارة البغضاء . وقام هذا الدستور على امتزاج المركزية اللاهوتية والتجانس ، بالتنوّع السياسى والتطور . وإذا كان فصل السلطة الروحية على الدنيوية ، نقطة أصيلة فى عقيدتها الدستورية ؛ فقد أعلى هذا المزيج من شأن الوحدة ، دون أن يترتب على ذلك انتزاع المجتمع الغربى الفتى من تلكما العنصرين : الحرية والمرونة ، وهما شرطا الارتقاء الواجبان .

بل لقد شجع بابوات القرن الثانى عشر ، حركة الاستقلال الذاتى للمدينة ، حتى فى تلك الأراضى الإيطالية المركزية التى طالبت البابوية بفرض سلطتها السياسية وكذا الدينية عليها . وعندما كانت حركة تطور المدن على أشدها فى إيطاليا خلال بداية القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وعند ما بلغ سلطان البابوية على المسيحية الغربية أوجه ؛ أشار شاعر من ويلز إلى شدة غرابة الرقابة البابوية . إذ بينما كانت لا يؤبه لها فى روما ، كانت تجعل صولجانات الملوك فى أماكن غيرها ، تهتز[1] . ولقد أحس جيرالدوس كامبرنسيس Giraldus Cambrensis[2] ـ وهو الشاعر الذى أشرنا إليه ـ بأنه يعرض هنا ، نقيضا كان موضع تقريع . بيد أن العامل ذاته الذى كان السبب فى قبول أغلبية أمراء مدن المسيحية الغربية السيادة البابوية مع القليل

(١) المجلد الحادى عشر ، صفحة ٧٢ من المجلد الحادى عشر

Mann, the Right Rev. Monsignor
H.K. The Lives of the Popes in the Middle Ages, vol. XI, p. 72.

(٢) جيرالدوس كامبرنسيس (١١٤٦ – ١٢٢٠) : كاتب من ويلز . اشتهر بكتاباته فى الموضوعات الدينية . (المترجم)

من الاعتراض ، مداره أن تصرفات البابا لم تكن تثير إذ ذاك الخوف من طغيانها على سلطة الأفراد .

ومما يُحمد للسلطة الدينية البابوية وهى فى ذروة قوتها ، عزوفها عن المطامع الدنيوية . وصاحب ذلك نشاط جرىء فى الاستفادة من الموهبة الإدارية التى آلت إلى روما البابوية من بزنطة . وفى هذا ، سلكت المسيحية الغربية عكس مسلك المسيحية الأرثوذكسية التى استخدمت موهبتها الإدارية فى إضفاء كيان مادى على شبح للإمبراطورية الرومانية ، أعيد إلى الوجود ، فكان أن ترتب على ذلك النظام الثقيل ، زعزعة كيان المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الفتى . ولقد دعا هذا من قاموا بتشييد الجمهورية المسيحية فى روما[١] إلى توجيه مواردهم الإدارية وجهة أفضل ؛ مبناها تشييد صرح أخف من صرح الإمبراطورية ، وساروا فى هذا وفقا لخطة جديدة تقوم على قواعد أعم .

اجتذبت خيوط نسيج العنكبوت البابوى الرقيقة فى نسيجها الأصلى ، دول مسيحية القرون الوسطى الغربية معا فى وحدة غير مقيّدة ، كانت على السواء نافعة للأجزاء وللمجموع . ولم يحدث إلا بعد ذلك ، أن اخشوشن النسيج وتصلب تحت ثقل النزاع . فتحولت الخيوط الشبيهة بالحرير رباطات حديدية ، ألقت بكلكلها على الأمراء والشعوب المحلية ، الأمر الذى جعلهم ينفلتون من القيود . وعندما فعلوا ذلك لم يلقوا بالا إلى أنهم بتحريرهم أنفسهم كانوا يحطّمون الوحدة الكنسية التى أقامتها البابوية وحافظت عليها :

وليست المقدرة على الإدارة واجتناب مطامع التوسع الأرضى ، هى محور الناحية الإبداعية فى العمل البابوى . بل إن مناط طاقة البابوية

---

(١) الجمهورية المسيحية Republica Christiana ويقصد بهنا الأستاذ المؤلف ، المنطقة التى كانت تحكمها البابوية . (المترجم)

الإبداعية هو في إقحامها نفسها دون تردد ومن غير أية تحفظات ، لزعامة رغبات وثابة لمجتمع فتى يهفو إلى حياة أعلى وتقدم أعظم ، وقيامها (أى البابوية) بالتعبير عنها وتنظيمها . فكان أن أضفت البابوية على هذه المطامح ، الشكل والصيت . وأحالتها بالتالى من أوهام أقليات متفرقة أو أفراد منعزلين ، إلى قضايا مشتركة ، بثت الاعتقاد بأنها جديرة بالكفاح في سبيلها إلى أقصى حد ، وجعلت الرجال يهبون واقفين ، وقلما يلغهم أن البابوات - الذين كانوا يشيدون مقادير البابوية على تلك القضايا - ينتهكون حرماتها .

ولقد عقد لواء النصر للجمهورية المسيحية بفضل الحملات البابوية لتطهير رجال الدين من دائين خلقيين وبيلين : التبذل الجنسى والفساد المالى . يضاف إلى هذين المعاملين تأمين الكنيسة ضد تدخل سلطات الحكومات ، وإنقاذ المسيحيين الشرقيين والأراضى المقدســة من مخالب الأتراك حماة الإسلام .

بيد أن ذلك لم يشمل جميع أعمال بابوية هيلدبراند . إذ كان للبابوات الذين نشب القتال تحت لوائهم ، رصيد من الفكر والإرادة لتكريسه لأعمال السلم التى كانت الكنيسة تستعرض فيها زبدة صفاتها وتمارس خير أوجه نشاطها الإبداعي . ومن ذلك الجامعات الناشئة ، وطوائف الرهبنة الجديدة القائمة على الاستجداء[١] .

ويعتبر سقوط كنيسة هيلدبراند ، أمراً شاذاً كقيامها . إذ يبدو أن جميع الفضائل التى بوأتها مكانها المرموق ، قد تغيرت إلى نقيضها التام ؛ وقلما هبطت إلى موضعها الأدنى . فكان أن تلوث النظام الإلهى الذى طفق يقاتل فى سبيل الحرية الروحية ويفوز فى المعركة ضد القوة المادية ؛ تلوث بنفس الشر الذى نصب نفسه لإقصائه بعيداً . وهكذا أصبح الكرسى

(١) ويقصد بها طائفتى الفرنشيسكان والدومنيكان . (المترجم)

المقدس الذى تزعم الصراع ضد السيمونية[1] ، يتطلب من رجال الدين أن يؤدّوا إلى محصّل رومانى ، المكوس المفروضة عليهم لقاء الترقيات اللاهوتية التى فرضت روما حظراً على شرائها من أية سلطة محلية دنيوية .

وبالحرى ، استحالت العشيرة الرومانية التى كانت رأس التقدم الثقافى وطليعته ، إلى حصن النزعة المحافظة الروحية . وغدا السلطان الدينى - بسبب تصرّف تابعيه الحكام من أمراء الدول الإقليمية الناهضة - يعانى حرمانه من حصة الأسد فى حصيلة النظم المالية والإدارية التى ابتكرتها البابوية نفسها لتجعل سلطانها فعّالا . وأخيراً كان على الأب المقدس صاحب السيادة - باعتباره أميراً محلياً على الإمارة البابوية - أن يقنع بجائزة الترضية الحقيرة المتصلة بسيادته على أضأل « الدول المستخلّفة » لإمبراطوريته المفقودة .

فهل سبق أن أتاح نظام ما لأعداء الرب فرصة عظيمة مثل هـذه للكفر به ؟

يعتبر هذا بالتأكيد أكثر أمثلة آفة الإبداع التى لقيناها فى هذه الدراسة ، تطرفاً حتى الآن .

فكيف حدث هذا ؟

ولماذا ؟

أما عن كيفية حدوثه ، فهذا ما يرمز إليه فى أول عملية سجلتها سيرة هيلدبراند العامة .

فإن قادة الكنيسة الرومانية المبدعة الذين كرسوا أنفسهم إبان القرن الحادى عشر لاستنقاذ المجتمع الغربى من فوضى الإقطاع ، عن طريق إقامة جمهورية مسيحية ؛ هؤلاء القادة قد ترددوا فى ذات المعضلة التى غدا يتردى فيها خلفاؤهم الروحيون الذين يسعون فى عصرنا هذا إلى إحلال نظام عالمى مكان الفوضى الدولية . ومناط الهدف الروحى للكنيسة الرومانية المبدعة ؛

---

(١) السيمونية Simony : الاتجار بالمقدسات والمصانعة فى الرتب والوظائف الدينية . (المترجم)

الاستعاضة بالوازع المعنوى عن القوة المادية ، وبهذا الوازع المعنوى ، تحققت انتصاراتها السامية . بيد أنه طرأت مناسبات بدا فيها كما لو أن السلطان المادى فى مركز يتيح له تحدّى الوازع المعنوى دون أن يخشى عقاباً . وكان على الكنيسة الرومانية المجاهدة فى مثل هذه المواقف ، أن تجيب على تحدى اللغز .

فهل كان على جندى الله أن ينكر على نفسه استخدام أى شىء عدا أسلحته الروحية ؛ بما يحمله ذلك بين طياته ، من مخاطرة رؤية تقدّمه يقف عند حد لا يتعداه ؟

أو كان عليه أن يقاتل فى معركة الله ضد الشيطان باستخدام أسلحة الشيطان ذاته ؟

تقبّل هيلدبراند الاختيار الأخير وقتما عينه البابا جريجورى السادس لحراسة الخزانة البابوية ووجد قطاع الطرق يسلبونها باستمرار ، فوجه إليهم قوة مسلحة هزمتهم هزيمة منكرة .

وكان من الصعب وقت قيام هيلدبراند بإجرائه الحربى ؛ التكهّن بالطابع الخلقى الباطنى ؛ لكنه بعد انقضاء أربعين سنة عليه — أى ساعة هيلدبراند الأخيرة — أصبحت الإجابة على الأحجية أقل بالفعل غموضاً . فلقد غدت روما عام ١٠٨٥ وقتما كان يموت وهو بابا فى منفاه بدير سالبرنو ؛ ملقاة ذليلة تحت ثقل كارثة شاملة جلبتها عليها ، سياسة أسقفها قبل ذلك بعام واحد . إذ اكتسح النورمنديون عام ١٠٨٥ ، روما وأحرقوها ؛ وكانوا قد دخلوها باستدعاء البابا إبان صراع عسكرى بدأ من سلالم هيكل القديس بطرس — الخزانة البابوية — حتى شمل المسيحية الغربية بأسرها .

ولقد هيأت ذروة الصراع المادى بين هيلدبراند والإمبراطور هنرى الرابع — بعد انقضاء أكثر من قرن ونصف — توقّع عراك رهيب بين البابا إينوسنت الرابع Innocent والإمبراطور فردريك الثانى . وفى عهد بابوية إينوسنت الرابع وهو القانونى الذى استحال إلى عسكرى ، يتبدد شكّنا .

فلقد أقام هيلدبراند نفسه مذهبه الكنسى على أسلوب كان لا بد من أن يقود إلى انتصار أعدائه — أى عالم البدن والشيطان — على مدينة الرب التى كان يسعى لتمكينها فى هذه الدنيا .

« لا يقبل أى سياسى فى الحاضر كما لم يقبل قط فى الماضى
أن يُولى ثقته لمدرس ، بل والكنيسة بمراتبها
متجمعة فى المجمع المقدس
تعمل على إجلاس القديس بطرس فى كرسى قيصر
وكأنها ترجو أن تُقيم للناس الوعود التى من أجلها
أحبوا المسيح وعبدوه ، فتُرخى شريعته السماوية لتمد سلطانها الدنيوى[1]
فانحلّت سُنّته السماوية لبسط حكمها الزمنى .

وإذ وفّقنا فى تفسير كيف أن البابوية قد حل بها عفريت العنف المادى الذى كانت تسعى إلى إقصائه عنها ، نكون قد عثرنا على تفسير تغيرات الفضائل البابوية الأخرى ، إلى رذائل مغايرة لها . إذ يُعتبر إحلال القوة المادية مكان الوازع المعنوى ، هو التغيّر الجوهرى الذى تتبعه التغيرات الأخرى .

فبماذا يفسّر مثلا ، أن الكرسى البابوى الذى كان اهتمامه بالمسائل المالية لرجال الدين إبان القرن الحادى عشر ، محوره استئصال السيمونية ، أن ينغمس قلبا وقالبا فى توزيع الأسلاب لحساب مرشّحيه ، ثم يحصل فى القرن الرابع عشر لحسابه هو ، على تلك الإيرادات الكنسية التى استردت مكانها ذات مرة من فضيحة الخضوع إلى السلطات الحكومية لشراء المنصب الدينى العالى ؟

---

(١) الفصل الرابع — القسم الثانى : صفحات ٢٥٩ — ٦٤
Bridges, Robert : The Testament of Beauty

الرد بسيط ، مؤداه اتجساه البابوية صوب الحرب ، والحرب تقتضي المال .

وتعتبر نتيجة الحرب الكبرى بين بابوات القرن الثالث عشر وأسرة هوهنستوفن الملكية Hohenstaufen ، النتيجة المعتادة لجميع الحروب الشعواء ، التي يستمر القتال فيها إلى النهاية المرة . ويوفق الفائز الأخير في توجيه ضربة الموت إلى ضحيته ، على حساب مكابدته هو نفسه أضرارا قاتلة . أما الفائزون الحقيقيون على كلا المتحاربين فهم المحايدون الهانئون[١] . ومصداقا لذلك ، فإنه عندما اندفع البابا بونيفاس الثامن بعد وفاة فردريك الثاني ، ضد ملك فرنسا ، يستخدم الصاعقة البابوية التي نسفت الإمبراطور[٢] ، كانت الأحداث قد دلت على هبوط البابوية نتيجة لصراع ١٢٢٧/٦٨ القاتل إلى مستوى الضعف الذي أُنزلت إليه الإمبراطورية . في حين بلغت مملكة فرنسا ، مستوى القوة نفسها التي كانت البابوية والإمبراطورية قد بلغتّها قبل تحطيم إحداهما الأخرى .

فكان أن أحرق فيليب الجميل ملك فرنسا ، الرسالة البابوية أمام كنيسة نوتردام بموافقة شعبه وكهنة بلاده . ثم نظم الملك الفرنسي عملية خطف البابا . ولما مات غرعه ، كفل انتقال كرسي الإدارة البابوية من روما إلى أفنيون . وتلا هذا فترة الأسر (١٣٠٥ — ٧٨) والانشقاق الديني (١٣٧٩ — ١٤١٥) .

ولقد باتت وراثة الأمراء لكافة التنظيم الإداري والمالي داخل نطاق أراضيهم الخاصة ، أمرا مؤكدا ، عاجلا أم آجلا . وبالمثل وراثة السلطة التي كانت البابوية تقيمها لنفسها . وكانت عملية نقل السلطة مسألة وقت .

---

(١) أي الذين وقفوا بعيدا عن مكان المعركة . (المترجم)

(٢) أي الإمبراطور هنري الرابع . (المترجم)

وبطالعنا فى هذا الشأن ، كما لو كانت معالم الطريق : الشرائع[1] الإنجليزية (١٣٥١ ميلادية) ، وقانون اتهام معضدى السلطان البابوى (١٣٥٣ م) ؛ والحقوق التى أجبرت البابوية على التنازل عنها فى فرنسا وألمانيا بعد ذلك بقرن ثمن عدم تأييد الدولتين لمجمع بازل ، والاتفاقية الفرنسية البابوية عام ١٥١٦ ، وقانون السيادة الإنجليزى الصادر عام ١٥٣٤ .

وتم انتقال الامتيازات البابوية إلى الحكومات ، قبل « الإصلاح » بمائتى سنة ، وأنجزت فى الدول التى لبثت كاثوليكية وفى الدول التى أصبحت بروتستانتية على السواء . وشاهد القرن السادس عشر استكمال العملية . ولم يكن بالطبع أمرا عارضا ، أن يشاهد نفس القرن كذلك ، وضع الأسس التى شيدت عليها « الدول الجماعية » فى العالم الغربى الحديث . وأخطر عناصر هذه العملية التى أوردنا بعض مظاهرها الخارجية ؛ تتمثل فى انتقال الولاء من الكنيسة المسكونية ، إلى هذه الدول الاقليمية .

وهذا السلطان على القلوب ، كان أثمن الغنائم التى حصلت عليها الدول المستخلفة ، من النظام الأعظم الأنبل الذى تهينه . فلقد استطاعت هذه الدول المستخلفة أن تظل على قيد الحياة بفضل هيمنتها على ولاء الناس ، وهو أمر أهم كثيراً من جبايتها الضرائب وتكوينها الجيوش .

بيد أنه يتبين باستخدام نفس القياس ، أن هذا التراث الروحى الذى انتزعته الدول الإقليمية من كنيسة هيلدبراند ؛ هو الذى أحال نظام الدولة الإقليمية الذى كان فيما مضى شيئاً نافعاً ، إلى شيء يهدد الحضارة ، مثلما هو حادث فى الوقت الحاضر . ذلك لأن روح الولاء التى كانت طاقة مبدعة منعمة ، وقتما وجهت عبر مناهج دينية تتجه إلى الله تعالى ؛ قد

---

(٢) تعرف هذه الشرائع باسم Pralmunire ؛ وكانت تعنى فى الأصل إبان القرون الوسطى « إعلان قضائى » . ثم أطلقت فى انجلترا على القوانين التى أصدرها البرلمان لتقييد سريان السلطة البابوية فى انجلترا . وقد صدر أول هذه القوانين عام ١٣٥١ . ويعتبر قانون ١٣٩٢ أهمها لأنه منع الإنجليز من الحصول على صكوك الغفران من روما . (المترجم)

تحلّلت إلى قوة مدمّرة وقتما صدفت عن هدفها الأصيل الذى قُدّم قربانا إلى أصنام صنعتها أيدى البشر . فإن الدول الإقليمية وفقاً لتعريف أسلافنا فى القرون الوسطى ، هى نظم من صنع الإنسان ، وتستحق منا نظرا لمنفعتها وضرورتها ، نفس العمل المتسم بالوعى ، لكنه يخلو من الحماس . مثله مثل الواجبات الاجتماعية العادية التى تؤديها فى عصرنا المجالس البلدية والمحلية . ومن ثم فإن الكلف بهذه القطع من الآلة الاجتماعية ، يعنى السعى إلى وقوع الكوارث .

وعسانا الآن قد وجدنا بعض الرد على السؤال عن كيفية معاناة البابوية لكارثتها الغير العادية . لكن لم نفسّر السبب عند وصفنا العملية .

فما هو سبب صيرورة بابوية القرون الوسطى عبدا لأدواتها ، وما هو سبب سماحها بأن تنحرف إلى استخدام الوسائل المادية فى غايتها الروحية ، مع أن تلك الوسائل لم توجد فى الأصل إلا لخدمة تلك الغايات الروحية ؟

ظاهر أن التفسير يكمُن فى نتائج أسفر عنها انتصار أوّلى مشئوم . إذ ترتب على توفيقها فى بدء الأمر توفيقاً أكثر من اللازم ؛ بروز نتائج مميتة عن اللعبة الخطيرة القائمة على مقابلة القوة بالقوة . وإذا كان قد أمكن تبرير استخدام القوة فى حدود معينة ، ربما تستطيع البديهة التكهن بها ؛ إلا أنه قد يستحيل تعيين موضع استخدام القوة تعيينا واضحا .

ومصداقا لذلك ؛ أسكرت نشوة النجاح ،جريجورى السابع (هيلد براند) وخلفائه فى مناورتهم المحفوظة بالمخاطر إبان مراحل صراعهم الأولى ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فأغرتهم تلك النشوة بالمثابرة على استخدام القوة ، إلى أن أصبح الانتصار على هذا الصعيد الغير الروحى ، هدفا فى حد ذاته . وبالحرى فإذا كان جريجورى السابع هو قاتل الإمبراطورية بغية التخلص من حائل إمبراطورى يقف أمام إصلاح الكنيسة ، فإن اينوسنت الرابع قد قاتل الإمبراطورية بغية تدمير سلطة الإمبراطور الذاتية .

فهل فى مُسكنتنا التعرف على النقطة الخاصة التى انحرفت عندها سياسة هيلد براند . أو باستخدام لغة التقليد الأقدم ؛ انصرفت عندها عن الطريق السوى الضيق ؟

فلنحاول أن نتبين التاريخ الذى حدث عنده هذا التحول الخاطئ .

ما جاءت سنة ١٠٧٥ حتى قُيّض النجاح فى أنحاء العالم الغربى للمعركة الدينية المزدوجة ضد الفساد الجنسى والمالى فى أوساط رجال الدين . فظفرت الشجاعة المعنوية للبابوية الرومانية بنصر مؤزرّ ؛ ميدان كانت فيه سمعتها قبل ذلك بنصف قرن فقط ، من أسوأ ما عُرف . ويرد هذا النصر إلى هيلد براند نفسه . فإنه قد قاتل فى سبيل إحراز النصر سواء فى مناطق ما وراء الألب أم خلف العرش البابوى ، إلى أن حمله جهاده فى نهاية الأمر إلى المنصب الذى رفعه من الوحل . كما أنه قاتل بكل سلاح وصل إلى يده ، ماديا كان أم روحيا . واتخذ هيلد براند عند لحظة انتصاره فى السنة الثالثة لحكمه – باعتباره البابا جريجورى السابع – خطوة يستطيع المدافعون عنه عرضها قائلين إنه كان لا مناص بالمرة من اتخاذها ؛ فى حين يعرضها نقاده – بما لا يقل منطقا – على نهايتها بكارثة حتمية . فلقد نقل فى تلك السنة ميدان المعركة ضد التسرّى والسيمونية[1] – وحقـه فى محاربتهما ثابت لا يُمارى فيه – إلى معركة ضد اشتراك الأمراء فى تنصيب رجال الدين أو ما يدعى اصطلاحا « تلبيسهم » ؛ وكان حقه فى هذه المعركة مما يقبل المناقشة .

ولقد يمكن تبرير الصراع حول مسألة « التلبيس » من الوجهة المنطقية بأنه نتيجة حتمية للمنازعات حول التسرّى والسيمونية ، لو نظر إلى أنواع الصراع الثلاثة ، كصراع فى سبيل تحرير الكنيسة . ولعل القتال لتحرير

(١) السيمونية هى الاتجار بالمقدسات والمصافقة فى الرتب والوظائف . (المترجم)

الكنيسة من فينوس وممون[١] ، كان يبدو لهيلدبراند عند هذه النقطة جهداً ضائعاً ، إن تركها مقيّدة فى خضوعها السياسى للأمراء : فما دامت ترسُف فى هذا القيد الثالث الثقيل ، أفلا يحول ذلك بينها وبين إنجاز رسالتها السماوية المعينة المتصلة بالتجديد الروحى للبشرية ؟

بيد أن هذه الحجة تفتقر إلى سؤاله يحق لنقاد هيلد براند توجيهه بطريقة أو بأخرى وإن لم يكن فى وسعهم الرد رداً حاسماً عليه بحكم طبيعة الأشياء . وهذا هو السؤال :

هل كانت الأحوال عام ١٠٧٥ تُبيح لأى شاغل للعرش البابوى بعيد النظر أو قوى الإدراك ، إن يفترض انتفاء احتمال قيام تعاون مخلص مثمر ، بين الفريق الراغب فى إصلاح الكنيسة ، كما تمثله العشيرة الرومانية ؛ وبين الحكومة فى المجتمع المسيحى كما تمثله الامبراطورية الرومانية المقدسة ؟

يقع على كاهل المنتصرين لهيلد براند عبء البيّنة وذلك لاعتبارين اثنين على الأقل :

الأول : مداره أن هيلد براند ومشايعيه على السواء ، لم يسعوا لإنكار حق السلطات الحكومية فى نصيب من إجراءات انتخاب موظفى الكنيسة ابتداء من البابا نفسه ، سواء قبل مرسوم ١٠٧٥ الخاص بتحريم تدخل هذه السلطات أو بعده .

الثانى : مبناه أن الكرسى الرومانى كان يعمل فى غضون الثلاثين سنة المنتهية عام ١٠٧٥ متعاونا تعاونا وثيقاً مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة بالنسبة للنزاع الأقدم حول الموضوعات المتصلة بالتسرى والسيمونية .

ويجب التسليم بأن تعاون الإمبراطورية فى هذه المهام قد ضعُف بعد وفاة الإمبراطور هنرى الثالث بقليل ، كما ينبغى أن نسلّم بأن سلوك هنرى الربع لما بلغ تلك السن عام ١٠٦٩ لم يكن محموداً . وفى ظل تلك

---

(١) فينوس هى ربة الجمال فى الأساطير اليونانية . والممون Mammon (من الأرامية) هو الغنى المتكالب على المال . ويعنى المؤلف هنا التحرر من رق الجمال والمال . (المترجم)

الظروف سلكت البابوية سياسة الحدّ من تدخل السلطات الحكومية ، أو منعها ، فى أمر تنصيب رجال الدين فى الوظائف الكنسية . ولعل هذا الإجراء يمكن تبريره ، لكن يجب التسليم بأن ذلك اتسم بالطابع الثورى . ولوكان هيلدبراند رغما عن الاستفزازات ، قد كفّ عن التحدى عام ١٠٧٥ لأمكن تصوّر استعادة العلاقات الحسنة .

ومع هذا فمن العسير دفع الرأى القائل بأن هيلدبراند قد انساق وراء عمل أرعن هو إحدى سمات صفة « الحمق » . كذلك من اليسير دفع الفكرة القائلة بأن بواعثه النبيلة قد اختلطت بها رغبة الانتقام من الدولة الإمبراطورية بسبب المذلة التى أنزلتها بباوية متحللة فى مجمّع سوترى عام ١٠٤٦ . ويؤيد هذه الفكرة الأخيرة حقيقة مؤداها أن هيلد براند اتخذ لنفسه عندما تولى أمر البابوية ، اسم جريجورى وهو الذى كان يحمله البابا الذى خُلع فى تلك المناسبة .

وكانت إثارة مسألة « التلبيس » ، بطريقة تتسم بغلبة الروح الحربية ؛ مؤدّية حتما إلى تفاقم الخلافات بين الإمبراطورية والبابوية . وذلك لأن جانب الحق فى هذه المسألة كان أقل وضوحاً من سابقيه اللذين لم ينبن عليهما نشوب النزاع وجها لوجه بين السلطتين الروحية والدنيوية .

ويرد عدم وضوح جانب الحق فى هذه المسألة ، إلى حقيقة تفسيرها ما يلى :

أولا : كان المتّبع حتى عصر هيلد براند أن يتطلب تعيين موظفى الكنيسة ذوى الرتبة الأسقفية ، مصادقة عدة جهات مختلفة . وكان من قواعد النظام الكنسى البدائية ، أن يتم انتخاب الأسقف بوساطة كهنة أبروشيته وشعبها ، وأن تتم رسامته بوساطة عدد محدود من أساقفة المقاطعة . ولم تحاول السلطة الأميرية قط منذ قيام النظام بعد تحوّل الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية ، أن تسلب امتيازات الأساقفة من هذا النوع ،

أو أن تتحدى على أية حال من الوجهة النظرية حقوق الكهنة والشعب الانتخابية . وانحصر الدور الذى كانت تؤديه السلطة الأميرية بحكم الواقع ودون إخلال بمسألة معنى الموقف من الناحية القانونية ، فى ترشيح المرشحين وفى ممارسة حق الاعتراض على الانتخابات . وظاهر أن هيلدبراند نفسه قد اعترف بهذا الحق فى أكثر من مناسبة .

ثانياً : وفضلا عن ذلك ، فإن القضية التقليدية لممارسة درجة ما من هيمنة السلطة الأميرية على التعيينات الكنسية ، قد عززتها منذ القرن الحادى عشر اعتبارات تتسم بمنحاها العملى . مدارها أن رجال الكنيسة لبثوا وقتا طويلا ، وبدرجة تتزايد يوما عن آخر ، يقومون بالواجبات الدنيوية والدينية على السواء . ولم يحل عام ١٠٧٥ حتى كان أكثر وظائف بلاد المسيحية الغربية فى أيدى رجال الدين الذين كانوا يحتفظون بهذه السلطة ، بفضل الالتزام الإقطاعى . ويترتب على ذلك أن إعفاء رجال الدين من « تلبيس » الأمراء إياهم ، كان معناه هدم سلطان الأمراء فى أماكن كثيرة داخلة فى سلطانهم . وبذلك تتحول الكنيسة إلى سلطة مدنية بالإضافة إلى قوتها الدينية ، فتصبح من ثم دولة داخل دولة[1]، ولا جدوى فى الإشارة إلى أن هذه الواجبات المدنية كان يمكن إحالتها إلى المديرين من غير رجال الدين . فلقد كان كلا فريقى النزاع ، مدركين تماما عدم وجود رجال قادرين من غير رجال الدين على تولى أعباء مثل تلك الواجبات .

وتبدى النتائج البعيدة المدى التى ترتبت عن فعل هيلدبراند ، خطورة هذا الفعل . فإن هيلدبراند قد جازف فى هذه المسألة بكل النفوذ الذى كان قد ظفر به للبابوية فى غضون الثلاثين سنة السابقة . وحقاً كانت سيطرته على ضمائر جماهير المسيحية فى مناطق ما وراء الألب الخاضعة

---

(١) Imperium in imperio

للإمبراطور هنرى الرابع قوية بدرجة كافية – مقترنة بجراب السكسون – لحمل الإمبراطور على المجيء إلى كانوسا[1] .

إلا أنه وإن كانت كانوسا قد أصابت الكرامة الإمبراطورية بضربة لم تفق منها تماماً ، إلا أن ما حدث بعد ذلك لم يكن نهاية الخلاف ، بل تجديد المعركة . فإن خمسين عاما من النزاع ، قد حفرت ثلمة بلغت من الاتساع والعمق ، لم يكن ليتأتى سدها بإجراء تفاهم سياسى حول الموضوع الذى نشأ النزاع بسببه . ومصداقاً لذلك ، كان من المتيسر تحطيم حدة النزاع حول تولى المناصب بعد إبرام الاتفاق الودى المعقود عام ١١٢٢ ، لولا أن الخصومة التى ولدها النزاع ، أصبحت تتعثر فى سيرها بمسائل جديدة تجمع بين غلظ قلوب الناس وعناد مطامعهم .

وإذا كنا قد فحصنا قرار هيلد براند عام ١٠٧٥ فى شيء من الإطالة . فلأننا نعتقد بأنه كان القرار البالغ منتهى الدقة الذى تشكل جميع ما جاء بعده . فإن هيلد براند قد حملته نشوة النصر على التنكر للنظام الذى رفعه هو نفسه من خفض الخزى إلى أعالى العظمة ، لكنه سلك الطريق المعوج . ولم يتمكن أى من خلفائه من استعادة الطريق السليم .

ولا نحتاج إلى متابعة القصة فى تفاصيل أخرى أبعد من ذلك . إذ يعتبر عهد بابوية إينوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) بمثابة النصر الأنطونى أو الصيف الهندى لبابوية هيلد براند . بيد أن مركز ذلك البابا المتفوق ، يرجع إلى ظروف عرضية مثل مصادفة تولى أباطرة قاصرى السن من أسرة هوهنستوفن Hohenstaufen كما تقتصر سيرته على إبداء حقيقة مدارها أن الإدارى الممتاز قد يكون سياسياً قصيرة النظر .

---

(١) كانوسا Canossa : مدينة بإيطاليا بها بقايا قلعة وفد إليها فى يناير ١٠٧٧ م الإمبراطور هنرى الرابع ذليلا ليظهر خضوعه للبابا جريجورى السابع . وهذا الحدث هو أصل عبارة « يذهب إلى كانوسا » ، ويعنى إذلال الإنسان نفسه أمام إنسان آخر سبق أن قاومه .

(المترجم)

ومن ثم ، فقد تلا هذا نشوب حرب بابوية اتسمت بتطرفها ، ضد الإمبراطور فردريك الثانى وفرعه . ولكن الحرب انتهت بمأساة أناجنى[١] Anagni التى كانت بمثابة إجابة فظة أجاب بها الأمراء على حادثة كانوسا Canossa . وأنتجت هذه الإجابة أسر البابا والانشقاق الدينى ، ثم انبعاث النزعة البرلمانية العقيمة لحركة مجالس الكنيسة الكاثوليكية[٢] فى غضون فترة الإصلاح ، والصراع غير البات وإن اتصف بالعنف ، الذى افتتحه الإصلاح الكاثوليكى .

وكانت نهاية مطاف التطور ، إبطال نفوذ البابا الروحانى ، إبان القرن الثامن عشر ، ونزوع الغرب إبان القرن الثالث عشر إلى مناهضة الحرب .

على أن النظام الفذ قد عاش[٣] فى هذه الساعة الحاسمة التى نعيش فيها . فإنه من المناسب والإنصاف أن يستنجد بنائب المسيح ، ليذود عن لقبه الرائع جميع الرجال والنساء الذين تمثلوا باسم المسيح ، باعتبارهم ورثة نفس الطائفة التى اعتنقت أسلوب الحياة الغربية .

---

(١) أناجنى Anagni : كانت مدينة هامة أيام العصور الرومانية . وأصبحت أسقفية منذ عام ٤٨٧ م . وتوجد بها بقايا قصر البابا بونيفاس الثانى . (المترجم)

(٢) يرجع العهد بالمجامع الدينية فى العقيدة المسيحية منها إلى القرن الثانى الميلادى ثم تتابع انعقادها منذ هذا الحين لحل المشكلات التى تجابه المسيحية . وأهم تلك المجالس مجمعا نيقية والقسطنطينية الأولان لتحديد « ألوهية » الروح القدس . ومجمع « أفسوس » (عام ٤٣١) لمناهضة الآراء النسطورية ومنح لقب أم الإله السيدة مريم . ومجمع نيقية الثانى عام ٧٨٧ م لمناقشة مسألة تقديس تماثيل القديسين وصورهم . ولما حدث الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، دأبت كل من الكنيستين على عقد المجامع الدينية وآخر هذه المجامع (وعددها عشرون فى الكنيسة الغربية) مجمع عقد بالفاتيكان عام ١٨٦٩ ، وتقررت فيه عصمة البابا .
(المترجم)

(٣) نوه أحد كبار الأدباء المعروفين من الروم الكاثوليك فى محادثة خاصة (وبالتالى لا يمكن التصريح باسمه) أنه يعتقد أن الكنيسة الكاثوليكية من صنع الله . والدليل على ذلك أنه لا يتأتى لأى نظام من صنع البشر فقط أن يبقى أكثر من أسبوعين بمثل هذا التوجيه ، المتسم بالبلاهة المجرمة . (الملخص)

ألم يقل معلم بطرس نفسه[١] إنه « إلى أى كائن يعطى الكثير ، سيطالب منه بالكثير وأى من الناس يوكل إليه الكثير ، سيطالبونه بالكثير » ؟

ولقد استودع أسلافنا حبر روما ، مصير المسيحية الغربية التى كانت جماع ركازهم . وعندما لا يهيئ ذلك الخادم الذى يعرف سيده نفسه وفقا لرغبة السيد وعوقب بسبب ذلك بكثير من الجلدات ؛ نجد هذه الضربات قد تسقط بنفس الثقل على أجسام « الخادمين والخادمات » الذين أوكل إلى نفوسهم أمر المحافظة على خادم خدام الرب[٢] . إن العقاب الذى حل بالخادم بسبب حماقته ، قد تجاوزه إلينا . وتقع على من قادنا إلى هذا المضيق ، مسئولية تخليصنا منه ، أيا ما نكون أمرنا : كاثوليك أو بروتستانت ، مؤمنون أو غير مؤمنين .

فهل لو فرض أن ظهر فى هذه اللحظة الحرجة هيلد براند ؛ فهل يكون مخلصنا هذه المرة مسلحا بالحكمة التى تتولد عن الألم ، ضد سكرة النصر التى دمرت العمل العظيم للبابا جرجورى السابع ؟

---

(١) أى السيد المسيح عليه السلام وجدير بالذكر أن بابوات روما يقررون بأنهم خلفاء القديس بطرس . (المترجم)

(٢) Servuservorum وهو لقب يطلق على البابا . (المترجم)

الباب الخامس

تحلل الحضارات

الفصل السابع عشر

طبيعة الانحلال

١ — عرض عام

بمرورنا من انهيار الحضارات إلى انحلالها ، علينا أن نواجه سؤالا مثل الذى جابهناه ، وقتما عبرنا طريق الحضارات من بداياتها إلى ارتقاءاتها .

فهل الانحلال مشكلة جديدة تقوم بذاتها ، أو هل يمكننا التسليم جدلا على سبيل الفرض بأنه نتيجة طبيعية للانهيار لا مفر منها ؟

عندما بحثنا السؤال الأسبق عما إذا كان الارتقاء مشكلة جديدة ، تفترق عن مشكلة بدء الحضارة ، انتهى بنا الحال إلى الرد بالإيجاب . وتم ذلك بفضل الكشف عن عدد من الحضارات المتعطلة التى حلت مشكلة البدء ، لكنها أخفقت فى إيجاد حل لمشكلة الارتقاء .

وفى مكنتنا فى هذه المرحلة التالية من دراستنا ، أن نواجه السؤال المماثل بنفس الرد الإيجابى . ومداره الإشارة إلى ما كابدته طائفة من الحضارات ، من تعطل مماثل عقب الانهيار ، ودخولها مرحلة من التحجّر طويلة الأمد .

ويطالعنا المثال التقليدى للحضارة المتحجّرة ، فى مرحلة من تاريخ المجتمع المصرى التى سبق أن أتيحت لنا فرصة النظر فيها . فإنه بعدما انهار المجتمع تحت العبء الجسيم الذى فرضه عليه بناة الأهرام ، وبعدما اجتاز المرحلة الأولى فالثانية إلى الثالثة من مراحل الانحلال[1] ، نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح ، يرتحل بغتة . ويرتحل — عكس المنتظر — فى اللحظة التى

---

(١) بيان المراحل الثلاث : عصر اضطرابات ، دولة عالمية ، فراغ . (المؤلف)

كان يستكمل خلالها – كما هو ظاهر – سير حياته ، على الوجه الذى تبينه لو اتخذنا المثال الهليني مقياسا . وهو المثال الذى تراءت لنا فيه هذه المراحل الثلاث للمرة الأولى . بيد أن المجتمع المصرى أبى عند هذه النقطة أن يموت ، ومضى يُضاعف فترة حياته .

وإذا ما حسبنا مقياس زمن المجتمع المصرى لحظة رد فعله الاستثارى ضد النزاة الهكسوس إبان الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى طمس آخر معالم الثقافة المصرية فى القرن الخامس الميلادى ؛ نجد أن فترة الألفى سنة هذه ، تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصرى مع ارتقائه وانهياره والجانب الأعظم من فترة انحلاله . وتحسب هذه الفترات مجتمعة ، من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصرى نفسه توكيدا حماسيا إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى انبثاقه لأول مرة فوق المستوى البدائى فى تاريخ ما غير معروف خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . بيد أن حياة المجتمع المصرى فى غضون الصنف الثانية من بقائه ، كانت نوعا من « الموت فى الحياة » . وفى خلال هاتين الألفى سنة اللتين تعتبران زائدتين عن المقدر فى حياة المجتمع المصرى ، أخذت حضارته التى خفلت حياتها الجارية بالحركة والمغزى ، تتباطأ فى فتور وتعطل . وفى الواقع عاش المجتمع المصرى بفضل صيرورته متحجرا .

ولا يقتصر الأمر على هذا المثال وحده :

فإذا ما ولينا وجهنا شطر تاريخ الكيان الأساسى لمجتمع الشرق الأقصى فى الصين – حيث قد تعادل لحظة الانهيار مع انفضاض إمبراطورية تانج فى الربع الأخير من القرن التاسع الميلادى – يصبح فى وسعنا تتبع عملية الانحلال التى تلت سيرها المعتاد عبر « عصر اضطرابات » صوب « دولة عالمية » . لكنها لم تلبث إلا قليلا حتى انتزعها فى غمار هذه المرحلة ، رد فعل نفس النوع الذى يتسم بتقلقله واندفاعه ، على غرار رد الفعل المصرى

على الغزاة المكسوس . فالواقع تُذكرنا – إلى حد كبير – الثورة الصينية الجنوبية تحت زعامة هونج وو Hung wu مؤسس أسرة مينج ضد دولة الشرق الأقصى العالمية التى أقامها برابرة المغول ، بثورة طيبة تحت زعامة أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشر ضد الدولة « المستخلفة » التى أقامها برابرة الهكسوس على جانب مهجور من أملاك الدولة المصرية العالمية الميتة . كما أن ثمة مشابهة مماثلة فى النتيجة ، مؤداها أن مجتمع الغرب الأقصى قد أطال بقاءه فى صورة متحجرة عوضاً عن عبوره بخفة إلى الانحلال ثم إلى التفكك باستخدام طريقة دولة عالمية تنتهى إلى فراغ .

وفى مكنتنا أن نضيف إلى هذين المثالين ، الشذرات المستحجرة لحضارات أخرى مميزة ، عرضت لناظرنا :

أولا : شذرات مستحجرة من الحضارة السندية وتتمثل فى الجين (gains) فى الهند ، وبوذية هينايانا فى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا ، وبوذية ماهيانا اللامية فى التبت ومنغوليا .

ثانياً : شذرات مستحجرة من الحضارة السورية وتتمثل فى : اليهود والبارسيين والنسطوريين والمينوفيستيين .

وإذا كنا نعجز عن توسيع نطاق قائمتنا أبعد من ذلك ، إلا أن فى مكنتنا على الأقل أن نلاحظ وفقاً لحكم ماكولى Macauley أن الحضارة الهلينية تدخل إبان القرن الثالث والرابع الميلاديين فى نطاق مسافة قابلة للقياس لحالة شبيهة بما تقدم .

كانت روح أشهر أمتين فى العصور القديمة منطوية على نفسها إلى حد ملحوظ . وتبدو حقيقة مدارها أن اليونانيين قد أعجبوا بأنفسهم فقط ، وأن الرومانيين قد أعجبوا بأنفسهم كما أُعجبوا باليونانيين . وهذا مبعثه ضيق أفق التفكير وتماثله . فكانت العقول اليونانية والرومانية – إن أمكننا التعبير عن مرادنا بهذه الكيفية – تُغذى ثم تغذى بهذه الفكرة ، فكان أن وصمت بالجدب

والتحلل . . . وتزايد الشر بفعل استبداد القياصرة الجشم ، استبداد محا كافة المميزات القومية ؛ فأدمج أقصى مقاطعات الإمبراطورية بعضها إلى بعض .

وبدت مصائر البشرية فى نهاية القرن الثالث الميلادى جرداء إلى درجة مخيفة . كانت تلك الجماعة وقتئذ ، يحفّ خطر كارثة أفظع فى هولها من الأسقام المدمرة التى تتعرض لها كل أمة : أسقام طول العمر التى تتسم بالارتجاج والتبلد والشلل . وهذا خلود يماثل خلود طبقة الخالدين struldbruy[1] فى حضارة صينية ، وقد تتيسر الإشارة إلى كثير من نقط التشابه بين رعايا دقلديانوس Diocletian وشعب تلك الإمبراطورية السماوية[2] حيث لم يكن ثمة شىء يُتعلم أو لا يُتعلم ، حيث كانت الحكومة والتعليم وحيث كان نظام الحياة بأسرها ، عبارة عن طقوس ، وحيث تتوقف المعرفة عن الزيادة والتضاعف . وتصبح مثلها مثل الموهبة المطموسة فى الأرض والجنيه المغطى فى الفوطة ، وكالتجارب التى لا هى فى فناء ولا هى فى ازدياد .

ثم كان أن تحطم السُبات بفضل ثورتين :

الأولى معنوية .

والثانية سياسية .

انبثقت الأولى من الداخل ، ووفدت الثانية من الخارج[3] .

ويتبين من عرض ماكولى ، أن الفضل فى تخلص المجتمع الهلينى من هذه الصورة الرجعية ، يرجع إلى الكنيسة وإلى البرابرة . ويعتبر هذا التخلص ، نهاية سعيدة نسبياً . بيد أنه لا يمكن التسليم بالفكرة تسليما مطلقاً . فما دامت

---

(١) struldbrug لفظ صكه سويفت مؤلف رحلات جوليفر . ويعنى عضو فى طبقة الخالدين ويولد كما يقول سويفت بعلامة خاصة على جبهته ، وعند ما تصل منه إلى الثمانين تنفق الدولة عليه . (المترجم)

(٢) أى الإمبراطورية الصينية . وكان إمبراطور الصين يلقب بابن السماء . (المترجم)

(٣) Marcanlay, Lord : Essayon History .

الحياة مستمرة – فإنها قد تأخذ فى التحجر إلى أن يدركها شلل الحياة فى الموت ، عوضاً عن قطع كلوتو Clotho[1] إياها جزازات سخية جائرة .

وما برحت فكرة جواز مداهمة ذلك العصر ، المجتمع الغربى ، تطارد فكرة أحد المؤرخين الممتازين فى جيلنا الحاضر على الأقل :

« أنا لا أظن أن الخطر الماثل أمامنا يتمثل فى الفوضى ، لكنه يتمثل فى الاستبداد وفقدان الحرية الروحية ؛ هو الدولة – لعله دولة عالمية جماعية . وقد تنبعث فوضى وقتية موضعية ، أى مرحلة عابرة ، نتيجة للصراع بين الأمم أو الطبقات . ولما كانت الفوضى أساسا ضعيفة ، فإنه فى ظل عالم تسوده الفوضى ، يُصبح بالحرى فى مكنة أية جماعة منظمة تنظيما محكما يتسم بالمنطق والإدراك العالمى ، أن تبسط سلطانها على الجماعات . وإذا كان العالم يرحب من الناحية الأخرى – بسبب تفشى الفوضى – بالدولة المستبدة ، يدخل عندئذ فترة من « التحجرالا روحى » ؛ وهذا يقود إلى فناء أوجه النشاط البشرى العليا . ولقد يبدو إزاء تحجّر الإمبراطورية الرومانية وتحجر الصين أقل صرامة . ذلك لأن الجماعة الحاكمة ستغدو لديها (فى حالتنا) وسائل للقوة العلمية أعظم » .

فهل تعرف رسالة ماكولى عن التاريخ أنه يبرهن على أن الغزوات البربرية كانت نعمة على طول المدى . لأنها قضت على التحجر إذ يقول إنه قد اقتضى أوروبا البقاء فى الهمجية ألفى سنة لتتلافى مصير الصين . ويبدو من ذلك أن ليس ثمة أجناس بربرية تدمر فى المستقبل دولة عالمية .

« ويبدو لى احتمال فتور الفلسفة والشعر فى مثل هذه الدولة ، بينما يواصل البحث العلمى تقدمه ، محققا كشوفا طريفة . إن العلم اليونانى لم ينكر بيئة العيش فى ظل دولة البطالمة . وإن العلم الطبيعى قد يزدهر بصفة

---

(١) Clotho : فى الأساطير اليونانية ؛ هو أصغر آلهة القضاء والقدر الثلاثة . وتشرف كلوتو على البشر وقت ولادتهم . (المترجم)

عامة ، فى ظل الحكم الاستبدادى . إذ قد يعمل الحاكم المستبد على تشجيع كل ما من شأنه زيادة أسباب قوة الجماعة الحاكمة ، فإن ذلك يتفق ومصلحته . ومن ثمت ، ليست الفوضى فى نظرى هى الكابوس الذى يلوح لنا ، إن لم نستكشف طريقة لإنهاء الصراع بين الإخوة القائم فى الوقت الحاضر . إن الكنيسة المسيحية ما تزال هناك ، وهى عامل يحسب حسابه . ولقد نستشهد فى عصر الدولة العالمية العتيدة . لكن ، كما أنها أجبرت الدولة العالمية الرومانية فى النهاية على أن تتقبل فى نهاية المطاف الإذعان رسميا للمسيح ، فقد يصبح فى وسعها مرة أخرى – بفضل استشهادها – غزو المنطق العلمى للدولة العالمية العتيدة »[1] .

وتُبدى هذه التأملات أن انحلال الحضارات ، يعرض مشكلة تتطلب دراستنا :

تبين لنا أثناء دراسة ارتقاء الحضارات ، إمكان تحليلها إلى مشاهد متتالية ، لمأساة التحدى والاستجابة . وإن تتابع المشهد وراء المشهد ، مرده أن الاستجابة لا توفق فحسب فى الرد على التحدى المعين الذى استثارها ، لكنها تُتخذ كذلك أداة لإحداث تحد جديد ينبثق كل مرة عن الوضع الجديد الذى هيأ له التحدى الناجح سبيل الظهور .

وبالحرى ؛ ثبت أن جوهر طبيعة ارتقاء الحضارات يتمثل فى « وثبة » تحمل الفريق المتحدى إلى التوازن الذى تتسم به الاستجابة الناجحة . ثم تتجه منه إلى وضع غير متوازن يمثل نفسه تحديا جديداً يتطلب استجابة بالمثل . أما فكرة انحلال الحضارة ؛ فإن قوامها بالمثل ، تكرار التحدى هذا أو تواتره . لكن الاستجابات تفشل هنا ، عكس نجاحها فى حالة ارتقاء الحضارة . ويترتب على ذلك بروز التحدى المرة بعد الأخرى ، عوضا عن نشوء سلسلة من التحديات يختلف إحداهما فى طابعه عن سلفه ، الذى سبقت مجابهته بنجاح ،

---

(١) دكتور ادوين بيفان فى رسالة إلى المؤلف .

التاريخ . فنى مكنتنا مثلا أن نشاهد فى تاريخ سياسات العالم الهلينى الدولية ، منذ العصر الذى جابهت فيه ثورة صولون الاقتصادية المجتمع الهلينى بمهمة إقامة نظام سياسى دولى ، إن اخفاق المحاولة الاثينية لحل المشكلة عن طريق إقامة عصبة « دليوس Delian League » قد أدت إلى محاولة فيليب المقدونى حلها بإقامة عصبة كورنث Corinthain League . ودفع فشل فيليب إلى محاولة أغسطس حلها بإنشاء الامبراطورية الرومانية التى عززت كيانها باقتباس بعض سمات الحكم الجمهورى(١)

وتقتضى طبيعة الموقف ، وجود عنصر التكرار فى نفس التحدى . فإن حدث أن ترتبت الهزيمة عوضا عن إحراز النصر فى الاصطدام تلو الاصطدام ؛ لن يتيسر التخلص قط من التحدى الغير المجاب . ويرتبط الموقف بمسألة عرض التحدى نفسه المرة بعد الأخرى ، إلى أن يقيّض له أن يتلقى : إما نوعا من الرد البطىء والقاصر ، وإما أن يقود الاصطدام إلى دمار ذلك المجتمع الذى يُبدى عجزه التام عن الاستجابة له استجابة فعالة .

فهل نستطيع القول إذن بأن بديل التحجر هو الإبادة التامة المطلقة ؟

لعلنا نذكّر أنفسنا قبل الرد بالإيجاب ، بعملية التبنى وثبوت النسب التى لاحظناها فى مرحلة مبكرة من هذه الدراسة . ولعل التطلع إلى النهاية الصولونية وإيقاف الحكم فى الوقت الحاضر ، هو أحكم طريق .

ولقد بدأنا فى دراستنا عملية ارتقاء الحضارة ، بالبحث عن مقياس للارتقاء قبل محاولتنا تحليل العملية . وسنتبع نفس الخطة فى دراستنا عوامل الانحلال . على أن فى مكنتنا أن نوفر على أنفسنا خطوة جدلية مدارها إهمال عامل السيطرة المتزايدة على البيئة البشرية أو الطبيعية من بين عوامل انحلال الحضارات ؛ بسبب انتفاء مقاييس الارتقا منها .

---

(١) Principate .

وحقاً ، يوحى الإثبات القائل بأن تعاظم السيطرة على البيئات يعتبر - مهما يكن من أمره - شيئاً ملازماً للانحلال ، أكثر منه قرينة على الارتقاء . وصداقاً لذلك ، فإن فى مكنة النزعة الحربية - فى الغالب - وهى ظاهرة مشتركة بين الانهيار والانحلال - أن تقود إلى سيطرة المجتمع ، على المجتمعات القائمة الأخرى وعلى قوى الطبيعة الجامدة على السواء . ولعل فى انحدار سبيل الحياة المألوف لحضارة منهارة ، ما يؤيد صدق قول هراقليتس Heracleitus الفيلسوف الأيونى « إن الحرب هى أبو جميع الأشياء » . ولما كانت التقديرات العامية للهناءة البشرية تحسب على أساس القوة والثروة ، فغالباً ما تجد الفصول الافتتاحية فى انحدار دراى لمجتمع من المجتمعات ، ترحيباً شعبياً ، باعتبارها فصولا بالغة الذروة فى ارتقاء جليل .

بيد أنه لا مناص من أن يستتبع ذلك ، زوال الوهم . ذلك لأن المجتمع الذى أصبح ينقسم على نفسه بشكل يستعصى معه على العلاج ، هو مجتمع يتجه بكل تأكيد إلى العودة إلى تكريس الجانب الأعظم من تلك الموارد الإضافية ، بشرية ومادية لـ « مشروع الحرب » وهى الموارد التى يسلمها نفس المشروع وديعة إلى المجتمع . ونجد - من قبيل المثال - أن الحروب الأهلية التى حدثت فى القرن الأخير قبل الميلاد ، قد استنفدت الطاقتين المالية والبشرية اللتين توافرتا بفضل فتوحات روما فى القرن الثانى قبل الميلاد .

وبالأحرى ، يجب البحث عن قاعدة عملية الانحلال العتيدة فى مكان آخر : ويتمثل المفتاح ، فى مشهد ذلك الانقسام والاختلاف داخل مجتمع ، يتيسر فى الغالب تتبع أية زيادة تطرأ فى سيطرة على بيئته . وهذا ما يجب علينا توقعه ليس إلا . ذلك لأنه سبق أن وجدنا أن قاعدة الانهيارات وعلتها الأساسية التى تسبق الانحلال فى زمن الحدوث ، مدارها تفشى الخلافات الداخلية التى تفقد خلالها المجتمعات ملكة تقرير المصير .

وتمزق الانشقاقات الاجتماعية التى يتبدى فيها هذا الخلاف ، المجتمع المنهار ،

بصفة جزئية ، فى بعدين يختلف أحدهما فى وقت الحدوث عن الآخر :

أولا : الانشقاقات الرأسية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً .

ثانياً : الانشقاقات الأفقية بين الجماعات المتمازجة جغرافياً ، لكنها منعزلة اجتماعياً .

أما عن النوع الرأسى من الانشقاق . فلقد سبق أن رأينا كيف أن التردى المتهور فى إثم الحرب الداخلية ، يعتبر الأسلوب الأساسى لفعل الانتحار . بيد أن هذا الانشقاق الرأسى ليس هو المظهر المميز للاختلاف الذى مهد السبيل إلى انهيار الحضارات . ذلك لأن ترابط مجتمع من المجتمعات ضمن جماعات محصورة ؛ هو قبل كل شيء ، مظهر معروف لجنس المجتمعات البشرية كافة سواء أكانت المجتمعات متحضرة أو غير متحضرة . وتعتبر الحرب الداخلية مجرد سوء استخدام لأداة التخريب الذاتى المتاحة ، والتى هى فى متناول أى مجتمع فى أى وقت .

وليس الانشقاق الأفقى لمجتمع وفقاً للأسس الطبقية — من الناحية الأخرى — غريباً على الحضارات ، لكنه كذلك ظاهرة تنبدي لحظة انهيارها . وهي علامة مميزة لفترات الانهيار والانحلال . وتختفى تلك الظاهرة على العكس ، إبان مرحلتى بدء الحضارات وارتقائها .

ولقد صادفنا فعلا هذا النوع من الانشقاق . قابلناه وقت ارتيادنا فى وضع عكسى امتداد المجتمع الغربى فى الزمن . فوجدنا أنفسنا منقادين صوب الكنيسة المسيحية وعدد من عصابات الحرب البربرية التى اصطدمت بالكنيسة الغربية داخل الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية . ولاحظنا أن كلا من العصابات البربرية والكنيسة ؛ قد أوجدتها جماعة اجتماعية لم تكن هى فى حد ذاتها ، ترابطا للكيان الاجتماعى الغربى ؛ لكن يتأتى وصفها فقط بالاستعانة بمجتمع آخر سابق على المجتمع الغربى ، هو الحضارة الهلينية . ووصفنا مبتدعى الكنيسة المسيحية ، بأنهم بروليتاريا المجتمع الهلينى

الداخلية . ووصفنا منشئ عصابات البرابرة الحربية ، بأنهم بروليتاريا هذا المجتمع الخارجية .

وأظهرت لنا متابعة أبحاثنا أبعد من ذلك ، أن كلا هذين النوعين من البروليتاريا ، قد انبثقا عن أفعال الانفصال عن المجتمع المليني فى غضون « عصر اضطرابات » . وفى خلال هذا العصر ، توقف المجتمع المليني – بشكل واضح – عن مواصلة دوره الإبداعى ، فقد كان فى الواقع فى دور انحداره .

ولما دفعنا بحثنا إلى مرحلة أبعد من ذلك ، تبين أن أفعال الانفصال السالفة الذكر ، قد أظهرها إلى العيان تغيّر فى مظهر العنصر الحاكم ، تغيّر طرأ قبل ذلك على الجسم الاجتماعى المليني . فإن « الأقلية المبدعة » التى قُيّض لها ذات مرة ، أن تذلل قيادة الجمهرة العاطلة عن الإبداع ، قد تركت مكانها الآن لأقلية مسيطرة ، بعيدة عن الغرور ، بسبب تجرّدها من الفتون . ويردّ تجرّدها هذا إلى عطلها عن الابتداع .

وأمكن لهذه الأقلية المسيطرة الاحتفاظ بمركزها المميز ، باستخدام القوة . لكن انبنى على استخدام القوة ، رد فعل تمثّل فى حدوث أفعال انفصال انتهى الأمر بها أخيراً إلى انبعاث العصابات الحربية والكنيسة المسيحية .

وإذا كانت الأقلية المسيطرة قد أخفقت فى تحقيق ما هدفت إليه من المحافظة على تماسك مجتمعها – باستخدام وسائل ملتوية فكان أن تصدعت عُمُد هذا المجتمع – إلا أنها خلّدت ذكراها فى عمل وحيد فذ هو إقامتها الإمبراطورية الرومانية التى اتخذت شكلها المميّز قبل ظهور الكنيسة والعصابات العسكرية البربرية على السواء . وكان مقامها المكين فى العالم الذى ترعرع فيه هذا النظامان ، عاملا فى ارتقائهما على السواء . وهو عامل لا يمكن إغفاله من الحسبان . لأن الدولة العالمية ، التى غلّقت فيه نفسها

الأقلية الهلينية المسيطرة ، كان مثله مثل درع سلحفاة هائلة تربت الكنيسة في ظله ، ودرب البرابرة عصاباتهم الحربية بشحذ مخالبهم على سطح صدفتها الخارجية .

وأخيراً ، حاولنا في نقطة تالية من هذه الدراسة ، الحصول على مشهد أوضح عن ارتباط السبب بالنتيجة : أي عن مدى الترابط بين فقدان الأقلية القائدة ملكتها الإبداعية ، وفقدانها — بفعل استخدامها القوة — خاصية اجتذاب الأغلبية لاقتفاء أثرها الأقلية بفضل افتتانها بها . وهنا وضعنا أصبعنا على الوسيلة التي استخدمتها الأقلية المبدعة ومدارها : التدريب الاجتماعي . وهو طريق قصير يكفل حمل الجمهرة العاطلة عن الإبداع على التزام الطريق السوي ، الذي وجدنا فيه بالفعل نقطة الضعف في علاقة الأقلية بالأغلبية إبان مرحلة الارتقاء .

وفي استعراضنا هذا ، يبرز إلى الطليعة أخيرا ، التباغض بين الأقلية والأغلبية تباغض يقود إلى انقسام البروليتاريا ؛ وهذا الانقسام الذي هو بدوره نتيجة حطم حلقة من حلقات العلاقات بين الأقلية والأكثرية . وهذه الحلقة أمكن الاحتفاظ بها سليمة — حتى أثناء مرحلة الارتقاء — بفضل خاصية المحاكاة التي تعزز بالتدريب العالي . ولا نعجب لفشل المحاكاة وقتما تستنفد طاقة الزعماء الإبداعية . ولا يعزب عن الذهن أن صلة المحاكاة هذه ، تتسم دائماً بعدم توافر الاستقرار ، حتى أثناء مرحلة الارتقاء ؛ ويرد ذلك إلى وجود ثنائية مخادعة تتمثل في نغمة رقيقة مثمرة ، وهذه الثنائية لازمة لكل اختراع ميكانيكي .

تلك هي خطوط البحث التي نستحوذ عليها بالفعل بالنسبة لنوع الانشقاق الأفقي . ولعل أجدى السبل لمواصلة بحثنا أبعد من ذلك ، نجده في استغلال هذه الخيوط جميعها ، ثم نشرع بعد ذلك في غزل جديلتنا :

وستكون أولى خطواتنا ، القيام بمعاينة العناصر الثلاثة : الأقلية المسيطرة ،

البروليتاريا الداخلية ، البروليتاريا الخارجية ، معاينة قريبة واسعة المدى .
وهذه العناصر — وفقا للمثال الهليني وللأمثلة الأخرى التى نوهنا بها فى مواضع مبكرة من هذه الدراسة — هى نتيجة تمزق نسيج مجتمع منهار بفعل حدوث انشقاق أفقى .

ثم ننتقل بعد ذلك مثلما فعلنا فى دراستنا عن الارتقاء — من العالم الأكبر إلى العالم الأصغر(١) ، وسنكشف هناك صورة تكمل الانحلال فى ظاهرة شرود الروح الآخذة فى الازدياد . وسيقودنا اتجاها البحث هذين — كما يبدو للوهلة الأولى — إلى كشف يتسم بالتناقض ، مداره أن عملية الانحلال تتجه — فى ناحية على الأقل — وجهة مناقضة لطبيعتها من الناحية المنطقية ، هذه الوجهة تعنى « معاودة الميلاد » أو « التناسخ » .

فإذا ما انجزنا تحليلنا ؛ سنجد أن التغير النوعى الذى يجلبه الانحلال معه يناهض فى مظهره تماما ، التغير المترتب عن الارتقاء . فلقد شاهدنا فى عملية الارتقاء أن الحضارات الناهضة على اختلافها ، يتزايد تباينها الواحدة عن الأخرى . وسنجد الآن أن نتيجة الانحلال النوعية هى على العكس توحيد المقاييس .

وهذه النزعة صوب توحيد المقاييس أكثر لفتا للنظر ، إذ نتمعن فى مدى التباين الذى تلتزم الحضارات بالتغلب عليه . فإن الحضارات المنهارة تحمل معها وقتما تدخل مرحلة انحلالها أشد الخصال تطرفا فى تباينها . وتتمثل فى النزوع إلى فن أو الكلف بالآلات ... وما إلى ذلك من السبل تسلكها النزعة . وهذه الخصال اكتسبتها الحضارات فى غضون ارتقائها . كما تختلف الحضارات الواحدة عن الأخرى — بالإضافة إلى ما تقدم — فى حقيقة مدارها أن الانهيار يداهمها فى أعمار تختلف اختلافا واسعا :

---

(١) Macrocosm تعنى العالم الأكبر أى الكون ، و Microcosm تعنى العالم الأصغر أى الإنسان . (المترجم)

فلقد انهارت الحضارة السورية مثلا ، بعد وفاة سليمان عام ٩٣٧ ق.م ، فى زمن لعل فترته تنقص بأقل من مائتى عام ، منذ الانبعاث الأصلى لهذه الحضارة عن الفراغ الذى تلا سقوط الحضارة المينووية .

ومن الناحية الأخرى فإن اختها الحضارة الهلينية التى انبثقت عن نفس الفراغ المعاصر له ، لم تتردد فى الانهيار إلا بعد انقضاء خمسمائة سنة لاحقة ، إبان الحرب الأثينية البلوبونيزية .

كذلك انهارت الحضارة المسيحية الأرثوذكسية فى أعقاب الحرب الرومانية البلغارية عام ٩٧٧ ميلادية .

فى حين ما انفكت أختها الحضارة الغربية ، تزدهر طوال عدة قرون أطول مدى ، وهى ما تزال بعيدة عن الإنهيار ، وفقا لعلمنا .

فإذا كان فى مكنة الحضارات الشقيقة أن تسلك هذه الأبعاد المختلفة من مقياس الارتقاء ، فظاهر أنه لا يقدر للارتقاء الحضارى أى دوام يتسم بالتجانس . وفى الواقع ، أخفقنا فى العثور على أى سبب أساسى يفضل عن غيره فى تفسير سبب عدم اتصال سير الحضارة صوب الارتقاء إلى ما لا نهاية ، ما دامت قد دخلت مرحلة التحلل .

وتوضح هذه الاعتبارات ، أن الاختلافات بين الحضارات النامية تتسم بالانفساح والعمق . ومع ذلك سنجد عملية الانحلال ، تنزع إلى المواءمة فى جميع الحالات على نمط قياسى مداره انشقاق أفقى يفلق المجتمع إلى عناصر ثلاثة سبق ذكرها ، وإلى قيام كل عنصر منها بإيجاد نظام مميز : دولة عالمية ، نظام دينى عالمى ، عصابات بربرية حربية .

وسيكون علينا أن نأخذ علما بهذه النظم ، وسنتعرف على مبدعيها ، كل على التوالى ؛ إن فيض الوضوح لدراستنا عن انحلالات الحضارات . لكن سنجد الأمر مناسبا — إلى المدى المعقول ، لدراسة النظم ، دراسة خاصة ، فى أجزاء منفصلة من هذا الكتاب . ذلك لأن هذه النظم الثلاثة ،

هى شىء أكثر من كونها نتائج عملية الانحلال . وقد يتأتى لها كذلك أن تؤدى دوراً فى العلاقات بين حضارة وأخرى . فإذا ما فحصنا النظم الدينية العالمية ، سنجد أنفسنا مضطرين لإثارة مسألة فيما إذا كان يتأتى حقاً إدراك النظم الدينية فى وجودها الكامل ، فى نطاق إطار تواريخ الحضارات التى اتخذت فيها سبلها التاريخية . أو فيما إذا كنا لا ننظر إليها باعتبارها أنواعا أخرى من المجتمع ؛ هى على الأقل مميزة عن « أنواع الحضارات » مثلما تتميز هذه الأخيرة عن المجتمعات البدائية .

وقد يصح أن يكون هذا أحد الأسئلة البالغة الأهمية التى تُثيرها دراسة للتاريخ . لكنه يقع عند أقصى نهاية للبحث الذى كنا نرسم الآن معالمه الرئيسية .

٢ — الانشقاق ورجعة المولد

صوّر اليهودى الألمانى كارل ماركس (١٨١٨ — ٨٣) فى ألوان مستعارة من الرؤيات المبهمة التى انبثقت عن أثر دينى نبذه هو نفسه ، صورة مذهلة لانفصال البروليتاريا وما يتلوه من حرب طبقية .

ويردّ جانب من التأثير الضخم للنبوة الماركسية المادية ــ الذى طغى على ملايين العقول هذه ــ إلى النزعة السياسية ذات الطابع الحربى التى تقوم عليها الماركسية . فإنه وإن كانت هذه الصورة هى لباب فلسفة عامة للتاريخ ، فإنها فى الوقت نفسه نداء ثورى لحمل السلاح .

ومهما يكن من أمر اعتبار ابتكار هذه الصيغة الماركسية للحرب الطبقية وأسلوبها ، شاهدين على ما أصبح يحس به المجتمع الغربى فعلا من سيره فى طريق الانحلال ، فإن تلك مسألة ستشغل فيما بعد ، جانبا من هذه الدراسة عندما نشرع فى النظر إلى مآل هذه الحضارة الغربية .

ولقد ذكرنا ماركس ــ فى هذا المجال ــ لأسباب أخرى :

لأن ماركس هو المفسر التقليدى للحرب الطبقية لعالمنا الحاضر . ولأن

الصيغة الماركســية ، توائم الصورة المأثورة عن الزرادشستية واليهودية والمسيحية عما سيحدث من نهاية تتسم هادئة بعد أزمة تبلغ أقصى العنف .

ويخلُص نبي الشيوعية من انطباعاته الروحية القائمة على مذهب المادية التاريخية — أو الحتمية التاريخية — بأن الأمر سينتهى بالحرب الطبقية إلى ثورة بروليتارية ظافرة . بيد أنه عندما يصل الصراع الدموى — كما يقول ماركس — إلى ذروته سيكون فى ذلك نهاية ثورة البروليتاريا . ذلك لأن انتصارها سيكون حاسما قاطعا . ولن تصبح ديكتاتورية البروليتاريا — وهى ثمرة الثورة — نظاما دائما ؛ إذ يطالعنا عصر يصبح فيه المجتمع الجديد الذى يولد لا طبقيا ، قديما وقويا بحيث يتمكن من الاستغناء عن الديكتاتورية .

ومن العجيب أن يغدو فى مكنة المجتمع الماركسى الفاضل[1] فى قمة رفاهيته النهائية والدائمة ، أن يطرح بعيدا — فضلا عن ديكتاتورية البروليتاريا — كل دعامة للنظام بما فى ذلك الدولة نفسها .

وتكمن طرافة الأخرويات[2] الماركسية — بالنسبة لبحثنا الحاضر — فى الحقيقة المذهلة القائلة بأن الماركسية — وهى ظل سياسى باهت لعقيدة دينية مضمحلة — تُخطط بإحكام السبيل الحقيقى الذى تنزع الحرب الطبقية إلى سلوكه ، أو يتجه إليه الانشقاق الأفقى فى مجتمع منها ؛ وهو موضوع حقيقة تاريخية . إن التاريخ يكشف لنا — ببلادة — فى ظواهر الانحلال ، حركة تركض إلى السلم عبر الحرب إلى حالة الين عبر حالة اليانج[3] ، وعبر تدمير يحمل طابع الوحشية والمجازفة بالأشياء الثمينة ؛ إلى أعمال خلق يبدو أنها تدين بصفتها الخاصة إلى توقّد الشعلة المفترسة التى صُهرت فيها .

---

(١) استخدم المؤلف فى الأصل تعبير « العصر الألفى » : ويعنى عصر حكم المسيح ألف سنة على الأرض . (المترجم)

(٢) فلسفة الأخرويات : كالموت والبعث والخلود والحساب . (المترجم)

(٣) حالة الين هى حالة السكون ، وحالة اليانج هى حالة الحركة الدافعة . (المترجم)

أما عن الانشقاق نفسه ، فإنه حصيلة حركتين سلبيتين يعتبر الانفعال الشرير مصدر إلهام كل منهما :

الأولى : تتمثل فى محاولة الأقلية المسيطرة المحافظة بالقوة على المركز الممتاز الذى باتت لا تستحقه .

الثانية : وتعرّض فيها البروليتاريا بالاستياء والخوف والكراهية ومواجهة القوة بالقوة . لكن تنتهى الحركة بأسرها بأفعال خلق إيجابية : الدولة العالمية ، نظام الدين العالمى ، وعصابات البرابرة المتوحشين .

وبالحرى ، لا يعتبر الانشقاق الاجتماعى مجرد انشقاق ليس إلا . فإننا إذا ما أدركنا الحركة ككل . نجد أن علينا أن نصفها بأنها انشقاق وتناسخ . وإذا ما اعتبرنا أن الانفصال – كما هو واضح – وسيلة خاصة للإنسحاب ، يصبح علينا تبويب الحركة المزدوجة للانشقاق والتناسخ على أنها مثال للمظهرين اللذين سبقت لنا دراستهما فى صورة أعم تحت عنوان « الانسحاب والعودة » .

وثمة اتجاه قد يبدو هذا الضرب الجديد من الانسحاب والعودة يختلف من خلاله عن الأمثال التى سبقت لنا دراستها . أليست هى مآثر الأقليات المبدعة أو الأفراد المبدعين ؟ أو ليست البروليتاريا المنشقة أكثرية تقف معارضة للأقلية المسيطرة ؟

إن لحظة من التفكير توحى – ما هو واضح بأنه الصورة الحقيقية – بأنه رغما عن أن الانفصال هو نتاج فعل الأغلبية ؛ إلا أن فعل الإبداع المتصل بتشييد نظام دينى عالمى ، هو نتاج فعل أقلية من الجماعات أو الأفراد المبدعين ، أقلية تقيم فى نطاق الأغلبية البروليتارية . وتتألف الأغلبية العاطلة عن الإبداع فى مثل هذه الأحوال ، من الأقلية المسيطرة ومن بقية البروليتاريا .

وألفينا كذلك – وهذا ما سنذكره – أن المآثر الإبداعية لما أسميناه بالأقلية المبدعة ، لم تكن فى غضون مرحلة الارتقاء قط ، من نتاج فعل

الأقلية فى مجموعها ، بل أنها حصيلة فعل جماعة واحدة أو فئة أخرى داخل هذه الجماعة . وقوام الاختلاف فى الحالتين ؛ أنه بينما تتألف الأغلبية الغير المبدعة إبان مرحلة الارتقاء من جمهرة الناس القابلة للخضوع لتأثيرات الآخرين (وهى التى تقتفى أثر الزعماء عن طريق المحاكاة) نجد أن جانبا من الأغلبية الغير المبدعة تتألف فى مرحلة الانحلال من الجمهرة القابلة للخضوع لتأثيرات الآخرين (بقية البروليتاريا) . ويتألف الجانب الآخر ، من أقلية مسيطرة تتسم — بصرف النظر عن استجابات أفراد تعتقد أنهم ضلوا سواء السبيل — بانتحائها ناحية خاصة . ونجدها هنا مكبوتة متكبرة .

الفصل الثامن عشر

الانشقاق فى الكيان الاجتماعى

(١) الأقليات المسيطرة

رغماً عما تقرره الحقيقة من أن ثبات منحى الأقلية المسيطرة وتجانسه، علامة مميزة لها؛ فإن ثمة عاملا واحداً للتغير، يوجد حتى داخل نطاق الأقلية المسيطرة. فلقد توفق فى إنجاز أعاجيب تتجلى فى عملية تعقيمها نفسها. وهى عملية، تُتيح لها أن تحيل إلى قوتها المقاتلة المجدبة، المجندين الذين تدفعهم الأقلية المسيطرة باستمرار صوب صفوفها التى تُفنى نفسها بنفسها. ولن تستطيع صدّ نفسها عن إبراز الطاقة الإبداعية التى تتبدى، لا فى دولة عالمية فحسب، ولكن كذلك فى إنجاب مدرسة فلسفية. ومن ثم نجد فى وسع الأقلية المسيطرة، أن تضم بين صفوفها عدداً من الأعضاء الذين يرتحلون بصورة مذهلة للغاية عن النوعين اللذين تتميز بهما الطائفة المستغلّة التى ينتمون إليها.

هذان النوعان المميزان هما: النوع الحربى النزعة، ونوع المستغلّ الأشد حقارة الذى يقتفى أثر الجيوش المحاربة.

وليست ثمة ضرورة ملحّة لذكر أمثلة من التاريخ الهلينى، وإننا لنشاهد النوع الحربى النزعة فى أحسن حالاته فى الاسكندر ومن يماثله. ونجد النوع المستغلّ فى أبشع حالاته فى فيريس Verres ومن يماثله؛ وفيريس هذا، هو الذى عرّض شيشرون فى خطبه ورسائله الأخيرة بسوء إدارته لصقلية.

بيد أن الدولة الرومانية العالمية تدين ببقائها الطويل إلى حقيقة مدارها أن أصحاب النزعات العسكرية والاستغلالية فيها؛ قد تلاءم — بعد عهد

الاستقرار فى حكم أغسطس – عدد لا يحصى من الجنود والموظفين المجهولى الاسم الذين كفّروا عن جانب من الأفعال السيئة التى ارتكبها أسلافهم النهّابين ، بفضل تمهيدهم السبيل أمام هذا المجتمع المحتضر ليصطلى طوال عدة أجيال بأشعة شمس باهتة فى صيف هندى[١] .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، لا يعتبر الموظف الرومانى القائم بدور يتسم بسيطرة الروح الإثارية عليه ، الظاهرة الوحيدة أو المبكرة التى تغلُب على الأقلية المسيطرة الهلينية . إذ كان من الواضح فى عصر القياصرة من بعد سفيروس[٢] Severus ، أن معجزة تحويل الذئب الرومانى إلى كلب حراسة وفقا للتعاليم الأفلاطونية ، ترجع إلى فعل الفلسفة الهلينية . وذلك وقتما غدا حكم الإمبراطور الرواقى ماركوس أوريليوس فى التاريخ الرومانى حقيقة واقعة ، وعندما أخذت تعاليم مدرسة الرواقيين تتحول إلى أصول القانون الرومانى .

فإنه وإن كان الإدارى الرومانى هو أداة الكفاية العملية للأقلية الهلينية المسيطرة والتى تتسم بروحها الإيثارية ، إلا أن الفيلسوف اليونانى ما برح مرشد طاقتها العملية النبيل . وتنتهى حلقة الفلاســفة اليونانيين المبدعين بأفلوطين (حوالى ٢٠٣ – ٦٢ ميلادية) فى العصر الذى بقى ليشاهد انهيار الخدمة الرومانية المدنية . وكانت حلقة الفلاسفة هذه قد بدأت بسقراط (حوالى ٤٧٠ – ٣٩٩ ق . م) فى جيل كان قد استطال بالفعل ، وقتما انهارت الحضارة الهلينية .

ويُعتبر استصلاح نتائج ذلك الانهيار المفجعة ، أو على الأقل التلطيف

---

(١) الصيف الهندى فصل دافئ يغشى الهند فى أواخر الخريف أو أوائل الشتاء . (المترجم)

(٢) الكسندر سفيروس Alex. Severus : إمبراطور رومانى (٢٢٢ – ٢٣٥ ميلادية) وقد مات ضحية مؤامرة عسكرية عام ٢٣٥ ميلادية . (المترجم)

من جدتها ، عمل العمر للفيلسوف اليونانى وللإدارى الرومانى . لكن أعمال الفيلسوف قد أنتجت نتيجة أثمن وأبقى على الزمن ، عما خلفه الإدارى .

ويرجع ذلك إلى أن أعمال الفيلسوف ، لم تُخبك فى النسيج المادى لحياة المجتمع المتحلل . فإذا كان الإداريون الرومانيون قد شيدوا دعائم الدولة الهلينية العالمية ، فقد زودت الأجيال المستقبلة من الفلاسفة ، العالم بروح البحث التى اختصت بها الأكاديمية : زودته بمريدى الأرسطاليسية وبالرواق[1] وبالبستان[2] ، وبمجال عمل الفلسفة الكلبية[3] فى الخلاء والمسالك والأسيجة . وأتاحت تحقيق حلم الأفلاطونية الجديدة فى الدنيا الغبر الأرضية التى تشتهيها النفس .

وإذا ما توسعنا فى استعراضنا تواريخ الحضارات المنهارة الأخرى ، سنجد نفس خطوط سير صفة الإيثارية النبيلة ، تسير جنباً جنب مع سُبل العسكرين المستغلين الكالحة والخسيسة .

ومن قبيل المثال ، أن الطبقة المثقفة التى أدارت شئون الدولة الصينية العالمية فى ظل أسرة هان (٢٠٢ ق . م — ٢٢١ ميلادية) قد بلغت مستوى عالياً من الكفاية وتخلقت بروح العمل ، مما أهلها لتتبوأ إبان النصف التالى

---

(١) الرواق (أو المظلة) : شعار الفلسفة الرواقية التى أسسها الفيلسوف اليونانى القبرصى المولد « زينون » (٣٣٥ — ٢٦٣ ق . م) . ولقد انتشرت الرواقية فى أنحاء العالم الرومانى حتى لقد انضم إليها أمثال سنيكا وابيكتوتوس والإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونيوس . (المترجم)

(٢) البستان : المكان الأثير لاجتماع مريدى الفلسفة الأبيقورية . وقد أنشأها أبيقور Ebicurus (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) . ويتجه أبيقور فى فلسفته اتجاها ماديا ، ومن تعاليمه أن واجب الإنسان هو فى إدراك السعادة الشخصية وتحقيق السلامة النفسية . ويتأتى ذلك بالتغلب على الرغبات والمخاوف التى تجافى العقل . (المترجم)

(٣) الفلسفة الكلبية Cynicism : فلسفة أنشأها الفيلسوف اليونانى ديوجنيس على أرجح الأقوال . وقد أطلق الاسم اليونانى Kyon (ويعنى الكلب) على أتباع هذه الفلسفة بسبب استهانتهم بكافة المبادئ والأوضاع وممارستهم عادات فاضحة . (المترجم)

من فترة نشاطها ، مكانا معنوياً يضارع موظفي الإدارة الرومانية ، المعاصرين لهم في الجانب الآخر من العالم .

بل إن الإداريين الروس الذين طفقوا يقودون زمام الدولة المسيحية الأرثوذكسية العالمية طوال فترة قرنين منذ عهد بطرس الأكبر وما تلاه ، والذين أصبحوا أضحوكة داخل روسيا وفي البلاد الغربية نظراً لعجزهم وفسادهم ؛ هؤلاء الموظفون لم يتوانوا إلى درجة مخزية — كما يفترض غالباً — في الكفاح في سبيل تحقيق هدفهم المزدوج الجسيم القائم على المحافظة على الإمبراطورية المسكوفية على اعتبار أنها مشروع قائم ، وإحالتها في نفس الوقت إلى هيئة حكومية مستجدة وفقاً للنمو الغربي .

ولعل أسرة الباديشاه العثماني من الأرقاء ، قد غدت بالمثل في الكيان الأساسي للمسيحية الأرثوذكسية ، اصطلاحاً مألوفاً للطغيان على الرعية . إلا أن العقل لا يلبث أن يذكر أنها نظام أنجز على الأقل خدمة ممتازة للمجتمع الأرثوذكسي ، بفرضها عليه تلك الإمبراطورية العثمانية التي منحت فترة هدوء في غضون عصرين ، لعالم مزق نفسه وأنهكته الفوضى .

ونجد في مجتمع الشرق الأقصى في اليابان طبقة الإداريين اليابانيين الإقطاعيين Daimyo هم وتابعيهم الأمناء من السموراي[1] الذين فتكوا بالمجتمع إبان فتكهم بعضهم ببعض . وحدث ذلك إبان القرون الأربعة التي تقدمت إنشاء شوجونية توكوجاوا التي ظلت قائمة لتستعيض عن ماضيها بإعداد نفسها لإنجاز مشروع إيواسو Ieuasu[2] القاضي بتحويل الفوضى الإقطاعية إلى إقطاع

---

(١) الساموراي : طبقة حملة السيوف ، وكانت هي طبقة العسكريين اليابانيين . (المترجم)

(٢) تعين ايواسو عام ١٥٩٨ في مجلس وصاية على ابن الشوجن (القائد الأعظم) تايكو إلا أن إيواسو استطاع الاستئثار بالحكم بفضل هزيمته أعضاء مجلس الوصاية الآخرين في معركة Se-Ki-Gu-Ha-Za عام ١٦٠٠ ميلادية . وألزم الإمبراطور بتعيينه شوجن عام ١٦٠٣ . وايواسو هو الذي نقل العاصمة من كيوتو إلى يدو (طوكيو) ولقد عمل إيواسو طوال عهده في سبيل السيطرة على اليابان على القضاء على نفوذ الحكام الإقطاعيين . وكان يتبعه مليونا فرد من الساموراي . (المترجم)

منظم . ولقد تسامت تضحيات أفراد هذه الطبقة إبان فترة افتتاح الفصل التالى من التاريخ اليابانى فبلغت مرتبة إنكار الذات . وذلك وقتما جردوا أنفسهم من امتيازاتهم إيماناً منهم بضرورة بذل هذه التضحية رجاء مساعدة اليابان على المحافظة على كيانها فى عالم تسوده الاتجاهات الغربية ، ولا منجاة لها منه .

وتشارك طبقة الساموراى اليابانية فى هذه النزعة النبيلة ، أقليتان حاكمتان أخريان لاينكرها عليهما أعداؤهما نفسهما . تلك هما طبقة الانكاس Incas فى الدولة الانديانية ، وطبقة الأعيان الفرس الذين حكموا الدولة السورية العالمية باعتبارهم مديرين بالنيابة لملك الملوك الأخيانى .

فلقد شهد الفاتحون الأسبان[1] بفضائل الانكاس . أما بالنسبة للفرس فإن الصورة اليونانية عنهم التى عرضت لها خلاصة هيرودوتس المشهورة عن تعليم الأطفال الفرس والتى فيها يقول « إنهم يدرّبون من سن الخامسة إلى سن العشرين على الاقتصار على إتيان ثلاثة أشياء : امتطاء الجواد وإصابة المرمى وقول الصدق » هذه الصورة لن تقلل من قدرها الصورة المرافقة لها عن الفرس فى مرحلة رجولتهم . وهناك أيضاً رواية هيرودوتس عن حاشية إجزركسيس Xerxes أثناء العاصفة فى البحر ، فإن أفراد الحاشية وثبوا إلى الماء لتخف حمولة المركب ، بعد تقديمهم فروض الولاء لسيدهم الإمبراطور .

على أن أعظم شهادة دامغة للفضائل الفارسية ، هى شهادة الاسكندر الأكبر الذى أظهر بالأفعال الخطيرة لا بمجرد الأقوال اليسيرة ، مدى ما يكنّه الفرس بعد خبرته لهم . فإنه ما إن علم — بالاختبار الاستقصائى بفعل الهزيمة الساحقة فيهم ، حتى اتخذ قراراً لم يكن ليقتصر على مضايقة أتباعه المقدونيين ، بل كان أضمن طريقة فى متناوله لاستثارة مشاعرهم — إن كانت الإساءة إليهم

---

(١) Conquistadores .

هدفه المقصود : فإن الإسكندر قد رنا فى الحقيقة إلى أن يجعل من الفُرس شركاء له فى حكم الإمبراطورية التى كانت جسارة أتباعه المقدونيين قد انتزعتها بالكاد من أيديهم . ووضع سياسته موضع التنفيذ فى أسلوب يتسم بالإتقان . فاتخذ لنفسه زوجة ابنة أحد الحكام الفرس . ورشا ضباطه المقدونيين أو أرغمهم على الاقتداء به ؛ والحق جنوداً ُفرْساً بالفرق المقدونية . وأن شعباً فى مكنته أن يستخلص هذا التقدير من زعيم أعدائه الوراثيين غداة هزيمته النكراء ، لا بد وأنه شعب أوتى ملكة « فضائل العنصر الحاكم » بشكل ظاهر .

وبعد ، فلقد آلينا على أنفسنا أن نحشد ُعدّة عظيمة من الأدلة على طاقة الأقليات المسيطرة ، على إبراز طبقة حاكمة جديرة بالإعجاب ؛ وهذا ما تدلّ عليه طائفة الدول العالمية التى شيدتها . فإن ثمة ما لا يقل عن الخمس عشرة حضارة ، مرّت عبر هذه المرحلة فى طريقها صوب الانحلال ، من بين العشرين حضارة التى أصيبت بالانهيار .

ففى مقدورنا أن نتعرف فى الإمبراطورية الرومانية ، على دولة عالمية هلينية ؛ وفى إمبراطورية الانكاس ، على دولة عالمية انديانية ؛ وفى إمبراطرية عائلتى تسين وهان ، على دولة عالمية صينية ؛ وفى إمبراطورية مينوس البحرية ، على دولة عالمية مينووية ؛ وأن نتعرف فى إمبراطورية سومر وأكاد ، على دولة عالمية سومرية ؛ وفى إمبراطورية تبوخذ نصر الجديدة ، على دولة عالمية بابلية ؛ وفى إمبراطورية الماياس القديمة على دولة عالمية مايانية . وأن نتعرف « الإمبراطورية الوسطى » إبان الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة على دولة عالمية مصرية ، وفى الإمبراطورية الأخيمانية ، على دولة عالمية سورية ؛ وفى إمبراطورية موورياس ، على إمبراطورية عالمية سندية ؛ وفى إمبراطورية المغول العظام ، على دولة عالمية هندية ؛ وفى الإمبرراطورية العثمانية ، على دولة عالمية

مسيحية أرثوذكسية ؛ وفى إمبراطورية المغول فى الصين ، على دولة عالمية فى دنيا الشرق الأقصى ؛ وفى شوجونية توكوجاوا ، على دولة عالمية فى اليابان .

ولم تكن هذه الطاقة السياسية ؛ هى النمط الفريد للقوة المبدعة التى تعتبر الصفة المشتركة فى الأقليات المسيطرة . فلقد سبق أن رأينا ، أن الأقلية الهلينية المسيطرة لم تقتصر على إنتاج الإدارة الرومانية ، بل تعدتها إلى إنجاب الفلسفة اليونانية .

وسنجد ثلاثة أمثلة أخرى على الأقل ، أخذتها أقلية مسيطرة فى حسبانها .

ويبدو فى تاريخ المجتمع البابلى – مثلا – أن القرن الثانى قبل الميلاد الرهيب الذى عاصر بداية حرب المائة عام بين بابل وآشور ، قد عاصر كذلك تقدما مفاجئاً فى المعرفة الفلكية ، فلقد كشف العلماء البابليون ، أن إيقاع تكرار الأكوار الذى كان واضحا منذ زمن سحيق فى تعاقب النهار والليل ، وفى القمر الباهت المشرف على الزوال وفى دورة السنة الشمسية ، يتأتى إدراكه كذلك على نطاق أوسع فى حركات الكواكب . ولقد ثبت الآن أن هذه النجوم التى كانت التقاليد تدعوها بـ « السيارة » – كناية على مساراتها المتعرجة – تخضع هى الأخرى لنظام دقيق مثل الشمس والقمر ونجوم السماء « الثابتة » فى الدورة الكونية للسنة العظمى . وكان لهذا الكشف البابلى المثير ، نفس تأثير الكشوف الغربية الحديثة ، على فكرة مستكشفى الكون .

وهكذا ؛ فإن النظام الثابت والمتفق مع القانون والذى وجد أنه يحكم كافة تحركات الكون النجمى المعروفة ، أصبح يفترض فيه تحكمه فى مصائر الكون فى مجموعة سواء المادى منه أو الروحانى ، الجامد والحى . ويقال تبريرا لهذا الرأى أنه إذا أمكن تعيين تاريخ كسوف للشمس أو عبور للزهرة فى لحظة معينة منذ مئات السنين الماضيات ، أو التنبؤ بتأكيد مماثل عن

حدوثه فى لحظة معينة فى فترة مقبلة تماثل السابقة فى الزمن ، فهلا يعقل والحالة هذه ، افتراض تعيين شئون البشر تعيينا ثابتا يمكن حسابه بنفس الدقة ؟

وإذ يتضمن نظام الكون فكرة تحرك جميع أعضاء الكون فى وفاق تام ، وتعاطف بعضهم على البعض الآخر ، ألا يعتبر نمط حركات النجوم الذى كشف عنه حديثاً ، هو مفتاح لغز المصائر البشرية بحيث يتيسر للمراقب الذى يحوز فى يده هذا المفتاح الفلكى ، أن يتنبأ بمصائر جاره إن قيضت له معرفة تاريخ ميلاده ولحظته ؟

وسواء أكان هذا حقاً أو باطلا ، فإن هذه الافتراضات قد اعتُنقت فى حماس . وهكذا انبنت على الكشف العلمى المثير الفلسفة الحتمية السفسطائية التى طفقت تستهوى خيال المجتمع تلو المجتمع والتى ما تزال تفتن بعد انقضاء ما يقرب من ٢٧٠٠ سنة من قيامها .

هنا أصبح يقع على مزاعم علم التنجيم المضلل ، عبء مزج نظرية تفسير جهاز العالم بفعل يمكّن آحاد الناس من تعيين الفائز فى سباق الدربى هنا والآن . ولقد استطاعت الفلسفة البابلية بفضل هذه الجاذبية المزدوجة أن تتفادى استئصال المجتمع البابلى إبان القرن الأخير قبل الميلاد . وكان العالم الرياضى الخليدونى الذى فرض الفلسفة البابلية على مجتمع هلينى منهوك ، ما يزال تعرضه حتى الأسف باحة المنجم فى الصين ومنجم باشا فى استامبول .

وإذا كنا قد أطلنا المقام مع هذه الفلسفة الحتمية البابلية ، فذلك لصلتها بالمحاولات الفلسفية الحمقاء -- إلى حد ما -- فى العالم الغربى فى عصره الديكارتى[1] الحاضر ، وهى صلة أعظم من صلة أية فلسفة هلينية . وثمة من الناحية الأخرى نسخ مطابقة تقريبا من كافة مدارس الفكر الهلينية ، فى المناطق الفلسفية للعالمين السندى والصينى . إذ أنبتت الأقلية المسيطرة للحضارة السندية

---

(١) نسبة إلى ديكارت الفيلسوف الفرنسى . (المترجم)

المتحللة ، فلسفة اتباع ماهافيرا « الجانية » . وأنجبت البوذية البدائية لمريدى سيدهارتا جوتاما Siddhartha Gautama بوذية المهايانا المتشكلة[١] والآراء الفلسفية البوذية المختلفة التي هى جزء من الجهاز العقلى للهندوسية التى تلت البوذية . إن الأقلية المسيطرة للحضارة المسيحية المتحللة ، قد أنتجت النزعة الأخلاقية صوب الطقوس والنزعة الأخلاقية المتأثرة بطقوس كنفوشيوس ؛ كما أنجبت حكمة تاو Tao النقيضية التى تعزى إلى العبقرية الأسطورية للحكيم لاوتسى Lao Tse .

(٢) البروليتاريات الداخلية

١ – طراز هلينى :

بانتقالنا من ميدان الأقليات المسيطرة إلى الطبقات البروليتارية ، يتبين أن دراسة الوقائع عن قرب ، تؤيد أول انطباع لأذهاننا ومداره وجود تنوع فى الطراز فى نطاق عناصر المجتمع المتحلل هذه . وسنجد كذلك أن نوعى البروليتاريا – الداخلية والخارجية – يقعان فى قطبين متضادين داخل مجال الأقليات المسيطرة . ولما كان مجال البروليتاريات الداخلية أوسع كثيراً ، سنعمد إلى استكشاف الميدان الأرحب أولا :

إن خير ما نفعله فى سبيل تتبع بدء البروليتاريا الهلينية الداخلية منذ مستهل مرحلة التكوين ، أن نقتبس فقرة من توكيديديس – وهو مؤرخ انهيار المجتمع الهلينى – يصف فيها المرحلة المبكرة للانشقاق الذى تلا الانهيار ، ذلك الانشقاق الذى تبدّى لأول مرة فى كورسيرا .

« تلك كانت وحشية الحرب الطبقية فى كورسيرا كما برزت للعيان : وقد أضفت طابعاً عميقاً لأنها كانت الأولى من نوعها : وإن كان الاضطراب

---

(١) تختلف هذه البوذية عن أصلها المعترف به ، اختلافا يماثل فى عمقه على الأقل اختلاف الأفلاطونية الجديدة عن الفلسفة السقراطية للقرن الرابع قبل الميلاد . (المترجم)

قد انتشر فى نهاية الأمر فى بقاع العالم الهليني بأسره تقريباً . وكان ثمة اشتباكات فى كل قطر بين زعماء البروليتاريا والرجعيين ، تتصل بجهودهم لكفالة تدخل الأثينيين أو تدخل اللاسيدامونيين Lacedaemonians على التوالى . ولم تكن لديهم الرغبة ولم تتح لهم الفرصة للاستعانة بالأجنبي وقتما كان السلام ينشر عليهم ظله . لكن ما إن تغيرت الحال بنشوب الحرب بينهما ، حتى غدا أمرا يسيرا استعانة أحد المعسكرين بالأجنبي لتأمين تحالف يُفضي إلى هزيمة خصومه من المعسكر الآخر وتعزيز مماثل لقضية جماعته . إن ولوج هــذه الحرب الطبقية قد جلب معه الكارثة على بلاد هيلاس . وهى كوارث تحدث وسيستمر حدوثها طالما يظل الجنس البشرى فى العالم . وإن كان يحتمل أن تشتد حدتها أو تخفف أو تعدل وفقاً لما يطرأ على الأحداث المتعاقبة من تغيرات . وتبدى البلاد والأفراد كلاهما إبان ظروف السلم الموانية نزعة تتمشى مع نوازع العقل ، لأن أيديهم لا تدفعها الأحداث المنطقية . بيد أن الحرب تستنفد مظاهر الحياة العادية ، وتكيف مزاج معظم الصفات وفقاً للبيئة الجديدة بفضل تدريبها الوحشى . وهكذا أصيبت هيلاس بداء الحرب الطبقية ، وكان للشعور الذى يحدثه نشوب حرب ما ، نتيجــة تراكم على الحرب التالية »[١] .

وفى مثل هذه الأوضاع تمثلت أولى النتائج الاجتماعية ، فى إبراز طوفان ضخم وآخذ فى التضخم ، من السكان المهاجرين عديمى الجنسية : وهذه مشكلة لم تعرفها فترة ارتقاء التاريخ الهلينى ، وكانت تعتبر شيئاً شاذاً مفزعاً . ولم توفق جهود الاسكندر الصادقة فى القضاء على هذه الآفة عن طريق إقناع الجماعة الحاكمة وقتئذ فى كل دولة ، بالسماح لمعارضيها

---

(١) ثيوكيدبديس : الكتاب الثالث من الفصل الثانى والثمانين .

المطرودين بالعودة إلى ديارهم بسلام ، فكان أن هيأت النار لنفسها وقوداً جديداً . لأن الشيء الذى وجده المنفيون متاحا لهم لعمله كان التطوع جنوداً مرتزقة . وترتب على اتساع مجال الطاقة البشرية العسكرية هذا ، ازدياد قوة الاندفاع فى الحروب ، نشأ عنها بدورها منفيون جدد ، فعظم بالتالى تعداد الجنود المرتزقة .

وإلى إطلاق الحرب القوى الاقتصادية من عقالها ، يُعزى تمكن تأثير هـذا التدمير المعنوى لروح هيلاس الحربية ، تمكّنا عظيما أتاح انتزاع أبنائها : فلقد أتاحت حروب الاسكندر وخلفائه فى جنوب غرب آسيا العمل — مثلا — لحشد من جنود اليونانيين المشردين على حساب انتزاع أفراد حشد آخر من دورهم . وكانت مدفوعات الجنود المرتزقة ، تتألف من سبائك الفضة والذهب التى لبثت طوال قرنين تجمع فى خزائن الأباطرة الاخيمانيين . فكان أن شاع الدمار بين الفلاحين والصناع بفعل ازدياد حجم النقود فى التداول زيادة مفاجئة ، إذ أدى ارتفاع كمية النقود إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا . فكان أن تردّى فى براثن الفقر عنصران من الكيان الاجتماعى كانا ينعمان قبل ذلك باستقرار نسبى .

ولقد برز مرة أخرى نفس تأثير إفقار الشعوب ، بعد ذلك بمائة عام ، بفعل النتائج الاقتصادية لحربى هانيبال ، وقتما انتزع الفلاحون من أرض إيطاليا بسبب الدمار المباشر الذى أحاقه بها جنود هانيبال أولا ، ثم بسبب إطالة فترة الخدمة العسكرية . وهكذا لم يعد أمام من أصابه الفقر من سلالة الفلاحين الإيطاليين التى انتزعت من الأرض ضد إرادتها ، ملاذ سوى احتراف العسكرية التى فرضت على أسلافهم سخرة .

ولا ريب لدينا فى أننا نراقب — فى مثل عملية الاقتلاع هذه — بدء البروليتاريا الداخلية الهلينية . وذلك رغما عن حقيقة مبناها أن ضحايا العملية

قد تألفت في أحيان غير كثيرة — في الأجيال الأولى على الأقل — من أرستقراطيين سابقين .

وتفسير : ذلك أن النزعة البروليتارية ، هي في جوهرها حالة شعور ، أكثر من كونها موضوع ملابسة خارجية . ومصداقا لذلك عرّفنا البروليتاريا وفاء بغايتنا — وقتما استخدمنا الاصطلاح للمرة الأولى — بأنها عنصر اجتماعي «كائن» في أي مجتمع معين في أية مرحلة معيّنة من تاريخ ذلك المجتمع ، لكنها ليست منه . ويشمل هذا التعريف القائد الاسبرطي كليرخوس[1] وغيره من القواد الأرستقراطيين في جيش قورش الصغير الذي تألف من الجنود المرتزقة اليونانيين . ولقد صور لنا أكسنوفون أسلاف هؤلاء الجنود ، كما صوّر انحطاط العمال المتعطلين الذين وردوا تحت أسماء جنود مرتزقة في جيش بطليموس أو جيش ماريوس .

من ذلك يتبين أن سمة البرولتاريا الأساسية ، ليست الفقر ، كما أنها ليست الأصل الوضيع . فإن مناطها إما شعور الفرد بالحرمان من المكانة التي كان أسلافه يحظون بها في المجتمع ، أو سخط يزكّيه هذا الشعور .

ومصداقاً لهذا الرأي : تألفت البروليتاريا الداخلية الهلينية أول الأمر ، من مواطنين أحرار ، بل حتى من أرستقراطيين ينتسبون إلى المنظمات السياسية الهلينية المتحللة . ولقد تمثّل حرمان هذه الصفوف الأولى في بداية الأمر ، في سلبها حقها الروحي الموروث . لكن تجريدها الروحي قد صاحبه بالطبع في غالب الأحيان — وتبعه على الدوام تقريبا — إشاعة الفقر المادي . وما لبثت صفوف البروليتاريا أن تعززت بإمدادات أخرى من الطبقات الأخرى التي كان أفرادها منذ البداية بروليتاريين روحا ومادة على السواء .

---

(١) كليرخوس Clearchus قائد اسبرطي من القرن الخامس قبل الميلاد ولقد عاون الأمير قورش الصغير ضد أرتزسيس Artaxerxes وعينه اليونانيون قائدا عاما عليهم بعد موقعة كوناكسا . وأمكنه توجيه ارتداد عشرة آلاف جندي يوناني لكنه وقع في كمين نصبه له فقتله عام ٤٠١ ق . م . (المترجم)

على أن حروب الفتح المقدونية التي جرفت كافة المجتمعات السورية والمصرية والبابلية إلى شبكة الأقلية المسيطرة الهلينية ، قد استوعبت إلى مدى واسع ، جماهير البروليتاريا الداخلية . فى حين اكتسحت الفتوحات الرومانية التالية نصف برابرة أوروبا وشمال أفريقيا .

ولعل هذه الإمدادات التى دخلت على البروليتاريا عنوة ، كانت فى البداية أسعد حالا من رصيفتها البروليتاريا المنحدرة من أصل هلينى صميم . فإنها وإن حرمت معنويا وسلبت ماديا ؛ إلا أنها لم تقتلع طبيعيا بعد . بيد أن تجارة الرقيق التى اقتفت أثر الفاتح ، قد شاهدت ، هى والقرنان الأخيران قبل المسيح ، بجميع سكان ساحل البحر الأبيض المتوسط — سواء من كان منهم برابرة غربيين أو شرقيين مثقفين يخضعون لهدف واحد هو إمداد سوق الرقيق الإيطالية باحتياجاتها الشرهة .

يتبين لنا مما تقدم ؛ أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهلينى المتحلل قد تألفت من عناصر ثلاثة مميزة :

الأول : أعضاء فى الكيان الاجتماعى محرومة ومقتطعة منه .

الثانى : أعضاء فى حضارات غريبة ومجتمعات بدائية غزيت بلادها واستغلت ، لكن أصولها لم تتمزق ، وإن أصابها الحرمان بصفة جزئية .

الثالث : المجندون المحرومون حرمانا مزدوجا . ومنهم ، هؤلاء السكان الخاضعون الذين لم يقتصر الأمر على اجتثاثهم ، بل إنهم استرقوا ورحلوا ليعملوا حتى الموت فى المزارع القصية .

وتباينت آلام هذه المجموعات من الضحايا الثلاث ، تباينا يماثل تنوع أصولها . لكن المحنة المشتركة الماحقة التى مرت بها هذه العناصر المختلفة ، والتى يتمثل فى سلبها تراثها الاجتماعى ، وإحالتها إلى طبقات منبوذة مستغلة ، قد بثت فيها نزعة التسامى .

فإذا ما أخذنا فى فحص كيفية مواجهة ضحايا الظلم هؤلاء مصيرهم ، فلن يدهشنا أن يتجلى أحد ردود فعلهم فى ثوران اتسم بوحشية تجاوزت العنف الذى اتسمت بها قسوة ظالميهم ومستغليهم ، تلك القسوة التى لم تأبه لأى شىء . والواقع تطن نغمة من الانفعال بين تضاعيف صخب السورات البروليتارية البائسة :

ونلقف هذه النغمة :

أولا : فى سلسلة من الثورات المصرية ضد نظام الاستغلال البطليموسى .

ثانيا : فى سلسلة من الفتن اليهودية ضد سياسة السلوقيين والرومانيين التى اتجهت إلى فرض الثقافة الهلينية على اليهود ، بدأت منذ ثورة يهوذا المكابى عام ١٦٦ ق . م وانتهت إلى محاولتهم البائسة الأخيرة وهم تحت زعامة كوكابا عام ١٣٢ — ٥ ميلادية .

ثالثا : فى سورة الغضب المتهورة التى دفعت أهالى آسيا الصغرى الغربية أنصاف الهلينيين والمتحذلقين ، لتعريض أنفسهم مرتين لنقمة الرومان تحت قيادة أريستونيكوس Aristonicus[1] عام ١٣٢ ق . م وتحت زعامة ميترادبس Mithradis ملك بنطس عام ٨٨ ق . م .

رابعا : سلسلة من الفتن التى أثارها الأرقاء فى صقلية وجنوب إيطاليا بلغت ذروتها فى الغارة البائسة التى قام بها المجالد التراقى[2] الآبق سبارتاكوس Spartacus متحديا الذئب الرومانى فى مربضه بالذات ، وذلك خلال الفترة ٧٣ — ٧١ قبل الميلاد .

ولم تقتصر سورات السخط هذه على العناصر الدخيلة فى البروليتاريا ، فإن الوحشية التى واجه بها مواطنو البروليتاريا الرومانية ، البلوتوقراطية[3]

---

(١) أريستونيكوس : عالم لغوى يونانى ولد بالإسكندرية . وعاش خلال حكمى أغسطس وتيبريوس . (المترجم)

(٢) المجالد : ترجمة لفظ Gladiator والتراقى نسبة إلى تراقيا . (المترجم)

(٣) البلوتوقراطية Plutocracy أى حكم السراة . (المترجم)

الرومانية فرقوها فى الحروب الأهلية وبخاصة إبان ثورة ٩١ – ٨٢ ق . م ، هذه الوحشية تتعادل مع وحشـية يهوذا المكابى Judas Maccabaeus أو سبارتاكوس .

ونلمح أفظع الشخصيات التى برز منحاها الشيطانى فى صورته المظلمة ضد وهج عالم كان متردياً فى سعير الاضطرابات ، فى الزعماء الرومانيين الثوريين الذين قذف بهم فى عنف من بين صفوف الطبقة الحاكمة ذاتها ، نوع من ذورة الحظ القوية قوة غير عادية . ومن أمثال تلك الشخصيات ، سرتوريوس Sertorius وسكستوس بومبيوس Sextus Pombeius وماريوس ، وكاتلين [1] .

ولم يكن العنف ذو السمة الانتحارية ، هو الاستجابة الوحيدة التى قامت بها البروليتاريا الداخلية الهلينية . إذ كان ثمة طراز آخر من الاستجابة مختلف تماماً ، وجد أسمى تعبير له فى العقيدة المسيحية . وإن الاستجابة الوديعة أو السلمية ، هى تعبير عن الرغبة فى الانفصال – يعادل فى درجة إصالته – مستوى التعبير باستخدام العنف . ذلك لأن الشهداء الوديعين الذين أشاد بذكرهم الكتاب الثانى للمكابيين – النساخ القديم البارز Eleazer والإخوة السبعة وأمهم – هم الأسلاف الروحيون للفريسيين ، والفريسيون هم « أولئك الذين انعزلوا بأنفسهم » . وهذا لقب أضفوه على أنفسهم ، قد يترجم نفسه إلى « المنشقين » بلغة الاشتقاق الرومانى .

ويطالعنا تاريخ البروليتاريا الداخلية الشرقية للعالم الهلينى من القرن الثانى قبل الميلاد وما بعده ، بالعنف ولين الجانب يكافحان فى سبيل السيطرة على النفوس . إلى أن أباد العنف نفسه بنفسه ، وكان أن تركت نزعة « لين الجانب » وحيدة فى الميدان .

ولقد أثير النزاع منذ البداية . ذلك لأن الطريق الرقيق الذى سلكه

(١) كانوا جميعاً قادة وساسة رومانيين . (المترجم)

الشهداء الأولون عام ١٦٧ ق . م . قد نبذه بسرعة يهوذا[١] المتهور . وكان النجاح المادى المباشر لهذا « الرجل القوى المسلح » البروليتارى — وإن كان نجاحا فانيا مزخرفا بلا ذوق — مبررا للأخلاف إلى درجة أن أقرب رفقاء السيد المسيح قد أصابه الخزى . كما تنبأ سيدهم بمصيره ؛ وسجدوا اعتذارا وقتما تحققت تنبؤاته . بيد أنه بعد انقضاء بضع سنوات على عملية الصلب ، كان بول تلميذ جامالييل — Gamliel[٢] يبشر بالمسيح المصلوب .

واقتضى الجيل الأول من المسيحيين أن يبذلوا للحصول على هذا التحول عن طريق العنف إلى طريق الرقة ، ثمنا قوامه تلقنهم ضربة محطمة لأمانيهم المادية . إن ما حدث لأتباع المسيح بسبب صلبه ، قد أحدثه لليهودية المتزمتة دمار أورشليم عام ٧٠ ميلادية . فكان أن نشأت مدرسة جديدة لليهودية نبذت الفكرة القائلة بأن « مملكة الله » هى وضع خارجى للأشياء ، يوشك أن يتبدّى . وبسبب النذير الذى فاه به دانيال — وهو الاستثناء الوحيد فى سفره — نبذت من شريعة القانون والأنبياء ، الكتابات المبهمة التى وجدت فيها طريقة العنف اليهودية تعبيرها الكتابى . فكان أن تأصّل سريعاً فى التقاليد اليهودية ، مبدأ الامتناع عن بذل الجهود لتنفيذ إرادة الله فى هذا العالم باستخدام عمل الأيدى البشرية ، إلى درجة تجعل المنتمى إلى مذهب آجوداث إسرائيل Agudath Israel الشديد التزمت ، ينظر فى هذه الأيام شزرا إلى الحركة الصهيونية ويقف فى القرن العشرين بمنأى عن أى مشاركة فى بناء « الوطن القومى اليهودى » فى فلسطين .

وإذا كان هذا التغير فى النفس اليهودية الصميمة ، قد عاون اليهود على البقاء كمجتمع متحجر ، فإن التغير المماثل له فى نفس رفقاء السيد المسيح ؛

(١) يهوذا الاسخريوطى هو الخائن الذى أسلم السيد المسيح لليهود . (المترجم)

(٢) جامالييل : مات عام ٥٢ ميلادية : من الفريسيين ، تعلم عليه القديس بولس . ولقد امتاز بتسامحه وسعة أفق تفكيره وحبه للسلام . ولم يعتنق المسيحية ، لكن يؤثر عنه دفاعه عن القديسين بطرس ويوحنا . (المترجم)

قد فتح الطريق أمام الكنيسة المسيحية لتحقيق انتصارات أعظم . فلقد استجابت الكنيسة المسيحية إلى تحدى الاضطهاد ، باستخدام الأسلوب الوديع المأثور عن اليازر والإخوة السبعة . فاجتنت ثمرة سياستها ، تحول الأقلية الهلينية المسيطرة إلى المسيحية . وتلاها بعدها ، اعتناق عصابات الحرب البربرية للبروليتاريات الخارجية لها .

ولقد تمثل الخصم المباشر للمسيحية إبان القرون الأولى لنموها ، فى عقيدة المجتمع الهلينى البدائية القبلية إبان مرحلته الأخيرة : تلك هى العبادة الوثنية للدولة العالمية الهلينية متمثلة فى شخص « قيصر القادر » . وإلى رفض الكنيسة الرقيق – لكنه العنيد – السماح لأعضائها بممارسة طقوس هذه العبادة الوثنية – حتى بطريقة رسمية ومتكلفة – ترد سلسلة الاضطهادات التى أوقعتها عليها الدولة . بيد أن الحال قد انتهى بالحكومة الإمبراطورية الرومانية فى نهاية الأمر ، إلى الإذعان للسلطة الروحية التى أخفقت فى إخضاعها .

وإنه وإن أمكنت المحافظة على عقيدة الإمبراطورية البدائية السالفة الذكر ، وفرضها على رعاياها باستخدام قوة الحكومة الباطشة ؛ إلا أن سيطرتها على النفوس البشرية كان قليلا . ويعتبر أمر الحاكم الرومانى إلى الفرد المسيحى بإظهار الاحترام لتلك العقيدة بممارسة طقوسها ، بداية دين الدولة هذا ونهايته . ولم يكن هذا يعنى شيئاً كثيرا عند غير المسيحيين ، وكانوا يمارسون بصفة ثابتة ما يؤمرون بتأديته ، وكانوا يعجزون عن إدراك سبب إصرار المسيحى على التضحية بحياته عوضا عن الإذعان لعادة حقيرة .

أما العقائد الدينية المنافسة للمسيحية ؛ فإنها كانت تتميز بقوة ذاتية فلم تكن والحالة هذه فى حاجة إلى تأييد سلطة سياسية . فلم تتمثل فى عبادة الدولة ؛ ولا فى شكل آخر من أشكال العقيدة البـــدائية ؛ ولكن تمثلت فى عقائد دينية عليا انبثقت مثل المسيحية نفسها من البروليتاريا الداخلية الهلينية .

وفى مُكنتنا أن نُبرز للعيان هذه « العقائد الدينية العليا » المنافسة بفضل الرجوع إلى المصادر المختلفة التى استمدت منها البروليتاريا الداخلية الهلينية عنصرها الشرقى . إن الدين المسيحى قد وفد من شعب يمت إلى أصول سورية . وساهم النصف الإيرانى من العالم السورى بعقيدة ميترا Mithra . ووفدت عبادة ايزيس من النصف الشمالى المغمور بالماء من الدنيا المصرية . ولعل عبادة الأم الأناضولية الكبرى سيبل Cybele يمكن اعتبارها مساهمة من المجتمع الحيثى الذى كان وقتئذ قد زال من على كل سطح اجتماعى ، ما خلا السطح الدينى . فإن وطّنا النفس على إرجاع أصل « الأم الكبرى » إلى أصولها النهائية ، سنجد العالم السورى هو موطنها الأصلى تحت اسم « ايشتار » Ishtar ، قبل أن تقيم نفسها تحت اسم « دياسيرا » Deasyra فى هيرابوليس Hierabolis أو تحت اسم « الأرض الأم » بين العباد النائين المتحدثين بالتيوتونية فى غيضتها على الجزيرة المقدسة فى بحر الشمال أو البلطيق .

٢ — فجوة مينووية وبضعة آثار حيثية :

إذا ما فتشنا عن تواريخ لبروليتاريات داخلية فى مجتمعات أخرى متحللة ، فإنه حرى بنا أن نعترف بأن الدليل فى بعض الحالات شحيح أو أنه يخيب ظننا جملة . فإننا نجهل مثلا كل شىء عن البروليتاريا الداخلية للمجتمع المايانى .

أما بالنسبة للمجتمع المينووى ، فقد استلفت نظرنا قبل ذلك ، بصيص يعذب بالأمل ، لاحتمال أن يكون قد احتفظ بآثار ما يمكن أن يدعى بنظام دينى مينووى عالمى ضمن العناصر المتباينة المظهر للكنيسة الأورفية[1] التاريخية التى تبدّت فى التاريخ الهلينى منذ القرن السادس قبل

(١) الأورفية : نسبة إلى أورفوس Orpheus وكان موسيقيا متصوفا من تراقيا . وينسب إليه إنشاد طقوس حافلة بالأسرار الغامضة . (المترجم)

الميلاد وما بعده . بيد أننا لسنا على يقين فيا إذا كان أى من الطقوس والمعتقدات الأورفية ، مستمد من الدين المينوى .

وبالمثل لا نعلم شيئاً عن البروليتاريا الداخلية للحضارة الحيثية التى بادت فى عمر غض غير عادى . ولا نملك سوى القول بأن المجتمع الهلينى لعله قد استوعب حكام المجتمع الحيثى تدريجياً وبصفة جزئية . واستوعب المجتمع السورى جانباً آخر .

وبالحرى أجدر بنا أن نبحث عن أية آثار لكيان المجتمع الحيثى فى تاريخى هذين المجتمعين الغريبين ....

إن المجتمع الحيثى هو واحد من عديد المجتمعات المتحللة التى التهمها مجتمع يجاورها قبل أن تستكمل عملية الانحلال دورتها . وطبيعى فى مثل تلك الحالات أن تنظر البروليتاريا الداخلية نظرة عدم اكتراث أو حتى بالرضا إلى المصير الذى يحل بأقليتها المسيطرة .

ويعتبر بمثابة حالة اختبار ، مسلك البروليتاريا الداخلية فى الدول العالمية الانديانية وقتما حطمها فجأة الغزاة الأسبان . ولعل الأريجون Orejones أخيرا كانوا أقلية مسيطرة قيض لمجتمع متحلل أن يبرزها إلى الوجود . لكن خيرها لم يعصمهم مما أصابهم فى محنتهم . فإن ماشيتهم وقطعانهم البشرية المعتنى بها اعتناء جيداً ، قد تقبلت الفتح الأسبانى بنفس الطواعية المتحفظة التى أظهرتها فى قبولها إمبراطورية الانكا .

وفى مكنتنا كذلك أن نشير إلى حالات رحبت فيها البروليتاريا الداخلية فى حماس إيجابى ، بقاهر الأقلية التى تسيطر عليها . فهناك الترحيب الذى عبرت عنه المناجاة ، البليغة التى وردت فى سفرى التثنية وأشعياء بالفاتح الفارسى للإمبراطورية البابلية الجديدة التى سبق لها سوق اليهود إلى الأسر . وبعد ذلك بمائتى سنة ، رحب البابليون أنفسهم بالإسكندر الهلينى باعتباره مخلصهم من الطغمة الأخيمنية .

٣ ـ البروليتاريا الداخلية اليابانية :

يتيسر تمييز بضعة شواهد واضحة لانشقاق البروليتاريا الداخلية اليابانية في تاريخ مجتمع الشرق الأقصى في اليابان . وهو مجتمع اجتاز عصر اضطراباته وولج مرحلة دولته العالمية قبل أن يبتلعه المجتمع الغربي .

وإذا تطلّعنا مثلا إلى النسخ المجانسة لمواطني الدول الهلينية هؤلاء ، الذين اقتلعتهم من مواطنهم سلسلة الحروب والثورات التي بدأت عام ٤٣١ ق . م . والذين اهتدوا إلى مخرج مخرب تمثل في تحولهم إلى جنود مرتزقة ، سنلاحظ تماثلا تاما بينهم وبين الرونين Ronin أو الجنود المتعطلين الذين لا سيد لهم ، والذين قذفت بهم الفوضى الإقطاعية إبان عصر الاضطرابات اليابانى .

ويتمثل الإيتا Eta « أو المنبوذين الذين ما فتئوا على قيد الحياة في المجتمع اليابانى الحالى ، في البقية الباقية التي لم يستوعبها بعد المجتمع اليابانى من الآينو Ainu البرابرة في الجزيرة الأساسية « هونشو » . ولقد أرغمت البروليتاريا الداخلية اليابانية برابرة الآينو على الانصهار فيها ، على غرار امتزاج برابرة أوروبا وإفريقيا الشمالية بالبروليتاريا الداخلية الهلينية بقوة السلاح .

وفى مكنتنا من جهة ثالثة ، أن نميز المعادل اليابانى لتلك « الأديان العليا » التي فتشت عنها البروليتاريا الداخلية وعثرت فيها على أقوى استجابة للمظالم التي كان عليها أن تتحملها تلك الأديان هي : الجودو Jodo والجودوشينشو Jodo shinshu والهوكى Hokke والزن Zen . وتأسست جميعها في غضون القرن الذى تلا عام ١١٧٥ ميلادية .

وتشابه هذه الأديان مثيلاتها الهلينية في أن مصدر إلهام الأديان اليابانية الأربعة دخيل على اليابان . فإنها جميعها انحرافات عن منهاج المهايانا[1] وتشابه ثلاثة من أربعة منها المسيحية من جهة أنها لقنت المساواة الروحية

(١) المهايانا هى بوذية شمال شرق آسيا . (المترجم)

للجنسين . وكان أحبار هذه الأديان عندما يتولون بأنفسهم مخاطبة جمهور لا يزال بعد على فطرته ، يطرحون اللغة الصينية القديمة . فكانوا إذا ما كتبوا يكتبون باللغة اليابانية الدارجة مستخدمين حروف طبع خطية مبسطة نسبيا . وكان مناط ضعفهم كونسى ديانات ، رغبتهم فى منح الخلاص إلى أكبر جمهور ممكن . فكان أن انحدروا بمطالبهم العقائدية من الناس إلى أوطأ حد . فأشار بعضهم بترتيل صيغ طقوسية ؛ واكتفى آخرون من مريديهم بتأدية فروض خلقية قليلة أو لاشيء البتة .

بيد أنه لا يغرب عن البال أن المذهب المسيحى الأساسى فى غفران الخطايا ، قد أسيء استعماله وأساء فهمه ، قادة من قواد المسيحية المزعومة فى أزمنة وفى أمكنة مختلفة . وكان ذلك مما يعرضهم لإحدى التهمتين أو كلتيهما . بيد أنه إذا كان لوثر قد هاجم مثلا بيع صكوك الغفران كما كانت تمارسها الكنيسة الرومانية فى أيامه ، معتبرا إياها عملية تجارية تحت ستار شعائر دينية تهدف أصلا لتحقيق التوبة ، إلا أن لوثر نفسه قد فتح فى نفس الوقت سبيل اتهامه ، بأنه يعتبر الأخلاق مسألة لا تستحق الاكتراث . وذلك بتأويله مسألة التبرير كما علمه بولص ، وجعله التعرض للخطيئة متوقفا على المصادفة المحضة .

٤ — البروليتاريات الداخلية فى ظل الدولة العالمية الداخلية :

تتيح مجموعة واحدة من الحضارات المتحللة مشهداً فذا مداره بقاء الأحداث المادية تسير قدما على خطوط سوية بعد ما تتلاشى الأقلية الوطنية المسيطرة أو تغلب على أمرها .

وتعرض لنا فى هذا المقام ثلاثة مجتمعات : الهندية ، والشرق الأقصى فى الصين ، والمسيحية الارثوذكسية فى الشرق الأدنى . فإنها جميعا قد مرت بفترة خمول عبر مرحلة الدولة العالمية ، على الطريق من مرحلة الانهيار إلى

الانحلال . فلقد تلقى كل من هذه المجتمعات الدولية العالمية ، محنة ـ أو إلزام ـ من أيدى دخيلة ، عوضاً عن إقامتها إياها لأنفسها ،

وتم ذلك على النحو التالى :

زودت الأيدى الإيرانية الكيان الأساسى من المسيحية الأرثوذكسية بدولة عالمية فى شكل الإمبراطورية العثمانية .

كما أتاحت الأيدى الإيرانية كذلك تزويد العالم الهندى بدولة عالمية فى شكل الإمبراطورية التيمورية (المغولية) . وأعادت الأيدى البريطانية بعد ذلك الحين ، تشييد الإمبراطورية المغولية الواهية على أسسها .

وقام المغـول فى الصين بالدور الذى قام به العثمانيون فى المسيحية الأرثوذكسية ، أو المغول فى الهند . فى حين قام المانشو فى الصين بالدور الذى تولاه البريطانيون فى الهند .

وبالحرى فإنه عند ما يضطر مجتمع إلى تقبّل مهندس معارى أجنبى لتجهيزه بدولته العالمية ، يعترف بقصور أقليته الوطنية المسيطرة وعقمها التامّين ؛ عندئذ تنحط الأقلية المسيطرة الوطنية عن مكانتها وتهبط إلى صفوف البرولتاريا الداخلية .

وقد يجد الإمبراطور المغولى أو الخاقان المانشو فى الصين والباديشاه العثمانى فى المسيحية الشرقية والسلطان المغولى فى الهند وقيصر الهند البريطانى ، من المناسب استخدام الكتاب الصينيين أو اليونانيين البراهمة الهنود ـ أيا ماتكون الحال ـ لكن لن تخفى على هؤلاء العملاء حقيقة قوامها : أنهم فقدوا نفوسهم مثلما فقدوا اعتبارهم . وواضح أنه فى وضع كهذا حيث أصاب الأقلية المسيطرة السالفة الخزى لتردّيها مع بروليتاريا داخلية كانت تنظر إليها فيما مضى بازدراء ، لن يتأتى لعملية الانحلال أن تسير كما ينبغى لها فى الظروف العادية أن تسير .

وفى وسعنا أن نميز فى البروليتاريا الداخلية للمجتمع الهندى فى جيلنا الحاضر ، رد الفعل البروليتارى المزدوج للعنف والدعة ، نميز ارتكاب مدرسة الثوار البنغاليين القتل العمد ، ومبدأ الامتناع عن العنف الذى بشر به الموجيراتى مهاتما غاندى . وهذا ما يُنبئنا به تاريخ ماض لثوران بروليتاريا أطول مدى ، يدلنا عليه وجود عدد من الحركات الدينية التى تبدت فيها كذلك نفس النزعتين المتضادتين . إذ نشاهد فى عقيدة السيخ ، قيام بروليتارية حربية بالتلفيق بين الهندوكية والإسلام . فى حين نجد فى عقيدة براهمو ساماج Brahmo-Samaj قيام بروليتاريا بعيدة عن العنف بالتلفيق بين الهندوكية والمسيحية البروتستانتية السمحاء .

وفى وسعنا أن نشاهد فى البروليتاريا الداخلية للشرق الأقصى فى الصين ، فى ظل نظام المانشو ، حركة «تا ، ايب ، انج «T.aib. ing التى سيطرت على المرحلة الاجتماعية إبان منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، والتى هى نتاج فعل البروليتاريا الداخلية . هذه الحركة تطابق عقيدة براهمو ساماج بما استعارته من المسيحية البروتستانتية ، لكنها تماثل عقيدة السيخ فى نزعتها الحربية .

ونهيئ لنا فورة الحمية الدينية فى سالونيك إبان العقد الخامس من القرن الرابع عشر الميلادى ، لمحة عن عنف رد فعل بروليتارى ، إبان أظلم ساعة من عصر اضطرابات المسيحية الأرثوذكسية فى الجيل الأخير ، قبل أن يقسر نظام الفاتح العثمانى العنيف ، المجتمع المسيحى الأرثوذكسى على الدخول فى دولة عالمية . ولم يصب رد الفعل الرقيق المطابق ، تقدما كبيراً جداً . ولكن ، لو لم تقتف عملية الاتجاه نحو الغرب ، أعقاب تصدع الإمبراطورية العثمانية بقوة عارمة ، فلعلنا نحدس أن الحركة البكتاشية تظفر لنفسها فى عصرنا الحاضر بمركز فى الشرق الأدنى أمكنها بلوغه بالفعل فى ألبانيا[1] .

---

(١) قضى على الحركة البكتاشية فى ألبانيا بعد سيطرة النظام الشيوعى عليها . (المترجم)

٥ ـ البروليتاريات البابلية والسورية :

سنجد إذا مضينا إلى العالم البابلى ، أن خبرة التجربة والكشف الدينية فى نفوس بروليتاريا داخلية أصابها الإجهاد المضنى ، بلغت درجة من النشاط فى جنوب غرب آسيا تحت حكم الإرهاب الأشورى إبان القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، مثلما بلغته على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الهلينية تحت حكم الإرهاب الرومانى بعد ذلك بستة قرون .

ولقد امتد فى اتجاهين ، نطاق انحلال المجتمع البابلى جغرافيا بين تضاعيف فعل الأسلحة الأشورية . وكان ذلك على غرار اتساع نطاق انحلال المجتمع الهلينى بين تضاعيف الفتوحات المقدونية والرومانية . فإلى الشرق وراء نهر زاجروس فى إيران ، سبق الأشوريون ـ بفضل إخضاعهم حشدا من المجتمعات البدائية ـ الرومان فى أعمالهم الفــذة وراء جبال الأبنين . وإلى الغرب وراء الفراتين ، سبقوا المقدونيين فى أعمالهم الفذة على الشاطئ الأسيوى من الدردنيلين[1] . وذلك بإخضاعهم حضارتين غريبتين هما السورية والمصرية اللتين أصبحتا مجانستين لحضارتين من الحضارات الأربع التى امتزجت فيما بعد بالبروليتاريا الداخلية الهلينية عقب حملات الإسكندر .

ولم يقتصر الأمر على غزو ضحايا النزعة العسكرية البابلية دون اقتلاعها من مواطنها . ويطالعنا فى شأن ترحيل سكان غُزيوا ، مثال تقليدى هو قيام ساراجون سيد الحرب الأشورى بازدراع[2] الإسرائيليين[3] وقيام نبوخذ نصر سيد الحرب لبابل الجديدة ، بازدراع اليهود فى قلب العالم البابلى ، فى بابل نفسها .

---

(١) أى مضيقا البسفور والدردنيل . (المترجم)

(٢) الازدراع هو نقل النبات من مكان لآخر . (المترجم)

(٣) القبائل العشر المفقودة . (المؤلف)

والواقع ، يعتبر تبادل السكان الإجبارى ، شيئا من ابتكار السيادة البابلية بغية حطم روح الشعوب المغلوبة . ولم يقتصر الحال وحده على ابتلاء الأجانب والبرابرة به ، إذ لم تتورع قوة العالم البابلى المسيطرة إبان حروبها الأهلية مع بعضها بعضا ، عن كيل نفس المعاملة لبعضها بعضا . ويعتبر وجود مئات قليلة من ممثلى طائفة السامريين فى الوقت الحاضر تحت ظل جبال جريزين ، أثرا خالدا على قيام الأشوريين بإخراج المبعدين من مختلف مدن الإمبراطورية البابلية بما فيها بابل نفسها ، فى سوريا .

ويتبين أن الحبل الأشورى[1] لم يفرغ نفسه ، قبل أن تبرز إلى الوجود بروليتاريا داخلية بابلية تفردت بحمل مشابهة مقاربة للبروليتاريا الداخلية الهلينية فى أصلها وتكوينها . وقد أثمرت كلتا الشجرتين نفس الفاكهة . فبينما كان على اندماج المجتمع السورى التالى فى البروليتاريا الداخلية الهلينية أن يثمر فاكهة تجلت فى انبعاث المسيحية من اليهودية ، تجلى إثمار الاندماج المبكر لنفس المجتمع السورى فى البروليتاريا الداخلية ، فى انبعاث اليهودية من الدين البدائى لأحد المجتمعات المحصورة التى تصادف أن ترابط بها المجتمع السورى .

وسنرى أنه بينما تبدو اليهودية والمسيحية « معاصرتين ومتكافئتين من الناحية الفلسفية » ــ إن أمكن اعتبارها مجرد نتاجى مرحلتين فى تاريخى مجتمعين أجنبيين ــ تبدو العقيدتان من خلال إحدى زوايا الرؤيا ، مرحلتين متعاقبتين فى عملية مفردة للاستنارة الروحية . ولا تقف المسيحية فى هذه

---

(١) Furor Assyriacus

(٢) يعزو العالم اليهودى فرويد انتقال الدين اليهودى من مرحلته البدائية إلى مرحلته الروحية العليا إلى تأثرها بعقيدة اخناتون عن التوحيد ويستدل على صحة رأيه بإظهار مدى الاختلاف بين عقيدتهم قبل دخول اليهود مصر ، وما طرأ عليها من تعديل جسيم بفضل احتكاكهم بفلسفة اخناتون . انظر ــ فرويد : Moses and Monotheism . (المترجم)

الصورة الأخيرة مع اليهودية جنبا إلى جنب ، بل تقف فوق كتفى اليهودية ، فى حين يسمو كلاهما على دين إسرائيل البدائى[١] .

وليست استنارة أنبياء إسرائيل ويهوذا قبل وبعد القرن الثامن قبل الميلاد ، هى المرحلة المتداخلة الوحيدة التى لدينا عنها سجل أو إشارة خلال الفترة القائمة بين المسيحية وعبادة ياهوه البدائية . وتظهر الرواية المأثورة عن الكتاب المقدس — قبل الأنبياء العبرانيين وبعدهم — شخصية موسى ، وتظهر شخصية إبراهيم قبلها .

ومهما يكن من أمر وجهة نظرنا حيال الإصالة التاريخية لهاتين الشخصيتين غير الواضحتين ، إلا أنه مما يلاحظ أن الرواية المأثورة تضع إبراهيم وموسى كليهما فى نفس الوضع مثلما تضع الأنبياء والمسيح . إذ اتفق ظهور موسى مع اضمحلال « الإمبراطورية الجديدة فى مصر » ، واتفق ظهور إبراهيم مع الأيام الأخيرة للدولة العالمية السومرية عقب قيام حورابى باستعادة بنائها فترة قصيرة . وبالحرى تفسر المراحل الأربعة وفقا لما يبدو من بين ثنايا سير إبراهيم والأنبياء العبرانيين والمسيح ، العلاقة بين أغلال الحضارات والدعوات الدينية الجديدة .

وخلف بدء الدين اليهودى إبان مرحلته العليا ، سجلا حافلا يتسم بالوضوح إلى أبعد حد ، فى أسفار أنبياء إسرائيل ويهوذا قبل الأسر البابلى[١] . ويطالعنا فى هذه السجلات القائمة الحافلة بالجهد الروحى الرائع ، السؤال المتقد الذى سبقت لنا مجابهته فى مكان آخر . إلا وهو الاختيار عند مواجهة المحنة ، بين العنف والأسلوب الوديع . ألا أن الأسلوب المسالم قد ساد فى هذه الحالة . وذلك لأن عصر الاضطرابات قد وجه لما بلغ نقطة ذروته وتجاوزها ، سلسلة من الضربات القاضية التى لقنت المشاكسين فى يهوذا[٢] درسا عن عقم رد العنف بالعنف .

(١) الأسر البابلى : ٦٠٠ ق . م . (المترجم)
(٢) المنطقة اليهودية الشمالية . (المترجم)

ولقد بلغ الأسلوب الدينى الجديد فى سوريا بين الجماعات التى طحنتها المدقة الآشورية فى أراضيها الوطنية أثناء مرتبة النضوج فى مرحلته العليا التى بدأت خلال القرن الثامن قبل الميلاد فى بلاد بابل ، إبان القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، بين ظهرانى سلالة شعب من هذه الشعوب المطحونة والتى اقتلعت وأبعدت .

وكان المنفيون اليهود فى بابل خلال عصر نبوخذ نصر – مثلما كان الأرقاء المُبعدون فى إيطاليا الرومانية ، دليلا ينهض ضد الانقياد لأهواء غزواتهم النفسية ، انقيادا أعمى :

إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى .
ليلتصق لسانى بفمى إن لم أذكرك .

ولم يقتصر تأثير ذكرى هؤلاء المنفيين لوطنهم فى أرض غريبة على منحاها السلبى . إذ كان لها أثر إيجابى يتجلى فيما أبدعوه من أعمال تتسم بتوقد الخيال . ففى ظل هذه الرؤيا اللادونيوية التى كانت تستبين من خلال غمام الدموع ، أخذ الحصن المنهار يتألق فى شكل مدينة مقدسة أقيمت على صخرة يجب أن تصمد لبوابات جهنم . ولقد كان الأسرى الذين صدّفوا عن إشباع ميزاج آسريهم بإنشاد إحدى ترنيمات صهيون ، وعلقوا فى عناد « أعوادهم على صفصاف تيار الفرات » ، يؤلّفون فى الوقت ذاته لحنا جديدا غير مسموع على قلوبهم ، وقلوبهم هى الآلة الموسيقية الغير المنظورة .

« على أنهار بابل جلسنا ، بكينا عندما تذكرناك يا صهيون » . وفى غمار ذلك البكاء استكملت اليهودية استنارتها .

وظاهر أن المشابهة بين التاريخين البابلى والهلينى ، قريبة جدا فيما يتصل بردود الفعل الدينية للمنفيين انخرطوا فى صفوف بروليتاريا داخلية غربية . بيد أن الاستجابة التى أظهرت التحدى البابلى للعيان ، لم يقتصر الحال على

انبعاثها من أولئك الضحايا الذين كانوا أعضاء فى حضارة أجنبية ، بل إنها قد انبعثت بالمثل عن الضحايا البرابرة . فإنه وأن لم يقم برابرة أوروبا وشمال أفريقيا الذين غزتهم الجيوش الرومانية ، بأية كشوف دينية خاصة بهم ، وانحصر أمرهم فى تقبّل البذرة التى زرعها فيما بينهم رفاقهم البروليتاريون من ذوى الأصل الشرقى ، أنجب البرابرة الإيرانيين الذين مرّوا تحت المجرفة الآشورية ، نبيا وطنيا فى شخص زرادشت Zarathustra مؤسس الزرادشتية .

إن تاريخ زرادشت موضع خلاف . ولا نستطيع القول عن ثقة ، فيما إذا كان كشفه الدينى يعتبر استجابة منفصلة للتحدى الآشورى ، أو أن صوته كان مجرد ترديد لصيحة أنبياء إسرائيليين منسبين استنبذوا[1] فى « مدن مادى » . على أنه مهما يكن من أمر الصلات الأصلية بين هذين « الدينين الراقيين » فإن الزرادشتية واليهودية – كما هو ظاهر – قد تقابلتا عند نضوجها فى صعيد واحد .

وأيا ما يكون الحال ، فقد أدى تدمير آشور ، إلى وضع حد لعصر الاضطرابات البابلى . وكان أن أصبح العالم البابلى دولة عالمية فى صورة الإمبراطورية البابلية الجديدة . وبدا عندئذ كما لو أن اليهودية والزرادشتية تتنافسان على شرف إقامة نظام دينى عالمى داخل نطاق هذا الإطار السياسى ، مثلما تنافست المسيحية وعقيدة ميثرا[2] Mithraism على تبوّء المكانة داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية .

---

(١) استنبذ : أنزل شخصا على شاطئ مهجور وتركه القدر . (المترجم)

(٢) ميثرا فى الأصل هو إله الضياء الآرى القديم . ثم أطلق عليه أتباع زرادشت « آهورمازدا » الذى يصارع فى اعتقادهم « أهدامانا » أيد الظلام صراعا أبديا . ثم تجسد ميثرا فى إله الشمس فأصبح بذلك محور عقيدة نشرها فى روما أيام الإمبراطور بومبى عام ٦٨ ق . م أسرى القرصان النالسيون . وكان الرومان يرسمون إله الشمس فى شكل شاب جميل يجرد سيفا على رقبة ثور يسترحم . وتطورت عقيدة ميثرا تطورا خلاصته استيعابها قدرا كبيرا من الأساطير اليونانية . وظلت قائمة حتى القرن الرابع الميلادى وقت أن تمكنت المسيحية من القضاء عليها .
(المترجم)

وهذا ما لم يكن مقدراً ؛ لسبب كاف جداً مداره أن الدولة العالمية البابلية الجديدة ، قد أثبتت أنها سريعة الزوال إن قورنت بزميلتها الرومانية ؛ ولم يأت بعد نبوخذ نصر — وهو يعادل قيصر أغسطس فى التاريخ الرومانى — فى فترات من القرون ، أمثال تراجان **Trajan** وسفيروس **Severus** وقسطنطين **Constantine** . إذ كان خليفاه المباشران نابونيدوس **Nabonidus** وبيلشاصار **Belshazzar** غير جديرين بالمقارنة إلا بجوليان **Julian** وفالينز **Valens** وإلى حد ما . فكان أن سلمت الإمبراطورية البابلية الجديدة إلى مادى وفارس ، فى غضون فترة تقل عن القرن ، وكانت تلك الإمبراطورية الاخيمينية : إيرانية من الناحية السياسية ، سورية فى مظهرها الثقافى .

وهنا انعكس من ثم دور الأقلية المسيطرة والبروليتارية الداخلية .

وقد كان يتوقع فى مثل هذه الظروف ، أن يصبح انتصار اليهودية والزرادشتية أوطد وأسرع . لكن آلهة الحظ قد تدخلت بعد ذلك بمائتى عام ودفعت سير الأحداث فى إتجاه جديد غير متوقع ، فسلّمت مملكة مادى وفارس إلى أيدى فاتح مقدونى . فكان أن ترتب على مداخلة المجتمع الهلينى للعالم السورى ، تمزّق الدولة العالمية السورية إلى شذرات ، قبلما تنجز رسالتها بزمن طويل .

وهكذا ، انساقت الديانتان الراقيتان اللتان كانتا تنتشران سلميا (كما يوحى بذلك النذر اليسير من أدلتنا) فى ظل العهد الأخيمينى ، صوب طريق منحرف قاد إلى دمارهما . ويتمثل هذا الطريق فى استعاضتهما عن وظيفتهما الدينية الأساسية بدور سياسى .

إذ استحالت كلتاهما — كل واحدة منهما فى ميدانها الخاص — إلى داعيتين للحضارة السورية فى صراعها ضد التدخل الهلينى . مع فارق أن اليهودية فى موقعها الغربى على مرمى البصر من البحر الأبيض المتوسط ، قد قضى عليها بالسعى وراء الأمل الضائع ، وحطّمت نفسها — ببلادة —

بتحديها قوة روما المادية إبان الحرب الرومانية اليهودية : فى السنوات ٦٦ — ٧٠ ميلادية و ١١٥ — ١١٧ و ١٣٢ — ١٣٥ .

أما الزرادشتية فى موقعها الثابت شرق زاجروس خلال القرن الثالث الميلادى ، فقد شرعت تكافح فى ظل ظروف اتسمت بعدم تكافؤها إن قورن كفاحها بكفاح اليهود فى ظل ظروف أقل مدعاة للقنوط . فقد وجدت فى المملكة الساسانية ، سلاحا لحمايتها ضد الهلينية ، أعظم فى تأثيره مما كان فى وسع اليهودية أن تصنعه من إمارة المكابيين الصغيرة . فاستطاعت الساسانية تدريجياً ، استنفاد قوة الإمبراطورية الرومانية فى صراع دام أربعمائة سنة بلغ ذروته إبان الحروب الرومانية الفارسية المهلكة (٥٧٢ — ٥٩١) و (٦٠٣ — ٦٢٨) . بيد أنه اتضح مع ذلك أن الدولة الساسانية غير قادرة على استكمال مهمة طرد الهلينية من آسيا وإفريقيا . وكان على الزرادشتية فى النهاية أن تدفع ثمناً باهظا مثلما دفعته اليهودية ، لانهماكها فى تحقيق عمل سياسى بحت . ويعيش البارسيون فى الوقت الحاضر — مثلهم مثل اليهود — معيشة «التشتت»[1] ليس إلا . وفقدت الديانتان المتحجرتان اللتان لا تزالان تربط كل منهما بين أعضاء جماعتها المتفرقين ، رسالتهما إلى البشرية واستحالتا إلى بقايا متحجرة للمجتمع السورى البائد .

ولم يقتصر ضغط الطاقة الثقافية الغربية على مجرد تحويل هاتين « الديانتين الراقيتين » صوب مسالك سياسية ، بل شطرتهما إلى شظايا . وذلك أنه بعد ما تحولت اليهودية والزرادشتية إلى أداتين للمعارضة السياسية ، اتخذت العبقرية السورية الدينية من تلك العناصر من السكان السوريين ، ملجأ لها ؛ عناصر طفقت تعمل على إبراز رد فعل ضد التحدى الهلينى ، فى أسلوب يتسم بالمسالمة وبعيداً عن العنف . وإن الديانة السورية باتجاهها المسيحية والميثرية[2] باعتبارهما

---

(١) Diaspora .

(٢) عقيدة ميثرا Mithraism . (المترجم)

مساهمة منهما فى المخاض الروحى لبروليتاريا داخلية هلينية ، قد عثرت على تعبيرين جديدين للروح والمظهر اللذين « نبذتاهما » اليهودية والزرادشتية .

وبعد ما قيّض للمسيحية - باستخدام قوة الوداعة - أسر غزاة العالم السورى الهلينيين ، انقسمت إلى جماعات ثلاث : كنيسة كاثوليكية امتزجت بالهلينية ، وكنيستان هرطيقيتان مضادتان لها هما النسطورية المينوفيستية ، واصلتا دورى الزرادشتية واليهودية السياسيين المكافحين ، دون أن يستكملا أى نجاح حاسم آخر لإبعاد الهلينية عن الميدان السورى .

ولم يركن المعارضون السوريون فى كفاحهم للهلينية إلى اليأس والخمول رغما عن تعاقب فشلهم . فقد أعقبت المحاولتان محاولة ثالثة ، توجت بالنجاح وقيض الفوز السياسى النهائى للمجتمع السورى على الهلينية بفضل التوسل بديانة أخرى سورية الأصل[١] هى أيضاً . فلقد استطاع الإسلام فى خاتمة المطاف أن يقضى على الامبراطورية الرومانية فى جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا ، وأن يزوّد الدولة العالمية السورية المستعادة - « وهى الخلافة العباسية » - بديانة عالمية .

٦ - البروليتاريتان السندية والصينية :

ترتب على تدخل الهلينية فى المجتمع السندى انقطاع سيره نحو الانحلال مثله فى ذلك مثل المجتمع السورى . ومن الطريف أن نشاهد - فى هذه الحالة - إلى أى مدى أبرز تحد مماثل ، رد فعل مماثلا :

فى الوقت الذى حدث فيه أول اتصال بين المجتمعين السندى والهلينى - نتيجة إغارة الإسكندر على حوض السند - كان المجتمع السندى على وشك أن يصبح دولة عالمية ، وكانت أقليته المسيطرة قد استجابت منذ ؛ من طويل لمحنة الانحلال بوساطة إيجادها مدرستى « الجانيه » Jainism

(١) يقصد المؤلف باصطلاح سورية الأصل ، أنها نشأت فى بلاد تنتسب إلى الحضارة السورية . (المترجم)

و « البوذية » الفلسفتين . بيد أنه لا يوجد دليل على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع السندى قد أنتجت أية « ديانة راقية » . فإن الملك البوذى الفيلسوف آشوكا Acoka الذى تولى عرش الدولة السندية العالمية من ٢٧٣ إلى ٢٣٢ ق . م . قد سعى دون أن يصادف نجاحا ، إلى تحويل جيرانه الهلينين إلى فلسفته . ولم يحدث إلا فى تاريخ متأخر ، أن استولت البوذية عنوة على المقاطعة القصبية – على اتساعها وأهميتها – التى كانت تشغلها مملكة باكتريا اليونانية والتى كانت جزءاً من ذلك العالم الهلينى الذى تلا عصر الإسكندر .

لكن البوذية ، لم تفز بهذا الغزو المضاد الروحى المنتصر ، إلا بعد أن مرت بعملية انسلاخ غير عادية ، استحالت خلالها الفلسفة القديمة لأتباع جارتا جوتاما[1] إلى دين المهايانا الجديد :

« إن المهايانا هى فعلا دين جديد ، يتباين تباينا أصيلا عن البوذية الأولى ، حتى إنه ليتصل اتصالا متعدد النواحى بالديانات البرهمية الأخيرة مع سالفتها ذاتها . . ولم يتحقق تماما – بصفة أصلية – ماهية الثورة ذات الطابع الأساسى التى حولت الديانة البوذية – وذلك وقتما حققت الروح الكامنة فيها منذ أمد طويل – أقصى مداها إبان القرن الأول الميلادى . وإننا إذ تطالعنا تعاليم فلسفية عن السبيل إلى الخلاص الشخصى النهائى ، تنكر الروح وذات طابع إلحادى (لأن قوامها فناء الحياة فناء مطلقا وعبادة

---

(١) إنه سؤال جدلى قد لا يتأتى أبدا الرد عليه ردا قاطعا . مداره فيما إذا كانت الفلسفة البوذية – كما وضحت فى الفقرة السابقة التى وردت فى مؤلف أحد العلماء الروس – التى كانت المهايانا ثورة ضدها ، هى صورة منقولة عن التعاليم الشخصية لسيدهارتا جوتاما نفسه ، أو أنها تحريف لها . ويقدر بعض العلماء – إلى المدى الذى تستطيع إلقاء لمحات عن تعاليم البوذا الشخصية نفسها نيما وراء طلاء الفلسفة المنسقة التى تبديها لنا أسفار المهايانا – بأن فى وسعنا أن نتكهن بأن البوذا نفسه لم يشك فى حقيقة النفس وذواتها ، وأن النيريفانا التى كانت هدف أعماله الروحية ، كانت شرطا للفناء المطلق – لا للحياة فحسب – ولكن لنقاية الانفعال الذى وجد الحياة عن أن تعيش معيشة كاملة ، ما دام يتشبث بالحياة . (المؤلف)

تتجه فحسب إلى ذكرى مؤسسها البشرى) ؛ عندما تحل محل تلك التعاليم ديانة عليا رائعة تعترف بوجود العزة الإلهية ويحف بها عديد من الشخصيات الإلهية الثانوية ، وتضم تلك الديانة حشدا من القديسين : دين يقسم بنزعته التعبدية وطقوسه العليا ونظامه الكهنوتى ويحتوى على فكرة مثالية عن الخلاص الشامل لجميع المخلوقات الحية ، خلاص يتم بفضل النعمة الربانية للبوذا وصوره المتفرعة عنه ، خلاص يتم بواسطة الحياة الأبدية لا عن طريق الهلاك – إن علمنا ذلك ، فإن ثمة ما يؤيد استمساكنا بالقول بأن تاريخ العقائد لم يشهد إلا فيما ندر مثل هذه الثلمة بين الجديد والقديم داخل سياج ما استمر مع ذلك يدعى انحداره عن نفس المؤسس الدينى »[١] .

وحقا فإن هذه البوذية المتحولة التى وفدت لتزدهر فى الشمال الشرقى من عالم هيلينى متسع ، هى دين سندى « أرقى » إن قورنت بالعقائد الأخرى التى طفقت فى نفس الوقت تغزو المجتمع الهيلينى .

فما هو أصل هذه العقيدة الشخصية[٢] التى كانت السمة المميزة للماهايانا وسر نجاحها على السواء ؟

كانت هذه الخميرة الجديدة التى غيرت من روح البوذية بهذا العمق ، أجنبية عن المزاج الوطنى للفلسفة السندية مثلما هى أجنبية عن الفلسفة الهلينية .

فهل كانت ثمرة تجربة البروليتاريا الداخلية السندية ، أو كانت قبسا اقتطع من اللهب السورى الذى أشعل قبل ذلك الزرادشتية واليهودية ؟

يتيسر إيراد الدليل على صحة كل من الرأيين . إلا أننا لسنا فى الواقع ، فى مركز يتيح التفضيل بينهما . وحسبنا أن نذكر أن التاريخ الدينى للمجتمع السندى ، يبدأ منذ ظهور هذا الدين البوذى « الأرقى » على المسرح ، يتخذ نفس المجرى الذى اتخذه المجتمع السورى الذى سبقت الإشارة إليه :

---

(١) Sicherbatsky : The Creation of the Buddist Nirvana صفحة ٣٦

(٢) البوذية عقيدة شخصية لاستنادها المطلق على شخصية البوذا . (المترجم)

وواضح أن المهايانا – باعتبارها « دينا أرقى » انطلق من حشا المجتمع الذى قام فيه بغية التبشير بعالم هيليني – هى نسخة مطابقة للمسيحية والميثرية : Mithraism وبهذا المفتاح ؛ نستطيع التحقق فى سهولة ، من هذه المطابقة السندية لهذه الأشعة الأخرى التى انعطف صوبها ضياء المجتمع السورى بفضل تدخل المنشور الهليني .

فإذا ما بحثنا فى المجتمع السورى (فى مرحلته السابقة للهلينية) عن المعادل السندى لهذه « المتحجرات » التى بقيت عند اليهود والبارسيين ؛ سنعثر على ما نبحث عنه فى بوذية هينايانا الحالية ، فى سيلان وبورما وسيام وكمبوديا . وهذا الضرب من البوذية هو أثر من الفلسفة التى سبقت بوذية ماهايانا . وكان على المجتمع السورى أن ينتظر انبعاث الإسلام لتتوافر له عقيدة دينية يستخدمها أداة فعالة لاقتلاع جذور الهلينية ، فإن المثل يقال بالنسبة للمجتمع السندى . فلقد استكمل هذا المجتمع عملية تخليص الجسم الاجتماعى السندى من تدخل الروح الهلينية فيه ، بفضل حركة سندية محضة مناهضة للهلينية ، تمثلت فى العقيدة الهندوسية التى تلت البوذية ، ولم يتم ذلك بواسطة عقيدة المهايانا .

ويتطابق تاريخ المهايانا ؛ مع المسيحية الكاثوليكية إلى المدى الذى تناولناه حتى الآن . وذلك من اتجاه مجال نشاطهما صوب العالم الهليني ، عوضا عن هداية المجتمع غير الهليني الذى انبعث عنه كل منهما .

بيد أن ثمة فصلا آخر من تاريخ المهايانا لا تهيئ الكنيسة المسيحية له نظيرا . فإن المسيحية – وقد اتخذت مقرا لها فى مجال المجتمع الهليني المحتضر – قد ظلت هناك وعاشت فى النهاية لتزود بالكنائس حضارتين جديدتين : الغربية والمسيحية الأرثوذكسية . أما المهايانا – من الجهة الأخرى – فقد انصرفت صوب العالم الصينى الفانى عبر المملكة الباكترية

الهلينية الزائلة الواقعة بين هضاب آسيا الوسطى ، وأصبت المهايانا — بسبب الانتقال المزدوج من أرض ميلادها ؛ النظام الديني العالمي للبروليتاريا الصينية الداخلية .

٧ — تراث البروليتاريا الداخلية السومرية :

استولد المجتمع السومرى ، مجتمعين : البابلى والحيثى . ولا نستطيع هنا كشف أية عقيدة عالمية فى حشا البروليتاريا الداخلية السومرية ، أو فى داخلية ورثتها ؛ أى الحضارتان المستولدتان :

ويظهر أن المجتمع البابلى قد اعتنق ديانة الطبقة المسيطرة السومرية ، وأن النظام الدينى الحيثى ، قد اشتُق جزئياً من نفس المصدر . بيد أن معلوماتنا عن التاريخ الدينى للعالم السومرى ، قليلة للغاية . ولا نملك سوى القول بأنه إذا كانت عبادة تموز Tammuz[1] وعشتار Ishtar هى بالفعل أثر من آثار البروليتاريا الداخلية السومرية ؛ إلا أن هـــذه المحاولة ذات الفعل الإبداعى ، قد لازمها العقم داخل المجتمع السومرى ذاته ، بينما أثمرت ثمرتها فى أماكن أخرى .

ولقد كان أمام هذين الربّين السومريين — الذكر منهما والأنثى — عملا شاقا وأسفارا متعددة حتى ينجزا فعلهما الإبداعى . ومن المظاهر الطريفة لتاريخهما المعقّب ، التحوّل الذى طرأ على أهميتهما النسبية . ففى الصيغة الحيثية لعبادة هذا الزوج من الأرباب ، تضاءلت الصورة المذكرة للربوبية أمام الشكل الأنثوى الذى استطاع حجب الإله المذكر كذلك . ويؤدى الإله المذكر أمام الربة دورين متباينين ومتناقضين حقاً : دور الابن ودور المحب ، أى المحمىّ والضحية .

(١) تموز : يمثل اضمحلال الحياة الطبيعية ونماءها . وتذكر الأسطورة المتصلة به ، إنه يهبط فى جزء من السنة على العالم السفلى (عالم العقاب) ، ولكن تنقذه من هناك أخته عشتارت . ويسمى اليوم باسم تموز أحد شهور السنة العربية (يوليه) نقلا عن البابلية . (المترجم)

وعلى ذلك يطالعنا تضاؤل أهمية الإلهين الذكرين آتيس[١] وتموز إلى التفاهة إلى جانب الإلهتين سيبيل[٢] وعشتار ، كذلك تظهر الربة نيرثوس[٣] Nerthus (وتعادل عشتار) فى حرمها المقدس بجزيرتها القصية الشمالية الغربية ، يطوبها تيار المحيط ، واقفة تحفها الجلال وحيدة من غير أى قرين ذكر .

بيد أن أهمية تموز[٤] تتزايد ، بينما تتضاءل عشار ، إبان مسير رحلة الزوج الإلهى من الجنوب صوب الغرب إلى سوريا ومصر . وعلى ذلك استند حتى آتارجاتيس Atargatis كما يدل عليها اسمها المشتق من عشار والتى انتشرت عبادتها من بابيس Bambyce إلى عسقلان ؛ فى توقير دورها بحسبانها قرينة آتيس . وكان آدونيس (ويعادل تموز) فى فينيقيا ، السيد الذى كانت عشتاروت (وتعادل عشتار) تبكى موته السنوى . ونجد أوزيريس (ويقوم فى الدنيا المصرية مقام تموز) يحجب إيزيس أخته وزوجته . لكن إيزيس بدورها قد حجبت أوزيريس بكل تأكيد ، وقلما ظفرت لنفسها بملك عريض فى قلوب البروليتاريا الداخلية الهلينية .

ويبدو أن هذه الصيغة من العقيدة السومرية ، حيث يتركز ولاء العابد على شخصية الإله الميت ولا يتجه إلى الربة النائمة ، قد انتشرت بين ظهرانى

---

(١) أتيس Atys أو Attis أحد الأرباب اليونانيين وقد انتشرت عبادته فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا الوسطى . (المترجم)

(٢) سيبيل Cybele هى فى الأساطير اليونانية زوجة كرونوس ووالدة زيوس وبوسيدون وهيدس فكانت تعبد على أنها أم الآلهة . وكان ينظر إليها فى آسيا الصغرى على أنها إلاهة الطبيعة أو أم الكون . وكانت عبادتها تقترن بطقوس وحشية . (المترجم)

(٣) نيرثوس Nerthus أو هيرثا Hertha ؛ كانت فى الأساطير التيوتونية ربة الخصب وأم الكون . (المترجم)

(٤) يستخدم الأستاذ توينبى اصطلاح « تموز » هنا إشارة إلى الشكل المذكر من الربوبية على اختلاف أسمائه باختلاف البلاد . والمثل يقال عن استخدامه اصطلاح « عشتار » بالنسبة للشكل الانثوى من الربوبية . (المترجم)

برابرة اسكندنافيا البعيدين حيث كان بولدر Bolder (ويعادل تموز) يلقب بالسيد ، بينما ظلت قرينته نانا Nana العديمة الشخصية ، تحتفظ بالاسم الضخم للأم الإلهة السومرية .

٣ — البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى

استكمالا لاستعراضنا طوائف البروليتاريا الداخلية ، علينا أن نفحص الحالة التى تقع فى أقرب مكان منا ، ونعنى عالمنا الغربى .

فهل تظهر فى تاريخ الغرب الخصائص المميزة لها ؟

قد نجد أنفسنا إذ ننشد الدليل على وجود البروليتاريا الداخلية الغربية ، فى خضم من المعلومات يقود لضخامته إلى الارتباك .

إذ لاحظنا من قبل ، أن المجتمع الغربى قد استطاع أن يجتذب إليه إلى حد هائل ؛ أحد المصادر التى منها تستقى البروليتاريا الداخلية المدد بانتظام . فإن الطاقة البشرية لما لا يقل عن عشر حضارات متحللة ، قد ألحقت طوال الأربعمائة سنة الأخيرة بالكيان الاجتماعى الغربى . وإلى المشاركة فى البروليتاريا الداخلية — التى هبط إلى مستواها أفراد الشعوب الأخرى — تعزى عملية توحيد المقاييس . وهى عملية قادت فعلا إلى طمس الخصائص المميزة التى تميزت بها فيما مضى عن بعضها بعضاً ، تلك الجماهير الغير المتجانسة . بل إنها قد أزالت خصائصها فى بعض الحالات .

ولم يكتف المجتمع الغربى بافتراس أناس من نفس نوعه « الحضارى » . فلقد ساق إلى حظيرته كذلك ، كافة المجتمعات البدائية تقريبا . وبينما أخذت طائفة من تلك المجتمعات مثل التسمانيين ومعظم القبائل الهندية الأمريكية تفنى تحت تأثير الصدمة ؛ أخذ غيرها — مثل زنوج إفريقيا المدارية — يكيّف نفسه ليبقى حيا للبقاء ، بجعله نهر التيجر يتدفق صوب خليج الهدسون ، ونهر

الكونغو صوب نهر المسيسبي . وذلك على غرار ما أدت إليه أوجه النشاط الغربي نفسه ، الذي دفع مياه نهر اليانجتسى إلى بوغاز ملكا[١] . إذ شحن الأرقاء الزنوج من جانب لآخر إلى أمريكا وشحن الأجراء التاميليون[٢] أو الصينيون إلى السواحل الاستوائية ، أو السواحل المتاوحة للمحيط الهادى . وهؤلاء يعتبرون نسخا مطابقة للأرقاء الذين طفقوا يشحنون إبان القرنين السابقين للمسيح ، من جميع سواحل الأبيض المتوسط إلى مراعى إيطاليا الرومانية ومزارعها .

وثمة فريق آخر من الدخلاء المسخرين ، يدخل فى نطاق البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربي . ولم ينتزع أفراده — من الناحية المادية — من ديار أجدادهم ، لكنهم من الوجهة الروحية قد اقتلعوا ووجهوا وجهات أخرى . وتحتاج كل جماعة تنشد حل مشكلة تكييف حياتها وفقا لإيقاع تصدره حضارة أجنبية ، إلى طبقة اجتماعية خاصة لتقوم بوظيفة تطابق وظيفة « المحول الكهربائى » الذى يغير التيار الكهربائى من طاقة كهربائية إلى أخرى . هذه الطبقة التى تنبعث انبعاثا (غالباً ما يكون بغتة واصطناعا) استجابة للطلب عليها ، قد أصبحت تعرف بصفة شاملة من الاسم الروسى الخاص بها وهو « الطبقة المستنيرة » Intelligentsia .

والطبقة المستنيرة هى طبقة ضباط الاتصال الذين تعلموا فن حرفة التطفل الحضارى بالقدر الكافى لمعاونة جماعة من الجماعات على الاحتفاظ بمركزها فى وسط اجتماعى لم تعد فيه الحياة تتوقف على البقاء فى نطاق التقاليد المأثورة . بل أصبحت الحياة تسير وفقاً لأسلوب تفرضه الحضارة المقتحمة ، على الدخلاء الذين يقعون تحت سلطانها .

---

(١) هذا التشبيه مقتبس من تشبيه سبق أن أورده الأديب اليونانى جوفينال . إذ وصف تدفق الشرقيين السوريين أشباه المليئيين على روما فى عصره (فى أوائل القرن الثانى بعد المسيح) بانسياب مياه نهر العاصى إلى نهر التيبر . (المؤلف)

(٢) جنس يسكن جنوب الهند وجزيرة سيلان ويعرف بجنس التاميل . (المترجم)

وتمثل أول المنخرطين فى صفوف الطبقة المستنيرة ، فى ضباط الجيش والبحرية الذين ثقفهم الفن العسكرى للمجتمع المسيطر ، بالقدر الذى قد يكون ضرورياً لإنقاذ وطنهم . ومن ثم أنقذوا روسيا إبان عصر بطرس الأكبر من هزيمتها على يد السويد الغربية ، وأنقذوا تركيا واليابان إبان عصر تال من هزيمتها على أيدى روسيا التى كانت قد بلغت مرتبة من الاتجاه الغربى تكفى لتمكينها من شن هجوم لحسابها . ويأتى بعد ذلك رجل السلك السياسى الذى تعلم كيفية إدارة المباحثات مع الحكومات الغربية ، تلك المباحثات التى يفرضها على جماعته ، فشلها فى فرض شروطها هى بالحرب . ولقد رأينا أن العثمانين كانوا يستخدمون رعيتهم[1] لهذا العمل الدبلوماسى ، إلى أن حدثت دورة أخرى للولب ، أجبرت العثمانين على أن يستأثروا لأنفسهم بتلك الحرفة البغيضة لأنفسهم . ويأتى فى صفوف الطبقة المستنيرة بعد ذلك ، التجار ، تجار هونج كونج وتجار كانتون ، وتجار الشام ، والتجار اليونانيون والأرمن فى أملاك الباديشاه العثمانى .

وأخيراً فإن الطبقة المستنيرة ـ باعتبارها خميرة أو جرثومة النزعة الغربية ـ التى تعمل بعمق فى الحياة الاجتماعية للمجتمع الذى هو بسبيله إلى الاختراق أو الاستيعاب ـ تبدو أكثر نماذجها المميزة : المدرس الذى تعلم حرفة تلقين الموضوعات الغربية ، الموظف الذى استجمع أسلوب قيادة الإدارة العامة وفقاً للأوضاع الغربية ، والقانونى الذى اكتسب القدرة على تطبيق صورة من قانون نابليون وفقاً للإجراءات القضائية الفرنسية .

وأينما وجدنا طبقة مستنيرة ، فقد لا نستدل فحسب على اتصال حضارتين ، ولكن على أن إحداهما توشك على الاندماج فى البروليتاريا الداخلية للحضارة الأخرى . وفى وسعنا أن نلاحظ كذلك حقيقة أخرى

---

(١) يقصد الأستاذ توينبى باصطلاح « الرعية » هنا ، رعايا السلطان من ذوى الأصول الغير الإسلامية . (المترجم)

فى حياة طبقة مستنيرة ، حقيقة كتبت ملامحها بوضوح ليقرأها الجميع : طبقة مستنيرة خلقت لتكون تعيسة .

وتكابد طبقة الاتصال هذه من التعاسة الكامنة فى فكرة الخلاص التى تنبذها كلتا العائلتين اللتين اشتركتا فى عملية إنجاب هذه الطبقة . فإن الطبقة المستنيرة تكابد كراهية شعبها نفسه لما يعنيه مجرد وجودها من توجيه اللوم إليه . إذ يعتبر وجود الطبقة المستنيرة بين ظهرانيه تنبيه حى له بالحضارة الدخيلة المكروهة ، والتى لا مفر فى نفس الوقت من وجودها والتى لا يمكن صدّها ؛ ومن ثم لا مناص من مسايرته إياها . فكان الفريسى مصداقاً لذلك ، يذكر هذا فى كل وقت يقابل « العشار Publicania »[١] ، كما يذكره الفرد من الطبقة المتعصبة اليهودية عندما يقابل الهيرودى المتعايش .

وبينما لا يتوافر للطبقة المستنيرة فى بلدها حب مفقود ، لا يخلع عليها مرتبة الشرف البلد الذى جهدت صادقة لإتقان أساليبه وحيله[٢] ، ففى الأيام الأولى للارتباط التاريخى بين الهند وإنجلترا ، كانت الطبقة المستنيرة الهندية — التى احتضنها الحكم البريطانى لإنجاز غاياته الإدارية — موضوعاً مألوفاً للزراية الإنجليزية . وكلما كان البابو Babu[٣] يتقن الإنجليزية كلما ازداد « الصاحب »[٤] ضحكاً متهكماً على العجز المستور الذى يتطرق حتما إلى حديث الهندى ، وكان هذا الضحك مبعث ألم ، حتى وإن صدر عن حسن نية .

---

(١) العشار أو كما كان يدعى فى روما القديمة : Publiani من رجال الأعمال . وكان يرسو عليه مزاد تحصيل الضرائب العامة أو مناقصة تنفيذ المشروعات العامة . ولقد استطاعت طبقة العشارية بمرور الأيام أن تستحوز لنفسها على قوة سياسية ضخمة . وغدت الطبقة الرأسمالية فى الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

(٢) قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن الطبقة المستنيرة وفقا لاستعمال المستر توينبى للاصطلاح هى المعادل الحيوان الاجتماعى الذى لقب خلال حرب ١٩٣٩ / ٤٥ بـ « كويسلنج » . (المختصر)

(٣) الباب Babu لقب يستخدم فى الهند علما على المثقف الهندى الأصل. (المترجم)

(٤) صاحب Sahib لقب يستخدم فى الهند للتشريف — وكان يطلق على أفراد الإنجليز .

ومن ثم تخضع الطبقة المستنيرة — وفقاً لتعريفنا للبروليتاريا — لمقياس مزدوج مداره شعورها بأنها عضو لا غنى عنه لمذين الكيانين الاجتماعيين . لكنها تحرم حتى من هذا العزاء ، كلما تقدم الزمن بها . وذلك لأن التوفيق بين العرض والطلب ، مسألة فوق مستوى إدراك الإنسان ، سيما عندما تكون طاقته نفسها هي السلعة . وهذا ما يجعل الطبقة المستنيرة تعانى فى بعض الأوقات فيضا من إنتاج أفرادها وما يستتبعه ذلك من تعطل .

فإن مثل بطرس يرغب فى الحصول على الكثير من الموظفين الروس[1] ، أو شركة الهند الشرقية عدداً كثيراً من الكتبة ، أو محمد على يتوق إلى كثير من المصريين عمالاً للمصانع أو بنائين للسفن . هنا يشرع صانعو الخزف هؤلاء فى العمل على إنتاجهم ، من الطين البشرى . إلا أن إيقاف عملية اصطناع طبقة مستنيرة ، أصعب من الشروع فيها . إذ يقابل الازدراء الذى تواجهه طبقة الاتصال من أولئك الذين ينتفعون من خدماتها ، اعتبارها فى أعين أولئك الصالحين للانخراط فى صفوفها . ويتزايد المرشحون زيادة تجاوز معدل فرص تشغيلهم جميعهم ، وعندئذ يغير النواة الأصلية للطبقة المستنيرة العاملة ، بروليتاريا مثقفة تتسم باسترخائها وحرمانها ، كما أنها منبوذة . فإن حفنة الموظفين الروس ، قد عزز صفوفهم فيلق من أصحاب مبدأ العدمية[2] Nihilism كما عزز حفنة « البابو » Babu فيلق من المتعلمين

---

(١) Chinovniks .

(٢) يرجع العهد بالعدمية Nihilism كفلسفة إلى القرن الثانى عشر وقوامها إنكار كل شيء حتى الوجود نفسه بيد أنها تطورت فى العصر الحديث إلى طائفة من الأفكار السياسية والاجتماعية التى يؤلف بينها السخط وكراهية الأوضاع القائمة . ولقد ذاعت بين أفراد طائفة من الطبقة المتعلمة الروسية قبل العهد السوفيتى . ولا تعترف تلك الآراء بأية سلطة ، وتشك فى كل مبدأ عام ، وتؤكد حرية الفرد المطلقة . وترنو الفلسفة العدمية فى الواقع إلى إقامة المجتمع على نظام يتسم بالفوضوية . بيد أن اتباعها لم يلجأوا عليا إلى أعمال العنف ولا يحبذونها ، خلا اشتراكهم فى قتل القيصر اسكندر الثانى عام ١٨٨١ . (المترجم)

الفاشلين . وإن المرارة التى تشعر بها الطبقة المستنيرة أشد فى الحالة الأخيرة منها فى الحالة الأولى ، إلى درجة لا تمكن مقارنتها .

وحقاً فقد نوشك أن نصيغ « قانوناً » اجتماعياً مبناه تزايد التعاسة الفطرية لطبقة مستنيرة وفقاً لمتوالية هندسية ، مع تقدم الزمن وفقاً لمتوالية حسابية . فإن الطبقة المستنيرة التى يرجع العهد بها إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ، قد أزاحت عن كاهلها حقدها المتراكم فى ثورة عام ١٩١٧ البولشفية المدمرة . وتظهر اليوم الطبقة المستنيرة البنغالية التى يرجع عهدها إلى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، مزاجاً ثورياً عنيفاً ، لم يشاهد بعد فى الأجزاء الأخرى من الهند ، حيث لم تبرز الطبقة المستنيرة المحلية إلى الوجود ، إلا منذ خمسين أو مائة سنة بعد ذلك .

كذلك ، لا تقتصر استطالة موقع هذا النبات الطفيلى الاجتماعى على الأرض التى يعتبر فيها نباتاً محلياً . فإنه قد اتخذ سبيله مؤخراً فى قلب العالم الغربى ، كما فى أطرافه شبه الغربية . فلقد أصبحت الطبقة المثقفة الدنيا التى تلقت تعليماً ثانوياً أو حتى جامعياً دون أن يُهيأ لها منفذ لممارسة كفايتها الخاصة ، أصبحت إبان القرن العشرين عصب الحزب الفاشى فى إيطاليا والحزب الوطنى الاشتراكى فى ألمانيا . وذلك لأن القوة الدافعة الشيطانية التى حملت موسولينى وهتلر لتسنم زمام الحكم ، قد انبثقت عن السخط الذى ألم بهذه البروليتاريا المثقفة لما وجدت جهودها الشاقة للارتفاع بمستواها ، لا تشفع لإنقاذها من السحق بين حجرى الرحى الأعلى والأدنى : رأس المال المنظم ، والعمل المنظم .

وحقيقة الأمر ، لسنا ملزمين بالانتظار حتى القرن الحالى ، لنشاهد البروليتاريا الداخلية الغربية تؤلَّف من بين الأنسجة الوطنية للجسم الاجتماعى الغربى . إذ لم يقتصر الاقتلاع من الجذور فى العالم الغربى — كما فى العالم الهلينى — على السكان المغلوبين على أمرهم . فإن حروب القرنين السادس

عشر والسابع عشر الدينية ، قد جلبت معها الاقتصاص من السكان الكاثوليك أو الطرد فى كل بلد سيطرت عليه أيدى الفرع البروتستانتى . وحل الاقتصاص بالمثل بالسكان البروتستانت أو طردوا من كل بلد سيطر عليه الكاثوليك . ومصداقاً لذلك ؛ تتوزع سلالات الهيجونوت الفرنسيين[1] من بروسيا إلى جنوب إفريقيا ، وتتوزع سلالات الإيرلنديين من النمسا حتى شيلى .

كذلك فإن هذا الطاعون لم يصده السلام الذى جاء نتيجة لإعياء الناس واستهانتهم[2] ، فكان أن أنهى عصر الحروب الدينية . ذلك لأن الاضطراب السياسى المدوى ، قد أخذ منذ الثورة الفرنسية وما بعدها ، يستلهم طاقته من الكراهية القائمة بين علماء اللاهوت[3] . وكان أن اقتلعت حشود جديدة من المنفيين ، من ذلك : المهاجرون الفرنسيون الارستقراطيون عام ١٧٨٩ ، والمهاجرون الأوربيون الأحرار فى عام ١٨٤٨ ، والمهاجرون الألمان فى عامى ١٩٢٣ و ١٩٣٧ ، والمهاجرون الكاثوليك النمسويون والمهاجرون اليهود فى عام ١٩٣٨ ، والملايين من ضحايا حرب ١٩٣٩ / ١٩٤٥ وما بعدها .

ولقد علمنا كذلك ، كيف اقتلعت ثورة اقتصادية فى إدارة الزراعة فى صقلية وإيطاليا إبان عصر الاضطرابات الهلينى ، السكان الأحرار من الريف وتركوا فى المدن فريسة للكسل . ومناط هذه الثورة ، الاستعاضة عن الزراعة المختلفة على نطاق ضيق لسد الرمق ، بالإنتاج الغزير للسلع الزراعية المتخصصة ، وذلك باستخدام الرقيق فى الزراعة . وتكاد هذه الكارثة الاجتماعية أن تتكرر تماماً فى التاريخ الغربى الحديث ، فى الثورة الاقتصادية الريفية التى استعاضت فى الحزام القطنى للاتحاد الأمريكى ،

---

(١) الهيجونوت هم سكان فرنسا من البروتستانت . (المترجم)

(٢) فى الأصل اعتناق المذهب الكلبى . وهو مذهب الفيلسوف ديوجنيس . ويحض على الاستخفاف والاستهانة بجميع القيم . (المترجم)

(٣) Cldimu hactenus Theolgicum

بمزارع القطن التي يفلحها الأرقاء الزنوج ، عن الزراعة المشتركة التي يفلحها أحرار البيض . فلقد كانت هذه « النفايات البيضاء » التي أسقطت إلى صفوف البروليتاريا ، من نوع « النفايات الحرة لروما الإيطالية » .

وما هذه الثورة الاقتصادية الريفية فى أمريكا الشمالية — مع ما يصاحبها من استطالة قوامها السرطانيين : أى الرق الزنجى والفقر الأبيض — إلا استثناء شريع وتطبيق عنيف لثورة اقتصادية مماثلة توزعت على ثلاثة قرون من التاريخ الإنجليزى . ذلك لأن الإنجليز لم يدخلوا عمل الرقيق ، لكنهم حاكوا الرومان وتطلعوا إلى المزارعين ورعاة الماشية الأمريكيين ، باقتلاعهم المزارعين الأحرار من مواطنهم ابتغاء الربح الاقتصادى للقلة الحاكمة ؛ عن طريق تحويلهم الأراضى المزروعة إلى مراعى ، والأراضى المشتركة إلى حظائر .

وليست هذه الثورة الاقتصادية الريفية الغربية الحديثة — مع ذلك — هى السبب الرئيسي لتدفق السكان من الريف إلى مدن العالم الغربى . فلا تتمثل القوة الدافعة الرئيسية فى ثورة زراعية تقيم الضيعات الكبيرة[1] ، مكان قطع الفلاحين الزراعية الصغيرة . بل إنها تتمثل فى اجتذاب ثورة صناعية انبعثت فى المدن ، أحلت الآلات التى تدار بالبخار محل الصناعة اليدوية .

وعندما اندلعت الثورة الصناعية لأول مرة على أرض بريطانية منذ حوالى المائة والخمسين سنة ، بدت أرباحها من الجسامة بحيث رحب بالتغيير المتحمسون للتقدم . وبينما كان المقرظون للثورة الصناعية ينعون عليها طول ساعات العمل التى كان يرزح تحتها الجيل الأول من العمال — ومنهم النساء والأطفال — والظروف الخسيسة لحياتهم الجديدة سواء فى المصنع أم فى البيت ، كانوا واثقين بأن هذه رزايا وقتية فى الإمكان تلافيها ، بل إنها

---

(١) Latifundia .

ستُلاف . أما النتيجة الساخرة ، فكانت أساسا تحقق هذه النبوءة المتفائلة إلى حد كبير للغاية . غير أن نعم هذا الفردوس الأرضي – التي تأكد التنبوء بها – قد عادلتها لعنة خفيت منذ قرن مضى عن أعين المتفائلين والمتشائمين على السواء[1] ، فإن تشغيل الأطفال قد ألغي من ناحية ، وغدا تشغيل المرأة يتلاءم مع طاقتها الجسدية ، وقلت ساعات العمل ، وتحسنت أحوال الحياة والعمل في المنزل والمصنع بشكل لم يكن في الحسبان . لكن العالم الذي باتت تغمره الثروة التي تتناثر من الآلة الصناعية الساحرة ، قد واجهه في نفس الوقت شبح البطالة . فإن بروليتاري المدينة يتذكر دائماً أنه « في مجتمع لكنه ليس منه » ، في كل وقت يحصل فيه على الإعانة المخصصة للعاطلين .

ولقد قيل ما فيه الكفاية لتبيان طائفة من المصادر المتعددة التي تألفت منها البروليتاريا الداخلية في المجتمع الأوربي الحديث . وعلينا الآن أن نتساءل فيما إذا كنا نجد هنا – كما في مكان آخر – نزعتي : العنف والرقة ، تعودان للظهور من بين ثنايا رد فعل البروليتاريا الداخلية الغربية على محنتها . وإذا تبدّى كلا المزاجين ، فأي الاثنين يعلو كعبه ؟

تبدو للوهلة الأولى إمارات النزعة الحربية في العالم الغربي ظاهرة ؛ ولا يقتضي الأمر إيراد قائمة بثورات المائة والخمسين سنة الماضية ذات الكفاح الدموي . لكننا إذا ما تحولنا لنتطلع إلى دليل عن وجود روح إنشائية واقعية وتناهض ذلك المزاج الحربي ، نجد لسوء الحظ آثار تلك الروح أبعد من أن تُنال . حقيقة أن كثيراً ممن كابدوا الأخطاء التي دوّنت إبان الفقرات الأولى من هذا الفصل : المنفيون من ضحايا الاضطهاد الديني أو السياسي ، الأرقاء الإفريقيون المرحلون ، المجرمون السياسيون المبعدون ،

---

(١) ثمة عرض تقليدي للنزعتين المتفائلة والمتشائمة في رسالة ماكولي

Macau Lay's Essays on Southey's collogies (1830) الملخص

الفلاحون المقتلعون من أرضهم – قد طابت لهم الحياة خلال الجيل الثانى أو الثالث أو حتى خلال الجيل الأول ، فى ظل الظروف الجديدة التى فرضت عليهم .

ولعل هذا يفسر طاقات التفاهة التى تضمها الحضارة الغربية بين طياتها . لكن هذا التفسير لن يُجدى فى بحثنا . فما هذه إلا حلول للمشكلة البروليتارية تتفادى الحاجة إلى الاختيار بين : الاستجابة التى تتسم بالعنف وتلك التى تتسم بالوداعة . ويتم ذلك عن طريق الاستجابة الرقيقة ذات المنحى السامى : للأصدقاء الإنجليز[1] ، واللاجئون الألمان ، منكرو التعميد المورافيون ، الهولنديون المنونيون[2] Mennonites . بيد أن هذه العينات النادرة ستنزلق هى كذلك من بين أصابعنا ، لزوال صفتها البروليتارية عنها .

ومن ثم ، نجد فى جمعية الأصدقاء الإنجليزية[3] إبان جيل حياتها الأول ، نزعة إلى العنف ، وجدت مخرجاً لها فى التنبؤات المسافة ، وفيما تتسم به آداب طقوس كنيستها من نزعات صاخبة ، وأنزلت بأعضائها اضطهاداً قاسياً سواء فى إنجلترا أو فى ماساشوستس Massachusetts . لكن سرعان ما حل دوماً محل هذا العنف ، روح من الوداعة أصبحت القاعدة التى تتسم بها حياة الكويكرز . وبدا إبان وقت ما ، كما لو أن جمعية الأصدقاء قد تؤدى فى العالم الغربى ، الدور التقليدى للكنيسة المسيحية فى

(١) الأصدقاء Zaakers هم أعضاء جمعية الأصدقاء التى أسسها جورج فوكس (١٦٢٤ – ٩١) . ولقد طاف طوال أربعة أعوام انجلترا وبيده الإنجيل ، ونادى بمناهضة جميع المراسم الكنسية مثل التعميد وأجراس الكنائس والنذور . ولقد سجنته السلطات الحكومية عدة مرات لكفره بالتعاليم المسيحية السائدة فى عصره . ولقد آمنت به طائفة من الناس . وجماع تعاليم الكويكرز ، الإيمان بالإنجيل بألفاظه دون تحوير وكراهية الحروب والعنف ومساعدة الفقراء ولا يؤمنون بالتعميد . (المترجم)

(٢) البروتستانت الإنجيليون كما سموا فى عهد القرنين الخامس عشر والسادس عشر . (المترجم)

(٣) أى الكويكرز . (المترجم)

عصر بدائيتها . وهذه المسيحية البدائية قد عملت على تشكيل حياة أعضاء الجمعية على غرار أعمال رسل السيد المسيح .

وإنه وإن لم ينحرف أعضاء الجمعية من قاعدة الوداعة ، لكنهم ارتحلوا بعيداً عن طريق البروليتاريا ، وأصبحوا - فى ناحية - ضحايا فضائلهم ذاتها . بل إنه يمكن القول بأنهم قد حققوا المناعة المادية رغماً عن أنفسهم . ذلك لأنه لا يمكن إرجاع الكثير من نجاحهم فى الأعمال المالية إلى قراراتهم الرهيبة التى يتخذونها - إلا من أجل تحقيق الربح - ولكن بإيعاز من الضمير . ولهذا تمثلت الخطوة الأولى فى حجتهم الساذج صوب هيكل المناعة المادية - بشكل غير مقصود البتة - فى هجرتهم من الريف إلى المدن . وهى هجرة لم يكن مبعثها غواية أرباح الحضر لهم ، ولكن لما استبان لهم من أنه أوضح طريق يوفق بين اعتراض يتسم بالوعى - على تأدية العشور إلى الكنيسة الأسقفية ، وبين اعتراض يماثله فى الوعى - على استخدام القوة فى مناهضة جابى العشور ؛ ومن ثمت فإن باعة الجملة من الكويكرز ، حينما يقتصرون على بيع الكاكاو ، فلأنهم يستهجنون المسكرات الكحولية وعندما يعين تجار التجزئة فيهم أثماناً محددة لبضائعهم ، فلأنهم يرتابون فى تنويع أسعارهم « فى غمار مساومات السوء » . وإنهم بهذا كله يخاطرون بثرواتهم عن عمد فى سبيل عقيدتهم . إلا أنهم بذلك قد أوضحوا صدق المثل القائل : « إن الأمانة هى خير سياسة » ، والمجانسة القائلة : « إن المتواضع سيرث الأرض » .

وبنفس الشعار ؛ انتزع الأصدقاء عقيدتهم من سجل الأديان البروليتارية ؛ فإنهم - عكس النماذج التى احتذوها -[1] لم يكونوا متحمسين أبداً للتبشير بعقيدتهم . ومن ثم ظلوا طائفة مختارة . ولما كانوا يلفظون عن جماعتهم كل من يتزوج من خارجها . ظل عددهم ضئيلا ، كما ظل جوهر صفاتهم على سموه .

(١) أى حواريو السيد المسيح . (المؤلف)

ويتشابه تاريخا الجماعتين اللتين يعارض اتباعهما مسألة التعميد Anabahtists في النقطة التي تعنينا من تاريخ جماعة الكويكرز . فإن كلا منهما قد بدأ بداية تتسم بالعنف ، ثم اعتنق نزعة المسالمة ، وسرعان ما زالت عنهما صفة البروليتاريا . وتختلف الجماعتان مع ذلك مع جماعة الكويكرز في كثير من المناحي .

وإن كنا قد ذهبنا إلى مدى لا طائل من ورائه في بحثنا عن دين جديد يعكس تجربة البروليتاريا الداخلية الغربية، فلعلنا نذكّر أنفسنا بأن البروليتاريا الداخلية الصينية قد وجدت في المهايانا عقيدة دينية كانت تحوّلا — لا شبهة فيه بحال — عن الفلسفة البوذية السالفة . ولدينا في الشيوعية الماركسية مثال بغيض إلى النفس يقوم بين ظهرانى فلسفة غربية حديثة تحوّلت تحولا لا شبهة فيه خلال عمر واحد ، إلى عقيدة دينية بروليتارية ، سالكة طريق العنف ، مقتطعة بالسيف أورشليمها الجديدة[2] من سهول روسيا .

ولو كان رقيب للآداب[1] في العصر الفيكتوري قد تحدّى كارل ماركس ليذكر اسمه وعنوانه الروحيين ، لوصف نفسه بأنه مريد للفيلسوف هيجل وينتسب إلى الفلسفة الجدلية الهيجلية المتصلة بظواهر عصره الاقتصادية والسياسية . على أن العناصر التي جعلت الشيوعية قوة مدمرة ، لا تنتسب إلى هيجل . وفي سماتها ما يثبت أصلها المنحدر من عقيدة الغرب الدينية التي — بعد تحدى الفلسفة الديكارتية لها — ما يزال يرضعها كل طفل غربي مع لبن أمه ، ويستنشقها كل رجل وامرأة غربيين مع الهواء الذي يتنفسانه . ومثل هذه العناصر التي لا يتأتى إرجاعها إلى المسيحية ، يمكن ردّها إلى العقيدة اليهودية ؛ واليهودية هي مصدر المسيحية أصابه الجمود . وأمكنت المحافظة عليه بفضل

---

(١) أي موسكو التي أصبحت مركز العقيدة الشيوعية مثلما كانت أورشليم المركز الروحي لليهودية ثم المسيحية . (المترجم)

(٢) Censor morum

« التشتت اليهودى[1] » ، وتسامى بفضل فتح أحياء اليهود Ghetto وتحرير اليهودية الغربية فى جيل جدّى كارل ماركس .

ولقد أحل كارل ماركس الحتمية التاريخية معبوداً له ، محل ياهوى[2] وجعل من البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى ، شعبه المختار مقام اليهود . وجعل من ديكتاتورية البروليتاريا مملكة المسيح . بيد أن السمات المشهورة « للرؤيا اليهودية » تبرز من خلال هذا الرداء المهلهل[3] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يظهر كما لو أن المرحلة الدينية فى تطور الشيوعية قد تكون سريعة الزوال . ومصداقاً لذلك يبدو أن شيوعية ستالين القومية المحافظة قد هزمت فى الميدان الروسى ، شيوعية تروتسكى الثورية الدولية . فلم يعد الاتحاد السوفيتى — والحالة هذه — مجتمعاً خارجاً على القانون ، ناشزاً عن التعامل مع بقية العالم بأسره . وعادت روسيا إلى سلوك السبيل الذى كانت الإمبراطورية الروسية تسلكه من قبل فى عهد بطرس أو نيقولا : دولة عظمى تختار حلفاءها وأعداءها وفقاً للأسس القومية ، وبصرف النظر عن الاعتبارات المذهبية . وإذا كانت روسيا غدت تنتقل صوب « اليمين » فإن جيرانها قد باتوا ينتقلون صوب « اليسار » . ولا نعنى بذلك الفشل الذى حاق بالحركة الاشتراكية الألمانية[4] ولا الفاشية الإيطالية ، ولكننا نعنى الطغيان البادى الذى لا عاصم له للتوجيه الاقتصادى فى البلاد الديمقراطيــة التى كانت تسير فيما مضى على مبادئ الحرية الاقتصادية . الأمر الذى يوحى إلى الذهن باحتمال تطور الكيان الاجتماعى لجميع البلاد فى المستقبل القريب إلى منحى قوى واشتراكى معاً .

(١) Diashora . ويقصد المؤلف أن تشتت اليهود هو الذى أنقذهم من الفناء ، وبالتالى فإن تجمعهم الحالى فى فلسطين سيقود إلى نهايتهم بإذن الله . (المترجم)

(٢) اسم الإله فى اليهودية . (المترجم)

(٣) يظهر الأستاذ المؤلف هنا مدى تأثير اليهودية فى العقيدة الماركسية . وماركس — كما هو معروف — يهودى الأصل . (المترجم)

(٤) أى النازية . (المترجم)

ولا يقتصر الأمر – كما يظهر – على استمرار بقاء النظامين الرأسمالى والشيوعى جنبا إلى جنب – مثل التدخل وعدم التدخل اللذان كانا وفقا – لعبارة تاليران التهكمية المأثورة – اسمين مختلفين لشيء واحد . فإذا كان الأمر كذلك ، علينا أن نقرر بأن الشيوعية قد فرّطت فى أهدافها بحسبانها عقيدة ثورة بروليتارية ، لسببين :

الأول : بنزولها عن مكانتها كترياق ثورى للبشرية بأسرها ، وصيرورتها مجرد ضرب من القومية .

الثانى : بمشاهدتها فكرة الدولة التى استرقّت الشيوعية ، تتماثل فى العالم المعاصر مع الدول الأخرى ، عن طريق دنوّها من آخر طراز للحكم فيها .

وظاهر أن مجمل بحثنا الحاضر مداره : أنه بينما يزخر التاريخ الحديث للعالم الغربى – على غرار ما نجده فى تاريخ أية حضارة أخرى – بما يثبت مسألة تعزيز صفوف البروليتاريا الداخلية ، إلا أننا نفتقر إلى دليل على وجود أسس نظام دينى بروليتارى فى التاريخ الغربى ، أو حتى على انطلاق أية « عقيدة دينية سامية » من صميم البروليتاريا .

فكيف تفسر هذه الحقيقة ؟

لقد استخلصنا كثيراً من المشابهات بين المجتمعين الغربى والهلينى . لكن هناك اختلافا جوهريا ، مبناه أن المجتمع الهلينى لم يأخذ عن المجتمع المينوى السابق له أى نظام دينى عالمى . فإن حالة الوثنية الإقليمية التى آلت إليها فى انهيارها إبان القرن الخامس قبل الميلاد ، هى حالتها التى كانت عليها وقت ميلادها . بيد أن الوثنية الإقليمية ليست هى بالتأكيد المرتبة الأولى للحضارة الغربية التى أجيزلها – كما مر بنا – أن تنعت نفسها بالمسيحية الغربية ، حتى بفرض قربها من المرتبة الحاضرة .

وفضلا عن ذلك ؛ فإنه وإن نجحنا فى نهاية المطاف فى سلخ الحضارة الغربية عن تراثها المسيحى ، فإن عملية الردّة ما تزال بطيئة شاقة . ولا يحتمل حتى لو أبدينا غاية التصميم لاستكمال عناصرها بالإتقان الذى نتوق إليه . إذ ليس من السهل أن نتخلص من تقليد ولدنا فيه وتربينا نحن وأسلافنا فى ظله ، وقتما نشأت المسيحية الغربية – منذ أكثر من ألف ومائتى سنة – من رحم الكنيسة ، وليدا ضعيفا . ومن ثم ما نزال نشك فى جدّية الجهود التى بذلها ديكارت وفولتير وماركس وماكيافيللى وهوبز وموسولينى وهتلر لانتزاع الصبغة المسيحية عن الحياة الغربية ، وتطهيرها وإزالتها عنها . فإنها لم توفّق فى الواقع فى غرضها سوى توفيقا جزئيا . ويعزى إخفاق تلك الجهود إلى أن الجرثومة أو المسيحية ، أو الأكسير المسيحى يجرى فى الدم الغربى ، إن لم يكن هو الدم الغربى فى حقيقته . ومن العسير أن نفترض أن المجتمع الغربى يمكن بأية حال من الأحوال تصفية دستوره الروحى ليتحول إلى نقاء الوثنية الهلينية .

وإلى جانب ذلك فإن العنصر المسيحى فى النظام الغربى لا يوجد فى كل مكان فحسب[1] يتسم كذلك بـ « التغاير » . ومن ثم تتمثل إحدى حيله المفضلة فى تلافى عملية إفنائه عن طريق دسّه قطرة جوهره فى السوائل المعقمة التى تستخدم لإصابته بالعقم . ولم يخف أنبياء التسامح المناهضون للنزعة الغربية مثل غاندى وتولستوى ؛ إلهامهم المسيحى .

ويعتبر الزنوج الإفريقيون البدائيون – الذين نقلوا أرقاء إلى أمريكا – أسوأ المكابدين جميعا من بين الكثيرين من الرجال والنساء المحرومين الذين عرّضتهم المصادفات المختلفة لمحنة إدراجهم فى صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية . فلقد شاهدنا فهم المشابهة الغربية للمهاجرين الأرقاء الذين سيقوا إلى روما الإيطالية من جميع سواحل الأبيض المتوسط الأخرى ، إبان القرنين الأخيرين قبل المسيح .

---

(١) أى موجود فى كل مكان . (المترجم)

كما لاحظنا أن الإفريقيين المتأمركين – مثل الشرقيين الإيطاليين – هم أرقاء استخدموا فى الزراعة وواجهوا – باستجابة دينية – التحدى الاجتماعى الماثل الذى جابههم . وفى المقارنة التى عقدناها بين الفريقين فى مرحلة مبكرة من هذه الدراسة ، أسهبنا فى بيان التشابه . بيد أن ثمة اختلافا يناظره . إذ بينما عثر الأرقاء المهاجرون إلى روما من المصريين والسوريين والأناضوليين ، على سلوانهم فى الأديان التى جلبوها معهم ، تحول المهاجرون الإفريقيون فى أمريكا – التماسا للعزاء – إلى دين سادتهم المتوارث .

فبأية كيفية تقع مسئولية هذا الاختلاف ؟

يُعزى بلا ريب جانب من هذا الاختلاف ، إلى التباين فى طبيعة أسلاف مجموعتى الأرقاء . فلقد استقى أرقاء إيطاليا الرومانية الزراعيون على نطاق واسع ، من سكان الشرق المتخصصين فى الزراعة ، الذين كان يتوقع أن يلتصق أطفالهم بتراثهم الثقافى . فى حين لم يحتو دين أسلاف الأرقاء الزنوج الإفريقيين على عنصر ثقافى ، كفيل بتمكينهم من الثبات فى وجه حضارة أسيادهم البيض المتفوقة تفوقا ساحقا .

وإذا كان هذا تفسيراً جزئيا للاختلاف فى النتيجة ؛ فإنه لتفسيره تفسيراً كاملا ، لا مندوحة من أن يؤخذ فى الحسبان ، الاختلاف الثقافى بين مجموعتى الأسياد فى الحالتين :

فبالنسبة للأرقاء الشرقيين فى روما الإيطالية ، أعوزهم الاهتداء إلى أى مكان آخر يولون وجوههم شطره التماسا للسلوان ، خارج نطاق تراثهم الدينى الوطنى ؛ ما دام سادتهم الرومان يعيشون فى فراغ روحى . ومن ثم تمثلت الجوهرة الغالية ، فى تراث العبيد ، لا فى تراث السادة .

أما فى حالة العالم الغربى ؛ فلقد ألقيت إلى أيدى الأقلية المسيطرة التى كانت تسوق الأرقاء ، تقاليد الركاز الروحى . بالإضافة إلى الثورة والقوة الدنيويتين .

والواقع أن حيازة الركاز الروحي شيء ، واقتسامه شيء آخر مختلف كل الاختلاف . وكلما أوغلنا في التفكير فيه ، كلما عظمت دهشتنا لما نجده قدرة مالكي الأرقاء من المسيحيين على أن ينقلوا إلى ضحاياهم الوثنيين البدائيين ، الخبز الروحي الذي بذلوا ما وسعهم الجهد ، لانتهاك حرمته بارتكابهم دنس استرقاق رفاقهم البشر .

فكيف تأتى لمن يسوق الرقيق من المبشرين بالإنجيل ، أن يلمس شغاف قلب الرقيق الذي ارتكب في حقه ، هذا الخطأ الجسيم ، فأقصاه عن نفسه إقصاء تاماً ؟

لا بد وأن الدين المسيحي ، قد أوتي طاقة روحية لا تقهر ، بقدرته على كسب معتنقين له في ظل مثل هذه الظروف . ولما كانت النفوس البشرية هي مكان العقدة الدينية الثابت ، يستتبع ذلك ضرورة وجود رجال ونساء مسيحيين في بلاد أجنبية في عالمنا الوثني « عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة »[١] . وإن إلقاء لمحة على ميدان التبشير الأمريكي بالمسيحية للأرقاء ستبدي لنا بعضاً من هؤلاء المسيحيين خلال تأدية رسالتهم . ففي الواقع يعود تحول الزنجي الأمريكي إلى المسيحية — إلى كهنوته ، ملاحظ عمال المزرعة الذي يحمل الإنجيل في يده والسوط في اليد الأخرى . بل إن الرقيق يدين بمسيحيته إلى رجال من أمثال جون فيس John Fees ، وبيتر كلافرز[٢] .

وفي وسعنا أن نشاهد في معجزة تحول الأرقاء هذا إلى دين سادتهم ، الانشقاق المعروف بين البروليتاريا الداخلية والأقلية المسيطرة ، أمكن التئامه في الجسم الاجتماعي المغربي بفضل مسيحية دأبت الأقلية المسيطرة الغربية على

---

(١) من أقوال إبراهيم عليه السلام يستعطف الرب العفو عن سدوم « سفر التكوين — الإصحاح الثامن عشر — الآية الرابعة والعشرون . (المترجم)

(٢) رجل ديني أمريكي ، كرس نفسه لمناصرة قضية إلغاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية . فأنشأ عدة كنائس ومدارس تناهض التفرقة بين البيض والسود . فكان أن حاربه البيض وطردوه عام ١٨٥٩ من كنتكي ، ولم يعد إليها إلا عام ١٨٦٢ . (المترجم)

السعى لنبذها . وما اعتناق الزنجى الأمريكى المسيحية إلا واحد من بين الانتصارات التى حققها نشاط التبشير المسيحى فى العصر الحديث .

وظاهر أن عصارة الحياة تهب كرة أخرى بين تضاعيف جميع فروع المسيحية الغربية فى جيلنا الذى طحنته الحرب ؛ حيث تسير سريعاً نحو الظلام ، المطامح الحديثة المتوقدة لأقلية مسيطرة تنتسب إلى الوثنية المستحدثة . ويوحى هذا المشهد بأن الفصل القادم من التاريخ الغربى ، ربما لا يتبع — مع ذلك — خطوط الفصل الأخير من التاريخ الهلينى . بمعنى أنه عوضاً عن رؤية انبثاق دين جديد من أرض محروثة البوليتارية داخلية ، يتولى وظيفة المصفى لتركة حضارة انهارت وسارت فى طريق الانحلال ، والوريث لما تبقى منها ، عسانا أن نعيش لنشاهد حضارة جاهدت لتقف وحيدة ثم أخفقت ، لكنها أنقذت على الرغم منها من سقطة مميتة ، بفضل إمساك نظام دينى قديم بتلابيبها . وبين جاهدت تلك الحضارة — دون جدوى — إلى دفعه وإبعاده عنها بعد المشرقين .

فإن حدث هذا ، قد تنقذ من حكم إتباع طريق : الحمق ، البطر ، والجائحة : حكم أوقعته على نفسها ، حضارة تهاوت أمام سكرة انتصار خداع على الطبيعة المادية واستخدمت غنائمها فى ادخار الكنز لنفسها دون أن تعنى بثروتها الروحية .

وإذا ما ترجم الاصطلاح الهلينى إلى التصور الحسّى المسيحى ، قد تتأتى عملية الإنقاذ بإطلاع سراح المسيحية الغربية ، وإتاحة السبيل لها لتبعث مرة أخرى كجمهورية مسيحية . وهى التى كانت المثل الأعلى للمسيحية الغربية فى مطلع عهدها ؛ والتى يجب أن تجاهد لإقامتها .

هل يتيسر مثل هذا الإحياء ؟

إذا ما ألقينا سؤال نيكوديموس Nicodemus : هل فى مكنة الإنسان

أن يدخل رحم أمه ويولد مرة أخرى ؟ لعلنا نتقبل جواب معلمه[1] الحق أقول لك ، إن كان أحد لا يولد من فوق ، لا يقدر أن يرى ملكوت الله[2] .

١ — البروليتاريا الخارجية

تبرز البروليتاريا الخارجية إلى الوجود — مثل البروليتاريا الداخلية — بفعل انشقاق عن الأقلية المسيطرة لحضارة أصابها الانهيار . وهنا يصبح الانقسام الديني الذي نجم عن الانشقاق مما يسهل إدراكه . ذلك لأنه بينما تستمر البروليتاريا الداخلية في تمازجها الجغرافي مع الأقلية المسيطرة التي يفصلها عنها هوة أدبية ؛ لا يقتصر الحال بالنسبة للبروليتاريا الخارجية على استبعادها من الناحية الأدبية عن الأقلية المسيطرة ، إذ يفصلها عنها خط حدود يمكن رسمه على الخارطة .

وفي الواقع ؛ يعتبر تبلور مثل خط الحدود هذا ، العلامة المؤكدة على حدوث مثل هذا الانشقاق بالفعل . ذلك لأنه لن يصبح للحضارة التي ما تزال في مرحلة النمو ، حدود ثابتة ومحكمة ، إلا على جبهات تصادف ارتطامها عندها بحضارة أخرى من ذات فصيلتها . ويتأتى عن مثل هذه الإرتطامات ، بروز ظواهر ستكون لدينا الفرصة لبحثها في جانب تال من هذه الدراسة . على أننا سندع هذا في الوقت الحاضر بعيداً عن حسباننا ، ونحصر اهتمامنا في موقف لا تجاور فيه حضارة ما ، حضارة أخرى ؛ لكنها تجاور مجتمعات من الفصيلة البدائية . وسنجد الحدود غير معينة في مثل هذه الظروف ، طالما أن الحضارة في مرحلة النمو .

---

(١) أي السيد المسيح . (المترجم)

(٢) إنجيل يوحنا — الأصحاح الثالث — الآيتان الرابعة والخامسة . وقد اعتمدت على الترجمة العربية المتداولة للعهد الجديد . (المترجم)

فإذا ما وضعنا أنفسنا فى بؤرة نمو حضارة آخذة فى النماء ، ونستمر فى الارتحال نحو الأطراف حتى نجد أنفسنا عاجلا أم آجلا فى وسط لاشبهة فى بدائيته التامة ؛ سنعجز عندئذ عن أن نحدد خطا عند أية نقطة خلال مثل هذه الرحلة ونقول : هاهنا تنتهى الحضارة ، وأننا داخلون العالم البدائى .

وحقيقة ؛ فإنه عندما توفق أقلية مبدعها فى إنجاز دورها فى حياة حضارة نامية وتهيئ الشعلة التى أضرمتها « ضياءاً لجميع من هم فى الدار » ، لن تصد حيطان الدار الضياء عن تسرب إشعاعه نحو الخارج . إذ ليس ثمة فى الواقع حيطان ، ولا يحجب الضياء عن الجيران خارجا . فإن الضياء وفقاً لطبيعة الأشياء ، يتألق إلى المدى الذى يستطيع حمله ، إلى أن يصل إلى نقطة النظر . وإنه ليستحيل مع وجود لا نهائية التتابعات ، تحديد الخط الذى يومض عنده آخر بصيص ، ويخلف الباب الظلام مسيطراً سيطرة تامة .

وفى الواقع ، فإن الطاقة الواقعة لإشعاع حضارة نامية ، هى من العظم بحيث أنه رغما عن أن الحضارات تعتبر نسبياً مأثرة بشرية حديثة جداً ، فإنه قد وفقت ـ بدرجة ما على الأقل ـ منذ عهد طويل فى اختراق جميع صفوف المجتمعات البدائية القائمة . وإن من العسير أن نستكشف ـ فى أى مكان ـ مجتمعاً بدائيا أفلت تماماً من تأثير قدر أو آخر من الحضارة . ففى عام ١٩٣٥ مثلا ، كُشف فى داخلية بابوا Papua [1] مجتمع كان مجهولا تماماً ، ووجد أن هذا المجتمع يستحوذ على أسلوب فنى للزراعة الكثيفة ، لا بد وأنه قد اكتسبه إبان تاريخ مجهول من حضارة ما غير معينة .

وإذا ما لاحظنا الظاهرة من وجهة نظر المجتمعات البدائية ؛ فإنه يؤثر فينا بقوة ، هذا التأثير الطاغى للحضارات على ما بقى من العالم البدائى .

---

(١) جريدة التيمس بعددها الصادر فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٣٦ .

وإذا ما لاحظناه – من الجهة الأخرى – من زاوية الحضارة ، فلن يقل استغرابنا عما سبق لحقيقة مبناها . إن قوة التأثير المشع ، تزيد كلما ازداد المدى . وحالما نفيق من دهشتنا من تتبعنا تأثير الفن الهليني على عملة ضربت فى بريطانيا خلال القرن الأخير قبل المسيح ، أو على تابوت نحت من الحجر الجيرى فى أفغانستان خلال القرن الميلادى ، سنلاحظ أن قطعة العملة البريطانية تبدو مسخا إلى جانب أصلها المقدونى ، وأن التابوت الأفغانى يعتبر إنتاجا مقلّداً يحمل طابع « الفن التجارى » . وعند هذه المسافة تنتقل المحاكاة نحو تقليد ساخر .

ونستثار نزعة المحاكاة بفضل الافتتان . ولا يقتصر فضل نزعة الافتتان التى يُبرزها تابع الأقليات المبدعة إبان فترة ارتقاء إحدى الحضارات ، عن درء انقسام البيت على نفسه ، ولكنها تقيه هجوم جيرانه عليه ، إلى المدى الذى يكون فيه هؤلاء الجيران – على الأقل – مجتمعات بدائية . وتفسير ذلك : أن المجتمعات البدائية تنشد محاكاة الأقلية المبدعة فى حضارة نامية ، عند اتصالها بتلك الحضارة . مثلها فى ذلك مثل الأغلبية العاطلة عن الإبداع التى تنحو إلى محاكاة الأقلية المبدعة التى تعيش بين ظهرانيها .

وإذا كان هذا هو مناط العلاقة الشاملة المتعارف عليها بين الحضارة فى مرحلة نمائها والمجتمعات البدائية ، إلا أن الوضع يختلف اختلافاً بيّنا فى حالة انهيار الحضارة وسلوكها طريق التحلل . إذ تحل أقلية مسيطرة تستند إلى القوة بسبب إفتقارها إلى عنصر الفتون ، مكان الأقليات المبدعة التى أتاح لها الافتتان – بفعلها الإبداعى – الظفر بولاء الغير عن طواعية . ولن تنقاد الشعوب البدائية المجاورة ، وفى هذه الحالة بفعل الافتتان ، لكنها تُساق بفعل القوة الغاشمة . وعندئذ يطرح مريدو الحضارة النامية ولاءهم لها ويتحولون إلى ما ندعوه بالبروليتاريا الخارجية . وهذه

البروليتاريا وإن كانت « فى » الحضارة التى باتت الآن منهارة ، إلا أنها ليست « منها »[(١)] .

وقد يكون من الميسور تحليل إشعاع أية حضارة إلى ثلاثة عناصر : اقتصادية وسياسية وثقافية .

وتشع العناصر الثلاثة بقوة متساوية . إذ أنها – باستخدام مصطلحات تغلب صفتها الإنسانية على أصلها المادى – تتساوى فى منحاها الإفتانى ، طالما تظل الحضارة فى طور الارتقاء . لكن ما إن تتوقف الحضارة عن الارتقاء ، حتى تتبخر فتنتها الثقافية . وقد يتواصل نمو قوتى إشعاعها الاقتصادى والثقافى أكثر مما سبق ، بل إنه ليحتمل حدوث ذلك فى الواقع. ويطالعنا كمثال ، مسألة تهذيب الأديان المنتحلة بعبادة مانون Mannon ومارس Mars ومولوخ Moloch .فإن تهذيبها يعتبر سمة بارزة للحضارات المنهارة . بيد أنه طالما أن العنصر الثقافى هو جوهر الحضارة ، وإن عنصرى الاقتصاد والسياسة ما هما إلا مظهرين تافهين (نسبيا) للحياة الكائنة فيها . يستتبع ذلك قصور أبرز انتصارات الإشعاع الاقتصاد والسياسى وعدم ثباتها .

وتطالعنا نفس الحقيقة إن بحثنا مظهر التغير من وجهة نظر الشعوب البدائية . إذ يلاحظ نهاية مصير محاكاتها فنون الحضارة المنهارة التى تشيع إبان استقرار السلم . لكن هذه الشعوب تداوم على محاكاة تحسينات تلك الحضارة التى تتمثل فى أجهزتنا الفنية ، فى فنون الصناعة والحرب والسياسة . وهى لا تهدف بتلك المحاكاة إلى أن تصبح « من » تلك الحضارة – وهذا كان مطمحها إبان فتنتها بها – ولكنها ترجو من وراء ذلك قدرتها

---

(١) عندما نقول « فيها » لا نعنى أنهم فى نطاقها جغرافيا . فواضح أنهم لما كانوا « خارجين » فهم ليسوا فيها . لكن نعنى بكلمة « فيها » ، مرافقتهم على الاستمرار فى حالة اتصال مثمر معها . (المؤلف)

على الدفاع عن نفسها بنجاح ضد العنف الذى غدا الآن من أوضح سمات هذه الحضارة .

ولقد دلل عرضنا السابق لتجارب البروليتاريا الداخلية وردود فعلها ، على أن إذعانها لإغراء نزعة العنف ، قد جلب عليها النكبة . فإن أمثال ثيوداسيس Theudases ويهوذا ، قد أفناهم السيف بلا ريب[1] : كما أبان أن البروليتاريا الداخلية لم تنجح فى أسر غزاتها إلا بفضل اتباعها نبى يؤثر الرقة ولين الجانب .

ولن تغدو البروليتاريا الخارجية فى موقف يُغيرها ، إن آثرت (وهذا ما ستفعله بصفة مؤكدة) استخدام العنف وسيلة لإبراز رد فعلها . فإنه بينما تقع البروليتاريا الداخلية بأسرها على وجه اليقين فى نطاق متناول الأقلية المسيطرة ، فإن جزءاً من البروليتاريا الخارجية يحتمل على أية حال أن يكون بمنأى عن متناول الفعل الحربى للأقلية المسيطرة . ومن بين ثنايا النضال القائم ، تُبرز الحضارة المنهارة العنف عوضا عن الإغراء بالمحاكاة . وفى مثل هذه الظروف ، يتوقع إغراء أعضاء البروليتاريا الخارجة القريبين باقتفاء أثر البروليتاريا الداخلية .

بيد أن ثمة نقطة يحدّ عندها طول مواصلات الأقلية المسيطرة من تفوقها النوعى فى القوة الحربية . وتقتضى هذه المرحلة إحداث تغيير تام فى طبيعة الاتصال بين الحضارة وجيرانها البرابرة . ومناط هذا التغيير – كما رأينا – صون أرض الحضارة التى تسيطر عليها سيطرة كاملة إبان مرحلة استطالتها وعن ضغط المناطق التى ما برحت همجية ؛ بفضل وجود مدخل عريض أو منطقة فاصلة ، تصل الحضارة عبرها فى سلسلة طويلة من التتابعات الرقيقة . وتختفى المنطقة الفاصلة – من الناحية الأخرى – وقتما

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى قول السيد المسيح « من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ » . (المترجم)

تنهار الحضارة وتتردى فى الانقسام ، وعندما تتوقف المنازعات اللاحقة بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الخارجية عن أن تظل صراعا متلاحقا ، وتستقر لتصبح حرب خنادق[١] ؛ سنجد أن المنطقة الفاصلة قد اختفت .

هنا لا يغدو الانتقال الجغرافى من مجال الحضارة إلى مجال البربرية تدريجيا ، بل يتم مفاجأة . ويستبان من الكلمات اللاتينية المناسبة التى تكشف عن القرابة والتباين كليهما بين نوعى الاتصال ؛ أن المدخل[٢] الذى كان منطقة ، قد حل مكانه الحد الحربى[٣] وهو خط له طول وليس له عرض . وتواجه الأقلية المسيطرة الشاردة ، بروليتاريا خارجية عبر خط الحد الحربى ، وكلا الفريقين فى عُدَّته الحربية . وتعتبر هذه الجبهة الحربية حاجزاً فى طريق الإشعاع الاجتماعى بأسره ، خلا ما يتصل منه بالفن الحربى . والفن الحربى سلعة يتم تبادلها اجتماعيا لأغراض الحرب — لا لأغراض السلم — بين متبادليها .

وستحتل تفكيرنا فيما بعد ، هذه الظواهر الاجتماعية التى تتعاقب وقتما تغدو هذه الحرب فى حالة سكون على طول خط الحدود . ونكتفى هنا بذكر حقيقة جوهرية مدارها ميل هذا التوازن الموقوت المتقلقل فى القوى ، إلى صالح البرابرة بمرور الوقت .

١ — مثال هلينى :

تتسم مرحلة الارتقاء فى التاريخ الهلينى بتعدد الأمثلة المتصلة بالمدخل أو المنطقة الفاصلة التى تميل الأرض الإقليمية للحضارة النامية السليمة إلى إحاطة نفسها بها . فإن جوهر هيلاس ليضعف ضياؤه ناحية أوروبا ، شمال ترموبيلاى Thermopylae حتى تيسالى Thesealy الشبيهة بالهلينية ؛ ويضعف

---

(١) أى حرب ساكنة . (المترجم)

(٢) Limen .

(٣) Limcs .

كذلك ناحية غرب دلفى Delphi حتى آبوليا الشبيهة بالهلينية أيضاً . ولقد استطاعت مقدونية نصف الشبيهة بالهلينية هى وآبيروس ، أن تحفظا المنطقتين السالفتى الذكر من تأثير بربرية تراقية وايلريا العارمة .

وثمة مناطق فى مؤخرات المدن اليونانية الواقعة على الشاطئ الأسيوى ناحية آسيا الصغرى ، يتقلص فيها ظل الهلينية . وتمثل تلك المناطق مدن : كوريا Coria وليديا Lydia وفريجيا Phrygia . وفى وسعنا أن نشاهد الهلينية على هذا الحد الأسيوى ، تأسر لأول مرة — فى وضح التاريخ الكامل — غزاتها البرابرة . واتسمت تلك الفترة بتوافر طاقة أدت خلال الربع الثانى من القرن السادس قبل الميلاد إلى بروز الصراع بين محبى الهلينية وكارهيها ، إلى طليعة السياسات الليدية . بل إنه حدث أنه بعدما هزم كروسوس Croseus أخاه غير الشقيق بانتاليون Pantaleon المتطلع إلى العرش الليدى ؛ بدا عجز زعيم الفريق المناهض للهلينية عن السباحة ضد التيار الموافق للهلينية . وكان إذعانه للهلينية ، سبباً فى إذاعة شهرته نصيرا سخيا للمقدسات الهلينية ، وينبى انصياعه للدين عن سذاجة إيمانه بالكهانة الهلينية .

ويبدو أن العلاقات السلمية والتغيرات الهادئة الطابع ، كانت هى القاعدة حتى فى أطراف العالم فيما وراء البحار . فانتشرت الهلينية انتشاراً سريعاً فى جنوب إيطاليا الكبرى اليونانية . ونجد أقدم ذكر لمدينة روما فى أى أثر مكتوب ، فى بقية نبذة من كتاب لتلميذ أفلاطون هراقليدس بونتيكوس Heracleides Ponticus وفيها وصف هذه الجمهورية اللاتينية بأنها « مدينة هلينية » .

وهكذا تبدو لأعيننا على جميع حدود العالم الهلينى إبان مرحلة ارتقائه ، صورة أورفوس المنانة ، تسحر البرابرة المحيطين بالهلينيين من كل الجهات . بل إنها لتوحى إلى شعوب فى أطراف الأرض أشد بدائية من

البرابرة ؛ بإنشاد موسيقاه الساحرة — على الأدوات الموسيقية الفجة .

وتختفى هذه الصورة الرقيقة فى لمح البصر ، حينما تنتهى الحضارة الهلينية . فما أن يستحيل التوافق إلى تنافر ؛ حتى يستيقظ المستمعون المأخوذون جافلين . وهنا يرتدّون إلى طبيعتهم الفظّة . ويقذفون بأنفسهم ضد الرجل الشاكى السلاح انبعث من وراء عباءة النبى الوديع .

فلقد اتسم بالقوة وشدة العنف رد الفعل الحربى للبروليتاريا الخارجية على انهيار الحضارة الهلينية ، فى اليونان الكبرى . حيث شرع البروتّيون Brtuttians واللوكانيون Lucaians فى الضغط على المدن اليونانية واحتلالها الواحدة بعد الأخرى . ففى غضون المائة سنة التى بدأت عام ٤٣١ ق . م . بحرب كانت هى « بداية الكوارث الكبرى التى حلت بهيلاس » ، كانت البقايا القليلة من بين الجماعات السابقة المزدهرة فى اليونان الكبرى ، تستحضر قواد الجنود المرتزقة من الوطن الأصلى ليحميها من أن يقذف بها فى البحر . إلا أن هذه الإمدادات الشاردة كانت من ضعف التأثير على صد المد الأوسكانى[1] حتى أن السيل البربري المتدفق أمكنه عبور مضيق مسينا ، قبل أن تقف حركة عبورهم فجأة عند حد . وتم هذا على أيدى أقرباء الأوسكانيين ، وهم الرومان المتأثرون بالحضارة الهلينية .

ولم تقتصر السياسة والحراب الرومانية على إنقاذ اليونان الكبرى ، بل إنها أبقت للهلينية ، شبه الجزيرة الإيطالية بأسرها ، عن طريق مفاجأتها الأوسكانيين من المؤخرة ، وعرضها أمانا رومانيا على البرابرة الإيطاليين وعلى يونانى « إيطاليا على السواء .

وهكذا محيت الجبهة الإيطالية الجنوبية الواقعة بين الهلينية والبربرية . وتلا ذلك تولّى الحراب الرومانية القاهرة نشر سلطان الأقلية المسيطرة

(١) نسبة إلى أوسكان ، وكانوا شعب كامبانيا Campania البدائى . (المترجم)

الهلينية فى ميدان بعيد فى القارة الأوربية وفى إفريقيا الشمالية الغربية ، على غرار ما فعله فى آسيا الإسكندر المقدونى من قبل . بيد أن هذا التوسع الحربى ، ما كان ليقضى على تأثيرات الجبهات البربرية المعادية ، وإن أضاف مزيداً إلى طولها وإلى بعدها عن مركز القوة . والواقع ، ظلّت جبهات المقاومة البربرية ثابتة طوال عدة قرون ؛ بينما استمرت عملية تحلل المجتمع فى طريقها ، إلى أن تمكن البرابرة فى نهاية الأمر من شق طريقهم .

وأحرى بنا أن نتساءل عن مدى قدرتنا على تمييز أية مظاهر لنزعة الوداعة – كما تميّز استجابة عنيفة – فى رد فعل البروليتاريا الخارجية على ضغط الأقلية المسيطرة الهلينية . كما نتساءل عن مدى قدرتنا على إضفاء مأثرة إنجاز أعمال إبداعية على البروليتاريا الخارجية .

لو اتخذنا المثال اليونانى لنا هادياً ، لتبين لنا من النظرة الأولى ، أن الرد بالسلب على كلا السؤالين . إذ تتيسر لنا ملاحظة البربرى المناهض للهلينية فى أوضاع ومراكز غير ثابتة :

فهناك ذلك البربرى فى صورة آريوفيستوس Ariovistus الذى أبعده قيصر عن الميدان . وهناك ما هو فى شكل آرمينيوس Arminius الذى احتفظ بمجاله الخاص ضد إرادة قيصر .

بيد أن للحروب فى جميع الأحوال ثلاثة جوانب : الهزيمة والموقعة غير الحاسمة ، والانتصار . لكنها تشترك فى غلبة نزعة العنف عليها ، وفى إضعافها نزعة الإبداع .

ولعلنا نُقدم مع ذلك على التطلع أبعد من ذلك . إذ لا يغرب عن أذهاننا أن فى مكنة البروليتاريا الداخلية كذلك ، أن تُظهر فى ردود فعلها المبكرة ، اتجاها عنيفاً وعقما يماثله فى حدته . على حين تتطلب نزعة الوداعة لتكتسب النفوذ : الوقت والعناء كليهما . وتتجلى هذه النزعة فى خاتمة المطاف فى أعمال إبداعية رائعة تتمثل فى دين يتسم بسموه ، ونظام دينى عالمى الطابع .

وعلى أية حال ، ففى وسعنا أن نميز شيئاً من اختلاف الدرجة فى نزعة العنف التى تبديها عصابات البرابرة الحربية على اختلافها . ومصداقاً لذلك ، كان تخريب روما عام ٤١٠ ق . م . على يد ألاريك Alaric القوطى الغربى . أقل جوراً مما حدث بعد ذلك من تخريب نفس المدينة عام ٤٠٠ ميلادية على أيدى الوندال والبربر ، كما أنه كان أقل مما عانته روما على يدى راداجايسوس Radagaisus عام ٤٠٦ ميلادية . ولقد أشاد القديس أوغسطين فى العبارة التالية ، بالوداعة النسبية التى أبداها ألاريك حيال روما :

« تبدّى إبان الحادثة ، ما عرف عن البرابرة من قسوة مروعة ، فى صورة فعلية من الاعتدال ، حتّى أن الفاتح البربرى قد جعل من الكنائس ملاذا رحيباً . وأصدر أوامره بالامتناع عن استخدام السيف ضد الهياكل المقدسة ، وأن لا ينتزع منها أسـير . وحقاً ، حمل أعداء ذوو قلوب رحيمة إلى هذه الكنائس ، كثيراً من المسجونين ليحصلوا على حريتهم . فى حين لم يخرجهم منها عنوة لاسترقاقهم ، أعداء قساة[1] » .

وثمة الدليل الفذ على قوة الوداعة متمثلا فى أتاولف Atawulf خليفة ألاريك وأخى زوجته ، كما سجله أورسيوس ، مريد القديس أوغسطين فى رسالة تحت عنوان « سيد مهذب من ناربون Narbonne ، امتاز بعمل حربى تحت قيادة الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius :

« أنبانا السيد المهذب أنه فى ناربون قد تآلف مع أتاولف إلى أقصى حد . وإنه كثيراً ما ذكر له — وهذا مع الحرص الشديد لمشاهد يقدّم دليلا — قصة حياته ذاتها التى غالباً ما كانت على شفتى هذا البربرى ذى الروح الجياشة والحيوية والعبقرية الفياضتين . ويتبين من قصة آتاولف أنه قد بدأ حياته تتملكه رغبة عارمة فى إزالة كل ذكرى تتصل باسم امبراطورية

(١) الكتاب الأول ، الفصل السابع St. Augustine : De civitate Die .

القوط . بيد أن التجربة قد أقنعته بمرور الوقت ، بأن القوط — من جهة — ليسوا كفئا لهذا العمل نظرا لبربريتهم الطليقة التي تحول بينهم وبين الخضوع لقائد . ومن الإجرام — من الجهة الأخرى — إقصاء حكم القانون من حياة الدولة ، لأن الدولة تنتهي بانتهاء حكم القانون منها . ولما اهتدى آتاولف إلى هذه الحقيقة قاده فكره إلى ضرورة نذر نفسه على الأقل لإدراك هذا الحد الذي بات في متناوله ، ألا وهو استخدام حيوية القوط ليسترجع الاسم الروماني عظمته القديمة ، وربما أعظم منه[١] » .

هذه العبارة ، هي « الموضع التقليدي » للتدليل على حدوث تغير في مزاج البروليتاريا الخارجية الهلينية ؛ من اتجاه إلى نزعة العنف ، إلى السير في طريق الوداعة . وفي وسعنا أن نميز على ضوئها طائفة من ظواهر الإبداع الروحي أو الأصالة على الأقل — المصاحبة لها في النفوس البربرية التي استصلحت استصلاحا جزئيا .

وإنه وإن كان آتاولف نفسه مسيحيا مثل ألاريك أخي زوجته ، فإن مسيحيته لم تكن مسيحية القديس أوغسطين والكنيسة الكاثوليكية . إذ غلب المذهب الأريوسي على الغزاة البرابرة من هذا الجيل في الجبهة الأوربية . وإنه وإن عُزي تحولهم أصلا إلى الأريوسية عوضا عن الكاثوليكية إلى محض الصدفة ؛ فإن إخلاصهم اللاحق للأريوسية يعتبر نتيجة اختيار رصين . وتم ذلك الاختيار بعدما زالت عنهم نزعتهم الوثنية التي كانوا وقتا ما مشهورين بها في أنحاء العالم الهليني الذي اعتنق المسيحية .

وبالأحرى ، اتخذوا الأريوسية شعاراً لمكانة الفاتحين الاجتماعية تجاه السكان المقهورين . وكانت أريوسيتهم هذه تدفعهم إلى إظهار روح الغطرسة . واستمرت النزعة الأريوسية غالبة على جمهرة الدول التيتونية التي خلفت الإمبراطورية الرومانية خلال الجانب الأعظم من فترة الفراغ

---

(١) الكتاب السابع ، الفصل ٤٣ Orosius : Adversum Paganos .

(٣٧٥ م — ٦٧٥ م) . وأخيراً قام البابا جريجورى الأكبر (٥٩٠ — ٦٥٤ م) — ويعتبر أكثر من أى رجل آخر ، مؤسس حضارة المسيحية الغربية الجديدة التى انبعثت من مرحلة الفراغ — بدور حاسم فى إنهاء هذا الفصل من تاريخ البربرية الآرية ، بهدايته الملكة تيوديليندا Theodelinda إلى الكاثوليكية .

ولا يعتبر الفرنجة من أريوسيين . إلا أنهم قد انطلقوا رأسا من الوثنية إلى الكاثوليكية بفضل اعتناق كلوفيس المسيحية فى ريمس Reims عام ٤٩٦ ميلادية . فأسدت لهم هدايته عونا قويا على مجابهة فترة الفراغ ، وعلى تشييد دولة تحولت إلى حجر الأساس السياسى للحضارة الجديدة .

وبينما اتخذت عصابات البربرة هذه ممن اعتنقت المسيحية ، النزعة الأريوسية — كما وجدتها — شعاراً مميزا ؛ أظهر برابرة آخرون يقيمون على الحدود الأخرى للإمبراطورية ، شيئاً من الأصالة ، باستلهامهم شيئاً أكثر إيجابية من مجرد الاعتزاز بالانتماء إلى طائفة بالذات . أما برابرة « الهدب الكلتى » على حدود الجزائر البريطانية الذين اعتنقوا الكاثوليكية ولم يتحولوا إلى المسيحية الأريوسية ، فقد أعادوا تشكيل كاثوليكيتهم لتطابق تراثهم البربرى الخاص .

وأظهر برابرة ما وراء الحد — على الحد المواجه للقسم العربى من السبب الأفراسى — إصالة تفوق كثيراً ما أظهره البرابرة الأريوسيون . فلقد استحال إشعاع اليهودية والمسيحية فى النفس الإبداعية للنبى محمد ، إلى طاقة روحية ، أطلقت نفسها فى الإسلام ، وهو « الدين الأعلى » الجديد .

وسيستبين لنا — إن سقنا أبحاثنا إلى الوراء مرحلة أبعد من ذلك — أن ردود الفصل الدينية هذه — التى قد سجلناها بالفعل — لم تكن أول ما انبعث عن هــذه الشعوب الإبداعية بفضل إشعاع الحضارة الهلينية . فما الدين الموغل فى بدائيته والتى تكتمل فيه هذه الظاهرة تماماً ، إلا عقيدة

أساسها فى جوهرها فكرة « الخصوبة » . ومصداقاً لهذا الرأى ، تعبد الجماعة البدائية بصفة أساسية ، طاقتها الإخصابية الذاتية متمثلة فى إنجاب الأطفال وفى إنتاج الطعام . وتصبح عبادة القوة المدمرة عندهم ، إما غيبية أو تابعية .

ولما كان دين الإنسان البدائى ، مرآة صادقة لأحواله الاجتماعية ، فإن ارتباك حياته الاجتماعية بصورة عنيفة ــ بفعل دفعها إلى الاتصال بجسم اجتماعى أجنبى قريب من حياته الاجتماعية ومعادى لها على السواء ــ يقود إلى نشوب ثورة فى عقيدته الدينية . وهذا ما يحدث فعلا ، وقلما نجد جماعة بدائية طفقت تستوعب تدريجياً وسلميا التأثيرات المنعمة لحضارة نامية ، تفقد ــ بطريقة مفجعة ــ مرأى شخصية أورفوس المتأنة الحاملة قيثارتها الفاتنة ، وتجابه بطريقة فظة ــ عوضا عن أورفوس ــ السحنة القبيحة المنذرة بالسوء للأقلية المسيطرة ، فى حضارة منهارة .

وتتحول الجماعة البدائية فى هذه القضية إلى شذرة من بروليتاريا خارجية . وتتضارب فى ظل هذا الموقف من ناحية الأهمية النسبية ، مناحى النشاط المتصلة بالخصوبة والتدمير فى حياة الجماعة البربرية . وهنا تصبح الحرب مدار وظيفة الجماعة كلها .

وعندما تغدو الحرب أجزل الجماعة ربحا ، وأشد إثارة من الوحدة الجزئية والعمل الرتيب للحصول على الطعام ؛ فكيف تستطيع دمتر[1] أو حتى أفروديت[2] ــ باعتبارهما اسمى تعبير الألوهية ــ الاحتفاظ بمكانتها ضد آريس Ares [3] .

---

(١) دمتر Demeter هى فى الأساطير اليونانية أخت زيوس (وتدعى سيريس فى الأساطير الرومانية) وتعتبر رمزا للخصوبة والنماء والازدهار . (المترجم)

(٢) أفروديت . ربة الجمال والإخصاب ، وهى ذات أصل أجنبى ، إذ كانت تعرف عند السومريين باسم عشتار . (المترجم)

(٣) آريس : رب الحرب فى الأساطير اليونانية (وهو مارس عند الرومان) وهو ابن زيوس ، واشتهر بسيطرة نزعة العنف على تصرفاته . (المترجم)

هنا يُعاد تشكيل صورة وثن الجماعة البربرية المعبود . فيتحول إلى زعيم عصبة حربية مقدسة . ولقد طالعتنا أمثلة من هذه الأوثان البربرية الأصل فى البانثيون الأولمبى[١] الذى كانت تعبده البروليتاريا الخارجية الآخية للإمبراطورية البحرية المينوية . وشاهدنا عصابات الأوليمب المؤلهة هذه يواجهها من الجهة الأخرى مواطنو آسجارد[٢] الذين كانت تعبدهم البروليتاريا الخارجية فى الإمبراطوية الكارولنجية . وثمة بانثيون آخر من نفس الطراز كان يعبده البرابرة التيوتون فيما وراء الحدود الأوربية للإمبراطورية الرومانية ، قبـل تحولهم إلى الكاثوليكية . وأحرى أن يؤخذ فى الحسبان ، انبعاث هذه الأرباب النهّابة فى سحنة عبّادها المعدّين للحرب بالذات . باعتبار ذلك الإعداد عملا إبداعيا مأثوراً للبروليتاريا الخارجية التيوتونية فى العالم الهلينى .

أما وقد استجمعنا هذه المقادير من النشاط الإبداعى فى ميدان الدين ؛ فهل فى مكنتنا أن نُضيف إلى محصولنا الواهى جديدا ، عن طريق استخلاص المطابقة مرة أخرى ؟

وإذا كانت « الأديان السامية » التى تعتبر كشوفاً مجيدة للبروليتاريات الداخلية ، قبيحة الصيت فيما يتصل بأوجه النشاط فى ميدان الفن ؛ فهل تستعيض « الأديان الدنيا » للبروليتاريا الخارجية ، أعمالا فنية رائعة ؟

الرد بالإيجاب بكل تأكيد .

فما إن سعينا إلى إماطة اللثام عن الأرباب الأوليمبين ، حتى شاهدناهم كما هم مصوّرين فى الملحمة الهومبروسية . ويتصل هذا الشعر بعقيدة البرابرة الآخيين اتصالا متلازماً ، مثل اتصال الأنشودة الجريجورية وطراز المبانى القوطى

---

(١) البانثيون الأولمبى . هو مجمع الآلهة عند قدماء اليونانيين . (المترجم)

(٢) آسجارد فى الأساطير الاسكندنافية هو موطن الآلهة السكندنافية وعلى رأسهم أودين . (المترجم)

بالمسيحية الكاثوليكية إبان القرون الوسطى . ونجد نظير فى الملحمة الشعرية اليونانية لأيونيا ، فى الملحمة الشعرية التيوتونية لانجلترا ، وفى الساجة الاسكندنافية لأيسلندا . وترتبط الساجة الاسكندنافية بأسجارد ، وترتبط الملحمة الشـــعرية الانجليزية — التى تعتبر بيورلف Beorulf أعظم آياتها الباقية — بوودين Woden وزمرته الإلهية — على غرار ارتباط الملحمة الشعرية الهومرية بجمع الآلهة فى الأولمب .

وحقاً ، تعتبر الملحمة الشعرية أعظم إنتاج مميز ذو سمات خاصة ، لردود فعل البروليتاريات الخارجية ، وهو مظهر النشاط الوحيد الخالد الذى أورثتها تجاربها إلى البشرية فإن الحضارة لم تنجب أشعاراً عادلت أو فى مكنتها أن تعادل جلال أشعار هومير فى بساطتها وفى مرارتها القاسية[١] .

وإذا كنا قد أوردنا ثلاثة أمثلة لضعر الملحمة ، فإنه من اليسير أن نضيف ألى هذه القائمة أمثلة أخرى ، وأن ندلل على أن كل مثال هو رد فعل بروليتاريا خارجية للحضارة التى اشتبكت معها فى صراع . مثال ذلك أن أنشودة رولاند Chanson de Roland ، وليدة الجناح الأوربى للبروليتاريا الخارجية للدولة العالمية السورية . فلقد استوحى — إبان القرن الحادى عشر الميلادى — الصليبيون الفرنسيون أنصاف البرابرة من ميدان البرانس التابع للخلافة الأموية الأندلسية ، عملا فنياً يعتبر مصدر جميع الشعر الذى ما برح يدوّن بأية لغة وطنية من لغات العالم الغربى ، منذ ذلك اليوم . وإن أنشودة رولاند لتفوق بيوولف فى أهميتها التاريخية ، كما تفوقها فى الفضل الأدبى[٢] .

---

(١) صفحة ٢٢ Lewis C.S. A Greface to Paradise Paradise .

(٢) يبحث المستر توينبى فى دراسته — إلى المدى الذى يتيحه الدليل التاريخى — موضوع البروليتاريا الخارجية لجميع الحضارات . واقد حذفت جميع الحالات الأخرى وشرعت مباشرة فى إيراد القسم الخاص بالبروليتاريا الخارجية فى المجتمع الغربى . ولست فى حاجة لأن أقول — كما أننى لست فى حاجة إلى الاعتذار عن الحقيقة — أننى أتبعت نفس الخطة فى أماكن أخرى ، =

(٥) البروليتاريات الخارجية للعالم الغربى

بوصولنا إلى تاريخ العلاقات بين العالم الغربى والمجتمعات البدائية التى جابهها ، نميز مرحلة مبكرة ظفرت فيها المسيحية الغربية خلال طور استطالتها – على غرار ما حدث للهلينية – بأناس اهتدوا بعقيدتها ، بفضل جاذبية فتنتها . وتتمثل آية هذه الهداية ، فى استسلام الأعضاء الأوائل للحضارة السكندنافية العقيمة فى نهاية المطاف ، إلى الجرأة الروحية للحضارة التى أغاروا عليها بغية تدميرها . وكانوا يقيمون وقتذاك فى مرابضهم فى الشمال الأقصى وفى مستعمراتهم البعيدة فى إيسلندا ، وكذلك فى معسكراتهم على الأرض المسيحية فى دانيلاو Danelaw [١] ونورماندى .

وإنه وإن اهتدى إلى المسيحية بعد ذلك البدو المجريون وسكان الغابات البولنديون من تلقاء أنفسهم ، أسوة بما حدث للاسكندنافيين ؛ إلا أن هذه المرحلة المبكرة من التوسع الغربى ، تتسم كذلك بما حدث فيها من عدوان فاق فى عنفه كثيراً عمليات الإخضاع العرضية ، وتجريد الجيران البدائيين المعرّضين لهجوم أعداء الهلينيين البدائيين الوفيرة . إذ لا تعد حملات شارلمان الصليبية ضد الساكسونيين وحملاتهم هم ضد السلاف القاطنين بين نهرى الألب Elbe والأودر ، Oder شيئاً مذكوراً أمام فظائع الفرسان التيوتون إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقتما استأصلوا البروسيين [٢] المستوطنين المناطق الواقعة وراء نهر الفيستولا .

وتكرر ذات القصة نفسها على حدّ المسيحية الشمالى الغربى . إذ يحتوى

– وإن كان هنا أقل شدة . ومن قبيل المثال أن المستر توينبى قد بحث فى هذا الفصل عن البروليتاريات الداخلية ، بجميع الحالات ، إلا أننى حذفت نصفها محتفظا بالنصف الآخر الذى يبدو أنه يتيح أكثر مظاهر الطرافة . (الملخص)

(١) دانيلاو : القسم الدانمركى فى الجزيرة البريطانية . (المترجم)

(٢) وكانوا من الجنس السلافى الذى ينتمى إليه الروس والبولنديون وغيرهم . (المترجم)

الفصل الأول منها على قيام عصبة من البعثات التبشيرية الرومانية بهداية الإنجليز سلمياً إلى المسيحية — ولكن تلا ذلك حدوث سلسلة من الانقلابات فى الأساليب ، بدأت بقرار مجمع هويتبى الدينى عام ٦٦٤ ميلادية ، وبلغت أوجها فى غزو هنرى الثانى — بموافقة البابا — إيرلندا عام ١١٧١ . وهى حملة هدفت إلى إخضاع مسيحى الغرب الأقصى . وليست هذه هى نهاية القصة : فإن خلة « الإرهاب » التى اكتسبها الإنجليز إبان فترة عدوانهم الطويل المدى ضد بقايا الحد الكلتى فى هضاب اسكتلندا ومستنقعات إيرلندا ، قد حملتهم عبر المحيط الأطلسى ، وجعلتهم يمارسونها على حساب هنود أمريكا الشمالية .

ولقد كانت الطاقة التى دفعت الحضارة الغربية إلى الانتشار فوق الكوكب بأسره ، من القوة بالإضافة إلى عظم الاختلاف فى موارد الثروة بينها وبين منافسيها البدائيين ، بحيث أن حركة التوسع الغربى قد جرفت أمامها كل شىء دون أن يعوقها عائق . ولم يعد الأمر موضوع إقامة حد حربى بينها وبين الشعوب البدائية ، بل إنها انتهت إلى إقامة حد نهائى ، أى حد طبيعى . هنا تصبح الإبادة أو الإجلاء أو الإخضاع هو القاعدة ، والهداية هى الاستثناء ؛ فى مثل هذا الهجوم ذى الانتشار العالمى على بقايا للمجتمعات البدائية .

وحقاً ، فى وسعنا أن نحصى على أصابع اليد الواحدة ، المجتمعات البدائية التى اتخذها المجتمع الغربى الحديث شريكا له . ويرد من بينها : الاسكتلنديون سكان الهضاب ، وهم أحد جيوب البرابرة غير المروضين الذين أورثتهم مسيحية القرون الوسطى ، العالم الغربى الحديث . وثمة الماورى سكان نيوزيلندا الأصليون . وهناك الآروكان القاطنون فى المؤخرة البربرية للمقاطعة الشيلية للدولة العالمية الانديانية الذين كان على الأسبان أن يتعاملوا معهم منذ الفتح الأسبانى لإمبراطورية الانكا .

ولقد بات اندماج الاسكتلنديين أمراً مقضياً بعد ما أخفقت مقاومة

هؤلاء البرابرة البيض للوخزات الأخيرة التى أصابتهم بسبب تمردهم فى عصر جيمس الأول عام ١٧٤٥ . ولم يكن الاندماج بالأمر اليسير . فإن الهوة الاجتماعية التى تفصل رجلا من طراز الدكتور جونسون أو هوراس والبول عن العصابات الحربية التى حملت الأمير شارل إلى دربى ؛ هذه الهوة ، لم يكن اجتيازها — على الأرجح — يقل صعوبة عن اجتياز الهوة التى كانت تفصل المستوطنين الأوربين فى نيوزيلندا أو شيلى عن الماورى أو الآروكانيين . ولا شبهة فى أن أحفاد أحفاد المقاتلين الشُعثاء تحت قيادة الأمير شارل ، يشتركون فى الوقت الحاضر فى اعتناق نفس الجوهر الاجتماعى مع سليلى أصحاب الشعور المستعارة والمساحيق من سكان الأراضى الواطئة فى اسكتلندا والإنجليز الذين كتب لهم الفوز فى آخر دورات الصراع الذى بلغ نهايته منذ مائتى عام مضت تقريباً . ولم تكن هذه الفترة من الطول حتى تستطيع الأسطورة الشعبية تحويل طبيعة هذا الصراع الأصيلة عن موضوعها الواقعى . على أن الاسكتلنديين قد استطاعوا أن يقنعوا الإنجليز إلى حد كبير — بل أن يقنعوا أنفسهم — بأن مرقشات[١] هضاب اسكتلندا هى رداء اسكتلندا الوطنى[٢] . ويبيع الآن باعة مستحضرات الحلوى فى الأراضى الواطئة « روك ادنبره »[٣] فى « علب مغطاة بقماش المرقشات » .

وتوجد مثل هذه الحدود البربرية فى الوقت الحاضر فى أنحاء أخرى من العالم الغربى . وتعتبر تراثا انحدر إليه من الحضارات الغير الغربية التى

---

(١) المرقشات Tartan . قماش صوفى به خطوط من ألوان مختلفة . ويرتديه سكان هضاب اسكتلندا خاصة . (المترجم)

(٢) الذى اعتبره مواطنو ادنبره عام ١٧٠٠ ميلادية — مثلما اعتبر تماما مواطنو بوسطن فى نفس الوقت — كسوة الرأس من الريش التى يرتديها الزعيم الهندى الأحمر . (المؤلف)

(٣) نوع من الحلوى الاسكتلندية . (المترجم)

لما تُستوعب بعد فى الكيان الاجتماعى الغربى . ويطالعنا من بينها : الحد الشمالى الغربى للهند ، وله شأن بارز هام – على الأقل – لمواطنى تلك الدولة الغربية المحدودة التى أخذت على عاتقها تزويد الحضارة الهندية المتحللة بدولة عالمية[1] .

فلقد انهار هذا الحد المرة بعد الأخرى بفعل زعماء العصابات الحربية من الأتراك والإيرانيين إبان عصر الاضطرابات الهندى حوالى ١١٧٥ – ١٥٧٥ ميلادية . وكانت الدولة العالمية الهندية ممثلة فى الإمبراطورية المغولية ، بشيرا بإغلاق هذا الحد . وعندما انحلت الإمبراطورية المغولية قبل الأوان فى مستهل القرن الثامن عشر الميلادى ، تألف العرابرة الذين اندفعوا للصراع فى سبيل الاستحواذ على جيفة الإمبراطورية – هم وزعماء المهراتا الممثلين لرد الفعل الهندى ضد دولة عالمية دخيلة – تألفوا من الروهيلاس[2] الشرقيين والأفغان . ولما أن تولت أيدى أجنبية إنجاز عمل أكبر قدرا باستعادتها الدولة العالمية الهندية فى شكل إمبراطورية بريطانية ، تبين أن الدفاع عن الحد الشمالى الغربى ، يعتبر إلى أبعد حد أثقل واجبات الدفاع التى ألقيت على منشئ الإمبراطورية البريطانية فى الهند . فكان أن طبقت سياسات مختلفة للدفاع عن الحدود ، لا تفى جميعها بالمرام :

السبيل الأول – اعتنق بناة الإمبراطورية البريطانية فكرة غزو وإلحاق المدخل الإيرانى الشرقى للعالم الهندى ، بأسره فوراً ، حتى الخط الذى سارت على طوله الإمبراطورية المغولية إبان أوجها مع الدول الازبكستانية التى خلفتها فى حوض نهرى سيحون وجيحون ، وكذلك مع الإمبراطورية الصفوية فى إيران الغربية .

---

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بتلك العبارة « بريطانيا » . (المترجم)

(٢) الروهيلاس : قبيلة جبلية من الباتان بأفغانستان ، غزت منطقة روهيلخاند بالهند فى منتصف القرن الثامن عشر واستقرت فيها . على أن حاكم المقاطعة استعان بشركة الهند الشرقية فأمكنه طرد القبيلة من المنطقة فى عام ١٧٧٤ . (المترجم)

ولقد أعقب قيام ألكسندر بيونز من عام ١٨٣٩ باستطلاعاته الجريئة ، خطوة أشد مجازفة قوامها توجيه قوة حربية بريطانية هندية عام ١٨٣٨ إلى أفغانستان . لكن انتهت بكارثة ، هذه المحاولة الطموحة لحل مشكلة الحد الشمالى الغربى حلا « شاملا » . ويرد ذلك إلى أن بناة الإمبراطورية من البريطانيين قد بالغوا - إبان نجاحهم الأول فى غزو الهند - فى تقدير قوتهم وبخسوا تقدير عنف وفعّالية المقاومة التى لابد وأن يستثيرها عدوانهم فى خصومهم ، الذين همّوا بإخضاعهم . وفى الواقع انتهت العملية عام ١٨٤١ - ٤٢ بكارثة أضخم جرما من الكارثة الإيطالية فى جبال الحبشة عام ١٨٩٦ [١] .

السبيل الثانى - لم يتعد الطموح البريطانى لغزو الهضاب غزواً دائماً منذ هذا الفشل الطنّان ، مرحله البحث التجريبى . إذ غدت الجوانب المختلفة لسياسة الحدود منذ غزو البنجاب عام ١٨٤٩ ، تتجه إلى المناورة أكثر من اتجاهها إلى الاستراتيجية . وفى الواقع فإن لدينا هنا حدداً حربياً من نفس النوع السياسى لحد الإمبراطورية الرومانية على نهرى الرين والدانوب إبان القرون الأولى للعصر المسيحى . فإذا ما أذعنت الأقلية المسيطرة البريطانية الهندية لضغط البروليتاريا الداخلية الهندية وغادرت الهند ؛ فإن رؤية ما ستفعله هذه البروليتاريا الداخلية المتحررة عندما تصبح سيدة بيتها ، لمعالجة مشكلة الحد الشمالى الغربى ، سيكون أمرا طريفاً [٢] .

وإذا ما ساءلنا الآن أنفسنا فيما إذا كانت البروليتاريا الخارجية التى استولدها المجتمع الغربى فى مختلف بقاع العالم خلال مراحل مختلفة من تاريخه ،

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف انكسار الجيش الإيطالى المشين فى موقعة عدوة عام ١٨٩٦ . (المترجم)

(٢) بإنشاء دولة باكستان أصبحت الأراضى الشمالية الغربية جزءا منها . وآلت مشكلة الحدود إليها متمثلة فى كشمير التى يتنازعها الطرفان ، وتحتل الهند ثلثيها وباكستان الثلث الآخر . (المترجم)

قد استثارتها لإنتاج أية أعمال إبداعية فى مجالى الشعر والدين ؛ المحن التى اجتازتها يطرأ على أذهاننا على الفور العمل الإبداعى الساطع الذى قامت به بقاياهم فى « الهدب الكلتى » وفى اسكندنافيا . أولئك الذين قادتهم هزيمتهم فى صراعهم مع حضارة المسيحية الغربية الوليدة ، إلى أن تصاب بالعقم ، محاولاتهم لإقامة حضارتين خاصتين بهما . ولقد سبقت مناقشة هذه المصادمات فى فى مناسبة أخرى فى هذه الدراسة ، وعسانا نجاوزها توا لبحث البروليتاريات الخارجية المتولدة عن عالم عربى آخذ فى الامتداد فى العصر الحديث . وأننا إذ نستطلع هذا المجال ، سنُرضى أنفسنا بمثال متفرد عن الابتداع البربرى فى كل من المجالين اللذين تعلمنا البحث عنهما :

أولا – بالنسبة لميدان الشعر – فى وسعنا أن نهتم بشعر « البطولة » الذى استنبته البرابرة البشناق فيما وراء الحد الجنوبى الشرقى من مملكة هابسبرج الدانوبية ، إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا المثال طرافته . إذ يبدو لأول وهلة كما لو أنه استثناء من القاعدة القائلة بأن البروليتاريا الخارجية لحضـــارة متحللة ، لن يتأتى استثارتها لإبداع شعر « البطولة » ، إلا إن مرّت تلك الحضارة عبر مرحلة دولتها العالمية ، ثم تردى فى مرحلة فراغ تتيح الفرصة لمرحلة هجرات بربرية . بيد أن مملكة هابسبرج الدانوبية التى لم تتعد فى نظر لندن أو باريس أن تكون دولة من الدول الإقليمية فى عالم غربى منقسم سياسيا ؛ كانت لها كافة مظاهر الدولة الغربية العالمية وصفاتها المميزة فى أعين رعاياها أنفسهم ، وفى نظر أولئك الجيران الغير الغربيين . واعتبرها خصومها بمثابة « الذبل »[1] أو الدرع لكيان المجتمع المسيحى الغربى بأسره ، الذى ظل أعضاؤه المتمتعين بحماية الدرع ، غير مقدّرين أنعم رسالة ملكية هابسبرج المسكونية .

وكان البوشناق هم آخر من بقى من برابرة القارة الأوربية الذين كان عليهم

---

(١) الذبل : درع السلحفاة أو غيرها . (المترجم)

فيما مضى أن يتحملوا المحنة الغير العادية ــ والتي كانت مؤلمة ألما غير عادي ــ المتعلقة بالوقوع بين ناري حضارتين معتديتين هما الغربية ، والأرثوذكسية : ولقد نبذ البوشناق إشعاع الحضارة المسيحية الأرثوذكسية التي كانت أول ما تلقوه في صورته الأرثوذكسية ؛ ولم يستطيعوا إلا أن يدسوا أنفسهم في أسلوب العقيدة البوجوميلية[1] الانشقاقي . واعتبر بقية الناس ذلك هرطقة جرّت على البوشناق معاداة كلا الحضارتين المسيحيتين ، الأمر الذي جعلهم يرحبون بالمسلمين « العثمانيين » فكان أن هجروا نزعتهم البوجوميلية واستحالوا إلى مسلمين .

وهكذا قام هؤلاء البوجوسلاف المهتدون إلى الإسلام في ظل الحماية العثمانية ، وفي الجانب العثماني من الحد الفاصل بين العثمانيين وهابسبرج ، بنفس الدور الذي أداه في الجانب الهابسبرجي ، البوجوسلاف المسيحيون اللاجئون من الأراضي التي أصبحت تحت الحكم العثماني . ووجدت المجموعتان المتعارضتان من البوجوسلاف مهنة واخذة في شن الإغارات على الإمبراطورية العثمانية من جانب ، وعلى ملكية هابسبرج من جانب آخر . فكان أن نشأت على نفس الأرض الخصبة من الحد العسكري ، مدرستان لشعر البطولة مستقل إحداها عن الأخرى ، ويستخدم كلاهما اللغة الصربية الكرواتية ؛ وازدهرت المدرستان جنبا إلى جنب دون أن تؤثر إحداهما في الأخرى ، على ما يظهر لنا .

---

(١) البوجوميلية : نسبة إلى كلمة Bogomil وهي كلمة سلافية تعني المحبوب من الله . وهي عقيدة اعتنقها جماعة من سكان تراقيا اليونانية ومقدونيا البغاربة وأسسها راهب يدعى باسيل أحرقه المسيحيون عام ١١١٨ . ومدار العقيدة البوجومولية أن الله قد خلق المسيح والشيطان وأن الشيطان تمرد على الله وخلق الأرض والجنس الآدمي . وتلقى المسيح من والدته السيدة مريم الشكل الآدمي . وتؤمن العقيدة بالتبتل وتحرم أكل اللحم وتنبذ الصور وتنكر العشاء الرباني . (المترجم)

أما مثالنا عن عبقرية البروليتاريا الخارجية في الميدان الديني ، فإنه مستمد من ناحية جد مختلفة تماماً ، ألا وهي حدّ الولايات المتحدة ضد الهنود الحمر إبان القرن التاسع عشر .

فإنه من الغريب أن يعجز تماماً ، الهنود الحمر الشماليين عن إتيان أية استجابة إبداعية لتحدى العدوان الأوربي ؛ في حين أنهم لبثوا باستمرار تقريباً في ميدان المعركة منذ لحظة وصول المستوطنين الإنجليز إلى أن سحقت — بعد ذلك بمائتين وثمانين عاماً في حرب سيوكس[1] عام ١٨٩٠ — آخر محاولة هندية للمقاومة المسلحة . وأعجب من ذلك أن لا تتسم هذه الاستجابة الهندية بطابع الوداعة[2] . ولعلنا كنا نتوقع أن تنشئ عصابات الهنود الحمر الحربية : إما دينا وثنياً يتحول بالنسبة لاتحاد قبائل الأيروكوا[3] إلى شيء مثل الأوليمب اليوناني أو الأسجارد السكندنافي ، وإما يعتنقون العناصر المغالية في نزعتها العسكرية في عقيدة كالفين[4] البروتستانتية التي كانت ديانة مهاجميهم .

وعلى أية حال ، ظهرت بين الهنود الحمر سلسلة من الأنبياء ابتداء من نبي ولاية ديلاوير Delauare المجهول الاسم عام ١٧٦٢ إلى قيام وفوكا Wovoka عام ١٨٨٥ بولاية نيفادا ، مبشرين بإنجيل يختلف عما تقدم ذكره

---

(١) السيوكس : جنس من الهنود الحمر . وقد نشبت عدة حروب بين هذه القبيلة والأمريكيين البيض : وأمكن تلك القبيلة عام ١٨٧٦ إفناء فرقة بين الجنود البيض بأكلها كانت تحت قيادة الجنرال كاستر . وتعيش الآن في ولاية داكوتا ويبلغ تعداد أفرادها حوالى الأربعين ألفا . (المترجم)

(٢) أى على النسق الذى جرى بالنسبة للأرقاء الشرقيين في روما قديما ، والأرقاء الزنوج الإفريقيين في الولايات المتحدة حديثا . (المترجم)

(٣) الأيروكوا Iroquois اسم أطلقه الفرنسيون على اتحاد تم إبان القرن السادس عشر بين خمس من القبائل الهندية القاطنة على طول مجرى نهر السان لورنس ، لمناهضة الاستعمار الأبيض . والأوليمب هو موطن الآلهة اليونانيين والأسجارد موطن آلهة اسكندنافيا في الأساطير اليونانية والاسكندنافية ، على التوالى . (المترجم)

(٤) نسبة إلى كالفين المصلح المسيحى السويسرى المنشأ . (المترجم)

اختلافا تاماً . فإنهم قد بشروا بالسلام وحثوا مريديهم على نكران استعمال كافة التحسينات الفنية المادية التي اكتسبوها من أعدائهم البيض[1] ، ابتداء من استخدام الأسلحة النارية . وأعلنوا بأن الهنود الحمر لو اتبعوا تعاليمهم لتيسرت لهم حياة وادعة فى جنة دنيوية تنضم إليهم فيها نفوس أجدادهم . كما أعلنوا أن مملكة الهنود الحمر العتيدة هذه لن يفتتحها مقاتلو قبائل التوماهوك بأكثر مما يقتحمها رصاص البنادق . أما عن النتائج التى كانت تترتب عن اعتناق مثل هذه الرسالة ، فهذا ما نعجز عن قوله : إلا أنها دلت على أنها أسمى كثيراً من تفكير المحاربين البرابرة التى وجهت إليهم . وفى وسعنا أن نلمح فى ومضات ضياء الوداعة هذه — على أفق مظلم مخيف — قبساً من المسيحية الطبيعية فى حشا الإنسان البدائى .

ويبدو فى اللحظة الحاضرة ؛ كما لو أن فرصة البقاء الوحيدة للجماعات البربرية العتيقة القليلة ، تكمن فى اتباعها خطط الآبوتريين Abotrites والليتوانيين ، الذين كانوا من بعد النظر — إبان فصل القرون الوسطى من تاريخ التوسع الغربى — بحيث أنهم تنبأوا بتأثير قوة الهداية الإرادية لثقافة حضارة معتدية تأثير أقوى كثيراً من أن يملكوا له دفعاً . وما يزال فى بقايا البربرية العتيقة فى عالمنا ، قلعتان للبربرية محاصرتان حصارا محكماً بذل فى كل منهما زعيم حربى غير متحضر ، مجهودا حازما لإنقاذ موقف ، لم يكن ميئوساً منه بعد . وذلك عن طريق شنه هجوماً ثقافياً دفاعياً قوياً :

الأولى — وتقع فى شمال شرق إيران . ويبدو أن مشكلة حد الهند الشمالى الغربى ، قد تحل فى نهاية الأمر ، لا باستخدام أى إجراء عنيف ضد السكان الغير المتحضرين القاطنين على الجانب الهندى من الحد الأفغانى ، ولكن يتم باعتناق أفغانستان نفسها الحضارة الغربية عن طواعية . وذلك لأنه إن قيض النجاح لأفغانستان فى سعيها صوب الحضارة الغربية ، فإن

---

(١) ثمة هنا مشابهة واضحة مع حركة سوراداش فى الهند . (الملخص)

من ثمراته وضع العصابات الحربية على الجانب الهندى بين نارين وجعل مركزهم ميئوسا منه فى النهاية[1]. ولقد حمل الملك أمان الله خان (١٩١٩ — ١٩٢٩ ميلادية) لواء حركة الاتجاه الغربى فى أفغانستان مدفوعا برغبة أصيلة عارمة، واقتضته هذه الثورة الملكية عرشه. بيد أن إخفاق أمان الله الشخصى أقل أهمية من الحقيقة الأصلية، وهى أن هذه الصدمة لم تُثبت أنها قاضية على الحركة. ومصداقاً لذلك، كان الاتجاه نحو الحضارة الغربية قد مضى شوطاً بعيدا فى عام ١٩٢٩ بحيث قضى على رد الفعل البربرى العنيف للثائر اللص «باجه سقا». وواصلت عملية الاتجاه الغربى سيرها دون عائق فى ظل نظام الملك نادر وخليفته[2].

الثانية — تقع فى شبه جزيرة العرب. ولقد استطاع الملك عبد العزيز آل سعود[3] ملك نجد والحجاز منذ عام ١٩٠١ أن يرفع نفسه من المنفى السياسى الذى ولد فيه، إلى مقام السيادة العسكرية والسياسية على شبه الجزيرة العربية بأسرها غرب الربع الخالى وشمال مملكة اليمن. وتمكن مقارنة ابن السعود من ناحية استنارته — بالزعيم الحربى أتاولف القوطى الغربى. فإن الملك عبد العزيز قد علم مدى صولة الأسلوب العلمى الفنى الغربى الحديث؛ فأظهر إدراكاً مميزاً لتطبيقات هذا الفن. ومن قبيل المثال: الآبار الارتوازية والسيارات والطائرات التى تمكن الاستفادة منها بصفة خاصة فى السهب المركزى العربى. على أنه استبان له فوق كل شىء، أن القانون والنظام هما الأساس الذى لا غناء عنه لطريقة الحياة الغربية.

---

(١) الواقع أن إنشاء دولة باكستان وانضواء قبائل شمال غرب الهند إلى رعويتها قد جعلها تسكن إلى حكامها الوطنيين الجدد مما يدلل على أن ثوراتها فى الماضى كانت بدافع من كراهيتها للمستعمر الغاصب. (المترجم)

(٢) جلالة الملك ظاهر خان. (المترجم)

(٣) كتب هذا قبل تولى جلالة الملك سعود عرش المملكة العربية السعودية. (المترجم)

فإن حدث أن تداعت آخر قلعة للبربرية حصينة – بطريقة أو بأخرى – من الخارطة الثقافية لعالم ينزع نحو الحياة الغربية ، فهل نغبط أنفسنا على رؤية نهاية البربرية نفسها ؟

إن الإفناء الكامل لبربرية البروليتاريا الخارجية ، لن يكفل أكثر من أن نتيه تيهاً معتدلا ، ما دمنا قد أقنعنا أنفسنا (إن كانت هنالك أية فضيلة لهذه الدراسة) بأن الدمار الذى أخذ فى الماضى بتلابيب عدد من الحضارات لم يكن أبداً من فعل علة خارجية ، بل إنه ما برح دائماً فى طبيعة فعل الانتحار .

« إن الزيف الذى فى نفوسنا ، هو الذى يودى بنا »[1] .

فإن تيسر محو البربرية القديمة المألوفة ، محواً تاماً من الوجود ، عن طريق إزالة آخر بقايا الأرض الغير المملوكة لأحد الواقعة وراء الحدود المناهضة للبربرية التى قد انتقلت الآن إلى الأبعاد التى تحددها الطبيعة المادية ، على كل حد فى العالم ؛ إلا أن هذا الانتصار الفذ لن يفيدنا فى شىء ، إن سلبنا البرابرة فى ساعة إبادتهم من على الحدود ، حداً يقوم علينا . ويتم ذلك بانبعاثهم فى أوساطنا .

ألسنا نجد برابرتنا يتأهبون للقتال هنا ؟

« إن الحضارة القديمة قد دمرها البرابرة المستوردون . ولكننا نربى برابرتنا »[2] .

ألم نشاهد فى جيلنا حشداً من عصابات الحرب البربرية تنتظم صفوفها فى البلد تلو الآخر تحت أسماعنا ذاتها ، وتم هذا فى قلب ما كان حتى الآن حضارة مسيحية ، لا على حدودها ؟

وإلا فماذا تسمى الروح التى تسود المقاتلين من فرق القتال الفاشية أو فرق العاصفة النازية ، إلا بأنها روح بربرية ؟

---

(١) Meredith Love's Grave

(٢) Inge, W. R. : The Idea of Progress : صفحة ١٣

ألم يعلموا بأنهم يمتّون – عن طريق غير مباشر – إلى المجتمع الذى جاءوا من حشاه ، وأنهم باعتبارهم أنفسهم فريقاً اعتدى عليه ويحق له أن يثأر لنفسه ، فإنهم قد أباحوا من الناحية الأدبية غزو « مكان لأنفسهم تحت الشمس » باستعمال القوة العارمة ؟ .

أو ليس هذا بالضبط هو الفكرة القائلة بأن سادة الحرب من البروليتاريا الخارجية ومن أمثال جنسريك[١] وأتيللا ، ما انفكوا يعلنون لجنودهم بأنهم يقودونهم لنهب جزء من العالم فقد – بسبب خطئه – قدرة الدفاع عن نفسه ؟

لقد كانت القمصان السوداء – لا الجلود السوداء – هى بكل تأكيد شعارات البربرية فى الحرب الإيطالية الحبشية عام ١٩٣٥ /٦ ، وكان البربرى ذو القميص الأسود نذير شؤم لأنه كان يرتكب متعمداً الخطيئة ضد الهداية المسيحية التى ورثها ؛ وكان يشكّل تهديداً بسبب ما تحت إمرته من أسلوب فنى متوارث يستخدمه لارتكاب معصيته . وقد ترك له الحبل على الغارب لتحويل أسلوبه الفنى من خدمة الله إلى خدمة الشيطان .

بيد أنه بوصولنا إلى هذه النتيجة ، لما نقوّض أصل الشىء بعد . ذلك لأننا لم نسائل أنفسنا عن المصدر الذى استقيت منه هذه النزعة البربرية الإيطالية الجديدة . لقد أعلن موسولينى أنه يفكر فى إيطاليا « مثلما فكر الإنجليز الذين أقاموا الإمبراطورية البريطانية فى إنجلترا ، وكما فكّر المستعمرون الفرنسيون فى فرنسا[٢] . وأحرى بنا قبل أن نلفُظ بازدراء هذه الصورة الكاريكاتورية الإيطالية لأعمال أسلاف الإنجليز ، أن لا يغيب عن ذهننا أن الصورة الكاريكاتورية قد تهدى إلى سواء السبيل . ففى الملامح

---

(٢) جنسريك Gensric (٤٢٨ – ٤٧٧) ملك الوندال . ولد حوالى عام ٣٩٠ ميلادية ؛ وخلف أخاه جيودريك على العرش . فغزا على الفور شمال إفريقيا من أسبانيا . وفى عام ٤٥٥ غزا إيطاليا ونهب روما . ثم فتح صقلية وسردينيا وجزائر البليار . واتسمت غزواته بالسلب والإمعان فى القسوة والتدمير . (المترجم)

(٣) حديث لموسولينى مع الناشر الفرنسى M. de Kerillis . ورد بالتايمس فى أول أغسطس سنة ١٩٣٢ . (المؤلف)

الكريهة للبربرية الإيطالية الجديدة المارقة عن سبيل الحضارة ، قد نضطر إلى الاعتراف بأننا نراها فى بعض النماذج الأعلى التى نعجب بها كثيرا : كليف ودريك وهوكنز .

ولكن هل يقتضى الجال متابعة سؤالنا اللجوج أبعد من ذلك ؟

ألا يجدر بنا أن نذكر أنفسنا — على هدى الدليل الذى عرضت له هذه الدراسة — بأن الأقليات المسيطرة هى مصدر العدوان خلال الحرب الناشبة بين الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية ؟

خليق بنا أن نفطن إلى أن حوليات[1] هذه الحرب بين « الحضارة » و « البربرية » ، قد احتكر تدوينها تقريباً مؤرخون ينتمون جميعاً لمعسكر متحضر . ومن ثمة يحتمل أن لا تكون الصورة التقليدية للفرد المنتمى إلى البروليتارية الخارجية — الذى يحمل شعلته وجزرته البربريتين إلى أراضى حضارة من الحضارات الوديعة — عرضا صادقا للحقيقة ، ولكن تعبيراً عن ازدراء الفريق « المتحضر » لجعله هدف هجوم مضاد تسبب هو نفسه فى استثارته . ولعل الشكوى التى يجأر بها الفرد المتحضر الفتاك ضد عدوه البربرى ، لا تعـدو أن تكون أكثر من مجرد الفكرة التى يسجلها هذان البيتان :

« هذا الحيوان شرير »

« فإنه إذا ما هوجم يدافع عن نفسه »[2] .

---

(١) الحوليات : مدونات تكتب سنويا .   (المترجم)

Théodore P.K : La Ménagerie (٢)

(٦) مصادر الإلهام الأجنبية والوطنية

١ — آفاق مقبسة :

افترضنا فى مستهل هذه الدراسة[١] ، أن مجموعات الجماعات المنتسبة إلى بعضها بعضاً والتى دعيناها مجتمعات — والتى ألفيناها مجتمعات من جنس معين وتعرف بالحضـــارات — تدلل على كونها « ميادينُ للدراسة قابلة للفهم » .

وبكلمات أخرى : افترضنا أن سير حضارة من الحضارات يقرر مصيره بنفسه ، بحيث تمكن دراسته وفهمه فى ذاته وبذاته دون حاجة إلى تفاوت حركة القوى الاجتماعية الأجنبية تفاوتا متصلا . وقد انبعث هذا الفرض بفضل دراستنا بدايات الحضارات واستطالاتها ؛ ولم يحدث حتى الآن موجب لدحضه بتأثير دراستنا لانهيار الحضارات وتحللها .

ويرد ذلك ، إلى أن المجتمع المتحلل يحتمل انقسامه إلى فُضل[٢] يميل كل منها أن يصبح شظية من الجذع القديم . بل أن البروليتاريا الخارجية تُستمد من عناصر كائنة فى ميدان إشعاع الحضارة المتحللة . على أن استعراضنا للعقَل المختلفة للمجتمعات إبان انحلالها ، ما برح فى أحيان كثيرة ، يتطلب منا فى نفس الوقت ، أن نأخذ العوامل الأجنبية فى اعتبارنا مثلما نفعل بالنسبة للعوامل الوطنية . ولا يقتصر هذا على البروليتاريات الخارجية فحسب ، بل يشمل البروليتاريات الداخلية كذلك .

وحقاً ، أصبح من الواضح ، أنه بينما يتأتى تقبل تعريف مجتمع بأنه «ميدان الدراسة القابل للفهم» من غير تحديد فى أغلب الأحوال — ما دام المجتمع

---

(١) بعدما استنتجنا من مثال التاريخ الإنجليزى أن تاريخ أية دولة قومية « غير قابل للفهم بذاته و بمنأى عن أفعال بقية نوعه . (المؤلف)

(٢) فُضل : جمع فضلة . (المترجم)

ما يزال فى مرحلة استطالته – يصدق هذا التعريف من غير إجراء تحفظات ، على شريطة اقترابنا من مرحلة الانحلال . وعلى الرغم من صدق الفكرة التى تعزو انهيار الحضارات إلى فقدان ملكة تقرير المصير داخلياً ، ولا تردّ إلى ضربات خارجية ؛ لا يصدق القول بأن عملية الانحلال التى تمر بها الحضارة المنهارة فى طريقها صوب التفكك ، هى بالمثل قابلة للفهم ؛ مع افتراض إغفال العوامل ومناحى النشاط الخارجية .

فلقد دلل « ميدان الدراسة القابل للفهم » أثناء دراسة حياة حضارة إبان مرحلة انحلالها ، أنه أوسع مدى – بشكل واضح – من الفضاء المحيط بمجتمع فرد تحت الملاحظة . وهذا يعنى أن جوهر الجسم الاجتماعى لا يتجه فحسب أثناء عملية التحلل إلى الانقسام إلى مركبات ثلاثة . بل إنه ينحو كذلك إلى التمتع بحريته فى الاندماج فى مركبات جديدة قوامها عناصر مستخلصة من أجسام أجنبية .

وهكذا ، يتبين أن الأرض التى اتخذنا عليها وقفتنا فى مستهل هذه الدراسة والتى ظلت صامدة وقتاً ما ، أصبحت تميد من تحت أقدامنا . فلقد تخيّرنا الحضارات فى بداية الأمر موضوعات دراستنا ، لمجرد أنها لاحت لأفكارنا « ميادين قابلة للفهم » أعـــدت نفسها لغرض دراستها منعزلة . وإننا لنجد أنفسنا الآن بالفعل متحركين من هذه النقطة صوب نقطة تباينها ، سيتطلب الأمر دراستها وقتما نبحث اتصال الحضارات بعضها بالبعض الآخر .

وفى غضون ذلك ؛ سيكون من المناسب – عند هذه النقطة – أن نميز ونقارن بين التأثيرات النسبية لمصادر الإلهام الأجنبية والوطنية فى مناحى نشاط مختلف العُقَل التى ينقسم إليها جسم المجتمع الاجتماعى أثناء تحلله . وستجد أن الفتنة والتـــدمير قد ينجمان عن الإلهام الأجنبى الكامن فى أفعال أقلية مسيطرة وأعمال بروليتاريا . فى حين أن يُنتج الإلهام

الأجنبي في أعمال البروليتاريا الداخلية آثاراً مخالفة تماماً ؛ قوامها الانسجام والإبداع . .

٢ – الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية :

تبين لنا أن الدول العالمية تقوم فيها عادة أقليات مسيطرة ؛ تمتّ بأصلها الى المجتمع الذى تمارس فيه سلطانها التحكمى . وقد يكون بناة الإمبراطورية هؤلاء رجال حدود من طرف العالم الخارجى ، أضفوا عليه نعمة السلام بفرضهم وحدة سياسية جامعة . على أن أصلهم هذا لا يعتبر حجة على وجود صبغة دخيلة فى متحاتهم الثقافى .

على أننا قد لاحظنا كذلك حالات بلغ فيها الانهيار المعنوى للأقلية المسيطرة ، سرعة عظيمة إلى درجة لم تبق معها بقيـــة من فضائل الأقلية المسيطرة التى ما تزال يحملها بناة الإمبراطورية . ولا يسمح عادة – فى مثل هذه الحالات ، أن تظل مهمة تهيئة الدول العالمية غير منجزة . إذ ينهض أجنبى من بناة الإمبراطورية لسد الثلمة ، فينجز للمجتمع المعتل ، العمل الذى كان أحرى بالأيدى الوطنية إنجازه .

وتتقبل الشعوب ، جميع الدول العالمية – سواء ما كان منها أجنبياً أو وطنياً – بالحمد والتسليم ، إن لم يكن بالحماسة . إذ يعتبر قيامها خطوة تقدمية على أية حال ، إزاء عصر الاضطرابات الذى يسبقها . بيد أنه بمرور الزمن ، يأتى « ملك جديد ، لا يعلم شيئاً عن يوسف »[١] . وبعبارة أوضح ، يرتد إلى الماضى المنسى ؛ ذكرى أهوال عصر الاضطرابات ، ويحكم على الحاضر الذى تحيط فيه الدولة العالمية بالكيان الاجتماعى ، باعتباره شيئاً فى ذاته ؛ بصرف النظر عن كونه حقيقة تاريخية . وتتباين فى هذه المرحلة مصائر الدول العالمية الوطنية والأجنبية .

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى عبارة وردت فى العهد القديم تذكر أنه بعد وفاة الفرعون الذى اتخذ يوسف وزيرا ، جاء ملك تنكر لبنى اسرائيل فأساء معاملتهم . (المترجم)

فأولا : تسعى الدولة العالمية الوطنية – أيا ما تكون حقيقة أفضالها – إلى أن يرضى عنها رعاياها بدرجة أعظم فأعظم ، وتنشد أكثر فأكثر اعتبارهم إياها إطار حياتهم الاجتماعى الوحيد .

ثانياً : تشتد كراهية الدولة العالمية الأجنبية – من الناحية الأخرى – أكثر فأكثر ، كراهية مبعثها استفحال شعورهم بالغيظ من طابعها الأجنبى . وهم فى ذلك ، يغمضون أعينهم بإحكام – يتزايد يوما عن آخر – عن خدماتها النافعة التى أنجزتها والتى ما تزال تنجزها لهم .

ويطالعنا أول ما يطالعنا مثالا لهذا الزوج المتباين من الدول العالمية ؛ الإمبراطورية الرومانية . فإنها أتاحت للعالم الهلينى دولة عالمية وطنية ، والإمبراطورية البريطانية التى زودت الحضارة الهندية بدولتها العالمية الثانية(١)

وإنه ليتيسر جمع الكثير من الشواهد الدالة على الحب والتوقير الذى كان يكنه إلى ذلك النظام رعايا الإمبراطورية الرومانية المحدثون إلى حتى بعد أن توقف عن إنجاز رسالته بدرجة معتدلة من الكفاية ، وأصبح يكابد انحلالا ظاهراً . ولعل أبرز مظاهر هذا الولاء ، ما جاء فى فقرة شعر سداسى تحت عنوان De Consultu Stilichonis كتبها باللاتينية عام ٤٠٠ ميلادية كلودين الإسكندرى :

كانت تتشامخ مباهية ، أكثر مما علمه الفاتحون الآخرون
ضمت أسراها إلى أحضانها فى رفق
فهى كأم – لا كمشيقة – جعلت المستعبد ولدها
وتادت جميع الأمم الأخرى لتنضم تحت جناحها
إلى أمومتها يتجه الغنى والفقير .

(١) باعتبار الإمبراطورية المغولية هى الدولة العالمية الأولى للحضارة الهندية .
(المترجم)

ومن اليسير أن نبرهن على أن الإمبراطورية البريطانية ، قد تكون بالنسبة لكثير من النواحى ، أكثر اتجاها نحو الخير ، ولعل نظامها كذلك أعظم فائدة من الإمبراطورية الرومانية ؛ لكن العثور على شاغر مثل كلودين فى أية مدينة هندستانية ، أمر من الصعوبة بمكان .

وسنلاحظ نفس المد المرتفع للشعور المعادى الذى نجده تجاه الإمبراطورية البريطانيـــة فى الهند ، إن تطلعنا إلى تاريخ الدول العالمية الأجنبية الأخرى .

ففى غضون الوقت الذى استكملت خلاله الدولة العالمية السورية الأجنبية التى فرضها قورش على المجتمع البابلى ، بلغت كراهيتها إبان القرن الثانى لوجودها ، حدا كان الكهنة البابليون عام ٣٣١ ق . م ، على استعداد بسببه للترحيب ترحيباً دافقاً بفاتح أجنبى مماثل ، هو الإسكندر المقدونى . كما قد يستعد بعض الوطنيين المتطرفين فى الهند فى الوقت الحاضر للترحيب بأحد أمثال « كليف » يفد إليهم من اليابان(١) .

والمثل يقال عن عالم المسيحية الأرثوذكسية . فإن اليونانيين المنضمين إلى مجموعة الأمم العثمانية على الشواطئ الأسيوية من بحر مرمرة ، قد رحبوا إبان الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى بالإمبراطورية العثمانية . إلا أن هذه الإمبراطورية قد باتت عام ١٨٢١ موضع كراهية الوطنيين اليونانيين . فإن انقضاء خمسة قرون ، قد أحدثت بين اليونانيين تغيرا فى الشعور ، يماثل تماماً تحول الغاليين من خشية الرومانيين ، على نسق خشية

---

(١) يشير المؤلف إلى أن جانباً من الهنود قد رحبوا بالبريطانيين بقيادة كليف للتخلص من الحكم المنغولى وقد رحب جزء من الهنود فى البنغال باليابانيين الذين غزوا بورما وأوشكوا على دخول الهند . ولقد كتبت هذه العبارة قبل استقلال الهند . (المترجم)

فيرسينجتوريكس Vercingetorix[١] إلى بذل الحب لهم على طراز أبوليناريس Apollinaris[٢].

ويطالعنا مثال بارز آخر عن الكراهية التي يثيرها بناة إمبراطوريات يعتنون إلى ثقافة دخيلة ، في حقد الصينيين على الغزاة المنغوليين الذين أتاحوا لعالم الشرق الأقصى المأخوذ ، دولة عالمية كان هو في مسيس الحاجة إليها . ولعل هذه البغضاء تخالف مخالفة غريبة ، التسامح الذى تقبّل به بعد ذلك — نفس المجتمع — سلطان المانشو ، طوال فترة قرنين ونصف قرن . ويكمن التفسير في حقيقة مدارها أن المانشوكيين سكان غابات عالم الشرق الأقصى ، لم تدنسهم أية ثقافة دخيلة ، في حين لطّفت من حدة البربرية المنغولية — وإن بلغ ذلك مبلغاً ضئيلا — صبغة من الثقافة السورية ، استقيت من الرواد المسيحيين النساطرة . كما لطّفت من حدتها كذلك ، الاستعداد المغولى المقسم بسعة الأفق ، للإفادة من خدمات وتجاريب الرجال أيا ما يكون منبتهم . وهذا هو التفسير الحقيقى لكراهية الصينيين للنظام المنغولى ، وفقاً لما أورده ماركو بولو بجلاء عند ذكره اضطراب الصلات التي كانت تقوم بين الرعايا الصينيين ومرتزقة الجنود المسيحيين الأرثوذكس ، ورجال الخاقان المنغولى من الإداريين المسلمين .

ولعل اصطباغ الهكسوس بثقافة سومرية ، هو الذى جعل رعاياهم المصريين لا يطيقونهم ، في حين تقبلوا المداخلة اللاحقة التالية للبرابرة الليبيين ، دون أن يجدوا في ذلك أية غضاضة[٣] .

---

(١) فيرسينجتوريكس : زعيم قبيلة غالية . قاد ثورة ضد الرومانيين . إلا أن قيصر تمكن من القبض عليه . وفى عام ٤٥ ق . م حكم عليه بالموت وسيق فى موكب قيصر المنتصر . (المترجم)

(٢) أبوليناريس : مؤلف ومطران مسيحى عاش إبان القرن الخامس . (المترجم)

(٣) وذلك لشعور المصريين بأخوة الليبيين بفعل تأثرهم بالحضارة المصرية القديمة واشتراكهم معهم فى الجنس . والمثل يقال عن النوبيين . وقد أسس كلا الفريقين أسرا فرعونية . (المترجم)

وفى وسعنا فى الواقع ، أن نُقدم على صياغة شىء يماثل قانوناً اجتماعياً عاماً ، مداره :

« إن الغزاة البرابرة الذين يظلون أحرارا من شائبة أية ثقافة دخيلة ، فى وسعهم كفالة مصائرهم . ويختلف الأمر بالنسبة لهؤلاء الذين اصطبغوا خلال مرحلة هجراتهم بصبغة أجنبية أو بنزعة ضالة ، فهؤلاء يجب أن يحيدوا عن طريقهم ليطهروا أنفسهم من هذه الصبغة أو تلك النزعة ، حتى يقيض لهم اجتناب المصير الآخر ، أى الطرد أو الإبادة » .

فإذا ما استعرضنا أولا حالة البرابرة الأقحاح ، نجد أن كلا من الآريين والحيثيين والآخيين ، قد ابتكروا (بانثيون)[1] يضم آلهتهم ، إبان فترة إقامتهم القصيرة على عتبة الحضارة . وإنا لنجد من واصل هذه العبادة البربرية — بعد اندفاعهم واستكمال غزواتهم — قد نجح كذلك فى تشييد حضارة جديدة على الرغم من هذا « الجهل المطبق » . وتطالعنا فى هذا السبيل الحضارات السندية والحيثية والهلينية .

وبالمثل فإن الفرنجى والإنجليزى والأسكندناوى والمجرى الذى تحول من الوثنية الوطنية إلى المسيحية الكاثوليكية الغربية ، قد كفل لنفسه الفرصة لتأدية أدوار كاملة — بل إنها رئيسية — فى تشييد دعائم المسيحية الغربية .

ومن الناحية الأخرى ، طرد الهكسوس عباد ست[2] من الدنيا المصرية ، كما طرد المغول من الصين .

وثمة استثناء من قاعدتنا عثله العرب المسلمون الأوائل . إذ كان العرب[3] جماعة من العشائر عتون إلى البروليتاريا الخارجية للمجتمع الهلينى ،

---

(١) البانثيون هو مجمع الآلهة عند قدماء اليونانيين . (المترجم)

(٢) كان ست فى العقيدة المصرية القديمة إله الشر ، عكس أخيه أوزيريس إله الخير والخصب والنماء . وتذكر الأساطير المصرية أن ست دبر مؤامرة للقضاء على أوزيريس نجحت بالفعل ، إلا أن حوريس بن أوزيريس من أخته وزوجته إيزيس التى حملت منه بالروح ، قد تمكن من الانتقام من عمه المغتصب . (المترجم)

(٣) قبل إسلامهم . (المترجم)

أنجزوا مرتبة سامية من النجاح إبان مرحلة هجراتهم التى صاحبت تحلل ذلك المجتمع . وتم هذا النجاح رغما عن حقيقة قوامها أن العرب قد تشبثوا بمنحاهم الدينى السورى الأصل ، عوضا عن اعتناقهم المذهب المسيحى المينوفيستى[١] الذى كان يعتنقه رعاياهم فى الأقاليم التى انتزعوها من الإمبراطورية الرومانية . بيد أن الدور التاريخى للعرب المسلمين الأوائل ، يعتبر دورا استثنائيا تماما . فإن الدولة المستخلفة التى أقامها العرب على الأرض السورية أثناء غزوهم العرضى للإمبراطورية الساسانية وقتما كانوا يشنون هجومهم الظافر على الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، هذه الدولة تحولت تلقائيا إلى إستعادة للدولة العالمية السورية التى تحطمت قبل الأوان — قبل الغزو العربى بألف سنة — عندما تغلب الإسكندر على الإمبراطورية الأخيمينية . وكان أن ترتب على قيام المسلمين العرب — عرضا فى الغالب — بتأدية هذه الرسالة الجديدة الواسعة النطاق[٢] ، برسالة فتحت آفاقا جديدة للإسلام نفسه .

وبالأحرى ، يعتبر تاريخ الإسلام حالة خاصة ، لن تنسخ نتائج بحثنا العامة . فإن ثمة ما يبرر — بصفة عامة — النتيجة التى انتهينا إليها ومبناها :

« إن مصدر الإلهام الأجنبى بالنسبة للبروليتاريات الخارجية وللأقليات المسيطرة على السواء ، يعتبر عائقا . وذلك لصيرورتها عندهم مرتعا خصبا لاختلاف الرأى والإفساد ، خلال تصرفهم مع الجزءين الآخرين اللذين انشق إليهما المجتمع المتحلل » .

٣ — البروليتاريات الداخلية

خلافا لما صادفناه خاصا بالأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية ، سنجد أن مصدر الوحى الأجنبى لايعتبر نقمة على البروليتاريات الداخلية . بل أنه نعمة تُضفى على الذين يتلقونها ، قوة تسمو — كما هو ظاهر —

---

(٢) أى القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٣) أى استعادة الدولة العالمية السورية . (المترجم)

على قوة البشر ، تتمثل فى أخذهم آسريهم أسرى وفى بلوغهم الغاية التى من أجلها ولدوا .

ويتضح صدق هذه النظرية بأجلى معانيها من دراسة تلك « الأديان النامية » والنظم الدينية العالمية التى تعتبر السمة الأساسية لأعمال البروليتاريا الداخلية . ولقد أظهر استعراضنا هذه الأعمال ، توقف تأثرها الأدبى على توافر قبس فى أرواحهم من الحيوية الأجنبية المصدر . ويتباين هذا التأثير وفقا لقوة تأثير هذا القبس . فإن عبادة أوزيريس التى كانت دين البروليتاريا الداخلية السامى يمكن بالاختبار تتبعها إلى أصل أجنبى (١) يرجع إلى عبادة تموز السومرية . كذلك ، يمكن بكل تأكيد إرجاع « الأديان السامية » المتعددة والمتنازعة للبروليتاريا الداخلية الهلينية إلى أصول أجنبية متعددة . فإن الأصل الأجنبى فى عبادة البروليتاريا الهلينية لإيزيس هو مصرى ، وفى عبادة سيبل Cybele حيثى ، وفى عبادة المسيحية والميثروية سورى ، وفى البوزية المهايانية سندى . ولقد أقام الأديان السامية الأربع الأولى على التوالى : مصريون ، وحيثون ، وسوريون ، من الذين انتظموا فى صفوف البروليتاريا الداخلية الهلينية عن طريق فتوحات الإسكندر . وأقام الديانة الخامسة ، أناس من السند انتظموا كذلك إبان القرن الثانى قبل الميلاد فى صفوف تلك البروليتاريا بفعل فتوحات الأمراء اليونانيين الباكتريين فى العالم السندى .

وإنه وإن اختلفت تلك الشعوب اختلافا عميقا بالنسبة لطبيعتها الروحية

---

(١) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف . فإن عبادة أوزيريس قد استمدها المصريون من النيل الذى له صفة مميزة خاصة به دون أنهار العالم كلها تقريبا ، قوامها فيضانه السنوى بما يجلبه من خصب ونماء ، تتلوه فترة التحاريق . فآمن المصريون القدماء بأن النيل يموت ثم يحيا ثم يموت وأن حياته تقترن بالخضرة وموته يصحبه الإمحال . وربطوا ذلك بحياة البذرة التى تزدهر ثم تنتهى لتتخلف عنها بذرة جديدة . وقادهم هذا إلى المقارنة بين ذلك وحياة الإنسان . وأدى ذلك كله إلى كشف التحنيط ومعرفة الثواب والعقاب واليوم الآخر . يراجع كتاب فجر الضمير تأليف جيمس برستد . (المترجم)

الداخلية ، فإنه يجمعها على الأقل هذا المظهر السطحى الخاص بانتمائها إلى أصل أجنبى .

ولن يزعزع النتيجة التى خلصنا إليها ، إمعان الفكر فى طائفة من الحالات التى سعى فيها دين أسمى إلى غزو مجتمع دون أن يلقى نجاحا ، مثال ذلك :

المحاولة العقيمة لطائفة الشيعة الإسلامية لأن تصبح النظام الدينى العالمى للمسيحية الأرثوذكسية فى ظل النظام العثمانى(١) .

وبالمثل المحاولة العقيمة للمسيحية الكاثوليكية لتصبح النظام الدينى العالمى لمجتمع الشرق الأقصى ؛ فى الصين إبان القرن الأخير من فترة حكم أسرة مينج ، وإبان القرن الأول من حكم أسرة المانشو ؛ وفى اليابان لحظة انتقالها من عصر الاضطرابات إلى شوجونية توكوجارا .

ويرد فشل المذهب الشيعى فى الإمبراطورية العثمانية ، وإخفاق الكاثوليكية فى اليابان ، إلى سلب فتوحاتها الروحية العتيدة بفعل استغلالها ــ أو على الأقل الشك فى استغلالها ــ لصالح أهداف سياسية غير مشروعة . ويرد إخفاق الكاثوليكية فى الصين ، إلى رفض البابوية السماح لبعثات الجزويت التبشيرية المضى فى عملها المتصل بالسعى للمواءمة بين قواعد الكاثوليكية وفلسفة الشرق الأقصى وطقوسه .

ولقد نخلص مما تقدم إلى القول بأن القبس الأجنبى يعتبر نجدة وليس عائقاً أمام دين بلغ مرحلة السمو ، لكسب المهتدين إليه . وليس السبب مما يبعد الاهتداء إليه .

إذ تنشد البروليتاريا الداخلية التى تحولت عن المجتمع المنهار الذى أخذت تنشق عليه ، إلهاما جديدا ؛ هو ما تتيحه الشعلة الأجنبية . وهذه الجدة ،

---

(١) هذا رأى مشكوك فيه كثيرا . ولعل الأستاذ المؤلف قد انساق إليه بسبب الحرب التى نشبت بين السلطان سليم الأول والشاه اسماعيل الصفوى شاه إيران . فالواقع أن الدولة العثمانية هى التى اعتدت على أملاك الشاه بدافع من كراهية السلطان سليم المذهب الشيعى . (المترجم)

تضفى على الإلهام صفة الجاذبية. ولكى يصبح الإلهام محببا إلى النفوس ، يجب أن تكون الحقيقة الجديدة قابلة للفهم . وإلى أن يتم هـذا العمل التوضيحى ، يحال بين الحقيقة الجديدة وتأدية رسالتها المرتقبة .

ومصداقا لذلك ، لم يكن ليقيض النصر للمسيحية ، لو لم يجهد آباء الكنيسة أنفسهم من القديس بولص ومن تلاه — إبان القرون الأربعة أو الخمسة الأولى من العهد المسيحى — فى ترجمة العقيدة المسيحية إلى مصطلحات الفلسفة الهلينية ، وفى تشييد الدرجات الكهنوتية وفقا لمراتب الموظفين فى الإدارة الرومانية ، وفى صياغة الطقوس المسيحية طبقا للطقوس السرية[١] . بل عمدت الكنيسة المسيحية إلى قلب الاحتفالات الوثنية إلى أعياد مسيحية ، وإحلال عقائد الأبطال الوثنيين إلى عقائد القديسين المسيحيين . ولقد كان صدوف الفاتيكان عن الموافقة على مقترحات مماثلة لبعثات اليسوعيين التبشيرية مما عوق نمو برعمة المسيحية . وبالأحرى لو كان خصوم القديس بولس من المسيحيين ذوى الأصل اليهودى ، قد قيض لهم الفوز فى المؤتمرات والمعارك التى جاء ذكرها فى « أعمال الرسل » وفى رسائل بولس الأولى ، لترتب عن ذلك صد الرسالة المسيحية — بدرجة قاتلة — إلى أرض الأميين[٢] .

وسيضم استعراضنا للأديان « العليا » ، التى يتبين أنها تستمد إلهاما من مصدر وطنى : اليهودية ، والزرادشتية ، والإسلام . وهى أديان ثلاثة وجد مجالها فى العالم السورى ، واستقت إلهامها من نفس المجال ، كما سيشمل الهندوكية وهى ديانة سندية من ناحيتى مصدر إلهامها ومجال عملياتها .

ويجب أن تعتبر الهندوكية والإسلام استثناءين من « القانون » الذى وضعناه . لكن الاختبار سيظهر مع ذلك ، أن اليهودية والزرادشتية هما

---

(١) أى الطقوس السرية التى كانت بصفة خاصة أساس عقيدتى أورفوس عند اليونانيين القدماء وأوزيريس وإيزيس المصرية القديمة . (المترجم)

(٢) أى عامة الناس . (المترجم)

تفسيران له . ذلك لأن الشعوب السورية التى نشأت اليهودية والزرادشتية بين ظهرانيها بين القرنين الثامن والسادس قبل المسيح ، كانت شعوباً محطمة أرغمتها الجيوش الأشورية للأقلية المسيطرة البابلية على الانتظام فى صفوف البروليتاريا الداخلية للمجتمع البابلى . فإلى هذا العدوان البابلى ، ترد استثارة الاستجابتين الدينيتين — اليهودية والبابلية — فى النفوس السورية التى تعرّضت للمحنة . ومن ثم أجدر بنا تبويب اليهودية والزرادشتية وفقا لهذا الإيضاح كعقيدتين دينيتين أدخلهما إلى البروليتاريا الداخلية للمجتمع البابلى ، الأفراد السوريون الذين انتظموا فى صفوف هذا المجتمع . أما اليهودية فإنها اتخذت شكلها المعروف بالفعل على « أنها ربابل » ، مثلما اتخذت المسيحية صورتها المألوفة أثناء الاجتماعات التى كان يؤمها بولس فى العالم الهيلينى .

ولو فرض أن طال أمد انحلال الحضارة البابلية مثلما حدث للحضارة الهلينية ، واجتازت جميع المراحل نفسها ، لتبدت اليهودية والزرادشتية فى المنظور التاريخى — إبان نشوئهما واستطالتهما — كحدثين فى قصة بابلية ، مثلما تبدّت بالفعل المسيحية والميثرية Mithraism كحدثين فى التاريخ الهلينى . بيد أن هذا المنظور قد نُبذ جانبا بفعل حقيقة مدارها أن التاريخ البابلى قد انقضى قبل الأوان . فلقد فشلت المحاولة الكلدونية لإيجاد دولة عالمية بابلية .

ولم يقتصر نجاح السوريين المنتظمين فى صفوف بروليتاريتها الداخلية على طرح أصفادهم بل إنهم بدّلوا موقفهم من سادتهم البابليين ، فأسروهم جسداً وروحاً . فكان أن تحوّل الإيرانيون إلى الثقافة السورية ونبذوا الثقافة البابلية . فانبنى على ذلك قيام الدولة الأخيمينية التى أسسها قورش ، بدور الدولة العالمية السورية .

وفى نطاق هذه الوقائع ، اتخذت اليهودية والزرادشتية مظهريهما الحاضر عقيدتين دينيتين سوريتين تستمدان إلهامهما من مصدر وطنى . وفى وسعنا

---

(١) أى خلال فترة نفى اليهود فى بابل . (المترجم)

الآن أن نتبين أن العقيدتين ترجعان بأصلهما إلى البروليتاريا الداخلية البابلية التي استمدت إلهامها السوري من مصدر أجنبي .

نخلص مما تقدم إلى القول بأنه إذا استمد « الدين السامي » إلهامه من مصدر أجنبي ، (وهذا ما تبين لنا أنه القاعدة ، عدا بالنسبة لاستثنائين فذّين) فلن يتيسر بداهة فهم طبيعة الدين ، من غير أن يؤخذ في الاعتبار اتصال حضارتين على الأقل :

الأولى — الحضارة التي ينبعث الدين الجديد في بروليتاريتها الداخلية .

الثانية — الحضارة (أو الحضارات) التي يستمد منها الدين الجديد إلهامه (أو إلهاماته) الأجنبي المصدر .

وتتطلب هذه الحقيقة منا ، أن نتخذ مبدأ آخر لبحثنا . لأنها تقتضى أن نتنحى عن الأساس الذى شيدت عليه هذه الدراسة حتى الآن . فما انفك قوام البحث ، مصطلحات الحضارت . مما دعانا إلى افتراض أن أية حضارة بمفردها ، ستتيح « ميدانا للدراسة » عملى الطابع ، باعتبار الحضارة « كُلاً اجتماعياً » قابلا للفهم بمنأى عما قد تهيئه الظواهر الاجتماعية لأنفسها خارج نطاق الحدود المكانية والزمانية لهذا المجتمع المعيّن . بيد أننا وجدنا الآن أنفسنا مترددين في نفس الشرك الذى أوقعنا فيه مطمئنين راضين غاية الرضا — في صفحاتنا الأولى — أولئك المؤرخون الذين آمنوا بقدرتهم على أن يجعلوا شيئاً مفهوماً من تاريخ قومى منعزل .

وهذا يدعونا منذ الآن فصاعدا ، أن نعبر الحدود التي ألفينا أنفسنا حتى الآن قادرين على العمل في نطاقها .

الفصل التاسع عشر

الانشقاق فى النفس

(١) طرائق بديلة فى السلوك والشعور والحياة

يعتبر الانشقاق فى الجسم الاجتماعى الذى كنا ندرسه حتى الآن ، تجربة اجتماعية جماعية ؛ فهى – من ثم – سطحية الطابع . وينبنى على حدوث انشقاق فى نفوس الكائنات البشرية تدعيم أى انشقاق يتبدى على سطح المجتمع . والمجتمع هو المجال المألوف لميادين النشاط المتصلة بالبشر .

وأحرى أن تثير انتباهنا ، الأشكال المختلفة التى قد يتخذها هـذا الانقسام الداخلى :

ويتبدى الانقسام فى نفوس أعضاء المجتمع المتحلل فى أوضاع متنوعة ، لكونه ينبعث فى كل طريقة من الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة ؛ وهى التى ألفيناها سمة مميزة لفعل الكائنات البشرية التى تؤدى دورها إبان بدايات الحضارات واستطالاتها .

ويتأتى لكل أسلوب من أساليب الفعل هذه ، أن ينشق إلى زوج من التحولات أو التبديلات التى تجمع بين ثقل الظل وغلظ الطبع التى تستقطب فيها الاستجابة لتحد ما ، إلى سبيلين تعاقبيين : الأول سلبى والآخر إيجابى ؛ لكن تنتفى عن كليهما ملكة الإبداع . وليس أمام النفس التى فقدت إنجاز العمل المبدع (وإن لم تفقد طبعا القدرة على إتيانه) ، إلا حرية المفاضلة بين السلبية والإيجابية فى أدائها دورها فى مأساة الانحلال الاجتماعى . وكلما تستكمل عملية الانحلال دورتها ، كلما تميل مجالات المفاضلة لأن تصبح فى أبعادها ، أقسى تزمتا ؛ وفى تشعبها ، أكثر تطرفا ؛ وفى نتائجها ، أشد خطورة .

وبالأحرى ؛ تعتبر تجربة التحلل الروحى للنفس : حركة دينامية وليست حالة استاتية[١]

ففى البداية ؛ ثمة طريقتان للسلوك الشخصى تعتبران بديلين اختياريين لممارسة ملكة الإبداع ، وكلاهما محاولتان للتعبير الذاتى :

الأولى : محاولة سلبية الطابع وقوامها « إلقاء الحبل على الغارب » . وفيها « تطلق النفس لذاتها العنان » موقنة بأنها « ستعيش وفقاً للطبيعة » ؛ بإطلاق العنان لشهواتها وأحقادها الذاتية ، وأنها ستتلقى — من الربة الخفية — منحة الإبداع الثمينة التى ما برحت تدرك فقدانها لها .

الثانية : مدارها أن الاختيار الإيجابى عبارة عن مجهود يبذل لضبط النفس . وفيه تسيطر النفس على ذاتها ، وتنشد « تنظيم شهواتها » . وهذا عكس الاعتقاد بأن الطبيعة هى آفة الإبداع وليست مصدره . وأن « اجتلاء الطبيعة » هو السبيل الوحيد لتلقى ملكة الإبداع الضائعة .

ثم إن ثمة طريقين للسلوك الاجتماعى ويعتبران بديلين اختياريين لتلك المحاكاة للشخصيات المبدعة التى أدركنا أنها السبيل القصير الضرورى — وإن كان محفوفاً بالمخاطر — فى طريق الارتقاء الاجتماعى . وما هذان البديلان للمحاكاة ، إلا محاولتين للانفلات من بين صفوف الفيلق الذى أخفق « تدريبه الاجتماعى » فى أداء واجبه .

وتأخذ محاولة التخلص من هذا المأزق العصيب صورة التراخى . إذ يتحقق الجندى فزعاً ؛ أن الكتيبة قد بددت النظام الذى ما انفك حتى الساعة ، يسند روحه المعنوية . وهذا يبث فيه الاعتقاد بأنه حل من الواجب العسكرى . وفى ظل هذه الصورة العقلية غير الواضحة ، يتخلف

(١) الدينامية : أى ذات المظهر المتحرك المندفع ، والاستاتية أى حالة السكون والركود . وقد آثرنا الاشتقاق من اللفظ الأصلى لوفائه بالمعنى . (المترجم)

المتراخى عن الصفوف محاولا فى يأس إنقاذ حياته ذاتها ، بتركه رفاقه فى المأزق .

ومع ذلك ؛ فإن ثمة وسيلة بديلة لمواجهة نفس المحنة ، يمكن تسميتها بالاستشهاد : والشهيد فى جوهره ، جندى يبرز من بين الصفوف بدافع من إقدامه الذاتى – متجها صوب الأمام لينصرف إلى أبعد من إنجاز مقتضيات الواجب . فإن الواجب فى ظل الظروف العادية ، لا يتطلب من الجندى أن يعرض حياته فحسب إلى أقل مدى ضرورى لتنفيذ أوامر قائده الأعلى . وبالحرى ، ينشد الشهيد الموت تحقيقا لهدف مثالى .

فإذا ما انتقلنا من سطح السلوك إلى الشعور ؛ قد يلفت نظرنا – للوهلة الأولى – سبيلان للشعور الشخصى يعتبران ردى الفعل المتعاقبين لإلغاء حركة « الوثبة » تلك . ويبدو أن طبيعة الارتقاء قد أسفرت فى تلك الحركة عن نفسها . وينعكس كلا الشعورين إحساساً مؤلما بالركون إلى « الفرار » من قوى الشر ، وهى قوى تلتزم خطة الهجوم ، وتقيم عليه سلطانها .

السبيل الأول : يتمثل فى اعتبار التعبير السلبى بالهزيمة المستمرة والمتتابعة ؛ شعوراً بالاندفاع مع التيار . إذ تخضع النفس المنهزمة بفعل إدراكها فشلها فى السيطرة على بيئتها . وتصل بها الحال إلى الاعتقاد بأن الكون – بما فيه النفس ذاتها – يقع تحت رحمة قوة خارقة بقدر ما هى مشينة لا تنال : هى الربة الكنود ذات الوجه المزدوج التى تسترضى تحت اسم « المصادفة » ، أو تدوم تحت اسم « الضرورة » . تمثل بزوج من الشخصيات الإلهية منحهما توماس هاردى تجسيداً فى ترانيمه « الأمراء » .

السبيل الآخر : يتمثل فى احتمال الإحساس بالهزيمة الذى يدمر النفس المنهزمة ، كإخفاق فى تفوق النفس على ذاتها والسيطرة عليها . عندئذ يقوم لدينا شعور بالخطيئة عوضا عن الشعور بالاندفاع مع التيار .

وعلينا كذلك : أن نلحظ سبيلين من الإحساس الاجتماعى . يعتبران

بديلين متعاقبين للشعور بالأسلوب الإنشائي ، وهو شعور يعتبر الصورة الباطنية للعملية الموضوعة لتفارق الحضـــارات عن طريق ارتقائها ؛ ويتم كلا الإحساسين ، عن عجز هذه الحساسية ذاتها عن التشكل ، وإن كانا قطبين منعزلين ، بالنسبة لطريقة استجابة كل منهما لهذا التحدي .

فأولا — الاستجابة السلبية ، عبارة عن إحساس بالتشوش ، تسمح فيه النفس لذاتها بالذوبان . ويتبدى هذا الإحساس بالتشوش في الوسط اللغوي والأدبي والفني في صورة خليط ، وبالمثل في صورة أسلوب ممتزمت ومركب للأدب والتصوير والنحت والعمارة .. وينتج هـــذا الإحساس ، المركبات الدينية ، في مجال الفلسفة والدين .

وثانياً — الاستجابة الإيجابية ، وتتخذ هيئة عجز في أسلوب الحياة الذي ما انفك يعتبر — بوصفه ساحة — شيئاً موضعياً وفانياً . كما يعتبر نداء لاعتناق أسلوب آخر يشترك مع ما يعتبر عاماً وأبدياً[١] . وهذه الاستجابة الإيجابية هي بمثابة تنبيه إلى الإحساس بالوحدة ، وهو إحساس يتسع ويتعمق كلما امتد مجال الرؤيا من وحدة البشرية عن طريق وحدة الكون الأكبر بالكون الأصغر[٢] . وحدة تتضمن أخيراً وحدة الله .

ثالثاً — وسنواجه مرة أخرى إذا ما انتقلنا إلى مجال الحياة — زوجين من ردود الفعل المتعاقبة . بيد أن الصورة تتباعد في هذا المجال عن النمط السابق في نواح ثلاث :

الأولى — يتمثل مجالا الاختيار — اللذان خلا هنا محل الحركة المفردة التي هي سمة الارتقاء — في تغيرات تطرأ على تلك الحركة ، أكثر من تمثلهما في بديلين لها .

الثاني — يعتبر كل من زوجي مجالي الاختيار ، تغيرات تطرأ على نفس

---

(١) quod ubique, Iquod Semper, Iquod abomnibus

(٢) الكون الأصغر هو الإنسان . (المترجم)

الحركة المفردة . وهى حركة وصفناها بأنها انتقال من ميدان الفعل : من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر .

الثالث – يتميز الزوجان أحدهما عن الآخر باختلاف عميق ، يبلغ فى عمقه درجة تعزى إليها ظاهرة التثنية .

ونجد طابع ردود الفعل عنيفاً فى أحد الزوجين ، ونجده رقيقاً لطيفاً فى الزوج الآخر ، وهاك البيان :

فأولا – قد يوصف رد الفعل السلبي فى الزوج العنيف بـ « السلفية »[١] ويوصف رد الفعل الإيجابي بـ « المستقبلية »[٢].

وما السلفية والمستقبلية ، إلا محاولتين تعاقبيتين للاستعاضة عن الانتقال المجرد فى البعد الزمنى ، بانتقال ميدان الفعل من مجال روحانى إلى آخر ، هو الحركة المميزة للانتقال . ويصدق فى كليهما عن بذل الجهد للعيش فى نطاق الكون الأصغر ، ويستعاض عنه السعي للعيش فى الكون الأعظم . وذلك رجاء تحقيق مجتمع خيالى ، يتأتى الوصول إليه بافتراض وجوده فى الحياة الواقعية – من غير حدوث أى تحد يواجه التغير العسر فى المجال الروحى . يراد من هذا المجتمع الخيالى أن يقوم بواجب « العالم الآخر » ؛ لكنه عالم آخر فحسب فى المعنى السطحى وغير المقنع ، بحسبانه صورة سلبية للكون الأكبر فى حالة وجوده الحالية ، هنا وهناك . وترنو النفس إلى إنجاز ما يطلب منها عن طريق تحركها من حالة الانحلال الحالية للمجتمع ، إلى هدف مناطه المجتمع نفسه ليس إلا : كما قد كان فى الماضى ، وكما قد يتطور إليه فى المستقبل

---

(١) السلفية : اصطلاح يعبر عن النزعة نحو القديم والحنين إلى استعادته والرجاء فيه لحل مشكلات الحاضر . (المترجم)

(٢) المستقبلية : اصطلاح يعنى الرجاء فى المستقبل للتخلص من متاعب الحاضر وآلامه . (المترجم)

وقد تعرف السلفية فى الواقع بأنها :

أولا – ارتداد من محاكاة الشخصيات المبدعة المعاصرة ، إلى محاكاة أسلاف القبيلة ، وبعبارة أخرى ، تعد السلفية سقوطاً من الحركة الدينامية للحضارة ، إلى الحالة الإستاتية التى يشاهد عليها الإنسان البدائى فى الوقت الحاضر .

ثانياً – محاولة من المحاولات ، تبذل عند حدوث توقف اضطرارى لحركة التغير ، وينتج عن المحاولة رذائل اجتماعية تتوقف خطورتها على مدى نجاحها .

ثالثا – أنموذج لتلك المحاولة الخاصة بـ « تثبيت » مجتمع منهار ومتحلل . وهذا التثبيت هو – كما رأينا – الغاية المألوفة لواضعى « نظم المدن الفاضلة » .

وفى وسعنا – باستخدام مصطلحات مطابقة – أن نعرف المستقبلية بأنها نكران المحاكاة على أى إنسان . وأن نعرّفها كذلك بأنها أحد تلك المحاولات التى تقود بالضرورة عند تمامها – وإلى مدى نجاحها – إلى ثورات اجتماعية تنتهى إلى تقويض خططها بفعل انقلابها من فعل إلى رد فعل .

وإلى هؤلاء الذين يضعون ثقتهم فى أى من هذين الإصطلاحين المعترف بهما بديلين عن نقل مجال الفعل من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر (الإنسان) ، نقول إن ثمة فى انتظارنا مسيراً مشتركاً ساخرا .

فإن هؤلاء المنهزمين فى بحثهم عن اختياراتهم « السهلة » التعاقبية ، إنما يحكمون على أنفسهم بالنهاية العنيفة التى يقدّر أن تداهمهم ، وذلك لأنهم يرعون شيئاً يجافى نظام الطبيعة . فإنه رغما عن صعوبة استطلاع الحياة الباطنة ، فإنه ليس بالشىء المستحيل . لكنه يستحيل على النفس – ما دامت تعيش فى الحياة الخارجية – أن تنتشل نفسها من وضعها الحالى فى « التيار المتصل الدوران » عن طريق قيامها بوثبة خافقة ، إما إلى الخلف فوق التيار صوب الماضى ، وإما تحت التيار صوب المستقبل : وما

المدن الفاضلة سواء منها السلفية النزعة أو المستقبلية الطابع ، إلا نظما خيالية بكل ما يحمله هذا الوصف من معنى ، فإنها نظم « ليست فى مكان ما » .

ولن يتأتى إدراك هاتين الحالتين الغيبيتين الخداعتين على وجه التحقيق . ويتمثل التأثير الوحيد والمؤكد للانطلاق صوب أحدهما ، فى إحداث بلبلة عنيفة لن تبشر بأى علاج للحالة .

وتعبر المستقبلية عن نفسها فى ذروتها المفجعة بكلمة « الشيطانية » :

« إن جوهر الشيطانية أن « النظام العالمى » إثم وخداع ، وأن الطيبة والصدق صفتان متمردتان مضطهدتان ... لقد آمن بهذه العقيدة كثير من القديسين والشهداء المسيحيين وبخاصة مؤلف سفر الرؤيا . على أننا يجب أن نلاحظ أن هذا القول يجافى على طول الخط تعاليم كافة فلاسفة الأخلاق تقريبا . فإن أفلاطون وأرسطو والرواقيين والقديس أغسطين والقديس توماس الاكوينى وكانت Kant وجيمس استيوارت ميل وكومت وجرين ، كلهم دللوا أو افترضوا وجود شيء على وجه ما « كون » أو « نظام إلهى » ، مداره أن ما هو حسن ينسجم مع هذا النظام وأن ما هو سيئ يجافيه . إننى أشير إلى أن أحد المدارس الغنوسطية[1] — كنيسة الآب فى هيبوليتوس — قد

---

(١) الغنوسطية Gnosticism مدرسة فكرية واسعة النطاق وجدت قبل المسيحية ، وكانت نوعا من الفلسفة حاول تفسير الوثنية واليهودية بالقول بأن العقائد يعتنقها جمهرة الناس ولكن العارفين وحدهم (الأدريون) هم الذين يفهمونها ويدركون حقيقتها . ولما ظهرت المسيحية هاجمها أتباع هذه المدرسة . ثم نشأ فرع منها مسيحى يسعى إلى تفسير المسيحية على أساس أن العارفين هم وحدهم الذين تلقوا الوحى عن السيد المسيح شخصيا . وتقرر هذه المدرسة بأنه يفصل الإله الأعظم عن البشر طبقات عدة من الأرواح والكائنات ذات الصفة الإلهية ، وأنه بالمعرفة يستطيع الإنسان اجتياز الهوة التى تحول بينه وبين الاتحاد بالرب الأعظم . ومناط هدف هذه المدرسة ، الخلاص عن طريق المعرفة الدينية لا عن طريق موت المخلص كما تؤمن المسيحية ، وتعتبر القرابين من الماء والنار والطعام جزءا هاما فى العقيدة الأدرية . والفلسفة الأدرية خليط من العقائد الشرقية والمدارس الفلسفية اليونانية . (المترجم)

حددت تعريف الشيطان بأنه « الروح التي تعمل ضد قوى الكون ، أى : المتمرد أو المعترض الذى يقاوم إرادة الجميع ويسعى إلى إحباط الجماعة التي هو عضو فيها »[١].

وتعتبر هذه النتيجة المحتومة لروح الثورة ، عبارة شائعة مسلم بها عند كافة الرجال والنساء الذين ليسوا ثوريين أنفسهم . ولا يصعب علينا أن نضع أصبعنا على تفسيرات تاريخية لسير عمل هذا القانون الروحى .

ففي المجتمع السورى مثلا : عندما عبروا عن المستقبلية بظهور المسيح[٢]. كان ذلك فى بداية الأمر محاولة إيجابية لسلوك سبيل الوداعة . فإن الإسرائيلى عوضا عن مثابرته على المحاولة المدمرة للمحافظة على استقلاله السياسى هنا والآن ، ضد هجمات العسكرية الآشورية ؛ قد كبر من حدة نزعة العنف لديه تجاه طاغية سياسى قائم بالفعل ، معزياً نفسه على إتيانه فعل الإذلال المؤلم هذا ، بقيامه بتحويل جميع ركازه السياسى إلى الرجاء فى ظهور ملك مخلص يستعيد المملكة الوطنية المنهارة ، عند تاريخ آت غير معلوم .

فإذا ما تتبعنا تاريخ « الأمل فى المسيح المنتظر » فى الجماعة اليهودية ؛ ألفينا أنه ظل قائماً على أساس نزعة الوداعة طوال فترة تزيد على الأربعمائة سنة ؛ أى من عام ٥٨٦ ق . م ، وقتما حمل نبوخذ نصر اليهود إلى الأسر البابلى ؛ حتى عام ١٦٨ ق . م ، وقتما خضعوا لاضطهاد أنطيوخس ابيفانى الهلينى : غير أن حل التنافر بين فكرتى : مستقبل دنيوى مؤكد الوقوع ، وحاضر دنيوى مؤلم ألماً مبرحاً . هذا التنافر قد اقتضى فى نهاية المطاف ، استخدام العنف تحقيقاً للغاية المرتجاة . ومصداقاً لذلك نشبت ثورة اليهود المكابيين المسلحة

---

(١) Murray, Gilbert "Satanism and the world order In Essays and sddress صفحة ٢٠٣

(٢) أى المسيح المنتظر . ويعنى المؤلف هنا ، فكرة ظهور شخصية فى المستقبل تقيم العدالة بين البشر . وتعادلها فى الإسلام فكرة المهدية (أى ظهور المهدى المنتظر) . (المترجم)

بعد انقضاء سنتين على استشهاد عازر والإخوة السبعة . ولقد افتتح المكابيون هذا الخط الطويل من ثورات اليهود المتعصبين الحربية ، أولئك ممن لا يمكن حصرهم من أمثال ثيوداسيس ويهوذا من الجليل ، الذين بلغ عنفهم ذروته المفزعة في ثورات اليهود البشعة إبان الفترات : ٦٦ ــ ٧٠ ميلادية و١١٥ ــ ١٧ ميلادية و ١٣٢ ــ ٥ ميلادية .

وليست النقمة التي تحل بنزعة المستقبلية ــ وفقاً لما يوضحها هذا المثال اليهودي التقليدي ــ بالشيء الغير المألوف . بيد أنه يطالعنا أمر أشد من ذلك غرابة ، إذ نجد نفس النقمة تحل بنزعة السلطة ــ في نهاية سبيلها المضاد لها ــ بشكل ظاهر . ذلك لأنه بصرف النظر عن كونها شيئاً شائعاً ، فإن القول بأن صخب العنف هو بالمثل النتيجة الحتمية لهذه الحركة المنحطة ؛ أمر ظاهر التناقض . ورغماً عن ذلك ، تظهر وقائع التاريخ اتفاقهــا مع هذا القول .

فلقد كان الملك آجيس الرابع الإسبرطي والتربيون تيباريوس جراكشوس الروماني ، أول سياسيين سلكا طريق السلطة في التاريخ السياسي لانحلال المجتمع الهليني . وامتاز كلاهما برقة الطبع والوداعة ؛ وأخذا على عاتقهما تقويم الظلم الاجتماعي تجنباً لكارثة تحــل بالمجتمع . على أن يتم ذلك بالعودة إلى ما آمنا بأنه دساتير دولهم إبان « العصر الذهبي » نصف الأسطوري الذي ساد قبل أن يلم الانهيار بالمجتمع . وبالتالي ، رنت سياستهما إلى استعادة عنصر التوافق في المجتمع . ولما كانت سياستهما ذات النزعة السلفية هي في صميمها محاولة لقلب خط سير الحياة الاجتماعية ، فقد أودت بهما سياستهما إلى التزام طريق العنف . ولم يجد منحاهما الروحي الوديع ــ الذي دفع بهما إلى إيثار تضحية حياتهما عوضاً عن اتخاذ موقف متطرف في مناهضة العنف الذي نشأ كرد فعل لسياسة العنف المفتعلة ــ لم يجده في صد جلاميد العنف التي دفعتاها إلى الحركة عن غير قصد . فكان أن انحصرت تضحيتهما الذاتية

فى إلهام خليقة من خلفائهما ، على احتضان عملهما والسعى إلى تنفيــذه بنجاح عن طريق أستخدام العنف الجائر ؛ عنف ظهر فيه الشهيد بمظهر الجائر فاتر الهمة .

ومصداقاً لذلك ؛ تلا الملك كليونيس المتصف بالعنف ، الملك آجيس الرابع المتصف بالرقة ؛ وتبع التريبون تيبريوس جراكشوس المتصف بالرقة ، أخوه جايوس المتصف بالعنف . ولقد أطلق الحاكمان المعتقان لنزعة القدمية ، العنان لفيضان العنف الذى لم يهدأ حتى اكتسح أمامه اكتساحاً تاماً ، نظام الجماعات التى رامت النجاة منه .

لكن إن تابعنا الآن تفسيراتنا الهلينية والسورية حتى الفصول القادمة للتواريخ التى تنتسب إليها ، سنجد أن صخب العنف — الذى تُطلق له نزعة السلفية العنان فى حالة ، ونزعة المستقبلية فى حالة أخرى — قد لطف من حدته فى النهاية استعادة روح الوداعة ذاتها فى سرعة مذهلة ؛ تلك الروح التى كانت موجة العنف الطاغية قد قهرتها وغمرتها .

ويطالعنا تأييداً لقولنا ، تاريخ الأقلية المسيطرة الهلينية : فلقد تلت القرنين الأخيرين قبل الميلاد — كما لاحظنا — سلالة من الموظفين العاملين ذوى الضمير والمقدرة على تنظيم الدولة العالمية والمحافظة عليها . وتحول خلفاء المصلحين أصحاب نزعة العنف البطاشة ، إلى مدرسة من الفلاسفة الأرستقراطيين أمثال : آريا Arria وكايسينا بايتوس Caecina Paetus وتراسيا بايتوس Thrasea Paetus وسنيكا Sneca وهلفيدوس بريسكوس Helvidius Priscus الذين لم يرضوا عن ممارسة سيطرتهم المتوارثة حتى فى سبيل الصالح العام ، والذين اعتنقوا نزعة إنكار الذات ، إلى درجة إقدامهم على الانتحار طائعين تحت إمرة إمبراطور طاغية .

والمثل يقال عن الجناح السورى من الأقلية الداخلية للعالم الهلينى . فلقد

تلا خيبة المحاولة المكّابية لتشييد المملكة المسيانية[1] في هذه الدنيا باستخدام القوة ، انتصار ملك لليهود لم تكن مملكته في هذه الدنيا[2] . بينما حدث في الجيل التالي — على نطاق إلهام روحي أضيق — أن تحقق عند حلول لحظة فنائهم ، أمل اليهود المتعصبين في بطولة تتسم بالوحشية . وتم ذلك بفضل بطولة الحاخام ناثان بن زكّاي : بطولة قوامها الامتناع عن المقاومة : فإنه قد فصل نفسه عن المتعصبين اليهود ، على أمل أن يواصل بث تعاليمه بعيداً عن مرمى سمع المعركة . فلما أن أنبأه مريده نبأ الكارثة بقوله في حدة والتياع : « الويل لنا ، فإن المكان قد تهدّم حيث كان الناس يستعطفون لغفران خطايا إسرائيل » أجاب المعلم : « لا تدع يا ولدى ذلك يحزنك ، فإنه ما يزال لدينا استعطاف يساويه ؛ أفليس هو منح المعروف ؟ » .

فكيف حدث في كلا الحالين ، صدّ تيار نزعة العنف الذى بدأ جارفا من طريقه كل عائق ، فانقلب إلى نقيضه ؟ .

تُعزى معجزة الانعكاس في كلتا الحالتين إلى تغير في طرائق الحياة . ومناط هذا التغيّر ، حلول فكرة « الانعزال » في نفوس الجانب الرومانى من الأقلية المسيطرة محل فكر « السلفية » : وحلول فكرة « التجلى » في نفوس الجزء اليهودى من البروليتاريا الداخلية الهلينية محل فكرة « المستقبلية » .

ولربما نستطيع إدراك مزايا هذين السبيلين للحياة الوديعة ، بنفس الصورة التى تشاهد بها بدايتهما التاريخية ؛ إن ناقشنا كلا منهما بصفة خاصة عن طريق دراسة شخصية وسيرة رجل ملهم مشهور مثل : كاتو الأصغر ذو النزعة السلفية الذى أصبح فيلسوفاً رواقياً ، وسيمون بارجوناس اليهودى

---

(١) أى المملكة التى يؤمل بها اليهود استعادة عصرهم الذهبى إبان ملكى داود وسليمان عليهما السلام . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

ذو النزعة المستقبلية الذى أصبح فيما بعد بطرس حوارى يسوع المسيح . وإننا لنجد فى كلا هذين الرجلين العظيمين خطا من العمى الروحى الذى حجب عظمتهما ، يتمثل فى سوء توجيه مناحى نشاطهما . ذلك لأنهما كانا يجدان فى تحقيق نظم تتسم نسبياً بالخيال ، اعتزما أن يكرسا لتحقيقها جهودهما وأخيراً أمكن لنفسيهما التى ضلت طويلا وارتبكت ، أن تحقق أسمى إمكانياتها بفضل تحولها إلى سبيل للحياة جديد .

١ – كاتو :

كاد أن يصبح كاتو موضع التندر ، بسبب كفاحه الشبيه بكفاح دون كوشوته[1] لتحقيق مجتمع رومانى خيالى تصورى لم يسبق له وجود فى « الحياة الواقعية » بأية حال من الأحوال .

إذ رفض كاتو أن يتقبل سياسات جيله كما وجدها . ودأب على تعقب الظل بينما قصر عن بلوغ الجوهر . وعندما انزلق أخيراً لتأدية دور رئيسى فى حرب أهلية ، يقع عليه عبء قسط كبير غير منكور من مسئولية اندلاعها ، قدر لغشاوته السياسية أن تتبدد . ذلك لأن نفسية كاتو ذى النزعة المثالية السلفية ، ما كانت لترضى عن النظام الذى ينبعث إلى الوجود لو قدر لشركائه الفوز ، وأنها لتبغضه بغضها ديكتاتورية قيصر التى فازت فى نهاية المطاف . ولما جابه السياسى الخيالى الاتجاه ، هذه المشكلة ، انطلق من نطاق البلادة ليتطور إلى فيلسوف رواقى . وهكذا مات معتنقا الفلسفة الرواقية ؛ الرجل الذى عاش معتنقا فكرة السلفية دون جدوى . وكان تأثيره رواقيا بعد موته ، من القوة بحيث أنه سبب طوال

(١) دون كوشوته شخصية ابتكرها الروائى الإسبانى سرفانتس . وقد خرج دون كيروت متقلدا أسلحة القرون الوسطى ممتطيا صهوة جواده الهزيل مصطحبا تابعه سانكو بانزا ، لدرء المظالم عن البشر والقضاء على الظالمين وتحقيق العدالة . فكان أن قاتل الطواحين ظانا أنها مردة وأتى الكثير من ضروب البطولة المضحكة . (المترجم)

أكثر من قرن لقيصر وخلفائه من بعده ، من المتاعب ، أكثر مما أحدثته لهم بقية الحزب الجمهورى مجتمعين .

وأثرت قصة ساعات كاتو الأخيرة فى معاصريه ، تأثيراً يمكن لأى قارئ استعادته الآن بقراءة رواية بلوتارخ . وهذا ما أدركته عبقرية قيصر بالغريزة . إذ تبينت له خطورة الضربة التى أصابت قضيته بفعل وفاة رواقى عدو له ، لم يجد قيصر ضرورة للاهتمام به إبان حياته سياسياً . وليس أدل على هذا الاهتمام ، من أن الديكتاتور العسكرى المنتصر – وهو فى زحمة مهام عمله الجسيم لإعادة بناء العالم وبينما كان يطأ بقدميه المتآمرين فى الحرب الأهلية – قد وجد وقتا للرد على سيف كاتو باستخدام قلم قيصر . إذ استبان بوضوح لعبقريته المتعددة الجوانب ، أن القلم هو السلاح الوحيد الذى فى مكنته أن يدفع هجوماً تحوّل من المجال الحربى إلى المجال الفلسفى ، بفعل ما قام به كاتو عوضا من توجيه حسامه ضد صدره هو بالذات . على أن قيصر قد عجز عن قهر الخصم الذى وجّه هذه الضربة القاصمة ؛ لأن موت كاتو قد استولد مدرسة من الفلاسفة معارضى القيصرية ، جعلت أفرادها من كاتو (مؤسسها) مثالا يلهمهم فى حجب التأييد عن الطغيان الجديد ، عن طريق إزاحة أنفسهم – بأيديهم هم – بعيدا عن موقف لا يرضونه ولا يستطيعون إصلاحه .

ويتبين كذلك بوضوح ، التحوّل من فكرة السلفية إلى فكرة « الانعزال » فى قصة ماركوس بروتوس كما رواها بلوتارخ ، وأعاد روايتها شكسبير . كان بروتوس متزوجاً بابنة كاتو كما كان كذلك طرفا فى مصرع قيصر . ويعتبر مصرع قيصر ، فعل بارز عقيم من الأفعال العنيفة لنزعة السلفية . بيد أن ثمة ما يجعلنا ندرك بأن بروتوس كان يشك حتى قبل ارتكاب القتل ، فيما إذا كان يسير على سبيل الحق . وبعد ما شاهد نتائج فعله ، اشتدت ريبته ، ثم تقبّل بعد معركة فيلبى ، حلا على الأسلوب ، نادى به كاتو وهو ما لقنّه من قبل . وعندما أقدم على الانتحار طفق يقول (بكلمات شكسبير) :

قيصر ، الآن لتسكن
إنى لم أقتلك بنصف هذه الإرادة(١) .

٢ – القديس بطرس :

تبدت نزعة بطرس المستقبلية شيئاً عصياً عن الإصلاح ، مثلما تبدت نزعة كاتو السلفية .

كان بطرس أول الحواريين الذين آمنوا بعيسى مسيحاً ، كما كان أشد المعترضين على وحى معلمه(٢) اللاحق المعترف به والقائل بأن مملكته المسيانية لن تكون صورة يهودية لإمبراطورية قورش العالمية الإيرانية . لكنه ما إن تلقى بركة خاصة جزاء له على إيمانه المندفع ؛ حتى سارع إلى توقيع زجر ساحق على نفسه بسبب إصراره الكليل العدوانى على وجوب تصور مملكة معلمه الخاصة ، متطابقة مع فكرة الحوارى الثابتة .

« تعال ورائى أيها الشيطان فإنك معصية نحوى ، لأنك لا تتذوق الأشياء التى هى من الله ، ولكن تلك التى مصدرها الإنسان » .

ولم يكن للدرس الذى ألقاه المعلم على بطرس – عن طريق إظهار عذله له أمام ناظريه على تلك الصورة المروعة(٣) – سوى تأثير ضئيل ، حتى إنه لقد أخفق فى الاختبار التالى مرة أخرى . ذلك لأنه عندما اختير ليكون أحد ثلاثة يشهدون تجلى السيد المسيح ، دارت فى خلده على الفور رؤيا موسى والياس واقفين إلى جانب معلمه كآبة على بداية الزحف الظافر(٤) . ونم عن خطل رأيه الخامل تجاه ما عنته الرؤيا ، من اقتراحه إقامة نواة معسكر

---

(١) يبدى بهذا القول تكفيره عن ذنبه بقتله قيصر . فإن تصميمه على الانتحار أقوى كثيرا من تصميمه على قتل قيصر . (المترجم)

(٢) أى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٣) أى الصلب . (المترجم)

(٤) Befreiungs krieg

(ثلاث خيم أو أخبية) من النوع الذى دأب على إقامته فى الفلاة أمثال ثيوديسيوس ويهوذا[١] من الجليل ، إبان فترة العفو القصيرة الأمد ، قبل أن تتلقى السلطات الرومانية أنباء تمردهم ، فتبادر بإنفاذ قوات سريعة الحركة لإخماد عصيانهم .

وإزاء هذه النغمة الخشنة ، اضمحلت الرؤيا فى زجع صدى التحذير بتقبّل ونخى المسيح نفسه ، المتصل برسالته كمسيح .

على أن هذا الدرس الثانى لم يكن كافياً كذلك لفتح عينى بطرس ، بل إنه حتى إبان ذروة رسالة معلّمه — وقتما تحقق بوضوح كافة ما تنبأ به المعلّم — امتشق بطرس ، ذو النزعة المستقبلية العاتية ، الحسام ليقاتل فى « حديقة جات شيمن »[٢] ولعل « خلفه لوعد معلمه » بعد ذلك فى نفس الليلة ، نتيجة بلبلة فكر فرد خسر فى النهاية ، إيمانه ذا النزعة المستقبلية ، دون أن يستحوز على بديل له .

بيد أنه بعد انقضاء تجربة حياته المجيدة هذه — وقتما علّمه الصلب والقيامة[٣] والصعود فى نهاية الأمر ، أن مملكة المسيح ليست فى هذا العالم — كان بطرس ما يزال قانعاً بالاعتقاد بأنه حتى فى مملكة التجلى هذه ، يجب أن تقتصر ميزة الخلاص على اليهود ، على غرار ما هو مأثور عن المشيانية الخيالية ذات الاتجاه المستقبلى[٤] . وهذا يعنى أن مجتمعاً يولى ملكاً عليه الرب

---

(١) أى أولئك المؤمنون بسياسة العنف . (المترجم)

(٢) جاث شيمن : كلمة آرامية تعنى معصرة الزيت . وهى اسم لمكان يبعد عن القدس بنحو ثلاثة أرباع الميل على مشارف جبل الزيتون . وكانت به حديقة يجتمع فيها السيد المسيح وحواريوه وكانت مسرحاً للألم ليلة صلب السيد المسيح . (المترجم)

(٣) أى قيامة السيد المسيح . (المترجم)

(٤) وهى عقيدة اليهود القائلة بأن المسيح سيظهر فحسب لإعادة مجدهم وحدهم دون بقية البشر . (المترجم)

فى السماء ؛ يقيم على أرض الله حدوداً يستبعد فيها جميع مخلوقات الله وأبنائه ، عدا عشيرة واحدة منهم .

وإننا لنشاهد بطرس فى أحد المشاهد الأخيرة التى يبدو فيها « فى أعمال الرسل » يحتج – فى صورة مميزة – ضد الأمر الواضح الذى صحب رؤيا الإناء النازل عليه من السماء . لكن بطرس لم يخل مكاناً لبولص باعتباره بطل القصة ، إلا بعد ما سجلت الحكاية إدراكه فى النهاية لحقيقة استوعبها بولص الفريسى فى طرفة عين : بين تضاعيف تجربة روحية فياضة . ولقد استكمل سعي بطرس الطويل للاستنارة وقتما تلت الرؤيا على السطح ، وصول رسل كورنليوس إلى البوابة(١) .

وإن بطرس باعترافه بعقيدته فى دار كورنليوس ودفاعه هناك عن موقفه أمام الجماعة اليهودية المسيحية عند وصولها أورشليم ؛ قد بشر بمملكة الرب فى كلمات لن يزجره المسيح عليها .

فما هما سبيلا الحياة اللذان أنتجا هذه الآثار الروحية الرحيبة وقتما سلكهما على التوالى : كاتو عوضاً عن نزعة السلفية ، وبطرس عوضاً عن نزعة المستقبلية ؟

فلنبدأ بملاحظة الاختلافات المشتركة بين اتجاهى الانعزال والتجلى فى جانب ، ونزعتى السلفية والمستقبلية فى الجانب الآخر . ثم نمضى قدماً فى بحث الاختلافات بين اتجاهى الانعزال والتجلّى :

---

(١) يذكر العهد الجديد فى أعمال الرسل أن بطرس اشتهى أن يأكل ، ثم أصابته غيبوبة فرأى السماء مفتوحة وإناء نازلا عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف مدلاة على الأرض وكانت فيها كل دواب الأرض وطيور السماء . وصاح صوت فيه يأمره بذبح ما يشاء وأكله ، لكنه لم يصدق ، فارتفع الإناء إلى السماء . ولم يصدق بطرس الرؤيا إلا بعد مجىء الرجال الذين أرسلهم كرنليوس ، وهو قائد رومانى ، يذكر العهد الجديد أنه آمن برسالة السيد المسيح ، ويعنى المؤلف هنا أن بطرس لم يكن يدرك المعانى الروحية الثمينة مثل بولص . (المترجم)

يختلف اتجاها الانعزال والتجلى كلاهما عن نزعتى المستقبلية والسلفية كلتيهما ؛ من ناحية إحداثهما تغيراً أصيلا فى الحياة الروحية على أساس الزمن . وليس الأمر مجرد تحول شكل التجلى الخاص بميدان الفعل ، من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر ؛ ذلك التحول الذى ألفيناه قاعدة ارتقاء الحضارة . فإن مملكة الرب التى هى هدف كل من كاتو وبطرس ، وتعتبر فى الحالتين « أملا فى عالم آخر » . بمعنى أنها ليست « ماضياً تخيليا »[١] ، أو دولة مقبلة سيصبح لها على الأرض وجود[٢] . على أن هذا « الأمل فى عالم آخر » هو موضع مشابهتهما الوحيدة ، فإنهما يتعارضان فى كافة المناحى الأخرى .

ولقد أطلقت مختلف مدارس الفلاسفة أسماء متنوعة على سبيل الحياة الذى دعوناه « الانفصال » . فنجد الرواقيين فى عالم هلينى متحلل يستريحون إلى كلمة « عدم التأثر » ، ويؤثر الأبيقوريون كلمة « الوقار »[٣] .

وركن فلاسفة البوذية من العالم السندى المتحلل إلى كلمة « الاطمئنان » (أى النيرفانا) . والنيرفانا سبيل يقود النفس بعيداً عن هذا العالم ، ويهدف إلى الوصول إلى « ملتجأ » . وإذا كان هذا « الملتجأ » ينبذ « هذا العالم » ، فإن هذا يجعله محبباً إلى النفس . فإن ما يحمل المسافر الفيلسوف فى سيره ، يتمثل فى دفعة الكراهية وليست جذبة الرغبة . وإنه « لينفض » عن قدميه تراب « مدينة الدمار » ، لكن لا يلوح لناظريه مرأى الضياء المتألق هناك .

« يقول المغرور بالحياة : إيه يامدينة سيكروبس المحبوبة » وأنت لا تقول « إيه يا مدينة زيوس المحبوبة ؟ »[٤] . بيد أن مدينة زيوس التى نادى بها

---

(١) بالنسبة لكاتو . (المترجم)

(٢) بالنسبة لبطرس . (المترجم)

(٣) وفقا لما يصوره هوراس الشاعر الأبيقورى الواعى بعض الشىء عندما ينبئنا بأن « شذرات عالم محطم قد أصابتنى ، ولست منزعجاً . (المؤلف)

(٤) الكتاب الرابع ، الفصل ٢٣ Marcus Aurelius Antoninus

ماركوس ، ليست هي نفس مدينة الله التي نادى بها القديس أغسطين والتي هي مدينة الله الحي » . فإن رحلة ذلك الفيلسوف المسافر تعتبر انسحاباً وفقاً لخطة موضوعة ، أكثر منها حجاً تلهمه العقيدة . إذ يعتبر هروب الفيلسوف هروباً ناجحاً من « هذا العالم » ، نهاية في حد ذاته . وبالفعل فإنه لا يهم ما الذي يفعله الفيلسوف في نفسه وقلما يعبر ذات مرة مدخل مدينة الالتجاء » ولقد صور الفلاسفة الهليفيون حالة مرحلة التحرر بأنها غبطة التأمل . ويصرح البوذا في صراحة[1] أنه طالما أن كل احتمال للرجع قد استبعد نهائياً ، تصبح طبيعة الحالة البديلة التي وفدت إليها النفس لتستقر ، لا طائل تحتها .

وتعتبر هذه النرفانا غير المعروفة والخامدة ، أو « مدينة زيوس » — التي هي هدف الانعزال ، بديلا بالذات لمملكة السماء التي أدمجت عن طريق تجربة التجلي الدينية . في حين أن « العالم الآخر » للفيلسوف — في جوهره — عالم على الأرض خاص بنا ، وأن « العالم الآخر » الإلهي ، ليسمو على حياة الإنسان الأرضية من غير أن يبطل شموله إياها .

ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله ، أجابهم وقال : « لا يأتي ملكوت الله بمراقبة ولا يقول هو ذا ههنا أو هو ذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم »[2] .

وسنرى أن مملكة الرب إيجابية في طبيعتها مثلما أن « مدينة زيوس » سلبية . وبينما أن طريق الانعزال هو مجرد حركة انسحاب ، فإن طريق التجلي هو حركة ما سبق أن قيضت لنا فرصة تسميته بـ « الانعزال والعودة » .

* * *

---

(١) كان مذهبه ينعكس انعكاسا صادقا في أسفار الهينايانا المقدسة . (المؤلف)

(٢) إنجيل لوقا إصحاح ١٧ آية ٢٠ — ١ . (المترجم)

وبعد ، فإننا قد عرضنا الآن باختصار لستة أزواج من الطرق المتعاقبة للسلوك والشعور والحياة التى تُقدّم نفسها إلى نفوس الناس الذين ألقى بهم القدر فى المجتمعات المتحللة . وعسانا — قبل أن نتابع دراستها زوجا بعد آخر فى تفصيل أكثر — أن نتوقف هنيهة لنعين مكاننا بالضبط بملاحظة الروابط بين تاريخ النفس وتاريخ المجتمع .

وإذا سلمنا بأن كل تجربة روحية هى تجربة فرد ، فهل يا ترى سنجد من بين الخبرات التى سنفحصها ، خبرات لا تحدث إلا للأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع متحلل ؟

سيتبين لنا أن جميع الطرق الشخصية للسلوك والشعور وهى :

إلقاء الحبل على الغارب السلبى ، وضبط النفس الإيجابى ، والشعور السلبى بالسير على غير هدى ، والشعور الإيجابى بالخطيئة .

ويتأتى تمييزها جميعاً فى أعضاء الأقلية المسيطرة وفى البروليتاريا ، كليهما .

وسيصبح علينا — من الناحية الأخرى — وقتما نصل إلى الطرق الاجتماعية للسلوك والشعور ؛ أن نميز فى سبيل الوصول إلى غرضنا الحالى ؛ بين الزوج السلبى والزوج الإيجابى . وتنزع الظاهرتان الاجتماعيتان السلبيتان — أى التراخى والاستسلام إلى الإحساس بالاختلاط — إلى الظهور فى بداية الأمر فى صفوف البروليتاريا ، ثم تنتشر من هناك إلى صفوف الأقلية المسيطرة التى تتردى فى داء « النزوع إلى الأساليب البروليتارية » .

وعلى العكس من ذلك ، تنزع الظاهرتان الإيجابيتان الاجتماعيتان — أى استطلاع الاستشهاد والانتباه إلى الشعور بالوحدة — إلى الظهور أولا فى صفوف الأقلية المسيطرة ، ثم تنتشر من هناك إلى البروليتاريا .

وأخيرا فإننا عند ما نتمعن فى طرق الحياة الأربعة المتعاقبة ، سيتبين لنا على العكس :

١ – أن الزوج السالب – السلفية والانفصالية – يتجهان إلى أن يُقرنا بالأقلية المسيطرة قبل كل شيء .

٢ – يميل الزوج الإيجابي – النزعة المستقبلية ونزعة التجلي – إلى أن يُقرنا بالبروليتاريا .

(٢) التراخي وضبط النفس

لعل تحقيق المظاهر المتصلة بناحيتي التراخي وضبط النفس – اللتين تتسم بهما المجتمعات في مرحلة تحللها – أمر صعب نوعاً ما :

ذلك لأن الكائنات البشرية ، قمينة بإبراز تلك المظاهر في كل تغيّر يطرأ على الأحداث الاجتماعية . ومصداقاً لذلك ؛ في وسعنا أن نميّز – حتى في حياة المجتمعات البدائية – عرفا يجمع بين التهتك والزهد . وأن نميز في هذين المزاجين كذلك ، دورة سنوية من التلوّن – وفقا للفصل من السنة – بين تضاعف الطقوس التي يقوم بها أفراد القبيلة للتعبير عن انفعالاتهم .

غير أننا إذ نذكر كلمة « التراخي » كشيء مقابل للإبداع في حياة الحضارات المتحللة ؛ فإنما نعني بها شيئاً أكثر إحكاما من سريان الشعور هذا ، هي حالة شعور ؛ يتقبّل فيها كبديل للإبداع ، منحى يتسم بالتناقض ، تناقض يتم عن إدراك أو يتم لا شعوريا ، كما يقوم نظرياً وعمليا .

ففي الجيل الأول من عصر الاضطرابات الهليني بعد الانهيار ، تمثّل زوج من تجسّد التراخي وضبط النفس في تصور أفلاطون لألسبياديس Alcibiades وسقراط في كتابه « الندوة »[1] وتصوره تراسياخوس Thrasymachus وسقراط في كتابه « الجمهورية » . ويمثل ألسبياديس

(١) Symposium

ـ عبد الانفعال ـ صفة التراخى من الناحية العلمية ؛ ويمثل تراسياخوس ـ المدافع عن مبدأ « القوة حق » ـ نفس المزاج من الناحية النظرية .

وفى الفصل التالى من القصة الهلينية ؛ نجد أن مفسّرى كل من هاتين المحاولتين للتعبير عن الذات ، عوضا عن إبداع ينشد تصديقا من ذى سلطان على طريقتى سلوكهم الخاصـــة ، يتفقان على مبدأ « العيش وفقا للطبيعة » . ولقد ألصق هذا الفصل بمعنى « التراخى » ؛ أولئك الهيدونيون[١] المبتذلون الذين اتخذوا شعارا اسم أبيقور واستعملوه فى غير حق ؛ مما دفع الشاعر الأبيقورى المتزمّت لوكريتيوس Lucretius إلى تأنيبهم على هذه الإساءة ؛ ونشاهد من الناحية الأخرى ، الرواقيين يطالبون لأنفسهم بالمعنى الطبيعى للحياة الزاهدة ، ويمثلهم ديوجنيس فى برميله ، كما يمثلهم الرواقيون فى أسلوب أقل فجاجة .

فإذا ما انتقلنا من العالم الهلينى إلى العالم السو ى إبان عصر اضطراباته ، سنجد نفس التباين العارم بين صفتى التراخى وضبط النفس ، استنادا على ما يبدو من التباين بين النظرية الرصينة المرتابة التى يُبديها سفر الجامعة[٢] وبين طقوس التعبّد الورعة التى تؤديها طائفة الأسين Essene[٣] .

وثمة مجموعة أخرى من الحضارات ـ السندية والبابلية والحيثية المايانية ـ تبدو إبان تحللها كما لو أنها تنكفئ إلى طبائع الإنسان البدائى من ناحية عدم تأثرها باتساع الهوة المفتوحة بين الخصائص الجنسية الثنائية المظهر[٤] وبين النزوع إلى المغالاة فى الزهد ، وهو ما يكمن فى منحاهم الفلسفى ؛ مصداقاً لما يأتى :

---

(١) الهيدونيون Hedonsts أتباع مذهب يؤمن بأن اللذة هى جماع الخير . (المترجم)

(٢) من الإنجيل . (المترجم)

(٣) الأسين طائفة يهودية قديمة كانت تعتنق نزعة تصوفية . (المترجم)

(٤) أى العقيدة التى تقوم على إلاهين ـ ذكر وأنثى ـ مثل أوزيريس وإيزيس فى العقيدة المصرية القديمة . (المترجم)

بالنسبة للمجتمع السندى – ثمة تناقض يبدو للوهلة الأولى متعذرا عن الحل ، بين عبادة الإحليل[١] وفلسفة اليوجا[٢] .

بالنسبة للمجتمع البابلى – تروعنا بالمثل المفارقات بين الدعارة التى تمارس فى المعابد وفلسفة النجوم التى اعتنقها المجتمع البابلى إبان تحلله .

وبالنسبة للمجتمع المايانى – نجد المفارقات بين الضحايا البشرية وإذلال النفس كمظهر للقومية .

وبالنسبة للمجتمع الحيثى – تطالعنا أوجه التباين بين مظاهر التهتك وصور الورع فى عبادة سيبيل وآتيس .

ولعل العرق المشترك لنزعة القسوة المفرطة التى دخلت مظهرى « التراخى وضبط النفس » كليهما ، هو العامل فى احتفاظ نفوس أعضاء هذه الحضارات المتحللة الأربع – بتوافق فى الانفعالات بين الأعمال ، التى يبدو أنها تصدف عن المسألة عند ما تلاحظها عين المشاهد الأجنبى التحليلية الهادئة .

فهل تعيد الآن طريقتا السلوك المتنازعتان هذان ، تمثيل دوريهما على المسرح الأكثر اتساعا للمجتمع الغربى فى فصل تاريخه الحديث ؟

بالنسبة للاتجاه صوب « التراخى » ، لا نفتقر إلى دليل – فإنه قد وجد فى مجال النظريات نبى هو جان جاك روسو ، بدعوته الخلابة للعودة إلى الطبيعة . فى حين أنه بالنسبة لصفة « التراخى » فإنه يصدق عليها القول « إن كنت تبحث عن بنائه التذكارى ، انظر ما حولك »[٣] .

---

(١) الإحليل هو رمز الإله شيفا فى العقيدة الهندوسية . (المترجم)

(٢) رياضة عقلية خاصة فى الهند تنحو إلى إخضاع الجسد للروح . (المترجم)

(٣) Si monumentum requiris circumspice وهى جزء من نقش فى كاتدرائية سان بول فى لندن ، ذكرى المهندس الذى تولى تصميم البناء وهو السير كريستو فرورن . (المترجم)

ومن الناحية الأخرى ، فلعلنا نفتش سدى عن بعث مضاد لنزعة الزهد . ولعلنا نستخلص من هذه الواقعة ــ على سبيل الاختبار ــ النتيجة الوضيعة القائلة بأن الحضارة الغربية قد انهارت يقينا ، وأن تحللها لن يكون بالشيء البعيد .

(٣) الشرود والاستشهاد

الشرود والاستشهاد ــ بمعناها العام ليسا إلا نتيجتين لرذيلة الجبن ، وفضيلة الشجاعة . وهما بهذا ظاهرتان شائعتان فى السلوك البشرى فى جميع الأعمار وفى جميع أنواع المجتمع .

على أن الشرود والاستشهاد اللذين نبحث أمرهما ؛ شكلان خاصان توحيهما نظرة خاصة إلى الحياة . فإن الشرود الناتج عن الجبن المحض والاستشهاد المترتب على الشجاعة الخالصة : ليسا موضع بحثنا . فإن نفسية الشارد التى نحن فى سبيل البحث عنها ، هى نفسية تستوحى شرودها من شعور أصيل بأن القضية التى تخدمها لا تستحق فى الحقيقة ، الخدمة التى تطلبها منها هذه القضية . وبالمثل فإن نفسية الشهيد التى نحن فى صدد البحث عنها ، هى النفسية التى تُقبل على الموت ، لا لأنها تتجه كلية أو بصفة جوهرية لإسداء خدمة عملية إلى تعضيد تلك القضية ، بل تتجه إلى إشباع تطلع النفس ذاتها إلى خلاصها من :

الثقل الشاق المنهك

لجميع هذا العالم الغير المفهوم(١) .

وإنه وإن بدأ مثل هذا الاستشهاد نُبلا ، إلا أن عنصر الانتحار فيه يجاوز النصف . فإن الشهيد يعتبر ــ وفقا للغو الحديث ــ إنسانا هاربا ؛

---

(١) Wordsworth, W : Tintern Abbey

مثلما يعتبر الشارد هاربا من نوع أشد سفالة . ومن ثم يعتبر الرومانيون ذوو النزعة السلفية الذين تحولوا إلى فلسفة « الانفصال » شهداء بهذا المعنى . فانهم بقرارهم العلوى ، قد أحسوا بأنهم لم يجردوا أنفسهم من الحياة بقدر ما تحرروا منها . وإن فرض على أحد أن ينشد مثالا للشرود من نفس الطبقة وفى نفس الفترة التاريخية ، ففى وسعه ذكر اسم مارك أنطونى فإنه شارد من روما ، وهو نتاج مُثُل روما العليا — ، الذى انجذب إلى ذراعى كليوباترة الشبيهة بالشرقية[1] .

وبعد انقضاء قرنين — إبان الظلم الذى تجمع خلال عشرات السنين التى انقضت من القرن الثانى من العصر المسيحى — نجد فى ماركوس أوريليوس شخصاً لم يوهن لقب الأمير من أحقيته فى تاج الشهيد . بل أكده — على الضد — صدوف الموت عن توجيه ضربة قاضية تقود إلى تقصير أمد التجربة . فى حين يتمثل لنا فى شخص كومودوس Commodos ابن ماركوس وخليفته مشهد مهيب يتسم بسيادة صفة الشرود عليه . تخلف مداره نكوص هذا الوريث عن بذل مجهود ما لحمل عبء ميراثه . ثم كان أن ولى الأدبار واختفى فى فرار أدبى مشين سالكاً طريق يقود إلى التحول البروليتارى ، وهو تحول خسيس ملىء بالرماد . ذلك لأن كومودوس وإن ولد إمبراطوراً ، إلا أنه آثر تسلية نفسه بهواية المجالدة .

ولقد كانت الكنيسة المسيحية هى الهدف الرئيسى للضربات القاصمة التى وجهتها إليها الأقلية الهلينية المسيطرة التى انقلبت إلى وحش ، أثناء فترة مكابدتها النزع الأخير . ذلك لأن هذه الطبقة الحاكمة الوثنية المحتضرة ؛ قد رفضت مواجهة الحقيقة المفجعة ، ومناطها أنها هى نفسها باعث انهيارها وعلة دمارها الذاتى . بل إنها وهى تعانى سكرات الموت ، قد حاولت إنقاذ حطام القطعة الأخيرة من اعتبارها الذاتى ، بإقناعها نفسها بأنها إنما تهلك ضحية لاعتداء البروليتاريا عليها اعتداءاً دنيئاً . وقد كانت البروليتاريا الخارجية

(١) أى امرأة نصف شرقية لأن أصل أسرة البطالسة يونانى . (المترجم)

تحتشد فى عصابات حربية رهيبة فى مكنتها تحدى أو التملص من محاولات الحكومة الإمبراطورية للثأر من إغارتها الصادرة عن حقد دفين.

وكانت خراف القطيع المسيحى فى ظل هـذه التجربة تختلف عن الماعز(١) بكل وضوح ؛ بما واجهته من تحدى الاختبار الماثل بين التبرؤ من عقيدتها أو التضحية بحياتهـا . وكان الجاحدون(٢) يكوّنون حشداً ضخماً(٣) ، إلا أن التأثير الروحى للعصبة الضئيلة من الشهداء منهم ، تجاوز نسبتها العددية بمراحل . وإلى إقدام هؤلاء الأبطال الذين برزوا فى اللحظة الحرجة إلى الأمام من بين الصفوف المسيحية ليشهدوا على حساب الحياة نفسها ، يُعزى انتصار الكنيسة . ولم يتلق هذا الجيش الصغير — ولكن النبيل — من الرجال والنساء ، أكثر من جزائهم الواجب من الشهرة بذكرهم فى التاريخ كـ « شهداء بارزين » ، نقيضاً « للخونة » الذين سلّموا الأسفار المقدسة أو أوعية الكنيسة المقدسة إلى السلطات الإمبراطورية الوثنية .

ولقد يعترض بأن هنا مجرد جبن فى جانب ، وشجاعة خالصة فى الجانب الآخر ، وأن هذا التفسير لا فائدة ترجى منه لغايتنا الحاضرة . ولا تتوافر لدينا فيما يتصل بالشاردين مادة الإجابة على هذا الاتهام . ذلك لأن مقاصدهم تدفن فى غمار نسيان مشين . أما بالنسبة للشهداء فإن ثمة دليلا غزيراً يشهد بأن شيئاً أعظم — أو أقل حسبما يفضل القارئ — من الشجاعة الخالصة المجرّدة عن الغرض ، تمثل فيه الدافع الذى أوحى إليهم . فإن الرجال والنساء قد ابتغوا الاستشهاد متحمسين باعتباره قرباناً مقدساً ، و « تعميداً

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى عبارات وردت فى الإنجيل تشبه السيد المسيح بالراعى ، والمؤمنين به بالخراف . فى حين أن الماعز كناية عن غير المؤمنين بالمسيحية . (المترجم)

(٢) أى المسيحيون فى عرف الوثنيين . (المترجم)

(٣) الواقع أن أعدادهم كانت من الكثرة بحيث أصبحت مشكلة كيفية التصرف بهم ، هى المسألة الملتهبة للسياسات الكنسية عندما توقفت عمليات الاضطهاد . (المؤلف)

جديداً » ، ووسيلة للغفران من الخطايا وكفالة طريق إلى السماء . وإننا نجد أغناطيوس الأنطاكى — وهو أحد الشهداء المسيحيين البارزين للقرن الثانى ، يتكلم عن نفسه بأنه « قمح الله » ويشتاق إلى اليوم الذى « تطحنه فيه أسنان الحيوانات المتوحشة ليدخل فى الخبز الصافى للمسيح » .

فهل فى ممكنتنا أن نميّز فى العالم الغربى أية آثار لهذه الطرق المناقضة للسلوك الاجتماعى ؟

نستطيع بالتأكيد أن نضع أصبعنا على فعل غربى للشرود يوحى بالنُذر ، فى « خيانة الكنيسة » . وتنبعث جذور هذه الخيانة من غور ربما قد يستأنى فى تتبعه الفرنسى الموهوب الذى صك هذه العبارة[1] . وإن كان قد اعترف — بصورة تقديرية — بعظم تأصّل جذور الأذى ، بإيثاره اختيار الاسم الكنسى الشائع فى القرون الوسطى ، للدلالة على « مثقفينا » المحدثين واتهامهم . وتمثلت خيانتهم فى زوج — تعهما الذاكرة — من الأفعال التى تسيطر الخيانة عليها :

فقدان للعقيدة يتسم بالانحطاط الذى أصبح يسيطر على المبادئ التى تقررت فى العصر الحديث .

وتسليم طابعه الخور للمكاسب التى ظفرت بهـا حديثاً الاتجاهات التحررية .

ولقد بدأت نزعة الشرور التى تبدّت فى هذا المقام الأخير ، قبل ذلك بقرون : وقتما أنكر « الكتبة » أصلهم بمحاولتهم نقل الصرح الصاعد للحضارة المسيحية الغربية ، من الأسس الدينية إلى الأسس اللادينية . كان هذا هو الفعل الأصلى لصفة « السلوك الأحمق » الذى يعاقب فى زماننا الحالى بجائحة طفقت تتجمع طوال قرون ، تجمعاً يتزايد تزايد الربا المركب .

---

(١) Julien Benda : La Trahison des clercs

فإذا ما رمينا بأبصارنا إلى الوراء عبر بضعة قرون ، ثم ركزناها على رقعة المسيحية الغربية التى تعرف بانجلترا ، سنشاهد هناك « شارداً » فى توماس ولسى Thomas Wolsey — أحد رجال الدين من ذوى العقلية الحديثة المباكرة فى النضوج الذى أقام ساعة تجريده من المنصب ، الحجة على نفسه بأنه مذنب لأنه خدم ربه بكفاية تقل عن خدمته مليكه — ظهر شروده فى صورته السوداء إبان فترة تقل عن خمس سنوات بعد نهايته الشائنة باستشهاد معاصريه : القديس جون فيشر والقديس توماس مور[١] .

(٤) الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة

إن الشعور بالسير على غير هدى ، وهو الطريقة السلبية للإحساس بفقدان « وثبة الارتقاء » ، يعتبر من أشد المحن إيلاما ، التى تعترى نفوس الرجال والنساء الذين يقيض لهم أن يعيشوا حياتهم فى عصر تحلل اجتماعى . ولعل هذا الألم هو قصاص خطيئة عبادة الأوثان التى تتمثل فى عبادة المخلوق عوضا عن عبادة الخالق . .

فإننا قد استكشفنا فعلا فى هذه الخطيئة ، عاملا من عوامل تلك الانهيارات التى منها يتتابع تحلل الحضارات .

ويبدو فى أعين المصابين بشعور الانسياق ، أن المصادفة والضرورة ، هما الشكلين البديلين للقوة التى تحكم العالم . وأنه وإن بدت الفكرتان للنظرة الأولى ، تعارض إحداهما الأخرى ، إلا أنهما تدللان — أن سبر غورهما — على كونهما مجرد سطحين مختلفين لوهم مطابق .

ولقد شبهت فكرة « المصادفة » فى الأدب العصرى إبان فترة

---

(١) ليس جون فيشر وتوماس مور قديسين بالمعنى المألوف من الاصطلاح الدينى ، ولكن الأستاذ المؤلف يشير بهذه العبارة إلى فشل آراء هذين الكاتبين . (المترجم)

الاضطرابات ، بالغزل المهوش الذى تصنعه عجلة الفخّار . وشبهت الفكرة فى الأدب الهلينى خلال فترة الاضطرابات بسفينة تركت — من غير ربان — إلى رحمة الرياح والعواصف[١] .

وتحوّلت فكرة المصادفة عند اليونانيين المغرمين بتجسيم الآراء ، إلى ربة أسموها « سيدتنا ذاتية الحركة » . وأقام لها تيموليون Timoleon محرر سيراكوز كنيسا طفق يقدم لها فيه الضحايا . ونذر لها هوراس أنشودة[٢] .

وإذا ما تطلعنا إلى قلوبنا الخاصة ، نجد أن هذه الربة الهلينية تجلس على العرش بالمثل ، كما يشهد بذلك إقرار العقيدة الوارد فى مقدمة كتاب ه . ا . ل . فيشر عن « تاريخ أوربا » .

« لقد حُرمت من متعة فعلية مثيرة من رجال أكثر حكمة منى وأعظم ثقافة قد تبينوا فى التاريخ : خطة محبوكة ونمطاً مقدّرا . إن هذه الأنماط قد خفيت علىّ ولا أستطيع أن أرى إلا طارئا يتلوه طارئ آخر ، مثلما تتبع الموجة الموجة . ولا يوجد أمام المؤرخ سوى قاعدة واحدة أمينة مدارها ضرورة اعترافه فى بحثه تطور مصائر البشر ، بالدور الذى تؤديه المصادفة والقوى الغير المنظورة » .

وفى خلال القرن التاسع عشر ، استولد هذا الإيمان الغربىّ الأصل — المتصل بتوافر القدرة المطلقة لظاهرة « المصادفة » — منحى فلسفيا يتسم بروحه العملية . وتم ذلك وفقا طفقت الأمور تجرى وفقا لما يشتهيه الإنسان الغربى ، أى وفقا لمبدأ حرية العمل . ووجد هذا المنحى الفلسفى سبيله إلى الإيمان بما يحمله مبدأ المصلحة الذاتية بين ثناياه من استنارة تبلغ مرتبة الإعجاز . فلقد أسفرت تجربة هذا المبدأ إبان القرن التاسع عشر وما

---

(١) انظر أفلاطون « السياسات » ٢٧٢ ج ٦ — ٢٧٣ ج ٤ .

(٢) Horace : Ode, BK-I, Ode 35 : Odiva gratum qnae regis Antium.

أسفرت عنه من نتائج طيبة وقتية ، إلى إعلان أجدادنا بأن « جميع الأشياء تعمل فى انسجام فى سبيل خير هؤلاء الذين يعشقون ربة المصادفة » : وبلغ من تغلغل هذا المبدأ ، أنه حتى بعد ما أخذت الربة تكشّر عن أنيابها — فى مستهل القرن العشرين — ظلت مهبط وحى سياسة بريطانيا الخارجية . وهذه الروح عبرت عنها تعبيراً دقيقاً العبارة التالية التى وردت فى مقالة رئيسية لصحيفة بريطانية كبرى من صحف حزب الأحرار .

« إن بضعة أعوام من السلم هى دائماً بضعة أعوام تكتسب ، وأن حربا تنشب خلال بضعة أعوام ، ويحتمل أن لا تتم أبدا » .

واستشرى هذا الرأى فى أذهان شعب المملكة المتحدة وحكومتها إبان السنوات المشئومة التى بدأت فى خريف ١٩٣١ .

ولا يجوز الزعم بأن مذهب حرية العمل والانتقال(١) ، تتمثل فيه المشاركة الغربية الأصيلة فى ذخيرة البشرية من الحكمة : ذلك لأن المذهب كان العملة المتداولة فى العالم الصينى خلال ألفى سنة مضت : على أن هذه العبادة الصينية للمصادفة ، تختلف عن عبادتنا إياها من ناحية أن العبادة الصينية مستمدة من أصل أقل خسة . ذلك لأن بورجوازى القرن الثامن عشر الفرنسى ، قد آمن بمذهب حرية العمل والانتقال لأنه لاحظ — فى حقد وحسد — وحلل هناءة الإنجليزى المواجه له من الناحية الأخرى . فقاده تفكيره إلى أن البورجوازية قد تزدهر فى فرنسا مثلما تزدهر فى إنجلترا إن حُمل الملك لويس على أن يقتفى مثال الملك جورج فى السماح للبورجوازى بصناعة ما يؤثر صناعته دون أن تفرض عليه أية قيود ، وأن يبعث ببضائعه إلى أية سوق دون أن تفرض عليها ضرائب . أما العالم الصينى المضعضع القوى ، فإنه كان قد ترك نفسه خلال العقود الأولى من القرن الثانى قبل المسيح

---

(١) Laissez-faire, Laissy-Passer

ينساق فى خضم المقاومة ، وتصورها طريقا يقود إلى الحقيقة والحياة ، ولم يتخيلها سبيلا مطروقا يسلكه حصان النقل من مصنع يضج بالحركة إلى سوق حافلة بالعمل[١] .

« تاو [٢] العظيم مثل القارب الذى يندفع
« يستطيع أن يذهب فى هذا الطريق أو فى ذاك »[٣] .

بيد أن لربة « حرية العمل » وجها آخر تعبد فيه تحت اسم « الضرورة » لا تحت اسم « المصادفة » . فما الضرورة والمصادفة إلا طريقين مختلفين لرؤية نفس الشىء . ومن قبيل المثال أن الحركة المشوشة لسفينة خالية من السكان (الدفة) – وتقوم فى نظر أفلاطون مقام فوضى عالم نبذه الله – يمكن أن تكون فى فكر إنسان وهب ملكة المعرفة الضرورية بالعلوم الديناميكية والطبيعية ، تفسيرا مكتملا للسير الرتيب للأمواج والتيارات فى منابت الريح والماء . فإن الروح البشرية عند ما تدرك أن القوة التى تقيم أمامها الصعاب ليست مجرد الجانب السلبي من إرادتها الذاتية ، لكنها شىء فى حد ذاته ؛ عندئذ تتحول سحنة الرب الخفية من الصورة الباطنية أو السالبة التى تعرف فيها باسم « المصادفة » إلى الصورة المنظورة أو الموجبة التى تعرف فيها باسم « الضرورة » . لكن يتم ذلك دون حدوث تحوّل مماثل فى الطبيعة الجوهرية للربة ، أو فى حالة ضحاياها .

ويبدو أن ديموقريتوس Democrius[٤] هو الذى أدخل فى الفكر

---

(١) Waley, A. : The way and its Power صفحة ٣٠

(٢) أن كلمة تاو Tao الصينية تعنى السبيل الذى تمسل الدنيا فيه ، وهو اصطلاح يعنى فى النهاية شيئا يماثل كثيراً جداً « الله فى معنى الاصطلاح الأكثر تجريدا وفلسفة . (المؤلف)

(٣) Tao Te king, Waley, translation الفصل ٣٤

(٤) فيلسوف أتاح له طول حياته (حوالى ٤٦٠ – ٣٦٠ ق . م) أن يبلغ مرتبة الرجال قبل أن تتاح له مشاهدة انهيار الحضارة الهلينية ، وليراقب بعدها عملية التحلل ، فترة سبعين سنة . (المؤلف)

الهليني مذهب القدرة الكلية لفكرة « الضرورة » فى المجال المادى للوجود . لكن يظهر أنه قد تجاهل المشكلات المتصلة بامتداد محيط « الحتمية » من المجال المادى ، إلى المجال المعنوى . وأن الحتمية المادية كانت كذلك أساس الفلسفة النجمية[1] التى اعتنقتها الأقلية المسيطرة للعالم البابلى ؛ ولم يحجم الخلدونيون عن نشر نفس المبدأ إلى حياة أفراد البشر ومصائرهم . ومن المحتمل تماماً أن يكون زنو zeno مؤسس الفلسفة الرواقية ؛ قد استمد بالأولى من المصادر البابلية لا من ديموقريتوس ؛ عنصر الجبرية الفذ الذى لوث مدرسته الفكرية والذى يبدو جايا فى كل موضع فى « تأملات » الإمبراطور ماركوس أوريليوس وهو أعظم مريدى زنو شهرة .

ويبدو أن العالم الغربى الحديث قد روض الأرض البكر ؛ بتعميمه محيط « الضرورة » إلى الميدان الاقتصادى الذى يعتبر حقاً مجالا للحياة الاجتماعية التى أغفلتها أو تجاهلتها كافة العقول التى جابهتها أخطار المجتمعات الأخرى . وفى فلسفة — أو عقيدة — كارل ماركس ، يتمثل بالطبع العرض التقليدى للحتمية الاقتصادية . بيد أنه فى العالم الغربى الحاضر ، يعتبر عدد النفوس التى تشهد أفعالها بإيمانها الشعورى واللاشعورى بالحتمية الاقتصادية ، أعظم عددا بكثير من المؤمنين بالماركسية . ويتضمن هذا العدد ، حشداً من أشباه الرأسماليين .

ولقد نادى كذلك بسيادة فكرة الضرورة فى المحيط المادى ؛ جماعة — على الأقل — من أصحاب مدرسة غربية حديثة تضم علماء النفس القليلى التجارب الذين أصابتهم غواية إنكار وجود النفس — بمعنى الشخصية أو الكل المستقل بعمله — فى غمار استثارة نجاح بدائى ظاهر فى سعى لتحليل عمليات النفس المتصلة بالسلوك النفسانى . وعلى الرغم من حداثة عهد علم التحليل

(١) أى الفلسفة التى أساسها الآراء المتصلة بدراسة تأثيرات النجوم على البشر .
(المترجم)

النفسى ، فإن فى مكنة فكرة « الضرورة » وهى فى بيئة مادة النفس ، أن تدّعى ساعة انتصارها القصير — أن أفظع ساسة العصر الحالى يكرس نفسه لعبادتها :

« إننى أسير فى طريق ، وبى ثقة الجائل النائم ، بأننى أسير فى الطريق الذى أرسلتنى إليه العناية الإلهية » .

اقتبست هذه الكلمات من خطاب ألقاه أودلف هتلر بميونيخ فى ١٤ مارس سنة ١٩٣٦ . وقد بعثت قشعريرة باردة فى أبدان ملايين الرجال والنساء الأوربيين فيما وراء حدود الريخ الثالث (وربما داخلها كذلك) ، الذين ربما لم يتوافر لأعصابهم الوقت الكافى للشفاء من الصدمة التى كانت قد أحدثتها قبل ذلك بسبعة أيام ، إعادة ألمانيا احتلال منطقة الرين عسكرياً .

وثمة صيغة أخرى لمذهب الحتمية النفسانية التى تحطم حدود الفترة الزمنية للحياة البشرية المتفردة على الأرض ، وتحمل أصفاد العلة والمعلول إلى الوراء وإلى الأمام ، كل فى حينه . إلى الوراء صوب ظهور الإنسان لأول مرة هذا على المسرح الأرضى ، وإلى الأمام صوب خروجه النهائى منه ؛ ويتضح المذهب فى مظهرين مختلفين يبدو أنهما برزا مستقل أحدهما عن الآخر :

يتمثل أحد المظهرين فى الفكرة المسيحية عن « الخطيئة الأصلية » .

ويتجلى الآخر فى الفكرة السندية التى يعبر عنها بكلمة « كارما Karma » التى دخلت فلسفة البوذية والهندوستانية على السواء .

ويتفق هذان المظهران للعقيدة الواحدة فى نقطة أساسية مدارها جعل القيد (ومداره العلة والمعلول) يتجه باستمرار من حياة أرضية إلى أخرى . إذ تماثل وجهة النظر المسيحية مع السندية ، فى أن خلق الإنسان الكائن حالياً وسلوكه كليهما ؛ مشروطان بأفعال أنجزت إبان مراحل حياة أخرى — أو فى مرحلة حياة واحدة عاشها الإنسان فى الماضى .

وإذا كانت الفكرتان المسيحية والسندية تتلاقيان إلى هذا المدى ، فإنهما تتباينان فيما هو أبعد من ذلك :

إذ يقرر مذهب « الخطيئة الأصلية » المسيحي بأن خطيئة شخصية ذاتية ترجع إلى الجد الأكبر للجنس البشرى ، قد رتبت على جميع نسله تراثاً من العجز الروحي ، ما كان ليصيبهم لو لم يرتكب آدم الخطيئة . وينبني على هذا أن كل من ينحدر من صلب آدم مقدر له وراثة هذا العار الآدمي ، رغماً عن العزل النفساني وفردية كل نفس على حدة . وهذه هي العقيدة الأساسية للدين المسيحي .

ويعتبر آدم وحده دون بقية الجنس الذى استولده — وفقاً لهذا المبدأ — هو القادر على نقل الخاصية الروحية إلى أعقابه من بدنه .

بينما لا تحتوى فكرة « الكارما » على هذه الصورة الأخيرة لمذهب « الخطيئة الأصلية » . فإن الخصائص الروحية المميزة التي يحوزها أى فرد بفضل أعماله الذاتية ، تنتقل وفقاً لهذا المذهب السندى — دون استثناء من الأول للآخر ، للشر أو للخير . ليس حامل هذا التراث الروحي المتراكم شجرة نسب تمثّل تتابع الشخصيات المتعاقبة المنفصلة ؛ لكنه وصل روحانى يظهر ويعاود الظهور في دنيا الحس في سلسلة من مراحل التجسّد .

ومن رأى الفلسفة البوذية ، أن تواصل « الكارما » هو علة « نقص الأرواح » هذا ، أو التناسخ[1] الذى يعتبر أحد بدهيات الفكر البوذى .

وأخيراً ؛ أحرى بنا أن ننظر بعين الاهتمام إلى الشكل الربوبي للحتمية ؛ شكل لعله أشد الأشكال غرابة وانحرافاً . لما تتضمنه هذه الحتمية التي تنزع إلى وصل نفسها بالربوبية ، من طابع وثنى يحيلها إلى إله حقيقى يعبـد : وما تزال الاتجاهات إلى هذه الوثنية المستترة ، تنسب إلى هدف عبادتها :

---

(١) انتقال الروح بعد الموت إلى موجود آخر . (المترجم)

جميع صفات الشخصية الربانية . فى حين أن هذه الاتجاهات – من الناحية الأخرى – تصر على إضفاء صفة الاستشراف عليها مع التوكيد – بشكل متفاوت – بأن إلاهها يتحول إلى كائن لا يتأتى حصر عدد مظاهره ، حقوداً غير معين الشخصية على غرار « الضرورة الوحشية »[1] .

أما بالنسبة « للأديان الأسمى » التى انبعثت عن البروليتاريا الداخلية للمجتمع السورى ، فإنها الميادين الروحية التى ينزع هذا الضلال الوثنى – المتصل بالربوبية الاستشرافية – إلى التفشى فى أرجائها . ويتجلى مثالاها التقليديان فى فكرة « قسمة ونصيب » التى تفشت فى المجتمع الإسلامى إبان تأخره ؛ وفى مذهب القَدَر ، كما صاغه كالفن Calvin مؤسس ومنظم البروتستانتية ذات الطابع العسكرى والتى انبعثت من جنيف .

يثير ذكر مذهب كالفين مشكلة بعثت الحيرة فى كثير من العقول ؛ فكرة يجب أن نسعى لإيجاد حل لها . فقد أشرنا إلى أن عقيدة الحتمية تعبير عن ذلك الإحساس بالانسياق مع التيـــار الذى يعتبر أحد المظاهر النفسانية للتحلل الاجتماعى . لكنه حقيقة لا تنكر على تفرّد كثير من الناس المعروفين بانتمائهم إلى مذهب الحتمية – تميّزاً واقعياً أفراداً وجماعات – بحيوية فـــذة وبنشاط فريد وبتوافرهم على تحقيق غاياتهم ، بالإضافة إلى الجرأة الفائقة .

« يتوافر فى مذهب كالفين ظاهرة فريدة تتجمع فيها أسباب مناقضة للمثل الدينية العليا ، تلك هى القول بأن فى استطاعة أولئك الذين يتحلّون بالشجاعة ، قلب العالم رأساً على عقب ؛ وهم أولئك الذين يعتقلون فى شعور يتسم حقاً بالسمو ، بأن أمور العالم تسير إلى وضع أحسن مما هو فيه بفضل قوة هم أدواتها المتواضعة »[2] .

---

(١) Saeva Necessitas

(٢) Tawney, R. H. : Religion and the Rise of Cofritalism صفحة ١٢٩

وما مذهب كالفين إلا واحد من أمثلة عدة تتمتع بشهرة سيئة من ناحية علاقتها بالعقيدة الجبرية ؛ التى تتناقض بشكل واضح ، مع سلوك مريديها . فإن المزاج الذى أظهره أتباع كالفين من الجنيفيين[١] ؛ والهيجونوت والهولنديين والاسكتلنديين والإنجليز والأمريكيين ؛ قد أظهره بالمثل القائلون بمذهب الجبرية الربانية أمثال : اليهود المتعصبين ، والعرب البدائيين ، وغيرهم من مختلفى الأجناس . وفى العصور المختلفة أمثال : انكشارية الإمبراطورية العثمانية وأتباع المهدى فى السودان .

ومن أتباع مذهب الجبرية الربانية فى القرن التاسع عشر : أحرار أوربا أتباع مذهب « الارتقاء » ؛ وفى القرن العشرين : الماركسيون الشيوعيون الروس الذين انقسموا إلى طائفتين[٢] تؤمنان بعقيدة جبرية تنبعث عن تفكير ذى طابع يتصل اتصالا وثيقاً بعبادة وثن « الضرورة » .

ولقد خط القلم الألمعى للمؤرخ الإنجليزى الذى اقتبسنا منه فيما سبق ، التشابه بين الشيوعيين وأتباع كالفين :

« لا يعتبر من قبيل الخيال المطبق ، القول بأن كالفين — على نطاق أضيق ولكن بأسلحة لا تقل هولا — قد فعل لبورجوازى القرن السادس عشر ، ما فعله ماركس لبروليتارى القرن التاسع عشر ؛ أو أن مذهب (القَدَر) قد أشبع الاشتهاء إلى ضمان التزام قوى الكون جانب « الطبقة المختارة » . وإن لطّف من حدة الفكر فى عصر مختلف ، نظرية المادية التاريخية . فإنه قد . . علّمهم الإحساس بأنهم شعب مختار ، وبث فيهم الإدراك بمصيرهم داخل التدبير الإلهى وحفزهم على العزم على تحقيقه »[٣] .

(١) الجنيفيون : أتباع كالفين فى مدينة جنيف بسويسرا . والهيجونوت هم البروتستانت الفرنسيون . (المترجم)

(٢) انقسم الماركسيون الروس فى مطلع عهدهم إلى طائفتى البولشفيك (أى الأكثرية) والمنشفيك (أى الأقلية) ، وقد زال أتباع المنشفيك من روسيا تماما . (المترجم)

(٣) صفحة ١٢ Tawney, R. H : Religion and the Rise of Coritalism

ويعتبر مذهب الأحرار الذى شاع خـــلال القرن التاسع
الحلقة التاريخية التى تربط مذهب كالفين الذى انبعث فى القرن
عشر ، بشيوعية القرن العشرين :

« كانت الحتمية مذهبا معروفا تماما فى هذا الوقت : لكن ا
الحتمية عقيدة تبعث القنوط ؟ إن قانون الارتقاء المبارك هو
الذى لا نستطيع التملص منه ؛ هذا النوع من التقدم الذى يت
بالإحصاءات . وما علينا إلا أن نحمد جد طالعنا إذ ألقى بنا فى مث
البيئة ، وأن نسعى جاهدين فى طريق التقدم الذى عينته لنا الطبيع
مناهضة ذلك (وفقا لهذا) كفر لا طائل من ورائه . وبهذ
المنطق توطدت دعائم الارتقاء . ولما كانت إقامة دين يشيع بين
يقتضى فقط أن تقبض إحدى الخرافات على ناصية فكرة فلسف
توافر لخرافة فكرة التقدم من جدّ الطالع الفذ ، ما أخضع لإرا
مذاهب فلسفية على الأقل ؛ تنتسب إلى هيجل وكومت ود
والعجيب فى الموضوع عدم اعتبار أى من هـــذه المذاهب ال
نصيرا صادقا للاعتقاد الذى افترض تأييدها »[1] .

فهل نستنتج من ذلك ؛ أن قبول فلسفة حتمية الطابع ، هو
ذاته ، حافز الثقة والعمل الناجح ؟

هذا غير صحيح .

إذ يبدو أن ما تتردى فيه العقائد الحتمية الطابع — وهى ما
هذا التأثير المثير المنيع — يستند على افتراض جرىء ؛ مداره أ
الخاصة تتوافق مع مشيئة الإله ، أو مع قانون الطبيعة ، أو
« الضرورة » . وهذا ما قيّض لها الانتشار بداهة .

---

(١) صفحة ٨ ، ٩ Inge, W. R : The Idea of Progress

فإن « يا هوى »[١] فى مذهب كالڤين ، رب يذود عن شعبه المختار . فى حين أن الضرورة التاريخية الماركسية ، قوة غير شخصية ، تولّد ديكتاتورية البروليتاريا . ويبعث مثل هذا المبدأ المضرّ ، ثقة بالنصر . وتُعتبر هذه الثقة — وفقا لدروس التاريخ الحربى — إحدى وثبات الروح المعنوية . فهى تُرضى — من ثم — نفسها ؛ بإنجازها النتيجة التى أخذتها قضية مسلمة . ولقد كانت عبارة « انهم يستطيعون ، لأنهم يعتقدون بأنهم يستطيعون »[٢] ، عند ڤرجيل[٣] سر نجاح الفريق المنتصر فى النهاية ، فى سباق القوارب .

وقصارى القول ؛ فى مكنة الضرورة » ؛ أن تصبح حايفا ذا بأس . لكن الإضمار ؛ هو بالطبع ، فعل من أفعال السلوك المتّسم بالحُمق — وإنه لفعل قوى البأس — يدعو منطق الحوادث إلى إبراز نقيضه الناتج عنه . فإن الثقة بالنصر ؛ هى ت التى أدّ إلى هلاك جالوت ، وقتما تحطّمت سلسلة معاركه الطويلة الظافرة ، وانتهت باصطدامه بداود . والمثـــل يقال عن الماركسيين الذين ما انفكوا يعيشون على مفترضاتهم قرابة المائة عام ، كما يعيش أتباع كالڤين على مفترضاتهم قرابة الأربعة قرون ؛ من غير أن يوفقوا إلى وخز « الفقاعة » .

وإذا كان المسلمون إبان مرحلة تاريخهم المبكرة ، قد استطاعوا فى ظل قوة اعتقاد عارم بالنصر — ولم تكن ثمة بادرة توحى به — أن يحققوا أفعالا لا تقل ضخامة عما حققه غيرهم ، إلا أن الزمن قد امتد بهم فيما بعد ليمرّوا بأوقات عصيبة . وإن الضعف الذى بدا منهم أثناء رد الفعل على المحن التى ألمّت بهم فى أيامهم الأخيرة ؛ ليدلّ على أن « الحتمية » لها من القدرة على هدم الحالة النفسية إبان فترة الشدة ، مثلما لها من القدرة على

---

(١) ياهوى : هو الإله عند اليهود . ويرون فيه إلههم وحدهم وأنهم شعبه المختار . (المترجم)

(٢) Passunt quia passe medidiritur انظر Virgil : Aeneid, BK, V,I. 231

(٣) فرجيل الشاعر الرومانى المشهور . (المترجم)

تنبيهها(١) . وذلك على شريطة أن تكون ردود الفعل - التي تتم مجابهتها - في نطاق مجال استجابة قادرة .. فإن الجبري المتحرر من الأوهام ، الذي علّمته التجربة القاسية أن إلهه ليس - مع ذلك - في صفه ؛ محكوم عليه ببلوغ النتيجة المدمّرة ، ومدارها أنه هو ورفيقه الجنين مصداقا لما يقوله الشاعر :

غدونا لدى الأفلاك ألعابَ لاعب
أقول مقالا لست فيه بكاذبِ
على نَطع هذا الكون قد لعبت بنا
وعُدنا لِصَندوق الفنا بالتعاقُب(٢)

وعلى حين يعتبر الشعور بالانسياق إحساسا سلبيا ، فإن له صورة إيجابية تناقضه ، تتمثل في الشعور بالخطيئة الذي هو رد فعل بديل لإحساس بالهزيمة المعنوية يماثله . ويختلف الشعور بالخطيئة من ناحيتي الجوهر والروح عن الشعور بالانسياق اختلافا حادا للغاية . ذلك لأنه على حين أن للشعور بالانسياق تأثير الخدّر أو يقطر داخل النفس رضا خداعا باسم يفترض توطنه داخل الأحداث الخارجية البعيدة عن متناول الضحية ؛ فإن للشعور بالخطيئة تأثيرا حافزا بما يقرره للمخطئ بأن الإثم ليس - مع ذلك - بالشيء الخارج عن سلطانه . وبالحرى فإنه يخضع لإرادته ؛ إن شاء تنفيذ غرض

---

(١) ردنا على ذلك :

(أولا) أن المسلمين لما امتحنهم ربهم ، لم يفقدوا عزتهم أو كرامتهم .

(ثانيا) أن المدة التي أصبح فيها المسلمون مسودين في بلادهم أقصر كثيرا مما يظن . وها هي البلاد الإسلامية تتحرر الواحدة بعد الأخرى بما يبشر بنهضة المجتمع الإسلامي نهضة شاملة . بل يمكننا القول بأن إشعاعات التحرر الإسلامي ، قد أفاضت بنورها على كافة بلاد أفريقيا وآسيا ، حتى أصبح النصف الثاني من القرن العشرين يتسم باليقظة الأسيوية الأفريقية العارمة . (المترجم)

(٢) رباعيات عمر الخيام .

الإله وأن يجعل نفسه جديرا برضائه . وهنا يكمن الاختلاف كله بين حالة المجاهدة اليائسة للخطيئة التى خاضها كريستيان ذات مرة ، والدافع الأصيل الذى فاجأه يجرى هناك صوب موضع « الباب »[١] .

بيد أن ثمة مع ذلك ، نوعا من « الأرض الغير المملوكة لأحد » حيث يتداخل المزاجان ؛ وهذا ما تفترضه الـ « كارما » السندية بجلاء . ذلك لأنه على الرغم من تصور الـ « كارما » – من ناحية – كتراث روحى ، مثلها مثل الخطيئة الأصلية ، تنوء تحته النفس دون أن يكون لها حق إنكاره ؛ فإن تكدس فعل الـ « كارما » – حسبما تكون حالته فى أية لحظة معينة – قد يتزايد حجمه أو يتناقص ، بفعل إرادى حاسم يقوم به الفرد الذى يضم فى نطاقه النفس فى أية لحظة معينة .

ويتأتى تطبيق نفس السبيل الذى يقود إلى خطيئة يتأتى كبح جماحها ، من مصير لا يمكن تلافيه على كافة أوضاع أسلوب الحياة المسيحى . إذ تتاح للنفس المسيحية سبيل تصفية نفسها من شائبة الخطيئة الأصلية – التى هى ميراثها عن آدم – بابتغاء رضوان الله والسعى لبلوغه والفوز به ، بفضل وسيلة واحدة هى الاستجابة الربانية للجهد البشرى .

وتتيسر استبانة صحوة الشعور بالخطيئة فى الفكرة المصرية عن الحياة بعد الموت ، فى سياق عصر الاضطرابات المصرى . إلا أن ميدانه التقليدى ؛ محنة أنبياء بنى إسرائيل ويهوذا إبان عصر الاضطرابات السورى . فلقد كان المجتمع الذى انبعث هؤلاء الأنبياء من حشاه وقت كشفهم حقائق رسالتهم ونقلهم إياها إلى أعضائه ، يرقد شقيا محروما فى قبضة النسر الأشورى . ومن ثم يعتبر إنكارهم الواضح نسبة شقائهم ، إلى عمل قوة مادية خارجية لا تقاوم ؛ عملا روحانيا فذا يتسم بالبطولة ، بذله هؤلاء الأنبياء للنفوس المعذبة التى تردى كيانها الاجتماعى فى هذه الورطة المرعبة . وعوضا عن ذلك ، قرروا نبوءة مدارها أنه رغما عن المظاهر الخداعة ، فإن خطيئتهم

---

(١) أى يعدو بغية النجاة من الخطر . (المترجم)

الذاتية هي سبب مصائبهم ؛ وبالحرى ينحصر فى أيديهم أنفسهم الفوز بخلاصهم .

وتعتبر هذه الحقيقة المنقذة — التى استكشفها المجتمع السورى إبان محنة انهياره وتحلله الذاتيين — ميراثاً انحدر عن أنبياء إسرائيل ، وأذاعه فى زى مسيحى ، الجناح السورى من البروليتاريا الداخلية للعالم الهلينى . ولولا هذا التثقيف الصادر عن مصدر أجنبى والذى يقوم على مبدأ سبق أن أدركته النفوس السورية ويخالف الأصول الهلينية تماماً ؛ لما قُيّض للمجتمع الهلينى قط التوفيق فى تحصيل درس يتباين هذا التباين مع مزاجه الأصيل . وقد يجد الهلينيون — فى نفس الوقت — صعوبة أعظم مما سبق أن وجدوه ، فى أن يجعلوا هذا الكشف السورى حبيباً إلى قلوبهم ، لو لم يتحركوا هم صوب هذا الاتجاه ، بدافع من أنفسهم .

ويتيسر تتبع هذه الصحوة الوطنية للشعور بالخطيئة فى التاريخ الروحى للهلينية قبل امتزاج المجرى الهلينى الخفيف ، بتيار سورى ؛ فى نهر المسيحية .

ولو كنا على صواب فى تفسيرنا أصل الأورفية[1] وطبيعتها ومقصدها ؛ فإن ثمة دليلا على أن بضعة نفوس هلينية على الأقل — حتى قبل انهيار الحضارة الهلينية — قد بلغ تألم وجدانها لوجود فراغ روحى فى تراثها الثقافى الوطنى ، حداً جعلها تتجه إلى اصطناع عمل فذ يقوم على اختراع عقيدة « أسمى » ، فشلت الحضارة المينووية — التى تنتسب إليها الهلينية — فى تزويدها بها .

وأيا ما تكون الحال ؛ فإنه من المؤكد أن جهاز العقيدة الأورفية قد استخدم وأسىء استخدامه — فى نفس الجيل الأول بعد انهيار عام ٤٣١ ق . م — رجاء إتاحة الرضا للنفوس التى وصمتها الخطيئة فعلا ، وكانت تتلمس — وإن كانت عمياء — سبل التحرر منها . ولدينا شاهد على ما نقول عبارة من أفلاطون تشابه ما تدفق فيما بعد من قلم لوثر :

---

(١) نسبة إلى أورفوس : وقد سبق لنا شرح الاصطلاح فى موضع سابق . (المترجم)

« إن ثمة الدجالين والمستنبئين الذين يتجرون للأغنياء بسلعهم التافهة ، ويبثون فيهم الاعتقاد بأن هؤلاء الأفاقين يستحوزون على قوة مستمدة من الآلهة تنيلهم إياها القرابين والتعاويذ ؛ وتمكنهم باستخدام ضروب اللهو وإقامة الولائم ، من الإبراء من أية خطيئة ارتكبها الفرد بشخصه أو أحد أجداده . . . وأنهم ليتبعون هذه الكراسات (المتصلة بموسايوس[١] وأورفوس) إبان ممارستهم شعوذتهم ، ويقنعون الحكومات — بله الناس العاديون — بإمكان التطهر من الخطيئة بتقديم القرابين وممارسة ألعاب صبيانية . ويصرّون فضلا عن ذلك على أن هذه « الطقوس » (كما يدعونها فى هذه الصلة) فعّالة للأموات — كما هى للأحياء ، قائلين : أن (الطقوس) تحررنا من عذاب الدنيا وراء القبر ، فى حين ينتظرنا مصير رهيب إن أهملنا تقديم القرابين هنا وهناك »[٢] .

وتبدو من النظرة الأولى أن الشعور الوطنى بالخطيئة فى نفوس الأقلية الهلينية المسيطرة لا يبشر بالخير . على أننا نجد بعد انقضاء أربعة قرون شعوراً بالخطيئة ذا طابع هلينى بحت . خطيئة تطهرت فى نيران المكابدة إلى أبعد من جميع ما هو معروف . ذلك لأن ثمة نغمة غالبة فى صوت الأقلية الهلينية المسيطرة للعصر الأغسطى نسمعها فى أشعار فرجيل . ومصداقاً لذلك تعتبر العبارة المعروفة جيداً فى نهاية القصائد الفلاحية الأولى[٣] ، صلاة للخلاص من مكابدة الشعور بالانسياق ، وتأخذ شكل الاعتراف بالخطيئة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه رغماً عن أن الخطيئة التى يتضرع بسببها الشاعر إلى السماء راجياً الخلاص ، هى إسمياً « خطيئة أصيلة »

---

(٢) عالم لغوى يونانى كتب حوالى القرن الخامس الميلادى شعرا غزليا يصف فيه الحوادث الغرامية لهيرو (وكان بطلا من أبطال الأساطير اليونانية) . (المترجم)

(١) صفحة ٣٦٤ ب — ٣٦٥ ا من الجمهورية لأفلاطون .

(٢) Georgie : ديوان من الشعر الوصفى الفلاحة لفرجيل الشاعر الرومانى . (المترجم)

متوارثة عن جد أسطورى من طروادة ، وتدفع حمية العبارة كلها القارئ للاعتقاد بأن هذه هي استعادة وأن الخطيئة التي يكفّر عنها الرومانيون إبان فرجيل ، هي التي طفقوا يرتكبونها تدريجيا إبان فترة القرنين من التبذّل ؛ وهي فترة ولجوها وقتما انغمروا فى حرب هانيبال .

أصبحت الروح التي تتردد من خلال هذه العبارات إبان طرف من السنة التي خطّ فيها فرجيل شعره ، غالبة فى طبقة من طبقات المجتمع الهليني التي كانت بالكاد قد وقعت فى مجال إشعاع المسيحية . وتُبدى دراسة الماضى بجلاء – إن أجيال سنيكا وبلوتارخ وابيكتيتوس وماركوس أوريليوس ؛ كانت تعد قلوبها – عن غير قصد – لتلقى استنارة تدنو ، منبعثة من مصدر بروليتارى ؛ ما كان المتحذلقون الهلينيون يتوقعون منها انبعاث شىء صالح .

وإننا لنجد تهيئة القلب تهيئة غير مقصودة ، والاعتراض المتسم بالحذاقة مما تقدمه الاستثارة البروليتارية ؛ نجد ذلك (فى الحالة التي أخذناها) مصورة فى دراسة تتصف بالفراسة والمجانسة الملحوظتين أجراها روبرت براونج لشخصية كليون : وكليون هذا ، فيلسوف يمثل الأقلية المسيطرة الهلينية فى القرن الأول الميلادى . ولقد أوصلته دراسة التاريخ لحالة عقلية وصفها بأنها حالة قنوط شديد . ومع ذلك فإنه عندما اقترح الرجوع إلى رجل اسمه بولوس ، لم يكن لذلك عنده من أثر سوى استفزازه غضباً على كرامته :

« إنك لا يمكنك التفكير فى يهودى همجى وقح »

« وهو ما برهن بولوس على كونه إياه – إنسان مختون »

« يستحوز معرفة يحجبها عنا »[1] ؛

وليس المجتمعان الهليني والسورى – بكل تأكيد – هما الحضارتين الوحيدتين اللتين تمت فيهما صورة الشعور بالخطيئة ، من خلال صدمة رؤية صرح اجتماعى قديم ينهار خراباً . ولعلنا نتساءل فى النهاية – من غير محاولة تصنيف قائمة مثل هذه المجتمعات – هل من الضرورى إضافة المجتمع الغربى إليها ؟ »

إن الشعور بالخطيئة هو بلا ريب ؛ إحساس مألوف تماماً عند الرجل الغربى الحديث ، إحساس فرض على الغربيين فرضاً . لأن الشعور بالخطيئة مظهر أساسى للدين العالمى « الأسمى » الذى توارثوه[2] . على أنه يبدو فى هذه الحالة أن تلك الألفة ؛ لم تعد مؤخراً ، تبعث من الازدراء بقدر ما تبعث على النفور منه . ويُبدى التباين بين هذا المزاج للعالم الغربى الحديث والمزاج المضاد للعالم الهلينى إبان القرن السادس قبل الميلاد ، نفحة من صلابة الرأى الكامنة فى الطبيعة البشرية . فإن المجتمع الهلينى وقد بدأ حياته بتراث دينى قاحل هزيل قوامه مجمع آلهة[3] همجى ؛ بات مدركاً فقره الروحى فطفق يبذل الجهد لسد الفراغ باختراعه « ديناً أسمى » متمثلا فى العقيدة الأورفية ؛ وهى عقيدة من النوع الذى ورثته بعض الحضارات عن أسلافها . ويتبدى بوضوح من استقراء مظهر الطقوس الأورفية ومذهبها ، أن الشعور بالخطيئة هو الإحساس الدينى الذى انحصر فيه – قبل كل شىء – توق الهلينيين إبان القرن السادس ، لإيجاد متنفس طبيعى له .

وعلى نقيض المجتمع الهلينى ؛ فإن المجتمع الغربى هو أحد الحضارات[4]

---

(١) لا يضعف استخدامنا الشاعر كلون الذى اخترعه برونتج لإثبات الفقرة السابقة ، أن المشكلة اللاهوتية التى وجهها الملك بروتوس إلى كليون ، لم تكن تتعلق بالشعور بالخطيئة ، بل كان مدارها خلود النفس . (المؤلف)

(٢) أى المسيحية . (المترجم)

(٣) هو البانثيون أى مجمع الآلهة عند اليونانيين القدماء . (المترجم)

(٤) ومنها الحضارة الإسلامية . (المترجم)

التى قيّض لها أن تترعرع فى ظل فيض من « دين أسمى » وفى نطاق ينعة عقيدة دينية عالمية . ولربما يكون السبب الذى يدعو الإنسان الغربى فى غالب الأحيان إلى الحط من قدر عقيدته المسيحية حتى ليكاد أن يصل به الحال إلى نكرانها ، مداره أن حق الإنسان الغربى فى نسبته إلى المسيحية أمر مسلّم به دائماً .

وحقاً ، فإن عقيدة الهلينية التى لبثت منذ عصر النهضة الإيطالية بهذه الفعالية عنصراً مثمراً فى مناح كثيرة فى الثقافة الغربية اللادينية ، قد نمّاها وكفلت لها الحياة نوعاً ما ، فكرة تقليدية عن الهلينية كأسلوب للحياة يمزج — فى جلال — جميع الفضائل الغربية الحديثة ومعارف الغرب المكتسبة ، بسعى فطرى لم يبذل فيه جهد للتحرر من ذلك الشعور بالخطيئة الذى يجهد الآن الإنسان الغربى لتطهير تراثه الروحى المسيحى منه . وليس من قبيل المصادفة إذاً ، أن نجد المذاهب المختلفة للبروتستانتية المعاصرة ، بينما تحتفظ بفكرة الجنة ، تطرح فى هدوء ، فكرة الجحيم ، وأسلمت فكرة الشيطان إلى هجائينا وممثلى الكوميديا .

ونجد فى الوقت الحاضر أن عقيدة العلم الطبيعى ، قد دفعت عقيدة الهلينية إلى الانزواء . بيد أنه لم يترتب على ذلك استرجاع مبدأ الشعور بالخطيئة ، مكانته السابقة . فإن مصلحينا الاجتماعيين هم والعاطفين على آلام البشرية ، على استعداد تام لاعتبار خطايا الفقراء مظاهر لسوء حظ مرده ظروف خارجية ؛ فما الذى يمكنك أن تتوقعه من إنسان يجد نفسه قد نشأ فى دسكرة[1] . كما أن المحللين النفسانيين مستعدون بالمثل ، لاعتبار خطايا مرضاهم مظاهر سوء حظ مرده ظروف داخلية وعقد نفسية واضطرابات عصبية . وبالأحرى تفسير الخطيئة وتعليلها بأنها مرض . ولقد تنبأ صمويل

---

(١) الدسكرة : الحى القذر ، حى الفقراء . (المترجم)

بتلر بخط هؤلاء التفكيرى العلماء فى مؤلفه Erewhon ، حيث كان على مستر نوسنير Nosniyer المسكين أن يرسل للعائلة مقوّماً (أى طبيباً) لأنه كان يعانى وطأة مرض الاختلاس .

فهل سيتوب الإنسان الغربى الحديث ويتراجع عن سلوكه الأحمق ، قبل أن تدركه نقمة الجائحة ؟

لم يحن الأوان بعد للإجابة على هذا السؤال . إلا أننا قد نمعن النظر — قلقين — فى مرأى حياتنا الروحية المعاصرة ، لنعثر على أية أعراض لعلها تهيئ أساساً للأمل، بأننا فى سبيل استرداد الانتفاع بخاصية روحية ؛ ما برحنا نبذل جهدنا لإجدابها .

(٥) الشعور بالابتذال

١ — السوقية والبربرية فى طرائق السلوك :

يعتبر الشعور بالاختلاط ، بديلا سلبى الطابع لذلك الشعور بالنمط الإنشائى الذى يترعرع بنفس المدى مع ارتقاء الحضارة . وتأخذ الحالة الذهنية هذه ؛ معنى عمليا فى فعل قوامه الاستسلام الذاتى إلى بوتقة الانصهار . وفى خضم عملية التحلل الاجتماعى ، نجد مزاجاً مطابقاً يكشف عن نفسه فى كل مجال من مجالات عمل الشخصية الاجتماعية : فى الدين والأدب واللغة والفن . كما يكشف عن نفسه كذلك فى المجال الأوسع مدى والأشد غموضاً : مجال السلوك والعادات .

ومن الأوفق البدء بالعمليات فى الميدان الأخير .

ولربما نميل خلال بحثنا عن الدليل المتصل بهذه النقطة ، أن نُولى وجهنا — مع أكبر قدر من التطلع — صوب البروليتاريا الداخلية . ولقد سبقت لنا ملاحظة أن عذاب الاقتلاع من الجذور هو النغمة الشائعة

والمميزة للبروليتاريات الداخلية . ولقد ينتظر حدوث هذه التجربة المروعة للاقتلاع الاجتماعى : إلا أنه يُتوقع قبل كل شىء ، حدوث تجارب أخرى تستولد شعورا بالاختلاط فى نفوس أولئك الذين يجبرون على الخضوع لها .

لكن لا تؤيد الوقائع هذا الترقب البدىء[1] :

ذلك لأن المحنة التى تتعرّض لها البروليتاريا الداخلية ؛ تبدو أعظم ما تكون عند ما تُصيب تلك الدرجة المثلى من الشدّة ، التى تتحوّل عندها إلى عامل مثير . فنجد — من ثم — الشعب الذى أقطع وأبعد عن وطنه واستُرق — ومن هذا الشعب تتكون بروليتاريا داخلية — لا يقتصر الأمر على استمساكه ببقايا تراثه الاجتماعى بقوة راسخة . فإن البروليتاريا الداخلية تتقاسم فى واقع الأمر هذا التراث مع الأقلية المسيطرة التى كانت تتوقع فى بداية الأمر أن تفرض نمط ثقافتها الذاتية على غوغاء الافاقين والشاردين الذين أمسكت بهم فى أحابيلها ، وأخضعتهم لعبوديتها .

وما يزال هناك ما يبعث على العجب أن نشاهد مرة أخرى — كما نشاهد الآن — الأقلية المسيطرة تبدى ، مقبلة على التأثير الثقافى للبروليتاريا الخارجية . ومبعث العجب : أن هذه العصابات الحربية الشرسة ، يفصلها عن الأقلية المسيطرة حدود حربية ، وأنه يتوقع أن يفتقر تراثها البربرى الاجتماعى إلى الفنون والهيبة اللذين ما يزالان يلتصقان بجلاء حتى بأسمال تلك الحضارات الرخصة ، التى تعتبر البروليتاريا الداخلية وريثة لها فى أشخاص بعض صفوفها .

ومع ذلك فإننا نجد فعلا — كأمر واقع — أن من بين التجزؤات الثلاثة التى ينزع المجتمع المتحلل إلى الانشقاق إليها ؛ تستسلم الأقلية المسيطرة بأسرع ما يكون إلى الشعور بالاختلاط . وهنا يقود — فى النهاية — هذا التحول

---

(١) البدىء : الأولى ، سابق على التجزئة . (المترجم)

أو الطابع البروليتارى والذى يطرأ على الأقلية المسيطرة ، إلى اختفاء ذلك الانقسام فى الجسم الاجتماعى . ويعتبر ذلك قرينة الانهيار الاجتماعى وجزائه : وتكفّر الأقلية المسيطرة فى خاتمة المطاف عن خطاياها ، بسدّها ثلمة هى من عمل يديها . وعندئذ تغرق نفسها فى خضم بروليتارياتها الخاصة .

ولقد يكون من الملائم ، أن نُلقى نظرة على جانب من الدليل على النزعة التلقائية لبناة الإمبراطوريات ، قبل محاولتنا متابعة سبيل هـذه العملية للتحول البروليتارى الطابع ، على خطّيها المتوازيين . أى النزوع إلى التبذّل الذى ينجم عن مخالطة البروليتاريا الداخلية ، والنزوع إلى البربرية الذى ينجم عن مخالطة البروليتاريا الخارجية . ويبرر هذا الإجراء ، احتمال تفسيره نوعا ما فى تفسير مبناه أن الدول العالمية التى يعتبر بناة الإمبراطوريات مهندسيها ؛ هى فى معظم الأحوال نتاج الغزو الحربى . وبالتالى يصبح فى وسعنا التطلع إلى أمثلة عن النزعة التلقائية ؛ فى محيط الأسـلوب الفنى الحربى :

فإن الرومانيون — مثلا — مصداقا لقول بوليبيوس Polybius — قد تبذو عُدّة سلاح فرسانهم الوطنى واتخذوا عدّة اليونانيين الذين كانوا بسبيل غزو بلادهم .

واستعار مؤسسو الإمبراطورية الحديثة[1] بطيبة ، الحصان والعجلة — كسلاح حربى — من خصومهم « الهكسوس » الذين كانوا فى الأصل بدوا .

واستعار العثمانيون الظافرون البنادق ، وهى اختراع غربى .

واستعار العالم الغربى — بعد تحوّل التيـار فى الصراع بين الغرب والعثمانيين — من العثمانيين سلاحهم البتّار الهائل ؛ ألا وهو النظام الصارم ،

---

(١) تبدأ الإمبراطورية الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة ومؤسسها أحمس الأول الذى استكمل تحرير مصر من ربقة الهكسوس . (المترجم)

والمشاة المحترفين المنتظمين فى وحدات والمدربين أعلى تدريب .

على أن مثل هذه الاستعارات ، لا تنحصر فى الفن الحربى . ومن قبيل ذلك :

ما لاحظه هيرودوتس من أنه رغما عن إعلان الفرس أنفسهم أسمى من كافة جيرانهم ، إلا أنهم قد استعاروا لباسهم المدنى من الميديين كما أوغلوا فى طائفة من الملذات الشاذة — ومنها الرذيلة الجنسية الخارجة على الطبيعة — التى استعاروها من اليونانيين .

وما أثبته « الأوليجاركى »[١] القديم فى سياق انتقاداته اللاذعة لأثينى القرن الخامس من أن مواطنيه يتعرضون بسبب سيطرتهم على البحر ؛ إلى انحطاط بسبب مخالطتهم العادات الأجنبية ، أفظع مما يشاهد فى المدن التى بها جماعات يونانية أقل عزيمة وإقداما .

أما بالنسبة للحضارة الغربية — فإن من يدخن التبغ ، إنما يحتفل بذكرى إبادة سكان شمال أمريكا الأصليين من الهنود الحمر[٢] . كما أن الغربيين وهم يشربون البن والشاى ويلعبون البولو ويرتدون البيجاما ويستحمون فى الحمامات التركية ، يحتفلون بذكرى تبوء التاجر الأفرنجى عرش قيصر الروم العثمانى ، وقيصر الهند المغولى . وبالمثل فإن استخدام الغربيين موسيقى ورقص الجاز ، احتفال بذكرى استعباد الغربيين للزنجى الأفريقى ونقله عبر الأطلسى ليعمل فى المزارع على الأرض الأمريكية محل الصيادين من الهنود الحمر الزائلين .

وعسانا الآن بعد هذا السرد الاستهلالى لطائفة من الأدلة ذات الشهرة

---

(١) الأوليجركى القديم : اسم لمؤلف مجهول لرسالة سياسية تنسب إلى أكسينافون ، لكن يقطعون بأنها ليست له . (المترجم)

(٢) باعتبار أن الحضارة الغربية قد استعارت تدخين التبغ عن الهنود الحمر . (المترجم)

السيئة عن تلقائية الأقليـــة المسيطرة فى مجتمع متحلل ، أن نواصل عرضنا لموضوعى :

تبدّل الأقلية المسيطرة ؛ تبدّل مظهره مخالطتها ساميا ، بروليتاريا داخلية تقع — من الوجهة المادية — تحت رحمتها .

ونزوع الأقلية المسيطرة إلى البربربة ، بسبب مخالطتها — حربيا — بروليتاريا خارجية ، تتجنب الوقوع تحت نير الأقلية المسيطرة .

وعلى حين أن اتصال الأقلية المسيطرة بالبروليتاريا الداخلية يتم سلميا ؛ بمعنى أن البروليتاريين قد تم إخضاعهم فعلا ؛ فغالبا ما يحدث أن يتخذ الاتصال الأول بين الفريقين — باعتبارهما حكاما ومحكومين — شكل إدخال المجندين من البروليتاريا الداخلية فى نطاق الحاميات العسكرية الدائمة لبناة الإمبراطورية وجيوشهم العاملة . فإن تاريخ جيش الإمبراطورية الرومانية العامل — ويعتبر مثلا — هو قصة إضعاف الطابع الأصيل للجيش الرومانى . وهى عملية تعاقبت أدوارها ، وبدأت تقريبا غداة تحويل أغسطس الجيش الرومانى من قوة رومانية خاصة ينتظم فيها هواة القتال ، إلى قوة دائمة ينخرط فيها المقاتلون المتطوعون المحترفون .

وهكذا تم فى غضون بضعة قرون ، تحويل جيش كانت الأقلية المسيطرة هى مصدر فى أغلب الأحيان ، إلى جيش أصبحت البروليتاريا الداخلية مصدر قوته . ثم تطور الحال فأصبحت البروليتاريا الخارجية فى المرحلة الأخيرة ، هى بالمثل مصدر قوته إلى أبعد حد . والمثل يقال — مع وجود اختلافات — عن جيش الدولة العالمية للشرق الأقصى ، التى أعاد تشييدها خلال القرن السابع عشر الميلادى ، بناة الإمبراطورية من المانشو . ويصدق الأمر كذلك بالنسبة لتاريخ الجيش العربى العامل ، فى غضون خلافتى الأمويين والعباسيين .

وإذا ما حاولنا تقدير الدور الذى أدته زمالة السلاح فى حطم الحاجز

بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الداخلية ؛ ستجد — كما نتوقع — أن لهذا العامل خطورته القصوى فى تلك الحالات التى يمثّل فيها الأقلية المسيطرة ، بناة إمبراطورية لم يقتصر الحال على كونهم رجال حدود ، لكنهم ينتمون إلى الجانب الطالح من الحدود . وبالحرى يكون بناة الإمبراطورية من أصل همجى . ذلك لأنه من المرجح أن يكون الفاتح الهمجى بالفعل ، أشد من رجال الحدود تقبلا لمباهج الحياة التى يجدها شائعة بين ظهرانى الشعوب التى يُخضعها لسلطانه . ومصداقاً لهذا الرأى ؛ ترتبت هذه النتيجة على زمالة السلاح بين المانشو ورعاياهم من الصيبيين المقيمين فى منشوريا ؛ إذ قد ذاب المانشو تماماً فى الرعايا الصينيين .

ويتأتى بالمثل تتبع نفس نزعة التخلّى عن انعزالية ذات طابع شرعى ، ليحل مكانها تكافل[1] ذو طابع واقعى فى تاريخ العرب المسلمين الأوائل ، غزاة جنوب غرب آسيا . فإنهم قد استعادوا — عن غير قصد — الدولة العالمية السورية التى كانت قد اتخذت صورتها فى بدء الأمر فى شكل إمبراطورية أخيمينية انتُزعت من سلطانها قبل الأوان .

فإذا ما تحولنا شطر تواريخ الأقليات المسيطرة التى انبعثت — مثلما تنبعث الأقليات المسيطرة عادة من بين حظيرة المجتمع المتحلل — لن نتمكن من إسقاط العامل الحربى من الحساب ، لكن سنجد هنا استطاعة المشاركة فى العمل ، الحاول محل زمالة السلاح . ومصـــداقاً لذلك ، لاحظ « الأوليجاركى القديم » تعذّر التفرقة فى شوارع أثينا جوابة البحار ، بين الأرقاء المنحدرين من أصل أجنبى وبين المواطنين من الطبقة الدنيا . ولقد أصبحت إدارة أملاك الأرستقراطيين إبان الأيام الأخيرة للجمهورية الرومانية — مع ما تتضمنه هذه الإدارة بين ثناياها من استخدام أعداد ضخمة من الناس وتنظيم إدارى محكم — جزاء يحصل عليه الرجال الذين

(١) التكافل : العيش تكافلا فى دنيا الإنسان والحيوان . (المترجم)

يحررهم السيد ذو السلطة الاسمية . ولما أصبحت أملاك قيصر مشاركة بالفعل بينه وبين مجلس الشيوخ والشعب ، مشاركة تهدف إلى إدارة الدولة الرومانية العالمية ، غدا رجال قيصر المحررين وزراء مجلسه . وتمتع الرجال الذين أعتقهم الامبراطور فى مطلع الامبراطورية الرومانية ، بقسط موفور من السلطة تمكن مقارنته بما تمتع به أرقاء السلطان العثمانى ، أولئك الذين تبوأوا مكانا عليّا — وأن كان بالمثل مزعزع الدعائم — بلغ أوجه فى تقلدهم منصب الوزير الأكبر .

ويتأثر كلا الفريقين فى جميع حالات التكافل بين الأقلية المسيطرة والبروليتاريا الداخلية . ومناط التأثير ، دفعهما كليهما إلى الحركة ، على سبيل يقودهما إلى التحوّل إلى الطبقة الأخرى . ومن ثم تتحرك البروليتاريا الداخلية على مستوى « السلوك » السطحى الطابع ، صوب التحرر ؛ بينما تتحرك الأقلية المسيطرة صوب التبذّل . وتكمل كلتا الحركتين الأخرى ، وتحدثان فى جميع الأوقات .

بيد أن ثمة فارقا مداره أنه بينما يعتبر تحرر البروليتاريا أثناء المراحل الأولى ، عملا أكثر وضوحا ؛ يثير انتباهنا ، تبذّل الأقلية المسيطرة إبان الفصول التالية . ويطالعنا فى هذا المجال ، المثال التقليدى للتبذّل إبان « العصر الفضى » للطبقة الرومانية الحاكمة : وهو مثال تتبدى فيه مأساة خسيسة سُجلّت تسجيلا لا يبارى — أو رسمت رسما هزليا — فى أدب لاتينى ما يزال يحتفظ بمستواه العبقرى فى فن الهجاء ، بعد ما فقد آخر نسمات إلهامه فى كل أسلوب آخر . ويتيسر تتبع هذا التدرج المبتذل الرومانى ، فى سلسلة من الصور القبيحة ، لم يقتصر الحال فيها على تمثيل الشخصية الأساسية فى صورة رجل أرستقراطى ، بل تجاوزتها إلى تمثيل شخصية أباطرة مثل كاليجولا ، نيرون ، كومودوس ، كاراكالا .

ونقرأ فى جيبون عن كاراكالا ما يلى :

« كان سلوك كاراكالا شامخا وحافلا بالفخار . لكنه ينسى بين الجنود

كل شيء حتى ما لمكانته من جلال أصيل . فلقد كان يشجع مزاحهم الوقح ، ويهمل الواجبات الأساسية لقائد ، وينزع إلى محاكاة لباس الجندى العادى وسلوكه .

ولم يكن منهاج كاراكالا فى الاتجاه صوب « البروليتاريا » بالشيء المثير ، أو كونه مرضا من الأمراض ؛ مثلما كانت حال نيرون الفنان الموسيقى الشعبي أو مثل كومودوس المجالد[1] . لكن لعل له مغزى أعظم كظاهرة اجتماعية . وإن إمبراطوراً يتخذ ملجأ الثكنات حيث تتوافر الحرية البروليتارية ، وينبذ حرية الأكاديمية والرواق التى ألفاها لا تطاق لعلمه بأنه ولد فيها ؛ لظاهرة تطالعنا فى الأقلية المسيطرة الهلينية فى مرحلتها الأخيرة ، وتبين مدى جحود التراث الاجتماعى .

وفى هذا التاريخ – أى عشية الانتكاس التالى للمجتمع الهلينى عقب فترة الانتعاش الأغُسطى – حدث بالفعل أن تغيرت الأحجام والقوى والسرعات النسبية لتيارى الفاعلية إلى صالح التيار البروليتارى . وهما تياران يتباينان تباينا تبادليا ويتدفقان على التوالى من الأقلية المسيطرة ومن البروليتاريا الداخلية . وبلغ التغيّر درجة قد يجد عندها مراقب العصر الحديث نفسه فى حيرة من أمره ؛ وتجعله يظن بأنه يراقب حركة تيار مفرد أصبح يعكس اتجاهه فعلا .

فإذا حولنا أنظارنا الآن إلى عالم الشرق الأقصى ، سنجد الفصل الأول من قصتنا المتصلة بالنزعة البروليتارية للطبقة الرومانية الحاكمة ، يعيد نفسه . وإنه ليتمثل فى الملاحظة التالية التى كتبها عالم غربى يبين فيها تحوّل صراع التحرر ، ناحية الانسياق وراء النزعة البروليتارية ، فى نطاق

---

(١) المجالد : المصارع عند الرومان . (المترجم)

محيط الجيل الواحد الذى يفصل الصينى ذا النزعة المانشوكية ، عن ابنه الذى تحول إلى الاتجاه البروليتارى :

« كان من الميسور فى منشوريا ، لصينى من الصين الأصلية ، أن يتطور إبان فترة حياته إلى مانشوكى وهو بعيد بعداً شاسعاً عن الصين . ولقد عرض لى فى تجاربى مثال عن هذه الظاهرة وقتما تعرفت بضابط عسكرى صينى ووالده العجوز . وكان الوالد قد ولد فى هونان وتوجه فى شبابه إلى مانشوريا وطاف بأقصى أجزاء الأقاليم الثلاثة بعداً ، ثم استقر فى نهاية مطافه فى تسى تسيهار Tsitsihar . وفى ذات يوم قلت للشاب « لماذا وأنت قد ولدت فى تسى تسيهار تتكلم مثلما يتكلم جمهور الصينيين المانشوريين ، فى حين أن والدك الذى ولد فى هونان ، لا يتكلم لهجـــة قدامى المانشو فى مانشوريا فحسب ، بل إنه يسلك سلوكهم ويستخدم تعبيراتهم كذلك ؟ فضحك وقال « إن والدى وقتما كان شابا كان من الصعب على رجل من المين جين[1] أن يرتقى أبعد من المناطق الشمالية . كان المانشو يسيطرون على كل شيء . . . لكننى عندما كنت أتقدم فى السن ، لم تعد هناك فائدة فى أن يكون الإنسان محاكياً للمانشو ومن ثم سلكت مسلك الشبان الآخرين من جيلى » . هذه هى قصة تفسر عمليات الحاضر والماضى على السواء . ذلك لأن شباب المانشو من مانشوريا يتطورون سريعاً فى التماثل مع الصينيين المولودين فى مانشوريا»[2] .

بيد أن الرجل الإنجليزى فى عام ١٩٤٦ ميلادية ، لم يكن فى حاجة إلى قراءة جيبون أو يحجز منامة على اكسبريس سكة حديد سيبريا ليدرس عملية التحول صوب البروليتاريا ؛ لأن فى وسعه دراستها فى وطنه . ففى السينما؛ يرى الناس من جميع الطبقـــات ، يتساوون فى الاستمتاع بأفلام مخصصة

---

(١) المين جين Min—Jen : هو الصينى المدنى أو أحد عامة الناس . (المؤلف).

(٢) صفحتا ٦٢ – ٣ Lattimore, O. Manchuria Cradle of Conflict .

لإرضاء ذوق الأكثرية البروليتارية . كما أنه فى النادى ، يجد لوحة الإعلانات السوداء لم تستبعد الصحافة الصفراء .

وحقاً ، لو أن معاصرنا جوفينان كان ذا أسرة ؛ لأمكنه البقاء داخل البيت ، وأن يجد مع ذلك مادة لكتابته . فما عليه إلا أن يرهف أذنيه (ولعل هذا خير من إقفالهما) لموسيقى الجاز أو المتنوعات التى يستحضرها أبناؤه من جهاز الإذاعة . وعندما يشاهد أبناءه فى نهاية الإجازات المدرسية يعودون لمدرستهم العامة (وهى منظمة يبغض الديمقراطيون انطوائيتها الاجتماعية) أحرى به أن لا ينسى سؤالهم أن يدلّوه على القادة بين الطلبة . وإذ يتخذ رب أسرتنا الساخر – فى حكمه فى هذا العرض العابر – كوموّدوس الشاب الأريب مقياساً ، سيلاحظ أن الزاوية البروليتارية الفاسقة التى تبديها القبعة الملساء وكوفية الأوباش التى تحمل طابع الاستهانة الثابت ؛ قد رتبت فى الواقع بعناية لتخفى وراءها الطابع الارستقراطى الملزم . وهنا يبدو للعيان دليل قاطع على صيرورة الأسلوب البروليتارى ، هو أسلوب العصر المفضّل . ولما كانت القشة تبين اتجاه هبوب الريح بالفعل ، فلقد تكون تفاهات الهجائيين ؛ قمحاً لمطحن المؤرخ الأشد تزمّتا .

وإذا ما انتقلنا من تبذّل الأقلية المسيطرة الناتج عن مخالطتها الهادئة للبروليتاريا الداخلية ؛ لنفحص العملية الموازية لها ، وهى نزوعها صوب البربرية بفعل مخالطتها حربياً مع البروليتاريا الواقعة وراء الحدّ ، ألفينا حبكة المسرحيتين واحدة فى تركيبها العـام . فإن المنظر فى المسرحية الأولى ؛ قوامه حد حربى مصطنع (مداره حدود دول عالمية) نشاهد بينه – وقتما ترفع الستار – الأقليـة المسيطرة والبروليتاريا الخارجية تجابه إحداهما الأخرى فى وضع قوامه ، على كلا الجانبين ، التوجّس والعداء . فإذا ما بدأت المسرحية ، يتحوّل التوجس إلى تعاطف ، إلا أنه لا يقود – مع ذلك – إلى استقرار السلم . فإذا

ما نشبت الحرب ، يغدو الوقت – بالتدريج – فى جانب الهمجى ، إلى أن يوفق أخيراً إلى شق طريقه عبر الحدود ، واجتياح المجال الذى كانت تذود عنه حامية الأقلية المسيطرة .

ويدخل الهمجى فى الفصل الأول من المسرحية دنيا الأقلية المسيطرة ، فى فى الدورين المتتابعين : الرهينة[1] والجندى المرتزق . ويتبدّى فى كلتا الطاقتين حيبا طيّعا بدرجة أكثر أو أقل . ويفد فى الفصل الثانى مغيراً ، مكروها غير مرغوب فى وجوده ؛ يستقر فى النهاية مستعمراً أو فاتحا . ومن ثم تتحول السطوة الحربية إلى يدى الهمجى خلال الفترة الواقعة بين الفصل الأول والفصل الثانى . ولهذا التحوّل المثير للملكوت – أى القوة والمجد – من ألوية الأقلية المسيطرة إلى ألوية البربرى ، تأثير عميق فى وجهة نظر الأقلية المسيطرة . فإنها تنشد الآن استرداد مركزها الحربى والسياسى المنهار عن طريق حصولها على الصفحة تلو الصفحة من كتاب الهمجى . وتعتبر المحاكاة بكل تأكيد ، أصدق أشكال المداهنة .

وما دمنا قد رسمنا الصورة العامة لحبكة المسرحية ؛ يغدو فى وسعنا استعادة فاتحتها ، ومراقبة الهمجى ، إذ يتبدّى على المسرح لأول مرة فى دور تلميذ الأقلية المسيطرة . كما نشاهد الأقلية المسيطرة فى شروعها للتحول صوب « النزعة الوطنية » . وعندئذ نسترق نظرة عابرة على الخصمين عند اللحظة المنقضية التى عندها – إبان منافستهما على استعارة رداء الريش الباعث على السخرية من أحدهما الآخر – يتخذان هيئة المشابهة الشاملة للغرفين[2] الأسطورى . وأخيراً نلاحظ الأقلية المسيطرة السالفة الذكر ؛ تفقد آخر آثار طابعها الأصيل ، بانحدارها لملاقاة الهمجى المنتصر عند مستوى مبتذل من البربرية العارمة .

---

(١) الرهينة : يكون أسيرا حتى يفدى . (المترجم)

(٢) الغرفين Griffin : وحش خرافى نصفه سبع ونصفه طير . (المترجم)

وتتضمن قائمتنا عن سادة الحرب البرابرة الذين برزوا للعيان لأول مرة كرهائن فى أيدى دولة « متحضرة » ؛ طائفة من الأسماء المشهورة :

من ذلك أن ثيودوريك قد أمضى فترة تمرينه وهو رهينة فى بلاط القسطنطينية الرومانى . وأمضى سكاندربج Scanderbeg فترة تمرينـــه رهينة فى البلاط العثمانى بأدرنه . كما تعلّم فيليب المقدونى فنون الحرب والسلم فى طيبة أباميوداس Epamiodas . وأمضى الزعيم المغربى عبد الكريم الذى أفنى قوة حربية أسبانية فى موقعة آنوال عام ١٩٢١ وزعزع دعائم النفوذ الفرنسى فى المغرب من أساسه ، أمضى فترة تمرينه وهى أحد عشر شهراً ، فى أحد السجون بمليله الأسبانية .

وتتسم بالطول ؛ قائمة البرابرة الذين « وفدوا » وشوهدوا جنودا مرتزقة ، قبل أن يفرضوا أنفسهم فاتحين . فلقد كان البرابرة التيوتون والعرب الأوائل الذين غزوا الأقاليم الرومانية إبان القرنين الخامس والسابع الميلاديين سليلى عدة أجيال من التيوتون والعرب الذين أمضوا خدمتهم العسكرية فى القوات الرومانية . بالمثل مهّد جرس الخلفاء العباسيين الخاص خلال القرن التاسع الميلادى ، الطريق للمغامرين الأتراك الذين فتتوا إبان القرن الحادى عشر ، الخلافة إلى عدة دول خلفتها .

وفى الإمكان إيراد عدة أمثلة أخرى فتصبح قائمتنا أطول ؛ لو لم تكن السجلات التاريخية لأوجاع الحضارات فى أواخر أيامها ، نزّاعة إلى أن تتكسر إلى شظايا . على أن فى وسعنا على الأقل أن نخمّن بأن برابرة البحر الأفاقين الذين حاموا حول أهداب الإمبراطورية البحرية المينووية ونهبوا « كنوسوس » حوالى عام ١٤٠٠ ق . م ؛ قد أمضوا فترة مرانهم أجراء للملك مينوس ، قبل تطلعهم للحلول مكانه .

وتذكر لنا الرواية المأثورة ، أن فورتيجيرن vortigern — ملك كنت Kent البريطانى — قد استخدم جنودا مرتزقة من الساكسون ، قبل

أن ينتزعه من عرشه ذانك النهّابان هنجيست Hengist وهورسا Horsa اللذان لا نستطيع التحقق من شخصيتهما .

وفى وسعنا كذلك أن نكشف عدة أمثلة قصّر فيها الجندى البربرى عن إدراك « مصيره الظاهر للعيان » :

فكان مقدرا للإمبراطورية الرومانية الشرقية ، الوقوع فريسة الحرس الفارانجى[1] ؛ لولم يُغير عليها النورمنديون والسلاجقة ، ثم تفتت على أيدى الفرنجة والبندقيين . وأخيرا يبتلعها العثمانيون برمتها .

وكان مصير الإمبراطورية العثمانية بدورها ، التقسيم بالتأكيد بين الجنود المرتزقة البوسنيين[2] والألبانيين الذين أخذوا فى دوران القرن الثامن عشر وإبان القرن التاسع عشر الميلاديين ، يؤكدون سريعا سيادتهم ، على باشوات الأقاليم ، بل على الباب العالى نفسه ؛ لو لم يفد رجال الأعمال من الفرنجة ، متبعين أعقاب الجندى الألبانى . وهكذا عبّدوا للفصل الأخير من التاريخ العثمانى ، اتجاها جديدا غير منتظر ، قوامه إغراق بلاد الشرق الأدنى بالآراء السياسية الغربية وسلع مانشستر على السواء .

وتدرب كذلك الجنود المرتزقة الأوسكانيون ، على طرد من يستخدمونهم من اليونانيين ، أو استئصالهم كلما واتتهم الفرصة . ولم يكن ثمة شك فى استرسالهم فى هذا السبيل حتى يختفى آخر فرد من الجماعة اليونانية غرب مضيق أوترانتو ؛ لو لم يستول الرومانيون فى اللحظة الحرجة على بلاد أوسكانيا من الخلف . وكان هؤلاء الأوسكانيون قد وجدوا سوقاً لخدماتهم فى المدن اليونانية فى كامبانيا وفى مدن اليونان الأصلية .

ولقد تُوحى هذه الأمثلة إلينا بحالة معاصرة لن نتمكن الآن من استنباء

---

(١) الفارانجى Varangian : الحرس الشمالى الملكى لأباطرة بيزنطة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى البوسنة . وهى الآن مقاطعة من مقاطعات جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية . (المترجم)

أمرها . وتتصل بالسبيل الذى يسلكه الجنود المرتزقة ؛ فهم إما أن يتحوّلوا إلى نهابين أو تذبل مشروعاتهم فى مبدأها — مثلما حدث لمشروعات الأوسكانيين والألبانيين أو ينتهى الحال بهم إلى نيل مرادهم مثل التيوتون والترك . وإن هندى اليوم ، ليُنعم النظر جيدا فى دور هؤلاء البرابرة فى المستقبل ، فى مقادير الهند . إذ تكوّن من هؤلاء البرابرة فى عام ١٩٣٣ ما لا يقل عن سُبع جيش الهند النظامى ؛ وهم يتحصنون فى حصونهم بعيدين عن متناول سيطرة حكومة الهند . فهل يُقيّض يوما ما لجنود الجوركا المرتزقين وغزاة الباتان أن يُذكروا فى التاريخ آباء وأجداد الغزاة البرابرة الذين ينحتون فى سهول هندوستان دولا تخلف الراجا البريطانى ؟

لسنا فى هـذا المثال ، على علم بفصل المسرحية الثانى . ولكى نراقب تدرّج المأساة فى هذه المرحلة ، علينا أن نكرّ راجعين إلى قصة العلاقات بين الدولة العالمية الهيلينية والبرابرة الأوربيين القاطنين وراء الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية . وفى وسعنا أن نراقب من البداية حتى النهاية — ونحن على خشبة مسرح التاريخ هذه — العمليات الموازية لبعضها بعضا . وهى عمليات تنحدر الأقلية المسيطرة عن طريقها صوب البربرية : فى حين يشيّد البرابرة على حسابها دعائم مستقبلهم .

وتفتتح المسرحية فى جو من المنفعة الذاتية المستنيرة يتسم بجربة الفكر :

« لم تكن الإمبراطورية موضع كراهية البرابرة . إذ كانوا فى الواقع يطمحون إلى الانخراط فى سلك خدمتها . وكان أقصى مطمح الكثيرين من رؤسائهم مثل الآريك وآتاولف ، أن يعينوا فى مراكز القيادة الحربية العليا . وكان من الجهة الأخرى ، ثمة استعداد مناظر للجانب الرومانى لاستخدام القوات البربرية فى الحرب »[١] .

---

(١) صفحة ٢٩١ Dill S. Society In the Last Century of Westen Empire

ويبدو أن الألمان المنخرطين فى الخدمة الرومانية ، قد أخذوا منذ حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى ، فى العمل على الاحتفاظ بأسمائهم الوطنية . ويشير هذا التغير فى آداب السلوك — الذى يبدو أنه جاء مفاجئا — إلى دخول الثقة بالذات والسعى لتحقيق المنفعة ، دخولا مفاجئا دون تحفظ فى نفوس الشخصيات البربرية التى كانت قبل ذلك راضية على « تحولها إلى الأسلوب الرومانى » . ولم يثر إصرار الألمان الجديد هذا على الاحتفاظ بفرديتهم عند الرومان ، أية حركة مناهضة لنزعة البرابرة الانطوائية . بل أن البرابرة الذين انخرطوا فى الخدمة الرومانية ، قد بدأوا أكثر من ذلك ، يعينون فى هذا الوقت بالذات ، فى منصب القنصل وهو أسمى منصب يقلّده الإمبراطور لفرد من الأفراد .

وعلى ذلك ، بينما كان البرابرة يضعون أقدامهم على أعلى درجات السلم الاجتماعى الرومانى ، كان الرومانيون أنفسهم ، يتحركون فى الاتجاه المضاد . مثال ذلك : استسلام الإمبراطور جراتيان (٣٧٥ — ٣٨٣ ميلادية) إلى شكل مستجدد من الترفع المعكوس ، هوس لا بالابتذال ، ولكن بالبربرية . وقاده ذلك إلى محاكاة أساليب اللباس البربرى وإلى تكوين نفسه لممارسة أنواع الرياضة البربرية .

وفى الواقع ، نشاهد الرومان بعد مرور قرن ، يتطوعون فى العصابات الحربية التى كان يتزعمها رؤساء البرابرة المستقلّون . ومن قبيل المثال ، أنه عندما كان القوط الغربيون يقاتلون الفرنجة فى فويلى Vouillé عام ٥٠٧ ميلادية للاستحواذ على بلاد الغال[1] ، كان من بين المصابين فى جانب القوط الغربيين ، أحـــد حفدة سيدونيوس آبوليناريس Sidoins A pollinaris الذى كان فى عصره ، يعيش حياة رجل الآداب الكلاسيكى المثقف . وليس هناك ما ينبى فى مستهل القرن السادس الميلادى ، على أن سليلى المديرين الرومان ، قد أبدوا نشاطاً فى اتباع زعيم Firrer

(١) الغال : فرنسا قديما . (المترجم)

يقودهم إلى الحرب ، أقل مما أظهره سليلو البرابرة المعاصرين الذين ما فتئت لعبة الحرب منذ قرون مضت ، نسمة حياتهم[١] .

ولقد بلغ الفريقان فى هذا الوقت مرتبة ثقافية مشتركة ، تتشابه فى نزعتها البربرية . وهذا ما سبق أن بيناه عندما رأينا كيف أن الضباط البرابرة المنخرطين فى الجيش الرومانى ، قد شرعوا منذ القرن الرابع ، فى الاحتفاظ بأسمائهم البربرية . وشاهد القرن التالى فى الغاليين ، أسبق أمثلة الاتجاه المعاكس الذى سلكه الرومانيون الأصائل لاتخاذ الأسماء الألمانية . ولم ينته القرن الثامن الميلادى ، حتى غدا الاتجاه عاماً شاملا ، فأصبح كل ساكن فى بلاد الغال فى عصر شارلمان يحمل — أيا ما يكون أصله — اسماً ألمانياً .

واذا ما طرحنا جانباً تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية ؛ نجد قصة مماثلة تصور اتجاه العالم الصينى صوب البربرية ، وتقع تواريخه البارزة فى ثنايا ما يقرب من القرنين قبل القصة الرومانية . وسنجد اختلافاً خطيراً بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة . إذ كان مؤسسو الدول المستخلفة للدولة العالمية الصينية ، موسوسين تجاه إضفاء مظهرهم البربرى البادى للأنظار عن طريق انتحالهم أسماء صينية مشتقة اشتقاقاً محكماً . وليس بالأمر الخيالى ، وجود ارتباط بين اختلاف الممارسة هذا بالنسبة لنقطة تافهة بشكل ظاهر ، وانبعاث الدولة العالمية الصينية فى خاتمة المطاف فى شكل أعظم فعالية بكثير من قيام شارلمان باستدعاء شبح الإمبراطورية الرومانية ، استدعاء مماثلا .

وقبل أن نُنهى بحثنا عن نزوع الأقليات المسيطرة نحو الطابع البربرى ، عسانا نتوقف لنخاطب أنفسنا عن مدى إدراك عالمنا الغربى الحديث لأية سمة من سمات هذه الظاهرة الاجتماعية . ولعلنا نميل لأول وهلة ،

---

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الشعب الألمانى الذى تبع هتلر واتخذه زعيما قاده إلى الحرب . (المترجم)

إلى الرد بأن مجتمعنا يضم بين مجسّاته العالم بأسره ، وأنه لم يعد هناك بروليتاريات خارجية على أية أحجام جوهرية ، فى مكنتها توجيهنا صوب البربرية . لكن علينا أن نتذكر حقيقة تبلبل الفكر نوعا ما ، مدارها أنه يوجد اليوم فى قلب المجتمع الغربى لعالم أمريكا الشمالية الجديد ، عدد ضخم من السكان المنتشرين ذوى الأصل الإنجليزى والاسكتلندى أصحاب التراث المسيحى البروتستانتى الاجتماعى الغربى ، قد تفشّت فيهم البربرية فى صورة عميقة لا تُخطئ ، عن طريق استنباذهم فى الأجمات المهجورة لجبال الأباش بعد ما مهدوا لهذا ببقائهم فترة ما فى المنفى على « الحد الكلتى » لأوربا .

ولقد وصف مؤرخ أمريكى يُعتبر عمدة فى هذا الموضوع ، التأثير الهمجى للحياة عند حدود أمريكا ، بقوله :

« يجدر بنا عند بحث مسألة استيطان أمريكا ، ملاحظة كيفية دخول الحياة الأوربية القارة ، وكيفية تحوير أمريكا هذه الحياة وتدرجها بها ، ورد فعلها على أوربا . إن تاريخنا المبكر ، عبارة عن دراسة الأجنة الأوربية فى ترعرعها فى بيئة أمريكية . . . إن الحدّ هو أسرع وسائل التأمرك وأشدها فعالية . ولقد سيطرت الفلاة على المستعمر ، فوجده أوروبيا فى ملبسه وصناعاته وأدواته وأنماط عمله وتفكيره . فطفقت تأخذه من عربة السكة الحديدية وتضعه فى القارب المصنوع من خشب التامول ؛ تجرده من أردية الحضارة وتخلع عليه قميص الصيد والمقسين[١] . تضعه فى مأوى قبيلتى الشيروكى والإيروكواس الهنديتين ، مأوى منحوت فى الشجر ، وتنصب حوله حُسيكة هندية[٢] ، ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يزرع الذرة الهندية ويحرث الأرض بعصاة حادة . ويصرخ صرخة الحرب ويأخذ

---

(١) المقسين : Moccasin حذاء من جلد الأيل يصنع من قطعة واحدة ويصنع عند هنود أمريكا . (المترجم)

(٢) دريئة أو سور يتخذ من أوتاد يلقى عليها الحسك . (المترجم)

بعد انتصاره فروة رأس عدوه المنهزم وفقاً للأسلوب الهندى القديم . وقصارى القول ؛ فإن البيئة على الحدود ، هى فى مبدأ الأمر أقوى من إرادة الرجل . . لكنه يحول الفلاة شيئاً فشيئاً لإرادته ، ولن تكون أوربا القديمة حصيلة جهوده بل نتاجاً جديداً أمريكى الطابع »[1] .

وإذا كان هذا المبحث صحيحاً ، فإنه يلزمنا بأن نفرض وجود ضغط اجتماعى أن نصرّح بأن ذا قوة عارمة ، استبانت آثاره — فى أمريكا الشمالية على الأقل — على قسم من أقسام الأقلية المسيطرة الغربية بفعل، قسم من أقسام بروليتاريته الخارجية .

وهكذا يتبين على ضوء هذا النذير الأمريكى ، مدى المجازفة بالافتراض بأن داء البربرية الروحانى ، يعتبر نذير شؤم فى مكنة الأقلية المسيطرة الغربية تجاهله تماماً . إذ يبدو أن فى وسع البروليتاريات الخارجية أن تثأر لنفسها ، حتى ما هزم منها وأبيد .

٢ — السوقية والبربرية فى الفن:

بانتقالنا من الميـــدان العام للسلوك والعادات ، إلى الميدان الخاص للفن ؛ سنجد الشعور بالابتذال ينم عن نفسه هنا مرة أخرى فى الشكلين التعاقبيين ، التبذل والبربرية . وإن فى وسع الفن — فى أحد هذين الشكلين أو الآخر ، إبان التحلل الحضارى — أن يكفّر عن استطارته الشاذة فى اتساع نطاقها وسرعة انتشارها ، بتفريطه فى اتّباع أسلوبه المميز الذى هو سمة الأصالة الرفيعة .

ويطالعنا مثالان تقليديان للسوقية فى الأساليب التى أشعت فيها الحضارة المينووية المتحللة والحضارة السورية المتحللة تأثير الإحساس بالجمال ، حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) صفحتا ٣ و ٤ Turney, F. J, The Frontier in American History

إذ تتميز فترة الفراغ (حوالى ١٤٢٥ – ١١٢٥ ق.م) التى تلت تدمير الإمبراطورية البحرية المينووية ، بتبذّل ألمّ بالأسلوب الفنى ، يطلق عليه « العصر المينووى الثالث » لكنه يتفوق من ناحية استطارتة ، على استطارة جميع الأساليب الفنية الرفيعة التى تقدمته فى الظهور .

وتتميز بالمثل فى ناحية الفن الفينيقى فترة الاضطرابات (حوالى ٩٢٥ – ٥٢٥ ق . م) التى تلت انهيار الحضارة السورية ؛ بتبذّل مماثل وانتشار بماثله لتلك البواعث التى تتصل بعضها ببعض ، اتصالا آليا .

ولقد وجدت سوقية مماثلة – فى تاريخ الفن الهلينى – تعبيرا تبدّى فى التغالى فى الإفراط فى الزخرفة وفقاً لأسلوب نظام العمارة الكورنثى . ويعتبر هذا الاتجاه إسرافاً مغايرا إلى أبعد حد ، للمنحى الذى تتميز به العبقرية الهلينية . وإذا ما بحثنا عن أمثلة بارزة لهذا الطراز الذى بلغ ذروته إبان حكم الإمبراطورية الرومانية ، فلن نعثر عليها فى قلب العالم الهلينى ، ولكن فى بقايا معبد فى بعلبك لمعبود غير هلينى ، أو فى نواويس صنعها البناؤون الهلينيون المختصون بصنع النصب التذكارية لإيداع البقايا الفانية لسادة الحرب البرابرة المتأثرين بالطابع الهلينى ؛ أولئك الذين استوطنوا الحافة الشرقية القصوى للهضبة الإيرانية .

فإذا ما انتقلنا من السجل المعمارى إلى السجل الأدبى لتحلل المجتمع الهلينى ألفينا « منقى » الأجيال القليلة الأولى بعد انهيار عام ٤٣١ ق . م ، يندبون تحول الموسيقى الهلينية إلى التبذّل . وقد سبق لنا فى موضع آخر ، ملاحظة التبذّل الذى أصاب الدراما على أيدى (الفنانين المتحدين المحدودين)(١) .

وعسانا أن نلاحظ فى العالم الغربى الحديث أن الأسلوب النضير الذى

---

(١) يتهكم المؤلف هنا على شركة الفنانين المتحدين السينمائية مشيرا إلى انحدار الفن على أيدى أصحابها . (المترجم)

كان آخذا فى الاضمحلال ، هو الذى ألهم العالم الغربى أساليبه الفنية ذات الطابع الهلينى ، من ناحية اتصاله بالزخرفة المركّكة العجيبة[١]. ولم يلهمه أسلوب الفن الكلاسيكى الهلينى المتزمّت . وفى وسعنا أن نميز فيما كان يدعى بأسلوب « صندوق الشوكلاتة » فى الفن الفيكتورى ذى الطابع التجارى ؛ مشابهة للأسلوب الذى شاع إبان « العصر المينووى الثالث » . وينذر هذا الأسلوب بجلاء ، بغزو سطح الأرض بأسره ، بفعل تسخيره لخدمة أسلوب فنى غربى غريب ، ينصرف إلى الإعلان التصويرى عن سلع التاجر .

ويبلغ الأسلوب الفنى الأحمق المعروف بـ « صندوق الشكوكلاته » من التدمير درجة نبهت جيلنا نفسه إلى بذل محاولات يائسة لتلمس أسباب العلاج . وإذا كنا سنناقش فى فصل تال عن العصر الفنى البيزنطى السابق على عصر رافاييل[٢] ؛ موضوع رأينا فى التبذّل ، إلا أنه يجدر بنا هنا أن نحيط علما بعزوف العالم المعاصر عن التبذُّل وركونه إلى البربرية . فإن المحترمين أنفسهم من مثالى الوقت الحاضر الغربيين الذين لم يجدوا فى الفن البيزنطى ملجأ أنيسا ، قد حولوا أنظارهم شطر بنين Benin[٣] ، ولم يقتصر الحال بالعالم الغربى — الذى جفت موارده الإبداعية على ما يظهر — على التوجّه صوب برابرة أفريقيا الغربية بحثاً عن إلهام غض لهذا الفرع من فن نقش الحجارة الكريمة ، بل إنه استُورد إلى قلب أوربا — عن طريق أمريكا — موسيقى بلاد غرب أفريقيا ورقصها ونحتها .

ويبدو لعين الشخص العادى ، أن الفرار إلى فن « بنين » وإلى الفن البيزنطى ، لن يقود الفنان الغربى الحديث إلى استرداد ذاتيته المفقودة .

---

(١) المركّكة يوصف بذلك بناء مزخرف بطريقة الركوك وهو ضرب من الزخرفة . (المترجم)

(٢) مصور إيطالى شهير ، ظهر فى عصر النهضة . (المترجم)

(٣) مدينة فى أفريقيا الغربية . ويعنى المؤلف بذلك ، تقليد الأساليب الأفريقية . (المترجم)

بل إنه إن لم ينقذ نفسه ، فلعله — على ما يتصور — يغدو وسيلة خلاص للآخرين . ويلاحظ برجسون ما يأتى :

« إن مدرساً عادياً يلقن درساً عن الميكانيكا من علم أبدعته عقول رجال عباقرة ، قد يدفع تلميذاً أن ينذر نفسه للعلم ، بينما هو لا يرى أى شيء فى نفسه » .

وإذا كان « الفن التجارى » للعالم الهلينى المتحلل ، قد أنجز المأثرة المذهلة ، ببعثه إلى الوجود الفن الإبداعى السامى للبوذية المهايانية ، بفضل ملاقاته مع التجربة الدينية لعالم آخر متحلل على الأرض السندية ، فإن نستطيع الحكم مقدماً على أن أسلوب « صندوق الشوكلاتة » الفنى الغربى الحديث يعجز عن إتيان معجزات تماثل فى تألقها ، تألق أسوار الإعلانات وعلامات السماء .

٢ — اللغات العامة(١) :

يكشف الشعور بالاختلاط فى الميدان اللغوى عن نفسه ، فى التغيّر من صفة محلية مميزة ، إلى بلبلة لغوية شاملة .

وأنه وإن كانت الغاية من وجود اللغات ، تحقيق الاتصال بين البشر ؛ إلا أن جماع تأثيرها الاجتماعى على تاريخ البشرية ، ما يزال ينحو بالفعل حتى الآن إلى تفريق الجنس البشرى ، لا إلى توحيده . إذ ما فتئت اللغات تأخذ عدداً من الأشكال المتفاوتة ، إلى درجة أنه ما يزال التعامل باللغة الواحدة — حتى ما يتمتع منها بأوسع انتشار — محصوراً فى نطاق ضئيل نسبياً من مجموع البشر ؛ وما يزال العجز عن التخاطب بها يعتبر سمة « الأجنبى الظاهرة » .

وفى وسعنا أن نشاهد اللغات إبان المرحلة الأولى لانحطاط الحضارات

---

(١) Lingue Franche

المتحللة تشن على بعضها بعضاً حروباً مهلكة ، وتغزو لنفسها — إن انتصرت — مناطق واسعة على حساب منافسيها المنهزمين . وفى هذا تقتفى أثر أقدار الشعوب التى تتخذها لغات أصلية فى حديثها

ومصداقاً لذلك ؛ إذا كانت هناك مسحة من الحقيقة التاريخية فى أسطورة بلبلة الألسن فى أرض شينعار تحت قدم « الزيجورات[١] فى مدينة بابل التى شيدت فى زمن قريب ، فلربما تقودنا القصة إلى مدينة بابل التاريخية إبان عصر كانت فيه الدولة العالمية السومرية فى طريق الانهيار . ذلك لأن اللغة السومرية قد أصبحت خلال فصل الدمار الأخير من التاريخ السومرى ، لغة ميتة بعد قيامها بدور تاريخى كأداة للثقافة السومرية . فى حين بلغت اللغة الأكادية نفسها فجأة فى زمن حديث ، مركزاً يتعادل فى أهميته مع اللغة السومرية . فأصبح عليها الآن أن تنازع حشداً من اللغات الدارجة ، التى جلبتها العصابات الحربية البربرية إلى البلاد التى خلفها أهلوها طعمة للناهبين .

ويصدق موضوع أسطورة بلبلة الألسنة على الحياة ، من ناحية تثبيتها هذا الوضع التبادلى المتسم بالغموض ؛ غموض يعتبر حائلا فعالا فى وجه تحقيق فعل اجتماعى يتصف بالتناسق ، فى مكنته الوقوف فى وجه أزمة اجتماعية طارئة . ويتيسر تفسير هذا الترابط بين الاختلافات اللغوية والشلل الاجتماعى ، بأمثلة تبرز بوضوح من بين ثنايا ضوء التاريخ الساطع :

إذ نلاحظ فى جيل العالم الغربى الحاضر ، أن الاختلافات اللغوية ، هى أحد مظاهر الضعف القتالة فى ملكية هابسبرج الدانوبية التى اندثرت فى الحرب العالمية الكبرى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

ونجد لعنة بابل[٢] — حتى فى نظام رفيق الباديشاه العثمانى الخاص إبان عصر

---

(١) زجورات Ziggerat : كلمة سومرية تعنى « جبل » وتعنى هنا الجبل الصناعى أو البرج الذى يقام عليه هيكل الإله . (المترجم)

(٢) أى لعنة البلبلة . (المترجم)

تكامله عام ١٦٥١ـتحل على جنود الرماح وهم فى أراضى السراى السلطانية، فهبط بهم إلى مرتبة الضعف والقصور . وكان ذلك أثناء لحظة حرجة ، لثورة اندلعت فى القصر . فلقد نسى غلمـــان السلطان ــ فى غمار استثارتهم ــ ما لقنوه من اصطلاحات عثمانية مصطنعة ، فكان أن صكت آذان المشاهدين المتحيرة ، صوت ضجة صحبتها أصوات ولغات مختلفة . إذ صاح البعض بالكرجية والآخر بالألبانية والبوسنية والتركية والإيطالية وبلغة مختلطة (١) .

وتعتبر ظروف هذا الحادث الطفيف فى التاريخ العثمانى ، عكس حادث إقبال الروح القدس (وفقاً لما سجله الفصل الثانى من أعمال الرسل) . فإن اللغات التى يتحدث بها المتكلمون فى هذا المشهد أجنبية على شفاههم : فإن سكان الجليل غير المثقفين لم يكونوا حتى ذلك الوقت ، يتكلمون ؛ وقلما سمعوا بلغة أخرى غير لغتهم الأرامية الوطنية . ومن ثم يصور تفشى اللغات الأخرى بينهم فجأة ، نعمة أنعمها الله . ولقد فسرت هذه العبارة المبهمة تفسيراً مختلفاً ، لكن لا يوجد نزاع بالنســبة للنقطة التى تهمنا . إذ من الواضح أن منحة اللغات فى نظر كاتب سفر أعمال للرسل ، كانت أول تزكية لمواهبهم الطبيعية التى مست إليها احتياجات الرسل الذين كلفوا بإنجاز رسالة رائعة ، قوامها هداية البشرية بأسرها إلى « الدين الأسمى » الموحى به أخيرا . بيد أن المجتمع الذى نشأ الرسل بين ظهرانيه ، كان له من اللغات العامة ، عــدد لا يقل عما لدى عالمنا الحاضر . فإن الأرامية ــ لغة الجليل الأصلية ــ كانت تخدم المتكلم بها ؛ شمالا حتى آمانوس ؛ وشرقاً حتى جبل زاجروس ؛ وغرباً حتى النيل . هذا ؛ بينما استطاعت اليونانية التى كتب بها سفر أعمال الرسل أن

---

(٢) صفحة ١٨ Rycant, P. : The Present state of the ottoman Empire (1668)

تحمل بعثة التبشير المسيحية فيما وراء البحار ، حتى روما وما بعدها .

وإذا ما تابعنا الآن فحص أسباب ونتائج استحالة اللغات المحلية الأصلية إلى لغات عالمية ؛ سنجد أن لغة تظفر بهذا النصر على منافسيها ، تعزو نجاحها عادة إلى الأفضلية الاجتماعية المتصلة بقيامها — فى عصر اجتماعى متحلل — أداة لغوية (سواء فى الحرب أو التجارة) لجماعة من الجماعات التى تتسم بالقدرة وشدة البأس . وسنجد كذلك أن اللغات — مثل الكائنات البشرية — تعجز عن تحقيق الانتصارات من غير أن تؤدى ثمنا . ويتمثل الثمن الذى تؤديه لغة من اللغات كى تصبح لغة مختلطة ، فى التضحية بأسباب حذقها الوطنى . ذلك لأنه يتم على شفاه أولئك الذين تعلموا وحدهم اللغة فى طفولتهم ، التحدث بها بذلك الكمال الذى هو بائنة الطبيعة وبأس الفن . ويتيسر تحقيق هذا الرأى باستعراض البيّنة :

فإننا نشاهد فى تاريخ تحلل المجتمع الهلينى ؛ لغتين الواحدة بعد الأخرى — لغة آتيكا اليونانية ثم اللغة اللاتينية — قد بدأتا على التوالى لغتين أصيلتين لمقاطعتين صغيرتين (آتيكا ولاتيوم) ثم انتشرتا بعد ذلك خارجهما . وفى مطلع العصر المسيحى ، نجد يونانية آتيكا تستخدم لغة قضائية إدارية على ضفة نهر الجيلوم[١] ، واللاتينية تستخدم على ضفاف الراين . ولقد ابتدأ امتداد مجال يونانية آتيكا مع تشييد أول صرح لإمبراطورية أثينا البحرية أثناء القرن الخامس قبل الميلاد ؛ ثم انتشرت بعد ذلك انتشاراً هائلا نتيجة اتخاذ فيليب المقدونى لهجة آتيكا ، لغة رسمية لمحكمته العليا . أما عن اللاتينية فقد تبعت لواء الفيالق الرومانية الظافرة .

على أننا ؛ بعد ما أبدينا اعجابنا بانتشار اليونانية واللاتينية ؛ سنتأثر بالمثل — لو درسنا تطورها المعاصر من وجهة نظر الفقيه اللغوى والخبير الأدبى — بما

---

(١) أحد أنهار البنجاب الغربية بباكستان ، وينبع من جبال كشمير . (المترجم)

أصابهما من انحطاط . فإن آتيكية سوفوكليس وأفلاطون البديعة الضيّقة الانتشار ، قد تدهورت إلى اللغة المبتذلة الواردة في ترجمة التوراة فى عهد المسيحية من العبرية[1] وفى ترجمة بوليبيس والعهد الجديد . كما استخالت فى النهاية ، أداة شيشرون وفرجيل الأدبية ؛ إلى « لاتينية عامية » ظلت تقوم بواجبها فى تحقيق الاتصالات الدولية الجدّية فى المجتمع المسيحى الغربى التالى . ولقد كان ميلتون مثلا هو « السكرتير اللاتينى » لحكومة كرومويل . واستمرت « اللاتينية » واسطة التخاطب فى البرلمان الهنغارى حتى عام ١٨٤٠ . وكان التخلى عنها ، إحدى استجابات صراع الأخوة ، الذى تفجر عام ١٨٤٨ بين القوميات التى يختلط بعضها بالبعض الآخر .

وأخذت خرائب كل من المجتمعين المنهارين للحضارتين البابلية والسورية المتحللتين ، تمتزج إحداهما بالأخرى على التوالى ؛ بحيث لم يعد يمكن تمييز أيهما عن الآخر ، كلما تكاثف انتشارهما على مجالهما المشترك . ولقد مدّت اللغة الأرامية من سلطانها . فانتشرت فى غزارة تماثل غزارة العشب البرى ، عبر المستوى المنهار لهذه الأنقاض المختلطة . وذلك على الرغم من أن الأرامية — عكس اليونانية واللاتينية — لا تدين للغزاة الموفّقين إلا بقليل من الرعاية أو قد تنتفى الرعاية كلية . وإنه وإن بدا تداول اللغة الأرامية فى عصره ، ملفتا للنظر ، إلا أنه يبدو قصر حياته وضيق مجاله بالمقارنة بما قيّض للأبجدية والشكل الكتابى الأراميين من انتشار واسع . فلقد وصل الهند شكل من أشكال الكتابة الأرامية ، فاستخدمه الإمبراطور البوذى آشوكا فى تسجيل متونه المكتوبة باللغة السنسكريتية الدارجة ؛ وهو تسجيل شمل مدونتين من المدونات الأربع عشرة ..

وسلك شكل آخر لهذه الكتابة — ويدعى بالصُغدى[2] طريقه صوب

(١) أى الترجمة اليونانية الأولى للتوراة . (المترجم)

(٢) الصغدى . نسبة إلى لغة الصغد وهم قوم من الإيرانيين القدماء . (المترجم)

الشمال الشرقي حتى نهر آمور، فكان أن أتاح للمانشو عام ١٥٩٩ ميلادية حروفا أبجدية . واستُخدم شكل ثالث للأبجدية الأرامية ، حاملا للغة العربية .

وإذا ما ولينا وجهنا بعد ذلك شطر العالم العقيم للمدن الإيطالية — ومركزه الأساسي إيطاليا الشمالية — الذي برز في المسيحية الغربية في عصر ما يسمى بـ « القرون الوسطى » ، سنجد أن اللهجة التوسكانية المنبثقة عن اللغة الإيطالية ، تحجب اللهجات المنافسة لها ؛ مثلما حجبت لهجة آتيكا اللهجات المنافسة اليونان القديمة . وفي نفس الوقت ، نشرها حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط بأسرها ، تجار البندقية وجنوا وبناة الإمبراطورية . ولقد جاوز تداول اللهجة التوسكانية الإيطالية عمر الرخاء — بل الاستقلال — الذي حظيت به المدن الإيطالية . ومصداقا لذلك ؛ باتت اللغة الإيطالية الشائعة في القرن التاسع عشر ، لغة الخدمة في بحرية عثمانية كانت تدفع الإيطاليين عن مياه المشرق . كذلك أصبحت نفس اللغة الإيطالية أثناء القرن التاسع عشر ، لغة بحرية هابسبرجية[1] نجح سادتها الأباطرة خلال الفترة ١٨١٤ — ١٨٥٩ في إحباط الأماني القومية الإيطالية . على أن هذه المخالطة اللغوية الإيطالية في بلاد المشرق — التي كانت اللغة الإيطالية قاعدتها والتي دفنت تقريبا تحت ثقل أشتات الكلمات الأجنبية المتزايدة — تعتبر مثالا يبعث على الاعجاب للنوع الذي تمثله ، بحيث أن اسمه التاريخي قد بات يحمل بين طياته معنى جامعا .

على أنه قد حل مكان هذه اللهجة التوسكانية فيما بعد — بل في مرابضها الشرقية المجانسة — لغة فرنسية مختلطة . ولقد حددت مستقبل اللغة الفرنسية ، حقيقة مدارها ؛ أنه حدث في غضون زمن اضطرابات عالم المدن الإيطالية والألمانية والفلمنكية المنهار — الذي انطلق إلى ختام القرن الرابع عشر ولبث

(١) هابسبرجية : نسبة إلى بيت هابسبرج الذي كان يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ثم إمبراطورية النمسا والمجر حتى عام ١٩١٨ . (المترجم)

حتى نهاية الثامن عشر – أن حملت فرنسا لواء النصر فى نزاعها مع الدول العظمى فى سبيل السيطرة على نقطة هذا المجتمع المركزية المضمحلة . وترتب على انتصار فرنسا ؛ صيرورة الثقافة الفرنسية منذ عصر لويس الرابع عشر وما تلاه ؛ موضع جاذبية ، اتصل تقدمها مع تقدم الجيوش الفرنسية . وعند ما أنجز نابليون ما طمح إليه أسلافه من ملوك أسرة البوربون من تجميع الشظايا المحطّمة للمدن التى كانت تنتثر على جميع وجه أوروبا ، (قرب مداخل الأمة الفرنسية ؛ من بحر الأدرياتيك ، إلى بحرى الشمال والبلطيق) فى فسيفساء فرنسية الرسم ؛ أثبتت الإمبراطورية النابليونية ؛ أنها قوة ثقافية ، مثلما هى نظام حربى .

على أن الامبراطورية النابليونية قد لاقت حتفها بفعل هذه الرسالة الثقافية . إذ كانت الآراء التى حملتها (باستخدام المعنى الإكلينيكى[١]) تعبيرا عن ثقافة غربية حديثة ؛ كانت ما تزال فى طور النمو . فكان مناط رسالة نابليون ، إتاحة دولة عالمية ، لمجتمع مُصغّر من المدن كامن فى قلب المسيحية الغربية . ولكن ما كانت وظيفة الدولة العالمية ، إتاحة قيام دولة عالمية تستلهم الثورة والدينامية : وحقا ، يعتبر هذا تناقضا شبيه باستخدام صوت الترومبون[١] فى إغراء الأطفال بالنوم .

ولم يكن ليتيسر ، أن تقوم « أفكار الثورة الفرنسية بدور العامل الملطف الذى قد يحمل الإيطاليين والفلمنكيين وسكان الراين ومدن الهانسا ، على مهادنة طغيان بناة الإمبراطورية الفرنسية ، الذين استقدموا تلك الأفكار . فإن ضغط فرنسا النابليونية الثورى ، قد أتاح لهذه الشعوب المتراخية – إلى أبعد مما تقدم – صدمة مثيرة ؛ أيقظتها من بلادتها .

---

(١) أى بتشبيه ذيوع الآراء بانتشار الجراثيم ، كناية على قوة هذا الذيوع . (المترجم)

(٢) آلة موسيقية تستخدم بالنفخ ، وصوتها صاخب . (المترجم)

وأوحت إليها التمرّد ، وخلع نير الإمبراطورية الفرنسية عنها ؛ كخطوة أولى تخطوها صوب أماكنها ، كأمم ناشئة ، فى عالم غربى جديد .

وبالأحرى ؛ حملت الإمبراطورية النابليونية بين طياتها ، البـــذور البروميثية[١] ؛ التى قادت بالضرورة إلى إخفاقها فى دورها الأبيميثى[٢] ؛ المتصل بقيامها بدور الدولة العالمية لعالم متداع . وهذا العالم المتداعى ، قد أبدع – فى أوج نهاره الماضى الطويل – بهاء وجلال كل من فلورنسا والبندقية وبروج ولوبيك .

ولقد تمثّل العمل الحقيقى الذى أنجزته إمبراطورية نابليون بالفعل ؛ فى سحب السفائن الجانحة لعمارة بحرية من عمائر القرون الوسطى ؛ سحبها إلى مجرى التيار المائى للحياة الغربية : يضاف إلى ذلك ؛ أن إمبراطورية نابليون ، قد استثارت فى نفس الوقت ، بحارة تلك العمائر البحرية الفاترى الهمة ، لجعل سفائنهم صالحة للبحر . ولقد يُصبح هذا الإنجاز الواقعى عملا قصيرا وجحودا فى طبيعة الوضع ؛ حتى ولو لم يستثر نابليون العداوة الصلدة للدول قومية ؛ أمثال بريطانيا وروسيا وأسبانيا ؛ وتقع وراء حدود عالم المدن الذى مجال الفعل الطبيعى لنابليون ، وفقا لاستعراضنا .

على أن ثمة فى « المجتمع الكبير للعصر الحاضر » تراثا أساسياً لدور يبلغ طول أمده مائتى عام – وكان حكم نابليون القصير ذروته – أيّدته فرنسا فى المرحلة الأخيرة لعالم دولة المدينة . وكان مناط هذا الدور ؛ نجاح اللغة الفرنسية فى إقامة نفسها لغة مبتذلة[٣] ، لهذا الجزء المركزى من العالم الغربى ، بل إنها قد مدّت سلطانها إلى الإمبراطوريتين الأسبانية والعثمانية ؛ أى إلى الأطراف القصوى لمناطق النفوذ السابقة .

(١) نسبة إلى بروميثيوس الذى تذكر الأساطير اليونانية ، أنه هو الذى منح البشر المعرفة . (المترجم)

(٢) الأبيميثى : نسبة إلى أبيميثوس . ويمثل فى الأساطير اليونانية ؛ الفناء والأمراض والآلام التى تبتلى بها الآلهة البشر عقاباً لهم . (المترجم)

(٣) يقصد باصطلاح اللغة المبتذلة هنا ؛ اقتحام كلمات وتعبيرات غريبة على اللغة الأصيلة ؛ لأمر الذى يضعف من صفاتها الأصيل (المترجم)

وما يزال الإلمام باللغة الفرنسية يحمل المسافر عبر بلجيكا وشبه جزيرة أيبريا وأمريكا اللاتينية ورومانيا واليونان وسوريا وتركيا ومصر. ولم تنقطع اللغة الفرنسية عن أن تكون طوال الاحتلال البريطانى لمصر ، لغة التخاطب الرسمى بين ممثلى الحكومة المصرية والمستشارين البريطانيين . ومصداقا لذلك ، نجد المندوب السامى البريطانى (اللورد اللنبي) يقرأ على رئيس الوزارة المصرية[1] فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ باللغة الانجليزية ، تبليغين تضمنا إنذارا نهائيا اقتضاه مصرع السردار ، وكان المقصود من الاختبار اللغوى الغير المعتاد ، الإشارة إلى ما يعتمل فى نفوس الإنجليز من سخط . على أنه قد سُلّمت فى نفس الوقت ، نسخ بالفرنسية من هذين البلاغين البريطانيين . فالواقع أن حملة نابليون المصرية (التى جاءت إثر بحارة القرون الوسطى الإيطاليين ، ويعتبر هذا عادة عملا ضارا لا رابطة له وعديم الجدوى فى الحياة الجارية لفاتح أوربى) مظهر للجهود الضخمة التى بذلتها فرنسا لبذر بذور ثقافتها فى أرض كانت ميدانا صالحا للاستجابة لها وإن نأت عنها .

وإذا اعتبرت اللغة الفرنسية المبتذلة بمثابة أثر تذكارى لانحلال مجتمع فى نطاق الجسم الاجتماعى الغربى ، يمت إلى القرون الوسطى ، فلعلنا نجد فى اللغة الإنجليزية المبتذلة حصيلة تلك العملية الضخمة لعملية الامتزاج التى وسّعت نطاق المجتمع الغربى وأذابته فى « مجتمع كبير » ذى مجال عالمى : وما انتصار اللغة الإنجليزية إلا نتيجة دخول بريطانيا العظمى نفسها فى كفاح حربى وسياسى وتجارى فى سبيل السيادة على العالم الجديد عبر البحار ، بسواء أكان شرقا أم غربا . فكان أن أصبحت الإنجليزية هى لغة أمريكا الشمالية الوطنية ، كما غدت اللغة المبتذلة السائدة فى شبه

---

(١) الزعيم سعد زغلول رحمه الله . (المترجم)

القارة الهندية[1] . وتتداول الإنجليزية على نطاق واسع فى الصين واليابان .

ولقد سبق أن ألفينا الإيطالية تُستخدم فى الأساطيل البحرية لأعداء الدول الإيطالية : ونجـد بالمثل الرفيق بورودين المندوب الروسى يستخدم فى الصين عام ١٩٢٣ اللغة الإنجليزية واسطة للاتصال بالمندوب الصينى لحزب الكيومنتانج ، لرسم العمليات السياسية التى تهدف إلى إبعاد البريطانيين عن الموانى الصينية التى تنظمها المعاهدات[2] . وتستخدم الانجليزية أداة اتصال بين الصينيين المتعلمين القادمين من أقاليم يتحدث فيها بلهجات صينية متباينة . وهنا نجد التبدّل اللغوى على شفاه المتكلمين بالإنجليزية فى الهند والصين ، على غرار ما علمناه بالنسبة للإيطالية التوسكانية القديمة واليونانية الأتيكية القديمة .

وفى وسعنا أن نتتبع فى إفريقيا تقدم لغة عربية مبتذلة . إذ تشق تلك اللغة طريقها صوب الغرب من الســاحل الغربى للمحيط الهندى إلى البحيرات ، وصوب الجنوب من الساحل الجنوبى للصحراء إلى السودان ؛ صحبة جماعات العرب وأشباه المستعربين المستولدين ، وقناصة الرقيق والتجار : وما يزال تتيسر حتى اليوم ، دراسة النتائج اللغوية لهذه الحركة فى حياة القارة الإفريقية . ذلك لأنه بينما قاد التدخل الأوربى فى إفريقيا إلى تجميد الضغط المادى للمقتحمين العرب ، أخذ ضغط اللغة العربية اللغوى على اللهجات الدارجة الوطنية الإفريقية ، يتلقى بالفعل دافعا قوياً هيأته

---

(١) ما تزال الإنجليزية هى اللغة الرسمية لدولتى الهند وباكستان حتى بعد إعلان استقلالها وصيرورتهما جمهوريتين داخل نطاق الكومنولث . (المترجم)

(٢) تغيرت الأحوال فى الصين من أساسها بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم . فقد استئصل النفوذ الأجنبى من أساسه . أما بالنسبة للغة الإنجليزية فى الصين فقد حلت مكانها اللغة الروسية التى باتت تدرس فى جميع معاهد الصين بصفة إجبارية . وهذا ما شاهدته شخصيا وقت مرورى بتلك البلاد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ . (المترجم)

له عملية فتح « إفريقيا » التى استولت عليها الدول الأوربية من أيدى العرب ، فإن اللغة العربية تتمتع فى ظل الأعلام الأوربية — الذى يعنى فرض نظام غربى — بتيسيرات للتقدم ، أفضل مما كان لها من قبل . ولعل أعظم فائدة أتاحتها الحكومات الاستعمارية الأوربية للغة العربية ، بغية سد احتياجاتها الإدارية ، تتمثل فى التشجيع الرسمى الذى تمنحه تلك الحكومات للغات المختلطة التى برزت على السواحل الثقافية المختلفة التى كان مدّ العربية المتدفق يتدفق عليها عبر نباتات المستنقعات الوطنية . وفى الواقع أن الاستعمار الفرنسى على النيجر الأعلى والاستعمار البريطانى على النيجر الأدنى ، والاستعمارين البريطانى والألمانى فى ساحل إفريقيا الشرقى لزنجبار ، هيأ على التوالى مصائر اللهجات الفولانية والهوسية والسواحلية . وما هذه اللغات جميعها إلا سبائك لغوية — أساسها إفريقى مع سَكْب عربى — نظمت لتكتب بالأبجدية العربية :

٤ — التركيب الدينى :

يعتبر التركيب فى الأديان (أو إدماج الطقوس والمعتقدات والمذاهب الدينية) ؛ التجلّى الظاهر لهذا الشعور الباطنى بالابتذال الذى يبرز من بين ثنايا الانشقاق فى الروح ؛ إبان عصر التحلل الاجتماعى . ويمكن أن تؤخذ هذه الظاهرة بشىء من التوكيد ، دلالة على التحلل الاجتماعى . ويرد ذلك إلى استبانة بطلان الأمثلة الواضحة للمزج الدينى ، فى تواريخ الحضارات إبان مرحلة ارتقائها .

ومصداقا لذلك ؛ فإننا إذ نشاهد الأساطير الإقليمية للدويلات المدن — تلك التى لا تحصى — يسودها التناسق والانسجام فى نظام هلينى جامع ، بفضل جهود هسيود Hesiod وغيره من الشعراء ذوى النزعة السلفية ؛ إلا أن هذا التناسق لم يصاحبه أى اندماج مماثل فى طقوس العبادة المختلفة ، أو إيجاد « توليفة » من الانفعالات الدينية المتباينة . والمثل يقال

عند اتحاد مجمع الآلهة اللاتين بالأرباب الأوليمبين (على غرار إدماج جوبيتر بزيوس أو جونو بهيرا) ؛ إذ لم يتعد هذا إلى توحيد طقوس العبادة :

فإن الحاصل فى الواقع ؛ إن هو إلا إحلال البانثيون اليونانى ذى الصبغة البشرية ، مكان ديانة لاتينية حيوانية :

وثمة وضع مختلف يتصل بمسألة المطابقة بين أسماء الآلهة ، مطابقة تتم فيها المعادلات اللفظية إبان عصر تحلل ، والتى تحمل كذلك شهادة شعور بالابتذال . لكن سيتبين بالدراسة ــ رغما عن ذلك ــ أنها ليست ظواهر دينية أصيلة ، ولكنها ظواهر سياسية تستتر وراء قناع دينى :

تلك هى أوجه التطابق التى تتم بين أسماء الآلهة المختلفة فى عصر تتحد فيه بفعل القوة ــ على المستوى السياسى ــ أجزاء مجتمع متحلل ، بفضل حروب الغزو بين مختلف الدول الإقليمية التى سبق للمجتمع فيما مضى أن ترابط بها خلال مرحلة ارتقائه . ومن قبيل المثال ؛ عندما اتحد « أنليل Enlil » رب (بعل) نيبور Nippur مع ماردوك Marduk رب بابل : لما أخذ : ماردوك بعل ، رب بابل بدوره يختفى تحت اسم « خاربى kharbe » ؛ كان الاحتفال بهــذا الامتزاج ــ من ثم ــ سياسياً محضا . إذ يسجل التغير الأول ، استعادة الدولة العالمية السومرية بفضل إقدام الأسرة المالكة البابلية ؛ ويسجل التغير الثانى ، غزو سادة الحرب من الخاسين تلك الدولة العالمية :

وفى المجتمع المتحلل : نجد الآلهة المحلية التى ــ تتحد مع بعضها بعضا نتيجة توحيد الدول الإقلمية أو نتيجة نقل السلطة السياسية فى مثل هذه الإمبراطوريات المتحدة من إحدى جماعات الزعماء الحربيين إلى أخرى ــ تنزع إلى إيجاد نوع من القرابة المجازية بين بعضها بعضا ؛ تحت تأثير أنها فى معظم الحالات ، هى الآلهة السلفية لمختلف أقسام نفس الأقلية المسيطرة الواحدة :

ولهذا السبب فإن الشرط الذى يتطلبه تحقيق إدماج الأرباب ، لا يتناقض من ناحية المبدأ بشكل جدى ، مع سجية العادة والعاطفة الدينيتين ؛

ولكى نعثر على أمثلة التركيب بين العقائد الدينية فى تتغلغل إلى أعمق مما تقتضيه مستلزمات الأحوال وتستوعب الخفيف من الممارسة والاعتقاد الدينيين ؛ علينا أن نحوّل اهتمامنا من الدين الذى ترثه الأقلية المسيطرة عن ماض أسعد حالا ، إلى الفلسفة التى تنتزعها لنفسها استجابة للتحديات التى نتلقفها عن عصر الاضطرابات . ويجب أن نراقب المذاهب الفلسفية المتنافسة التى تصطدم وتختلط ، لا مع بعضها بعضا ، ولكن كذلك مع الأديان العليا الجديدة التى تُبرزها البروليتاريات الداخلية . ولما كانت هذه الأديان العليا تتصادم كذلك مع بعضها بعضا فضلا عن تصادمها مع المذاهب الفلسفية ؛ فإنه سيصبح من المناسب أن نلقى أولا نظرة على العلاقات بين الأديان العليا وبعضها بعضا ، ثم على العلاقات بين المذاهب الفلسفية وبعضها بعضا ؛ كل فى آفاقة الاجتماعية الأصيلة المنفصلة . وذلك قبل أن نمضى قدما فى موازنة النتائج الروحانية الأشد حركة ونشاطا ، تلك الموازنة التى تترتب وقتما تصبح المدارس الفلسفية ، على اتصال مع الأديان العليا .

ففى أثناء تحلل المجتمع الهلينى يبدو أن جيل بوسيدونيوس Posidonius[1] (حوالى ١٣٥ — ٥١ ق . م) يميّز بداية عصر جنحت فيه المذاهب الفلسفية المختلفة (التى كانت حتى هذا الوقت بإجماع الآراء مغتبطة بدخولها فى جدل شديد حاد باستثناء فريد يمثله الأبيقوريون) للملاحظة وتوكيد النقاط التى توحّدها ، أكثر من مراعاتها النقاط التى تفصل بينها : ثم جاء زمن إبان القرنين الأول والثانى من حياة الإمبراطورية الرومانية ، ساهم فيه كل

---

(١) بوسيدونيوس : (حوالى ١٣٥ — حوالى ٥١ ق . م) — فيلسوف من فلاسفة الرواقية . ولد بمدينة حياه بسوريا . وعليه تعلم شيشرون الفلسفة الرواقية . (المترجم)

فيلسوف فى العالم الهلينى لا يمت إلى الأبيقورية – مهما يكن من أمر الاسم الذى يطلقه على نفسه – بنصيب فى تكييف مجموعة العقائد الملفقة .

وتبدو نفس النزعة صوب المزج الفلسفى ، فى تاريخ تحلل المجتمع الصينى إبان المرحلة المقابلة للمرحلة السالفة الذكر . ففى خلال القرن الثانى قبل الميلاد – وتعادل فترة القرن الأول فى إمبراطورية هان – كان الاتجاه التلفيقى بالمثل ، سمة العقيدة التاوية التى وجدت فى بداية أمرها قبولا من لدن البلاط الإمبراطورى ، كما كان سمة الفلسفة الكنفوشيوسية التى حلت محلها . ولهذا المزج بين المدارس الفلسفية المتنافسة ، ما يوازيه فى العلاقات بين الأديان العليا ، المتنافسة :

فإننا نجد فى العالم السورى ابتداء من جيل سليمان وما تلاه ، ميلا قويا صوب التقريب بين عبادة ياهوى الإسرائيلية وعبادات بعل السائدة بين الجماعات السورية المجاورة . ولهذا التحديد التاريخى مغزاه ؛ لأننا قد وجدنا مبررا للاعتقاد بأن وفاة سليمان كانت نذير انهيار المجتمع السورى . ولا شبهة فى أن المظهر الأخاذ والخطير فى التاريخ الدينى الإسرائيلى خلال هذا العصر ؛ قوامه توفيق الأنبياء الفذ فى محاربة الشعور بالابتذال ، وفى تحويل تيار الارتقاء الدينى الإسرائيلى من مجرى التركيب السهل إلى سبيل جديد شاق كان غريباً على إسرائيل نفسها .

ومع ذلك ، لو تطلعنا إلى الجانب الدائن عوضا عن الجانب المدين من الحساب السورى للتأثيرات الدينية المتبادلة ، تطفر إلى أذهاننا أن فكرة مؤداها أن عصر الاضطرابات ربما يكون قد شاهد عبادة ياهوى تحدث ضغطا على الوعى الدينى لشعوب إيران الغربية ، التى زرع رجال الحرب الآشوريون بين ظهرانيها « تشتتا » من الإسرائيليين المرحلين ، ومن المؤكد على أية حال أنه قد حدث إبان عصر الدولة الأخيمينية وما بعدها ، ضغط قوى مضاد للوعى الدينى الإيرانى على الوعى الدينى اليهودى ؛ ولم يأت القرن الثانى قبل

الميلاد حتى بلغ الاندماج بين اليهودية والزرادشتية آمادا بعيدة ؛ حتى أن العلماء الغربيين المحدثين ليجدون أقصى صعوبة فى تحديد عناصر كل من العقيدتين وفصلها عن بعضها بعضا . تلك العناصر التى ساهم بها كل من هذين المصدرين الدينيين ، فى تكوين التيار الذى غذته أمواههما المتحدة .

ونجد بالمثل فى الأديان العليا للبروليتاريات الداخلية للعالم السندى اندماجا — يذهب إلى مدى أبعد من أن يكون مجرد اتفاق أسماء — بين عبادة كريشنا وعبادة فيشنو .

ومثل هذه الثلمات التى توجد فى الحواجز القائمة بين دين وآخر ، أو بين فلسفة وأخرى إبان عصور التحلل ؛ تفتح الطريق للتقارب بين المذاهب الفلسفية والأديان . وسنجد فى هذه التراكيب الفلسفية الدينية ؛ الانجذاب المتبادل ، واتصال الحركة بين الجانبين .

وكما أننا قد راقبنا من بين فرجة الحدود الحربية لدولة عالمية ؛ الجنود فى حصونهم والمحاربين فى العصابات الحربية البربرية ، يتدانون تدريجيا من بعضهم بعضا فى طرائق حياتهم إلى أن تمتنع — على طول المدى — أوجه الاختلافات بين الطرازين الاجتماعيين ؛ فمن ثم يصبح فى مكنتنا أن نراقب فى داخلية الدولة العالمية ، حركة تقارب مناظرة ؛ بين أتباع المذاهب الفلسفية والعاكفين على الأديان الشعبية . وهذه المشابهة تصدق بالفعل . . . لأننا نجد فى هذه الحالة — كما وجدنا فى الأخرى — أنه وإن كان ممثلو البروليتاريا يقتربون فعلا مسافة ما لمقابلة ممثلى الأقلية المسيطرة ، فإن الأخيرين يذهبون إلى أبعد من ذلك كثيرا فى سيرهم على طريق التحلل البروليتارى . وهنا ؛ تبدى لنا ملائمة ملاحظة أقصر رحلة روحية للطريق البروليتارى ، قبل أن نحاول تتبع الرحلة الروحية الأطول للأقلية المسيطرة .

وعندما تجد الأديان العليا للبروليتاريا الداخلية نفسها وجهاً لوجه مع

الأقلية المسيطرة ، يحتمل عندئذ (فى بعض الأوقات) أن يتوقف تقدمها فجأة على طول طريق التقارب ، عند الدرجة التمهيدية لإثارة انتباه الأقلية المسيطرة عليها ، باستخدامها الأنماط الظاهرة لأسلوب الأقلية المسيطرة الفنى .

ومصداقاً لهذا الرأى ، نجد كافة منافسى المسيحية الفاشلين - إبان فترة تحلل العالم الهلينى - ينشدون تحقيق نجاح مشروعاتهم التبشيرية على الأرض الهلينية ، عن طريق إعادة صبّ الشخصيات اللاهوتية ، فى أشكال يحتمل أن تجد هوى لدى الأعين الهلينية . بيد أنه لم يُقيّض لأى منها تحقيق تقدم ذى قيمة صوب الخطوة التالية الخاصة بإسباغ الطابع الهلينى على نفسها باطنياً كما أسبغته ظاهرياً . فكانت المسيحية وحدها - من ثم - هى التى ذهبت إلى أبعد حد فى مضمار التعبير عن عقيدتها بلغة الفلسفة الهلينية .

ولقد رمز فى تاريخ المسيحية إلى مسألة الصبغة الهلينية الثقافية لدين يمتّ جوهره الإبداعى إلى مصدر سورى ، باستخدام كلمة يونانية آتيكية عوضاً عن الآرامية ، تعنى « كلمة الله الخلاّقة » واعتبرت هـــذه الكلمة هى « الحمّالة اللغوية » للعهد الجديد[1] . ذلك لأن الناحية اللفظية لهذا اللسان المتحذلق ، تضم بين طياتها حشداً من التضمينات الفلسفية :

« تعتبر الأناجيل المتقاربة[2] يسوع ابن الله . ويعمّق الإنجيل الرابع فى سياقه ، هذه العقيدة ويسير بها شوطاً بعيداً . بيد أن تقدمة الإنجيل الرابع تذكر أيضاً عرَضاً أن مخلص العالم هو كلمة[3] الله الخلاّقة . فواضح إذاً أنه وإن لم يكن البيان واضحاً ، إلا أن الابن والرب وكلمة الله ؛ جميعها واحد ، وهى الشىء ذاته . فإن الابن مثل الكلمة ، يتحد مع حكمة الربوبية ومشيئتها . ولقد جُعلت الكلمة - مثلما جعل الابن - أقنوما فى شخص ، إلى جانب

---

(١) العهد الجديد : الإنجيل . (المترجم)

(٢) الأناجيل المتقاربة : هى أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا . (المترجم)

(٣) Logas

قنوم شخص الآب . وهكذا أصبحت فلسفة الكلمة دينا ، وهـذا دفعة واحدة[١] » .

وكانت هذه الوسيلة للتبشير بالدين بلغة الفلسفة ، واحد من المواريث التى أورثتها اليهودية للمسيحية . فإن فيلو اليهودى — فيلسوف الإسكندرية (حوالى ٣٠ ق . م — ٤٥ م) — هو الذى نثر البذرة التى حصد منها محصولا وافراً بعد ذلك بقرنين ، مواطنان مسيحيان من مواطنى فيلو ، هما «كلمنت وأوريجين Origen . ولعل مؤلف الإنجيل الرابع ، قد استلهم من نفس المصدر فكرته عن الكلمة الربانية التى وحّد بها إله المتجسد . ولا شبهة فى أن هذا الرائد اليهودى للآباء المسيحيين السكندريين ، قد ولج الفلسفة الهلينية من خلال باب اللغة اليونانية . إذ لم يكن من قبيل المصادفة أن يكون فيلو قد عاش بالتأكيد وبث تعاليمه الفلسفية فى مدينة غدا فيها اللفظ الآتيكى الذى يعنى « الكلمة » لفظا شائعا عند جماعة يهودية محلية فقدت معرفتها بالعبرية تماما ، بل نسيت علمها بالآرامية التى سبق لها أن استخدمتها فى ترجمة كتبها المقدسة ، فانتهكت بذلك حرمتها لترجمتها إياها إلى لغة من لغات الأمميين . بيد أن هذا « اليهودى » الذى أنجب فلسفة مسيحية ، يعتبره التاريخ اليهودى شخصية منفصلة عنه ، وما يزال مجهوده الفاره لاستخلاص الفلسفـة الأفلاطونية من القانون الموسوى مجهوداً جباراً عديم الثمرة .

وإذا ما انتقلنا من المسيحية إلى الميثرية (وهى منافسة المسيحية فى غزو العالم الهلينى غزوا روحياً) ، نلاحظ أن اللحاء[٢] الميثروى ، قد أخذ معه على ظهر السفينة إبان رحلته غربا من موطنه الإيرانى ، حمولة ثقيلة من الفلسفة البابلية المتصلة باستقراء النجوم .

---

(١) صفحة ٢٩٨ من المجلد الرابع More, P.E. : Chirst the word : The Greele Tradition from the Death of Socrates to the council of Chalecedon

(٢) اللحاء : قشرة الشجرة . (المترجم)

وبطريقة مشابهة ، اغتصبت الهندوكية – الدين السندى الأسمى – فلسفة بوذية اعترتها الشيخوخة ، لكى تستحوذ لنفسها على الأسلحة التى طاردت بها الفلسفة المنافسة لها ، بعيداً عن موطنهما المشترك فى العالم السندى .

وإن من رأى واحد على الأقل من علماء الآثار المصرية البارزين ، أن عبادة أوزيريس البروليتارية ، قد بلغت مجمع الآلهة الوراثى للأقلية المسيطرة المصرية عن طريق واحد فحسب قوامه اغتصاب دور « رع » الأخلاقى ؛ دور هو فى الأصل غريب عن عقيدة أوزيريس تماما ، ومناطه ربوبية تبدى وتحقق العدالة . بيد أن « اغتصاب المصريين هذا » ، قد كلف العقيدة البروليتارية عنا غاليا . لأنه كان على الدين الأوزيرى أن يؤدى مقابل ريش الزينة الذى استعاره ، وضع مصيره فى أيدى الفريق الذى أُجبر على إعارتها ؛ وتمثلت ضربة المعلم التى سددتها الكهانة المصرية القديمة ، فى وضع نفسها تحت تصرف حركة دينية ناهضة . وبهذا الشكل ، فرضت نفسها زعيمة على حركة عجزت عن إخمادها أو حصر نفوذها . وبهذه الكيفية وفقت الكهانة المصرية إلى رفع نفسها مكانا عليا ، لم تبلغه من قبل :

إن استيلاء كهنة مجمع الآلهة المصرية القديم على الدين الأوزيرى ، له ما يماثله فى استيلاء طبقة البراهمة على الهندوكية ، واستيلاء طبقة الماجى Magi على الزرادشتية .

بيد أنه ما يزال هناك طريق أشد اعوجاجا ، تميل العقيدة البروليتارية فيه إلى السقوط فى أيدى الأقلية المسيطرة . ذلك لأن طبقة الكهنة التى تحظى بالسيطرة على نظام دينى بروليتارى ثم تسىء استخدام سيطرتها بالتحكم فيه وفقا لروح الأقلية المسيطرة ومنفعتها ؛ لا يقتضى الأمر أن تكون كهانة قديمة العهد تمت بأصلها إلى الأقلية المسيطرة . فإنها قد تُعبأ فى الواقع من بين الأعلام البارزين للعقيدة البروليتارية نفسها :

ولقد أمكن إنهاء حالة « التوتر » التى قامت بين العامة والبطارقة[1] فى الفصل المبكر من تاريخ الجمهورية الرومانية السياسى ؛ بفضل عقد « اتفاق » ، أشرك البطارقة بمقتضاه زعماء العامة معهم ، ولكن مع شرط أضمنى مداره خيانة هؤلاء الزعماء ثقة زملائهم فيهم ، والتخلى عنهم فى مأزقهم .

وحالة مماثلة على المستوى الدينى ؛ خان الفريسيون والنساخ قبل عهد المسيح ، ثقة جمهرة اليهود وتخلوا عنهم . ولقد عاش هؤلاء اليهود الانفصاليون ليستحقوا اسمهم الذى اختاروه علما عليهم ، بمعنى يناقض نيتهم وقتما انتحلوه لأنفسهم . فإن الفريسيين كانوا فى الأصل من أتقياء اليهود ومتزمتيهم ، عزلوا أنفسهم عن بقية اليهود الذين غلبت عليهم الصبغة الهلينية ، وما يعنيه ذلك من الانضمام إلى معسكر أقلية مسيطرة دخيلة . بيد أن سمة الفريسيين المميزة فى عهد السيد المسيح ، مدارها انفصالهم عن أفراد الجماعة اليهودية المخلصة المتعبدة ؛ وكانوا ما يزالون يؤكدون — فى نفاق — أنهم لها قدوة . فهذا هو الأصل التاريخى للاتهام المؤذى الذى لصق بالفريسين والذى يدوى من خلال صفحات الأناجيل . وهكذا بات الفريسيون هم النسخ الدينية المطابقة لسادة اليهودية من ساسة روما . ونشاهدهم أثناء مأساة عذاب المسيح عند الصلب يقفون متحمسين إلى جانب السلطات الرومانية لتدبير موت نبى من جنسهم ألصق بهم الخزى .

وبانتقالنا إلى فحص الحركة المكملة التى اقترب فيها فلاسفة الأقلية المسيطرة من أديان البروليتاريا ، سنجد العملية على هذا الجانب تبدأ أكثر تبكيرا ، إلى جانب سيرها شوطا أبعد . فإنها تبدأ من الجيل الأول بعد الانهيار ؛ وتمر من مرحلة التطلع ، إلى المعرفة . وتعبر مرحلة الورع ، إلى مرحلة الخرافة .

---

(1) Plebeians and Patricians

وتتأكد مسألة تبكير التدفق الأول للصبغة الدينية ؛ فى الحالة الهلينية التقليدية التى تبدو فى استخدام أفلاطون إياها فى عرض كتابه « الجمهورية » . ويرتب المنظر فى بيريه — وهى أقدم بوتقة للتفاعل الاجتماعى فى العالم الهلينى — قبل النهاية القاتلة للحرب الأثينية البلوبونيزية : ويقيم فى البيت الذى يُفترض جريان الحوار فيه ، سيد أجنبى : ويبدأ سقراط — وهو الراوى الذى تزعُمه القصة — بإخبارنا أنه أتى إلى الميناء من مدينة « أثينا » كى يرفع إجلاله إلى « بنديس » الإلهة التراقية ؛ وليلاحظ — استجابة لطُلَعته — كيفية إعداد القوم للاحتفال الذى يقام فى هذه المناسبة لأول مرة فى بيريه . وهكذا ؛ يلوح الدين فى « الأفق » هنا مسرحا لهذه القطعة الرفيعة من الفلسفة اليونانية : وليس ذلك فحسب ، فإن الدين هنا ، كان عبادة غريبة غير مألوفة .

هنا نجد بكل تأكيد ؛ تقدمة تقودنا إلى النتيجة التى وصفها بحاثة غربى بالكلمات التالية :

« إن الشيء الخارج عن القياس . . . مداره أنه رغما عن المصدر الأجنبى للأسطورة المسيحية الجديدة ؛ كان لا مناص من بروز المسائل المتصلة بالآراء الدينية للآباء اليونانيين وفلسفتهم ، فى الموضوعات الأساسية ؛ وأن تظهر فى منحى أفلاطونى جامع . أو أن تُختار — بتعبير أكثر دقة — من آراء أفلاطون مع تعديلها إلى أقل مدة ممكنة . وقد يقودنا مثل هذا الامتزاج بين المسيحية والفلسفة اليونانية إلى الظن بأن الفكرة الدينية التى سعى أفلاطون إلى إحلالها مكان الروايات المتواترة عن آلهة الأوليمب ؛ لا تتعارض مع المسيحية بقدر ما هى مسيحية غير كاملة . . . بل إنه قد يتيسر — باستقراء فكرة هنا وأخرى هناك — تصوّر إدراك أفلاطون نفسه — إدراكا غير واضح المعالم — لمظاهر إلهية قادمة فى طريقها . وتعتبر الاستعارات التى استخدمها فى كتابته عنها ، بمثابة التنبؤ بها فلقد أنذر سقراط

الأثينيين فى فصل « الاعتذار » بأن شهودا آخرين سينصفونه ويقتصّون من وفاته : وسلّم سقراط فى موضع آخر ، بأن الحقيقة الكاملة — بسبب أوجه الاستدلال والابتكارات الفلسفية — لاتتأتى معرفتها ، إلا إن أظهرتها للإنسان رحمة الله »[1] :

وإن سجلّنا التاريخى عن هذا التحوّل من الفلسفة إلى الدين ، واف بالنسبة للحالة الهلينية بدرجة كافية ، ليتيح لنا تتبع العملية من خلال مراحلها المتتابعة :

فإن التطلّع الثقافى الرصين الذى هو سمة نظرة سقراط تجاه عقيدة بنديس الراقية — كما صوّرها أفلاطون — هو بالمثـــل الذى اتسم به هيرودوتس وهو معاصر لسقراط التاريخى — فى نبذاته العرضية المتصلة بدراسة الدين دراسة مقارنة . وقد اتجه اهتمامه بهذا الموضوع اتجاها علميا ؛ ومع ذلك ؛ فقد أصبحت للمشكلات اللاهوتية أهمية عملية كبرى للأقلية المسيطرة ، بعد قيام الإسكندر الأكبر بخلع الإمبراطورية الأخيمينية عن سلطانها ؛ وما تلاه من اضطرار الحكام الهلينيين للدول [التى خلفت تلك الامبراطورية ، إلى تهيئة نوع من الطقوس لسد الاحتياجات الدينية لسكان بلادهم المختلفى الأجناس : وأخذ مؤسسو المدرستين الرواقية والأبيقورية ودعاتهما ؛ يهيئون لنفوس الأفراد ، قسطا من الراحة : وهى نفوس ألفت نفسها مهملة فى فلاة روحية :

بيد أننا لو اتخذنا من نغمة مدرسة أفلاطون وطابعها ، مقياسا لسبر غور نزعة الفلسفة الهلينية السائدة فى هذا العصر ، سنجد مريديها إبان القرنين اللذين تليا عصر الإسكندر ، يندفعون أبعد من ذلك على طول سبيل مذهب « الشكّية »[2] :

---

(١) صفحتا ٦ و ٧ . More, P.E. Chriet, the Word.

(٢) Scepticism مذهب فلسفى تقوم قواعده على الشك فى كافة العقائد والآراء . (المترجم)

ولقد حدث تحول التيار تحولا حاسما ، مع ظهور بوسيدونيوس من حماه[١] ، الذى فتح أبواب الرواقية على مصراعيها لاستقبال المعتقدات الدينية الشعبية . وانتقلت زعامة المدرسة الرواقية بعد ذلك بأقل من قرنين إلى سنيكا Seneca أخى جاليو Gallio ومعاصر القديس بولص . وإنه ليوجد فى أعمال سنيكا الفلسفية ؛ عبارات تعيد إلى الأذهان ، جملا وردت فى رسائل بولص الإنجيلية . الأمر الذى حدا — فى عصر تال — ببعض المشتغلين باللاهوت المسيحى من الشخصيات الأقل تعمقا فى التفكير ، أن يطلق العنان لتفكيره بأن الفيلسوف الرومانى كان يراسل الرسول الديني المسيحي .

على أن مثل هذه الظنون لا لزوم لها ، كما أنها بالمثل بعيدة الاحتمال . ذلك لأنه ليس هناك ما يدهشنا في هذا الانسجام بين نغمتي قطعتين موسيقيتين روحانيتين لحنتا فى ظل الهام تجربة اجتماعية .

ولقد شاهدنا في دراستنا العلاقات بين الحراس الحربيين لحدود حضارة متحللة ، وبين الزعماء البرابرة العسكريين فيما ورائها ؛ كيف أن الفريقين قد تدانوا خلال الفصل الأول ، أحدهما من الآخر ، إلى نقطة لا يتأتى عندها — على سبيل الفرض — امكان التفرقة بينهما . كما شاهدنا ، كيف أنهما يتلاقيان فى الفصل الثانى ويمتزجان على مستوي من البربرية بليد .

ويتبين من القصة المماثلة للتقارب بين فلاسفة الأقلية المسيطرة ومتعبدى الدين البروليتارى ، أن مسألة التقريب — على مستوى رفيع — بين سنيكا والقديس بولص ، تشير إلى خاتمة الفصل الأول . فى حين تهاوى الفلسفة فى الفصل الثانى ، أمام تأثيرات دينية أقل تهذيباً ؛ انحدرت من مرتبة الورع إلى مستوى الشعوذة .

---

(١) فيلسوف سورى يونانى الأصل ، ينتسب إلى المدرسة الرواقية ؛ وقد ظهر إبان الفترة ١٣٥ — ٥١ ق . م تقريبا . (المؤلف)

وتلك هي النهاية التعيسة التي انتهت إليها المذاهب الفلسفية للأقلية المسيطرة ، وهذا هو ما آلت إليه حتى وقتما كانت تكدّ ، مستخدمة طاقتها بأسرها في ، سبيل الفوز بسبيل لها على هذه التربة الروحية البروليتارية المضرمة ؛ تربة هي مزهر الأديان العليا . ولن تستفيد هذه المذاهب الفلسفية من كونها بالمثل قد ترعرعت في نهاية المطاف ، وقلما ثار لنفسه منها هذا الأزهار الواني النافر ، عن طريق تحلله إلى نضارة عليلة . وكان أن قضت المذاهب الفلسفية نحبها إبان الفصل الأخير من مسرحية التحلل الحضاري ، في حين ظلت الأديان العليا تعيش وتجازف على المستقبل بمطالباتها .

ولقد عاشت المسيحية ، وأزاحت جانبا ، الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي لم يقيّض لها العثور على أكسير الحياة ، في منحاها المنبوذ القائم على اتباع الطريقة العقلية . وحقا ؛ يقتضي تلاقي المذاهب الفلسفية والأديان ، تألق الأديان وتضاؤل المذاهب الفلسفية . ولن نستطيع التحوّل عن دراستنا لموضوع التصادم بين الفريقين ، من غير التوقف لبحث السبب في كون هذا الانحدار للمذاهب الفلسفية ، أمراً مقضيا .

فما هي إذاً ، عوامل الضعف التي تقضي على الفلسفة بالهزيمة ، عندما تدخل حلبات الصراع لمنازلة الدين ؟

يكمُن الضعف القتّال والجوهري الذي تعانيه المذاهب الفلسفية ، في افتقارها إلى الحيوية الروحية . ويعجّز هذا الافتقار — إلى الوثبة الدافعة — الفلسفة في ناحيتين :

إذ تختزل جاذبيتها للجماهير وتثبط همة أولئك الذين يشعرون بجاذبيتها ، في تكوين أنفسهم للدعوة لها .

وحقا ، تنزع الفلسفة إلى تفضيل أقلية مثقفة ممتازة « توائم القلة » ؛ ومثلها في هذا مثل الشاعر ذي الثقافة الرفيعة الذي يعتبر ضآلة توزيع

دواوينه شاهد صدق على متانة نظمه . ولم يشعر هوراس Harace إبان الجيل السابق لجيل سنيكا بأى حرج فى استهلال ندائه الوطنى الفلسفى فى أناشيده الرومانية بالأبيات التالية :

إليكم عنى ، أنتم أيها القطيع الدنس

سكوتا ! لا تدع لسانا خلوا من القداسة

يزعج طقوس الغناء القدسية

بينما أنا ، الكاهن الأكبر للتسعة

أحيك للشباب وللعذارى

لحنا جديداً أعظم شموخاً(١) .

وإن ثمة بونا شاسعا بين هذا القول وبين المثل الذى ضربه السيد المسيح : « اذهبوا إلى الطرق العامة والأسوار ، والزموا من تجدون بالدخول ، لعل دارى تصبح حافلة » .

وعجزت الفلسفة تماما عن مجاراة قوة الدين ، عندما يكون فى أحسن حالاته . فليس فى وسع الفلسفة إلا أن تقلّد وأن تحاكى فى صورة تهكمية ، مناحى الضعف التى تبدو فى متعبّدى الدين المنحطين . وأن نسمة الدين التى أنعشت إبان جيل سنيكا وابيكتوتوس ، الصرح الفكرى الهلينى ذا البناء المبين ؛ سرعان ما أسنت بعد جيل ماركوس أوريليوس ، إلى ضرب من التدين العفن . فكان أن تردى ورثة التقاليد الفلسفية ، بين نوعين من الوَسَخ ؛ باطّراحهم نداء العقل من غير أن يعثُروا على طريق يقودهم إلى القلب . وأنهم بصدوفهم عن الحكمة ، قد تطوروا ، لا إلى قديسين ، ولكن إلى مشعوذين .

---

(١) Horace : Odes, Bt. III, 11.1 - 4 (cldi profamum vulgus, & C.)
Sir Stephen de Vere Translation.

ولقد تحوّل الإمبراطور جوليان عن آراء سقراط إلى آراء ديوجنيس ، ليستمد منها فلسفته المثالية . وديوجنيس هو الشخصية الأسطورية التى استمد منها أكثر مما استمد من المسيح ، القديس سمعان العمودى[1] واتباعه نزعتهم الشكّية . وحقا يعترف من خلفوا أفلاطون وزينون Zeno بقصور معلميهم العظيمين وضعف أساليبهما ؛ إذ يتركان لنفسيهما العنان لمحاكاة البروليتاريا الداخلية التى كانت تمثّل فى الحقيقة الواقعة ، أصدق صور مداهنة طبقة العوام المبتذلة التى أبعدها هوراس عن محيط نظّارته[2] .

ولم يكن أتباع المذاهب التى ظهرت أخيراً مثل الأفلاطونية الجديدة ، ولامبليخوس Lamblichus وبروكلوس Proclus ؛ فلاسفة بقدر ما هم كهنة عقيدة دينية لا وجود لها فى عالم الواقع . ومصداقا لذلك ، كان جوليان Julian ــ الذى يتسم بتحمسه للوظيفة الكهنوتية وللطقوس الدينية ــ المنقذ المرتجى لمناهجهم . إلا أن الانهيار الذى حاق ــ عقب معرفة نبأ وفاته ــ ببنائه الدينى الذى كانت تعينه الدولة ، لبرهان على صدق نظرة مؤسس إحدى مدارس علم النفس الحديثة :

« إن الابتكارات الكبرى لا تفد من أعلى أبداً . إنها تأتى باستمرار من تحت . . تنبعث من عامة جمهور الأرض الصامتين الذين يتعرضون للسخرية . هم أولئك الأقل تأثراً بأهواء العلماء من الشخصيات البعيدة الصيت[3] » .

---

(١) والعمودى : فئة نصرانية من النساك عاش نساكها فوق العمدان إتباعا لسمعان العمودى . (المترجم)

(٢) النظارة : مشاهدو المسرحيات . (المترجم)

(٣) Iung, C.G : Modern Man in search of a Soul

(هـ) الأمير يعيّن الدين[١] :

لاحظنا في نهاية الفصل السابق ، أن جوليان الإمبراطور قد فشل في أن يفرض على رعاياه دينا متحللا ، انصرف هو إليه استجابة لفلسفته الذاتية . ويثير تصرفه هذا سؤالا عاما مداره فيما إذا كان في وسع الأقليات في ظل ظروف أفضل ، أن تعوّض ضعفها الروحي بإلقاء قوتها المادية إلى المعترك ، وتفرض على رعاياها ، مذهبا فلسفيا أو عقيدة دينية ؛ وتستخدم لتحقيق ذلك ضغطا سياسياً لن يحقق الغرض منه ، على الرغم من عدم شرعيته . وإنه وإن بدا هذا السؤال بعيداً عن المنحى الرئيسي لهذا الجزء من دراستنا ، إلا أننا نرى جدوى البحث عن إجابة له ، قبل السير شوطاً في الدراسة أبعد من ذلك .

فإذا فحصنا الدليل التاريخي على صحة هذه المقدمة ، سنجد أن مثل هذه المحاولات ، تدلل على قصورها خلال المدى البعيد على الأقل . وهذا أمر يناقض بشكل قطعي إحدى نظريات الاستنارة عصر الاضطرابات الهليني . وهذه النظرية تقرر أن فرض القواعد الدينية من أعلى إلى أسفل عن عمد وإصرار ؛ ليس بالأمر المستحيل أو الغير العادي ؛ بل هو في الواقع المصدر المعتاد للنظم الدينية بين ظهراني المجتمعات التي تمر بعملية التحضر . ولقد طبقت هذه النظرية على حياة روما في عبارة بوليبيوس[٢] المشهورة :

« في رأيي أن النقطة التي يبز بها الدستور الروماني غيره بشكل ظاهر

---

(١) إن صيغة الأمير يعين الدين هي الخلاصة القديمة للنص الأساسي في معاهدة أوجسبرج عام ١٥٥٥ ميلاديه ، التي اعترف فيها (لأمير) كل دولة من الدول الألمانية الإقليمية أن تختار بين المذهبين الكاثوليكي أو اللوثري من المسيحية . وله وفقا لرغبته أن يصر على اعتناق رعاياه الدين الذي اختاره لنفسه . ولقد أعقبت المعاهدة ، دورة الحروب الدينية الشاملة في ألمانيا . (المؤلف)

(٢) بوليبيوس : حوالي ٢٠٦ - ١٣٦ قبل الميلاد . (المؤلف)

تماماً ، تكمُن فى معالجة شؤون الدين . فإن الرومانيين فى رأيى ، قد عمدو إلى صياغة الرابطة الأساسية لنظامهم الاجتماعى من شئ ء تمقته بقية العالم ، وأعنى به الخرافة : فإن الرومانيين فى تحويرهم خرافاتهم إلى مشاهد مسرحية ، يذهبون فى ذلك إلى أقصى ما يمكن تصوره . على أن الرومانيين فى رأيى قد فعلوا ذلك وهم يحسبون للجماهير حساباً . فلو أمكن تكوين طبقة الناخبين من الحكماء إطلاقا ، لما كانت ثمة ضرورة إلى هذه المماحكة . لكن الجماهير هى فى حقيقة الأمر مذبذبة دائما ، كما أنها مشحونة باستمرار بالانفعالات المتمردة وبالمزاج البعيد عن العقل وبالسورة الجائرة . ومن ثم لا يوجد ثمة سبيل إلا بالسيطرة على الجماهير عن طريق إخافتها بالمجهول ، وإخراج مسرحيات من هذا النوع . وإنى أتخيل بأن هذا هو مبعث إشاعة أسلافنا لهذه المعتقدات الدينية بين أوساط الجماهير ونشرهم أفكاراً عن جهلهم ، أصبحت متوارثة . وأتخيل كذلك أن أجدادنا بفعلهم هذا لم يسيروا يوحى المصادفة ، لكنهم كانوا مدركين ما يهدفون إليه . ولقد يكون أليق أن نتهم معاصرينا إذ يعملون على استئصال الدين بالافتقار إلى الإحساس والسعى لتفادى المسئولية ، وهذا ما نراهم يفعلونه »[1] .

إن رد منشأ الدين إلى النظرية السالفة الذكر ، بعيد عن الحقيقة ، بعد نظرية العقد الاجتماعى عن موضوع تكوين الدول . فإذا تابعنا فحص الدليل ، سنجد أنه بينما أن السلطة السياسية لا تعجز تماما عن إبراز تأثيراتها على الحياة السياسية ؛ تتوقف قدرتها على الفعل ، فى هذا الميدان ، على توافر طائفة من التوافقات بين الظروف وبعضها بعضا . ويلاحظ أن مجال فعلها معين تعيينا ضيقا ؛ وبالأحرى تعتبر فرص النجاح أمامها ، استثناء ؛ وأسباب الفشل هى القاعدة .

---

(١) الفصل ٥٦ من الكتاب السادس . Palybrius : Historial

فلنبحث الاستثناءات أولا :

لعلنا نلاحظ أن الحكام السياسيين يوفقون فى بعض الأوقات فعلا ، فى إقامة معتقد دينى . إلا أن ذلك يتم وقتما يكون هذا المعتقد الدينى تعبيراً عن شيء من الشعر السياسى يتخفى فى ثياب دينيـــة ؛ وليس هو تعبيرا عن إحساس دينى أصيل . ويطالعنا من قبيل المثال ؛ الطقوس الدينية المتحلة التى تعبر عن التعطش للوحدة السياسية لمجتمع تجرع كأس عصر الاضطرابات المر حتى الثمالة . ففى ظل هذه الظروف ، قد يوفق حاكم فاز بالفعل بالسيطرة على قلوب شعبه ، باعتباره هو مخلصه البشرى ؛ فيعمد إلى إقامة عقيدة دينيـــة تصبح فيها حكومته وشخصه وأسرته الملكية ، موضوعات العبادة .

ويتمثل المثال التقليدى لهذا العمل الفاره ، فى تأليه الأباطرة الرومانيين . على أن عبادة قيصر ؛ قد دللت على كونها عقيدة موقوتة بأوقات السراء ، وأنها النقيض التام « للعون الذى يبرز إبان عصر الاضطرابات » . وهذا العون هو بالفعل الدين الحقيقى . وليس أدل على ذلك من عدم صمود عبادة قيصر ؛ من تداعيها وقتما جاءت أول انهيار ألم بالإمبراطورية الرومانية عند دوران القرنين الأول والثانى . وهذا ما أدى بالأباطرة المحاربين الذين ظهروا بعد ذلك وآلوا على أنفسهم تنظيم مجتمعهم ؛ أدى بهم إلى التطلع هنا وهناك صوب قوة علوية أسمى من « عبقريتهم الإمبراطورية الذاتية » المعيبة . فكان أن تحزب أورليان Aurelian وكونستانتيوس خلوروس Constantins Chlorus لفكرة الشمس المجردة ذات القوة العارمة . على أنه لم يمض سوى جيل من الزمن ، حتى حول قسطنطين الأكبر (٣٠٦ ــ ٣٣٧ ميلادية) ولاءه إلى رب البروليتاريا الداخلية ، رب دلل على أنه أعظم حولا وقوة من الشمس أو القيصر[١] .

وإذا ما تحولنا من العالم الهلينى إلى العالم السومرى ، نلاحظ وجود تشابه فى عبادة القيصر ، فى العقيدة الدينية المتصلة بالشخصية البشرية الذاتية

---

(١) أى العقيدة المسيحية . (المترجم)

لرئيس الدولة عند السومريين . وهى عقيدة لم يشترعها مؤسس الدولة العالمية السومرية — أور انجور — ولكن اشترعها خلفه دونجى (حوالى ٢٢٨٠ — ٢٢٢٣ ق . م) . بيد أن هذه العبادة ظهر أنها موقوتة كذلك بزمن معين . وعلى أية حال ، لم يحكم حمورابى العمورى كاله متجسد فى ملك ، لكنه حكم كخادم للمعبود المتسامى[1] « مازدوك بعل » . هذا ويشغل حمورابى فى التاريخ السومرى ، مركزا يشابه مركز قسطنطين فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية .

ويؤيد صورتنا الذهنية عن الضعف المجانس للعقائد الدينية التى يبثها الحكام السياسيون من أعلى إلى أسفل ؛ إجراء فحص لمثل هذه الآثار لعبادة قيصر وفقا لما عسانا أن نعثر عليه فى الدول العالمية الأخرى : الانديانية ، والمصرية ، والصينية . بل إنه حتى وإن كانت مثل هذه العقائد الدينية ، سياسية فى جوهرها ، دينية فحسب فى مظهرها ، وحتى وإن طابقت الشعور الأصيل ؛ إلا أنها تتسم بضعفها على الصمود للعواصف .

وثمة نوع آخر من الحالات ، يسعى فيها الحاكم السياسى إلى فرض عقيدة دينية لا تعتبر مجرد نظام سياسى فى زى وطنى ؛ بل أن للعقيدة طابعا دينياً أصيلا . وفى مكنتنا أن نشير كذلك فى هذا الميدان إلى حالات حققت فيها التجربة درجة ما من النجاح . على أنه قد يبدو مع ذلك ، أن شرط النجاح فى مثل هذه الحالات التى يفرض فيها الدين فرضا ؛ مداره أن يكون الدين « مشروعا قائماً » فى نفوس أقلية من رعايا الحاكم السياسى ، على الأقل . على أنه حتى مع توافر هذا الشرط وبلوغ النجاح ؛ يتحول الثمن الذى يؤدى ، إلى ثمن فادح . ذلك لأن الدين الذى يفرض بنجاح — بفضل همة سلطة سياسية — على جميع النفوس التى تخضع أجسامها للحاكم الذى يفرض ذلك الدين ، فى مكنته أن يحرز لسلطانه هذا الجزء الضئيل من العالم ، بفضل ثمن قوامه التفريط فى احتمال صيرورته ديناً عالميا أو استمراره فى هيئة دين عالمى .

ومن قبيل المثال : أن المكابيين قد انصرفوا قبل نهاية القرن الثانى قبل الميلاد ، عن تأدية دورهم كحماة حزبيين للدين اليهودى ، ضد تحوّل قسرى صوب الهلينية ؛ إلى مؤسسين وحكام لإحدى الدول المستخلفة للإمبراطورية السلوقية . فكان أن تحوّل – بدورهم – هؤلاء المناضلون الأشداء الذين قاوموا التعسف ، إلى أهل جور نصبوا أنفسهم لفرض اليهودية على منطقة ايدوماثيا[١] ، وعلى جليل الأمميين[٢] ، وعلى مقاطعة بيرائيا شرق الأردن .

ومع ذلك ، كان انتصار المكابيين ضيق النطاق . ذلك لأنه قد أخفق فى التغلب على نزعة الاصطفائية[٣] عند السامريين ، أو التغلب على كبرياء أهل الحضر فى مجموعتين متصلتين فى انتظام ، من المدن ذات النزعة الهلينية . وكانت المجموعتان تقعان فى جناحى أملاك المكابيين على كلا الجانبين : فكانت إحدى المجموعتين تقع على طول ساحل فلسطين الواقع على البحر الأبيض المتوسط ، وتقع الثانية على طول حدّها الصحراوى فى ديكابوليس[٤] . وحقا كانت المنفعة المترتبة على القوة ، لا يؤبه لها ؛ وما

---

(١) أيدوماثيا Idomaea : هى إدوم (سدوم) فى التوراة . منطقة طولها مائة ميل وعرضها عشرون ميلا ، وتمتد جنوب فلسطين من البحر الميت إلى خليج العقبة (أى صحراء النقب الحالية) . وسميت المنطقة فى التوراة باسم أدوم وهو ابن يعقوب (ويسمى أيضا عيساو) . ولكن هذا لا يعنى أن المنطقة قد خضعت لليهود عن طواعية أو أنهم احتفظوا بسيطرتهم عليها أمدا طويلا . فإن سكانها من قدماء العرب كانوا فى حرب متصلة معهم عدا عصر داود وسليمان . ثم ثار سكان المنطقة على مملكة يهوذا اليهودية وظفروا بحريتهم بعد انهيار هذه المملكة . ثم خضعت المنطقة للرومان ، وشملها الفتح الإسلامى فيما شمل من مناطق . وأخيرا انتهى بها المطاف إلى استيلاء إسرائيل عليها فى حرب ١٩٤٨ بصفة مؤقتة إن شاء الله . (المترجم)

(٢) Galilee of the Gentiles

(٣) اصطفائية Particularism : فى اللاهوت ، الاعتقاد بأن الله قد اختار شعبا من الشعوب ليكون سيد العالم . (المترجم)

(٤) ديكابوليس Decapolis اسم استخدمه المؤرخون للتعبير عن تحالف يتكون من عشر مدن تقع فى فلسطين أو قريبا منها ، وبصفة خاصة فى شرق الأردن . وازداد عدد المدن فى القرن الثانى الميلادى ، فشمل التحالف مدنا مثل فيلادلفيا ودمشق . (المترجم)

إن برزت حتى أضاءت على الدين اليهودى مستقبله الروحى بأسره .
فإن من أعظم تناقضات التاريخ اليهودى أن تصبح الأرض الجديدة فى خلال مائة عام من اســتيلاء الكسندر جانايوس Alexander Jannaeus (١٠٢ – ٧٦ ق . م) عليها لصالح اليهودية ، موطن نبى يهودى من الجليل ، هدفت رسالته إلى استكمال التجربة الدينية اليهودية السابقة بأسرها . فكان أن صدف زعماء يهوذا من يهود عصر هذا النبى[1] ، عن تلك الرسالة الملهمة التى أتاهم بها أحد أبناء الجليل من الأمميين الذين سبق أن أجبروا على اعتناق اليهودية . وهكذا لم تقتصر اليهودية على التنكر لماضيها ، بل إنها خسرت مستقبلها كذلك .

وإذا ما تحولنا الآن إلى الخارطة الدينية لأوربا الحديثة ، نجد أنفسنا تستجيب استجابة طبيعية إلى استقصاء كيفية تحديد التخوم الحاصرة بين مجال نفوذ كل من الكاثوليكية والبروتستنتية ، سواء بفعل الجيوش ، أو بفضل ديبلوماسية الدول الإقليمية التى خلفت « المجتمع المسيحى »[2] .

ولا شبهة فى وجوب الابتعاد عن المغالاة فى تقدير تأثير العوامل الحربية والسياسية على نتيجة الصراع الدينى إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . ذلك لأنه يصعب تصور – إن افترضنا حالتين يتعذر وجودهما عمليا – أن فى مكنة أى إجراء تتخذه سلطة زمنية ، أن يستبقى بلاد البلطيق فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية أو يُغرى بلاد البحر المتوسط الأوربية ، بالانضمام إلى المعسكر البروتستانتى . على أنه كانت ثمة فى نفس الوقت ، منطقة متداخلة وغير مؤكدة ، كانت حركة القوى الحربية والسياسية فيها ، لها تأثيرها بكل تأكيد . وتشمل هذه المنطقة : ألمانيا

---

(١) هو السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

Realabiteg Chiestrama (٢)

وبلاد الأراضي المنخفضة[١] وفرنسا وإنجلترا . وفى ألمانيا بصفة خاصة ، ابتُكرت عبارة « الأمير يعيّن الدين » ، وطُبِّقت . ولعلنا نسلّم بأن الأمراء فى أوربا الوسطى ــ على الأقل ــ قد نجحوا فعلا فى استخدام سلطانهم لإرغام رعاياهم على الرضوخ لأحد مذهبى المسيحية الغربية ، وفقا لما يشتهيه الأمير . وفى وسعنا كذلك ، أن نقيس الخسارة التى كابدتها المسيحية الغربية فى النهاية ــ ســواء أكانت كاثوليكية أو بروتستانتية ــ عقوبة لها على استنادها على الرعاية السياسية واستخدامها تلك الرعاية بالتالى لقضاء أغراض الدولة .

ويطالعنا فى هذا الشأن أول قسط من أقساط الثمن الذى كان لا مناص للمسيحية الغربية من دفعه ؛ ويتمثل فى خسارة الكنيسة الكاثوليكية ، ميدان التبشير بالمسيحية فى اليابان . ذلك لأن حكام الدولة العالمية اليابانية الحديثة العهد ، قد اقتلعوا متعمدين ــ قبل منتصف القرن السابع عشر ــ نبتة المسيحية الكاثوليكية التى غرستها هنالك بعثات اليسوعيين التبشيرية إبان القرن السادس عشر . فلقد أدرك ساسة اليابان وقتذاك أن الكنيسة الكاثوليكية هى أداة المطامع الاستعمارية للتاج الأسبانى .

على أن ضياع هذا المجال للتبشير المسيحى الذى كان يبشر بالخير ؛ ينبغى أن يُعدّ خسرانا طفيفا ، إذا قيس بالإجداب الروحى الذى ابتلت به سياسة « الحاكم يحدد الدين » المسيحية الغربية فى عقر دارها .

فإن استعداد كافة الجماعات المتنافسة للمسيحية الغربية إبان عصر الحروب الدينية لاجتناء النصر بسلوك أقصر الطرق وذلك بسعيهم إلى فرض مذاهبهم الخاصة بالقوة على اتباع المعتقدات المنافسة ، بل إن منهم من طالب باستخدام السلطة السياسية ، قد أدّى إلى تقويض دعائم الإيمان فى النفوس

(١) بلجيكا وهولندا ولوكسمبرج . (المترجم)

التى كانت الكنيستان المتنابذتان تتنازعان ولاءها . ومصداقا لذلك ، إذا كانت وسائل لويس الرابع عشر البربرية ، قد محقت البروتستانتية من حياة فرنسا الروحية ، فإنها قد مهدت الأرض لحصول نزعة « الشكية » بديلا . فلقد تلا نقض مرسوم نانت[1] ، ميلاد فولتير فى غضون تسعة أعوام ، وفى وسعنا أن نشاهد فى إنجلترا كذلك ، نفس المزاج المتسم بالشك ، ينطلق رد فعل ، كان مظهره النزعة الحربية العدوانية التى اصطبغت بها ثورة البيوريتان .

وهكذا برز من بين ثنايا مزاج ينتسب إلى ذلك المزاج الذى ورد بالفقرة التى استشهدنا بها من عبارات بوليبيوس فى هذا الفصل من دراستنا ؛ ضرب جديد من التثقيف يجعل من دراسة الدين بذاته موضوعا للسخرية . ومن ثم ما جاء عام ١٧٣٦ ، حتى أمكن للأسقف بتلر أن يكتب فى مقدمة كتابه « المطابقة الدينية الطبيعية والموحاة — لدستور الطبيعة وسيرها » .

« لقد حدث — ولا أدرى كيف — أن كثيرا من الأشخاص قد أصبحوا يسلّمون بأن المسيحية ليست موضوعا يستأهل البحث مهما يكن من أمره . فأصبح هؤلاء الأشخاص — تبعا لذلك — يجعلون من تلك الفكرة نقطة متفقا عليها بين جميع الناس الحكماء ، ولم يتبق منها شىء سوى صيرورتها موضوعا رئيسيا للمسرة والسخرية وكأن ذلك كان نكاية بها ، لأنها قد شوشت طويلا على مسرات العالم » .

وما انفك هذا الاتجاه الفكرى — الذى أصاب التعصب الدينى بالإحلال على حساب إخماد العقيدة — مستمرا طوال الفترة من القرن السابع عشر حتى العشرين . وقد سار فى هذا السبيل أشواطا بعيدة المدى فى جميع مناحى « المجتمع الغربى الكبير » ؛ حتى لقد بدأ يُعترف به أخيرا حقيقة مقررة .

---

(١) كان مرسوم نانت يسمح بالحرية الدينية للهيجونوت وهم بروتستانت فرنسا . (المترجم)

ولقد أصبح من الأمور المسلم بها ، أن الصدوف عن المسيحية ، قد بات يمثل الخطر الأول الذى يجابه العافية الروحية — بل الوجود المادى — للجسم الغربى الاجتماعى. وهو خطر أعتى كثيراً من أى خطر يكمن فى تلك الأدواء الاقتصادية والسياسية التى تجرى مناقشتها والإعلان عنها جهارا .

وحقا استفحل أمر هـذه الآفة الروحية ، حتى بلغت درجة من الشناعة ؛ بحيث بات لا يمكن تجاهلها : بيد أن تشخيص الداء أيسر من وصف الدواء له . ذلك لأن العقيدة ليست سلعة تجارية موحّدة القياس تتيسر حيازتها وفقا للطلب عليها . إذ سيكون من الصعوبة بمكان ، إعادة تعبئة الفراغ الروحى الذى حُفر فى قلوب الغربيين بفعل تداعى الإيمان الدينى فى صورة تتصل حلقاتها ، وما انفكت تتخذ طريقها طوال ما يقرب من القرنين ونصف قرن . والواقع أننا ما برحنا نناهض خضوع الدين للسياسة ، وهو جريمة سبق أن ارتكبها الأسلاف فى غضون القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وإذا ألقينا نظرة مجملة على الأشكال المختلفة الباقية فى حالتها الحاضرة للمسيحية الغربية ، وقارنا هذه الأشكال من ناحية طاقتها الحيوية النسبية ؛ ألفينا هذه الطاقة تتغير تغيرا عكسيا وفقا لدرجة خضوع كل من هـذه الطوائف للسلطة الزمنية :

فإن الكاثوليكية تعتبر بلا جدال ، شكل المسيحية الغربية الذى يُبدى فى الوقت الحاضر أعظم مظاهر الحيوية . والواقع لم تفقد الكنيسة الكاثوليكية قط الميزة التى لا تقدر ، المتصلة باتحادها فى وحدة دينية تحت رئاسة سلطة دينية عليا . وذلك على الرغم من اتجاه بعض الأمراء الكاثوليك المحدثين فى طائفة من البلاد وفى بعض الأوقات ، إلى السير طويلا فى طريق توكيد سلطانهم السياسى على حياة الكنيسة فى نطاق حدود بلادهم .

وفى وسعنا أن نضع بعد الكنيسة الكاثوليكية فى ترتيب الطاقة الحيوية

للطرق المسيحية الغربية ؛ تلك « الكنائس الحرة » ذات المعتقد البروتستانتى التى انتشلت نفسها من سيطرة الحكومات السياسية . وسنضع بالتأكيد فى آخر القائمة ؛ الكنائس البروتستانتية « الرسمية » التى ما انفكت مقيدة بالكيان السياسى لهذه الدولة أو تلك ، من الدول الإقليمية .

وأخيراً ؛ فإنه تطلبت الحال أن نُقْدِم على تعيين الفروق بين درجات الطاقة الحيوية للظلال المختلفة للفكرة الدينية وأتباع الدين ، فى نطاق كنيسة رسمية متشعبة الأطراف ومتغايرة الأشكال — مثل كنيسة انجلترا — فإنه يجب علينا أن ننزل بلا تردد عن جائزة التفوق فى الطاقة الحيوية العليا ، إلى الكنيسة الإنجيلية الكاثوليكية ، التى ما برحت منذ صدور القانون الذى صدر فى سنة ١٨٧٤ ليمنع إقامة القداس الكاثوليكى مستتراً ؛ تقف من القوانين الوضعية ، موقف عدم الاكتراث المشوب بالازدراء .

إن مغزى هذه المقارنة الممقوتة ، يتبدى واضح المعالم . فإن هذا التباين فى مصائر الفرق المختلفة التى انقسمت إليها الكنيسة المسيحية الغربية فى العصور الحديثة ؛ قد يبدو أنه يكمّل دليلنا عن قضية أن الدين إذا نظر إليه نظرة طويلة المدى ، يخسر أكثر بكثير مما يؤمّل ربحه من مطالبته . أو خضوعه — برعاية السلطة المدنية . على أن ثمة استثناء معروفاً من هذه القاعدة الواضحة ، وسنحسب له حسابا قبل أن يتأتى للقاعدة اجتياز الاختبار .

هذا الاستثناء ، هو الإسلام :

فإن الإسلام قد وفّق فعلا فى أن يُصبح العقيدة الدينية لمجتمع سورى أصابه الانحلال . ونجح الإسلام على الرغم من إقحامه منذ البداية فى الشئون السياسية ، ومضيّه فى ذلك بطريقة قاطعة ، لم تعهدها الأديان الأخرى التى عرضنا لها فيما مضى . بل إن جنوح الإسلام إلى هذا التورّط

السياسي ؛ بدأ أثناء حياة رسوله ، بل وعلى يد الرسول نفسه ، لا على يد آخر أقل منه شأناً .

وتنقسم حياة الرسول محمد إلى فصلين مميزين تمييزاً حاداً ، يبدوان متعارضين للنظرة الأولى :

ففي الفصل الأول ، شغل الرسول بالتبشير بما يوحى به إليه ، بالوسائل السلمية .

وفي الفصل الثاني ، انهمك بتشييد دعائم قوته السياسية والحربية . واستخدم الرسول في هذا الفصل المدني[1] قوته المادية التي أتيحت له في المدينة بغية فرض الأوامر والنواهي التي جاد بها الدين الذي أوحى به إليه في الفصل السابق من حياته ، أي قبل انسحابه الموقوت من مكة إلى المدينة[2] .

وعلى أساس النظرية التي تقدر الانهيار للدين الذي يستخدم القوة ، قد يقال بأن الهجرة تعتبر توقيت انهيار الإسلام ، لا توقيت قيامه ، لكن يعترض على هذا الزعم ، السؤال التالي : كيف يمكن تفسير حقيقة ثابتة مدارها

---

(١) نسبة إلى المدينة المنورة . (المترجم)

(٢) الفرق بين حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة وحياته في المدينة ، يرجع إلى أن المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة ، كونوا أمة أو جماعة . ولهذه الأمة أو الجماعة ، علاقات فيما بين أفرادها ، وعلاقات فيما بين الجماعة أو الأمة بغيرها — أي بغير المسلمين . وفي المدينة نظمت هذه الشئون . ويقتضي تنظيم شئون الجماعة ، النظر في حالتي الحرب والسلم . ولم تكن الحرب وسيلة لنشر دعوة الإسلام ، ولكن مصلحة الجماعة اقتضتها بعض الوقت ، كما اقتضت مصلحة الجماعة في وقت آخر إقرار السلم وعقد معاهدات . والواقع أن الإنسان في الحياة الإسلامية الصحيحة لا يمكن أن يحيا إلا في جماعة .

وقد سلم المؤلف بأن انتشار الإسلام قد تم سلمياً ، وأحياناً بدون تشجيع من أولي الأمر ، وأحياناً على الرغم من اتخاذ ما يثبط انتشاره . (المترجم)

أن دينا فاجأ العالم عقيدة دينية لجماعة حربية بدوية ، يُقيّض له التوفيق فى التحوّل إلى عقيدة دينية عالمية ، على الرغم من بدايته – وفقاً لجميع الأقيسة المنطقية[1] – بقيد روحانى كان يتوقع أن يصبح حائلا دون انتشاره ؟

إننا إذ نعرض المشكلة وفقا لهذه الحدود ، تطالعنا طائفة من التفسيرات الجزئية . لعلها إن جُمعت ، تصل إلى مرتبة حل المشكلة المنشود :

فى وسعنا أن نُسقط من الحساب ، الفكرة التى ما برحت شائعة عند المسيحيين ، والتى تغالى فى تقدير أهمية القوة المادية لنشر الإسلام ، ذلك لأن الأسس التى تطلبها خاتم النبى للإيمان بالدين الجديد ، اقتصرت على تأدية عـــدد قليل من الفرائض ، لم يكن تأديتها بالأمر الشاق كثيراً ، بل لم تتعد المطالبة بها الجماعات الوثنية البدائية التى كانت تقطن المناطق العربية التى ظهر الإسلام فى ربوعها والتى لم تخضع لسلطان أى من الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية . أما بالنسبة لولايات الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية المغزوة ، فلم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل ، ولكن بين الإسلام أو الجزية . وتلك سياسة مستنيرة ، أجمعت الآراء على امتداحها (وطبقت تلك السياسة المستنيرة بعد ذلك بفترة طويلة ، الملكة اليزابث الأولى العديمة الاكتراث بالمسائل الدينية) . كذلك لم يُطبق هذا الاختيار تطبيقاً متفرّاً على الرعايا الغير المسلمين للخلافة الإسلامية فى العهد الأموى . ذلك لأن الأمويين باستثناء خليفة واحد[2] منهم حكم ثلاثة أعوام

---

(١) التى وردت فى موضع سابق . (المترجم)

(٢) لعل الأستاذ المؤلف متأثر فى رأيه هذا بموقف أبى سفيان وبنى أمية من الإسلام فى بداية عهده ومن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما قد يكون متاثرا بإصرار بعض الحكام الأمويين على جباية الجزية حتى على من أسلموا . بيد أن هذا لا يعنى الزعم بأنهم وثنيون . فالواقع أن الخلفاء كانوا مسيرين بعروبتهم الأصيلة وطرائقهم هى طرائق الزعامة القرشية فى الجاهلية . (المترجم)

فقط ، كانوا لا يكترثون بالدين . وفى الواقع كان الأمويون من الناحية الشخصية وثنيين فى الباطن لا يعبأون بنشر العقيدة الإسلامية ، إن لم يناهضوها ؛ وإن كانوا قائمين على زعامتها اسميا .

ولقد أصبح على الإسلام فى ظل هذه الظروف ؛ أن يسلك طريقه بين رعايا الخلافة غير العرب ، مستنداً على مزاياه وفضائله الذاتية . وكان انتشاره بطيئاً ، لكنه كان مؤكدا . وغدا الإسلام فى قلوب المسيحيين والزرادشتيين[١] السابقين الذين اعتنقوا الدين الجديد رغماً عن عدم اكتراث بل سخط سادتهم الأمويين الاسميين ، عقيدة تختلف تماما عما كانت عليه فيما سبق ، وقتما وفدت مع محاربى العرب[٢] الذين تقلدوها شعارا لوضع سياسى يخلع عليهم الامتياز على بقية الناس . فإن معتنقى الإسلام الجدد من غير العرب ، قد كيفوا الإسلام وفقاً لوجهة نظرهم الثقافية ، وترجموا سنن النبى الفطرية إلى ما اتسم من مصطلحات اللاهوت المسيحى والفلسفة الهلينية بالحذق والرصانة . وهكذا استطاع الإسلام — وهو فى هذا الثوب — أن يغدو الدين الموحد لعالم سورى ، كان قد سبق توحيده سياسيا فى صورة سطحية بفضل الغزو العربى الجارف .

وأصبح الرعايا المسلمون من غير العرب فى خلال مائة عام من تسنم معاوية السلطة السياسية ؛ من القوة ليقصوا الأمويين المستهترين بالدين عن مركزهم ويضعوا مكانهم أسرة ملكية يعكس منحاها الدينى ، منهاج أنصارها الروحى . وفى الواقع ، فإنه يحتمل فى عام ٧٥٠ ميلادية وقتما اتجه المسلمون الغير العرب إلى تهيئة النصر للعباسيين على الأمويين — أن تكون

---

(١) الزرادشتيون : أتباع زرادشت المعروفون لدى العرب بمجوس فارس .
(المترجم)

(٢) فى الواقع أنه تتبقى رواسب من العقائد الماضية فى نفوس معتنقى الإسلام الحديثين إلا أنه بمضى الوقت — ووفقا لتسامح الإسلام — تزول تلك الرواسب . على أنه لا خلاف فى إصرار الإسلام على إيمان من يعتنقونه بأركانه الأساسية . (المترجم)

القوة العددية للعصبة الدينية التي قلبت ميزان القوى ، ما تزال صغيرة بالمقارنة بمجموع سكان الإمبراطورية العربية[١] .

ويحتمل أن هداية رعايا الخليفة إلى الإسلام بصورة جماعية ؛ لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادى – أو تصل نهايتها – حتى حلول فترة اضمحلال « الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر . ويمكن القول بالتأكيد ، أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامى ، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية ، ولم تنجم قط عن ضغط سياسى . ذلك أن ما يقابل فى الإسلام من أباطرة مسيحيين مثل ثيودوسوس Theodesius وجوستنيان Justinian اللذين أساءا استخدام سلطتهما السياسية فى سبيل مصالح دينهما المزعومة ، قليل العدد ومتباعدا فى ثنايا قائمة من الخلفاء العباسيين اتسع نطاقها طوال فترة خمسة قرون .

وهكذا ؛ لعله يتسنى لنا الآن ، الاستناد عن رضا ، إلى الوقائع السالفة الذكر للحكم على الاستثناء الذى يمثله الإسلام لأول وهلة[٢] لقاعدتنا القائلة بأنه وإن لم يتعذر على السلطة السياسية إحراز قدر من النجاح عن طريق فرضها بالقوة على رعاياها ، عقيدة دينية هى مقبولة وتوجد فيهم فعلا ؛ فإن الثمن الذى يقتضيه مثل هذا التأييد السياسى يجبّ على طول المدى – إلى أبعد حد – أية مزية عاجلة ينالها الدين الذى يتلقى رعاية الدولة . ويبدو أن نفس القصاص ، يقيّض له الحدوث ؛ حتى وقتما لا تكفل الرعاية السياسية بالمرة ، فوائد عاجلة . ومن ضمن الحالات التى تذهب فى سوء شهرتها إلى أبعد مدى – حيث تتلقى العقيدة الدينية تأييد السلطان ، تأييداً يحط من قدره ، ويكابد بسببه خسارة قاسية – فى وسعنا أن نعدد :

---

(١) على غرار ما كان عليه عدد المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية وقتا أطاح قسطنطين بأسرة ماكسينتوس . وهو عدد يقدره الدكتور ن . هـ باينز بعشرة فى المائة . انظر ص ٤ Baynes, N.H. Constantine the Great and the Christian Church

(٢) Prima facie

إخفاق جوستنيان فى فرض مذهبه الكاثوليكى الأرثوذكسى على رعاياه المينوفستيين[١] وراء جبال طرسوس[٢] ؛ وفشل ليوسيروس وقسطنطين الخامس فى فرض مذهبهما القاضى بمحاربة تقديس الإيقونات ، على رعاياهما المقدسين لها فى اليونان وإيطاليا . وإخفاق التاج البريطانى فى فرض المذهب البروتستانتى على رعاياه الكاثوليك فى إيرلندا . وإخفاق الإمبراطور المغولى أورنجزيب فى فرض عقيدته الإسلامية على رعاياه الهنادكة .

وتقل فرص نجاح السلاح السياسى عن تلك الحالات السالفة الذكر ، فى حالة فرض فلسفة الأقلية المسيطرة ، حيث تكون العقيدة الدينية التى تفرض ؛ ديناً مقبولا . وهذا ما تبيناه وقتما عرضنا لإخفاق الإمبراطور يوليان ؛ وكان هذا الإخفاق فى الواقع ، هو نقطة بداية هذا البحث . ويماثله فى درجة الإخفاق التام ، ما لاقاه الإمبراطور آسوكا فى محاولته فرض عقيدته البوذية الهيناياتية على رعاياه فى العالم السندى ؛ رغما عن أن الفلسفة البوذية ، كانت إبان عصره ، فى أوج ازدهارها الثقافى والأدبى . ومن ثم فإن مقارنتها بفلسفة ماركوس أوريليوس الرواقية ، خير من مقارنتها بالأفلاطونية الحديثة التى اعتنقها اليونان .

تبقى لدينا دراسة الحالات التى لا يسعى فيها الحاكم أو الطبقة الحاكمة : إلى فرض دين « قائم أو مقبول » أو فلسفة تعتنقها الأقلية المسيطرة ؛ ولكن ينصبّ السعى هنا إلى إقامة دين من نسج خياله (أو خيالها) . هذا وإذا تذكرنا الإخفاق الذى سبق إيراده ، وفيه يتبلور الهدف فى فرض دين أو فلسفة تكمن فيه (أو فيها) حيوية فطرية ، فإن ثمة ما يبرر افتراضنا السالف الذكر . وذلك دون أن نطرق الموضوع المتصل بصحة فشل الحالات التى ابتكرت فيها ديانات ليست لها أصول قائمة ، وقتما رأينا تُبذل الجهود لإقامتها . ويعتبر هذا الأمر هو القاعدة التى لا ريب فيها .

---

(١) أى المؤمنون : الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، أى الطبيعة الإلهية . فالمسيح لديهم : إله وقتما ولد وصلب وبعث . (المترجم)

(٢) أى فى مصر وسوريا والنوبة والحبشة . (المترجم)

وأيا ما تكون الحال ، تعتبر هذه الأديان المبتكرة، من بين نوادر التاريخ ، ولهذا السبب - لا لسبب آخر - نعرضها عرضاً مجملا :

ولعل أكثر الحالات تطرفاً فى هذا السبيل ، حالة الخليفة الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠ ميلادية) . فإنه مهما يكن من أمر استعاراته من المصادر الدينية الأجنبية ، فإن العقيدة الرئيسية فى مذهب الدروز ، مدارها تأليه شخص الحاكم باعتباره إحدى عشرة حالة متتابعة وأكملها ، تجلى فيها الله فى شكل إنسان . وينظر إلى الحاكم بأمر الله وفقاً لهذا المذهب على أنه المهدى المنتظر ، يعود منتصراً إلى العالم الذى انسحب منه سراً بعد تجليه الأول لفترة قصيرة .

ولم يتعد نجاح التبشير بهذه العقيدة الدينية الجديدة ، نجاح درزى - داعى الحاكم بأمر الله - فى نشره المذهب عام ١٠١٦ ميلادية بين عشيرة قليلة العـــدد تقطن مقاطعة وادى تيم السورية على سفح جبل حرمون ، ثم نُبذت تماماً بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، فكرة إيفاد رُسل لهداية العالم إلى العقيدة الدرزية . ولم تتقبل الجماعة الدرزية منذ هذا التاريخ ، انضواء أى فرد لعقيدتها ، كما أنها لا تتسامح مع المرتدين . وهكذا ظلت فرقة دينية يحمل أعضاؤها اسم الداعى الذى هداهم إلى مذهب الحاكم العجيب ، لا اسم الرب الذى يعبدونه ، المتجلى فى بشر : ولقد غدت العقيدة الدرزية التى لم توفق فى تحقيق مذهب عالمى ، مقصورة على المؤمنين بها فى جبل حرمون ولبنان ، مثلا للبقايا البشرية المستحجرة القائمة فى حمى حصين .

وبالحرى - دلل دين الحاكم بأمر الله « المبتكر » على إخفاقه .

وإذا كانت عقيدة الحاكم بأمر الله الدينيـــة قد عاشت على الأقل كـ « بقايا مســـتحجرة » ، فإنه لم يتبق شىء البتة من وراء المحاولة التى تشابهها فى ضلالها والتى قام بها السورى المارق فاريوس آفيتوس

باسيانوس Varius Avitus Bassianos[1] ليجعل رب الأرباب فى المجمع الرسمى ، الإله السامى الذى يعبد محلياً فى حمص . ولم ينشد باسيانوس من عمله هذا أن يجعل من شخصه الإله المرتجى ، لكنه رنا أن يكون ذلك الإله هو ربة الشمس السورية إيلاجابالوس Elagabalus ، وهو كاهنها بالوراثة . واستمر يحمل اسمها بعد اختياره عام ٢١٨ ميلادية — بفضل لمسة من لمسات الحظ — إمبراطوراً رومانياً . وكان اغتياله بعد ذلك بثلاث سنوات إيذاناً بنهاية تجربته الدينية ، نهاية مفاجئة حاسمة .

وإذا لم يكن مستغربا مشاهدة أمثال إيلاجابانوس والحاكم بأمر الله يفشلان فشلا ذريعاً فى مساعيهم لجعل سلطانهم السياسى يساند نزواتهم الدينية ؛ فلعلنا نقدّر بجلاء الإجراء الأشد وعورة القائم على التبشير بالعقائد والطقوس ، باستخدام قوة السلطان الوافدة من أعلى إلى أسفل ؛ عندما نلاحظ ما يماثله من سوء الطالع الذى يصيب الحكام الآخرين الذين يحاولون الافادة من سلطانهم السياسى ، لتعضيد إحدى القضايا الدينية التى يهتمون بها اهتماماً ينبعث عن دوافع أشد خطورة من مجرد الرغبة فى إرضاء نزوة شخصية .

فإن ثمة حكاما حاولوا وأخفقوا فى محاولتهم للتبشير بدين مبتكر ، لأسباب تتصل بالدولة ، وقد لا تتعلق بالفكرة الدينية ذاتها . وليس فى هذا الفشل ما يشين فراهتهم السياسية أو يحط من قدرها .

وثمة كذلك آخرون ، حاولوا وفشلوا فى محاولتهم للتبشير بعقيدة دينية « مصطنعة » آمنوا هم بها إيماناً عميقاً ، وأحسوا تجاهها بأنه قد قدّر

---

(١) فاريوس آفيتوس باسيانوس : ولد عام ٢٠٥ ميلادية . ونصب وهو حدث ، كاهنا لمعبود الشمس . فتسمى باسم جابالوس . وفى عام ٢١٨ ميلادية ، نصب إمبراطورا خلفا للإمبراطور كاراكلا . واتصف حكمه الذى دام ثلاثة أعوام بالإغراق فى الملذات الفاحشة التى لم يسمع بها من قبل . ثم اغتيل فى النهاية . (المترجم)

عليهم التبشير بها ، أو أنهم مرتبطون بواجب إبلاغها إلى رفاقهم بكافة ما لديهم من وسائل ، ليضيئوا ظلامهم ويرشدوهم إلى سبيل السلام .

ويطالعنا فى هذا السبيل :

يكمن المثال التقليدى لاصطناع عقيدة دينية جديدة خدمة لهدف سياسى ؛ فى ابتكار بطليموس سوتير شخصية سيرابيس Serapis وعقيدته . وبطليموس هذا هو مؤسس الدولة الهلينية التى خلفت الإمبراطورية الأخيمينية[1] فى مصر . وهدف من وراء ذلك ، إزالة شقة الخلاف بين رعاياه من المصريين والهلينيين ، بفضل إقامة دين مشترك . ولقد كفلت توليفة الدين الجديد ، قدراً كبيراً من التشابه بين الطائفتين كلتيهما ، اللتين أنشئت العقيدة لإقامة التآلف بينهما . بيد أنها أخفقت تماما فى إزالة ما بينهما من خلاف . إذ سارت كل طائفة فى طريقها الخاص تجاه عبادة سيرابيس ، على غرار ما تتبعه إزاء كل شىء آخر فى الحياة .

على أن شقة الخلاف الروحى داخل إمبراطورية بطليموس بين الطائفتين ، قد زالت نهائيا بفضل اعتناقهما عقيدة دينية أخرى[2] ؛ برزت تلقائيا من حشا البروليتاريا ، من الإقليم الذى كان يتبع بطليموس فيما سلف وكان يدعى بسوريا الغائرة[3] . وتم ذلك بعد انقضاء جيل كامل من استئصال آخر ظل للسلطان البطليموسى .

ولقد كرس حاكم آخر لمصر هو أخناتون — قبل عصر بطليموس سوتير بأكثر من ألف سنة — جهوده للاستعاضة عن عبادة مجمع الآلهة المصرية القديم ، بعبادة رب غير منظور هو الإله الواحد الحق الذى تتبدى ربوبيته لأعين البشر فى شكل آتون أو قرص الشمس . ولم تتحكم فى

---

(١) أى الإمبراطورية الفارسية . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف بهذه العقيدة ، الدين المسيحى . (المترجم)

(٣) الواقعة بين سلسلة من الجبال المرتفعة . (المترجم)

محاولة أخناتون – إلى المدى الذى تتيسر معرفته – أية اعتبارات ماكيافيلية[1]، مثل تلك التى سيرت بطليموس سوتير. كما لم يسيطر على اخناتون، جنون العظمة الذى كان القوة الدافعة وراء مشروعات الحاكم بأمر الله ووراء الإمبراطور الرومانى أيلاجابلوس.

إذ يبدو أن أخناتون قد استلهم عقيدة دينية عظيمة الشأن، عبرت عن نفسها – مثلما عبرت أحكام آشوكا – بأفعال تنحو إلى التبشير بها. فإن الدافع الدينى الذى ألهم أخناتون، دافع صادق متحرر عن الغرض. وعسانا أن نقول أن أخناتون جدير بالتوفيق فى دعوته، إلا أن إخفاقه كان تاماً؛ إخفاق يجب أن يعزى إلى حقيقة مدارها أن مناط برنامجه، محاولة بذلها حاكم سياسى لإذاعة دين «مصطنع» يوجه من أعلى إلى أسفل. فكان أن استهدف خلال حكمه، لخصومة الأقلية المسيطرة، دون أن يوفق إلى الوصول إلى قلوب البروليتاريا والتأثير فيها.

ويتأتى بالمثل تفسير إخفاق العقيدة الدينية الأورفية. فإن كان حقا – وهذا ما تنبى عنه الشواهد – أن نشر العقيدة الأورفية، قد تلقى أولى انتفاضاته من طبقة الطغاة الأثينيين من بيت بيسيستراتوس Peisistratus؛ فإن النجاح المتوضع الذى حققته العقيدة الأورفية فى نهاية الأمر، كان تاليا لانهيار الحضارة الهلينية وما تبعه من استيلاء ذلك الشعور بالابتذال على النفوس الهلينية. وهو شعور سار جنبا إلى جنب مع التوسع المادى للعالم الهلينى، على حساب المجتمعات الأجنبية.

ويصعب تقرير مدى استطاعة النزعة الماكيافيلية لبطليموس سوتير أو مثالية أخناتون، تفسير خليط الدوافع التى حفزت الإمبراطور المغولى

---

(١) نسبة إلى ماكيافيلى الإيطالى، مؤلف كتاب «الأمير» ويشرح فيه سياسة الحاكم الذى أباح له استخدام كافة الوسائل فى سبيل تحقيق أهدافه، مهما يكن من أمر اتفاق هذه الوسائل مع مقتضيات الشرف والضمير. (المترجم)

التيموري أكبر (١٥٥٤ — ١٦٥٥ ميلادية) إلى محاولة إقامة عقيدته الدينية المصطنعة التي أسماها بالدين الإلهي ، داخل إمبراطوريته . وهذا الخليط يتعذر — تقريباً — فك مغاليقه . إذ يظهر أن هذا الرجل الغير العادي ، كان سياسياً عملياً ومتصوفا استشرافيا على التوالي .

وعلى أية حال ؛ لم تتأصل أبداً عقيدة أكبر الدينية في النفوس . فانساخت من الوجود عقب وفاة منشئها مباشرة . وحقا قد سبق أن فاه بالكلمة الأخيرة في هذا الحلم العابث للمستبدين ، أحد مستشاري سلف أكبر الذي اتخذه أكبر مثالا[1] ؛ فاه بها أثناء انعقاد المجلس الخاص ، حينما باح السلطان علاء الدين بنيته في ارتكاب فعل الحماقة نفسه الذي ارتكبه أكبر بعد ذلك بثلاثمئة سنة :

« إن الدين والشريعة والعقائد — صرح مستشار الأمير في هذه المناسبة — حرى أن لا تكون أبداً موضوعات نقاش جلالتكم . ذلك لأنها من اختصاصات الأنبياء ، وليست من مهام الملوك . إن الدين والشريعة ينبعثان من الصلة الإلهية ، لا تشيدهما خطط الإنسان وتصميماته . فإنهما ما يزالان منذ أيام آدم حتى الآن ، رسالة الأنبياء والرسل ، مثلما أن الحكم والحكومة من واجبات الملوك . إن وظيفة النبوة لم تكن قط من اختصاص الملوك ولن تكون كذلك في المستقبل ، حتى تقوم الساعة رغما عن أن بعض الأنبياء قد تقلد وظائف ملكية . إن نصيحتي أن لا تخوضوا جلالتكم في مثل هذه الأمور »[2] .

غير أننا لما نستخلص بعد من تاريخ المجتمع الغربي الحديث ، أية أمثلة عن المحاولات العقيمة التي قام بها الحكام السياسيون لفرض « ديانة مصطنعة » على رعاياهم ، وإن كانت الثورة الفرنسية تتيح لنا مجموعة من التفسيرات .

---

(١) سلف أكبر هو السلطان علاء الدين خلجي . (المؤلف)

(٢) Smith, V.A. : Akbar, The Great Mogul صفحة ٢١٠

ومناط تلك التفسيرات ، إخفاق الموجات المتابعة من مفكرى الثورة الفرنسية إبان العشر سنوات الحرجة من تاريخ الثورة الفرنسية التى اختتمت القرن الثامن عشر ؛ إخفاقها فى أن تنجح فى إحلال أى من التخيلات الدينية التى تقدم بها هؤلاء المفكرون إلى الناس محل الكنيسة الكاثوليكية ، التى افترضوا عدم ملاءمتها لروح عصرهم . وذلك سواء تمثلت هذه التخيلات الدينية فى النظام الذى ورد فى قانون الكنيسة المدنى رقم ١٧٩١ عن الترتيب الديمقراطى لرتب الكهنوت أو عقيدة « الكائن الأعظم » التى نادى بها روبسبير عام ١٧٩٤ أو فيما يدعى بـ « ثيوفيلانثروبى Theophilanthropy[1] التى ابتكرها لارفيلير ليبو Larevellière Lépaux أحد أعضاء حكومة الإدارة . ويقال إنه حدث فى إحدى اجتماعات الهيئة أن قرأ هذا المدير بياناً مسهباً بشرح نظامه الدينى لزملائه الوزراء ، فأبدى تاليران وزير الخارجية — بعد ما تلقى المؤلف تهنئة معظم المستمعين — الملاحظة التالية :

« إنه فيما يتصل بشأنى ، لدى ملاحظة واحدة ، أن يسوع المسيح لكى ينشىء عقيدة دينية قد صُلب ثم بعث من الأموات . ويجب أن تسعى إلى عمل شئ من هذا القبيل . إن تاليران قد أعاد بكلماته وحدها — بألفاظ فظة — نصيحة مستشار السلطان علاء الدين ، ومعناها أنه إن رغب لارفلير فى أن ينجح فى إذاعة عقيدته الدينية ، يقتضيه الأمر ترك صفوف المديرين واعتناق عمل جديد كنبى بروليتارى .

فكان أن تبقّى للقنصل الأول نابليون بونابرت[2] أن يكتشف أن فرنسا هى مع ذلك أمة كاثوليكية . وبالأحرى يصبح أيسر وأكثر اتفاقا مع السياسة ، السعى لضم عقيدتها الدينية القديمة إلى جانب حاكمها الجديد ؛ لا فرض دين جديد عليها .

---

(١) أساس هذه العقيدة ، عبادة الله مع حب الانسان . وقد قصد من وضعها القضاء على نفوذ الكنيسة الكاثوليكية . (المترجم)

(٢) أى قبل أن يعلن نابليون نفسه إمبراطورا على فرنسا . (المترجم)

ولقد يترك هذا المثل الأخير – لا ليكمل حجتنا على أن فكرة أن « الأمير يعيّن الدين » فكرة خاطئة وضالة – ولكن ليشير إلى سبيل القضية المضادة التى تحتوى على عنصر وافر من الحقيقة التى قد نعبّر عنها فى صيغة « دين الرعية دين الأمير[١] . فإن الحكام الذين يعتنقون الديانة التى ترضى عنها جمهرة الرعايا أو على الأقل الأقوى منهم عضدا : تزدهر بصفة عامة ، سواء انبعثت عن إخلاص دينى أو مطلب سياسى ، على غرار ما قاله هنرى كواتر Henri Quatre « باريس جديرة بقداس »[٢] .

ولا بد أن تشتمل قائمة الحكام المواءمين الذين ظاهروا ديانة جمهرة رعاياهم : الامبراطور الرومانى قسطنطين الذى اعتنق المسيحية ، والامبراطور الصينى هان ووتى Han wuti الذى اعتنق الكنفوشيوسية . كما أنها لا بد وأن تشمل : كلوفيس وهنرى كواتر ونابليون .

بيد أن أوضح تفسير لهذا الرأى جدير بالملاحظة ، نجده فى نص من نصوص الدستور البريطانى يتسم بمرونته وبمقتضاه يصبح ملك المملكة المتحدة أسقفيا فى إنجلترا ، ويعتبر على الجانب الاسكتلندى من الحدود تابعاً للكنيسة الاسكتلندية . وفى الواقع ، ما يزال الوضع الكنسى للتاج البريطانى – وضع نجم عن التسوية السياسية الكنسية التى تمّت بين عامى ١٦٨٩ و ١٧٠٧ – هو الحافظ لدستور المملكة المتحدة منذ ذلك الحين . لأن المساواة من ناحية الشكل القانونى بين المؤسستين الدينيتين السالفتى الذكر للمملكتين[٣] ، قد أصبحت تمثّل فى صورة « يقبلها الشعب » على جانبى الحـــدود ، وفى واقع ملموس على الجانبين كليهما . ذلك لأن الملك يعتنق عقيدة تعتـــبر الديانة الرسمية المقررة للبلاد . ولربما يكفل هذا

---

(١) relegio regionis religio regis

(٢) أى تستحق أن يتحول من يحكمها من البروتستانتية إلى الكاثوليكية . (المترجم)

(٣) أى انجلترا واسكتلندا . (المترجم)

شعورا بالمساواة الدينية كان مفقودا بشكل ظاهر خلال القرن الذى تخلل اتحاد التاجين واتحاد البرلمانين (١٦٠٣ – ١٧٠٧). فكان أن أتاح ذلك أساساً سيكلوجيا لاتحاد حر على قدم المساواة بين المملكتين اللتين كانت تفصل إحداها عن الأخرى فيما مضى، خصومة تقليدية طويلة المدى. وما يزال يفرق الآن بينهما إلى مدى بعيد، فارق السكان والثراء.

(٦) الشعور بالاتحاد

لاحظنا أثناء استعراضنا التمهيدى للعلاقات المختلفة بين الطرائق البديلة للسلوك والشعور والحياة – تلك الطرائق التى تقوم بوساطتها النفوس البشرية بعملية رد الفعل على محنة التحلل الاجتماعى – لاحظنا أن الشعور بالابتذال – الذى أخذنا ندرسه فى تنوع من المظاهر – عبارة عن استجابة سيكلوجية لمزيج من القواعد ذات الطابع الخاص. قواعد تنتحلها الحضارة وهى ما تزال فى مرحلة ارتقائها. كما لاحظنا كذلك أن نفس التجربة قد تستثير على التعاقب استجابة أخرى مدارها التنبيه إلى شعور بالاتحاد، شعور لا يقتصر الأمر على انفصاله عن الشعور بالابتذال، بل يعتبر نقيضه التام. ولقد ينكشف الانحلال الموجع المزعج الذى يلم بالأوضاع المألوفة – وهذا ما يوحى إلى النفوس الضعيفة بأن الفوضى وحدها هى الحقيقة النهائية – عن رؤيا أشد رسوخا وأصدق روحانية. ومناط ذلك؛ الحقيقة القائلة بأن الشريط السينمائى للعالم الخارجى وهم يعجز عن حجب الاتحاد الخالد الذى يكمن وراءه.

ويتأتى فهم هذه الحقيقة الروحية – ككل الحقائق الأخرى من نفس النوع – بفضل القياس فى المحل الأول – من نوع الدليل الظاهر المنظور؛ ويأتى بعد ذلك، النذير المنبعث من العالم الخارجى. نذير يهيئ الإشارة الأولى عن الاتحاد، وهى إشارة تتسم بروحانيتها ولا معقب لها، وتعتبر جماع توحيد المجتمع فى دولة عالمية.

وحقا ، لم يكن ليتأتى للإمبراطورية الرومانية أو أية دولة عالمية أخرى ، أن ترسى قواعدها أو تحافظ على كيانها ، لو لم تُحمل على اغتنام فرصة رغبة عارمة فى الاتحاد السياسى ، بلغت أقصى مداها كعصر اضطرابات . ووجـــدت هذه الرغبة فى التاريخ الهلينى ــ متنفسا فى الشعر اللاتينى فى غضون العصر الأوغسطى . وأن أبناء المجتمع الغربى فى مرحلته الحاضرة ليحسّون من خلال تجربتهم ، مدى ما قد تبلغه مرارة هذا التوق إلى « التنظيم العـــالمى » فى عصر يكد العالم لإدراكه دون جدوى .

إن حلم الاسكندر الأكبر عن « الاتحاد »[1] لم يمح قط من العالم الهلينى طوال ما بقى للهلينية أثر . ومصداقا لذلك ؛ نجد أغسطس بعد انقضاء ثلاثمئة سنة من وفاة الإسكندر ، يضع رسم رأس الإسكندر على خاتم توقيعاته الرومانى ؛ إشعارا بالمصدر الذى يلشد منه إلهام رسالته لإقامة « الإمبراطورية » الرومانية . ويذكر بلوتارخ أنه مما يؤثر عن الإسكندر قوله « إن الله أب جميع الناس لكنه يصطفى إليه أخيارهم » . فإن ثبتت صحة هذا القول ، فإنه ينبئنا بأن الإسكندر قد أدرك فكرة أخوة البشر عن طريق افتراضه سلفا أبوة الله لهم . وهى حقيقة تتضمن عكس القضية القائلة بأنه لو أسقط الولد الإلهى للعائلة البشرية من الحساب ؛ ينتفى احتمال صياغة أية رابطة بديلة عنه ، مصنوعة من نسيج بشرى بحت ، قمينة هى وحدها بربطهم بعضهم إلى بعض . فإن المجتمع الوحيد الذى فى مكنته أن يضم بين طياته الجنس البشرى بأسره ، يتمثل فى رعوية مدينة الله . وما فكرة المجتمع الذى يشتمل على الجنس البشرى بأسره ولا شىء غيره ، إلا خرافة أكاديمية . ولقد أدرك ابيكتوتوس الرواقى هذه الحقيقة السامية ، مثلما أدركها بولس الرسول

---

(١) Homonoia

المسيحى ؛ ولكن بينما قرر ابيكتوتوس الحقيقة كاستقراء فلسفى ، بشّر بها القديس بولس كمبدأ سليم لوحى جديد صادر عن الرب إلى الإنسان ، عن طريق حياة المسيح وموته .

كذلك لم ينحصر قط التطلع للاتحاد ، إبان عصر الاضطرابات الصينى فى الأرض :

«كان لكلمة الواحد (الاتحاد ، التفرد . . الخ) لدى صينى هذا العصر مفهوم عطفى عنيف ، انعكس بالتساوى فى الفكرة السياسية وفى الغيبيات التاوية . وحقاً ، فإن الاشتياق – أو الحاجة النفسانية بعبارة أدق – إلى مقياس محدد للإيمان ؛ كان أعمق وأكثر ضرورة وأشد إلحاحاً من الاشتياق إلى الاتحاد الحكومى ، فإن الإنسان يعجز فى النهاية عن البقاء من غير توافر رأى مستقيم ، من غير نمط ثابت للإيمان الأصيل »[١] .

فإن أمكن اتخاذ هـــذا الطريق الصينى المتضمن مسألة متابعة نُشدان الاتحاد معياراً ، وأن يسجل على العقيدة الغربية المتصلة بفكرة البشرية ذات الطابع المتفرد الجائر ؛ بأنها شىء استثنائى ، بل إنها مجرد مرض ، فعندئذ يجب توقع مشاهدة التوحيد العملى للجنس البشرى والوحيد المثالى للعالم ، يتحققان بنفس المعدل بفضل بذل جهد روحانى لن يتوقف عن صيرورته واحداً وغير قابل للتجزئة . ويعزى ذلك إلى كونه يتبدّى فى نفس الوقت ، فى مجالات متعددة .

وجدير بالذكر ما سبقت لنا ملاحظته عما يصاحب اندماج الجماعات الإقليمية فى دولة عالمية ؛ اندماج أهم مظاهره : توحيـــد المعبودات المحلية فى مجمع مفرد للمعبودات (بانثيون) يبرز من خلاله معبود – مثل آموق رع فى طيبة أو ماردوك بل فى بابل – يغدو مناظراً فى العالم الروحى لملك الملوك أو سيد الأسياد فى عالم الأرض .

(١) صفحة ٦٩ – ٧٠ Waley, A : The Way and its Power, Introduction

على أن الشرط المتصل بالشئون البشرية – الذى يجد له انعكاساً قدسياً فى مجمع للأرباب (بانثيون) من هــذا النوع – مناطه حالة تقع مباشرة بعد تكوين دولة عالمية . وهو لا يعنى الدستور الذى يستقر فيه نظام للدولة من هذا النوع فى خاتمة المطاف . إذ لا يعنى الدستور النهائى للدولة العالمية ، تنظيماً كهنوتيا يحتفظ بأجزائه الأساسية سليمة ، ويقتصر فقط على تحويل تكافؤها السابق كدولة ذات سيادة ، إلى سلطان تمارسه إحــدى الدول على الأخريات ؛ ويرسخ السلطان بتوالى الزمن فى إمبراطورية موحدة .

وفى الواقع ؛ فإن ثمة ظاهرتين بارزتين فى الدولة العالمية الكاملة التكوين ، تتحكمان فيما بينهما فى مظاهر الحياة الاجتماعية بأسرها : ملك شخصى ذو سلطان وقانون[1] غير شخصى ذو سيادة .

وفى عالم الناس الذى يُحكم وفقا لهذا المنهاج ، يرجح وصف الكون فى مجموعه وفقاً لنمط مقابل :

فإن كان الحاكم البشرى للدولة العالمية ، هو فى نفس الوقت من القوة ومن السماحة بحيث يمكن إغراء رعاياه بعبادته كاله متجسّد فى إنسان ؛ يميل رعاياه بالتبعية إلى اعتباره المشابهة الأرضية لحاكم سماوى ذى سلطان وقادر بالمثل على كل شيء . وهو فى اعتقادهم الإله الواحد الحق المسيطر وليس لأنه فحسب رب الأرباب مثل آمون رع أو ماردوك بعل .

ويعتبر كذلك القانون الذى تترجم فيه إرادة الإمبراطور إلى فعل ، قوة لا تقاوم ، وأنها كليّة الوجود . فإذا ما استخدمنا القياس المنطقى ، توحى هذه القوة بفكرة « قانون الطبيعة » يتسم بكونه قانوناً « غير شخصى » . وهو قانون لا تقتصر هيمنته على الكون المادى ، بل تتعداه إلى الهيمنة كذلك على التوزيع

---

(١) كلمة القانون لا تعنى بحال القانون الوضعى المألوف الذى تضعه الجماعات البشرية لتنظيم أمورها ؛ بل تعنى الكلمة ، القانون الطبيعى أى الناموس . (المترجم)

المستغلق الخفى : للمسرة والشجن ، للخير والشر ، للجزاء والعقاب . ويتولى قانون الطبيعة هذا ، توزيعها على جوانب الحياة البشرية الأشد عمقا حيث « لايسرى أمر لقيصر » .

ويوجد هذا الزوج من الآراء – تقريباً – فى قلب كل صورة من صور للكون ، اتخذت هيئتها فى العقول البشرية القائمة فى بيئة اجتماعية لدولة عالمية . بيد أن استعراضنا لهذه العوالم الكونية من شأنه إظهار نزوعها إلى الاقتراب من أحد هذين الطرازين المميزين الآتيين :

طراز يسمو فيه القانون منتقصا من قدر الكائن الإلهى .

وطراز يعلو فيه الكائن الإلهى منتقصا من قدر القانون .

ويعتبر إعلاء شأن القانون ، سمة المدارس الفلسفية للأقلية المسيطرة ؛ على حين تميل العقائد الدينية للبروليتاريا الداخلية إلى إخضاع القانون إلى قدرة الإله الجامعة .

وأيا ما تكون ؛ يتصل التميز بين الطرازين ، بموضوع حظهما من التطنيب . ويتأتى العثور على الفكرتين كلتيهما فى جميع العوالم الكونية ، متواجدتين[١] ومتداخلتين ؛ مهما يكن من أمر حجم كل منهما .

أما وقد وضعنا هذا التحفظ على التميز الذى ننشد إقامته ، فلعلنا نستعرض تباعاً ، صور وحدة الكون التى أعلى القانون من شأنها على حساب الإله ، ثم نستعرض بعد ذلك ؛ تلك الصور الأخرى التى حجب فيها الإله ، القانون الذى أصدرته إرادته .

وفى وسعنا أن نراقب فى النظم التى يكون فيها « القانون هو سلطان كل شىء ؛ شخصية الإله تذبل تدريجياً كلما استفحل أمر القانون الذى يتحكم فى الكون :

---

(١) يتواجد : يصاحب فى الوجود . (المترجم)

فى العالم الغربى مثلا ، ضعفت تدريجيا عقيدة الإله ذى الأقانيم الثلاثة التى نادى بها أثناسيوس[١] ، وتلاشت من العقول الغربية المتزايدة العدد ؛ مثلما وسّع علم الطبيعة من حدود نفوذه الثقافى على مستوى من الوجود يتلوه آخر ؛ حتى رأينا أخيراً فى أيامنا هذه التى تتسم بغلبة العلم على الكون بأسره ، سواء الجانب الروحى منه أم المادى ؛ رأينا الإله البصير بالرياضيات يدوى بعيداً ليغدو الإله « فى الفراغ »[٢] .

ولقد سبق فى العالم البابلى إبان القرن الثامن قبل الميلاد ، أن تُكهّن بهذه العملية ذات الطابع الغربى ، المتصلة بتجريد الإله من سلطانه ليفسح المجال لسلطان القانون . وحدث ذلك وقتما غررت ظاهرة توالى دورات تحركات عوالم النجوم بعلماء الحساب الكلدانيين — وهم فى غمرة حماسهم لعلم التنجيم الحديث — إلى تحويل ولائهم من معبودهم الإلهى ماردوك بعل ، إلى الكواكب السبعة .

وكذلك الحال بالنسبة للعالم السندى ؛ فإن المدرسة الفلسفية البوذية ، عندما استخلصت نتائجها المنطقيـــة المتطرفة المتصلة بقانون الكارما Karma[٣] النفسانى ، كانت أرباب المجتمع الفيدى هى أشهر ضحايا هذا النظام العدوانى القائم على جماعية « الحتمية الروحية » . إذ اقتضى ذلك

---

(١) أثناسيوس (٢٩٦ — ٣٧٣ ميلادية) : كان بطريق الاسكندرية . اشتهر بمعارضته مذهب آرموس الذى سبق لمجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادية تحريمه . ومدار مذهب آرموس انكاره على الابن التماثل فى الخلود والمرتبة مع الآب . فإن الآب هو الذى خلق الكون ومن ضمنه الابن فكان أن عارضه أثناسيوس المصرى الذى قرر بأن الأب والابن والكلمة شىء واحد .
(المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف بهذه العبارة إلى نزعة الإلحاد التى غدت تسيطر على المجتمع الأوروبى فى الوقت الحاضر . (المترجم)

(٣) مفاد الكارما ، أن الإنسان فى حياته الأخرى محاسب بتصرفاته فى حياته الأولى .
(المترجم)

الأمر ، أن تؤدى تلك الأرباب الهمجية لعصابة حربية بربرية ثمناً غاليا — وهى فى متوسط عمرها الواقعى — عما ارتكبته من المغالاة فى الاستهتار البشرى إبان فترة شبابها المشاغب .

ولقد استحالت الأرباب فى كون تسوده البوذية وهبطت فيه الرغبة والغاية إلى ميراث من الحالات السيكلوجية الذرية التى هى — بحكم تعريفها — عاجزة عن الامتزاج فى نوع من الطبيعة الشخصية سواء أكانت متصلة الحركة أو ثابتة ، استحالت بصورة آلية إلى كيان روحى لمخلوقات بشرية على مستوى هى والعدم سواء . وحقا اتفق مثل هذا الاختلاف بين حالتى الأرباب والناس فى نظام الفلسفة البوذية ، مع منفعة الناس . إذ كان فى وسع الفرد البشرى أن يغدو على الأقل راهبا بوذيا إن أمكنه الصمود فى وجه محنة التقشف ، وكان ينتظره لقاء صدوفه عن المتع الدنيوية المبتذلة ، تعويض التحرر من عجلة الوجود[1] ودخوله إلى سلوان النيرفانا .

أما فى العالم الهلينى ، فقد عاشت أرباب الأوليمب معيشة أفضل مما تستحقه إن قيست طاقاتها على الشر ، بالعقاب الذى تحيقه العدالة البوذية بأبناء عمومتها الفيديين . ذلك لأنه عند ما توصل الفلاسفة الهلينيون إلى فهم الكون على أنه « مجتمع كبير » ذى أبعاد تسمو على الأبعاد الأرضية ؛ أصبح قانون « الاتفاق » هو الذى ينظم علاقات الأفراد مع بعضهم بعضا . وكان زيوس — الذى بدأ حياته زعيما حربيا شائنا — قد استرد اعتباره وأحيـــل إلى المعاش فى صورة جميلة قوامها اختياره لرئاسة الأكوان

---

(١) عجلة الوجود فى البوذية . تعنى انتقال الروح من كائن إلى آخر سواء أكان هذا الكائن بشرا أو حيوانا أو نباتا . فإن قيض للروح التحرر من التناسخ تمتعت بحالة النيرفانا وحظى صاحبها بمرتبة الاستنارة فيصبح بودا (أى الانسان المستنير) .

(المترجم)

متبوئا منزلة الملك الدستورى الحديث الذى يملك ولا يحكم ؛ ملك يصدّق بوداعة على مراسيم القدر ، ويعبر اسمه إلى عمليات الطبيعة[١] .

وصفوة القول ؛ أظهرت معاينتنا ؛ أن القانون « الذى يحجب الألوهية ، قد يأخذ عدة صور باعتباره :

قانون رياضى ، استعبد المنجم البابلى والعالم الغربى الحديث .

وقانون اجتماعى ، فاز بولاء الفيلسوف الصينى .

ونجد الألوهية فى العالم الصينى — حيث لم تجد فكرة القانون إقبالا — يحجبها بما لا يقل عن ذلك ، نظام يتمثل للعقلية الصينية كنوع من التطابق السحرى — أو التعاطف — بين سلوك الإنسان وبيئته . فبينما يعترف بفعل البيئة على الإنسان (ونجدها مطبّقة فى فن ضرب الرمل الصينى) ؛ فإن الفعل المناقض لذلك ، أى فعل الإنسان على البيئة يكبح جماحه . ويوجّه الفعل ؛ باستخدام طائفة من الطقوس الدينية وأساليب السلوك ؛ بلغت من

(٢) ولكن هل وجد زيوس بالفعل ؟

أليس أقرب إلى الحقائق القول بأن المتلقين غير المشخصين الذين نصبهم الفلاسفة ليحلوا محل الكيان الأوليمبى ، قد استخدموا فى ذلك المقام — لأغراض عملهم — اسم الشريك المتوفى الأعلى مقاما ؟

وعلى أية حال فإن المستر توينبى ، قد اقتبس فى مكان آخر من مؤلفه عبارة عن ماركوس أوريليوس علق عليها بالآتى « فى هذه الصيحات المفجعة ، يظهر أننا نستمع إلى صوت مواطن غلص من الأكوان ، أفاق فجأة ليرى زيوس يختفى من مركزه الرياسى . . . لكن أجدر بقراء ماركوس من المسيحيين أن لا يكونوا شديدى الوطأة على زيوس الذى ذكره ماركوس . لأن زيوس — قبل كل شىء — لم يطالب قط بانتخابه رئيسا لجمهورية كونية . لقد بدأ حياته زعيما حربيا شائنا لعصابة حربية همجية . وكل ما نعرفه عنه ، يبدى استمتاعه بهذه الحياة . فإذا كان زيوس الذى قبضوا عليه بيطء وأودعوه القفص ، عاجزاً عن احتمال خلود التوقير المفروض عليه باعتباره المدن الأعلى مقاما لإصلاحية رواقية ؛ فهل لدينا الجرأة لنلقى اللوم على العجوز المسكين لإظهار عدم قابليته للتقويم ؟

لكن لعله — مثل مارلى شريك سكروج Scrooge — لا يستحق اللوم ، كما لا يستحق الرثاء « لقد قضى نحبه منذ أجل طويل » . (الملخص)

الدقة والأهمية ، مبلغ كيان الكون الذى تعكسه هذه الطقوس وتكيّفه فى بعض الأحوال :

ويعتبر السيد البشرى القيّم على الطقوس[١] ، هو ملك الدولة العالمية الصينية . وبالنظر لاتساع مدى وظيفته اتساعا يعلو على البشر ، يطلق على الإمبراطور رسميا لقب « ابن السماء » . على أن هذه السماء ؛ التى تعتبر فى المنهاج الصينى والدا انتحاليا لرئيس السحرة ، باهتة ومجردة عن الشخصية ؛ مثلها مثل سماء الصين الشمالية خلال فترة شتائها الجليدى . وحقا ؛ فإن انتفاء كل فكرة عن الشخصية الإلهية انتفاءا تاما عن العقلية الصينية ، قد جعل بعثات الجزويت التبشيرية ، تجابه معضلة صعبة . وقلما سعت إلى ترجمة كلمة « الله » إلى اللغة الصينية .

وسننتقل الآن إلى بحث صور الكون الأخرى ، حيث تعرض الوحدة نفسها كفعل لألوهية قادرة على كل شىء ؛ فى حين يعتبر « القانون » مظهرا لإرادة الله . وذلك عوضا عن النظر إلى القانون على أنه القوة الفعّالة الموحّدة التى تنظم أفعال الآلهة والبشر على السواء :

ولقد لاحظنا قبل الآن أن هذه الفكرة عن وحدة الأشياء بوساطة الله — وبالمثل الفكرة البديلة لها الخاصة بوحدة الأشياء بوساطة القانون — تدركها العقول البشرية بفضل لجوئها إلى استخدام قياس مستمد من الدستور الذى تنتحله الدولة العالمية لنفسها عندما تبلور فى شكلها النهائى تدريجيا . ويعمد الحاكم البشرى — الذى هو فى الأصل ملك الملوك — ، إلى التخلص من الأمراء الذين كانوا يوما ما نظراءه قبل أن يتحول هو إلى ملك بالمعنى الدقيق المراد من الاصطلاح

فإذا ما أجرينا الآن فحصنا لما يحدث فى نفس الوقت لمختلف آلهة الشعوب

---

(١) ويبعث الأرض فى عرفهم على الدوران . (المؤلف)

والأراضى التى أصبحت تستوعبها الدولة العالمية ، سنجد تغيراً مجانساً . ففى مكان مجمع الأرباب (البانثيون) حيث يمارس السلطة رب عظيم على جماعة من الأرباب – كانوا نظراءه ذات مرة – لم يفقدوا ربوبيتهم بفقدهم استقلالهم ؛ يبرز إله فرد تعتبر وحدانيته هى جوهره .

وتبدأ هذه الثورة الدينية بصفة عامة بتغيّر العلاقات بين الأرباب وعابديها . إذ تنزع الأرباب داخل نطاق الدولة العالمية ؛ إلى تجريد نفسها من الروابط التى ربطت كل منها بجماعة من الجماعات المحلية ؛ أما الكائن الإلهى الذى يبدأ حياته نصيراً لقبيلة معينة أو مدينة أو جبل أو نهر ؛ فإنه يطرق مجالا للفعل أكثر رحابة ، بفضل قدرته على اللجوء إلى نفوس الأفراد من جهة ؛ وإلى البشرية فى مجموعها ، من الجهة الأخرى . وفى ظل هذه القدرة الأخيرة ؛ يتخذ الكائن الإلهى – الذى كان نفوذه ينحصر فى دائرة محدودة ويقابل فى السماء الزعيم المحلى على الأرض – مظاهر استعارها من حكام الدولة العالمية التى تستوعب المجتمع المحلى بين طياتها .

ومصداقاً لذلك ؛ فى وسعنا ملاحظة تأثير الملكية الأخيمينية – التى حجبت مملكة يهوذا من الناحية السياسية – على الفكرة اليهودية عن إله إسرائيل . فإن هذه الفكرة الجديدة عن ياهوى Yahweh قدصاغت نفسها لتبلغ مرتبة الكمال ، حوالى ١٦٦ – ١٦٤ قبل الميلاد . وظاهر أن هذا التاريخ ، هو التاريخ التقريبى لكتابة قسم الرؤيا من سفر دانيال :

« كنت أرى ؛ وُضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأســـه كالصوف النقى : وعرشه لهيب نار ودولاب تعذيبه[1] كالنار المشتعلة . وتدفق تيار مضطرم ، وبرز من بين يديه

---

[1] دولاب التعذيب : من أدوات العذاب قديما . (المترجم)

الآلاف المؤلفة من الأيدى تلتمس رحمته ، ويقف خلفه عشرات عشرات الألوف . فجلس الدّين وفُتحت الأسفار »[١] وعلى ذلك ، فإن عدداً من الأرباب التى كانت محدودة السلطان فيما سلف من الأيام قد أصبحت تنتحل شعار الملك الأرضى الراسخ ، ثم تتنافس مع بعضها بعضا فى سبيل السيطرة المفردة المطلقة التى تتضمنها هذه الشعارات . ويستمر التنافس إلى أن يتمكن أحد المتنافسين من استئصال خصومه وتمكين ملكيته من أن تُعبد ، باعتبارها الإله الحق الأوحد .

على أن ثمة مع ذلك ، نقطة واحدة حيوية لا يستقيم فيها القياس التمثيلى بين « معركة الآلهة » والمنافسة المجانسة المباينة لها بين « أمراء هذا العالم » :

ففى غضون هذا التطور الدستورى لدولة عالمية ؛ يصبح عاهل هذه الدولة ، هو السلف المباشر لسلسلة دستورية لا تنفصم ؛ وتبدأ الرواية فصولها فى ظل رعايته . ولقد سبق أن ألفيناه فى نهايتها يتسنم عرشه حائزا قدراً فذاً من السلطة . فهو الباديشاه أو السيد الأعلى للأمراء التابعين : وليس ثمة توقّف بالنسبة لاستمرار القوة المسيطرة فى ممارسة سلطانها ؛ حتى أن حدث مثلا أن نظاماً كنظام أغسطس يقنع بإظهار سلطانه فى كابّادوسيا أو فلسطين بإقامة نظام التفتيش على الملوك المحليين أو الحكام التابعين[٢] ؛ يتلوه نظام هادريان الذى يدير هذه الولايات كأقاليم يتولى الإمبراطور حكمها مباشرة .

بيد أن الأمر يختلف بالنسبة للتغيّر المقابل الذى يطرأ على مسألة تواصل فعل القوة الدينية . فإنه وإن لم يكن هو القانون بأية حال من الأحوال ، إلا أنه يتأتى من الناحية النظرية حدوثه كاستثناء ، لكن قد يصعب إيضاحه

---

(١) سفر دانيال – الاصحاح السابع ، الآيتان ٩ و ١٠ (المترجم)

(٢) ويعادلون حكام الإمارات الهندية أيام الإمبراطورية البريطانية فى الهند . (المؤلف)

بمثال تاريخي فرد . ولن يستطيع كاتب هذه الدراسة ذكر حالة واحدة استُخدم فيها الرب الأعلى لمجمع أرباب (بانثيون) واسطة لتجلّي إله هو السيد الأوحد القادر وخالق كل شيء .

ومصداقاً لذلك ؛ لم يحدث أن كشف آمون رع الطيبي أو ماردوك بعل البابلي أو زيوس الأوليمبي عن ملامح « الإله الواحد الحق » وراء قناعه المشكّل . بيد أنه حتى في الدولة العالمية السورية ــ حيث لم يكن الإله الذي كانت تتعبد له الأسرة المالكة الإمبراطورية إلها من هذا النوع التوليفي ، أو من إله تفرضه الدولة ــ لم يكن آهورمازدا الإله الأخيميني[1] هو الكائن الإلهي الذي وضحت للبشرية في تقاطيعه ، سمة الإله الواحد الحق وطبيعته ؛ بل تمثّل الإله الحق في « ياهوى » إله اليهود ، رعايا الإمبراطورية الأخيمينية التافهين .

ويقود هذا التعارض بين المصائر النهائية للكائنات الإلهية المتنافسة ، ومقادير أتباع كل منها السريعة الزوال ؛ يقود إلى التدليل على أن الحياة الدينية وتجربة الأجيال التي نشأت وترعرعت في ظل الحماية السياسية لدولة عالمية ؛ هي ميدان للدراسة التاريخية يتيح أمثلة مذهلة لـ « عكس الأدوار » ، وهو مبحث عدد لا يحصى من القصص الشعبي من نمط قصة سندرلا . وفي نفس الوقت ؛ ليست الأصول الوضعية أو المغمورة ، هي المظاهر الوحيدة التي تتسم بها الأرباب التي تدرك توا ، مرتبة الانتشار على نطاق عالمي . فإذا ما أنعمنا النظر في طبيعة ياهوى ــ وفقا لتصوير العهد القديم ــ تقفز أمامنا طبيعتان أخريان :

فإن ياهوى بأصله ؛ إله محلي متصل بالأرض بالمعنى الحرفي . إن

---

(١) نسبة للدولة الأخيمينية ، وكان مركزها الأساسي فارس ثم انتشرت في غرب أنحاء آسيا واستولت على مصر . (المترجم)

كان علينا أن نصدّق ما يقال من أنه ظهر لبصيرة الإسرائيليين لأول مرة على صورة كائن « جنّى » يسكن مكانا فى شمال شبه الجزيرة العربية ويتجلى فى بركان .

وعلى أية حال ، ضربت تلك الربوبية بجذورها فى أعماق مقاطعة محلية ، وفى قلوب جماعة معينة . وتم ذلك بعد ما انتقلت تلك الجماعة إلى الأرض المرتفعة لأفرايم ويهوذا وقتما تألفت من عصابات حرب بربرية اندفعت خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى المقاطعة الفلسطينية من الإمبراطورية الحديثة المصرية .

والطبعة الثانية أن « ياهوى » إله غيور : وتتبين تلك الصفة من وصيته لعابده « لن تكون لك آلهة أخرى سواى » .

وطبيعى أن لا نستغرب وجود هاتين السمتين لنزعتى الإقليمية والانطوائية[١] يبديهما ياهوى فى وقت واحد . فإن إنذاره الآلهة الآخرين بالابتعاد عن مجال نفوذه ، هو ما يتوقع صدوره من إله حريص على هذا النفوذ . على أن ما يثير الدهشة — بل الغثيان لأول وهلة على الأقل — رؤية ياهوى يستمر فى إبداء تسامح غير منقوص تجاه منافسيه . ثم ينشب بينه وبينهم بعد تدمير مملكتى إسرائيل ويهوذا ، صراع يقفز على أثره إله المقاطعتين الجبليتين إلى العالم ، وينشد مثل آلهة المقاطعات المجاورة ، الفوز لنفسه بعبادة البشرية بأسرها . وفى ظل هذه المرحلة العالمية للتاريخ السورى ، أصبحت مسألة إصرار ياهوى على الاحتفاظ باتجاه التسامح الذى كان تراثا انحدر إليه من ماضيه الإقليمى ؛ أصبحت نزعة « تناقضية »[٢] تنحرف بلا ريب عن المزاج السائد فى ذلك العصر ، بين حشد من الأرباب المحليين من نوع « ياهوى » ؛ أرباب كانت لها سطوتها

---

(١) النزعة الانطوائية ، مباشرة طبقة معينة بالذات . (المترجم)

(٢) النزعة التناقضية للدلالة على شىء يستحيل تحقيقه . (المترجم)

فيما سلف من الأيام . ورغما عن ذلك فإن هذه النزعة التناقضية الفظة ، هى أحد العوامل فى طابع يتسم به « ياهوى » ، وكان له أثره فى انتصاره المذهل :

ولعل من المفيد ؛ النظر من زاوية أكثر قربا إلى هاتين السمتين الخاصتين بالنزعتين الإقليمية والانطوائيـــة . ولنتناول النزعة الإقليمية بالبحث أولا :

قد يبدو لأول وهلة أن وقوع الاختيار على الربوبية الإقليمية لتصبح واسطة تجلّى الإله الفذ الكلى الوجود ، نقيضا يستعصى على التفسير : ففى حين أن الفكرة اليهودية المســيحية عن الإله قد استخلصت بلا جدال — من وجهة النظر التاريخية — من فكرة « ياهوى » الرب المحلى ، فإنه مما لا يقل عن ذلك فى ثبات صحته ، أن العنصر اللاهوتى — المعارض للأصل التاريخى لفكرة الله الشائعة عند الأديان السماوية — يختلف اختلافا لا يجحد عن الفكرة البدائية لـ « ياهوى » ؛ وتحمل بين طياتها — فى الناحية اللاهوتية — مشابهة أشد قربا بكثير من عدد من الأفكار الأخرى ؛ وإن كانت الفكرة المسيحية اليهودية تدين لها — من ناحية الحقيقة التاريخية — إما بأقل من ذلك كثيراً أو لا تدين لها بشىء البتة :

فمن ناحية الاتجاه العالمى ؛ لا تشترك الفكرة المسيحية اليهودية مع التصور البدائى لـ « ياهوى » ، إلا بقسط يقل عن القسط الذى تشترك فيه هذه الفكرة مع فكرة الإله الأعلى فى مجمع أرباب « بانثيون » مثل آمون رع أو ماردوك بعل ، وتتضمن هذه الفكرة إلى حد ما إلها يحكم الكون بأسره .

فإن ما اتخذنا من الاتجاه الروحا فى مقياسا ؛ نجد الفكرة المسيحية اليهودية متفقة مع الآراء التجريدية للمدارس الفلسفية المتصلة بـ « زيوس »

الرواقى ، أو الفكرة الشمسية للأفلاطونية الجديدة ؛ أكثر من اتفاقها مع
فكرة « ياهوى » الإسرائيلى .

فإذا كان الأمر كذلك ؛ فما الذى دعا إلى تخصيص ياهوى الرب
الهمجى الإقليمى بقيامه بالدور القدسى فى المسرحية التى تقوم حبكتها على
وحى الله للإنسان ، دون إله الشمس اليونانى أو آمون رع الإمبراطورى
علما بأن صلاحية « ياهوى » لتأدية الدور ، قد تبدو بجلاء — على أساس
استعراضنا الحاضر — أوطأ فى مستواها من صلاحية بعض تلك الأرباب
المنافسة لياهوى ، التى لم يقيض لها النجاح .

تكمُن الإجابة ، فى تمحيص عنصر فى الفكرة اليهودية المسيحية
لم يذكر بعد :

فإننا قد توقفنا عند خاصيتى : كلية الوجود والوحدانية ؛ بيد
هاتين الخاصيتين للطبيعة الإلهية ، هما بسبب سموهما ، ليستا إلا نتيجة
للفطنة البشرية ؛ وليستا تجربتين من تجارب القلب الإنسانى . فإن جو
الكائن الإلهى — عند جمهرة البشر — إله موجود ؛ يدخل معه الإنس
الحى فى علاقات مسلّم بأنها تنتسب إلى العلاقات الروحية التى يدخل
الإنسان مع غيره من البشر الأحياء . وهذه الحقيقة المتصلة بدوام الحياة
هى جوهر طبيعة الإله لدى النفوس البشرية التى تنشد الدخول فى اتص
معه . وهذه الصفة التى تضفى طابعا إنسانياً على الإله ، هى جوهر الفكـ
الإلهية التى يتعبّد لها اليهود والمسيحيون فى الوقت الحاضر ؛ وهى با
جوهر ياهوى وفقا لما يبدو فى العهد القديم عندما يتكلم « ياهوى إلى ش
المختار مباهيا :

« لأنه ، من هذا الذى هناك من اللحم الذى استمع إلى صوت الر
الحى يتكلم من وسط النار — كما سمعنا — ثم عاش ؟[1] .

---

(١) سفر التثنيه (٥ — ٢٦) .

وعندما جابه إله إسرائيل الحىّ ، القضايا التجريدية للفلاسفة على اختلافهم ، بدا من الواضح مصداقا لكلمات الأوديسية[1] « أنه وحده الذى يتنفس أما الباقى فإنهم ظلال » ذلك لأن شخصية ياهوى البدائية قد ترعرعت إلى شخصية إله المسيحية ، بفضل إضافة صفات تصورية اقتبستها تلك الشخصية عن هذه القضايا التجريدية ، دون أن تتواضع فتعترف بالاقتباس .

فإذا كانت هذه الخاصية المتصلة بـ « الكائن الحى » والتى تتسم بالمصابرة والعناد ، هى نقيض جزء من طبيعة « ياهوى » الإقليمية البدائية ؛ فعسانا أن نتبين أن النزعة الانطوائية التى تلتصق بـ « ياهوى » كصفة أصيلة فى طبيعته ؛ تحتوى كذلك على قدر من الأهمية يعتبر حيوياً للدور التاريخى الذى بات يؤديه إله إسرائيل فى إيضاح الطبيعة الإلهية للبشر .

وتتبدى هذه الأهمية حالما نتمعن فى مغزى التعارض بين الانتصار النهائى لهذا « الرب الغيور » وبين الخيبة التى جابهت فى نهاية الأمر ، أرباب مجمّعين إلهيين لمجتمعين مجاورين ؛ قطّعا فيما بينهما أوصال البناء السياسى للعالم السورى ؛

فلقد كان فى مكنة آمون رع وماردوك بعل ، كليهما — بسبب تأصلهما فى التربة وانسيابهما مع عصارة الحياة المرئية المحسوسة — أن يجعلا من نفسيهما فى موقف الند لـ « يا هوى » وقتما كانا متفوقين عليه بفعل مساهمتهما فى النجاح الدنيوى الماثل الذى أحرزته طيبة وبابل على التوالى (وهذا ما انطبع فى عقول عبّادهما) . على حين ترك ياهوى أفراد شعبه فى مذلتهم

---

(١) الأوديسة : قصيدة عزيت إلى هوميروس يصف فيها تجوال أوديسيوس (عوليس) بعد حصار طروادة . (المترجم)

وأسرهم البابلي . فأخذوا يبذلون ما وسعهم الجهد لتثبيت أركان فضائل إله محلى ، هجر – كما هو ظاهر – أفراد قبيلته ساعة حاجتهم إليه .

فإذا كان آمون رع وماردوك بعل ، على الرغم من توافر هذه النقطة الروائية لصالحهما ؛ قد هزما فى نهاية المطاف فى « معركة الآلهة » ؛ ففى وسعنا أن نتجنب بصعوبة ، نسبة الفشل إلى جهلهما بمنحى « ياهوى » الغيور . فإن الحرية سواء ترتب عنها خير أو شر ، تتشابك مع النزعة الانطوائية ، وتفسر هذا علامة الوصل التى تربط جزئى اسمى كل من هذين الإلهين المركبين »[1] . فلا يستغرب إذا أن نجد آمون رع وماردوك بعل ، متسامحين تجاه الشرك بهما إلى مدى أبعد من القيود التى تفرضها شخصيتاهما المسترخيتان ، كما أنهما يتسامحان تجاه الانشقاق الحاصل فى ذاتيهما المتغايرتين . فإنهما قد ولدا – أو بعبارة أدق قد نسقا – بحيث يكونا راضيين عن وضع سيادتهما العتيقة على حشد من الكائنات الأخرى التى لا تقل عنهما فى مسحة الربوبية ؛ وإن كانت أقل منهما بأسا . فكان أن ترتب عن هذا الافتقار الفطرى إلى الطموح ، أن قضى عليهما بالخروج من حلبة التنافس فى سبيل احتكار الربوبية . وقد تم هذا وقتما كانت غيرة « ياهوى » المفترسة تستحثه بالتأكيد للجرى إلى نهاية هذا الشوط الذى ساروا فيه جميعاً .

وتتبدى بجلاء نفس نزعة التعصب الغليظ تجاه أى منافس ، فى صفة من الصفات التى مكنت إله إسرائيل – بعد ما أصبح إله الكنيسة المسيحية – من أن يتقدم على جميع هؤلاء المنافسين مرة أخرى فى معركة الآلهة التى نشبت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية . وتألف منافسوه وقتذاك من : ميثرا السورية وإيزيس المصرية وسيبيل الحيثية . وكانت هاته الربات ترضى بعقد

---

(١) إذ يتركب آمون رع من إلهين هما آمون رب طيبة ورع رب هليوبوليس (آون) . (المترجم)

أية تسوية مع بعضهن بعضا ومع أية عقيدة أخرى تواجه كل منهن بمفردها . إلا أن روح التسوية الميسّرة هذه، قد أردت منافسى إله ترتوليان Tertullian[١] وقتما أصبح عليهم أن يواجهوا خصما لن يرضيه شيء أقل من النصر « الشامل » . لأن رضاءه بأقل من ذلك ، يعنى لديه إنكار جوهره الذاتى .

وتطالعنا من بين ثنايا العالم السندى شذرة من الإثبات السلبى الطابع ، هى أبلغ الأدلة تأثيراً عن قيمة منحى الغيرة فى مزاج « ياهوى » (إله اليهود) : فإن عملية التحلل الاجتماعى ، قد صاحبها هنا — كما فى أى مكان آخر — نشوء شعور بالوحدانية فى الجانب الدينى . فاندمجت الألوف المؤلفة من أرباب البروليتاريا الداخلية السندية ، وذابت فى شخصية أو فى أخرى من شخصيتى شيفا وفيشنو القويتين . وتم ذلك استجابة لتطلع النفوس السندية — بصورة ملحّة — لإدراك وحدانية الإله .

وأحرزت الهندوكية هذه المرحلة قبل الأخيرة ، فى طريقها صوب وحدانية الله منذ ألف وخمسمائة سنة ، على الأقل . على أنه فى جميع الأوقات التى انقضت منذ ذلك الحين ، لم تتخذ الهندوكية أبدا الخطوة النهائية التى اتخذها العالم السورى وقتما عمد « ياهوى » — الذى لا يطيق وجود حتى قرين واحد إلى جواره — إلى التخلص من « آهورمازدا» الفارسى بابتلاعه كلية . وبالحرى ، فإنه عوضا عن أن تقوم فى الهندوكية فكرة الإله العلى القادر ؛ برزت فكرة مستقطبة تدور حول شخصيتين يكمل أحدهما الآخر ومتضادتين يتألفان من مرشحين لمنصب الألوهية متساويين ، لكنهما يأبيان فى عناد تسوية حساب كل منهما قبل الآخر .

وإزاء هذا الموقف العجيب ، فإنا مضطرون أن نسائل أنفسنا عن الدافع إلى قبول الهندوكية — حلا لمشكلة وحدانية الله -- حلا وسطا

---

(١) ترتوليان (١٦٠ — ٢٢٠) : أحد علماء اللاهوت المسيحى الأوائل . (المترجم)

لا يعتبر فى حقيقة الأمر حلا للمشكلة . إذ يستحيل تصوّر ربوبية تجمع بين كلية الوجود والقدرة على كل شيء . : إلا إن اتصفت الربوبية بالوحدانية ، وهذه صفة يدعيها كل من فيشنو وشيفا لنفسه .

ومناط الإجابة أن فيشنو وشيفا ، لا يحمل أحدهما للآخر شيئاً من الغيرة . فإنهما راضيان كل بنصيبه . وقد يدخل فى باب التصوّر أنهما قد بقيا قائمين — عكس عبادة ميثرا وإيزيس وسيبيل وهما نظراؤهما فى العالم الهلينى — لسبب واحد هو انتفاء وجود ياهوى ضدهم فى الميدان .

* * *

وهكذا ، نصل إلى نتيجة مبناها أن الألوهية التى يضفى عليها عابدوها روح الانطوائية الصلبة ، نعتبر الواسطة الوحيدة التى أمكنت النفوس البشرية عن طريقها حتى الآن ، إدراك الحقيقة العميقة لوحدانية الله .

(٧) نزعة السلفية

أما وقد تزودنا بقسط من طرائق الاختيار المتصلة بالسلوك والشعور ، التى تبدّت لنفوس نشأت فى أحضان عالم متحلل ، فعسانا أن ننتقل إلى طرائق اختيار الحياة . وهى طرائق يتلوها فى ظل ظروف التحدى نفسها (فى مجال الاختيار الذى أطلقنا عليه « اصطلاح السلفية » فى مستهل استعراضنا) ؛ اصطلاح عرّفناه بأنه محاولة العودة إلى وضع من تلك الأوضاع ، أفضل من الحالة القائمة فعلا . وهى أوضاع يشتد حزن الناس على انقضائها ، خلال عصر الاضطرابات ، ويحتمل أن تمثّل فى صورة غير تاريخية ، بالأب الذى خلّفوه وراءهم :

إيه لهفى على السفر إلى الوراء
وأتبع مرة أخرى هذا السبيل القديم !
لعلى أبلغ مرة أخرى هذا السطح
حيث تركت أول مرة حاشيتى الفخيمة

الذى منه ترى هذه الروح المستنيرة
تلك المدينة الظليلة ذات أشجار النخيل
بتعشق بعض الرجال حركة أمامية
لكننى أنا بالخطوات الخلفية أتحرك .

يعرب فى هذه العبارات ، هنرى ڤون أحد شعراء القرن السابع عشر ، عن حنين الإنسان البالغ إلى طفولتـــه . ويعبر عنها بكلمات أخر مستر Bultitudes[1] الذى – مهما يكن من أمر درجة إخلاصه فى قوله – ينبئ الجيل الحديث « إن أيام التلمذة هى أسعد أوقات حياتكم » . ولعل هذه العبارات تتولى بالمثل ، وصف أحاسيس صاحب النزعة السلفية الذى ينشد الحصول من جديد ، على مرحلة فى حياة مجتمعه أكثر تبكيرا .

ولإتاحة استعراض أمثلة تفسر نزعة السلفية ، سنقسم مجال البحث على غرار ما فعلناه وقت مناقشة موضوع « الشعور بالابتذال » . فنتناول بالترتيب مجالات البحث الأربعة : السلوك ، والفن ، واللغة ، والدين .

وبينما أن الشعور بالابتذال شعور تلقائى ، ينتفى منه الوجدان ؛ تتسم نزعة السلفية بسيرها على سياسة وجدانية متعمدة ، تسعى إلى السباحة ضد تيار الحياة . وبالحرى ؛ فإنها حقا فعل فذ . هنا سيتبين لنا أن السلفية تعبر عن نفسها فى مجال السلوك ؛ فى شكل نظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة ، أعظم من تعبيرها عن نفسها فى شكل أساليب لا تتصل بالوجدان بنسب . كما تعبر عن نفسها فى المجال اللغوى فى معان تتصل بمنهاج ونمط يتسمان بالسفسطة .

فإن بدأنا اســتعراضنا ، ببحث موضوع النظم والآراء ؛ تستند خطتنا المثلى على البدء بإيراد أمثلة عن النزعة السلفية ، تتصل بتفاصيل تلك

---

(١) أى مستر « القول المعاد » . (المترجم)

النظم . ولنتبع ذلك ببحث حالة سيطرة النزعة السلفية على العقل وانتشارها على منطقة أرحب ، إلى أن نصل إلى الحالة التي تتحول فيها نزعة السلفية إلى منحى تفكيرى .

وتتسم هذه الأيدلوجية بانحرافها ، لأنها فى أساسها نزعة سلفية . ومن قبيل المثال :

إنه كان يجرى فى عصر بلوتارخ — ويعتبر عنفوان الدولة العالمية الهلينية — حفل جلد أطفال اسبرطة بالسياط فى محراب « آرتميس أورثيا Artemis Orthia » . وتلك تجربة نُقلت فى بداية عهد اسبرطة عن عقيدة بدائية تقوم على تمجيد الخصوبة ، واندمجت فى تعاليم ليكورجوس . ثم أخذت تُمارس مرة أخرى فى مبالغة بلغت حد المرض ؛ تعتبر أحد تفسيرات نزعة السلفية المميزة .

وألهم الإمبراطور فيليب بالمثل عام ٢٤٨ ميلادية — وقتما كانت الإمبراطورية الرومانية تستمتع بفترة راحة موقوتة فى غمار دورة من الفوضى التى قادت إلى انهيارها — ألهم الاحتفال مرة أخرى بعيد Ludi Solculair الذى سبق أن نظمه أغسطس . لكن أعيد تكوين مكتب المراقبة القديم بعد ذلك بعامين .

ونجد فى أيامنا هذه الدولة « ذات النظام التعاونى » التى أقامها الفاشيون الإيطاليون ، تدّعى أنها بداية استعادة نظام سياسى واقتصادى كان نافذا فى المدن الإيطالية إبان القرون الوسطى . وهذا ما سبق أن ادّعاه كذلك جراكشى فى إيطاليا خلال القرن الثانى قبل الميلاد . إذ قال بأنه يمارس وظيفة تريبونية الرعاع الرومانيين على الصورة التى قُصدت منها وقت إنشائها ، قبل عصره بمائتى سنة .

ويطالعنا مثال للسلفية الدستورية نجح نجاحاً أبعد مدى ؛ فى المعاملة المتصفة بالتبجيل التى أضفاها أغسطس — مؤسس الإمبراطورية الرومانية — على مجلس الشيوخ وهو شريكه الاسمى ؛ لكنه سلفه الفعلى فى حكم الأملاك الرومانية .

وتمكن مقارنة ذلك بمعاملة البرلمان المنتصر فى بريطانيا العظمى للتاج : فإن ثمة فى كلتا الحالتين ، انتقال للسلطة . مع فارق أن الانتقال فى الحالة الرومانية ، من الأوليجاركية إلى الملكية ؛ بينما انتقلت السلطة فى الحالة البريطانية من الملكية إلى الأوليجاركية . وتنكّر التغير فى كلتا الحالتين ، فى فى أشكال تنتسب إلى السلفية بأوثق صلة .

وسنلاحظ هنا ، إن انتقلنا إلى العالم الصينى المتحلل ؛ انبعاث سلفية دستورية ذات مجال أكثر شمولا ، يمتد من الحياة العامة إلى الخاصة . فلقد أنتج تحدّى عصر الاضطرابات الصينى ، خميرة روحية فى العقول الصينية التى أبانت عن نفسها على السواء : فى مذهب المأثورات الكنفوشيوسى إبان القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى المدارس الأشد تطرفاً للسياسيين والصوفيين و « المشرّعين » . بيد أن هذا التفجّر فى الفاعلية الروحية ، كان سريع الزوال . إذ تلاه انتكاس عنيف صوّب الماضى ، تمكن رؤيته فى أوضح حالاته فى المصير الذى داهم مذهب المأثورات الكنفوشيوسى . فلقد انحدر من دراسة الطبيعة البشرية ، إلى إحالة آداب السلوك إلى طراز من الطقوس . وتطور فى محيط الإدارة إلى تقاليد ؛ بحيث أصبح كل فعل من الأعمال الإدارية ، يتطلب تصديق السابقة التاريخية عليه .

ويكمن مثال آخر للسلفية — من حيث المبدأ — فى مجال مختلف ؛ مداره عقيدة خيالية إلى حد كبير ، تنحو إلى عبادة العنصر التيوتونى . وتعتبر هذه العقيدة ، إحدى النتائج المحلية لحركة سلفية عامة أنتجها مذهب « الأنطلاقية » فى العالم الغربى الحديث . فإن هذه العقيدة القائمة على نسبة فضائل تصورية للتيوتون البدائيين ؛ قد ركّبت فيها الأنياب والمخالب ، وقتما تحولت إلى إنجيل الحركة الوطنية الاشتراكية فى الرايخ الألمانى . وكانت تقتصر قبلئذ على إتاحة المسرّة الوديعة لبعض مؤرخى القرن التاسع عشر من الإنجليز ، وتلقين غرور عنصرى — لعله أن يكون أشق تأثيرا — فى بعض علماء الأجناس من

الأمريكيين . وإننا لنجابه هاهنا عرضاً للسلفية يبعث على الأسى ، أسى تطور إلى نذير بالشؤم . فإن أمة غربية حديثة كبرى ، قد دفعها الداء الروحانى للعصر الحديث إلى شفا الانهيار القومى المحتوم . فإن جهدها اليائس للفرار من الأحبولة التى أضلتها ، قد ضاعف من رجعتها إلى المجد البربرى المزعوم لماض تاريخى تصورى .

ويتجلى فى مبدأ روسو القائل بـ « العودة إلى الطبيعة » وتعظيم « البربرى النبيل » ؛ شكل آخر ومبكر لهذه الرُّجعى إلى البربرية فى العالم الغربى . ولقد كان أصحاب السلفية الغربيون إبان القرن الثامن عشر أبرياء من الخطط الدموية التى ظهرت من غير استحياء فى صفحات « كفاحى »[1]. إلا أن براءتهم لم تنف عنهم صفة الإضرار بالغير . فحسبنا روسو الذى كان « سبب الثورة الفرنسية والحروب التى تخلفت عنها » .

وإن صيت السلفية فى الفن ، شىء مألوف للإنسان الغربى الحديث ؛ بحيث أن فى وسعه أن يعتنقه قضية مسلم بها . فإن أعظم الفنون ذيوعاً هو العمارة ، تتجلى فيه النزعة السلفية : ومصداقاً لذلك كانت العمارة الغربية طوال القرن التاسع عشر ، ذات طابع موحش أضفاه عليها استعادة « الطراز القوطى ذى النزعة السلفية . وتلك حركة معمارية اتخذت فى مستهل عهدها شكل ولع أصحاب الضياع بوضع « أطلال » قوطية مزيفة فى متنزهاتهم ؛ وبناء مساكن ضخمة وفقاً لطراز مبانى ؛ افترض بأنه يعيد إلى الوجود تأثير أديرة القرون الوسطى . ثم كان أن انتشر الطراز إلى بناء الكنيسة وترميم الكنائس . وكفل لنفسه حليفاً ذا بأس فى حركة سلفية مماثلة هى « حركة اكسفورد الدينية » . ووجد هذا الطراز فى النهاية تعبيراً يتسم بالإسراف فى بناء الفنادق والمصانع والمستشفيات والمدارس .

---

(١) كفاحى Meinkamph : هو الكتاب الذى ضمنه هتلر آراءه ومبادئه فى التنظيم العالمى . (المترجم)

بيد أن السلفية المعارية ليست من ابتكارات الإنسان الغربى الحديث وحده . فلو قيّض للتدنى السفر إلى القسطنطينية ومراقبة منظر الشمس تغرب على ربوة استامبول ، لشاهد القبة تلو القبة ، تلقى ظلالها على الأفق . هذه هى قباب المساجد التى شيّدت فى ظل النظام العثمانى على هدى نزعة سلفية عميقة ، تتمثل فى محاكاة ذليلة لكنيستى أياصوفيا الكبيرة والصغيرة ؛ الكنيستين البيزنطيتين اللتين كان تحديهما الجرىء لقواعد النظام المعارى الهلينى الأساسية ، شاهدا — منقوشاً على الحجر — بانبعاث حضارة مسيحية أرثوذكسية ، من بين ثنايا حطام العالم الهلينى .

وأخيراً فإذا ما تحولنا إلى « الصيف الهندى » للمجتمع الهلينى ؛ نجد الإمبراطور المثقف هادريان يجمّل منزله الريفى بنماذج لطرائف النحت اليونانى القديم صنعت بيد خبير : أى طرائف القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . وترد رغبة هادريان هذه إلى أن خبراء عصر هادريان كانوا من أمثال أولئك الفنانين الذين ظهروا قبل عصر رافائيل ، أولئك الذين بلغوا من الصفاء الذهنى حداً جعل من الصعب عليهم أن يقدّروا مدى ما بلغه أمثال فيدياس وبراكستيل Praxtele من نضوج فذ .

وعندما تنتقل روح السلفية لتعبّر عن نفسها فى مجال اللغة والآداب ، فإنها تتبدى فى عمل شديد الصعوبة بل أكثر الأعمال صعوبة مداره بعث الحياة فى لغة ميتة ، عن طريق إعادة طرحها فى التداول لغة وطنية . وتبذل اليوم مثل هذه المحاولة فى أجزاء شتى من العالم الغربى . ولقد ترتب هذا الاندفاع صوب هذا الإجراء الضال ، عن الهيام الجنونى بإضفاء صفة وطنية مميزة ، وبتحقيق الاستكفاء الثقافى الذاتى . فكان أن سلكت جميع الأمم المتظاهرة بالاستكفاء الذاتى ، والتى ألفت نفسها تفتقر إلى المصادر اللغوية الطبيعية ؛ سلكت طريق نزعة السلفية ، باعتباره أنسب طريق للحصول على زاد من المتاع اللغوى المنشود .

وثمة فى الوقت الحاضر خمس أمم على الأقل تنهمك فى استنباط لغة وطنية مميزة لها ، عن طريق ردّها إلى التداول كلمات بطل استخدامها فى التعامل منذ زمن طويل ؛ اللهم إلا استخدامها فى المحيط الأكاديمى . تلك الأمم هى : النرويج ، ايرلندا ، تركيا[1] ، اليونان ، اليهود الصهاينة . وسيلاحظ عدم انتساب أى منهـــا إلى جمهرة المسيحية الغربية الأصيلة . فإن النرويجيين والإيرلنديين هم على التوالى بقايا حضارة اسكندنافية عقيمة وحضارة الغرب الأقصى العقيمة . أما الأتراك العثمانيون واليونانيون ، فإنهم قسمان من المجتمعين الإيرانى والمسيحى الأرثوذكسى اصطبغا بالصبغة الغربية فى زمن أحدث كثيراً من اصطباغ النرويجيين والإيرلنديين بها . أما اليهود الصهاينة ، فإنهم شذرة من مجتمع سورى متحجّر ، طُمرت فى جسم المسيحية الغربية قبل أيام ظهورها الأولى .

وتعتبر الرغبة التى يحسّ بها النرويجيون فى الوقت الحاضر لتوليد لغة وطنية ؛ نتيجة تاريخية للأفول السياسى الذى عانته مملكة النرويج منذ عام ١٣٩٧ ميلادية ؛ وقتما اتحدت مع الدانمرك اتحاداً انقضى عام ١٩٠٥ . ثم استعادت أخيراً استقلالها الكامل ، بفضل مشاركتها السويد مشاركة جزئية . فلما أن تم لها الاستقلال ، نصبت عليها ملكا خاصاً نبذ اسمه الغربى الحديث الذى عمّد به « تشارلس » ليتخذ اسماً ملكياً نرويجياً هو « هاكون » ، الذى يتبدّى فية تأثير نزعة السلفية . فإنه اسم سبق أن حمله أربعة ملوك نرويجيين بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين ، فى ظل المجتمع النرويجى العظيم . ولقد تحولت الآداب الشمالية طوال خمسة قرون تبدأ منذ أفول النرويج ، إلى مجرد صيغة من صيغ الآداب الغربية الحديثة كانت تكتب بالدنمركية ، مع

---

(١) قعدت تركيا عن المضى فى محاولة تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، بعدما وجدت أن حوالى سبعين فى المائة من الكلمات المستخدمة فى التداول ، يرجع أصوله إلى كلمات عربية أو فارسية . (المترجم)

تعديل فى اللهجة يتناسب مع اللهجة الدارجة الشمالية . ومن ثم فإن النرويجيين بعد ما ثبّتوا أنفسهم — بعد انتقال بلادهم عام ١٨١٤ من حوزة الدنمرك إلى السويد — سعوا إلى تكييف أنفسهم مع ثقافتهم الوطنية الخاصّة . إلا أنهم ألفوا أنفسهم يفتقرون إلى لغة وطنية ، عدا لهجة كلامية بطل استخدامها منذ زمن طويل — يستخدمونها وسيطاً للثقافة الأدبية . فلما أن جوبه النرويجيون بهذه الفجوة الخطيرة فى عتادهم الوطنى ، طفقوا يسعون إلى اصطناع لغة وطنية تخدم الفلاح والحضرى على السواء ، بفضل اتخاذها لغة تخاطب وتثقيف على السواء :

وتعتبر المشكلة التى تجابه الوطنيين الإيرلنديين ، أصعب كثيراً مما يجابه النرويجيين . ذلك لأن التاج البريطانى قد أدّى فى إيرلندا ، الدور السياسى للتاج الدنماركى فى النرويج . فكان أن ترتّب عن ذلك نتائج لغوية مشابهة إلى حد ما . فلقد أصبحت اللغة الإنجليزية هى لغة الآداب الإيرلندية[1] : ولعل فى وجود التباين الواسع بين اللغتين الإنجليزية والإيرلندية — عكس ظلال الاختلافات اللفظية نسبياً بين اللغتين الدنمركية والشمالية ، تباين جعل التقريب بينهما ضرباً من المستحيلات ؛ قد أصبح معه استئصال اللغة الإيرلندية أمراً لا مناص منه . ومن ثم أصبح يقع على كاهل المخلصين الإيرلنديين للسلفية اللغوية : عبء إعادة خلق لغة بادت تماماً على وجه التقريب . فلم يعد الأمر — والحالة هذه — مجرد ترويض لهجة دارجة حيّة . ولقد كانت حصيلة جهودهم ، لغة لا تتفهمها الجماعات الريفية المتفرقة غرب إيرلندا ؛ جماعات ما تزال تتحدث اللغة الغاليّة كما تعلمتها على حجر الأمهات .

ويختلف عما تقدم ؛ مظهر القومية اللغوية التى انهمك فيها الأتراك العثمانيين[2] فى ظل نظام الرئيس المرحوم مصطفى كمال أتاتورك . فلقد كان

---

(١) ويطالعنا أبلغ دليل فيما ألفه الكاتب الإيرلندى العظيم برنارد شو ، فقد كتب باللغة الإنجليزية وحدها . (المترجم)

(٢) يطلق الأستاذ المؤلف اصطلاح « الأتراك العثمانيين » على أتراك الأناضول وتراقيا والبلقان ، رغما من انقضاء عهد آل عثمان . وذلك تميزا لهم عن أتراك الاتحاد السوفييتى . (المترجم)

أسلاف الأتراك المحدثين – مثل أسلاف الإنجليز المحدثين – برابرة اعتدوا على الأرض المهجورة لحضارة متحللة ثم اغتصبوها . واستخدم سليلو كلتا الجماعتين من البرابرة ، الأداة اللغوية باعتبارها واسطة لإحراز الحضارة . وكما أن الإنجليز قد كثّروا محصولهم اللغوى الضئيل بفضل شحنه بثروة استعاروها من الكلمات والعبارات الفرنسية واللاتينية واليونانية ، طفق العثمانيون يرصّعون لغتهم التركية الغليظة بنفائس التعبيرات الفارسية والعربية . ومن ثم يتبلور هدف الوطنى التركى ذى النزعة السلفية اللغوية ، فى التخلص من هذه الدرر . وعند ما يتبين أن الاستعارات التركية من المصادر الأجنبية هى من الكثرة مثل استعارات الإنجليز اللغوية ، سيتضح أن المهمة ليست بالأمر السهل[١] .

وأيا ما تكون الحال ، فلقد اتسمت طريقة البطل التركى[٢] فى الوصول إلى هدفه ، بالخشونة التى اتسمت بها طريقته التى استخدمها من قبل فى تخليص وطنه من العناصر الدخيلة عليه من السكان . فإن كمال أتاتورك قد أخرج من تركيا طبقة متوسطة يونانية وأرمنية استقرت فى تركيا منذ زمن بعيد ، فأصبح لا غناء عنها . وقدّر فى ذهنه أن الضرورة الملحة بسبب حدوث الفراغ الاجتماعى ، ستدفع الأتراك إلى سدّها عن طريق حملهم الأعباء الاجتماعية على كواهلهم ، أعباء ما انفكوا يتركونها لغيرهم بسبب كسلهم . وبنفس المبدأ ، شرع الغازى ينتزع الكلمات الفارسية والعربية من القاموس التركى . فأظهر بهذا الإجراء الخشن ، مدى ما يستطيع أن يتيحه الحافز الثقافى من تنبيه الشعوب الخاملة عقلياً ، وقتما تجد أفواهها وآذانها تجرّد بصورة فظة ، من أبسط ضروريات الحياة اللفظية . وكان الأتراك إبان هذا

---

(١) لعل الأستاذ المؤلف قد كتب هذه العبارة قبل عدول الحكومة التركية تماما عن عملية التخلص من الكلمات العربية والفارسية . (المترجم)

(٢) البطل التركى : يعنى به المؤلف كمال أتاتورك . (المترجم)

الضيق الشديد ينقبون منذ عهد قريب معاجم كومان Cuman وتقدمات أورخون وسوترات[1] أويغور Oighur والتواريخ الصينية الملكية ؛ رجاء العثور على بديل تركى لهذه الكلمة الفارسية أو التركية المستخدمة داخل البيوت والتى مُنع استخدامها خارجها منعا باتا ، أو لفقّت تلفيقا .

وتبدو هذه الأعمال اللغوية المحنقة للمشاهد الإنجليزى ، شيئاً يبعث على الفزع . ذلك لأنها توضح له طرائف من الشدائد التى يحملها المستقبل بين طياته للمتكلمين بالإنجليزية ، إن فُرض وحل اليوم الذى يتطلب فيه « مخلص » حاذق من المجتمع الإنجليزى ضرورة استخدام « الإنجليزية الخالصة » . وفى الواقع اتخذ فعلا أحد الهواة — ولعله بعيد النظر — شيئاً من الاستعداد الواهى فى سبيل تحقيق هذا الحدث . إذ نشر منذ ثلاثين سنة أحد الناس ، وقد دعى نفسه "C.L.D." كتاباً عنوانه « الكتاب العالمى للسان الإنجليزى ، لإرشاد أولئك الذين يتوقون إلى التخلص من النير النورمندى الذى يلجم ألسنتهم » . وكتب هذا الكاتب أن ما يدعوه كثير من المتكلمين والكتاب — حتى الوقت الحاضر بالإنجليزية — ليس من الإنجليزية فى شىء . بل إنه لغة فرنسية محضة . فلو سايرنا الكاتب فى رأيه ، علينا أن ندعو الـ premabulator بـ Childwain[2] وأن نطلق على الأومنيبوس اسم folkwain[3] . وقد تعتبر هذه الأسماء نوعا من الارتقاء ، لكن غبطة الكاتب تقل وقتما ينشد التخلص من دخلاء مقيمين ، امتدت إقامتهم طوال تاريخ أبعد من ذلك كثيرا . فإنه عندما يقترح الاستغناء عن كلمة disapprove بكلمة "hiss" أو كلمة "boo" أو "hoot" ؛ يأتى بالقول الفصل على عقم تفكيره ويبديه للعيان بشكل فعّال . إذ لا يمكن بحال اعتبار كلمات

(١) السوترا : هى فى الأصل كتب هندية دينية . (المترجم)

(٢) الكلمة الأولى تعبر عن عربة الطفل بالإنجليزية والثانية تعبر عنها بالسكسونية (المترجم)

(٣) عربة الشعب . (المترجم)

"redecraft" و "bachjaw" أو "outganger" بديلة لا ريب فيها لكلمات logic و tretort و emigrant[1][2] .

وتشابه الحالة اليونانية ، الحالتين النرويجية والإيرلندية مشابهة واضحة من ناحية قيام الإمبراطورية العثمانية التركية بالدور الذى قام به كل من التاجين الدنمركى والبريطانى . فإن اليونانيين قد ألفوا أنفسهم — مثل النرويجيين — بعد ما ارتقى وعيهم الوطنى الذاتى مزودين لغوياً بشىء لا يعدو كونه لهجة ريفية دارجة . فآلوا على أنفسهم — مثل الإيرلنديين بعد ذلك بمائة عام — إعادة تكييف لهجتهم الدارجة للقيام بالأعمال العظيمة التى تنتظرها ، عن طريق تثبيتها دعائمها بحُقن تحتوى على الشكل اللغوى القديم . لكن كان على اليونانيين لتنفيذ تجربتهم ، مصارعة معضلة كانت نقيض المعضلة التى تجابه الإيرلنديين . فعلى حين تضؤل مادة اللغة الايرلندية القديمة ضآلة محيرة ؛ تغزر مادة اللغة اليونانية القديمة غزارة مربكة . وحقا تتمثل الفجوة العميقة الواقعة فى طريق اليونانيين اللغويين المحدثين من أصحاب مذهب السلفية ؛ فى إغراء مصادر آتيكا اللغوية القديمة فى الاغتراف منها فى إسراف شديد ، فيستثيرون بذلك رد فعل غير المثقفين من المحدثين . فإن اليونانية الحديثة ميدان صراع بين « لغة المدققين فى اختيار اللفظ » و « اللغة الشعبية » .

ويعتبر مثالنا الخاص المتصل بإحالة العبرية إلى لغة وطنية للتخاطب اليومى على شفاه من استقر فى فلسطين من اليهود الصهاينة المشردين ، أبرز الأمثلة جميعها . ذلك لأنه على حين لم يتوقف استخدام اللغات النرويجية ولا اليونانية ولا حتى الإيرلندية عن التحدث بها لغة دارجة ؛ ظلت اللغة العبرية ميتة فى فلسطين طوال فترة ثلاثة وعشرين قرناً ، منذ حلول

---

(١) الكلمات الأولى كلمات ساكسونية تصد بها الحلول محل المجموعة الثانية من الكلمات الإنجليزية . وتعنى على التوالى . المنطق ، القارورة المعوجة ، المهاجر . (المترجم)

(٢) تضم الصفحة ١٤٦ من كتاب Equire, J.C : Books in general عرضا لكتاب C. L. D. (المؤلف)

اللغة الآرامية محلها قبل عصر نحميا[١] . فلقد لبثت اللغة العبرية طوال هذا الوقت — إلى وقت قريب — لغة طقوس المعبد اليهودى فقط ، ولغة المهتمين ببحث الشريعة اليهودية . فكان أن ابتُعثت هذه « اللغة الميتة » فى غضون جيل واحد ؛ من المعبد اليهودى ، وحوّلت إلى أداة تحمل الثقافة الغربية الحديثة . وابتدأ ذلك فى أول الأمر فى صحيفة ظهرت فى أوربا الشرقية باسم « الحظيرة اليهودية » ، ثم تبدّت فى مدارس ومنازل الجماعة اليهودية فى فلسطين[٢] ؛ حيث يُنشأ أطفال مهاجرى اليهود الأوربيين المتحدثين بالـ « يديش »[٣] وأطفال المهاجرين الأمريكيين المتحـــدثين بالإنجليزية ومهاجرى اليمن المتحدثين بالعربية ومهاجرى بخارى المتحدثين بالفارسية ؛ يُنشأون جميعاً على التحدث بلغة مشتركة هى لسان قديم ميّت ، قضى نحبه قبل جيل السيد المسيح بخمسة قرون .

وإذا ما تحوّلنا الآن إلى العالم الهلينى ، نجد السلفية اللغوية هنا شيئاً أوسع رحابا ، لا مجرد ملحق بالسلفية الإقليمية .

فإنك إن فحصت خزانة كتب تضم مجموعة من الكتب المكتوبة باليونانية القديمة قبل القرن السابع الميلادى ، والتى بقيت حتى الوقت الحاضر ؛ تلاحظ أمرين :

الأول — كتابة غالبية الجانب الأعظم من هذه المجموعة بيونانية آتيكا .

الثانى — انقسام هذه المكتبة الآتيكية إلى مجموعتين مميزتين — إن فرض ترتيبها ترتيباً زمنياً تاريخياً :

فإن ثمة فى المحل الأول أدب آتيكى أصيل ، كتبه فى أثينا إبان القرنين

---

(١) أحد أنبياء إسرائيل . (المترجم)

(٢) ثم أصبحت هذه اللغة العبرية الميتة ، لغة رسمية لدولة ابتعثت كذلك من قبر دولة إسرائيل القديمة التى ووريت التراب منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة . (المترجم)

(٣) اليديش لغة يهود وسط وشرق أوربا وتتكون أساسا من خليط من الألمانية والعبرية . (المترجم)

الخامس والرابع [قبل الميلاد – أثينيون ، استخدموها باعتبارها لغتهم الطبيعية .

وثمة أدب آتيكى ينزع صوب السلفية ، أنتجه خلال فترة قوامها حوالى الستة قرون أو سبعة – من القرن السابق للميلاد حتى القرن السادس الميلادى – مؤلفون لم يتح لهم العيش فى أثينا أو التكلم بالآتيكية كلغتهم الوطنية .

وحقا ؛ فإن المدى الجغرافى لهؤلاء الكتاب الأتيكيين المستحدثين ، يبلغ سعته سعة أقاليم الدولة العالمية الهلينية . لأنه كان من بينهم : جوزيفوس من أورشليم ، وآيليان Aelian من برابينستى Prabeneste ، وماركوس أوريليوس من روما ، ولوسيان من ساموساتا Samosata وبراكوبيوس من قيصرية . وعلى الرغم من هذا التنوع الواسع فى الموطن ؛ فإن الآتيكيين المستحدثين يُبـــدون تجانسا غير عادى بالنسبة للكلمات المستخدمة وبالنسبة للإعراب والأسلوب . ويعزى ذلك إلى صرامتهم وصفاقتهم ، وكونهم مقلّدين أذلاء للغة الآتيكية فى « أزهى عصورها » .

ولقد كفلت نزعتهم السلفية هذه ، حفظ تراثهم . إذ لما تقررت إبان مطلع التحالل النهائى للمجتمع الهلينى ؛ مسألة « تكون أو لا تكون » لكل مؤلف يونانى قديم وفقاً للتمييز الأدبى السائد وقتئذ ؛ وضـــع النساخون نصب أعينهم أن يكون موضع تساؤلهم الاختبارى « هل العمل الأدبى آتيكى خالص ؟ » ولم يعنوا بالتساؤل عما إذا كان عملا فنياً ممتازا . ومن نتائج ذلك ، استحواذنا الآن على مجلدات من الأعمال الآتيكية المستحدثة ، يسعدنا لو بادلناها بجزء من ذلك القدر من الأعمال ، التى لم تكتب باللهجة اليونانية الآتيكية ، والتى ظهرت خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد .

ولم يكن الاتجاه صوب الآتيكية الذى انتصر إبان العصر الذى نزعت فيه الآداب الهيلينية صوب السلفية ، هو العمل الأدبى الوحيد من نوعه . فإن ثمة بالمثل النزعة الشعرية الهومرية المستحدثة ، التى ربّاها حشد من المشتغلين

بالأعمال الأدبية القديمة ابتداء من أبولونيوس روديوس Apollonius Rhodius في القرن الثاني قبل الميلاد ، حتى نونّوس باموبوليتانوس Nonnus Panopo-litanus في القرن الخامس أو السادس الميلادي . وتنحصر بصفة جوهرية ، نماذجنا البارزة الخاصة بالأدب اليوناني الذي ظهر بعد عصر الإسكندر والذي لم ينزع صوب السلفية ، في مجموعتين من الأعمال :

الشعر الريفي الذي ازدهر خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وقد احتفظ به بسبب نمطه الدروي النفيس . وكتب المسيحية واليهودية المقدسة .

ولإحياء نزعة السلفية في اللغــة الأتيكية اليونانية ، شبيه تام في التاريخ السندي ؛ يتمثل في إحياء السنسكريتية . فلقد كانت السنسكريتية الأصيلة ، هي اللغة الدارجة للقطيع البدوي الأوراسي للآريين للذين تفجّروا من السهوب ، إبان الألف الثانية قبل ميلاد المسيح وفاضوا على شمال الهند ، وعلى جنوب غرب الهند ومصر الشمالية . واحتفظ على الأرض الهندية بهذه اللغة في تعاليم الفيدا ، وهي مجموعة من الأدب الديني ، أصبحت أحد الدعائم الثقافية للحضارة السندية . على أنه بمرور الوقت – وقتما انهارت هذه الحضارة السندية ودخلت طريق التحلل – انتهى العهد باستعمال السنسكريتية في التداول ، فغدت لغة كلاسيكية تُدرس بسبب ما تضمه بين طياتها من أدب له اعتباره الخالد . وفي غضون ذلك قام مقام السنسكريتية – واسطة للاتصال في الحياة اليومية – عدد من اللهجات الدارجة المحلية اشتقت جميعها من السنسكريتية ، إلا أنها تتميز عنها بدرجة تكفي لاعتبارها لغات منفصلة . ولقد استخدمت أحـــد هذه اللهجات السنسكريتية العامة – لهجة بالى بسيلان – أداة لكتب البوذية الهينايانية المقدسة . واستخدم الإمبراطور آشوكا (٢٧٣ – ٢٣٢ ق . م) لهجات عديدة أخرى ، أدوات تعبير عن مراسيمه الإمبراطورية . ومع ذلك بدا بعد وفاة آشوكا ، إحياء اصطناعي للسنسكريتية ؛ اتسع مداه حتى قيض للغة السنسكريتية المستحدثة انتصار تام في داخلية الهند،

على تلك اللهجات العامية المشتقة من السنسكريتية الكلاسيكية . وتركت هذه السنسكريتية المستحدثة ، لهجة بالى تعيش كإحدى الطرائف الأدبية فى مجاهل جزيرة سيلان .

وصفوة القول ؛ يقع الكيان الأساسى للسنسكريتية — مثل الكيان الأساسى البارز للغة اليونانية الأتيكية — فى نطاق تطابقين متميزين :

تطابق أصيل أقدم عهداً .

وتطابق أحدث عهداً ينزع صوب المحاكاة والسلفية .

فإذا ما انتقلنا من ميادين اللغة والفن والنظم إلى ميدان الدين ، يسهل على المراقب الغربى الحديث ، ملاحظة نزعة السلفية فى نطاق حدود بيئته الاجتماعية الذاتية . فإن الحركة الإنجليزية الكاثوليكية تقوم — مثلا — على الاعتقاد بأن « الإصلاح » الدينى الذى تم خلال القرن السادس عشر وحتى فى صورته الإنجليكية المعدلة ، قد ذهب فى تطرفه مدى بعيدا . ومن ثم تهدف الحركة إلى استعادة استخدام آراء وطقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى ثم هُجرت وألغيت منذ أربعمائة سنة ، إلغاء تعزوه إلى عدم التبصر .

ويطالعنا فى التاريخ الهلينى مثال فى سياسة أغسطس الدينية :

« إن إحياء أغسطس لدين الدولة يعتبر ؛ أهم حدث بارز فى تاريخ الدين الرومانى . كما يعتبر حدثاً لا نظير له تقريباً فى التاريخ الدينى . . فإن الإيمان بفاعلية العقائد القـديمة قد زال لدى الطبقات المتعلّمة . . . وكان سكان المدينة المهجّنين قد اعتادوا منـذ زمن طويل على السخرية بالأرباب القديمة . وتركت الممارسة الخارجية للدين تتداعى ، ومن ثم قد تبدو لنا على أعظم حد ، استحالة نجاح فرد بمفرده بإحياء شعائر الدين وابتعاث الإيمان به إلى حـد ما . . . إذ يستحيل نكران واقعية هذا الإحياء . وإن اصطلاحى السلام الإلهى والإرادة الربانية قد أصبحا مرة

أخرى اصطلاحين للقوة والمعنى . . . لقد استمر الدين القديم باقياً لفترة ثلاثة قرون فى صورة سطحية وإلى حد ما فى إيمان شعبى»[1] .

فإن تحوّلنا من العالمّ الهلينى إلى الفرع اليابانى من مجتمع الشرق الأقصى ، نجد محاولة يابانية فى الآونة الأخيرة رنت إلى إحياء الضرب اليابانى من الوثنية البدائية التى تدعى بالشينتو . وتعتبر هذه المحاولة تجربة فى النزعة السلفية الدينية تتلاقى فى خطوطها مع سياسة أغسطس ، كما تتلاقى مع المحاولة الألمانية الحديثة لإحياء الوثنية التيوتونية .

ويتشابه الإجراء اليابانى مع الإجراء الألمانى ، أعظم من مشابهتـــه العمل الرومانى الفذ . فإن الوثنية الرومانية التى ابتعثها أغسطس ، كانت ما تزال قائمة ؛ وإن سارت فى طريق الاضمحلال شوطاً بعيداً . على حين أن الوثنية اليابانية — مثل الوثنية الألمانية — قد حل محلها منذ ألف سنة — أو ابتلعها — دين أرقى ، وكان ذلك الدين هو ذلك الضرب من البوذية المهايانية . ولقد كان مناط المرحلة الأولى من حركة الإحياء الوثنى اليابانى ، أبحاث نظرية محضة . فإلى كاهن بوذى يدعى كيتشو Keichu (١٦٤٠ — ١٧٠١ ميلادى) يرد إبراز الوثنية اليابانية « الشينتوية » إلى العيان لأول مرة ؛ وكانت غايته فلسفية بحتة . على أن غيره قد اقتفوا أثره ، فظهر هيراتا آستوتانى Hirata Astutane (١٧٧٦ — ١٨٤٣) الذى شن هجوما على المهايانية وعلى الفلسفة الكنفوشيوسية باعتبارها فكرتين دخيلتين مستوردتين .

ولقد حدث هذا الابتعاد الشينتوى — مثل الابتعاد الأوغسطى — بعـــد ما انتقلت اليابان من عصر اضطراباتها إلى مرحلة دولتها العالمية . وكانت الحركة الشينتوية المستحدثة ، قد بلغت بالكاد مرحلتها الحربية وقتما تفتتت قبل الأوان بفعل ضغط التوسع العدوانى للحضارة الغربية ؛

---

(١) صفحتا ٤٢٨ و ٩ Warde - Fowler W. : The Religeous Experience of The Roman People.

وعند ما ولجت اليابان فى أعقاب ثورة ١٨٦٧ — سياستها الحديثة القائمة على الاحتفاظ بذاتيتها فى « مجتمع كبير » شبه غربى ، باعتناقها الأساليب العصرية وفقاً لنهج القومية الغربية ؛ أخذت الحركة الشينتوية المستحدثة ، تزوّد اليابان بما تمس حاجتها إليه لتوكيد ذاتيتها القومية فى محيط ظروفها الدولية الجديدة . وتمثلت الخطوة الأولى التى اتخذتها الحكومة الجديدة — فيما يتصل بالدين — فى محاولة تقرير الشينتوية ديناً للدولة . وبدا وقتاً ما ، كما لو أن الاضطهاد سيقود البوذية إلى الفناء . بيد أن هذا لم يكن أول ولا آخر عصر فى التاريخ ، يباغت فيه خصومه ، « دين أسمى » بحيويته الحرون . فكان أن أصبح على البوذية والشينتوية أن تتفقا على العيش بسلام ، جنباً إلى جنب(١) .

* * *

وصفوة القول : فإن ثمة شعوراً بالفشل ، أو — حيث لا يوجد فشل — شعور بالتفاهة ؛ يكتنف عملياً جميع أمثلة السلفية التى بحثناها . وليس السبب بالبعيد عن الإدراك . إذ تستنكر طبيعة السلفية ذاتها فعل صاحبها ؛ لإصراره على التوفيق بين الماضى والحاضر . ويعتبر تنافر المزاعم المتصلة بالماضى والحاضر فى نزعة السلفية ، مناط ضعفها كطريقة للحياة . ويجلس صاحب السلفية على قرنى مشكلة تحتمل أن ترديه ؛ أياً ما يكون الطريق الذى قد يسلكه . لأنه إن حاول استعادة الماضى دون أن يأخذ الحاضر فى اعتباره ، من شأن حافز الحياة الذى يتجه بطبعه صوب التقدم ، أن يحطم بناءه الهش إلى شظايا . فإن ارتضى — من الناحية الأخرى — إخضاع نزوة خياله المتصلة بإحياء الماضى — لإنجاز فعل

(١) لم يعد اليابان بعد هزيمتها الحربية فى الحرب الأخيرة ، دين رسمى . وكفل دستورها الجديد — الذى فرضته عليها سلطات الاحتلال العسكرية الأمريكية والذى ما برح سارياً حتى الآن — حرية الأديان ، وأزال رعاية الدولة للشنتوية ، وقضى على تقديس الإمبراطور والعائلة المالكة . وتبلغ نسبة معتنق البوذية ٤٥٪ من السكان . (المترجم)

يجعل الحاضر شيئاً مفيداً ؛ عندئذ تبرهن سلفيته على تدليسها :

وفى ختام مجهوداته ؛ سيجد ذو النزعة السلفية فى كل من مجالى الاختيار ، أنه ما فتئ يمارس – عن غير قصد – دور صاحب النزعة المستقبلية . وإذ يسعى لاستدامة هذه المفارقة ؛ إنما يفتح – فى واقع الأمر – الباب لنوع من الابتداع : وهنا يسعى لاقتناص هذه الفرصة ، لاقتحام طريقه إلى الداخل :

(٨) المستقبلية

إن المستقبلية والسلفية على السواء ، محاولتان للانفلات من سقام قائم بالفعل . ويتأتى تحقيق ذلك الانفلات بطفرة خافقة ، تدفع المرء إلى ناحية أخرى من تيار الزمن ، دون التخلى عن جانب الحياة الدنيوية على الأرض . ويتشابه كذلك مجالا الاختيار هذين القائمين على السعى للفرار من الحاضر مع البقاء فى محيط البعد الزمنى ؛ فى كون كل منهما عملا فذا ، تبرهن التجربة على قصوره .

ولا تختلف المستقبلية عن السلفية إلا فى ناحية الاتجاه ، أى فوق تيار الزمن أو تحته . وفى هذا الاتجاه ؛ تدبر النزعتان سبيل انفلاتهما من مأزق قائم . إلا أن المستقبلية تذهب أبعد من السلفية فى حملتها ضد الطبائع البشرية .

فإن من طبائع البشر الأصيلة ؛ الفرار من الحاضر ، باتخاذ وسيلة الانسحاب إلى ماض مألوف . لكن الطبيعة البشرية أشد ميلا إلى التشبث بحاضر مكروه ، منها إلى المجازفة فى مجاهل المستقبل . ومن ثم نجد الجهد النفسانى فى حالة المستقبلية ؛ أقوى بشكل واضح ، منه فى حالة السلفية ؛ وهى النزعة البديلة للمستقبلية . وغالبا ما تصبح المستقبلية ؛ نزعة رد الفعل التالى لتلك النفوس المتحفزة ، التى سبقت لها تجربة السلفية ، فخاب أملها .

وإذا كانت المستقبلية كذلك ، تكابد الإخفاق بقوة أشد مما تكابده السلفية ؛ إلا أن إخفاق نزعة المستقبلية يسفر ذلك فى بعض الأحيان عن نتيجة تختلف تمام الاختــلاف ، مناطها تساميها الذاتى وارتفاعها إلى مرتبة التجلى .

فإذا شبهنا نكبة السلفية ، بفرقعة سـيارة تنزلق على مسالكها فى دائرة تامة ، ثم تندفع صوب دمارها فى الجانب المضاد ؛ يمكن تشبيه تجربة المستقبلية – الأكثر توفيقا – بمسافر على سطح سيارة مندفعة . ويعتقد المسافر هنا ، أنه يرتحل فى حافلة أرضية ؛ لكنه يتبين فى فزع عميق ، خشونة الأرض التى تجتازها السيارة فى اندفاعها إلى الأمام ؛ ويظل على جزعه هذا ، حتى ترتفع السيارة عن الأرض فجأة – بسبب حادث يبدو صعوبة تلافيه للوهلة الأولى – وتحلق فوق القنن الوعرة ، وتتخبط فى مادتها الذاتية .

وتمكن دراسة الطريقة المستقبلية – مثل الطريقة السلفية – المتصلة بقطع الصلة بالحاضر ، فى عدد من ميادين النشاط الاجتماعى المختلفة :

فغالباً ما تتجلى حركة التعبير التى يبديها ذو النزعة المستقبلية ، فى استبداله العادة التقليدية بعادة غير مألوفة . وهذا هو الحال بالنسبة لمختلف أجزاء العالم التى تنزع إلى اعتناق الأساليب الغربية ؛ وإن كان نزوعها هذا ما يزال منحصراً فى القشور . ونشاهد – مصداقاً لذلك – حشداً من المجتمعات تهجر زيها المميز الموروث وتقبل على طراز ثقيل من الزى الغربى عديم الذوق ، بحسبانه علامة ظاهرية على انخراطها مختارة – أو مضطرة – فى صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية .

ومن أمثلة عملية التغريب[1] الخارجى بالإكراه (ولعله أقدمها) ؛

---

(١) التغريب : أى النزوع صوب الأساليب الغربية Westernization (المترجم)

عملية حلق الذقون وتحريم ارتداء القفطان فى موسكو بأمر بطرس الأكبر؛ واقتدت اليابان فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر بثورة الملابس المسكوفية هذه[1]. وأبرزت ظروف مماثلةمنذ الحرب الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، أفعالا تعسفية مشابهة ، فى عدد من الأقطار الغير الأوربية؛ فثمة مثلا قانون ١٩٢٥ التركى الذى فرض على جميع المواطنين الأتراك ارتداء القبّعة ذات الحافة . وثمة ما يقابل هذا القانون ، نجده فى مراسيم أصدرها عام ١٩٢٨ الشاه رضا بهلوى ، والملك أمان الله خان ملك أفغانستان .

ولا يعتبر العالم الإسلامى أثناء القرن العشرين الميلادى — مع ذلك — الميدان الوحيد الذى اتخذ فيه من القبعة ذات الحافة ، قمة معركة النزعة المستقبلية . ففى عالم ١٧٠ — ١٦٠ ق . م السورى ، لم يكتف الكاهن الكبير جوشوا Joshua فى برنامجه — وهو زعيم يهودى من المتأثرين بالهلينية — باستخدام الإشارة اللفظية التى حوّلت اسمه إلى جاسون Jason؛ إلا أن ما استثار رد فعل المكابيين ، هو اتخاذ صغار الكهنة القبعة ذات الحافة العريضة التى كانت غطاء الرأس المميز للأقلية الوثنية المسيطرة فى الدول الهلينية التى خلفت الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) ؛ على أن هذه المحاولة اليهودية الموسومة بنزعة المستقبلية ، لا تعتبر فى نهاية المطاف انتصاراً — عكس ما تم بالنسبة لمحاولة بطرس الأكبر — بل تعتبر فشلا وخيبة ، تماثل ما انتهت إليه محاولة أمان الله خان : ذلك لأن هجوم الدولة السلجوقية على الدين اليهودى ، قد استثار رد فعل يهودى يتسم

---

(١) أخذ الرجال اليابانيون منذ ذلك الحين يرتدون الملابس الأوربية خارج دورهم ؛ أما فى داخلها فما يزالون — حتى الآن — يرتدون ملابسهم الوطنية . لكن ملابس السيدات بقيت على حالها ، إلى أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؛ فأقبلن بدورهن على ارتداء الملابس الأوربية تاركين ملابسهن الوطنية الجميلة التى تتفق وطبيعة أجسامهن . والواقع قلما يرى زائر لمدينة طوكيو فى الوقت الحاضر ، رجلا أو امرأة يرتدى رداءه الوطنى . (المترجم) .

بالعنف ، لم يستطع آنتيخوس أفيفانيس Antiochus Ephiphanes وخلفاؤه مقاومته .

على أن عقم هذا المشروع المتصل بنزعة المستقبلية ، لا يغض من قدرته على الوفاء بأغراض التثقيف كمثال .

فإن مزاج روح المستقبلية ، يتجه بالضرورة صوب الشمول الكلى ؛ وهذا ما أدركه جاسون وخصومه على السواء . فإن اليهودى الذى يرتدى القبعة اليونانية ، يعتاد – بعد أمد قريب وفقاً لرأيه – ، ارتياد الملعب اليونانى[1] . « وسيأتى اليوم الذى يعتبر فيه هذا اليهودى ممارسة أحكام دينه شيئاً لا يتفق وطابع العصر ، ويجافى الفكر المستنير وجديراً بالازدراء » .

وقد تعبّر النزعة المستقبلية عن نفسها فى المجال السياسى فى ناحية من الناحيتين التاليتين :

جغرافية – فى الإزالة المتعمّدة للتخوم والحدود .

اجتماعية – فى التحلل الإجبارى للنقابات والأحزاب القائمة أو فى تحلل الطوائف الدينية ، أو فى إبادة طبقات اجتماعية بأسرها .

ويتجلى المثال التقليدى للإزالة المتعمدة للتخوم والحدود ، بغية إحـــداث فجوة فى الاتصال السياسى ؛ فى قيام الثوروى الناجح كليستينز Cleisthenes[2] حوالى عام ٥٥٧ ق . م فى إعادة تخطيط حدود آتيكا . وهدف من ذلك إلى تحويل نظام للدولة مفكك – غالباً ما سادت فيه مقتضيات النسب على مطالب المجتمع – إلى دولة موحّدة تسود فيها واجبات المواطنين . وبالأحرى على جميع اتجاهات الولاء الأخرى الأقل

---

(١) Palaestra .

(٢) كليستينز Cleisthenes : مصلح أثينى تزعم الحزب الديمقراطى عام ٥١٠ ق . م . فمارضته طبقة النبلاء بأسرها . وفى طليعة إصلاحاته إلغاء نظام القبائل الأربع ، وإدخاله نظام النفى للتخلص من زعيم حزب غير مرغوب فيه عوضا عن قتله . وإعادته نظام الانتخاب بالقرعة . (المترجم)

أهمية . وقد برهنت سياسته العنيفة على نجاح ملحوظ .

واقتدى صانعو الثورة الفرنسية ، بهذه السابقة الهلينية ، سواء عن إدراك بفعل تأثير عقيدتهم الهلينية ، أو بفعل الهام مستقل قادهم بنفس الوسائل إلى غاية مماثلة . فإن صانعي الثورة الفرنسية – مسيرين بفكرة توحيد فرنسا السياسي مثلما هدف كليستنز إلى توحيد آتيكا سياسياً – قد ألغوا الأقاليم الإقطاعية القديمة ورفعوا الحواجز الجمركية الداخلية . وابتغوا من ذلك تحويل فرنسا إلى منطقة موحّدة النظام المالى ، تتجزأ – تيسيراً لإدارتها – إلى ثلاث وثمانين مقاطعة . ولقد قصد من تطابقها الرتيب ؛ تبعيتها الصارمة للسلطة المركزية فى باريس ؛ مما يقود إلى إزالة ذكرى اختلافاتها الإقليمية ؛ واتجاهها القديم بالولاء صوب سلطات أخرى غير الدولة . ولا ريب فى أن إلغاء الحدود القديمة خارج فرنسا بفضل إعادة رسم خرائط الأراضى غير الفرنسية التى أدمجت فى الإمبراطورية النابليونية مؤقتاً ، قد مهّد السبيل لخلق وحدة دولتى إيطاليا وألمانيا .

ولقد أتاح ستالين فى عصرنا الحاضر ؛ تعبيرا مميزاً لطابع النظام البلشفى فى الميدان الجغرافى ، بقيامه بتنفيذ سياسة أعظم إصالة وأكثر حذقا . وترابط بمقتضاها التقسيمات الإدارية الداخلية للاتحاد السوفييتى ؛ وهذا ما يبدو واضحاً ، عند ما يُقارن مصور هذه المنطقة من العالم ، على المصور الإدارى للإمبراطورية الروسية . على أن ستالين فى سعيه لتحقيق هدفه ، قد تصرّف فى هذا الميدان بحذق قد يجعل منه مبتكرا . وتفسير ذلك ؛ أن سابقيه قد رنوا إلى تحقيق هدفهم بإضعاف اتجاهات الولاء الإقليمية الطابع ؛ فى حين اتبع ستالين سياسية عكسية تقوم على إشباع مطالب النزعة الإقليمية . فكان بذلك بقــدّر تقديرا اتسم بالدهاء ،

احتمال قتل النزعة الإقليمية بالإشباع ، بدرجة أعظم من إخماده إياها بالتجويع[١] .

وجدير بالتذكر فى هذه المناسبة أن ستالين كان من أبناء جورجيا[٢] . ويروى أن وفداً من الجورجيين المنشفيك[٣] قد تقدم إلى مؤتمر الصلح بباريس مطالباً بالاعتراف بقومية جورجية ممزة عن القومية الروسية . ودلل الوفد على أحقية مطالبه — فى جانب من براهينه — بإظهار الطابع المميز للغة الجورجية ، وأحضر معه لهذا الغرض مترجماً ظن أن وظيفته ترجمة لسانهم الشاذ إلى الفرنسية . إلا أن صحفياً إنجليزياً (لم يكن يعرفه هؤلاء الجورجيون) وكان على دراية باللغة الروسية ، قد لاحظ فى إحدى المناسبات ، أن أعضاء الوفد يتحدثون معاً باللغة الروسية هم ومترجمهم . وصفوة القول فإن المواطن الجورجى فى الوقت الحاضر — مهما يكن من أمر طموحه السياسى — يلقى تلقائياً ولا شعورياً حديثه السياسى مستخدماً الروسية ، طالما أن استخدام الروسية لا يفرض عليه بالقوة .

ويتجلى التعبير التقليدى للنزعة المستقبلية ، فى مجال الثقافة الدنيوية ، فى الفعل المتصل بإحراق الكتب . ويتضح هذا من الأمثلة التالية :

يقال إن الإمبراطور تسين هوانج تى فى العالم الصينى — وكان

---

(١) يراجع كتاب المترجم عن « الدستور السوفيتى » .

(٢) جورجيا : إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الاتحادية الخمس عشرة . وتقع جورجيا فى القوقاز . (المترجم)

(٣) تعنى كلمة منشفيك باللغة الروسية ، فريق الأقلية . كما تعنى كلمة بولشفيك ، فريق الأكثرية . ويرجع أصل هذه التسمية إلى انقسام الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى عام ١٩٠٣ إلى قسمين : أغلبية تبعت لينين وأقلية تبعت غيره . ولا يؤمن فريق المنشفيك بالطابع الثورى ، ويؤثرون تحقيق أهدافهم تدريجيا ، ومن ثم يتماثلون مع نظرائهم من اشتراكى البلاد الأخرى . وقد سيطر المنشفيك وقتا ما على جمهورية جورجيا ، ولكن لا يوجد لهم أثر فى الوقت الحاضر . (المترجم)

الثوروى الأول المؤسس للدولة العالمية الصينية ــ قد استصفى الأعمال الأدبية التى خلفها الفلاسفة الذين عظم شأنهم إبان عصر الاضطرابات الصينى ، وحرقها خشية ما قد يؤدى إليه انتقال هذه « الفكرة الخطرة » من إحباط خطته لتأسيس نظام مجتمع جديد .

وفى المجتمع السورى ، أشيع أن الخليفة عمر ــ وهو الذى أعاد تشييد الدولة العالمية السورية بعد ما ظلت بفعل المداخلة الهلينية معطلة طوال ألف سنة ــ قد أجاب رداً على استفهام من قائد كان قد تلقى نبأ استسلام الاسكندرية ، وطلب من الخليفة تعليماته عما يفعله للتخلص من مكتبتها المشهورة ، فأجابه بقوله :

« إن كانت كتب الروم هذه تتفق مع كتاب الله ، فلا نفع يرجى منها ولا حاجة للمحافظة عليها ، وإن كانت تخالفه فإنها مفسدة يجب القضاء عليها » .

وتمضى الأسطورة[١] فتذكر بأن محتويات المكتبة التى جمعت فى غضون تسعمائة سنة ، قد استهلكت وقودا للحمامات العامة .

وفى عصرنا هذا ــ بذل هتلر ما فى وسعه لإحراق الكتب . وإن كان مجىء الطباعة ، يجعل النجاح التام أصعب كثيراً بالنسبة إلى أولئك الطغاة الذين يلجأون فى عالمنا إلى هذا الإجراء . ولقد عثر مصطفى كمال أتاتورك ــ معاصر هتلر ــ على حيلة أشد خبثاً . فإن هدف الديكتاتور

---

(١) ظاهر من عبارات الأستاذ المؤلف التى أوردناها فيما سلف ، عدم تصديقه تلك الفرية التى يحاول أعداء الإسلام إلصاقها بالعرب للتدليل على كراهيتهم العلم وهم يعتمدون فى ذلك على ما ذكره مؤرخ عربى ــ للأسف ــ هو ابن عبد الحكم . فإن مكتبة الإسكندرية قد أحرقت بالفعل وقتما ثار المصريون على يوليوس قيصر . وقد دحض هذه الفرية فى أسلوب شاف المستر بتلر فى كتابه « فتح العرب لمصر » . والواقع أنه يستحيل الظن بأن دينا كريما تقوم قواعده على العقل والمنطق والضمير ، يقاوم العلم ، ويضيق بالكتب ذرعاً . وإن تسامح الإسلام المعروف ، لا يستقيم معه القول بأن العرب قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية . (المترجم)

التركى لم يكن سوى صرف عقول مواطنيه عن ثقافتهم الإيرانية الموروثة . ومن ثم ؛ فإنه عوضاً عن إحراقه الكتب ، قنع بتغيير الحروف الهجائية . فكان أن أصبحت كافة الكتب والصحف منذ عام ١٩٢٩ تطبع بالحروف اللاتينية . ولا يكون لوثيقة قيمة قانونية إلا إن كتبت بالحروف اللاتينية .

وترتب على إصـــدار هذا القانون وفرض تنفيذه ، انتفاء ضرورة احتذاء الغازى التركى حذو الإمبراطور الصينى . إذ غدت الآداب القديمة من فارسية وعربية وتركية ، بعيدة عن متناول الجيل الصاعد . ولم تعد هناك أية ضرورة لإحراق الكتب ؛ بعد ما ألغيت من التداول ، الأبجدية التى كانت مفتاح الاطلاع عليها . وهكذا تيسر تركها تبلى على أرففها ، ثقة بأن أحداً لن يزعج سكونها ، اللهم إلا حفنة من عشاق الآثار القديمة .

وليست الفكرة والأعمال الأدبية ، هما بالطبع ، المجالين الوحيدين للثقافة الدنيوية التى تعرّض فيها التراث الماضى ، لهجوم النزعة المستقبلية ؛ فإن ثمة عوالم أخرى ما انفكت تخضع لعدوان النزعة المستقبلية ؛ متمثلة فى الفنون البصرية والسمعية . والواقع أن العاملين فى ميدان الفنون البصرية ، هم الذين صكّوا تعبير « المستقبلية » لوصف طرائف فنهم .

بيد أن ثمة شكلا واحدا من أشكال المستقبلية قبيح الصيت ؛ ينتصب قائماً على أرض مشتركة بين مجالى الدين ، والثقافة الغير الدينية ؛ ويدعى بـ « محاربة تقديس الإيقونات » . ويتشابه مناهض الأيقونات ، مع النصير العصرى للتعبير بطريقة المكعبات ، من ناحية إنكاره أسلوب الفن التقليدى . لكن يبدو شذوذ منحاه التفكيرى واضح المعالم ، إذ يحصر التفاته فى الفن المرتبط بالدين ، وإذ تستثير عداوته دوافع لا تتصل بحس الجمال ،

لكنها تتصل باللاهوت . ومناط فكرة « محاربة تقديس الأيقونات » ، الاعتراض على تصوير الذات الإلهية : أو أى مخلوق أقل من ذلك قد تصبح صورته موضوعاً للعبادة الوثنية . بيد أن ثمة اختلافات فى درجة الصرامة التى طبّق فيها هذا المبدأ . وأعظم مدارس فكرة محاربة تقديس الأيقونات شهرة ، هى « مدارس الشمول الكلى » التى تمثلها اليهودية ، والتى اعتنقها الإسلام بعد ذلك . وهذه الفكرة تعبّر عنها الوصية الثانية من وصايا موسى العشر :

« لا تصنع لنفسك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض »[١] .

ومن الناحية الأخرى ، فإن الحركات المتصلة بفكرة « تحطيم الأوثان » التى برزت فى نطاق الكنيسة المسيحية ، قد جعلت لنفسها صفة مميزة ، يبدو أن المسيحية قد تقبلتها منذ أيامها الأولى . ومهما يكن من أمر تفشى فكرة « محاربة تقديس الأيقونات » فى المسيحية الأرثوذكسية أثناء القرن الثامن أو تفشيها فى المسيحية الغربية إبان القرن السادس عشر — تحت تأثير وحى الإسلام فى القرن الثامن وإلهام اليهودية فى القرن السادس عشر — إلا إن الفكرتين لم تنقلا هجومهما إلى الميدان السياسى . بل أن المطالبين فى الميدان الدينى بمحاربة تقديس الأيقونات الأرثوذكسية ، قد قنعوا فى نهاية الأمر بحــل وسط غريب ؛ مداره تحريم تصوير المشاهد الدينية موضوع العبادة ، تصويراً ذا أبعاد ثلاثة ، مع الموافقة على السماح برسوم ذات بعدين فحسب[٢] .

---

(١) دفع تحريم نسخ الشخصيات وتصويرها ، الفنانين فى الإسلام إلى الاكتفاء بإنشاء النماذج التى لا تمثل شخصيات بشرية . ومن هنا جاءت كلمتنا المعروفة بـ « الأرابيسك » . (المؤلف)

(٢) his aller .

(٩) التسامى الذاتى لنزعة المستقبلية

قد تُحقق مناحى النزعة المستقبلية فى بعض الأحيان ، نجاحاً فى الميدان السياسى . إلا أن نزعة المستقبلية ، كطريقة للحياة ، تقود أولئك أصحابها ، صوب هدف عقيم لا يتأتى بلوغه أصلا . بيد أنه رغما عن عقم الاستطلاع — وقد يؤدى إلى نتائج مفجعة — فلا يعنى ذلك خلوه من فائدة . إذ لعله يرشد الباحث الضال نحو طريق السلام .

فإن نزعة المستقبلية ، هى — فى حالتها البدائية — فكرة طابعها القنوط . بيد أنها وهى فى حالتها هذه ، تعتبر آخر مخرج ممكن من الضائقة التى يعانيها الإنسان . ذلك لأن النفس التى أصابها القنوط من الحاضر ، دون أن تفقد اشتهاءها للحياة الدنيا ، تستنجد أول ما تستنجد بمحاولة ، تعنى قفزة خافقة فوق تيار الزمن ، متجهة صوب الماضى . ولن تتشجع النفس لتلتزم مسار نزعة المستقبلية الأضعف فى منحاه الطبيعى ، إلا إن أخفقت تجربة خط الهروب ذى النزعة السلفية ، أو صرف النظر عنها لاستحالة تحقيقها أصلا .

ويتأتى تفسير طبيعة هذه النزعة المستقبلية الخالصة من الشوائب — وهى دنيوية الطابع كما يدل عن ذلك استخدام نفس الإثبات — بذكر بضعة من الأمثلة التقليدية : —

ففى العالم الهلينى — مثلا — حدث أثناء القرن الثانى قبل الميلاد ، أن جُرِّد من حريتهم ، آلاف من السوريين وغيرهم من الشرقيين المثقفين ثقافة عالية ، وانتُزعوا من دورهم وفُرقوا عن عائلاتهم ، ورحّلوا بحراً إلى صقلية وإيطاليا ؛ ليخدموا أرقاء فى المزارع ، وفى حظائر تربية المواشى فى المناطق التى دمرتها الحرب الهانيبالية . ولم يكن أمام أولئك الأرقاء المغتربين — الذين مسّت حاجتهم تماما ، إلى سبيل للفرار من حاضرهم — أى احتمال لارتداد إلى

ماض « سلفى » الطابع . ولم يقتصر الأمر على استحالة قيامهم – من الوجهة المادية – بشق طريق عودتهم إلى أوطانهم . بل لقد أصاب الفناء ، كل ما كان يجعل هذه الأوطان حبيبة إليهم . إنهم لم يكونوا ليستطيعوا العودة ، ولم يكن فى وسعهم إلا السير قُدُماً .

وهكذا ؛ فإنهم عندما ضعفوا عن احتمال ما يكابدونه من عسف ، تحركت فيهم نزعة التمرّد البدنى . وتمثّل هدف انتفاضات العَبيد الكبرى ، فى إقامة نوع من المجتمع الرومانى المعكوس الآية ، يغدو فيه الأرقاء الحاليون سادة ، وينقلب السادة الحاليون عبيدا .

ولقد أظهر اليهود رد فعل مماثل فى فصل مبكر من التاريخ السورى . وجاء رد الفعل هذا رداً على تدمير مملكتهم – يهوذا – المستقلة ذات السيادة . فإنهم ، بعد ما ابتلعتهم الإمبراطوريتان البابلية الجديدة والأخيمينية وتفرّقوا هباء بين الأمميين ؛ ما كان فى وسعهم أن يأملوا عن إقتناع فى رجعة ذات طابع سلفى ، أى إلى الحالة التى كانوا عليها قبل تشتتهم ، وقتما كانت مملكة يهوذا تحيا حياة إقليمية مستقلة .

وكان يعتبر ضربا من الخيال ، الجرى وراء أمل استعادة حالة انقضت وأصبحت فوق متناول الاسترجاع . ولما كان اليهود يعجزون عن الحياة دون أمل يبث فيهم قدرة انتشال أنفسهم من حاضر لا يرتضونه ، فقد وقع على من نشأ منهم بعد فى فترة النفى ، عبء التطلّع نحو إقامة مملكة داود فى صورة لا نظير لها فى ماضى مملكة يهوذا السياسى ، أى أنهم تطلّعوا إلى إقامة مملكة من ذلك النوع الذى عُرف فى عالم الإمبراطوريات الكبرى ! !

فإذا كان على داود المنتظر أن يوحّد – فى رأيهم – العالم تحت سلطانه ، أفلا يكون جمّاع رسالته اغتصاب صولجان إمبراطوريته من يدى حامله السامى ، ويجعل أورشليم مركز العالم ؟ ! !

وإلا فلماذا لا يكون لزروبّابل Zerubbabel متخذاً صورة دارا ، فرصة متاحة يغتنمها اليهود للسيطرة على العالم ؛ أو يصبح ليهوذا المكابى ، متخذاً صورة أنطوخيوس نفس الفرصة ؛ أو لباركوكابا[١] ، متخذاً صورة هادريان[٢] ؟ ! ! .

واستولى حلم للسيطرة مماثل على المؤمنين القدماء فى روسيا : فإن فكرة بطرس الأكبر عن الأرثوذكسية ، لم يتقبّلها الروس الانشقاقيون[٣] بحال من الأحوال ، أرثوذكسية صحيحة . واستحال فى نفس الوقت تصوّر النظام الكنسى القديم قادراً على الصمود لقوة نظام سياسى شيطانى . ومن ثم اندفع الانشقاقيون الروس إلى تصوّر حلّ فذ مداره تجلّى مسيح فى صورة قيصر ، فى مكنته استعادة العقيدة الأرثوذكسية فى شكلها البدائى الخالص من الشوائب .

* * *

يتبين مما تقدم : أنه يجمع بين هذه الأمثلة المتصلة بنزعة المستقبلية الخالصة ، مظهر له دلاله خاصة مبناها أن الآمال التى ابتغى النجاة فى رحابها أصحاب المستقبلية ، تقوم جميعها على أساس استنجاز أمر واقع ، باستخدام الطريق الدنيوى المألوف :

ويتضح هذا المظهر فى نزعة اليهود المستقبلية ، التى خلّفت لتاريخها مادة مكتوبة . إذ كان اليهود بعد تدمير نبوخذ نصر مملكتهم ، يعقدون الآمال

---

(١) باركوتشبا أو باركوكابا . زعيم الثورة اليهودية الأخيرة ضد روما (١٣٢ – ٣٥ ميلادية) وأمكن الرومان عام ١٣٥ قتله والاستيلاء على أورشليم . (المترجم)

(٢) بلغ الأستاذ المؤلف الذروة هنا فى تحليل أطماع اليهود ، وردّها فى صورة علمية جذابة إلى جذورها الأصلية . فإن الصهيونية لن تقنع بفلسطين وحدها ، بل إن هدفها النهائى تكوين إمبراطورية مركزها القدس وتتحكم فى أقدار العالم الاقتصادية والسياسية بفضل سيطرتها على موارد الشرق الأوسط الغنية وتحكّمها فى موقعه الاستراتيجى الحيوى . (المترجم)

(٣) المعروفون باسم Raskolniki . وقد انشقوا على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إبان القرن السابع عشر الميلادى . (المترجم)

المرة بعد الأخرى على إقامة دولة يهودية جديدة ، أمامهم كلما أتاح لهم تطور تجريات السياسات العالمية ومهما تضاءلت فرص النجاح : ومصداقا لذلك ؛ شاهدت دورة الفوضى القصيرة الأمد التي مرت بها الإمبراطورية الأخيمينية – وتقع بين وفاة قمبيز Cambyses[1] وقيام دارا – محاولة زروبابل (حوالى ٥٢٢ ق . م) إعادة تشييد مملكة داود . كذلك ؛ خُدع اليهود بانتصار المكابيين فى الفصل الأخير من التاريخ ، أى خلال فترة الفراغ الطويلة الواقعة بين انحلال الدولة السلوقية ووصول الفيالق الرومانية إلى سوريا ؛ فكان أن طمس سراب هذا النجاح الدنيوى عقول اليهود ، فانساقوا وراءه بحيث أنهم ارتضوا لأنفسهم – مصداقا لما ورد فى الإصحاح الثانى من سفر أشعيا قبل ذلك بأربعمائة سنة – أن يطرحوا جانباً ، التقليد المقدس القديم الذى يحتّم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون من ذرية داود .

ومهما يمكن أن يقال فى تداعي دولة السلوقيين ؛ فكيف تأتى لليهود أن يأملوا فى مقارنة أنفسهم بقوة روما الجبارة وهى فى عنفوانها ؟

كانت الإجابة على هـــذا السؤال ، واضحة وضوح النهار لهيرود الديكتاتور السدومى . فإنه لم ينس قط كونه حاكم فلسطين بفضل روما . وطفق طوال سلطانه ، يتحايل على إنقاذ رعاياه من نقمه حماقتهم الذاتية . بيد أن اليهود عوضا عن إظهار امتنانهم لهيرود لتعليمه إياهم درسا سياسيا بلغ درجة عالية من النفع ، لم يستطيعوا أن يغفروا له استقامة رأيه . فما أن كفّت يداه القويتان عن الحكم ، حتى أخذوا القرطمة[2] بين أسنانهم ، وتنحوا عن سبيلهم ذى الطابع المستقبلى ، وانقادوا إلى الكارثة المحققة . ولم تكتف عندئذ بإظهار قدرتها على كبح جماحهم . على أن تجربة ٦٦ – ٧٥ ميلادية

---

(١) قمبيز : (٥٢٩ – ٥٢١ م . ق) الملك الثانى فى تاريخ الميديين والفرس وهو ابن قورش الأكبر . (المترجم)

(٢) القرطمة : حديدة توضع فى فم الجواد يقاد بها . وهى غير اللجام . (المترجم)

المفزعة لم تحل بينهم وبين غواية الكارثة لهم ،وترديهم فيها مرة أخرى فى ١١٥ — ١٧ ميلادية ، ثم ترديهم فيها بعد ذلك خلال فترة ١٣٢ — ٥ ميلادية . فلقد كان الزعيم اليهودى كوكابا خلال فترة ١٣٢ — ٥ ميلادية ، ينتهج نهج الثائر اليهودى زروبا بل عام ٥٢٢ ق . م . ولقد اقتضى اليهود فترة تجاوز الستة قرون ، ليتعلموا أن نزعة مستقبلية من هذا النوع ، لا فائدة ترجى منها .

فإن كان هذا هو جماع القصة اليهودية ، فإنها ليست بذات أهمية . إلا أن هذا هو نصف القصة وحده . ومناط القصة بكاملها ، أنه بينما أن بضعة نفوس يهودية قد « فعلت لا شيء وأغفلت لا شيء » — مثلها مثل أسرة بوربون الفرنسية[١] — فإن نفوسا يهودية أخرى — أو حتى بضعة من ذات النفوس اليهودية وهى فى مزاج آخر وبوساطة خاصية روحية مختلفة — قد علمتها التجربة المريرة تدريجيا ، أن تودع ركازها الروحى مكانا آخر .

فلقد كشف اليهود بعد ما اسفرت الأحداث عن إفلاس المستقبلية ، كشفا آخر مذهلا ، تجلى فى معرفتهم مملكة الرب . وبمرور العصور ، استبان للعيان هذان الضربان من الوحى :

أحدها سلبى والآخر إيجابى .

وكان أن تطورت شخصية المؤسس المنتظر للمجتمع اليهودى الجديد ، تطورا يتلاءم بدرجة كافية مع كونه ملكا من لحم ودم ، يتولى تأسيس أسرة مالكة وراثية . بيد أن لقب هـذا المؤسس العتيد للإمبراطورية — والذى خلعه على نفسه كل مدع على التوالى من زروبابل إلى باركوكابا — ليس هو لقب ملك ولكن « المسيح »[٢] .

ومن ثم ، فإذا ما توحد إله اليهود — حتى من ناحية الأساس — مع الأمل الذى طفق يساورهم منذ البداية ، وإذا ما اضمحل أملهم الدنيوى

---

(١) الأسرة التى كانت تحكم فرنسا قبل ثورتها . (المترجم)

(٢) المسيح : كلمة تعنى حرفيا الذى مسحه الرب بالزيت . (المترجم)

اضمحلالا جامدا ؛ فإن الشخصية الإلهية تتبلج ، وتعظم ثم تعظم ، حتى تملأ الكون بأسره .

وليس اللجوء إلى الله التماسا لمساعدته هو بالطبع إجراءا غير عادى فى حد نفسه . فلعله فعل قديم ، قدم الدين نفسه . فكان الشعب الذى يُقدم على مشروع رهيب ، يلوذ برحاب معبوده الحارس .

وليس مناط الفكرة اليهودية المستحدثة ، الافتراض الذى يظهره لقب المسيح ؛ بأن نصير الشعب البشرى يسـنده تأييد إلهى . فإن الجديد فى الأمر — وله خطورته كذلك — يتمثل فى فكرة طبيعة المعبود النصير ووظيفته وقدرته . وتفسير ذلك أنه فى حين اتصلت على الدوام فكرة أن « يا هوى » معبود إقليمى يتعلق باليهودية وحدها ، بمعنى معين ؛ صُوِّر « ياهوى » فى محيط آخر أوسع نطاقا ، على أنه النصير الذى مسحه الرب .

ولقد كان أصحاب النزعة المستقبلية من اليهود بعد الأسر البابلى ، مُقْدِمين على مشروع سياسى غير عادى ، مداره تكريس قلوبهم لإنجاز رسالة كان تنفيذها — من ناحية الطاقة البشرية — مستحيلا ؛ فإنهم وقد أخفقوا فى الاحتفاظ حتى باستقلالهم المحلى التافه ؛ فكيف يتأتى لهم الأمل فى تنصيب أنفسهم سادة على العالم ؟

إن توفيقهم فى هذا السبيل يقتضى أن لا يقتصر مجال معبودهم المحلى على نطاق محدود ، بل يجب أن يغدو إلاهاً يتكافأ مجال نفوذه مع مطامعهم المستقبلية .

وما إن أدرك اليهود ذلك ؛ حتى أخذوا يحوِّرون مأساة كانت حتى هذه النقطة « شكلا مألوفاً » فى تاريخ الأديان ؛ إلى سعة روحية أسمى . ومناط التغيّر : هبوط النصير البشرى إلى دور التابع ، على حين تسيطر الألوهية على المشهد . ولم يعد المسيح البشرى كافياً للقيام بالدور ، بل أصبح الأمر يقتضى تنازل الإله نفسه عن مقامه السامى ، وتوليه دور المخلِّص ، ووجوب أن يغدو ابن الإله نفسه نصير شعب الإله على سطح الأرض .

عند هذه النقطة ، يُبدى تعجّبه أى محلل نفسانى غربى من أبناء اليوم يقرأ هذه السطور ويقول معترضاً : « إن ما أعلنته كشفاً روحياً مجيداً ، ما هو إلا الاستسلام للرغبة الصبيانية ، رغبة الفرار من الواقع . فرار هو أحد المغريات الماحقة للنفس الإنسانية : إنك قد وصفت كيف كرّست طائفة تعسة من الناس الطائشين قلوبها لتحقيق هدف لا يُنال ، مداره محاولة إلقاء عبء تنفيذ عمل مستحيل من على كواهلها الذاتية ، وإلقائه على كواهل سلسلة من ابتكاراتها الفكرية : وتتمثل أولا فى إبراز فكرة النصير البشرى البحت . وعند ما لا يجدى ذلك نفعاً ، تبرز تلك الطائفة فكرة نصير آدمى تؤيده ربوبية تصورية . وأخيراً يستغيث الحمقى فى غمار يأسهم بكائن إلهى تصوّرى يقوم شخصياً بأداء العمل » .

إن هذا التطور المبتذل فى نزعة الفرار ، يعتبره العالم النفسانى المحترف ، قصة مألوفة كئيبة .

ورداً على هذا الانتقاد ، نُبدى استعدادنا لتقبّل أن فكرة استدعاء قوة قدسية لحمل عبء تنفيذ رسالة دنيوية اخترناها لأنفسنا وألفينا مشيئتنا عاجزة عن إنجازها ، فكرة غريرة . إن الصلاة القائلة « لتجعل مشيئتى تنفذ » تعنى الحكم على النفس بالتفاهة .

وبالنسبة للحالة اليهودية التى نحن بصددها ، كانت ثمة مدارس لأصحاب النزعة المستقبلية اليهودية أقنعت نفسها بأن « ياهوى » يتولى بنفسه عبء تنفيذ العمل الدنيوى الذى يرتضيه عابدوه . وقد انتهى الأمر نهاية سيئة كما رأينا ، بهؤلاء اليهود أصحاب هذا الضرب من المستقبلية . إذ كان الانتحار المسرحى الطابع ، مصير اليهود المتعصبين الذين جابهوا حشوداً عسكرية رومانية ميئوس من مقاومتها ، متصورين وهم فى غمرة الوهم ، أن رب اليهود سيقاتل معهم يوم المعركة . وكان ثمـــة أصحاب الطريقة الاستسلامية الذين استخلصوا من نفس المقدمات المغلوطة نتيجة مخالفة بالمرة ـــ وإن كانت لا تقل درجة من ناحية انعدام الرجاء فيها ـــ

مدارها ضرورة امتناعهم عن إتخاذ أى إجراء فى موضوع دنيوى ، اعتبروه من شئون الله :

بيد أن ثمة ردود فعل أخرى :

رد فعل مدرسة جوهان بن زكّاى ، ورد فعل الكنيسة المسيحية ؛

وبينما أن ردّى الفعل هذين يشابهان الطريقة الاستسلامية فى مظهرها السلبى المتصل بالامتناع عن العنف ، تختلف المدرستان كلبها عن نزعتى الاستسلامية والتعصبية ، فى نقطة إيجابية هامة مدارها صدوفهما عن تكريس الجهود لتنفيذ الجانب الدنيوى من نزعة المستقبلية ؛ وتكريس الركاز الروحى ، لتنفيذ غاية لا تتصل بالإنسان لكنها تتعلق بالله :

ومن ثم يتأتى تتبع النزعة المستقبلية فقط ، فى ميدان روحانى ، يصبح الله فيه الهادى للأفعال .

ولهذه النقطة أهمية رئيسية . لأنها تتخلّص هنا من أوجه النقد المرّة التى فى وسع محللنا النفسانى توجيهها ضد أصحاب مذهب التعصب ؟ والمذهب الاستسلامى . فإن الالتجاء إلى الله ، حالة صدوف الممثل البشرى عن هدفه الدنيوى أمر لا يمكن نكرانه ، واعتباره فعلا صبيانيا .

وعلى العكس ؛ إن أنتج بالفعل رد فعل الاسترحام ، مثـــل هذا التأثير الروحانى ، فى عظمته وفضله على النفس البشرية التى تتولى إنجازه ؛ فإنه ليتبين من النظرة الأولى ، أن التراجع أمام الاعتقاد بأن « القدرة » التى استرحمتها النفس البشرية ؛ هذا التراجع ما هو إلا خرافة ابتدعتها المخيلة البشرية . وسنسمح لأنفسنا بالاعتقاد بأن مدار التعرّف الروحى هذا ، هو فى معرفة « الله الواحد الحق » . وأما الكلام عن مستقبل « هذه الحياة الدنيا » فما هو إلا زعم أخلى مكانه لوحى إلهى عن « عالم الآخرة » .

« يتبقى أن نُنعم النظر فى المراحل الرئيسية فى إنجاز هذه المأثرة الضخمة المتصلة بإعادة التوجيه الروحانى : ويتمثل جوهر هذه المأثرة فى حقيقة مبناها أن المشهد الدنيوى الذى كان ينظر إليه فى وقت ما منصة للممثلين البشريين — يشد أزرهم مناصرون قدسيون (أو لا يحدث ذلك) — أصبح ينظر إليه الآن ميدانا تتحقق فيه بالتدريج مملكة الرب ، ويتم ذلك فى مرحلتين :

الأولى — وتُلبس فيها الفكرة الجديدة نفسها — كما يتوقع — رداءاً تصوريا يُستخلص من فكرة المستقبلية القديمة . ومصداقا لذلك ، يرسم إشعيا الثانى[1] صورة مملكة الرب التى تتسامى ؛ لكنها تتضمن كذلك فكرة مملكة دنيوية ، قوامها إمبراطورية شبيهة بالإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) . مع فارق أن يؤسس قورش هذه الإمبراطورية ، وتكون أورشليم قاعدة لملكه عوضا عن سوسا ، ويجعل من اليهود — لا الفرس — الجنس الحاكم فيها . ذلك لأن « ياهوى » قد أوحى إليه بأنه هو (وليس آهورمازدا)[2] الذى بات يؤيّد قورش لغزو العالم .

إن الإصحاح الثانى من سفر أشعيا وهو فى غمرة هذا الوهم ، يعرّض نفسه لانتقادات عالمنا النفسانى ونقمته . فإن فكرة النبى هذه ، إنما تسمو على فكرة المستقبلية الدنيوية بالنسبة لنقطة مبناها أن الإنسان والطبيعة كليهما يصوّران على أنهما يلاقيان تمجيداً سماوياً معجزاً . وأن مملكة الرب التى

---

(١) إن السفر المعروف بأشعيا فى العهد القديم (التوراة) ، جزء منسوب لأشعيا النبى ، وجزء آخر منسوب لشخص مجهول الاسم . وقد اصطلحوا على تسميته بأشعيا الثانى أو Dentero - Isaiah . ويقال إنه كان فى بابل حوالى ٥٤٠ ق . م ، والإصحاحات ٤٠ — ٥٥ من كلامه . (المترجم)

(٢) آهورمازدا : إله الخير فى عقيدة زرادشت الفارسية . وعكسه آهريمان . (المترجم)

تصورها ، ليست فى الحقيقه إلا جنة أرضية ؛ جنة عدن كيّفت لتتفق مع العصر ؟

وتفد فكرة تالية ــ وقلما يُفتكَر فى هذه الجنة الأرضية على أنها حالة انتقالية فقط يمكن أن تستمر طوال ألف سنة[1] لكن يقدّر لها الزوال فى نهاية الفترة المقدّرة لبقائها ، فترة تنتهى بانتهاء العالم الحاضر نفسه . لكن إن كان الزوال مقدّراً على العالم الحاضر ليخلى مكانه لعالم الآخرة خلفه ، ينبنى على هذا وجود مملكة الرب الحقيقية فى عالم الآخرة وحده . ذلك لأن الملك الذى يقدّر له الحكم خلال الفترة الإلهية ، ليس هو بعد ، الله نفسه ؛ لكنه نائبه ، أو المسيح .

وظاهر مع ذلك أن فكرة الألفية المعجزة فى دنيا الحاضر ــ إبان إحلال دنيا الحاضر بعالم الآخرة ــ هى محاولة لايتأتى بلوغها بوساطة التوفيق بين الآراء التى لا يقتصر الأمر على كونها متميزة ، لكنها فى نهاية المطاف يناقض بعضها بعضا .

فإن ثمة :

أولا ــ فكرة الإصحاح الثانى من سفر أشعيا ، ومبناها الأمل فى مملكة دنيوية مستقبلية ، مع إجراء تحسينات تتسم بالإعجاز .

ثانيا ــ فكرة تتصل بمملكة لله ليس لها وقت معين ، لكنها تقع فى سعة روحانية مختلفة . وبفضل اختلاف السّعة بالذات ؛ يُصبح فى مكنة مملكة الله ، النفوذ إلى حياتنا الدنيوية وتشكيلها . ولكى يتيسر الصعود الروحانى العويص : من سراب المستقبلية إلى إلهام التجلّى ، قد يدلل النمط الأخروى للعهد الألفى على ضرورته كسلّم عقلى . لكن عندما يتيسّر تسلّق السلّم ، يُترك ليسقط بعيـــداً :

---

(١) من هنا جاء الاستعمال المألوف لكلمة « الألفى » للدلالة على عصر ذهبى قادم . (المؤلف)

« لقد تعلم الفريسي الورع في ظل الماسمونيين[1] بالفعل ، التحول بعيداً عن « هذه الدنيا » إلى السماء ، أي إلى المستقبل . والآن وقد أصبح الأمر طبرود ، فإن جماع الشعور الوطني المتصل الحلقات والذي اندفع خلال الأجيال الأخيرة بمثل هذه القوة ، قد اصطدم بحائط مسدود . ولم يجد هذا الشعور منفذا ، إلا في المسالك التي افتتحها الفريسي . فكان أن ترعرعت في المدارس الفريسية (بين ظهراني شعب خضع لضغط تلك الضرورة الملحة) لمعتقدات استشرافية قوامها الأمل في ظهور المسيح المنتظر . وانتشرت تلك الآمال بفضل حيويتها الدافقة . وحقا تُبدى لنا كتب الزهد الفريسية التي وصلت إلينا — أخنوخ ، مزامير سليمان ، فرائض موسى وغيرها — ماهية الآراء التي سيطرت على أذهان الكتاب . لكنها عجزت عن أن تبدى لنا حقيقة ما تلقيناه عن الأناجيل . إذ كيف أصبحت شخصية الملك القادم — المسيح الواحد ، ابن داود مع الآراء المتصلة بالبعث وبالآخرة — جزءاً من الجهاز العقلي المألوف لعامة الشعب الذين تعلقوا بكلمات الرب . بيد أن المسيح الذي عبده المسيحي ، لم يكن تجسيما لأي شكل من الأشكال التي برزت نتيجة لفكرة النبوة . . فإن في شخصه تلتقي جميع آمال الماضي ومُثُله ، وتتمازج »[2] .

(١٠) الاعتزال والتجلي

قادتنا أبحاثنا في طبيعـــة نزعتي المستقبلية والسلفية ، إلى إظهار إخفاقهما كليهما . إخفاق يرد إلى تطلعهما إلى الفرار من الواقع ، دون أن ترتفعا فوق مجرى الزمن الدنيوي . وشاهدنا كيف أن إفلاس المستقبلية ،

(١) الأسمونيون أو الماسمونيون : هو الاسم الأصلي للمكابيين . وهم جيل من قادة اليهود جاهدوا لخلاص مملكة يهوذا من حكم أنطيوخوس ابيفانيس ملك سوريا (١٧٥ — ١٦٤ ق . م) . (المترجم)

(٢) Bevan, E : Jerusalem under the High Priests. صفحتا ١٥٨ و ١٦٢

قد يقود — وقد قاد بالفعل فى مثال تاريخى قدمى — إلى إدراك السر الذى دعوناه بـ « التجلّى » .

بيد أن إفلاس السلفية قد يثمر كذلك فى الاهتداء إلى كشف روحى :

فإن التسليم بالحقيقة القائلة بأن نزعة السلفية لا تكفى ، يعتبر تحدّيا قد يبعث — كما رأينا — بصاحب السلفية الضال إلى الاتجاه المضاد ، صوب التردى فى هاوية المستقبلية ، مثلما اندفع قطيع الخنازير — وقد تقمصته الشياطين — من على الجرف إلى البحر فمات غرقاً[1] . لكنه قد يستجيب من الناحية الأخرى للتحدى ، بسلوكه ضربا من الارتحال الروحى . وتتمثل خطته فى هذه الحالة ، فى بذل أقل مقاومة ، لتحويل القفزة الخافقة التى تقود إلى الكارثة ، إلى فرار يتنكّب مشكلة الهبوط إلى الأرض ، بوساطة مغادرته إياها مغادرة أبدية :

تلك هى فلسفة الاعتزال التى قد طالعنا بالفعل مثال عنها — فى الاستسلاميين اليهود — لم نعلّق عليه .

وأكثر تفسيرات هذه الفلسفة شيوعاً عند الباحث الغربى ، تلك « الأوراق التى تخلّفت عن مفكرة فيلسوف رواقى » حفظها لنا إبيكتوتوس وماركوس أوريليوس . بيد أننا إذا ما تتبعنا طريق الاعتزال بعيداً بعداً كافياً ، سنجد أنفسنا عاجلا أم آجلا متحولين من مرشد هلينى ، مقتفين أثر مرشد سندى . ولقد كان لمريدى جوتاما بوذا الشجاعة

---

(١) أصلها قصة فى حياة السيد المسيح عن وصوله إلى كورة الجرجسيين the Gadarenes « فاستقبله هناك مجنونان هائجان جداً حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق . وإذا هما قد صرخا قائلين مالنا ولك يا يسوع . أجئت هنا قبل الوقت . لتعذبنا وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى . فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير . فقال لهم امضوا ، فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير . وإذا القطيع كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات فى المياه » . وارد الاصحاح الثامن من انجيل متى .
(المترجم)

الكافية لاعتناق الانعزالية طوال الطريق كله ، إلى أن بلغوا هدفه المنطقى الخاص بانعدام الذات . ويعتبر هذا من الناحية العقلية شيئاً رائعاً ، ويعد من الناحية المعنوية فيضا غلاّبا : إلا أنه يضم بين ثناياها نتائج مربكة ، مبناها أن الاعتزال الكامل يطرح الشفقة جانباً ، وبالتالى ينبذ الحب ؛ باستصفائه جميع الانفعالات الشريرة ، بصورة جامدة .

« إن الإنسان الذى تخلو كل حركة من حركاته من الحب والهدف ، وتحرق نيران المعرفة – أي النــداء المستنير العالم – كل أعماله ، لا يحزن المثقف لهؤلاء الذين تشرد حيواتهم ولا لهؤلاء الذين لا تشرد حيواتهم »[١] .

ويعتبر هذا التحرر من الشعور لدى الذهن السندى الحكيم ، جوهر الفلسفة الصلد ، وقد توصل إلى نفس النتيجة ، الفلاسفة الهلينيون ، كل مستقل عن الآخر . من ذلك أن ابيكتوس يعظ تلامذته بقوله :

« إن كنت تقبّل طفلك ... لا تمكّن مخيلتك قط من إتيان الفعل صراحة ، ولا تطلق لعاطفتك العنان . . . وحقا ليس ثمة ضرر من أن يصحب فعل تقبيل الطفل ، الهمس إليه بأنه سيموت غدا »[٢] .

ولا يتردد سنيكا فى التصريح بأن :

« الشفقة داء ذهنى يخضع لإغراء مشهد تعاسة الناس الآخرين وبؤسهم ؛ أو أنه يمكن تعريفها بأنها عدوى أرواح سفلية تلوثت من متاعب أناس آخرين ، عندما يعتقد المريض بأن هذه المتاعب لا تستحق العناية : إن الحكيم لا يستسلم لمثل هذه الأمراض الذهنية »[٣] .

وإن الفلسفة الانعزالية – وهى تشق طريقها إلى نتيجة لا مناص من

---

(١) Baghavadgita, IV, 19 and ii, 11, Barnett's translation

(٢) الفقرات ٥ – ٨ من الكتاب الثالث ، الفصل ٢٤ Epictetus : Dissertaticus

(٣) الفقرتان ٤ – ٥ من الفصل الخامس الكتاب الثانى Senica : De Clementia

حدوثها مع الوجهة المنطقية (كما تصبح غير قابلة للاحتمال معنويا) تهزم نفسها بنفسها ؛ لأن مشاورة الرأس وتجاهل القلب يعنى التعنت فيا جمعه الله ، بشطره شطرين .

ومن ثم كان على فلسفة الانعزال هــذه ، أن تتوارى أمام سر « التجلّى » .

وإذ نعدّ أنفسنا لمجهود بحث هذا التحوّل الرابع والأخير عن الطريق المكشوف لتحلل الحضارات ؛ يقتحم آذاننا لجب أصوات هازئة مستهجنة : لكن حرى بنا أن لا نفزع : إذ تصدر هذه الأصوات عن الفلاسفة ، وعن أصحاب نزعة المستقبلية — وهم مثقفو الانعزالية والمتعصبون للمادية السياسية والاقتصادية . فلقد سبق أن وجدنا أنه مهما يكن من أمر المصيب من المخطئ ، فإنهم المخطئون على أية حال .

« اختار الله جهّال أشياء العالم الحمقاء ليُخزى الحكماء ، واختار الله ضعفاء العالم الأشياء الضعيفة ليُخزى الأقوياء »[١] .

إن هــذه الحقيقة التى فى مكنتنا توكيدها بالتجربة ، معروفة لنا بداهة . وقد نجترئ فى ضوئها وقوتها ، على التصــدى لاستهجان أصحاب المستقبلية والفلاسفة معاً . بأن نبرُز فى إثر مرشد ليس هو باركابا ولاجوتاما »[٢] :

« لأن اليهود يسألون آية . واليونانيون يطلبون حكمة . نحن نكرّز بالمسيح مصلوبا . إنه لليهود عثرة ، ولدى اليونانيين جهالة »[٣] .

---

(١) رسائل كورنث لبولس : القسم الأول — ٢٧ .

(٢) يمثل باروكابا نزعة المستقبلية . بينما يمثل الجوتاما بوذا فكرة الانعزالية . (المترجم)

(٣) رسائل كورنث : القسم الأول — ٢٢ — ٣ .

فلماذا يعتبر المسيح المصلوب عقبة لأصحاب المستقبلية الذين لم يوفّقوا قط فى الكشف عن آية التأييد الإلهى لمشروعاتهم الدنيوية ؟

ولماذا يُعتبر المسيح المصلوب جهالة عند الفلاسفة الذين لم يهتدوا إلى الحكمة المنشودة قط ؟

إن المسيح المصلوب حماقة عند الفيلسوف ؛ لأن الانعزالية هدفه . ولا يتأتى له إدراك كيف يضل بهذه الكيفية متعمدا ، كائن أريب أحرز ذات مرة ذلك الهدف المحرّم ، ثم يعتزل جميع ما سبق أن فاز به بشق النفس .

فما هو مغزى الانسحاب ؛ لا لسبب ، إلا للعودة ؟

لا جرم أن الحيرة تصيب الفيلسوف — بالإضافة إلى السبب المتقدم — تجاه فكرة إله لم يجشّم نفسه حتى مشقة الانسحاب من دنيا بغيضة ، هو مستقل عنها تماما ؛ انسحاب تؤهله له ربوبيته . لكنه عوضا عن ذلك ؛ يبقى فيها متعمّدا ، ويعرض ذاته لأشد ضروب الألم التى يقاسيها إله أو إنسان . ويفعل ذلك سبيل جنس من المخلوقات أدنى كثيراً من طبيعته الإلهية .

لكننا نجد تفسير ذلك فى قول الإنجيل :

« إن الرب يُحبّ العالم حبا جعله يهبه ولده المحضر الوحيد ؟ » .

وهاك الكلمة الأخيرة لصاحب فكرة الانعزالية :

« إذا كانت الطمأنينة هى أسمى الغايات ؛ فما هى المنفعة التى تعود من تحرير قلب الإنسان الحكيم من الاضطراب ، عن طريق بتر الخوف والرغبة اللتين تجعلانه معتمدا على الأشياء الخارجية . علما بأن الفرد إن افتتح مائة من المسالك ، لتدفق إلى قلبه الألم والقلق اللذين يضمهما العالم بين ظهرانيه ، عبر الألياف التى أوجدها الحب والشفقة ، والتى تصل قلبه بقلوب الناس المحمومة فى كل مكان حوله ؟ مائة من الألياف ، ياللعجب ! . إن ثقبا واحدا

كاف ليُدخل قدرا كافيا من الموجة الطاغية المرّة فتجعل قلبه مليئا كله ؛ دع ثقبا صغيرا واحدا فى جانب من السفينة ، فتغرقها فى البحر . إنى أظن بأن الرواقيين قد علموا عن يقين تام ، بأنك إن اعتزمت السماح بدخول أى قدر من الحب والشفقة إلى صـــدرك ، تكون قد سمحت بشىء لن تستطيع التحكم فى طاقته . وقد يترك بالمثل فكرة السكينة الداخلية على الفور : . . إن الشخصية المثالية المسيحية لا يمكن بحال أن يتقبلها الرواقى مثالا لرجاله الحكيم الأنموذجى »[1] .

وبعد ؛ فإن الصّلب عائق هائل ينتصب قائماً فى طريق المستقبلية . إذ يؤكّد الموت على الصليب ، قول يسوع بأن فى السماء مملكته ، وليست على هذه الدنيا . وهذا يتناقض مع فكرة صاحب النزعة المستقبلية ؛ وقوامها مملكة تتولّد عن انتصار مادى دنيوى . وهذا ما بينه أشعيا الثانى عند كلامه عن قورش ، وهو مسيحه المنظر . كما بينها فيما بعد ، أخبار اليهود أصحاب النزعة المستقبلية (من طراز يهوذا أو ثيوداس) للزعماء من أمثال زروبابل أو سيمون المكابى أو سيمون باركوبابا .

وفى هذا يقول أشعيا الثانى :

« وهكذا يقول الرب لمسيحه (قورش هذه الحالة) الذى استمسكت بيده اليمنى . . . سأذهب قبلك وأجد الأماكن الملتوية مستقيمة . سأحطم شذراً بوابات النحاس الأصفر وأقطع أجزاء قضبان الحديد ، وأمنحك كنوز الظلام والثروات الخفية للأماكن السرية »[2] .

وكيف اتفقت هذه الفكرة المستقبلية الأصيلة عن مسيح منتظر ، مع أ كلمات السجين الذى أجاب بيلاطس بقوله : « أنت تقول أننى ملك »

---

(١) صفحتا ٦٩ و ٧٠ Bevan, E. R : Staics and Sceptics

(٢) أشعيا : الاصحاح الرابع عشر . آيات ١ — ٣ .

ثم مضى السجين يقدّم حسابا تصوريا عن المهمة الملكية التي زعم بأن الله أرسله لأجلها ؟ :

« لهذه الغايات ، ولدت ولهذه القضية جئت إلى العالم : أن أكون للحقيقة حاملا » .

وقد يمكن تجاهل الكلمات المحيرة . بيد أن وفاة الجانى لا يتأتى تجاهلها أو التخلص منها .

وتُبدى محنة بطرس[١] مدى فظاعة هذه العقبة .

إن مملكة الله التي يكون المسيح فيها هو الملك ، لا يجوز تشبيهها بأية مملكة أخرى يمكن أن يُنشئها مسيح منتظر ، يُتصوّر على غرار فاتح عالمى آخيمينى[٢] يغدو يهوديا . وما دامت هذه الألوهية الكائنة ، تدخل مجال البعد الزمنى جملة ؛ لن يتم ذلك كحلم من أحلام المستقبل ، ولكن كحقيقة روحية تتغلغل فى الحاضر .

ولو ساءلنا أنفسنا عن الكيفية التي تستطيع إرادة الله بها فعلا أن تنفذ على الأرض ، مثلما تنفذ فى السماء ؛ لكان مناط الإجابة بلغة اللاهوت الفنية ، أن قدرة الله المطلقة تتضمن استقراره فى هذه الدنيا وفى كل نفس فيها . وتتضمن بالمثل وجوده الاستشرافى على أسطح تسمو على السطح الدنيوى . ويتبدّى المظهر الاستشرافى (أو الأقنوم) فى الفكرة المسيحية عن الألوهية ، فى الله الآب . ويتبدّى المظهر المُستدنى[٣] ، فى الله الروح القدس . لكن السمة المميزة والبالغة منتهى الدقة للعقيدة المسيحية ، مبناها أن الله ليس

---

(١) تتمثل محنة بطرس كما ذكر المؤلف فى موضع سابق فى محاولته مقاومة الجنود الذين أتوا لصلب السيد المسيح . (المترجم)

(٢) آخيمينى : ينتسب إلى الدولة الأخيمينية الفارسية . وكان اليهود وفقا ما يعتقدون بأن ملكا من طراز قورش مؤسس الدولة الأخيمينية سينشىء لهم إمبراطورية مركزها أورشليم ويكونون هم سادتها . (المترجم)

(٣) المستدنى : أى داخل فى الدنيا أو العالم ، وعكسه المستشرف أى الخارج عن الدنيا والعالم . (المترجم)

« ثنائياً » لكنه « ثالوث » فى اتحاد . ويتحد المظهران الآخران فى أقنوم ، فى مظهر الإله باعتباره ابنا . وبفضل هذا اللغز ، تنفذ دعوته إلى القلب البشرى ؛ وبدونه تعجز عن إدراكها الأفهام البشرية .

وبالأحرى ؛ ففى أقنوم يسوع المسيح ـ وهو إله لدى المسيحيين مؤكد كما أنه كذلك إنسان مؤكد ـ يجتمع المجتمع الإلهى والمجتمع الدنيوى فى عنصر مشترك . وتتولد طبيعته البشرية فى هذه الدنيا فى صفوف البروليتاريا ، ويموت ميتة الجانى ؛ فى حين يصبح فى العالم الآخر ، ملك مملكة الله ، ملك هو الإله نفسه .

ولكن كيف يتأتى لطبيعتين ـ واحدة إلهية والأخرى بشرية ـ أن تجتمعا كلاهما فى وقت واحد فى إنسان فرد ؟

عمل آباء الكنيسة المسيحية على صياغة الردود على هذه الأسئلة فى شكل مذاهب استمدوا ذخيرتها اللفظية الفنية من الفلاسفة الهلينيين .

وليس هذا المنهج الفلسفى ، بالمدخل الوحيد المفتوح لنا . إذ عسانا أن نعثر على نقطة بداية بديلة ، فى القضية المسلم بصحتها القائلة بأن ثمة شيئا مشتركا بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية . فإذا ما بحثنا عن خاصية روحية معينة تتوافر فينا و وسعنا أن نعزوها كذلك إلى قدرة الله ؛ نجد أن الخاصية لا بد أن تتوافر فى الله ، وإلا لكان من الناحية الروحية أدنى من الإنسان درجة ؛ إن لم تتوافر فيه هذه الخاصية ، واقتصر وجودها علينا . وهذه لعمرى فكرة سخيفة .

وبالأحرى ؛ فإن الخاصية التى نفكر فيها قبل كل شيء باعتبارها مشتركة بين الإنسان والله، هى الفكرة التى يتمنى الفلاسفة قمعها ؛ تلك هى خاصية الحب . هذه الصخرة التى نبذها بعناد ؛ الفيلسوف اليونانى زينون والمفكر السندى جوتاما بوذا والتى أصبحت رأس الزاوية فى معبد العهد الجديد .

(١١) رُجعى الميلاد

استكملنا الآن فى استعراضنا ، أربع طرائق تجريبية للحياة ، تعتبر محاولات استقصائية متعددة غاية التعدد ، للعثور على بديل عملى لعادة مألوفة للحياة والحركة تتم بسهولة فى حضارة نامية .

بيد أنه عند ما سدّت كارثة الانهيار الاجتماعى ، هذا الطريق المريح ، تبدّت هذه الطرائق الأربع ممرات فرعية بديلة متاحة . ولقد تبين لنا أن ثلاثة منها أزقة مسدودة لا رجاء فيها ، وأن واحدا منها — وهو ما دعوناه بالتجلّى وأوضحناه على ضوء المسيحية — يقود توا إلى الأمام .

فإذا رجعنا الآن إلى الفكرة التى استخدمناها فى جانب مبكّر من هذه الدراسة ، فعسانا أن نذكر أن التجلى والانعزالية كليهما — عكس المستقبلية والسلفية على السواء — أسلوبان بالمثل لنقل ميدان الفعل من الكون إلى الإنسان ، ولقد تبدّى هذا النقل فى الظاهرة الاجتماعية المتصلة بـ « الأثيَرة »[١] .

فإذا كنا على حق فى الاعتقاد بأن النقل والأثيرة مظهران للنمو ، وأن ثمة مظهرا اجتماعيا لكل مثال عن النمو البشرى ، كما أن له مظهراً فردياً ؛ وإذا كنا مقيدين بالافتراض القائل بأن المجتمع الذى يشهد نموه بوجود حركة الانعزاليـــة والتجلى ، لن يكون مجتمعاً من الأنواع التى دعوناها بالحضارات — معتبرين أن المجتمع المتحلل من تلك الأنواع بمثابة مدينة الدمار التى تسعى كل حركة فيها إلى الفرار منها — إن حدث هذا ؛ يصبح فى وسعنا أن نستنتج بأن حركتى الانعزال والتجلى قرينتان على نمو مجتمع ، أو مجتمعات ، من نوع آخر ، أو أنواع أخرى .

فهل المفرد أو الثنائى ، هو العدد الحرى باستخدامه عند الإشارة إلى الواسطة الاجتماعية التى تتخذ فيها حركتانا مكانيهما ؟

(١) الأثيرة : جعل قوام الشىء أثيريا . (المترجم)

قد تكون خير طريقة لتفهم هذا السؤال ، توجيه سؤال آخر إلى أنفسنا :

ما هو الفارق بين الانعزالية والتجلّى فى ناحية النمو الاجتماعى ؟

إن الرد واضح ؛ إذ بينما لا تخرج الانعزالية عن كونها حركة انسحاب بسيطة ، يعتبر التجلى حركة انسحاب مركّبة تتبعها حركة عودة .

وتفسّر هذه الحركة المركّبة فى حياة يسوع ، فى ارتداده إلى الفلاة قبل تأدية واجبه التبشيرى فى الجليل ؛ وفى حياة القديس بولص فى إقامته ثلاث سنوات فى بلاد العرب ، قبل قيامه برحلاته التبشيرية الخطيرة التى حملت العقيدة الجديدة من موطنها المحلى السورى إلى قلب العالم الهلينى .

ولو كان مؤسس العقيدة المسيحية ورسوله التبشيرى قد انصرفا إلى فلسفة الانعزالية ، لظلا قائمين فى فلاتيهما بقية عمرهما على الأرض . فإن ما يقيّد حدود الفلسفة الانعزالية ، هو فشلها فى إدراك أن النيرفانا الخاصة بها ، ليست هى نهاية المطاف لرحلة النفس ، بل إنها مجرد محطة فى طريقها . إن نهاية السفر هى مملكة الله ، وتتطلب هذه المملكة الكلية الوجود ، عمل مواطنيها على الأرض فى كل زمان ومكان .

وإذا ما استخدمنا هنا الاصطلاحين الصينيين اللذين سبق لنا استعمالهما فى مستهل هذه الدراسة ، نجد أن تحلل الحضارة « يفرّغ » نفسه بوساطة دورة كاملة من الإيقاع المتبادل للين واليانج . ففى خلال الخفقة الأولى للإيقاع ، تجتاز حركة اليانج المخرّبة (وتمثل عملية التحلل) طريقا صوب حالة الين (وتمثل عملية الاعتزال) التى تعتبر كذلك طمأنينة ترتبت عن الإعياء . بيد أن دورة الإيقاع لا تُحتجز عند نقطة التقاء الحركتين . فإنها تمضى سبيلها قُدُما صوب حركة يانج مبدعة (وتمثل هنا حالة التجلّى) .

وبعد ، فإن هذه الخفقة المزدوجة للين واليانج ، هى ذلك الشكل الخاص للحركة العامة للانسحاب والعودة . حركة عثرنا عليها مصادفة قرب

بداية دراستنا للتحلل ، والتي دعوناها وقتذاك بـ « الإنشقاق ورُجعى الميلاد » .

إن المراد حرفياً بالكلمة اليونانية (Palingenesia) هو « رُجعى الميلاد » ويتضمن الاصطلاح عنصراً من الغموض :

فهل نعنى به ميلاد شىء مرة ثانية ، سبق له أن ولد من قبل . ومن قبيل المثال ستبدال حضارة معطلة لا بأخرى من نفس النوع ؟

هذا ما لا نعنيه ؛ ليس هذا هدف « التجلى » ؛ لكنه غاية حركة فى نطاق مجرى الزمن ؛ وليست هذه الحركة هى السلفية ولا المستقبلية وفقاً لهذه الأوضاع التى استخدمناها ، لكنها حركة من نفس الطراز . إن رجعى الميلاد بهذا المعنى لا بد أنه « عجلة الوجود » التى تُسلّم بها الفلسفة البوذية ، وتنشد حطمها بفضل الانسحاب إلى مرتبة النيرفانا . على أن رُجعى الميلاد لا يمكن أن يعنى بلوغ مرتبة النيرفانا ؛ ذلك لأن العملية التى تُدرك بها حالة السلبية هذه ، لا يمكن تصوّرها « ميلادا » .

فإذا كان رُجعى الميلاد والحالة هذه ؛ لا يعنى بلوغ مرتبة النيرفانا ، فلعله يعنى بلوغ حالة تسمو على الدنيا ، تنطبق عليها صورة الميلاد بشكل مستنير . ويرد ذلك إلى أن هذه الحالة الأخرى ، هى حالة للحياة إيجابية ، مع فارق أنها حالة ذات سعة روحية أعلى من هذه الحياة الدنيا :

ذلك هو رُجعى الميلاد الذى يتكلم عنه يسوع لنيكوديموس :

« ما خلا إنسان يولد ثانية ، لن يمكن لأحد مشاهدة مملكة الرب » .

ويتادى به فى موضع آخر باعتباره الهدف الباذخ لميلاده نفسه بشراً سويا :

« إنى آتى حتى تكون لهم الحياة ، وحتى يحصلوا عليها بوفرة » .

إن مبحث الآلهة ، قد سردته الموزيات[١] ذات مرة لهسيود راعى أغنام آسكرا ، فى اللحظة التى كانت فيها الحضارة الهلينية النامية تندفع صوب مرحلة الازدهار ؛ إلا أن هسيود قد وجد ترنيمته المتداولة فى مبحث آلهة أخرى كانت تترنم بها الملائكة فى بيت لحم فى لحظة كان فيها المجتمع الهلينى يعانى آخر أوجاع عصر اضطراباته ، وأخذ يتردّى صوب حالة الدولة العالمية : إن الميلاد الذى كانت الملائكة تتغنى به ، لم يكنَ إعادة ميلاد هيلاس ولا ميلاد جديد لمجتمعات أخرى من الأنواع الهلينية : إنه كان الميلاد البدنى لملك مملكة الرب » :

(١) الموزيات Muses : إلاهات تسع فى أساطير اليونان تتولى حماية الآداب والفنون والعلم . (المترجم)

الفصل العشرون

العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

(١) العبقرى المبدع مخلصاً

استرعت مشكلة العلاقة بين الحضارات والأفراد انتباهنا فى قسم سابق من هذه الدراسة ، وانتهينا من دراستنا إياها إلى النتائج التالية :

أن النظام الذى ندعوه مجتمعا قوامه ، من ناحية الأساس المشترك ، ميادين الفعل الخاصة لعدد من النفوس الفردية .

ليس المجتمع نفسه ، مصدر الفعل ؛ لكن مصدره الفرد دائماً .

وإن الفعل - الذى هو إبداعى - تنجزه دائماً نفس ، تعتبر ، بمعنى ما ، عبقرية تسمو قدرتها على القدرة البشرية المألوفة .

وتعبّر العبقرية عن نفسها - مثلما تفعل كل نفس حيّة - من خلال تأثيرها على رفاقها .

وأن الشخصيات المبدعة هى دائماً فى أى مجتمع ، أقلية صغيرة .

ويتم فعل العبقرية عرضياً على النفوس التى تشترك فى أصولها مع بعضها بعضا ؛ من خلال الأسلوب الكامل للتجلّى المباشر . لكنه يتم فى الغالب من خلال تطبيق نوع من التدريب الاجتماعى يقوم على حشد ملكة المحاكاة (أو التقليد) فى نفوس جمهرة الناس العاطلة عن الإبداع . فيعاونها - من ثم - « بصفة آلية » على استكمال تطور ، ما كانت لتستكمله بوحى ذاتها »

ولقد بلغنا تلك النتائج فى سياق تحليلنا للارتقاء . وواضح أنها يجب

أن تصدق بصفة عامة بالنسبة لتفاعل الأفراد والجماعات فى جميع مراحل تاريخ الجماعة .

فما هو تفصيل الاختلافات التى تُستشف فى هذه التفاعلات ، أى وقتما يكابد المجتمع الذى نبحث أمره ، مرحلة انهياره ، ويسلك طريق تحلله ؟

إن الأقلية المبدعة — التى منها ينبعث الأفراد المبدعون إبان مرحلة الارتقاء — قد انتهى أمر إبداعها وانحط شأنها ، فباتت مجرد أقلية مسيطرة . لكن انقسام البروليتاريا — وهو المظهر الجوهرى للانحلال — يستكمل عناصره تحت قيادة الشخصيات المبدعة التى يقتصر مجال نشاطها على تنظيم مناهضة كابوس « الطاقات الغير المبدعة التى تنبعث إبان الانحلال » .

وبالأحرى ، لا يصحب التغيّر من الارتقاء إلى الانحلال ، زوال قبس الإبداع . إذ يستمر ظهور الشخصيات المبدعة ، وتتواصل زعامتها بفضل طاقتها الإبداعية . على أنها تجد نفسها مكرهة على تقلّد وظيفتها القديمة فى ظل انحلال المجتمع . إذ يُستدعى المبدع فى الحضارة النامية ليؤدى دور فاتح يجيب على التحدى باستجابة منتصرة ؛ ويُستدعى فى الحضارة المتحللة ليؤدى دور مخلّص يفد لانتشال مجتمع أخفق فى الاستجابة ، لأن التحدى قد قهر أقلية توقفت عن مواصلة تأدية دورها الإبداعى .

ويتألف مثل هؤلاء المخلّصين من أنماط تختلف وفقاً لطبيعة العلاج الذى ينشدون استخدامه فى علاج المرض الاجتماعى . فثمة مخلّصون يرتجيهم مجتمع متحلل ، لا يتملكهم اليأس من الحاضر ، فيكرّسون جهودهم لتحقيق أمل ضائع ، آملين إحالة الانكسار إلى ارتقاء جديد . وينبعث هؤلاء المخلّصون المرتجون ، من الأقلية المسيطرة . ولهم خاصية يشتركون فيها جميعاً ؛ مدارها إخفاقهم فى عملية الخلاص فى نهاية المطاف .

بيد أنه ينبعث كذلك من بين ثنايا المجتمع المتحلل ؛ مخلّصون مرتجون ينشدون الخلاص وفقاً لطريقة من طرائق النجاة المتعاقبة التى سبق

لنا استطلاعها : لكن يفضّل أن المخلّصون ممن ينتسبون إلى هذه المدارس الأربع الأخرى ، استبعاد محاولة انتشال الوضع الحاضر . فيعمدون إلى سلوك الوسائل التالية :

١ – يسعى المخلّص ذو النزعة السلفية[1] إلى محاولة إعادة تشييد ماض تصورى .

٢ – يحاول المخلّص ذو النزعة المستقبلية[2] أن يطفر إلى مستقبل تخيّلى .

٣ – يقدم المخلّص الذى يوجه الأذهان إلى نزعة الاعتزال ، نفسه فيلسوفاً يستتر وراء قناع ملك .

٤ – يتبدّى المخلّص الذى يوجه الأذهان إلى أسلوب التشكّل ، إلهاً يتجسّد فى إنسان .

(٢) المخلّص المتقلد حساماً

إن المخلّص المرتجى لمجتمع متحلل ؛ هو بالضرورة مخلّص متقلد سيفاً ؛ بيد أن السيف قد يكون ممتشقاً أو مغمداً . وربما يناضل وسلاحه مجرّداً ؛ أو يقبع وسلاحه فى غمده بعيداً عن الأنظار ، مثل المنتصر الذى « ألقى بجميع أعدائه تحت قدميه » .

إن المخلّص قد يكون على غرار هراكليس أو زيوس ؛ مثل داود أو سليمان . وعلى الرغم من أن داود أو هراكليس لم يكن ليركن للراحة من أعماله قط ، وكان دأبه الموت وهو فى عدة قتاله ، يحتمل أن يكون شخصية طابعها الخيال وأشد جنوحاً إليه من شخصية سليمان فى بهائها كله ، أو زيوس فى عظمتها جميعها . فإن أفاعيل هيراكليس وحروب

---

(١) السلفية كما ذكرنا فى موضع سابق ، هى النزوع إلى الماضى والاتجاه إلى استعادته . (المترجم)

(٢) النزعة المستقبلية ، هى الرجاء فى مستقبل تتحقق فيه الهناء والعدالة . (المترجم)

داود ؛ تصبح ضرباً من الكد لا طائل فيها ، إن لم تكن دماثة زيوس ورخاء سليمان ، هما أهدافهما . ذلك لأن الحسام لا يمتشق إلا تحقيقا لغاية نافعة ، لن يصبح للحسام بعدها نفع .

بيد أن هذا الأمل ، سراب . فإن « جميع أولئك يتخذون السيف ، بالسيف يفنون » .

وما نادى به مخلّص ليست مملكته فى هذه الدنيا ، أقرّه آنفاً سياسى يعتبر من أكثر ساسة الغربيين فى القرن التاسع عشر واقعية ، فلقد تجلى فى تعليقه على عبارة المخلّص[1] بعبارة تترجم الإنجيل باصطلاح عصره ومكانه فى قوله : « إن الشىء الوحيد الذى لا يمكنك فعله بالحراب ، أن تجلس على أسنتها » ؛ إن الإنسان العنيف لن يستطيع بصفة أصلية أن يندم على عنفه ، وأن يستفيد على السواء من وراء نزعته هذه ، على الدوام .

ويتمثّل المخلّصون التقليديون المتقلدون حساماً ، فى القادة والأمراء الذين طفقوا يكافحون فى سبيل العثور على دولة عالمية أو نجحوا فى إعادة تشييدها ؛ وعلى الرغم من أن الانتقال من عصر اضطرابات إلى دولة عالمية ، يعتبر نجدة عاجلة تبلغ من القوة بحيث يُتخذ فى العالم من المشيدين الناجحين لمثل هذه الدول أرباباً يُعبدون ؛ فإن الدولة العالمية هى فى أحسن حالاتها شىء فانٍ . فإن حدث أن تشبثت دولة عالمية — بفضل عمل فاره — بأن تجاوز فترة حياتها الطبيعية ، يغدو عليها أن تدفع تحللها ثمن بقائها المصطنع ، ويتخذ هذا التحلل شكل أعمال اجتماعية انحرافية ، لها من التأثير المهلك ، مثل تأثير أى من عصور الاضطرابات التى تتقدمها فى الحدوث ، أو مراحل الهجرات التى تتلو تحطمها .

---

(١) أى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

ويبدو أن مناط الحقيقة ، أن السيف الذى انغمس فى الدم ، لن يحال بينه دواماً وبين العودة إليه . مثلما لا تمكن الحيلولة بين النمر الذى تذوّق طعم اللحم الآدمى وبين صيرورته آكل إنسان . ولا شبهة فى أن الموت هو مصير النمر آكل الإنسان ؛ فإن تفادى الرصاصة ، يموت بالجرب . على أن النمر — بفرض تنبوئه بمصيره — لا يتمكن من كبح جماح شهيته المفترسة .

وهذا هو الحال بالنسبة للمجتمع الذى نشد ذات مرة الخلاص باستخدام السيف :

إذ يندم زعماؤه على فعلهم الدموى ، بما يظهرونه من رحمة تجاه أعدائهم ، على غرار ما فعله قيصر . أو يسرّحون جيوشهم مثلما تصرف أغسطس . فإذا أخفوا السيف آسفين ، فقد يبيتون النية عن عقيدة صادقة ؛ على الامتناع التام عن امتشاقه مرة أخرى ، إلا فى سبيل نفع مؤكد . وهم يُحلّون بذلك أعمالهم الحربية بالقول بأن المحافظة على السلام ضد المجرمين الذين ما برحوا كثيرين فى نطاق حدود بلادهم ، أو ضد البرابرة الذين ما انفكوا يلجون فى ظلمتهم الخارجية . بيد أنه على الرغم مما قد يبدو من ثبات فكرتهم عن السلام العالمى وجمال مظهرها — باستنادها طوال مائة أو مائتى عام على أسس كالحة قوامها انصال السيوف المغمدة — فإن الزمن سيحيل عملهم إلى عدم ، عاجلا أو آجلا .

فهل فى استطاعة حاكم دولة عالمية يشبه زيوس ، أن يوفّق فى كبح جماح تلك النزوة العارمة التى تدفعه صوب تحقيق مزيد ثم مزيد من الفتوحات ، فتوحات مثل التى تسببت فى القضاء على قورش ؟

فإن عجز عن مقاومة الإغراء بتحطيم المتكبرين ، فهل فى مكنته

أن يلتزم بالسير على النهج الذى اختطه فرجيل ليحمى الضعفاء[١] .

إننا إذ نطبّق هذين الاختيارين على الأفعال التى ينجزها الحاكم ، سنجد أنه قلما يوفّق طويلا فى الاستمساك بنياته الطيبة .

فإذا ما اخترنا أن نبحث فى بداية الأمر مسألة الصراع بين النزعتين السياسيتين التعاقبيتين — أى التوسع من جانب وعدم الاعتداء من جانب آخر — فى علاقات إحدى الدول العالمية بشعوب تقع خارج نطاق حدودها ؛ يطالعنا المثال الصينى . ذلك لأنه لا يوجد مثال أوضح مما فعله تسين شى هوانج ، من بناء السد العظيم على طول حدود السهب الأوراسى للدلالة على التصميم على إغماد السيف . بيد أن نيته الطيبة القائمة على البعد عن استفزاز عش الزنابير الأوراسى ، قد دمرتها — قبل انقضاء مائة عام على وفاته — سياسة « التقدم نحو الأمام » التى اعتنقها ورتى Writi من أسرة هان .

ونجد فى تاريخ الدولة العالمية الهيلينية ، أن سياسة الاعتدال التى وضعها أغسطس ؛ قد أتت عليها محاولة الإمبراطور تراجان غزو الإمبراطورية البارثية[٢] . ولقد تطلب تقدم الرومانيين المؤقت من الفراتين إلى مشارف جبال زاجروس ورأس الخليج الفارسى ، ثمنا قوامه فرض ضغط لايطاق على الموارد الرومانية ، الأمر الذى اقتضى من هادريان بذل كافة حكمته وكفايته لتصفية التركة المثقلة التى أورثه إياها سيف تراجان . فإن هادريان قد بادر

---

(١) نهج فرجيل عبارة عن كلمات أربع تتكون منها الشعار الذى وضعه فرجيل بروما وتعنى حطم المتكبرين وحماية الضعفاء . (المترجم)

(٢) بارثيا Parthia : هو الاسم القديم لقطر يقع جنوب شرق بحر قزوين ويعادل الآن القسم الشمالى من مقاطعة خراسان الإيرانية . (المترجم)

إلى الجلاء عن جميع فتوحات سلفه . على أنه كان فى قدرته أن يستعيد الوضع الذى كان قائما بالنسبة للمساحة ؛ لا بالنسبة للسياسة .

وفى الإمبراطورية العثمانية ؛ تعمّد محمد الفاتح (١٤٥١ — ٨١ ميلادية) أن يجعل نهاية أطماحه إقامة إمبراطورية عثمانية لا تجاوز حدودها النطاق التاريخى للمسيحية الأرثوذكسية — خلا روسيا — وقاوم كافة المغريات للاعتداء على أملاك المسيحية الغربية وإيران . لكن خلفه سليم القاسى (باوز) (١٥١٢ — ٢٠)[١] ، حطم سياسة محمد الفاتح المنكرة للذات . كما ارتكب سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦)[٢] خليفة سليم ، خطأ أبعد من ذلك فى خطورته ، بحطمه فى أوربا نفس السُّنة المنكرة للذات .

ونتيجة لذلك ؛ أخذت الدولة العظيمة تبلى بفعل شحذ أسلحتها باستمرار لحرب على جبهتين ضد خصوم ، طفق العثمانيون يهزمونهم فى الميدان المرة بعد الأخرى ، لكنهم لم يستطيعوا شل حركتهم قط . ولقد تغلغل هذا التشبث بتلك السياسة تغلغلا عميقا فى سياسة الباب العالى ، إلى درجة أنه لم يترتب على الانهيار الذى أعقب موت سليمان ، العودة إلى نزعة الاعتدال التى اعتنقها محمد الفاتح . فإنه ما إن استطاع الوزراء من آل كوبريللى تجميع قوى الإمبراطورية العثمانية المبددة ، حتى أسرف فى تبذيرها ، قره مصطفى فى حرب عدوان جديدة ضد الفرنجة قصد بها نقل الحدود العثمانية إلى الراين .

وعلى الرغم من أن قره مصطفى ، لم يحظ أبدا برؤية هذا الهدف ، إلا أنه نافس سليمان فى عمله الفذ المتصل بفرض الحصار على فيينا . بيد أن المدرعة الدانوبية[٣] للمسيحية الغربية دللت فى ١٦٨٢ / ٣ مثلما تبدّت عام ١٥٢٩ ، على أن الحراب العثمانية لا تقوى على اختراقها . ولم يفلت

---

(١) سليم الأول الذى غزا مصر وسوريا عام ١٥١٧ . (المترجم)

(٢) السلطان سليمان القانونى . (المترجم)

(٣) المدرعة الدانوبية : أى دولة آل هابسبرج . (المترجم)

العثمانيون محاصرو فيينا هذه المرة من القصاص . ذلك لأن الحصار العثمانى الثانى قد استثار هجمة مضادة ، استمرت من غير أن يصدّها حائل جدّى ؛ من عام ١٦٨٣ حتى عام ١٩٢٢ . وقد تم فى خلال هذه الفترة ، تجريد العثمانيين من إمبراطوريتهم بأسرها ، وانحصروا مرة أخرى فى موطنهم فى الأناضول .

إن قره مصطفى – كسليمان من قبله – بمخاطرته باستثارة عش الزنابير فى أوربا الغربية ، قد ارتكب خطأ خليفة داريوس (اجزركسيس) التقليدى ، وقتما شن حربه العدوانية ضد الأرض اليونانية فى القارة الأوربية . فإنه قد استثار بذلك العمل ، الهجوم الهلينى المضاد الذى ، سرعان ما انتزع من الإمبراطورية الأخيمينية ، الحد اليونانى من أملاكها فى آسيا ، والذى قاد فى خاتمة المطاف إلى تحطيم الإمبراطورية ذاتها ؛ وقتما استكمل الإسكندر المقدونى العمل الذى بدأه من قبل تيموستوكليس الأثينى .

ولقد أنجب تاريخ العالم الهندى نظيرا لاجزركسيس فى شخص أورنجزيب (١٦٥٩ – ١٧٠٧) الذى كانت جهوده لفرض سلطانه على بلاد المهراتا بقوة السلاح ، سببا فى استثارة هجوم المهراتا المضاد الذى عمل فى نهاية الأمر على حطم سلطان خلفاء أورنجزيب فى أقاليمهم الأصلية فى سهول هندستان .

وصفوة القول :

يتبين لنا من استقراء الأمثلة السالفة الذكر فى أولى مجموعتينا ؛ أن حكام الدول العالمية النزاعين إلى امتشاق الحسام ، لا يبدون فى هذا الشأن ما يلفت النظر كثيرا . فإذا ما انتقلنا من تجربة الامتناع عن الاعتــداء على الشعب الواقع فيما وراء الحد ، إلى تجربتنا الثانية المتصلة بالتسامح مع الشعب داخل الحد ؛ سنجد مثل هؤلاء الحكام يوفقون بالكاد فى هذا الاختبار الثانى .

فإن الحكومة الإمبراطورية الرومانية ، كانت قد أعملت فكرها – مثلا – للتسامح مع اليهودية ، وانتهت إلى هذا القرار بفعل الاستفزازات اليهودية

المتكررة . بيد أن برفق الحكومة الرومانية فى المعاملة لم يقترن بعمل معنوى فذ أشد صعوبة ؛ يقوم على تعميم هذا التسامح إلى البدعة الدينية التى انبثقت عن اليهودية[١] والتى رسمت لنفسها خطة تحويل العالم الهلينى إلى عقيدتها . ولقد ضاقت الحكومة الإمبراطورية ذرعا بذلك العنصر فى المسيحية الذى يدفع المسيحيين إلى الامتناع عن تقبّل ادعاء الحكومة بأنها صاحبة الأمر على ضمائر رعاياها . فكان أن نازع المسيحيون حق السيف ؛ فانتصرت فى النهاية روح الاستشهاد المسيحية على سيف الحاكم الرومانى ، مما حمل ترتوليان[٢] على التباهى متحديا تحدى المنتصر بقوله بأن الدم المسيحى كان البذرة المسيحية .

وآلت الحكومة الأخيمينية على نفسها – مثل الرومانية – بأن تحكم على أساس رضاء المحكومين . بيد أنها لم تنجح – مثلما نجاح الحكومة الرومانية جزئيا – فى التزام هذه السياسة . فإذا كانت قد وفّقت فى الفوز بولاء الفينيقيين واليهود ، إلا أنها أخفقت على طول المدى فى استمالة المصريين والبابليين على السواء .

ولم يكن حظ العثمانيين فى استمالة رعاياهم بأسعد من ذلك ، على الرغم من منحهم إياهم استقلالا ذاتياً واسع النطاق فى شئونهم الثقافية بل المدنية على نحو ما يتبين فى منحهم النظام « الملّى » . ذلك لأن التطبيق العملى ، قد شوّه روح السماحة النظرية السائدة فى النظام . فانبنى على هذا ؛ إظهار الرعية العثمانية عدم ولائها للإمبراطورية فى صورة خطيرة ، وقتما

---

(١) أى العقيدة المسيحية التى كان روادها الأوائل من اليهود والتى استمدت عناصرها الأولى من اليهودية قبل تأثرها الشديد بالعناصر الهلينية . (المترجم)

(٢) ترتوليان Tertullianus : (١٦٠ – ٢٣٠) أحد علماء اللاهوت المسيحى الأوائل ولد على الأرجح فى قرطاجنة . وعمل محاميا فحقق لنفسه شيئا من الشهرة . ثم اعتنق المسيحية عام ١٩٠ ميلادية ، واستخدم مواهبه الكتابية والخطابية فى الدفاع عنها . (المترجم)

سنحت لها فرصة الخيانة حينما ألمّت بها سلسلة الانكسارات المعروفة . الأمر الذى جعل خلفاء السلطان سليم القاسى ، يندمون على نزول هذا الرجل الحازم على إرادة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، اللذين بينه وبين تنفيذ مشروع يقضى باستئصال الأغلبية المسيحية الأرثوذكسية من رعايا الدولة العثمانية — إن كانت الرواية صادقة — مثلما استأصل الأقلية الشيعية الإمامية .

ونجد أورنجزيب فى تاريخ الإمبراطورية المغولية فى الهند ، ينأى كذلك عن سياسة التسامح تجاه الهندوسية التى أورثها « أكبر » إلى خلفائه باعتبارها أهم أركان إمبراطوريتهم . ولقد عوقب هذا التغير فى السياسة ، بانهيار الإمبراطورية سريعا .

ولعل هذه الأمثلة ، تكفى لإعادة تعزيز النتيجة القائلة بأن المخلّص المتمشق حساماً ، يفشل فى عملية الخلاص .

(٣) المخلّص صاحب آلة الزمن

آلة الزمن ؛ عنوان إحدى القصص الخيالية — الشبيهة بالعلمية — التى ألفها المستر ج . ه . ولز فى مطلع عهده . وكان تصوّر الزمن بعداً رابعاً ، قد أصبح مألوفاً بالفعل وقتئذ .

ومدار قصة ولز الخيالية أن بطلها يخترع نوعاً من الأوتوموبيل — وكان العالم حديث العهد بها كذلك — فى مكنته السفر بها ذهابا وجيئة عبر الزمن الذى أخضعه لمشيئته : ويستخدم اختراعه للقيام بزيارات متتالية إلى مراحل بعيدة من تاريخ العالم ، يعود منها جميعها — عدا الرحلة الأخيرة — سالماً ليروى قصة سفره .

وتعتبر قصة ويلز الخيالية هذه ؛ رمزاً للعمل التاريخى الفريد لهؤلاء المخلّصين من ذوى النزعة السلفية والمستقبلية الذين يحسبون حالة مجتمعاتهم الحاضرة

والمتوقعة غير قابلة للإصلاح : وينشدون الخلاص فى ماض يعدّونه مثالياً . أو العكس ، المجازفة صوب مستقبل يجعلون منه شيئاً مثاليا : ولن نحتاج إلى البقاء طويلا عند هذا المشهد ؛ ذلك لأننا بيّنا فعلا تفاهة نزعتى السلفية والمستقبلية على السواء ، وعرضنا لمنحاهما الهدام .

وبكلمة جامعة ؛ لو اعتبرت آلات الزمن هذه (إن تصورناها بمعنى أكثر دقة من المعنى المألوف) ؛ حافلات[1] لا أوتومبيلات يستخدمها الأفراد المنعزلون - وفقاً لمدلول السير ولز - فى ارتياد المجتمعات بأسرها ، فإن هذه السيارات تقصر عن العمل بالتأكيد . ويحرّض قصورها المخلّص المرتجى على طَرْح آلته الزمنية جانباً ، والاقبال على امتشاق الحسام . ومن ثم يقضى على نفسه بالإفساد الذى يترصّد المخلّص الساحر « ذى السيف » الذى سبق لنا بحث حالته .

وهذا التحوّل المفجع من النزعة المثالية إلى الاتجاه صوب العنف ، يداهم المخلّص ذا النزعة السلفية ، والمخلّص ذا النزعة المستقبلية على السواء .

فى العالم المسيحى إبان القرن الثامن عشر الميلادى أوجز روسو جوهر مبدأ السلفية ، فى عبارة وردت بافتتاحية مؤلفه (العقد الاجتماعى) « يولد الإنسان حراً ، لكنه يوجد مقيداً فى كل مكان » . ومن ثم يثير العجب أن يكون أشهر مريدى روسو هو روبسبير المعروف بأنه المسئول الرئيسى عن « الإرهاب الفرنسى » الذى اتخذ سبيله أثناء فترة ١٧٩٣ - ٩٤ . كذلك فإن مسئولية الإرهاب النازى المعاصر لا يمكن أن يُلقى فحسب على تلك التخرّصات التخيلية المسالمة التى دأبت طوال القرن التاسع عشر أن تجعل من العنصر النوردى الوثنى ، شيئاً مثالياً :

ولقد سبقت لنا مشاهدة كيف أن المفسّر المسالم لحركة تتجه إلى السلفية ،

---

(١) الحافلات : ترجمة كلمة Omnibuses . (المترجم)

قد يحيق الهزيمة بمقاصدها ذاتها ؛ بتهيئته الطريق لخليفة ينزع إلى العنف والعدوان — على غرار النذير الذى بيّنه تيبريوس جراكشوس لأخيه جايوس :
وبهذا الأسلوب يدخل العالم فى جيل من الثورات .

ولقد يتوقع أن يكون الاختلاف بين نزعتى السلفية والمستقبلية ، واضحاً وضوح الاختلاف بين أمس والغد . بيد أنه كثيراً ما يصحب تحديد الفئة التى يجب أن توضع فيها حركة معينة أو مخلّص معين ؛ مادام من خصائص نزعة السلفية إحاقة الهزيمة بذاتها عند تردّيها فى غمار النزعة المقابلة لها ، أى « المستقبلية » ؛ ويتم ذلك تحت تأثير وَهْم متابعتها غلبة الماضى على التاريخ . وطبيعى أن لا يكون هناك مثل هذا الشيء بسبب حقيقة مدارها أنك لو تقدمت ، فإن عودتك ستجعل من المكان الذى عدت إليه مكانا مختلفا ، مع فرض استطاعتك العودة .

وبالأحرى ؛ يقــذف مريدو روسو ، بثورتهم من حالق بسبب جعلهم دولة الطبيعة « شيئا مثاليا » ، وإعجابهم بـ « الوحش النبيل » فضلا عن رثائهم للفنون والعلوم . بيد أن الثوريين ذوى النزعة المستقبلية مثل كوندورسيت[١] — الذى استمد إلهامه من عقيدة « الارتقاء » — كانوا بلا شك أوضح مقصدا .

والواقع ، ستسفر دائما نتيجة حركة المُخلّص المرتجى ذى النزعة السلفية ،

---

(١) كوندورسيت Condorcet (١٧٤٣ – ٩٤) : فيلسوف وعالم رياضى وكاتب فرنسى . اشتهر بمؤلفاته الرياضية ، مما جعله عضوا بأكاديمية العلوم الفرنسية . ولما نشبت الثورة الفرنسية ، انضم إلى جانب الشعب (رغما عن أصله العريق) ، فانتخبه الشعب عضواً بالجمعية التشريعية . وفى عام ١٧٩٢ انتخب رئيساً لها ، لكن سرعان ما انهار حزب الجيرونديين الذى كان ينتمى إليه ، فحاول الفرار فقبض عليه وأودع السجن تمهيداً لمحاكمته . لكنه انتحر . ومن أشهر مؤلفاته الأخيرة (التى نشرت بعد وفاته) كتابه عن تطور ارتقاء الإنسانية وطريق هذا التطور ، الذى دافع فيه عن حريات الفرد ونادى بالمساواة التامة بين الجنسين وبين عناصر المجتمع ، واعتبر تلك المساواة من أسباب ارتقاء المجتمع . (المترجم)

عن تنازل جديد عن خطته . ويعتبر العنصر السلفى فى جميع هذه الحركات ، مجرد مادة سكرية تمكن الإنسان من ابتلاع الحبّة المرّة . ذلك لأنها فى حقيقة أمرها نزعة مستقبلية ؛ سواء فرضها — عن سذاجة — مفكرون متفائلون ، أو وضعها — عن دهاء — قوم برعو فى شئون الدعاية . على أن الحبّة المرّة تصبح — على أية حال — أكثر استساغة إن توافرت لها المادة السكرية . ذلك لأن المستقبل المجرّد يبرر خشية المجهول بأسره ، فى حين يتأتى تمثيل الماضى بدار مريحة انتهى أمرها منذ زمن بعيد ، شُرّد منها المجتمع المتحلل إلى تيه الحاضر .

ومصداقا لذلك ؛ برز خلال فترة ما بين الحربين ، المنافحون فى بريطانيا عن نوع من الاشتراكية ، معتنقين نزعة سلفية ؛ جاعلين من أنظمة القرون الوسطى أملا منشودا . وقدموا برنامجهم تحت عنوان « الاشتراكية النقابية » ، ذاكرين أن الأمر يقتضى انبعاث نظام شبيه بنظام الطوائف الحرفية فى القرون الوسطى . بيد أنه لو فرض تطبيق البرنامج لأدهشت النتائج التى يسفر عنها — بكل تأكيد — أية رحالة يمتطى آلة الزمن من أبناء مسيحية القرن الثالث عشر الغربية .

يتضح مما تقدم أن المخلّصين ذوى النزعة السلفية — المستقبلية ؛ يفشلون فشلا مطبقا مثلما يفشل « المخلّصون أصحاب السيوف » فى تحقيق « الأعمال المجيدة » . إذ ليس ثمة خلاص كامن فى النظم الخيالية الثورية الدنيوية ، كما لا يتحقق الخلاص فى الدول العالمية .

(٤) الفيلسوف تحت قناع ملك

حدث إبان الجيل الأول لعصر الاضطرابات الهلينى ، أن عرض أعظم المفكرين الهلينيين وأسبقهم فى فن الانعزال ، وسيلة للخلاص ، لا تتوسل بمساعدة « آلة الزمن » أو « السيف » ؛ مبناها :

« ليس ثمة أمل لإزالة الشرور من دول هيلاس — وفى اعتقادى من

البشرية — إلا بإقامة اتحاد شخصى بين السلطة السياسية والفلسفية ، واستخدام القوة لشل حركة تلك الطبائع العاميّة التى تتبع سبيلا من السبيلين لتنبذ السبيل الآخر — وقد يتأتى تحقيق الاتحاد بأى من طريقتين : إما أن يغدو الفلاسفة ملوكا فى دولنا ، أو أن يؤخذ إلى الفلسفة ، أولئك الناس الذين يطلق عليهم الآن لقب ملوك ، هم والمرشحون للملكية »[١] .

وإن أفلاطون باقتراحه هذا العلاج ، إنما يجهد لتجريد الإنسان من حريته الفكرية فى الانتقاد ، بالحيلولة بينه وبين ممارسة هذه الحرية . وإنه ليقدم اقتراحه فى صورة طابعها التناقض تثير — على الأرجح — سخرية البعيد عن الفلسفة . على أنه إذا كانت وصفة أفلاطون ثقيلة الوقع على العوام[٢] — سواء أكانوا ملوكا أو أفرادا عاديين من الشعب — فإنها أثقل على الفلاسفة وقعا .

أليس تحقيق الانعزال عن الحياة ، هو غاية الغايات عند الفلاسفة ؟

أليست متابعة كل من الانعزال الفردى والخلاص الاجتماعى ، شيئاً يتناقض مع خاصية التفرّد الاجتماعى التى تتم بتبادل الإحساس ؟

كيف يستطيع أن يكرّس فرد نفسه لإنقاذ مدينة « الدمار »[٣] التى يجهد هو نفسه — بحق — لتحرير ذاته منها ؟

وظاهر أن تجسّد تضحية المسيح الذاتية — عن طريق الصّلب — تعتبر لدى الفيلسوف والحالة هذه ، تجسيما لصفة الحماقة . بيد أن قليلين من الفلاسفة كانت لديهم الشجاعة للجهر بهذا الاقتناع ، وكانت لدى عدد أقل من ذلك ، الشجاعة للعمل به : ذلك لأن على الأريب فى فن الانعزال ، أن يبدأ إنسانا مثقلا بالمشاعر البشرية الشائعة . فإنه لن يمكنه إغفال ما يعانيه جار من كرب يقدّر قلبه نفسه مداه ، أو يدّعى بأن طريقا للخلاص تسيّره ... ته ، يكون نافعا لجاره بالمثل ؛ لو فرض اطلاعه عليه .

---

(١) صفحة ٢٧٢ من الجمهورية لأفلاطون . (المترجم)

(٢) وهم هنا البعيدون عن محيط الفلسفة . (المترجم)

(٣) أى الدنيا الفانية . (المترجم)

فهل لفيلسوفنا إذاً أن يقيّد حريته فى العمـــل بإسداء يد المعونة إلى جاره ؟

فى هذا المأزق الأخلاقى ، من العبث اللجوء إلى المذهب السندى القائل بأن الشفقة والحب رذيلتان ؛ أو الركون إلى المذهب الأفلوطونى[1] القائل بأن « الفعل شكل واهن للتأمل » ؛ كما أنه لن يكون راضيا عن الوقوف موقف المدان بالتقلّب الثقافى والخلقى . وهذا ما اتهم به بلوتارخ الآباء الرواقيين ، باقتباسه نصوصاً يدين فيها كريسيبّوس بالعيش فى فراغ أكاديمى ، إلا أنه فى عبارة أخرى فى نفس الرسالة يوصى بهذا الضرب من الحياة[2] :

ولقد حكم أفلاطون ذاته بأن أولئك الذين برعوا فى فن الانعزال ، يجب أن لا يسمح لهم بعد ذلك دواماً بأشعة الشمس التى ناضل آخرون فى سبيل الوصول إليها ؛ ونعى على فلاسفته — بقلب كسير — التردّى مرة أخرى فى « الكهف » لرغبتهم فى معاونة رفاقهم السيئ الحظ الذين ما انفكوا جالسين مقيدين بأحكام البؤس والسلاسل » .

وإنه لما يبعث على التأثر أن نجد أبيقور يتبع مذعنا تعاليم أفلاطون .

إن الفيلسوف الهلينى الذى ارتسم مثاله الأعلى فى حالة وقار هادئ ، كان على ما يظهر ، الفرد — بل الفرد العادى الوحيد — الذى اكتسب لقب « المخلّص » قبل ظهور مسيح الناصرة ؛ ذلك لأن هذا الشرف كان حكرا على الأمراء ، وعلى من يقومون بخدمات سياسية وحربية .

وتعتبر تفرقة أبيقور المعدومة المثال ، نتيجة عرضية لتلبية الفيلسوف الهادئ المرح ، نداء للقلب لا يمكن صدّه . وإن حرارة الامتنان والإعجاب اللذين يمجّد بهما شعر لوكريتيوس عمل أبيقور المتصل بموضوع الخلاص ،

---

(١) الأفلاطونى : نسبة إلى أفلوطين . (المترجم)

(٢) Phutarch : De Stoicoruw Repugu atis, Ch. 2 and 20

يجعل من الواضح أن اللقب لم يكن فى هذه الحالة مظهراً فارغا ، لكنه تعبير عن شعور عميق يتسم بالحيوية . شعور لا بد قد انتقل إلى الشاعر اللاتينى عبر سلسلة من التقاليد انحدرت من معاصرى أبيقور الذين قدّسوه وعرفوه معرفة شخصية .

ويكشف تاريخ أبيقور المتسم بالتناقض ، عن فظاعة العبء الذى بات على الفلاسفة حمله على أكتافهم : فهم إن اتجهوا إلى تنفيذ ما أشار به أفلاطون ، لأصبح عليهم سلوك أحد سبيلين :

إما صيرورتهم أنفسهم ملوكاً ، وإما إحالة الملوك إلى فلاسفة .

ولا نستغرب إذ يؤثر الفلاسفة سلوك الطريق الثانى لما تبين من سحر فتنته لكل فيلسوف يحمل بين جنبيه ضميرا اجتماعياً ؛ ابتداء من أفلاطون نفسه . وهذا ما دعا أفلاطون ثلاث مرات فى حياته ، أن ينبذ عزلته مختاراً — وإن كان على مضض — ليعبر البحر إلى سيراقوز بغية حمل طاغية من طغاة صقلية على اعتناق فكرة فيلسوف أثينى عن واجبات حاكم الدولة .

ولقد ألّفت النتائج — وهذا ما يجب أن نسلم به آسفين — فصلا تافها فى التاريخ الهلينى : فإن ثمة ضرباً من الحكام انهمكوا خلال وقت فراغهم — فى صورة جدية فى الكثير أو القليل — باستشارة الفلاسفة ، يطالعنا منها الأمثلة الأكثر شيوعاً عند طالب التاريخ الغربى « أولئك الأمراء المطلعون » المستنيرون فى القرن الثامن عشر ، الذين دأبوا على تسلية أنفسهم بصحبة الفلاسفة من فولتير فأقل . فأحياناً يدللونهم وأحياناً يتشاجرون معهم . بيد أنه يصعب علينا العثور فى فردريك الثانى ملك بروسيا أو فى كاترين الثانية ملكة روسيا على « مخلّص » يبعث فى النفس الرضا .

وثمة كذلك حالات من الحكام الأفذاذ الذين حصلوا على قسط من الفلسفة الأصيلة من أساتذة قضوا نحبهم قبلهم بأجيال ؛ ومن قبيل ذلك : نسبة ماركوس أوريليوس الفضل إلى مربييه ؛ روستيكوس وسكستوس ؛

بيد أنه لا يمكن الشك فى أن دور هؤلاء المعلمين المجهولين نوعاً ما ، لم يتعد « الحامل » فى فلسفة الماضى الرواقية الكبرى ، وبخاصة فلسفة بانايتيوس الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقبل ظهور ماركوس بثلاثمئة سنة . كما كان الإمبراطور السندى آسوكا مريداً للبوذا الذى كان قد توفى قبل توليه العرش بمائتى سنة .

ولعل وضع العالم السندى تحت حكم آسوكا ، والعالم الهلينى تحت حكم ماركوس ؛ يضم بين طياته مناظرة أفلاطون القائلة بأن « الحياة الاجتماعية تصبح أسعد وأعظم توافقاً ، وقتما يزهد فى الحكم أولئك الذين يقتضى الأمر أن يحكموا » . بيد أن ما حققوه يفنى بفنائهم . فإن ماركوس نفسه قد قضى تماماً على اتجاهاته الفلسفية ؛ باختياره خليفة له ابن صلبه ، عوضاً عن الاختيار بالانتخاب الذى وضع دستوره أسلاف ماركوس واتبعوه بأمانة ؛ بنجاح لم يخب طوال قرن من الزمن تقريباً . أما بالنسبة لقداسة آسوكا الشخصية ، فإنها لم تُنْجِ الإمبراطورية المورية إبان الجيل التالى ، من التداعى أمام ضربة بوشيا ميترا **Pushyamitra** .

وبالأحرى ؛ يعجز الملك الفيلسوف عن إنقاذ رفاقه من حكام المجتمع المتحلل . وإذا كانت الوقائع تُعلن عن نفسها ، إلا أنه ما يزال علينا أن نبحث فيما كانت تتيح لنفسها تفسيراً . فإذا ما تطلعنا إلى أبعد من ذلك قليلا ؛ سنجد أنها توفق فى ذلك حقاً .

فإن التفسير يكمن بالفعل فى العبارة الواردة فى « الجمهورية » التى يعرض فيها أفلاطون شخصية الأمير الذى ولد فيلسوفاً . فإنه بعد ما دفع إلى الأمام بقضيته القائمة على أنه إبان وقت من الأوقات وفى مكان ما ، سيعيش — على أية حال — مثل هذا الفيلسوف فى المجال السياسى ؛ ظفر أفلاطون إلى النتيجة القائلة بأن « فرداً واحداً على غرار هذا الحاكم ،

قين — أن اعتمد على موافقة المحكومين — بأن ينفّذ على الوجه الأكمل برنامجا يبدو تنفيذه متعذرا فى ظل تلك الظروف القائمة » .

ويمضى من يدير دفة النقاش[١] فى شرح أسس تفائله قائلا :

« لنفترض أن حاكماً وقع عليه أمر سن شرائعنا المثالية وتقديم اتفاقياتنا الاجتماعية المثالية ؛ لن يكون رضاء رعاياه بالتصرف وفقا لرغبات الحاكم ، أمراً بعيدا عن التحقيق »[٢] .

وظاهر أن هذه المقترحات الأخيرة ضرورية لنجاح خطة أفلاطون . بيد أنه مما لا يقل عن ذلك وضوحاً ، استنادها على تكريس ملكة المحاكاة . ولقد سبقت لنا ملاحظة أن اللجوء إلى نوع من التدريب الاجتماعى ، يقود توأ إلى إحاقة الدمار بمن يسلكونه ، عوضا عن تعجيله رحلتهم صوب هدفهم المنشود .

ومن ثم ؛ ربما يكفى مجرد تضمين أى عنصر من عناصر الإكراه — العقلى أو البدنى — فى استراتيجية الملك الفيلسوف ، لإحاقة الفشل بهدف الخلاص الذى يسعى إلى تحقيقه . وإذا ما فحصنا استراتيجيته من زاوية أقرب مدى ؛ نجد أن استخدامه عنصر الإكراه ، أمر يتسم بالحماقة . ذلك لأنه وإن بات أفلاطون قلقا على منح حكومة ملكه الفيلسوف ثمرة رضاء المحكومين ؛ فواضح انتفاء الحكمة من اتحاد اليفلسوف اتحاداً شخصياً مع الحاكم الذى يُقدّر صيرورته ملكاً مطلقا : اللهم إلا إن جعلت قوة المستبد الإلزامية ، على قدم الاستعداد لتستخدم فى حالة الاقتضاء . وتبرز الحالة المذكورة وقتما يتيسر التنبؤ بها :

« تتسم طبيعة الشعوب بالتقلّب ، ومن اليسير إغراؤها بشىء ما ؛ لكن من الصعب إبقاؤها فى نطاق هذا الإغراء . وينبنى على هذا ؛ ضرورة

---

(١) أى أفلاطون . (المترجم)

(٢) صفحة ٥٠٢ ا — ب من الجمهورية لأفلاطون .

الوقوف على استعداد ، بحيث أنه عندما يذوى إيمانها ، يتوافر لدى الحاكم القوة التي تمكنه من إرغامها على الإيمان »[1] .

وبهذه الكلمات المنطقية ذات الطابع الوحشي ، يكشف ماكيافللى عن مظهر ينذر بالشؤم في استراتيجية الملك الفيلسوف ؛ مظهر عمل أفلاطون بحكمة ، على حجبه . فإنه إذا ما استبان للملك الفيلسوف عجزه عن سلوك سبيله إن آثر استخدام « نزعة الافتتان » ، سينبذ فلسفته عندئذ ويمتشق الحسام : ألم يلجأ ماركوس أوريليوس نفسه إلى سلاحه ضد المسيحيين ؟

وهكذا ، يطالعنا مرة أخرى المشهد المنفّر لأورفوس : إذ يتحول هنا إلى جندى تدريب . وحقاً يقدّر الفشل لمحاولة الملك الفيلسوف توحيد طبيعتين متعارضتين في شخص واحد : فإن الفيلسوف يستحمق نفسه باعتدائه على مجال فعل الملك القائم على عنصر الإلزام ، في حين يستحمق الملك نفسه — على النقيض — باعتدائه على مجال فعل الفيلسوف : على غرار ما جرى للمخلّص صاحب « آلة الزمن » الذى يعتبر بالمثل في شكله الصريح سياسياً مثالياً ، إلا أنه قد أعلن فشله بامتشاقه سلاح يديه هو الآخر بأنه مخلّص « يخفى السيف في جرابه » .

(٥) الإله المتجسّد في إنسان

تم لنا الآن فحص ثلاثة مجالات مختلفة للعبقرية المبدعة التي تتولد في مجتمع متحلل ، والتي تُخضع قواها وأوجه نشاطها للعمل على التكافؤ مع تحدى التحلل الاجتماعى ، وألفينا طريق الخلاص المزعوم ، يقود في كل حالة ، إلى كارثة ، عاجلا أم آجلا .

فما هى النتائج التي نستخلصها من عملية تبديد الأوهام هذه ؟

---

(١) الفصل السادس . Machiavelli : The Prince

هل تعنى أن كل محاولة لكفالة الخلاص لمجتمع متحلل ، مقدّر لها الانتهاء بكارثة ، إن كان المُخلّص المرتجى مجرد بشر ؟

فلنذكّر أنفسنا بمغزى البيان التقليدى لحقيقة أثبتت التجربة صحتها إلى مدى بعيد ، ألا وهى « أن جميع من يمتشقون السيف ، بالسيف يفنون » هذه كلمات مخلّص نطق بها تبريرا لكبحه جماح تابع من أتباعه أغمد مرة أخرى سيفا أوشك هذا التابع الأمين[1] أن يسلّه ويستخدمه .

إن يسوع الناصرة بقوله هذا ، يداوى أولا الجرح الذى أحدثه سيف بطرس ، ثم يسلّم شخصه مختاراً ليكابد أقصى حدود المهانة والتعذيب . وفضلا عن ذلك ، لا يحمل اتجاهه إلى رفض امتشاق الحسام شيئاً من التقدير العلمى . إذ لا تقاس قوته فى ظل الظروف التى ألقى نفسه فيها ، بقوة خصومه . على أنه يؤمن — كما أفضى إلى قضاته بعد ذلك — بأنه لو كان قد انتضى الحسام ، لفاز فوزاً مبينا بمعاونة « اثنى عشر جيشا من الملائكة » ، وفى هذا يتمثل النصر بأسره الذى فى مكنة السيف تحقيقه . وعلى الرغم من إيمان يسوع بتحقيق هذا النصر ، إلا أنه يرفض استخدام السلاح إيثاراً للموت على الصليب عن الفوز بالسيف .

إن يسوع بإيثاره هـذا الاختيار ساعة الأزمة ، ينفلت تواً من خط الفعل الاتفاقى الذى اتخذه المخلّصون المرتجون الآخرون الذين سبقت لنا دراسة سيرهم .

ترُى ما الذى ألهم المخلّص الناصرى اعتناق هذه الفكرة المذهلة القائمة على العدول عن الطريق الذى سلكه غيره ؟

لعل فى مكنتنا الإجابة على هذا السؤال ، بالتساؤل بدورنا عما يميّز يسوع الناصرى عن أولئك المخلّصين الآخرين الذين نقضوا دعاويهم ، وقتما تحوّلوا إلى رجال سيف .

---

(١) هو بطرس أحد حواريى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

مناط الإجابة فرضا ، أن هؤلاء الآخرين قد أدركوا أنهم ليسوا إلا رجالا ، فى حين آمن يسوع بأنه ابن الرب .

فهل نستنتج من ذلك — مصداقا لقول صاحب المزامير[١] — بأن الخلاص مردّه الرب وأنه بدون توافر نوع من الربوبية ، يغدو المخلّص المرتجى عاجزا دائماً عن إنفاذ رسالته ؟

والآن ، وقد وازنا وافتقدنا أولئك المخلّصين المزعومين الذين كانوا صراحة مجرد بشر ، فلنحول وجوهنا — كإجراء أخير — شطر المخلّصين الذين أبرزوا أنفسهم كآلهة .

ولقد يبدو انتقالنا لاستعراض عملية المخلّصين الآلهة — بنظرة تنحو إلى امتداح ما يدعونه لأنفسهم من صفات والاقتداء بما يعملون — بمثابة تطبيق لم يسبق له نظير ، ويتسم بالمجازفة ، بطريقتنا المعتادة القائمة على الدراسة التجريبية . لأننا سنجد أنه مهما يكن من أمر دعاوى جميع الشخصيات التى تزعم انتسابها إلى الألوهيــة ، فإن دعاويها — باستثناء شخصية واحدة[٢] — بالانتساب إلى الربوبية ، أمر يحوطه أعظم مظاهر الشك . وبالأحرى ، سنتحرك وسط الأشباح والقضايا التجريدية ؛ من قبيل تصور بركلى[٣] أشخاصاً لا كينونة لهم ، فكان أن انحصرت كينونته الفريدة فى تقديس الأشخاص الموهوبين ، وهم أشخاص أحرى أن يقضى عليهم[٤] ما قضى به البحث الحديث على « ليكورجوس ملك اسبرطة » الذى حسبه أجدادنا حقيقة تاريخية ثابتة ، مثله مثل صولون الأثينى .

ومع ذلك فلنستمر فى بحثنا :

---

(١) أى داود عليه السلام . (المترجم)

(٢) هى السيد المسيح فى رأى المؤلف . (المترجم)

(٣) نسبة إلى الأسقف بركلى الذى مات عام ١٧٥٣ . (المترجم)

(٤) أى أشخاص لا يكونون إلا عند ما يشاهدون مشاهدة مادية . (المترجم)

ولنبدأ من الدرجة السفلى للسلّم ، أى من فكرة استخدام الإله أداة[1] وأن نرقى من هذا المستوى ـ الذى لعله دون المستوى البشرى — إلى القمة التى لا يمكن التعبير عنها ؛ قمة الإله المسيح مصلوبا[2] . فإذا كان الموت على الصليب هو غاية الغايات التى يتأتى لإنسان السعى إليها لتشهد على صدق دعواه بالربوبية ؛ فلقد يبدو ذلك للناظرين أقل ما يستطيع أن يبذله من جهد ، إله معترف به ، لإثبات دعواه بالمثل للقيام بدور « المُخلِّص » .

وكانت فكرة استخدام الآلهة أدوات على المسرح الأتيكى[3] إبان القرن الذى شهد انهيار الحضارة الهلينية ؛ وسيلة أفادت المؤلفين المسرحيين فى بداية الأمر لعرض أفكارهم على الجماهير . وظلوا حتى بعد استنارة العصر ، يقيدهم عُرف يقضى بأن يستقوا موضوعات رواياتهم من مادة الأسطورة الهلينية التقليدية . فإن حدث — قبل انتهاء التمثيلية نهاية طبيعية — أن تأزّم سياق التمثيلية لوقوعها فى مأزق ما غير قابل للحل لاتصاله بالخرافات خلقية أو مسائل غير محتملة الوقوع ؛ ينتشل المؤلف نفسه من الأحابيل التى تردّى فيها بسبب ارتضائه أسلوبا فنيا معينا ، باللجوء إلى استخدام أسلوب آخر ؛ يقوم على اصطناع قوة الآلهة تفد فى الوقت المناسب ، إما عن طريق غير مباشر بأن تظل فى مكانها المرموق ، أو تتحرك على المسرح حتى تنجز الغاية المرتجاة .

ويتحامل النقاد المحدثون على خدعة المؤلف الدرامى الاتيكى هذه . فإن الحلول التى تهيئها الآلهة الأولمبية إلى الكتاب أصحاب فكرة استخدام الآلهة أدوات لحل مشكلات البشر ؛ حلول لن تقنع العقل البشرى ، ولن تجد صدى فى قلب الإنسان .

---

(١) التعبير الأصلى **Deus ex machina** ويراد به استخدام الإله أداة لحل مشكلة . (المترجم)

(٢) **deus crucis fixus**

(٣) نسبة إلى آتيكا وعاصمتها أثينا . (المترجم)

ويعتبر أوربيديس Euripides أكثر المسرحيين إقداما دون حياء على إتيان هذا العمل . على أن أحد الباحثين المحدثين يجد فى استعانة أوربيديس فى رواياته بالشخصيات الإلهية ، دليلا على تشبثه بإظهار السخرية بها : إذ يرى فيرال Verral أن أوربيديس « المفكّر العقلى » (كما يدعوه) ، قد أخضع طريقته التقليدية لخدمة أغراضه الخاصة باستخدامها ستاراً لنكاته الساخرة وكفره بالآلهة الأوليمبية ؛ وهذا ما لا يجسر على إتيانه جهاراً دون أن يصيبه القصاص .

وهذا القصاص نسيج وحده . إذ بينما هو سميك أمام أعين أعدائه القصار النظر . إذا به شفاف لأعين شركائه الشاكين .

« لا نبالغ إذ نقرر بأنه مهما تقوله شخصيات الآلهة على مسرح أوربيديس ، ينظر إلى قولها بوجه الاجمال على أنه أمر مشين بالفعل . فإن مما يعترض عليه المؤلف فى جميع الأحوال (وهو أكذوبة من الأكاذيب) إظهاره الكائنات الإلهية ، الأمر الذى يعتبر بمثابة إقناع للرجال بعدم وجودهم »[١] .

وأقل ابتعاد عن جلال الحشد البشرى وبؤسه وأكثر منه استحقاقا للإعجاب ؛ كان ثمة أنصاف الآلهة الذين تلدهم أمهات بشريات من فحول من الآلهة ، من أمثال : هرقل ، آسكلبيوس ، أورفوس ؛ عند اليونان . وتنشد هذه الكائنات نصف الإلهية وذات الشكل البشرى ؛ إرشاد جمهرة الناس بأعمالها فى شتى المناحى ، وهم يتعرضون للعقوبات التى يوقعها عليهم الآلهة الحاقدون . عقوبات مدارها مشاركة مصير البشر الفانين الذين يسعون لخدمتهم . ونصف الإله معرّض للموت مثل الإنسان ، وهذا هو مبعث مجده . وتلوح فيما وراء شخصية نصف الإله — ساعة موته —

---

(١) Verral, Eurihides, the Ratranalist Thesm ophoriasusae
والجملة الأخيرة واردة فى آريستوفانيس .

الشخصية العظمى لإله أكيد ، ويموت فى سبيل تحقيق الخلاص لعوالم مختلفة تحت أسماء متباينة : فهو ؛ زاجروس Zagreus لعالم مينووى ، وهو تموز لعالم سومرى ، وهو آتيس لعالم حيثى ؛ وهو بالدر Balder لعالم اسكندنافى ، وهو آدونيس لعالم سورى ، وهو الحسين لعالم شيعى[1] ، وهو المسيح لعالم مسيحى .

فما هو هذا الإله الذى يتجلّى فى صور متعددة ، لكن آلامه واحدة ؟

إنه وإن تعددت الأشكال التى يظهر فيها هـذا الإله على مسرحنا الأرضى ، تتكشف ذاتيته بشكل راسخ فى الفصل الأخير من المأساة ؛ بفعل مكابدته وموته . فإذا أمسكنا بعصا يستخدمها علماء الأصول البشرية فى الاستنباء ، يغدو فى وسعنا إرجاع هـذه المأساة التى لا تتغير ، إلى أصولها التاريخية :

« إنه سينمو أمامه كنبات غضّ وكجذر ينبعث من الأرض الجافة»[2].

فكأن أقدم أثر لفكرة الإله الميت ، هى فى دور روح الإنبات التى تولد فى الربيع لأجل الإنسان ، وتموت لأجله فى الخريف . ويستفيد الإنسان بموت إله الطبيعة . فإذا لم يمت هذا الإله المتصدق فى سبيل الإنسان ، لأصاب الإنسان الفناء[3] :

« لقد جرح بسبب تجاوزنا الحـدود ، وأصابته الكدمات بسبب

---

(١) مهما يكن من أمر مغالاة الشيعة فى تقديس آل البيت والإكبار من شأنهم ، فإن الشيعة لا تعتبر الحسين إلهاً ، بل يعدونه بشراً سويا . وهم يؤمنون بالقرآن الكريم ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم إلا بعض الغلاة وهم أقلية ضئيلة من الشيعة . (المترجم)

(٢) Isa. I. iii. 2.

(٣) يتأكد الإنسان فى الواقع بأن الإله سيموت بطرحه حياته لعل فى ذلك تتكون الحياة للإنسان نفسه . وتتبين روح العقيدة البدائية لروح الإنبات فى شعر روبرت بيرنز الواردة فى John Barleycorn (أى جون الشعير القمح) فى شعر لعله أفضل ما ورد فى أية قطعة أدبية إنجليزية . (المؤلف)

شرورنا . على كاهله يقع الاقتصاص من سلامتنا ، ونتداوى مما يصيبه من جلدات »[1] .

بيد أن المأثرة الظاهرة للعيان ، لن تستطيع أن تفصح عن السر الكامن فى أعماق المأساة ، مهما يكن من أمر جلالها ، وأيا ما يكون الثمن الذى دُفع فى سبيلها . فإذا ما اعتزمنا الاطلاع على السر ، علينا التطلع إلى أبعد من الكسب الذى يجتنيه البشرى صاحب المنفعة ، والخسارة التى تحيق بالشخصية الإلهية بطلة القصة . إذ ليس موت الإله ومكسب الإنسان هما بيت القصيد فى القصة . ولن نستطيع معرفة مغزى الرواية من غير معرفة الظروف التى يجتازها بطـل الرواية ، وإدراك أحاسيسه ، والاطلاع على مقاصده :

هل يموت الإله الميت قسرا أو باختياره ؟
وعن سماحة أو بمرارة ؟
عن حب أو عن قنوط ؟

وإلى أن ندرك ردود هـذه الأسئلة المتعلقة بروح الإله المخلِّص ، يصعب علينا الحكم عما إذا كان الخلاص مجرد منفعة للإنسان تتيحها خسارة مقابلة للإله ، أوعما إذا كان الخلاص يعتبر تعاملا روحانيا ، يردّ الإنسان بمقتضاه الدين باستحواذه على حب وحنان إلاهين : مثل الضياء الذى يشع عن اللهب الوثاب ، ويبديه الإله للإنسان بعمل من أعمال التضحية الخالصة .

فبأى روح يتجه الإنسان الميت نحو حتفه ؟

إن وجّهنا أنفسنا (وهذا السؤال يتردد على شفاهنا) مرة أخرى إلى عُدتنا من أقنعة المأساة ، سنجد « التضحية الكاملة » : إذ نجد حتى فى

---

(١) Isa : l iii. 5
(٢) صفحة ٣٤١ جزء ٧ من رسائل أفلاطون

رثاء كاليوب البديع لموت أورفوس ، نغمة خشنة تتمثل فيها المرارة ، تقرع الأذن المسيحية وتصدمها .

« لماذا نندب نحن الفانين موت أبنائنا ، ونحن نشاهد الآلهة أنفسهم لايملكون الحيلولة بين وضع الموت يده على أبنائهم أنفسهم »[١] .

فياله من مغزى يستبان من سرد قصة الإله الميت !

وهكذا ما كانت للإلهة التي هي أم أورفوس لتدع أورفوس يموت قط لو استطاعت مساعدته . وعلى غرار السحابة التي تحجب السماء ، يحصل الشاعر اليوناني — بفضل استسلامه — من موت أورفوس ، على الضياء . بيد أن قطعة أدبية أخرى أعظم شأنا تجيب على شعر أنتيباتير Antipater .

« لأن الإله يحب العالم الذى منحه ابنه المولود الوحيد ، فإن من يؤمن به لن يفنى ، ولكن يحظى بحياة أبدية » .

ومن ثم كانت إجابة الإنجيل على النائحة بمثابة وحى يوحى :

« إن الواحد يبقى ، لكن الكثيرين يتغيرون ويختفون »[٢] .

* * *

وبعد ؛ فإن هذه ، هى فى الحقيقة النتيجة النهائية لاستعراض فكرة « المخلِّصين » . فإذا ما وضعنا حدا لهذا الاستطلاع ، ألفينا أنفسنا نتحرك وسط حشد قوى من الجنود . بيد أنهم — مصداقا لمناقشتنا الأولى — قد سقطوا ، بعيدا عن الحلبة ، الفرقة تلو الأخرى . فكانت حملة السيوف هى أول فرقة تسقط ، وتلتها فرقة أصحاب مبدأ السلفية ومبدأ المستقبلية ، وتلتها فرقة الفلاسفة . . . حتى لم يتبق فى الميدان سوى الآلهة ؛ بل إنه حتى بالنسبة لهؤلاء الآلهة المخلِّصين المرتجين لم يتبق عند محنة الموت النهائية

---

(١) Elegy on the Death of Orpheus by Antipater of sidon (trca 90 B. C.)

(٢) Shelley : A donais

سوى القليلون ، أولئك الذين قدموا ٨على وضع لقبهم موضع التجربة ، بالوثب فى النهر الثلجى . .

والآن ونحن نقف شاخصين بأبصارنا إلى الشاطئ الأقصى ، تنهض للتو من طوفان الشخصيات الإلهية ، شخصية مفردة تملأ الأفق بأسره ، إن ثمة « مخلِّصا » « ستسعد مسرة الرب فى يده ، وسيرى عناء نفسه وسيكون بذلك راضيا »[1] .

---

(١) Isa. Liii. 10–11

الفصل الحادي والعشرون

إيقاع التحلل

ابتغينا في الفصل السابق ، العثور على نظير يقع بين أدوار الشخصيات المبدعة في المجتمعات النامية وبين المجتمعات المتحللة ؛ ويكون هذا النظير ، نقيضا لتلك الأدوار . وكان أن عثرنا عليه بالفعل .

وها نحن أولاء — نتتبع أسلوبا للبحث مشابها في جزء مختلف من موضوعنا ؛ رانين إلى العثور عن نظير يتضمن مرة أخرى على سبيل الفرض ، تناقضا بين ما يمكن تسميته بإيقاع الارتقاء ، وما يمكن أن نطلق عليه إيقاع التحلل . وتتمثل الصيغة القاعدية في كل حالة ، في صيغة معروفة لنا تماما ، لاصطحابها إيانا طوال هذه الدراسة : هذه الصيغة هي : التحدي والاستجابة .

ويلاقى التحدي استجابة ناجحة ، إن حدث في حضارة في طور النمو . وتمضي الاستجابة الناجحة قدُما ، فتولّد تحديا آخر مختلفا ، يُلاقى كذلك تحديا ناجحا : وليس ثمة أجل لعملية الارتقاء هذه ما لم يبرز — وإلى أن يبرز — تحدى ، تفشل الحضارة التي نحن بصددها في مجابهته : ويعتبر هذا حدثا مفجعا ؛ يعني توقّف الارتقاء ، ويُنذر بما أسميناه بالانهيار : وهنا يبدأ الإيقاع المقابل :

ورغما عن عدم مواجهة التحدي ، إلا أنه يستمر مع ذلك في تقديم نفسه . عندئذ يُبذل جهد عنيف مثـ لمواجهة التحدي . فإن أصابه التوفيق ، تستأنف طبعا عملية الارتقاء سيرها : على أننا لن نفترض — بعد حدوث نجاح جزئي وموقوت — أن هذه الاستجابة تفشل بالمثل : وسيكون

ثمة عندئذ انتكاس أشد وقعا . وربما تحدث بعد انقضاء فترة ما ، محاولة إضافية لإيجاد استجابة قد تُحقق فى حينها نجاحا موقوتا وجزئيا ، لمواجهة التحدى الذى ما يزال على تزمته . وسيتلو هذا مرة أخرى إخفاق آخر قد يشهد — أو لا يشهد — على أنه إخفاق نهائى ، ويضم بين ثناياه تحلل المجتمع . وقد يُعبّر باللغة العسكرية عن الإيقاع بأنه : كسرة — نهضة — كسرة — نهضة — كسرة . . .

فإن عُدْنا أدراجنا إلى المصطلحات الفنية التى ابتكرناها فى مستهل هذه الدراسة والتى دأبنا على استخدامها ؛ يبدو للوهلة الأولى ، أن عصر الاضطرابات الذى يتلو انهيارا ، هو بمثابة « كسرة » ، ويتضح أن إنشاء الدولة العالمية بمثابة « نهضة » ، وأن فترة الفراغ التى تستتبع انقسام الدولة العالمية بمثابة « الكسرة النهائية » . بيد أنه قد يبقى لنا ملاحظة — فى تاريخ دولة عالمية واحدة هى الهلينية — انتكاس نحو [illegible] ، تلا وفاة ماركوس أوريليوس عام ١٨٠ ميلادية ، وانتعاش فى ظل حكم دقلديانوس . وقد تتبدّى أكثر من حالة انتكاس وانتعاش فى تاريخ أية دولة عالمية معينة .

وهنا تتوقف ملاحظة مثل هذه الانتكاسات والانتعاشات على قوة العدسة التى تستعمل فى الموضوع الذى نجرى عليه الفحص . مثال ذلك ، كان ثمة انتكاس قصير الأمد — لكنه مفزع — حدث عام ٦١ ميلادية ، وهو العام الذى يُدعى بعام « الأباطرة الأربعة » . على أننا نعنى هنا بالمظاهر البارزة وحدها . وقد تكون هناك كذلك ، فترة انتعاش جزئية تقع فى منتصف عصر الاضطرابات .

ولو سمحنا بإشارة واحدة للدلالة على الانتعاش خلال عصر الاضطرابات ، وبإشارة واحدة للدلالة على الانتكاس خلال عصر الدولة العالمية ، لحصلنا على الصيغة التالية : كسرة — نهضة — كسرة — نهضة — كسرة — نهضة — كسرة . وهى صيغة قد نصفها بأنها ثلاث « دقات » من إيقاعنا :

كسرة — نهضة . ولا يوجد هنا بالطبع تأثير خاص فى عدد « ثلاث دقات ونصف دقة » وقد تُبدى حالة معينة من التحلل اثنتين ونصف ضربة أو أربع ونصف أو خمس ونصف ، من غير أن تقصّر فى المواءمة فى المسائل الأساسية المتصلة بالإيقاع العام لعملية التحلل . ومع ذلك ، يبدو فى حقيقة الأمر ، أن ثلاث ضربات ونصف ، هى النمط الذى يُلائم تواريخ عدد من المجتمعات المتحللة .

وستمر سراعا باستعراض طائفة منها على سبيل الإيضاح :

١ — يتيسر تعيين تاريخ انهيار المجتمع الهلينى بدقّة غريبة ، فى عام ٤٣١ ق . م ، وتحديد ٣١ ق . م ، على أنه عام تولى أغسطس تشييد الدولة العالمية الهلينية ، أى بعد انقضاء أربعمائة سنة على انهيار ذلك المجتمع .

فهل فى مكنتنا تمييز حركتى النهضة والكسرة فى مكان يقع بين بداية ونهاية هذه القرون الأربعة ؟

فى وسعنا ذلك بلا ريب . فإن إحدى علاماته ، مبدأ الوفاق الذى بشّر به تيموليون Timoleon فى سيراقوز ، وأذاعه الإسكندر الأكبر فى مجال أوسع كثيرا ، وكلاهما قد ظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد . وكانت العلامة الثانية ، فكرة « العالمية » أو « المجتمع الدولى » التى روّج لها الفيلسوفان زينون وابيكتوتوس وتلامذتهما . وكانت العلامة الثالثة نتاج تجارب دستورية : الإمبراطورية السلوقية والاتحاد الآخى والاتحاد الآيتولى والجمهورية الرومانية — كانت جميعها محاولات التسامى عن مبدأ سيادة المدينة التقليدى .

وفى المكنة إيراد علامات اخرى . لكن يكفى ما تقدّم لإضفاء شىء من المادية على ظاهرة النهضة التصورية ، وتعيين موقع تقريبى لها فى الوقت المناسب . لقد كانت نهضة أصابها الإخفاق ، لسبب يرد بصفة خاصة إلى أن الوحدات السياسية الموسّعة — وإن كانت قد تسامت بنجاح على حدود

المدينة ــ قد برهنت على تعصبها وعدم ميلها للتعاون ، فى علاقاتها مع بعضها بعضا ؛ مثلما كانت الحال عليه بين المدن اليونانية وبعضها بعضا خلال القرن الخامس ، وقتما افتتحت مرحلة الانهيار الهلينى بخوضها غمار الحرب الأثينية البلوبونيزية : ولقد تؤرخ هــذه الكسرة الثانية أو (ويعنى نفس الشيء) فشل النهضة الثانية ، ببداية الحرب الهانيبالية عام ٢١٨ ق . م . ولقد حددنا قبل الآن موقع كسرة ظلت قرنا بالكامل ، تلتها نهضة على مدار تاريخ الإمبراطورية الرومانية .

وهكذا تتبدى لنا الثلاث دقات ونصف دقة .

٢ ــ وإذا ماولينا وجهنا شطر موضوع تحلل المجتمع الصينى سيمكننا التعرّف على لحظة الانهيار ، بالاصطدام المخرّب بين الملكين : تشن وتشو عام ٦٣٤ قبل الميلاد . ونتعرّف على لحظة تشييد الدولة العالمية الصينية بقيام الإمبراطور تسين Ts'in بخلع تسى Ts'i عام ٢٢١ ق . م .

فإن كان هذان التاريخان هما التاريخان الحدّيان لعصر الاضطرابات الصينى ؛ فهل ثمة إشــارة لحركة نهضة وكسرة خلال الفترة المتعارضة ؟

الرد بالإيجاب . ذلك لأن ثمة نهضة محسوسة خلال عصر الاضطرابات الصينى ، شاملة جيل كنفوشيوس (حوالى ٥٥١ ــ ٤٧٩ ق . م) . نهضة كانت بداية عقد مؤتمر فاشل لنزع السلاح عام ٥٤٦ ق . م . يضاف إلى ذلك أننا لو تطلعنا إلى تاريخ الدولة العالمية الصينية ، سنجد كسرة ونهضة ــ قبيحى الصيت خلال فترة الفراغ ؛ إبان السنوات الأولى من القرن الأول المسيحى . ويقع بين الأسرة المالكة التى سبقت أسرة هان فى الحكم ، والأسرة التى تلتها .

وهكذا ؛ نعثر مرة أخرى على دقاتنا الثلاث ونصف . وتقع التواريخ الصينية قبل ما يوازيها من تواريخ هلينية بحوالى المائتى سنة .

٣ – سنسجل نفس الظاهرة فى التاريخ السومرى : ذلك لأن ثمة « دقة » من « النهضة والكبرة » محسوسة بشكل واضح فى سياق عصر الاضطرابات السومرى . فى أنه يميّز أجل حياة الدولة العالمية السومرية ، ضربة مضادة قوامها : نهضـــة وكسرة ؛ وهى دقة لها صبغة التوكيد بشكل غير عادى .

فإذا ما أرّخنا بداية عصر الاضطرابات من سيرة القائد الحربى لوجالزيجسى من أرخ Lugalzaggisi of Erch (حوالى ٢٦٧٧ – ٢٦٥٣ ق . م) وتعادل فى نهايته بقيام أور – أنجور Wr-Engur حوالى ٢٢٩٨ – ٢٢٨١ ق . م) بتشييد الدولة العالمية السومرية ؛ يمكن على الأقل العثور على ظاهرة « للنهضة » متوسطة ، تتجلى فى ارتقاء واضح فى فن بصرى تحقق فى عصر نارامسين Noramisn (حوالى ٢٥٧٢–٢٥١٧ق.م) : وتمتد فترة حياة الإمبراطورية السومرية من تولى أور أنجور العرش حتى وفاة حمورابى (حوالى ١٩٠٥ ق . م) . بيد أن السلام الذى فرضته الإمبراطورية يتحوّل بالبحث ليصبح قشرة رقيقة تغلّف حمأة عريضة من الفوضى . فلقد انهارت بعد جلوس أور أنجور على العرش « إمبراطورية النواحى الأربع » إلى شذرات . وظلت كذلك طوال أكثر من مائتى عام ؛ حتى أعاد حمورابى إقامة دولته العالمية عشية تحللها النهائى :

٤ – يعود إلى الظهور الآن النمط المألوف فى تاريخ تحلل المجتمع الأساسى للمسيحية الأرثوذكسية : فلقد سبق أن تعرّفنا على انهيار هذه الحضارة منذ نشوب الحرب الرومانية البلغارية الكبرى فترة ٩٧٧ – ١٠١٩ ميلادية . كما أنه قد يتيسر تأريخ إعادة إنشاء الإمبراطورية العالمية بصورة نهائية من الغزو العثمانى لمقدونية خلال الفترة ١٣٧١ – ٢ . وفى وسعنا أن نميّز بين هاتين الفترتين من عصر اضطرابات المسيحية الأرثوذكسية ؛ نهضة تزعمها ألكسيوس كومينوس Alexius Commenus (١٠٨١ – ١١١٨

ميلادية) إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية . وهو عصر استمر طوال قرن من الزمان .

أما بالنسبة للإمبراطورية العثمانية التى تلت ذلك العصر ، فقد انهارت تحت صدمة هزيمة الحرب الروسية التركية أعوام ١٧٦٨ — ٧٤ . وعلى حين يشير هذا الانهيار إلى الانهيار الحاسم للنظام العثمانى ؛ تعرض الحوليات العثمانية دليلا واضحاً على وجود كسرة مبكّرة ، قوّمتها نهضة تالية . أما عن الكسرة ، فيمكن تمييزها فى الاضمحلال السريع لنظام رقيق الباديشاه بعد وفاة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٦٦ . وأما النهضة ، فقد بشّرت بها التجربة التالية المتصله بمشاركة الرعايا المسيحيين الأرثوذكس للمسلمين الأحرار — الذين استولوا الآن على زمام السلطة — دون اعتبار قط لضرورة تحوّل هؤلاء الرعايا عن عقيدتهم ثمنا لمنحهم حصة فى حكومة الدولة . ولقد هيأت للإمبراطورية العثمانية هذه الخطوة التى ابتدعها الوزراء من آل كوبرولو ، فسحة للراحة ، طفق عثمانيو الجيل التالى يذكرونها فى حسرة على أنها فترة « ازدهار الخُزامى »[1] :

٥ — ولم تستحق الوفاء بعد — فى تاريخ المجتمع الهندى — نصف الكسرة النهائية . طالما أن القسط الثانى من الدولة العالمية الهندية — وفقا لسيطرة السلطان البريطانى — لما ينته بعد ولما تنجز رسالته[2] .

ومن الناحية الأخرى خلّفت وراءها الدقات الثلاث جميعها المتصلة بالكسرة والنهضة ، سجلا . وتتمثل حركة النهضة الثالثة فى فترة المائة عام من الفوضى ، وتقع بين انهيار السلطان المغولى وإقامة خليفته البريطانى . وبالمثل تتمثل بشكل واضح فاصلة « النهضة » من الضربة الثانية ، تشييد

(١) الخزامى هى زهرة التوليب Tulip (المترجم)

(٢) لقد انتهى عهد الإمبراطورية البريطانية فى الهند بتكوين دولتى الهند وباكستان عام ١٩٤٧ . (المترجم)

السلطان المغولى إبان حكم أكبر (١٥٦٦ – ١٦٠٢) . وليست لمسة الضربة السـالفة الذكر واضحة تماماً ، لكننا إذا ما أشرفنا على تاريخ عصر الاضطرابات الهندى الذى يبدأ فى الجانب الأخير من القرن الثانى الميلادى بنشوب حرب الأخوة بين الدول الهندية الإقليمية ؛ سنلاحظ إبان القرن عشر بعض تفريج ضائقتها بصورة موقوتة ؛ إبّان فترة حكم كل من علاء الدين وفيروز . وحدثت هذه الفترة بين المحن التى ابتلى بها الهند ، الحكام الهنود والغزاة المسلمون خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ والمصائب التى جرّتها على الهند حشود الغزاة المسلمين بما فيهم أسلاف أكبر ذاته ، خلال القرنين الخامس والسادس عشر .

وفى وسعنا إخضاع حضاراتنا الأخرى المتحللة إلى تحليل مشابه فى جميع الأحوال ، حيث نستحوذ على دليل كاف يجعل مثل هذا البحث شيئاً مفيداً . فلقد لا تتوافر جميع عناصر الوقاية الكاملة فى بعض الحالات . ذلك لأن الحضارات التى نحن بصددها ، قد ابتلعتها – وهى حية – حضارة من الحضارات المجاورة لها قبل أن تشق لنفسها طريقاً إلى حمى الموت الطبيعى .

على أننا قد أبرزنا – مع ذلك – دليلا كافيا عن إيقاع المتحلل ؛ بحيث يتأتى تطبيق هذا النمط الايقاعى على تاريخ الحضارة الغربية ؛ ليُلقى ضوءا على سؤال ألقيناه عدة مرات ، ولم نجد له حتى الآن جوابا شافيا . ومدار هذا السؤال فيما إذا كانت الحضارة الغربية تُعانى انهيارا . وإن كان الأمر كذلك ، ما هى المرحلة التى بلغتها فى تحللها حتى الآن .

إن ثمة حقيقتين واضحتى المعالم :

إن الغربيين ، لما يختبروا بعد مسألة إنشاء دولة عالمية . وذلك رغما عن محاولتى ألمانيا اليائستين لإقامتها خلال النصف الأول من القرن الحالى ؛

والمحاولة اليائسة المماثلة التي بذلتها فرنسا النابليونية قبل ذلك بمائة سنة .

وإن ثمة حقيقة لا تقل عن الأولى وضوحا ؛ وهي صُدوف الغربيين عن إنشاء دولة عالمية ؛ لكنهم يطمحون طموحا عميقا أكيدا لإقامة نوع من التنظيم الدولي ينتسب إلى فكرتي « الوفاق الإنساني » أو « الاتفاق »[١] اللتين بشّرا بهما عبثا ، طائفة من الساسة والفلاسفة الهلينيين خلال عصر الاضطرابات الهليني . وسيكفل هذا التنظيم الدولي مزايا الدولة العالمية ويتجنب شرّها . وما شرّ الدولة العالمية ، إلا نتيجة نجاح ضربة قاضية يوجهها عضو مفرد ما يزال على قيد الحياة من جماعة من الدول العسكرية المتنابذة : إن ذلك الشر ، هو عاقبة « الخلاص باستخدام السيف » ، وهي نتيجة إدراكنا أنها ليست من « الخلاص في شيء » .

إن جمّاع ما يتطلع إليه الأوربيون ، قبول يصدر عن شعوب حرة ، لفكرة الإقامة معا في اتحاد . وتنشىء تلك الشعوب — باختيارها — التعديلات وضروب التنسيق البعيدة المدى ، التي بدونها لا يتأتى عمليا تحقيق هذا الهدف المثالي .

وليست ثمة حاجة للتوسع في هذا المبحث الذي غدا تتناوله آلاف من الأبحاث الفنية المعاصرة . وإن حسن الصيت العجيب الذي اكتسبه الرئيس الأمريكي ويلسون في أوربا — وإن لم يكتسبه في بلاده — إبان الأشهر القليلة القصيرة التي سبقت إعلان هدنة نوفمبر سنة ١٩١٨ وتلتها ؛ لتعتبر مقياسا لمطامح العالم الغربي . وغالبا ما كان الرئيس ويلسون يخاطبه بالنثر . أما خير ما وجّه إلى أغسطس من النظم فقد كتبه فرجيل وهوراس . وإن الروح التي بعثت الحياة — سواء أكان نثرا أو شعرا — في هذين الانصبابين من الإيمان : الأمل والشكران ؛ واحدة كما هو واضح .

بيد أن النتيجة مع ذلك قد اختلفت في حالة ويلسون عن حالة

---

(١) الوفاق الإنساني Homonoria والاتفاق Concord . (المترجم)

أغسطس : فلقد وفق أغسطس إلى تزويد عالمه بدولته العالمية ، على حين أخفق ويلسون فى تزويد عالمه بشىء أحسن مما هو فيه :

إن هذا الرجل فى المكان الواطئ يدأب على إضافة واحـــد إلى واحد .

فلا تلبث منه أن تصيب

هذا الرجل فى المكان العالى يرنو إلى المليون

فيقصّر عن إدراك الواحد[١]

وتوحى هذه الاعتبارات والمقارنات بأن الغربيين قد قطعوا بالفعل شوطاً بعيداً فى عصر اضطراباتهم . ولو سألنا أنفسنا عما يعتبر أشد حالات الاضطراب ظهورا وأكثر تفرّدا فى الزمن القريب ، لكانت الإجابة واضحة ؛ تدور حول الصراع العسكرى المهلك القومى الطابع الذى يعزوه — كما سبق أن أشرنا فى جزء مبكر من هذه الدراسة — « الدافع » المشترك للطاقات التى استولدتها قوى الديمقراطية والصناعية التى أطلقت أخيراً من عقالها ؛ وفى وسعنا أن نؤرخ هذه النقمة من اندلاع حروب الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر . بيد أننا عند ما فحصنا هذا الموضوع ، جابهتنا الحقيقية القائلة بأن هـــذه الدورة من الحروب العنيفة لم تكن الأولى من نوعها ؛ بل هى الثانية : إذ تمثلت الدورة التى سبقتها فيما يسمى بالحروب الدينية التى اجتاحت المسيحية الغربية خلال المائة سنة الواقعة بين منتصف القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر ، وألفينا أنه قد تخلل هاتين الدورتين من الحروب العنيفة ، قرن كانت فيه الحرب معتدلة نسبيا — كانت لهو الملوك — لم يؤججها التعصب سواء المتصل بالطائفية الدينية أو الديمقراطية الوطنية . ومن ثم نجد فى التاريخ

---

(١) Browning, R. : A Grammerian's Funeral

الغربي كذلك ، ما قد توصلنا إلى التسليم بأنه نمط فريد لعصر اضطرابات : كسرة ثانية .

وفى وسعنا أن نُدرك ، لماذا كانت نهضة القرن الثامن عشر — فى سياق عصر اضطراباتنا — نهضة عقيمة فانية يعزى سببها إلى أن التسامح الذى حققه عصر « الاستنارة » لم يكن تسامحا قائماً على الفضائل المسيحية المتصلة بالعقيدة والأمل والإحسان ؛ لكنه قام على السقام المفيستوفيلية[1] المتصلة باعتناق مبادئ ؛ نبذ الأساطير — التصور الساذج — الاستخفاف . فلن يكن ذلك التسامح والحالة هذه مأثرة تحققت بفضل العمل الشاق فى ميدان الحماس الدينى ؛ لكنها نتيجة فرعية للحط من شأن الدين .

فهل فى مكنتنا جميعاً أن نتكهن بنتيجة الدورة الثانية من الحروب وهى أشد عنفا من سابقتها ، دورة يتردى فيها العالم الغربى بفعل القصور الروحى الذى اتسمت به استنارة القرن الثامن عشر ؟

إن كان لنا أن نتطلّع إلى معرفة مستقبل الحضارة الغربية ، فعسانا نبدأ بتذكير أنفسنا بأنه وإن كانت جميع الحضارات الأخرى التى نُلمّ بتاريخها ، هى إما ميتة أو أنها تموت . إلا أن الحضارة ليست مثل الكائن الحى مقدّراً له أن يموت بفعل مصير جامد ، بعد عبوره منحنى الحياة المحتوم . ويصدق هذا الرأى ، حتى وإن سلكت الحضارات الأخرى التى ظهرت فى الوجود هذا السبيل إلى أبعد مدى . إذ لا يُعرف قانون للحتمية التاريخية يضطرنا إلى القفز بعيدا عن لهيب عصر اضطراباتنا التى لا تحتمل ، متجهين صوب النار الخافتة الثابتة لدولة عالمية . حيث يهبط بنا الحال على

---

(١) المفيستولية : نسبة إلى مفيستوفيليس الشيطان المذكور فى رواية فاوست لجوته . وقد أغرى بطل روايته بالتنكر لمبادئه والخضوع لمشيئته فى سبيل الاستمتاع باللذات المادية الفانية . (المترجم)

مر الزمن إلى التراب والرماد . وفى نفس الوقت ، تبدو مثل هذه السوابق التى تستخلص من تواريخ الحضارات الأخرى ومن سياق حياة الطبيعة ، رهيبة المنظر ، فى ظل ضياء موقفنا الحالى المشئوم .

لقد كتب هذا الفصل بالذات ، عشية نشوب حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ العامة ، لقراء عاشوا بالفعل فى غمار حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ العامة ؛ واعيد صف حروفه لإعادة طبعه غداة انتهاء ثانية هاتين الحربين العالميتين ــ أى فى نطاق فترة عمر واحد ــ بفعل اختراع قنبلة واستخدامها ، وجه فيها الإنسان طاقة ذرية أمكنه إطلاقها من عقالها أخيراً ، لتدمير الحياة البشرية وأعمالها ، على نطاق لم يعرف من قبل . إن تتابع الكوارث بسرعة فائقة ، يُوحى حتما بشك قائم حول مستقبلنا . ويُنذر هذا الشك بتقويض إيماننا وأملنا ــ فى الساعة الحاسمة التى تتطلب بذل أقصى مجهود للاحتفاظ بهذه الطاقات الروحية . إن هنا تحديا لن نستطيع اجتنابه ، ويتوقف مصيرنا على استجابتنا .

« لقد حلمت فتصورت أننى أرى إنسانا يرتدى الأسمال . يقف بعيدا فى مكان ما ، ووجهه بمنأى عن منزله الخاص ، يمسك كتابا فى يده ، ويقع على ظهره عبء ثقيل . تطلّعت إليه ورأيته يفتح الكتاب ويقرأ فى ذلك الشيء . وكلما أخذ فى القراءة ، ينتحب ويرتعش . ولما إن عجز عن استيعاب ما يقرأ ، انفجر يصيح مولولا : ما الذى سأفعله ؟ » ؛

لم يكن كريستيان فى قصة جون بونيان[1] فى حالة القنوط الشديد من غير سبب .

« لقد نما إليه بالتأكيد (قال هو) أن مدينتنا هذه ستحرق بنيران

---

(١) جون بونيان Gohn Bunyan (١٦٢٨ – ٨٨) مؤلف قصة « ارتقاء الحاج » ولد بمقاطعة بدفورد بانجلترا . وقد نشرت قصته عام ١٦٦٧ . وقد صور فيها مالقيه بطل روايته الذى دعاه بـ « كريستيان » فى حجه من مدينة الدمار إلى المدينة السماوية .

(المترجم)

من السماء ، وأن تدميرا هائلا سيحيق بى وبك يا زوجتى وبكم يا أولادى الأعزاء ، إلا إن وجد سبيل ما للفرار ، سبيل قد ننقذ بفضله » . وهذا ما لا أتبينه بعد .

فما هى الاستجابة التى يرى كريستيان[١] القيام بها فى وجه هذا التحدى ؟

هل يعتزم التلفت هنا وهناك كما لو أنه سيفر . إلا أنه يقف ساكنا ؛ إذ يتعذر عليه معرفة أى طريق يسلك ؟

أو أنه سيبدأ فى الفرار صائحاً أثناء فراره « الحياة ، الحياة ، الحياة الخالدة » وعيناه معلقتان على ضوء يلمع ، وقدماه مقيدتان بباب بوابة بعيدة ؟

إن كانت الإجابة على هذا السؤال لا تعتمد إلا على كريستيان نفسه ، فإن معرفتنا بما جبلت عليه الطبيعة البشرية من تجانس ، قد يدعونا إلى التنبؤ بأن « الموت فى مدينة الدمار »[٢] هو المصير الوشيك لكريستيان . لكن قد قيل لنا فى الصورة التقليدية للأسطورة ، أن بطل القصة البشرى ، لم يُترك كليّة إلى وسائله المحدودة فى الساعة الحاسمة . فإنه — حسبما أورده جون بونيان — أنقذ كريستيان بفضل ملاقاته أحد الرُّسل . ونظرا لاستحالة افتراض أن طبيعة الله أقل من طبيعة الإنسان رسوخاً ؛ فعسانا — بل يجب علينا — أن نتضرع إلى الله الذى منح مجتمعنا الخلاص ذات مرة ، أن لا يرفض لنا رجاء . إن ناشدناه منحنا إياه بروح الخضوع وبقلب منيب . . .

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بـ « كريستيان » هنا ، المسيحى الغربى . (المترجم)

(٢) يشبه الأستاذ المؤلف هنا موقف الإنسان المسيحى الغربى بموقف كريستيان بطل رواية بونيان ، فى مدينة الدمار (أى الدنيا الفانية) . (المترجم)

الفصل الثانى والعشرون

توحيد المقاييس خلال مرحلة التحلل

ها نحن الآن قد وصلنا إلى ختام بحثنا فى عملية تحلل الحضارات ؛ وقبل أن نخلّف الموضوع ، ثمة موضوع آخر جدير بالبحث ؛

فلقد استبان لنا من أبحاثنا أن ثمة اتجاها صوب التجانس وتوحيد المقاييس ؛ وهو اتجاه يعتبر بديلا عن الاتجاه صوب التمايز والتنوع . كما أنه نقيضا له ؛ وهذا الاتجاه هو ما ألفيناه ، العلامة المميزة لمرحلة ارتقاء الحضارات ؛

وإن انشقاق المجتمع المتحلل انشقاقا منتظما إلى ثلاث طبقات اجتماعية منقسمة انقساما حادا ، وما تحققه كل طبقة على حدة من أعمال الإبداع المتسمة بالتجانس ؛ ليعتبر ظاهرة للتجانس أعظم فى دلالتها كثيرا .

ومصداقا لذلك :

شاهدنا أقليات مسيطرة تُبرز — فى صورة متجانسة — مذاهب فلسفية ، وتنتج دولا عالمية .

كما شاهدنا بروليتاريات داخلية تستكشف فى صورة متجانسة ، أديانا عليا ، ترنو إلى تضمين نفسها فى أديان عالمية .

ورأينا بروليتاريات خارجية تحشد — بصورة متجانسة — عصابات حربية تجد منفسا لها فى « عصور البطولة » .

وحقا فإن التجانس الذى بوساطته استولدت هذه النظم المتعددة ، ليبلغ تأثيره درجة من القوة ، بحيث يمكّننا من عرض هذا المشهد من عملية التحلل فى

شكله المبسط الذى يتبدى فى ختام هذا الفصل . بل وأكثر من ذلك لفتة للنظر ، تجانس طرائق السلوك والشعور والحياة التى تبديها دراسة الانشقاق فى النفس :

وإن هذا التعارض بين تنوع الارتقاء وتجانس التحلل ، هو ما يجب أن نتوقعه من وراء موازنة المطابقات المجرّدة ، كالمثل الذى يضربه نسيج بنيلوب

فإن زوجة عوليس المخلصة [١] ، كانت قد وعدت خطّابها اللحوحين بقبول أحدهم زوجاً عقب انتهائها من نسيج كفن تعدّه « لايرتيس العجوز Laertes » . فدأبت على أن تنسج على منسجها فى أوقات النهار ، يوما بعد آخر ، ثم تنفق ساعات الليل – ليلة بعد ليلة – فى نقض عمل يومها الأخير . وعند ما تنتهى النساجة[٢] من وضع سداة النسيج وتأخذ كل صباح فى نسج اللحمة[٣] ، يُصبح تحت إمرتها يومياً مجال لاحد له لاختيار أنماط النسيج المتعددة . بيد أن عملها الليلى كان متجانسا رتيبا ؛ لأنها عند ما تأخذ فى نقض اللحمة ، لايتغير العمل مهما تغير النمط ؛ لأنه مجرد نقض لعملها . ومهما يكن من أمر الحركات المستخدمة طوال النهار ، لم يكن عمل الليل ليتعدى حركة نقض الخطوط .

وإن بنيلوب جديرة بالرثاء بكل تأكيد ، بسبب عملها الرتيب المحتوم . ولو كانت بلادة عملها تتجه إلى غير مقصد ، لكان الكدح مما لا يمكن احتماله ؛ إلا أنّ ما كان يلهمها ، تمثل فى أغنية كامنة فى نفسها هى : هل سأعود للاجتماع به ؟ : فلقد كانت تعيش وتشتغل بالأمل . ولم يخب رجاؤها : فإن بطل القصة ، قد عاد ليجد البطلة ما تزال وفية له . وتنتهى قصة الأوديسية باجتماعهما .

---

(١) هو فى الأساطير اليونانية ملك أيتاكا Ithaca ووالد عوليس زوج بنيلوب . (المترجم)

(٢) أى بنيلوب زوجة عوليس . (المترجم)

(٣) اللحمة فى النسيج . (المترجم)

وبتحولنا إلى السطح المادى ، نجد أنه إذا كانت بنيلوب تستل خيوطها عبثا ؛ فما هو القول بالنسبة للنسّاج الأعظم الذى يُعتبر عمله موضوع دراستنا ، والذى وجدت أنشودته تعبيرا بشريا فى شعر جوته ؟

فى تيارات الحياة ، فى أعاصير الحركة
فى حماس الفعل ، فى النار ، فى العاصفة
هنا وهناك
فوق وتحت
أجوب الآفاق وأهيم .
الميلاد والقبر
حيث الموجة المضطربة
تموج دواما
تحت وفوق
خصامها المهتاج
يتمائل ويزوغ (١)
تلك تعبيرات الحياة
وعند أزيز منسج الزمن غير الرهيب
أضع الرداء الحى للإله(٢) .

إن عمل « الروح الكامنة فى الأرض » — إذ تنسج وتستل خيوطها على « منسج الزمان » — هو تاريخ الإنسان الدنيوى . تاريخ يتبدّى فى أصول المجتمعات البشرية، وارتقاءاتها، وتحللاتها . وفى وسعنا أن نستمع فى حمأة الحياة

---

(١) يزوغ : يتحرك يمينا ويسارا صعداً ونزولا . (المترجم)
(٢) الجزء الثانى من فاوست لجوته . أبيات ٥٠١ — ٩ .

وعاصفة الفعل ، بأسرهما ؛ إلى ضربة إيقاع أساسى ، أدركنا تغيراتها تحت أسماء : التحدى والاستجابة ، الانسحاب والعودة ، الكسرة والنهضة ، التبنى وثبوت النسب ، الانشقاق ورجعة المولد .

ويعتبر هذا الإيقاع الأساسى ، الضربة المتعاقبة للين واليانج[١] . وقد ميزنا – بفضل استماعنا إليها – أنه وإن كان المقطع قد يُرد عليه بمقطع مضاد ، ويرد على الانتصار بالهزيمة ، والخلق بالدمار ، والميلاد بالموت ؛ إلا أن الحركة التى تنبعث عن هذا الإيقاع ، لا تتضمن تراوح معركة غير حاسمة ، أو أنها دورة « طاحونة السعى »[٢] .

ولا يعتبر دوران العجلة الأبدى تكراراً لا طائل تحته ؛ إن كانت تحمل فى كل لفة ، العربة الأكثر قربا إلى غايتها . وإذا كان رُجعى الميلاد يعنى ميلاد شىء جديد وليس إعادة الحياة لشىء ولد ومات من قبل ، فإن عجلة الوجود ليست آلة شيطانية تبتلى الناس بتعذيب سرمدى مثل عجلة أكسيون[٣] .

وعلى أساس هذا الإيضاح ؛ فإن الموسيقى التى تصدر عن ضربة إيقاع الين واليانج ، هى أنشودة الخلق . ولن يضلنا حسبان أنفسنا مخطئين . لأننا إذ نُلقى بسمعنا ، فى وسعنا تمييز نغمة الخلق تتعاقب مع نغمة التدمير . وإن هذه الثنائية لهى صك الإصالة ، وهى أبعد من أن تدين الأنشودة بالتزوير الشيطانى . فإذا ما أرهفنا بسمعنا جيداً ، سنستبين أنه

---

(١) الين واليانج : أصطلاحان صينيان يرمز بهما المؤلف – كما سبق القول – إلى عنصرى السكون والحركة فى الكون . (المترجم)

(٢) طاحونة السعى : أداة يديرها المسجونون عقابا لهم . (المترجم)

(٣) كان أكسيون فى الأساطير اليونانية ملكا على تساليا ، وكرهه الناس لقتله زوج أمه فأشفق عليه زيوس – الإله الأعظم فى الأساطير اليونانية – فحمله إلى جبال الأوليمب – مقر الآلهة . آلا أن أكسيون خان ضيافة زيوس فأغوى زوجته هيرا ، فجازاه زيوس بإيداعه الجحيم مربوطا على عجلة نارية تدور إلى الأبد . (المترجم)

عندما تصطدم النغمتان ، لن ينتج عنهما تنافر ؛ بل يصدر عنهما توافق ؛ إذ لن يتأتى للخلق صيرورته عملا خلاّقا ، إلا أن استوعب بين طياته جميع الأشياء ، بما فى ذلك نقيضه نفسه .

لكن ماذا يقال عن الرداء الحسى الذى تنسجه الروح الكامنة فى الأرض ؟

هل يصّعد إلى السماء بالسرعة التى يحاك بها ، أو هل فى مكنتنا على أية حال أن نختلس ونحن هنا على الأرض ، لمحات من قطع نسيجه الأثيرى ؟

ما الذى نظنه عن تلك الأنسجة التى ترقد تحت قدم المنسج وقتما يكون النسّاج منهمكا فى فكّ النسيج ؟

لقد وجدنا عند بحث موضوع التحلل الحضارى ، أن العرض الروائى قد ينأى عن المادية ، إلا أنه لا يزول إلا بعد أن يخلّف وراءه حطاماً . وبالأحرى ؛ عندما تتحول الحضارات إلى مرحلة التحلل ، تخلّف وراءها راسباً من الدول العالمية والأديان العالمية وعصابات الحرب البربرية

فما الذى نفعله بهذه الأشياء ؟

هل هى مجرد فضلات ، أو هل ستبرهن هذه الأطلال — إن قمنا بتنسيقها — على أنها طرائف مستحدثة من فن النسّاج ، تولّى نسجها بخفة يد غير ملحوظة — على آلة أكثر شفافية من المنسج الهادر الذى كان يستأثر — بالتفاته ؟

فإذا اتجهنا بأفكارنا ، بهذا السؤال الجديد فى مخيلتنا ، القهقرى عبر نتائج أبحاثنا السابقة ؛ سنجد مبررا للاعتقاد بأن موضوعات الدراسة هذه ؛ هى شيء ما ، أكثر من مجرد نفايات التحلل الاجتماعى . ذلك لأننا قد لاقيناها أول مرة شواهد للتبنّى وثبوت النسب ؛ وهذه هى

علاقة بين حضارة وأخرى : وواضح أنه لا يتأتى تفسير هذه النظم الثلاثة تفسيراً تاما ، إن اقتصر الأمر على استخدام مصطلحات تاريخ حضارة بمفردها ، إذ يتضمن وجودها ، توافر علاقة ما ، بين حضارة وأخرى : ومن ثم تقتضى دراستها ، اعتبار أن لكل ذاتية مستقلة .

ولكن إلى أى مدى يذهب بها استقلالها هذا ؟

وجدنا أثناء معالجتنا موضوع الدول العالمية ، أن السلام الذى توفّره سريع الزوال ، مثلما هو مهيب : ووجدنا مرة أخرى أثناء بحثنا موضوع عصابات الحرب البربرية أن هذه الدويدات فى جيفة حضارة ميتة ، لايمكن أن تأمل العيش زمنا أطول مما يستغرقه تعفّن الجثة إلى أن تنحلل إلى عناصرها النقية : بيد أنه وإن أدرك الموت قبل الأوان عصابات الحرب البربرية – مثل ميتة آشيل – إلا أن حياة الهمجى القصيرة ، تخلّف وراءها على الأقل ، صدى فى شعر الملاحم الذى يشيد بذكر عصر بطولة :

فما هو مصير الدين العالمى الذى ينشد كل دين أعلى ، تضمين نفسه فيه ؟

لسنا فى الوقت الحاضر ، فى مركز يتيح الإجابة بسهولة على سؤالنا الجديد . وليس فى وسعنا كذلك تجاهله . إذ يحمل بين ثناياه المفتاح إلى مغزى عمل النسّاج الأعظم :

إن دراستنا لما تصل نهايتها بعد ، وإنْ كنا قد بلغنا حافّة آخر ميادين بحثنا :

سياق الاستدلال



الفصل السادس عشر — إخفاق تقرير المصير

١ ـ آلية المحاكاة :

المحاكاة ، هى الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بفضلها الأغلبية العاطلة عن الإبداع ، اقتفاء أثر الزعماء المبدعين . والمحاكاة نوع من « التدريب » ، أى تقليد آلى وسطحى للأصالة الملهمة . ويجر هذا « الطريق الأقصر » إلى الارتقاء ، الذى لا مناص من سلوكه ، إلى أخطار واضحة : إذ قد يصبح القادة متأثرين بالروح الآلية التى تأصلت فى رفاقهم . فتتولد عن ذلك حضارة متعطلة . أو قد يستبدل القادة — متبرمين — مزمار الزمار ذى الثوب المخطط الذى يستخدمه فى الاستهواء ، بسوط القسر والضغط .

هنا ، تتطور الأقلية المبدعة إلى أقلية « مسيطرة » ، ويغدو « المريدون » « بروليتاريا » نافرة مبعدة .

وعند ما يقع هذا ، يلج المجتمع طريقا يقوده إلى التحلل . وعندئذ يفقد القدرة على تقرير المصير .

وتفسر الفقرات التالية الطرائق التى يتم بها ذلك .

٢ — نبيذ جديد فى أوعية قديمة :

يجب — من الناحية المثالية — على كل طاقة اجتماعية جديدة تُطلقها الأقليات المبدعة ، أن توجد نظما جديدة تستطيع بوساطتها أن تؤدى رسالتها . ولكنها تُنجز عملها فى الواقع ، باستخدام النظم القديمة فى غير ما خصصت له ، أكثر مما تنجزه باستخدام النظم الجديدة . بيد أنه كثيرا ما تدلّ النظم القديمة على عدم صلاحيتها وعلى عنادها . ويستتبع ذلك ظهور إحدى نتيجتين :

إما تفكك النظم ، أى اندلاع ثورة ؛ وإما بقاء النظم ، وما يستتبع ذلك من انحراف القوى الجديدة التى عن طريقها تنجز عملها .

وقد تُعرّف الثورة بأنها فعل بطيء للمحاكاة يتحوّل بفعل ذلك إلى انفجار . فهي إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق نزعة المحاكاة . ويستمر الارتقاء ؛ إذا حدث وتحقق الاتفاق بين النظم والقوى . وإن لم يتم الاتفاق وحدثت الثورة ، يُصبح الارتقاء محفوفاً بالخطر . وإن تولّد عنه الطابع المتسم بالعنف والشذوذ ، تسهل ملاحظة وجود الانهيار .

ويُلحق المؤلف آراءه السالفة الذكر ، بسلسلة من أمثلة عن ضغط القوى الجديدة على النظم القديمة . وتتألف المجموعة الأولى من ضغوط القوتين الجديدتين الكبيرتين اللتين تسريان فى المجتمع الغربى الحديث .

ضغط الصناعة (أى الاتجاه صوب الصناعة الآلية) على الحرب ، وبالأحرى ازدياد حدّة الحرب منذ الثورة الفرنسية . وضغط الديمقراطية والصناعية على نظام الدولة الإقليمية ، ويوضح ذلك استفحال العصبية القومية ، وإخفاق حركة التجارة الحرّة ..وضغط الصناعة على نظام الملكية الخاصة ، ويوضحه قيام الرأسمالية والشيوعية . وضغظ الديمقراطية على التربية العلمية ، ويصوّره قيام الصحافة الصفراء والديكتاتوريات الفاشية . وضغط الأهليّة الإيطالية على حكومات البلاد الواقعة وراء جبال الألب ، ويوضحه (فيما خلا انجلترا) انبعاث ملكيات استبدادية . وضغط الثورة الصولونية على المدن الهلينية ، ويوضّحه ظواهر ؛ الطغيان والحرب بين الطبقات وبسط السلطة على الغير . وضغط العصبية الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية ؛ وتوضحه الثورة البروتستانية وحق الملوك الإلهى وحجب الروح الوطنية للمسيحية . وضغط الشعور بالوحدة على الدين ، ويوضحه انبعاث التعصّب الدينى والاضطهاد . وضغط على النظام الطبقى ، ويوضحه ماظهر فى الحضارة الهندية . وضغط الحضارة على مبدأ تقسيم العمل ؛ ويوضحه تفشّى النزعة الباطنية فى الزعماء الذين يُصبحون « إيثاريين » ، وتصيبهم الرخاوة ، وتصبح جماهيرهم مسترخية بالمثل . ويصوّر المؤلف التأثير الأخير

من حالات الأقليات التى أصابتها النقمة ؛ مثال اليهود . كما تصوّرها انحرافات الروح الرياضية الحديثة .

وينتهى المؤلف أخيرا إلى بحث ضغط الحضارة على نزعة المحاكاة . وهذا ما يبدو فى توقّف المجتمعات البدائية عن التوجّه صوب تقاليد القبيلة ، وانصرافها إلى محاكاة الروّاد . وغالبا ما لا يكون الروّاد المختارين للمحاكاة ، زعماء مبدعين ، ولكنْ مستغلّين تجاريين ، أو قادة جماهير .

٣ ـ آفة الإبداع : عبادة الذات الفانية .

يُظهر التاريخ ؛ أن الجماعة التى تستجيب بنجاح إلى تحدٍ واحد ، نادراً ما تستجيب بنجاح إلى التحدّى التالى .

ويعرض المؤلف أمثلة مختلفة ، يظهر فيها اتفاق هذه الظاهرة مع قضايا أساسية مسلّم بها فى مُعطيات اليونانية والمصرية على السواء .

فإن أولئك الذين يُقيّض لهم التوفيق ذات مرة ، نزّاعون فى الفرصة التالية إلى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ومصداقا لذلك ؛ نجد اليهود بعد ما استجابوا للتحدّيات الواردة فى العهد القديم ، ينهزمون أمام التحدّى الذى أبرزه العهد الجديد . ونجد أثينا أيام بركليس ؛ تتضاءل إلى أثينا إبان عصر القديس بولس . ونجد فى عصر الإحياء أن المراكز التى استجابت للنهضة ؛ تدلّ على قصورها ؛ فكان أن استأثرت بالزعامة بيد مونت التى لم يكن لها دور فى أمجاد إيطاليا القديمة .

ولقد كانت كارولينا الجنوبية وفرجينيا ، ولايتين رئيسيتين للولايات المتحدة الأمريكية إبان الربعين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، لكنهما أخفقتا بعد الحرب الأهلية ، فى استعادة مركزهما ، بالمقارنة بكارولينا الشمالية ، التى كانت مغمورة من قبل .

٤ ــ آفة الابداع : عبادة النظام الفانى :

دلت عبادة نظام المدينة فى المراحل الأخيرة للتاريخ الهلينى ، على أنه شرك تردّى فيه اليونانيون ، بينما نجا منه الرومان .

ولقد تسبب قيام « شبح » للإمبراطورية الرومانية ، فى انهيار مجتمع المسيحية الأرثوذكسية .

ويسوق المؤلف كذلك تفسيرات للتأثيرات المعوّقة لعبادة الملوك ، والمجالس النيابية والطوائف الحاكمة ، سواء أكانت بيروقراطية أو نظام قساوسة .

٥ ــ آفة الابداع : عبادة أسلوب فنى :

تُبدى التفسيرات الخاصة بالتطور البيوليوجى أن « الأسلوب الفنى » الكامل أو التكييف المكتمل لبيئة ما ، غالباً ما يدل على أنه طريق تطورى مغلق ، وأن الكائنات الأكثر « تجريبية » تبرهن على طاقتها الحيوية . مثال ذلك أن البرمائيات ، إذا ما قورنت بالأسماك تعتبر أنجح ، وأن أسلاف الإنسان الشبيهة بالفأر إذا ما قورنت بمعاصريها ، الزواحف الهائلة ، تعتبر هى أيضاً أنجح .

ونجد فى المجال الصناعى ، أن نجاح جماعة معيّنة فى المراحل الأولى لأسلوب فنى جديد (مثال ذلك اختراع الدولاب البخارى) ، يجعل تلك الجماعة أبطأ من غيرها فى استخدام المراوح اللولبية .

ويظهر استعراض قصير لتاريخ فن الحرب من أيام داود وجالوت حتى الوقت الحاضر ، أن المخترعين والمنتفعين من ابتكار واحد ، يشرعون فى كل مرحلة فى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ويدعون الابتكار التالى لأعدائهم .

٦ ــ انتحارية النزعة الحربية :

قدّمت الفقرات الثلاثة السابقة ، تفسيرات لعبارة « استلقاء المرء

على مجاذيفه ، التى تعتبر الطريقة السلبية للاستسلام إلى آفة الابداع . وإننا ننتقل الآن إلى الشكل الإيجابى للانحراف الذى عبّرت عنه صيغة يونانية تعنى : التخمة ، السلوك الأحمق ، الدمار . وتعتبر النزعة الحربية مثالا واضحاً . ولم يكن السبب الذى دعا الأشوريين إلى استجلاب الخراب على أنفسهم ، كونهم — مثل المتصربين الذين استعرضناهم فى نهاية الفصل السابق — قد تركوا حرابهم يعلوها الصدأ . فإنهم من الوجهة العسكرية كانوا دائماً أكفاء مبرزين فى فنهم : إن الدمار قد حل بهم ، لأن عدوانهم قد استنفد طاقتهم ؛ كما أن عدوانهم جعل جيرانهم لا يطيقون احتمالهم . ويعتبر الإشوريون مثالا للمقاطعة الحربية على الحدود التى توجّه سلاحها ضد المقاطعات الداخلية لمجتمعها .

ويبحث المؤلف كذلك ، الحالات المماثلة للفرنجة الاسراسيين ولتيمورلنك . كما يذكر غير ذلك من الأمثلة .

٧ — سكرة النصر :

يوضح المؤلف فى المجال الغير الحربى ، مبحثا مشابها لذلك المبحث الوارد فى الفقرة السابقة ؛ بإيراد مثال بابوية هيلدبراند . وهى نظام فشل بعدما رفع مركزه ومركز المسيحية من الإعماق إلى القمم . ويعزى فشله إلى انتشائه بنجاحه الذاتى . فكان إن حاول استخدام الأسلحة السياسية فى صورة غير شرعية جريا وراء غايات جاوزت الحد . ويبحث المؤلف من هذه الزاوية الخلاف الذى ثار حول تدخل الأمراء فى إقامة رجال الدين فى مناصبهم .

الكتاب الخامس

تحلل الحضارات

الفصل السابع عشر — طبيعة التحلل

١ — عرض عام :

هل التحلل ضرورى ، ونتيجة للانهيار لامحيص عنها ؟

يظهر التاريخ المصرى وتاريخ الشرق الأقصى ، أن ثمة بديلا أطلقنا عليه اسم : التحجّر . وإلى التحجّر يعزى مآلت إليه الحضارة الهلينية ، وقد يكون التحجّر عُقبى الحضارة الغربية .

إن ميزان التحلل البارز ، هوانقسام الجسم الاجتماعى إلى كسور ثلاثة :

أقلية مسيطرة .

وبروليتاريا داخلية .

وبروليتاريا خارجية .

وهنا يلخّص المؤلف ما سبق قوله بشأن هذه الكسور ، ويشير إلى منهاج الفصول التالية .

٢ — الانشقاق ورجعى الميلاد :

تجهر فلسفة كارل ماركس المبهمة ، بأنه سيتلو الحرب الطبقية — بعد ديكتاتورية البروليتاريا — نظام للمجتمع جديد .

وبصرف النظر عن التطبيق الخاص لفكرة كارل ماركس ؛ فإن هذا هو ما يحدث فعلا وقتما يتردّى مجتمع ، فى انشقاق سبقت لنا ملاحظته ذى ثلاثة مظاهر . وينجز كل كسر عملا إبداعيا متميزا :

تنجز الأقلية المسيطرة ، دولة عالمية .

وتحقق البروليتاريا الداخلية ، عقيدة دينية عالمية .

وتُنشئ البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية .

الفصل الثامن عشر — الانشقاق فى الجسم الاجتماعى

١ — الأقليات المسيطرة :

على الرغم من أن الحربيين والمستغلين ، هم — كما هو معروف — من بين الأنواع المميزة فى الأقليات المسيطرة ؛ فإن ثمة كذلك أنواعا أخرى أكثر نبلا : المشترعون ورجال الإدارة ، وهم يذودون عن الدولة العالمية . وثمة الباحثون الفلاسفة الذين يهبون المجتمعات إبان اضمحلالها ، المذاهب الفلسفية المميزة .

وتطالعنا فى هذا الصدد ؛ السلسلة الطويلة من الفلاسفة الهلينيين من سقراط إلى أفلوطين .

ويورد المؤلف أمثلة من مختلف الحضارات الأخرى .

٢ — البروليتاريات الداخلية :

يبدى تاريخ المجتمع الهلينى ، وجود بروليتاريا داخلية تكوّنت من ثلاثة مصادر :

مواطنو الدول الهلينية الذين حرمتهم من ميراثهم ؛ الفورات السياسية والاقتصادية ، وجلبت عليهم الخراب .

والشعوب التى أخضعت

وضحايا تجارة الرق

ويشترك جميعهم فى كونهم بروليتاريين من ناحية شعورهم بأنهم « فى » مجتمع ، لكنهم ليسوا من هذا المجتمع . وكان العنف هو أول ردود الفعل التى أظهروها .

لكن تلا ذلك انبعاث ردود فعل « وديعة » توجّت بكشف « العقائد الدينية العليا » مثل المسيحية . ولقد انبعثت المسيحية – مثلما انبعثت الميثرية وغيرها من العقائد المنافسة لها فى العالم الهلينى – فى مجتمع أو آخر من المجتمعات « المتحضرة » الأخرى التى أخضعتها الجيوش الهلينية .

ثم يبحث المؤلف البروليتاريات الداخلية للمجتمعات الأخرى ، ويلاحظ ظواهر مشابهة بمعنى . تشابه أصول اليهودية والزرادشتية فى البروليتاريات الداخلية للمجتمع البابلى ، مع أصول المسيحية والميثرية فى المجتمع الهلينى ؛ وإن اختلف فيما بعد تطور تلك العقائد الدينية لأسباب يذكرها المؤلف .

ولقد كان تحوّل الفلسفة البوذية البدائية إلى العقيدة الماهايانية ، مما زوّد البروليتاريا الداخلية الصينية بدين « أعلى » .

٣ – البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى :

يتيسر إيراد شواهد وفيرة عن وجود بروليتاريا داخلية فى المجتمع الغربى يدل عليها – إلى جانب أشياء أخرى – وجود طبقة مثقفة عُبّئت من البروليتاريا ، وأصبحت وسيطا للأقلية المسيطرة .

ويناقش المؤلف السمات الأساسية للطبقة المثقفة .

على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربى الحديث ، مابرحت – مع ذلك – تُنبى عن عقم ملحوظ بالنسبة لانجاب « أديان عليا » جديدة . ويفسّر سبب ذلك ، بردّه إلى الحيوية المستمرة للكنيسة المسيحية التى خرجت منها الحضارة المسيحية الغربية .

٤ – البروليتاريات الخارجية :

ما دامت الحضارة فى طور ارتقائها ، يتألّق تأثيرها الثقافى صوب جيرانها البدائيين ، وتنفذ إلى مسافات شاسعة . ويغدو هؤلاء الجيران

البدائيون جزءا من « الأغلبية العاطلة عن الابداع » التى تتبع قيـــادة الأقلية المبدعة .

ولكن عند ما تنهار الحضارة ، يبطل فعل فتونها ؛ فيصبح البرابرة معادين لها . ويقوم خط حدود قد ينتقل موغلا فى الابتعاد ؛ ولكنه فى النهاية يستقرّ فى مكان واحد . فإذا ما وصلت الحال هذه المرحلة ، يغدو الوقت فى جانب البرابرة .

ويستخدم المؤلف التاريخ الهلينى لتعزيز رأيه : ويشير إلى ما ترتب عن ضغط حضارة معادية من تحول العقائد الدينية البدائية للبروليتاريا الخارجية — وهى عقائد تقوم فى الأصل على فكرة الخصوبة — إلى أديان من نوع « عصابة الحرب الأوليمبية الإلهية » .

ويعتبر شعر الملاحم ، أبرز إنتاج البروليتاريات الخارجية .

٥ — البروليتاريات الخارجية للعالم الغربى :

يستعرض المؤلف تواريخ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربى ، ويوضّح ردود فعلها العنيفة والوديعة . ويردّ إختفاء البربرية من النوع التاريخى من العالم الغربى تقريبا ، إلى الكفاية المادية الساحقة للمجتمع الغربى .

ومع ذلك فإن بربرية أفظع قسوة ، قد انتشرت فى المراكز القديمة للمسيحية الغربية نفسها .

٦ — مصادر الإلهام الوطنية والأجنبية :

تواجه الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية عراقيل مختلفة عند استمدادها إلهامها من مصدر أجنبي عنها . مثال ذلك الدول العالمية التى

تؤسسها أقليات مسيطرة أجنبية (مثل الهند أيام خضوعها للبريطانيين ، أقل توفيقا فى اجتذاب رعاياها . إليها ؛ عكس الدول العالمية الوطنية مثل الامبراطورية الرومانية . وتستثير عصابات الحرب البربرية مقاومة أشد عنادا وأعظم حماسا ، إن كانت نزعتها البربرية — مثل الهكسوس فى مصر أو المغول فى الصين — مصطبغة بتأثير حضارة أجنبية .

ومن الناحية الأخرى تدين بصفة عامة الأديان العليا التى تنجبها البروليتاريات الداخلية ، بجاذبيتها ، إلى إلهام أجنبى المصدر ، وتبرهن هذه الحقيقة ، جميع « الأديان العليا » تقريبا .

وتبدى الحقيقة القائلة بعدم إمكان استيعاب تاريخ « الدين الأعلى » إلا بدراسة حضارتين : الحضارة التى استمد منها إلهامه والحضارة التى تأصّلت فيها جذوره ؛ تبدى أن الفرض الذى قامت على أساسه هـــذه الدراسة — (أى الفرض القائل بأن الحضارات إن أخذت بمفردها هى ميادين واضحة للدراسة) — فرض ينهار عند هذه النقطة .

الفصل التاسع عشر — الانشقاق داخل الروح

١ — طرائق بديلة فى السلوك والشعور والحياة :

عندما يبدأ مجتمع فى التحلل ، يحل محل الطرائق المختلفة للسلوك والشعور والحياة — ويتميّز بها الأفراد خلال مرحلة الارتقاء — مجالات اختيار أخرى ، إحداها (المذكور أولا فى كل زوج) سلبى ، والآخر (الأخير) إيجابى .

ويعتبر « التراخى » و « ضبط النفس » مجالى الاختيار البديلين للابداعية . ويعتبر « الشرود » و « الاستشهاد » مجالى الاختيار البديلين لاتّباع « المحاكاة » .

وإن الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة ، هما مجالا الاختيار البديلين للابتداع الحيوى الذى يصاحب الارتقاء . وإن الشعور بالابتذال والشعور بالاتحاد ، هما مجالا الاختيار البديلين للشعور بـ « أناقة الأسلوب » ؛ الذى يُعتبر بدوره الصفة الذاتية المقابلة للعملية الموضوعية للتمايز ؛ وهى عملية تصاحب الارتقاء .

ويوجد على سطح الحياة ، زوجان بديلان من التغيّرات على الحركة المتجهة نحو تحويل ميدان الحركة من الكون إلى الإنسان . ويضم ذلك بين ثناياه ، عملية سبق أن وصفناها بأنها « الأثيرة » .

ويعجز الزوج الأول من البديلين — أى السلفية والمستقبلية — عن انجاز هذا التحوّل ، ومن ثَمّ يولّدان العنف .

أما عن الزوج الثانى — أى الاعتزال والتجلّى — فإنه يوفّق فى إنجاز التحويل . ويتسم بالدعة .

وتسعى السلفية إلى « إرجاع الساعة إلى الوراء » . أما المستقبلية ، فإنها محاولة لسلوك طريق قصير لتحقيق عالم على الأرض يستحيل تحقيقه عملياً .

أما الاعتزال ، وهو الارتقاء الروحى للسلفية ، فإنه هجران لعالم الحياة .

أما التجلّى — وهو الارتقاء الروحى للمستقبلية — فإنه فعل تقوم به النفس التى تُنجب « الأديان العليا » .

ويورد المؤلف أمثلة لجميع طرائق الحياة الأربع ويبين علاقاتها بعضها بالبعض الآخر .

وأخيراً ؛ يُظهر المؤلف أن بعضا من طرائق الشعور والحياة هذه ، هو أساساً مظهر مميز للنفوس فى الأقليات المسيطرة :

ويعرّف المؤلف التراخى وضبط النفس ويورد الأمثلة .

ويعرّف المؤلف الشرود والاستشهاد ويورد أمثلة .

٤ – الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة :

يُردّ الشعور بالانسياق إلى إحساس بأن العالم بأسره تحكمه « المصادفة أو الضرورة » ويدل المؤلف على تماثل الكلمتين : ويفسّر مجال الإيمان المتسع الأرجاء ، ويُبدى أن طائفة من العقائد الدينية القائلة بالجبر – مثل مذهب كالفين – تتسم بتوليدها طاقة وجرأة أخّاذتين : ويبحث المؤلف تلك الحقيقة التى تبدو غريبة لأول وهلة ،

وبينما يعمل الشعور بالانسياق عادة مُسكّنا ، فإن الشعور بالخطيئة ينبغى أن يعمل حافزاً .

ويبحث المؤلف مذهبي « الكارما » و « الخطيئة الأصلية » (التى تجمع بين فكرتى الخطيئة والحتمية) . وفى المثال التقليدى للاعتقاد بأن الخطيئة هى العلة الحقيقية – وإن لم تكن الظاهرة – للكوارث القومية ؛ أخذت الكنيسة المسيحية بتعاليم أنبياء اليهود هذه ، وطفقت طوال قرون عدة تقدّمها للعالم الهلينى الذى كان يُعدّ نفسه قروناً كثيرة لقبولها دون أن يشعر .

وإنه وإن كان المجتمع الغربى قد ورث التقليد المسيحى ، لكن لعله أصبح ينزع إلى نبذ مسألة الشعور بالخطيئة ، وهو جانب جوهرى من هذا التقليد .

٥ – الشعور بالابتذال :

يعتبر هذا بديلا للشعور بـ « أناقة الأسلوب » الذى هو سمة الحضارة فى سياق ارتقائها . ويتبدّى فى طرائق مختلفة :

(ا) السوقية والبربرية فى طرائق السلوك — فإن الأقلية المسيطرة تُظهر نفسها مكبّة على « الاتجاه البروليتارى » متخذة سوقية البروليتاريا الداخلية ، وبربرية البروليتاريا الخارجية ؛ إلى أن يحدث فى المرحلة النهائية للتحلل ، أن تصبح طريقة حياة الأقلية المسيطرة ، لا يمكن تمييزها عن طريق حياة البروليتاريين .

(ب) السوقية والبربرية فى الفن — هو الثمن الذى يؤدى فى العادة للاستفادة الواسعة الخارقة للعادة ، لفن حضارة متحللة .

(ج) اللغات العامة — يقود امتزاج الشعوب إلى البلبلة والمنافسة المتبادلة بين اللغات . وينتشر كلغات . ويسبب انتشارها ، حدوث انحطاط يقابل درجة انتشارها . ويورد المؤلف أمثلة وتفسيرات عدة .

(د) التركيب فى الأديان — يميّز فى هذا الشأن ثلاث حركات هى :

اندماج المدارس الفلسفية — اندماج العقائد الدينية المنفصلة (مثال ذلك تخفيف مذاق دين إسرائيل بمزجه بالعقائد المجاورة . وهى حركة عارضها الأنبياء العبرانيون معارضة قيّض لها النجاح فى النهاية) — امتزاج أو التركيب بين المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية وبعضها بعضا .

ولما كانت المذاهب الفلسفية ، نتاج أقليات مسيطرة ، والأديان العليا هى نتاج البروليتاريات الداخلية ؛ فإن التفاعل هنا شبيه بما ورد فى الفقرة (ا) . ويظهر هنا مثلما ظهر هناك ، أنه رغما عن أن البروليتاريين يتحركون بعض الشىء نحو الأقلية المسيطرة ، تتحرك الأقلية المسيطرة مقداراً أكبر كثيراً نحو موقف البروليتاريا الداخلية . ومن قبيل المثال ؛ أن الدين المسيحى يستخدم أداة الفلسفة الهلينية فى تأويلاته اللاهوتية ؛ بيد أن هذا يعتبر ترخصاً صغيراً ، إن قورن بالتحول الذى طرأ على الفلسفة اليونانية فى غضون الفترة بين عصرى أفلاطون ويوليان .

(هـ) الأمير يعيّن الدين ــ هذا البحث جاء استطراداً لبحث موضوع الإمبراطور الفيلسوف يوليان الذى أشير إليه فى الموضع السابق .

فهل فى وسع الأقليات المسيطرة أن تعالج ضعفها الروحانى باستخدام السلطة السياسية لفرض الدين أو الفلسفة التى تختارها ؟

مناط الإجابة ، أن الأقليات المسيطرة تفشل فى هذا السبيل ، ما خلا حالات استثنائية فإن الدين الذى ينشد تأييد القوة ، يصيب نفسه بهذا العمل بضرر بالغ . والاستثناء الوحيد الملفت للنظر ، انتشار الإسلام . ولكن يدلّ تعمّق البحث هنا أيضاً على معنى الاستثناء فى حالة انتشار الإسلام من هذه القاعدة .

ولعل الصيغة المضادة وهى « دين الشعب دين الأمير » أقرب للحق . فإن حدث أن اعتنق الحاكم ــ سواء بدافع الاستخفاف أو الإيمان ــ عقيدة أتباعهالدينية ، فإن الإجراء يقود إلى توطيد ملكه .

٦ ــ الشعور بالاتحاد :

هذا هو « مضاد » إيجابى الطابع للشعور بالابتذال السلبى الطابع . ويعبّر الشعور بالاتحاد عن نفسه فى صورة مادية ، فى إيجاد الدول العالمية ؛ ويلهم الشعور بالاتحاد ، إدراكاً يسود كل شىء وإدراكا بوجود إله حاضر فى كل مكان محيط بكل شىء متسلّط على العالم .

ويبحث المؤلف هذه الآراء ويفسّرها .

ويعرض المؤلف فى سياق موضوع الكائن الألهى الكلى الوجود ؛ إلى سيرة « يا هوى » إله العبرانيين « الغيور » ؛ منذ بداية ظهوره جنّيا فى بركان من براكين سيناء ، إلى ارتفاع شأنه فى نهاية المطاف ، واعتباره الحامل التاريخى لفكرة صافية متدرجة عن « الإله الواحد الحق » الذى تعبده الكنيسة المسيحية ؛

ويقدم المؤلف تفسيراً لانتصار ياهوى على جميع منافسيه .

٧ — السلفية :

هي محاولة للفرار من حاضر لا يمكن احتماله ، عن طريق إعادة تشييد مرحلة سابقة من تاريخ حياة مجتمع متحلل .

ويقدّم المؤلف أمثلة قديمة وحديثة . وتشتمل الحديثة على إحياء النزعة القوطية ، والإحياء الاصطناعي للغات انقرضت كلياً أو جزئياً لأسباب الروح القومية .

وخلص المؤلف إلى القول بأن الحركات التي تنزع صوب السلفية . هي في الغالب إما عقيمة أو تستحيل إلى نقيضها ، أي إلى « مستقبلية » .

٨ — المستقبلية :

هي محاولة للفرار من الحاضر ، بالقفز إلى ظُلمة مستقبل مجهول . وتقتضي محو الروابط التقليدية مع الماضي ؛ فهي في الواقع نزعة ثورية . وتعبّر عن نفسها في الفن ، في نزعة تحطيم المقدسات .

٩ — التسامي الذاتي للمستقبلية :

إذا كانت السلفية تتردى في هوّة المستقبلية ، فإن المستقبلية قد تصعد إلى قمم التجلّي . وبعبارة أخرى ، تنبذ المستقبلية المحاولة البائسة للعثور على مجتمعها المثالي في المجال الدنيوي ، وقد تنشده في الحياة الروحية ، دون أن يعوقها الزمان والمكان .

ويبحث المؤلف في هذا الشأن ، تاريخ اليهود بعد الأسر البابلي . وقد عثرت المستقبلية عن ذاتها في سلسلة من المحاولات الانتحارية لإيجاد امبراطورية يهودية على الأرض . محاولات بدأت منذ أيام زروبابل حتى باركوباكا ؛ وانتهت أخيراً باعتناق فكرة التجلّي التي تقوم عليها العقيدة الدينية المسيحية .

١٠ – الاعتزال والتجلّى :

يعنى الاعتزال ؛ اتخاذ موقف يجد أصلب وأسمى تعبير عنه ، فى تعاليم البوذا . إن نتيجتها المنطقية هى الانتحار . ذلك لأن الاعتزال العام ممكن للإله وحده . أما الدين المسيحى فإنه ينادى بإله نبذ مختارا اعتزالا كان من الواضح أنه يستطيع أن يستمتع به لو شاء . وهذا الإله « يحبّ العالم كثيراً » .

١١ – جدّة المولد :

إن التجلّى – من طرائق الحياة الأربع التى بحثت هنا – يعتبر الطريقة الوحيدة التى تهئ طريقا موصّلا لسالكيه ؟ ويتم بفضل نقله ميدان الفعل من الكون الأكبر إلى الكون الأصغر (أى الإنسان) .

ويصدق هذا بالمثل على الاعتزال . مع فارق أنه بينما الاعتزال لا يعتبر إلا حركة انسحاب فحسب ، فإن التجلّى حركة انسحاب وعودة ؛ هى جدّة المولد .

لكن جدة المولد هنا لا تعنى إعادة ميلاد مثال آخر لنوع قديم ، لكنه يعنى ميلاد مجتمع من نوع جديد .

الفصل العشرون — العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

١ – العبقرى المبدع مخلّصا :

ينزع أفراد مُبدعون فى مرحلة الارتقاء ، استجابات ناجحة لتحديات متعاقبة . ويُظهرون فى المرحلة المتحللة مخلّصين للمجتمع المتحلل ، أو مخلّصين منه .

٢ – المخلّص الممتشق حساما :

هم مؤسسو الدول العالمية ومعاضدوها . لكن جميع أعمال السيف فانية .

٣ – المخلّص صاحب آلة الزمان :

هم أصحاب نزعتى السلفية والمستقبلية . ويلجأون إلى السيف كذلك ، ويُلاقون مصير ممتشق السيف .

٤ – الفيلسوف فى قناع ملك :

هو علاج أفلاطون المشهور : ويصيبه الاخفاق من جراء التناقض بين اعتزال الفيلسوف ، وطرائق القهر التى يستخدمها الزعماء السياسيون .

٥ – الإله المتجسّد فى إنسان :

يُبين المؤلف كيف تختنق المحاولات الناقصة ، وينتصر يسوع الناصرى وحده على الموت .

الفصل الحادى والعشرون – إيقاع التحلل

يمضى التحلل قُدُماً ، لا بصورة متجانسة – ولكن بفعل تعاقب – كسرات ونهضات .

ومن قبيل المثال :

يعتبر إنشاء الدولة العالمية ؛ نهضة بعد الكسرة التى حدثت فى عصر اضطرابات : ويعتبر تفكك الدولة العالمية كسرة نهائية . ولما كان يوجد عادة نهضة تعقبها كسرة فى سياق عصر اضطرابات ، كذلك توجد كسرة تعقبها نهضة فى تاريخ دولة عالمية . فيبدو أن الإيقاع المألوف هو كسرة – نهضة – كسرة – نهضة – كسرة – نهضة – كسرة ؛ أى ثلاث دقات ونصف دقة .

ويصوّر هذا النمط فى تواريخ مختلف المجتمعات المندرسة ، ثم يطبق

على تاريخ مجتمع المسيحية الغربية من زاوية تحقيق مرحلة النمو التى بلغها هذا المجتمع .

الفصل الثانى والعشرون — توحيد المقاييس

إذا كان التمايز هو سمة الارتقاء ؛ فإن توحيد المقاييس هو علامة التحلل .

ويختم المؤلف بحثه بالإشارة إلى المشكلات التى يترك بحثها للأجزاء الآتية من الدراسة .

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	٨	ارتقاء	الارتقاء	١١١	١٨	المالية	العالمية
١١	١١	لتجذ	لتحد	١١٥	١٤	عام	عالم
١٣	١٣	صاب	أصاب	١٢٧	١١	المماملين	العاملين
١٤	٢٣	الأمير	الأمر	١٣٥	١١	تمثله	تمثلها
١٧	٤	منــه	من	١٤٦	٤	يحف	يحف بها
٢٠	١٨	للروج	لروح	١٤٨	٦	نستشهد	تستشهد
٢٢	١٠	عكسية	عكسها	١٥٢	١٢	ومرد	ويرد
٢٩	٢٣	للآفاق	للأفاق	١٥٢	١٤	السيطرة	المسيطرة
٤٩	٣	سمح لهم	سمح لها	١٥٤	١٣	يتزايد	يتزايد
٤٩	١٦	هذه الأقليات	على هذه الأقليات	١٥٥	١١	نسلك	تسلك
٥٣	٢	تمثليات	تمثيليات	١٥٧	٢	هادئة	بالهدوء
٥٦	١	حقة	حقه	١٥٨	١٤	الحديد	الجديد
٥٦	٢	حقه	حقها	١٦٣	٩	للنمو	النمط
٥٦	٢	بدورهم بإنكارهم	بدورها بإنكارها	١٦٤	٢٠	الفرس	للفرس
٦٤	١٣	الذى بيتدمونت	الذى ألمبيدمونت	١٦٦	٢١	فى مجموعة	فى مجموعه
٦٦	٢٠	لا تحتويان	تحتويان	١٦٧	١٧	الأسف	وتتئد
٧٣	٢	هذا الكثير يمكن	لدينا الكثير مما	١٦٩	٢	نتصل	تتصل
		قوله	يمكن قوله	١٧٥	٨	تلغنهم	تلقيهم
٧٤	٢٣	لا يمكس	لا يعكس	١٧٧	٢٠	يعذب بالأمل	يغذى الأمل
٧٦	١٢	أصيبت إصابة	أصيبت	١٨٤	١٧	اعتبارها	اعتبارها
٧٦	١٤	أنجزتها	أنجزتها	١٨٦	١٣	اللادونيوية	اللادنيوية
٨٦	٦	ففى التطور	فبالنسبة للتطور	١٨٦	٢٣	المنفيين	لمنفيين
٨٧	١	تكييف	لتكييف	١٨٧	٥	الأيرانيون	الإيرانيون
٨٧	٩	والتباحث	والبطيء	١٨٧	٢٢	أبد	رب
٨٩	٨	رأم	وأمم	١٩٠	٥	الشــطورية	النســطورية
٨٩	٢٤	ceud'ine	Outline			الميونفيشتية	والمينوفيستية
٩٤	٤	الحاق	الحاق	١٩٤	١	وأصبت	وأصبحت
٩٥	١٧	المقادر	المقادير	١٩٥	١	الذكريين	الذكرين
١١٠	٢٢	على به	على هذا	٢٢٥	١٨	السبب	السهب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢٨	١	نظير	نظيراً
٢٢٨	١١	لضمر	لشمر
٢٣٠	١٦	المجتسمات	المجتمات
٢٣٤	٧	عالم عربى	عالم غربى
٢٤٣	١٤	تمهد	تميد
٢٦٣	٨	السلطة	السلفية
٢٦٣	١٤	السلطة	السلفية
٢٦٤	٧	القدمية	السلفية
٢٦٦	٢١	دون كيروت	دون كيشوت
٢٦٧	٢١	فعل بارز عقيم	فعلا بارزاً عقيماً
٢٦٧	٢٤	حلا على الأسلوب	حلا على الأسلوب الذى
٢٧٤	١٢	بين تضاعف	بين تضاعيف
٢٧٧	٢٠	يدأ	بدا
٢٧٨	٢٠	النزع	النزع
٢٨٢	١٩	الفاسفى	الفلسفى
٢٨٣	٨	ويحتمل	يحتمل
٢٨٤	١١	الرنج	الربح
٢٨٦	١٤	هذا على	على هذا
٢٨٨	٥	الأسمى	العليا
٢٨٨	١٢	قكرة	فكرة
٢٩١	١١	هى ت التى أد	هى التى أدت
٢٩٢	١٤	أو	إذ
٢٩٤	٢٢	الجومون	المجرمون
٢٩٩	١	بخط هؤلاء التفكيرى العلماء	بخط هؤلاء العلماء التفكيرى
٢٥٣	٣	ساميا	سلميا
٢٥٣	١٧	مصدر	مصادره
٣٥٧	٤	بعيداً	بعيد
٣١٠	١٤	جوس	حرس
٣١٦	٦	أن نصرح بأن	(تشطب)
٣١٧	١٨	مستقى	متقفى
٣٢٣	٢	الثوراة	التوراة
٣٢٥	٢١	الشموت	الشموب
٣٢٦	١٥	الذى مجال	الذى كان مجال
٣٢٦	٢٧	الأمن	الأمر

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٢	١٩	أن فكرة	فكرة
٣٣٤	٢٤	Logas	Logos
٣٣٥	١	قنوم	أقنوم
٣٣٦	٩	عنا غالبا	ثمناً غالياً
٣٤٠	٥	الفلسقية	الفلسفية
٣٤٠	٢١	تماوى	تهاوى
٣٤١	٤	المخرمة	المضطرمة
٢٤٤	١٣	عصر	فى عصر
٣٤٤	٢٢	أعفت	أنهت
٣٥٢	٣	أعتى	أعى
٣٦١	٦	خلقت	خلفت
٣٦٧	٧	التترق	التوق
٣٦٨	٧	عطفى	عاطفى
٣٦٩	٣	يستق	يستقيم
٣٨٣	٦	الطبيح	الطابع
٣٨٤	٩	نعتبر	تعتبر
٤٠٢	٢	ذلك	كذلك
٤٠٤	١٦	فى إعادة	بإعادة
٤١٠	٣	تقود أولئك أصحابها	تقود أصحابها
٤١٨	٣	للمثلين	للممثلين
٤١٨	١٦	مبتاعا	مبناها
٤٢٤	١٣	سبيل	فى سبيل
٤٢٩	٢٢	تمضى سبيلها	تمضى فى سبيلها
٤٣٠	٦	لا بأخرى	بأخرى
٤٣٤	١	يفضل أن	يفضل
٤٣٥	٤	أولئك	أولئك الذين
٤٤٠	١	برفق	رفق
٤٤١	٣	اللذين بينه	اللذين حالا بينه
٤٤٨	٣	ظهور	ظهور
٤٥٤	٢	إثيان	إتيان
٤٥٧	١	لمرارة	المرارة
٤٥٨	١	قدموا	أقدموا
٤٥٩	١٩	مثو	مثير
٤٦٥	٦	فيزوز	فيروز
٤٦٥	١٦	المتحلل	التحلل
٤٧١	٦	نقيضاً	نقيضى

فهـــرس

الجزء الثانى من « دراسة للتاريخ »

الموضوع	صفحة

الباب الخامس

الإشــــــراف اللغــــــوى : **حسام عبد العزيز**

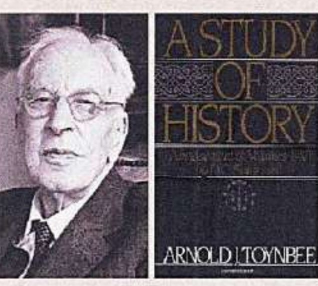
الإشـــــراف الفـــــــنى : **حــســن كــامـــل**

التصميم الأساسى للغلاف : **أســامــة العــبـد**

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة







يذهب توينبى فى هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية.

يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهيار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبى يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرده بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبى أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك